
النظرية
الفرعونية
في الإعلام
وسائل استبداد وتضليل وطغيان
تأليف
الدكتوره سهام الشجيري
شادلي عبد الحق

النظرية الفرعونية في الإعلام

وسائل استبداد وتضليل وطغيان

تأليف

الدكتورة سهام الشجيري

شـادلي عبد الحـق

رقم الايداع : 2019/16884م

الترقيم الدولي: 6 - 01 - 6723 - 977 - 978

دار حميثرا للنشر الطبعة الاولى 2020

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية والسودان وشمال افريقيا ودول الخليج

جمهورية مصر العربية - القاهرة 26 ش شامبليون

ت : 01113664737 - 01007420665

البريد الالكتروني : Email : homysra@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة غافر: 92

الإهداء

إلى

ضحايا التضليل والارهاب والطغيان

المقدمة

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(سورة يوسف الآية:111)، إن المتمعن في هذه الآية الكريمة يجد أنها تحمل من المعاني الكثير، لما للقصص القرآني من أهمية بالغة في توجيه المرء إلى إتباع سبل الطريق القويم، والنهج السليم، فالقرآن الكريم كله خير: فقارئه وسامعه ومتدبر معانيه والمستشفي به والعامل به والحاكم به، كلهم جميعا يعمهم خيره وبركته، ومن مظاهر إعجازه أن معانيه صالحة لكل زمان ومكان، فهو يحمل صدق القول والفعل والعمل ورسالته خالدة، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتدبر القرآن وتفهمه فقال: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ (سورة محمد الآية: 24)، ففي تدبر معانيه فائدة عظيمة وجليلة، وذلك بمعرفة سبيل الحق والعمل به وسبيل الباطل والسعي إلى اجتنابه، والباحث المدقق يجد في القرآن الكريم فسحة عظيمة للبحث والتمحيص، فالبحث فيه يعد أصدق علم، وأعظم نور أنار به الله عز وجل درب العلماء، فكم من مؤلفات كبيرة كتبت سواء كان منبعها تحدث عن القرآن الكريم، أو منبعها من القرآن الكريم في حد ذاته، وكم من مؤلفي هذه الكتب العظيمة وُصِفوا بكبار العلماء والمؤلفين، فإن دلِ على شيء دلِ على صدق منهجه وعظم ما جاء فيه.

وقد أرتأى صاحبا هذا الكتاب الولوج بالبحث في أعماق أعظم قصة من قصص القرآن الكريم وأصدقها تجسيدا للظلم والطغيان، قصة فرعون الطاغية الذي أصبحت نظريته الاستبدادية مثلا يضرب في الاستبداد عبر التاريخ البشري، والامتداد اللافت لهذه النظرية عبرالأماكن والأزمان بتجسيد شتى صور الظلم والتضليل والطغيان وإن كانت الوسائل تختلف بإختلاف العصور والبلدان، ومن أكثر من جسدها الإعلام الذي أصبح يمثل صورا من صور الفرعنة ووجها بارزا من أوجه الاستبداد والتضليل والطغيان، لذلك يضع المؤلفان بين يدي القارئ هذا الكتاب لكي يستشف معاني النظرية الفرعونية في الإعلام وكيف أصبح يجسد وسائل للاستبداد والتضليل والطغيان، وليكون إضافة قيمة للمكتبة العربية التي

تفتقر لمثل هذه الموضوعات المهمة، سائلينِ من المولى عز وجل في ذلك التوفيق والسداد، وقد كنا دائما ماتزاحم رغباتنا وأفكارنا العلمية أفكار تطبيقية، تخضع للتجربة والمران، لنصدقها ولنعمل بها ومن خلالها نشتغل لرصد الرسائل الإعلامية ومتبنيات التناول الإعلامي، من هنا اتفقنا معا بممازحة زملاء العمل وسردنا كل مرة حادثة غريبة عنا أو عن غيرنا، خاصة إذا كانت الحادثة لفعل سيئ مثلما روينا لزملاء وزميلات العمل ذات صباح عن حوادث اغتصاب، وأخرى عن شراء البسة مستعملة تقتنيها أسر محدودة الدخل، أو نسرد صفاتنا لنعلن عن شغفنا وهوسنا في النفاق والحديث عن الأخرين بسوء بغيابهم، وروايات أخرى عن مختلف القضايا، أدمنا لأشهر نتحدث عن كل تلك القضايا وغيرها، ونلصقها بنا، كان كل من نسرد له واحدة من هذه الروايات يصدقها بسرعة، ويمضي يتحدث بها للأخر دون تمحيص أو تفكير، أو البحث عن الحقيقة، ودون التأكد منا بأفقر الحالات، ليس ثقة بكلامنا فحسب بل لأنهم يصدقون السيئ ولا يتداولون الحسن، من خلال ذلك أكتشفنا أن كل ما تقوله وسائل الإعلام يتم التسليم به وكأنه حقيقة، خاصة ما يتم تداوله عبر مواقع التواصل الاجتماعي، والمواقع الالكترونية جميعها، ووجدت أن وسائل الإعلام وجدت لخطابها حفريات التواصل مثلما فعل فرعون بإستبداده وطغيانه وجبروته في التأثير بالناس، والمساس بحياتهم وفاعلية طغيانه بمقدراتهم ومصائرهم، والملاحظة العجيبة المطردة في قصص القرآن أنِ الذين كانوا يقودون الكفار في مواجهة الأنبياء هم الملأ المستكبرون، فنوح عليه السلام واجه الملأ الذين كفروا من قومه، وهود عليه السلام واجه الملأ من قومه، وصالح عليه السلام واجه الملأ من قومه، وكلِ نبي واجه الملا من قومه، وحتى الأنظمة المعاصرة تعتمد على "الملأ" في حكمها، وهذه الظاهرة واضحة للعيان، وإن كانت في الأنظمة المعاصرة أكثر أهمية، وأعمق رسوخا وإنتشارا، وأشد تأثيرا وخوفا ورعبا! ومثله تفعل وسائل الإعلام في رسائلها وتناولها لمختلف القضايا.

يقول عبد الرحمن الكواكبي: الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان، فيسوق الناسَ إلى اعتقادِ أن طالب الحق فاجر، وتاركِ الحق مطيع، والمشتكي المتظلم مفسد، والنبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح، ويُصبح كذلك النصح فضولا، والغيرة عداوة، والشهامة عتوا، والحمية حماقة، والرحمة مرضا، كما يُعتبر أن النفاق

سياسة، والتحايل كياسة والدناءة لطف والنذالة دماثة!! كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي: «لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست في ما نستحق من رغائب، بل في ما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية، بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها من نقائص تعتري كل شعب نائم» من هنا فأن العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية أصبحت ذات تأثير واضح وملموس في تشكيل الرسالة الإعلامية وبما يتناسب مع ميول وإتجاهات المرسل مما أدى الى البعد عن الحيادية والموضوعية في نقل الحدث، وحين داهمت حياتنا وفضائنا التكنولوجي وجدنا انفسنا بين فكي الرغبة وفي ثنائيات أضفت عليها لبوسات إيديولوجية تتلون بها في كل وقت وحين، غرست في همومنا العلائقية أبر التحدي وعنفوان الصلف، ممسكين بجمرة التقاليد والقيم والأخلاق، مثلما توارثت الأجيال عبر التاريخ كلمة فرعون، وأصبح لها معنى خاصٌ يعي الجميع مدلوله وما تحتويه هذه الكلمة بمجرّد نطقها من صفات العلوّ والكبر والعظمة والبطش وتقديس وعبادة الذات، وإذلال الناس، والقضاء على المخالفين والمصلحين؛ إما بالقتل أو السجن او الإبعاد والتشريد، كل هذه الصفات المظلمة ترتسم في الذهن مباشرة عندما يُذكر هذا الاسم البغيض: "فرعون"، نموذج الطاغية المتجبِّر المفسد في الأرض، الذي تلاحقه اللعنات مع مطلع الشمس ومغيب النجوم؛ لطغيانه وتجبُّره وإفساده، والفكر الفرعوني هو فكر يقتل الفكرة في الدماغ ويعدم الكلمة في الفم وعلى اللسان ويسجن الحرية في سجن معتم، لذلك تعد وسائل الإعلام من الأدوات الفاعلة والمهمة في الفضاء العام، فهي تقترب من الفعل الفرعوني ولا تقوم فقط بنقل الرسائل والمعلومات من المؤسسات إلى الجمهور، ولكنها تحول هذه المعلومات من خلال مجموعة متنوعة من العمليات الخاصة بصناعة الأخبار لتحقيق أهداف وغايات محددة، واعتماد الجمهور عليها في تكوين إعتقاده وإتجاهاته ومواقفه المختلفة إزاء الأحداث والسياسات التي تقع داخل الواقع المحيط به، وما يترتب عليها من سلوكيات وردود أفعال إزاء هذه الأحداث، سواء أكانت حقيقة أم مضللة.

فما قاله فرعون﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، يتجسد فيما تنقله لنا وسائل الإعلام فالشعوب المشلولة عقلا وفكرا وفهما وقيما،

ترى ما تصدره لها وسائل الإعلام وما ترشدها له، هي أمور تشهد بما طرأ من تشتيت على الحرفة الإعلامية، ومواسم تغافلها عن الانسان، اينما يكون وكيفما يكون، وأمست الرسائل الإعلامية تتأرجح بين التركيز على نحر الحقيقة أو التشفي بالرقاب المتدلية من سيوف الذباحين عبر رسائل فضائية محكمة التقنيات ومساهمين في ترويع المتلقي وخلق الرعب والخوف في نفسه، وخلق الاحساس الجمعي بالخطر، ونطاق فضائي عرى فضيلة الخطاب الموجه لتحرير القيم النبيلة وتحويلها الى قيم رذيلة لا يحترم الأنسان، بل تهديه رشاد ملوثا بدماء ابرياء أو برؤوس معلقة في أطراف الشاشات تتسابق على تعليقها بين اهداب الطفولة أو عنفوان الأبوة أو صبر الأمومة، تلك رسائل إعلامية استبدادية معجونة بطغيان الخطب الملوث والمزيف وتسعى بإستكبار واستعباد وأعتساف لهزيمة الانسان بداخلنا، الناس تصدق والحقيقة غائبة، هذا الكتاب يتحدث عن فرعون وسائل الإعلام وحريق الأوطان في قفص البرتقال، فمتى نسلم محاصيل سلة الأنسان ليبقى أنسان.

الكتاب يضم عشرة فصول، أختص الفصل الأول بمبادئ النظرية الفرعونية التي تسلط الضوء على فرعون وملئه وأدوته في الاستبداد والاستعباد والاستكبار والطغيان والاعتساف وغيرها، وجاء الفصل الثاني ليتحدث عن الاستبداد في وسائل الإعلام متكئ على الادوات الفرعونية ومثله الفصل الثالث الذي ناقش الاستكبار في وسائل الإعلام، وفي الفصل الرابع تعرضنا للإعتساف في وسائل الإعلام، ثم في الفصل الخامس أدوات الاستعباد في وسائل الإعلام، والفصل السادس تطرق الى الطغيان في وسائل الإعلام، وفي الفصل السابع التضليل في وسائل الإعلام، وفي الفصل الثامن تطرقنا الى الصورة وفق صورولوجيا الاستبداد والطغيان، وفي الفصل التاسع الكراهية والعنف في وسائل الإعلام، وفي الفصل العاشر دوافع تطبيق النظرية الفرعونية في وسائل الإعلام.

أ.م.د.سهام الشجيري

شادلي عبد الحق



الفهرس

المحتويات	الصفحة
المقدمة	7
الفصل الأول: مبادئ النظرية الفرعونية	17
الاستبداد	19
أوجه الاستبداد في النظرية الفرعونية	21
استبداد فرعون بالرأي	22
استبداد فرعون برأيه أدى إلى إضلال القوم وإهلاكهم	25
إضلال القوم	26
إهلاك القوم	28
الاستبداد بالفعل	32
الاستكبار	39
الاستكبار في الأرض	42
الاستكبار في النفس	46
الاسكتبار عن الآيات	49
الدوافع التي أدت لتطبيق النظرية الفرعونية	52
غلبة الخوف على الملك	53
غلبة الخوف على السلطان	61
وقوف الأتباع والمتبوعين إلى جانب باطل فرعون	69
المتبوعون من قوم فرعون	70
الأتباع المستضعفين من قوم فرعون	81
الوسائل التي اعتمدها فرعون لتطبيق النظرية الفرعونية	88
وسائل القهر والاستبداد / القتل والتعذيب والسجن	88
وسائل التضليل والتجهيل/ التسلية واللعب واللهو	97
الاستهزاء والسخرية	100

المحتويات	الصفحة

الكذب والافتراء	103
مجالس المراء والمجادلة	110
السحر الإعلامي	114
السحر الإعلامي الكلامي	117
السحر الإعلامي المشهدي	118
العنف الكلامي	122
الوسائل التي اعتمدها موسى -عليه السلام- لمواجهة النظرية الفرعونية	127
الفصل الثاني: الاستبداد في وسائل الإعلام	135
الاستبداد بوصفه منطق للسيطرة على الخطاب الإعلامي	142
الاستبداد العبودي والغوغائي للإعلام	146
الاستبداد الافلاطوني مقابل الاستبداد الإعلامي	149
الاستبداد الإعلامي المنظم	150
وسائل القهر والإستبداد في وسائل الإعلام	152
سوق الافكار المستبدة	156
سيادة الإعلام وسيطرة السلطة	161
الاستبداد والنظم الإعلامية المتعددة	165
الاستبداد بإعلام الطفل	170
الاستبداد والإغراق الإعلامي	172
الاستبداد والخداع الإعلامي	176
الإستبداد وإنتهاك اللغة واتقان أساليب الإقناع	178
الاستبداد وتزييف الوعي وتغييبه في الخطاب الإعلامي	181
الاستبداد الإعلامي والمرأة	185
أوجه الاستبداد في النظرية الفرعونية	188
استبداد فرعون برأيه أدى إلى إضلال القوم وإهلاكهم	190
استبداد الانفراد بالسلطة والسلطان	191

المحتويات	الصفحة
التعذيب والتقتيل	194
الاستبداد بالخوف	194
أوجه الاستبداد في وسائل الإعلام	195
تجاهل أو تأخير الإهتمامات الحقيقية	195
التهوين	197
التهويل والتضخيم	198
الدعاية والإثارة	200
الفصل الثالث: الاستكبار في وسائل الإعلام	203
الآلة الإعلامية ومضمون الاستكبار	207
حراس السلطة وعصا الاستكبار	208
تغليف الواقع واستكباره	214
إعلام الفضائح واستكباره	216
الاستكبار الإعلامي بين أبلسة الخصم وشيطنته	219
الكلب أذكى من ذيله	221
وسائل الاستكبار منافذ للرسائل الإعلامية	223
الاستكبار وبنية سيادة الصراخ	225
حرب الكلمات والاستكبار تجاه المتلقي	230
الاستكبار ولطخة الطين	231
حجب المعلومة عن الجمهور وعلاقته بالاستكبار	233
إثارة الدهشة والاستكبار	236
الحقيقة مفهوما نسبيا	245
الفصل الرابع: الاعتساف في وسائل الإعلام	253
تزييف الوعي الجمعي	257
الفوبيا الإعلامية	259
الاعتساف عبر نشرات الاخبار	260

المحتويات	الصفحة
الاعتساف الإعلاني في الفضاء العام	262
البث الدموي سيرك لأخلاقنا	265
معادلة الاعتساف وبناء الثقة	268
تغطية الأحداث أم الترويج لها	273
بناء الحواجز أم الصدام الثقافي	276
علائقية التواصل بين الإعلام والارهاب	282
صناعة التزييف	290
الفصل الخامس: الاستعباد في وسائل الإعلام	**293**
معارك الفضاء الإعلامي	296
فساد الإعلام أم فساد الذمم	298
عصر لمحة البصر وتسليع الثقافة	305
التلوث المعلوماتي وعلاقته بالاستعباد	316
وسائل الإعلام واستعباد الجمهور	321
حجب المعلومة على المستوى الإعلامي	329
الاستعباد والاستبعاد	330
أصطياد الفضائح	334
الأدوار البديلة والاستعباد في وسائل الإعلام	347
البيئة الاتصالية الجديدة وسياسة الشد والجذب	349
الفصل السادس: الطغيان في وسائل الإعلام	**353**
الطغيان في وسائل الإعلام	353
الطغيان الفرعوني والطغيان الإعلامي	357
أسباب الطغيان الداخلية	359
أسباب الطغيان الخارجية	360
الطغيان نماذج وصور	362

الصفحة	المحتويات

بين الظلم والطغيان 365
هزائم الفرعونية وغنائم الإعلام 368
الأوهام الإعلامية للطغيان 371
طغيان الاستهلاك الإعلامي 373
تشويش الدلالة اللفظية وعلاقته بالطغيان 379
أنواع الطغيان 383
الإعلام وصناعة روح الشعوب 386
الفصل السابع: التضليل في وسائل الإعلام 389
تغول المال في صناعة التضليل 393
أساليب التضليل الإعلامي 396
اختراع الألفاظ الكبيرة للمهو 399
خبراء التحوير والتضليل 405
وسائل التضليل والتجهيل 413
فن حجب المعلومات 416
الهيمنة والسيطرة بالتضليل 421
تضليل المشهد الإعلامي 424
تغذية الميديا بالتضليل 429
الفصل الثامن: صورولوجيا الاستبداد والطغيان 437
الصورلوجيا المشوهة 440
الحق في الصورة 444
تزييف الصورة وتشويهها 448
تفرعن صور الفضاء المفتوح 452
توحش الصورة وطغيانها 455
الصورلوجيا والوعي الجمعي 459
الصورلوجيا المحاكية المقلدة 462

المحتويات	الصفحة
رمزية الصورلوجيا والواقع	467
طوفان الصورلوجيا	477
الفصل التاسع: الكراهية والعنف في وسائل الإعلام	479
تجذر خطاب الكراهية والتحريض	483
الأدوار السلبية لمضامين رسائل خطاب التحريض والكراهية	485
صناعة خطاب التحريض والكراهية والعنف	488
اللغة وفعل خطاب التحريض والكراهية والعنف	489
سمات اللغة في خطاب الكراهية	491
خطاب الكراهية والتحريض في شبكة الانترنت	493
طبيعة وأبعاد خطاب التحريض والكراهية	496
سبل نشر مفاهيم الوسطية والاعتدال في البيئة الاتصالية الجديدة	500
طبيعة الفضاء الافتراضي المفتوح	504
الفصل العاشر: دوافع تطبيق النظرية الفرعونية في وسائل الإعلام	507
الشر الفرعوني	514
وجوه الإكراه	520
تجهيل الجمهور	520
القمع بالوسائل التي اعتمدها فرعون لتطبيق النظرية الفرعونية	522
صور القهر الفرعوني	528
السحر والسحرة	551
الوسائل التي اعتمدها موسى(ع) لمواجهة النظرية الفرعونية	563
وقفات الفرعونية ووقفات الطغاة والمستبدين	564
دوافع فرعون لتطبيق نظريته	572
خاتمة الكتاب	573

الفصل الأول

مبادئ النظرية الفرعونية

مبادئ النظرية الفرعونية

-الاستبداد:

يعرّف عبدالرحمن الكواكبي الاستبداد في اصطلاح السياسيين: "على أنه تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف من أية تبعة، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام "الاستبداد" كلمات: استعباد، واعتساف، وتسلط، وتحكم، ويستعملون في مقام صفة "مستبد" كلمات: جبار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق، ويستعملون في مقام وصف الرعية "المستبد عليهم" كلمات. أسرى، ومستصغرين، وبؤساء ومستنبتين"[1].

والاستبداد الانفراد بالسلطة والسلطان، في أي ميدان من ميادين السلطة، في الأسرة، أو الديوان، أو الدولة والحكومة، أو في المال، والثروة، أو في اتخاذ القرار، أو تنفيذ هذا القرار، ولأن القرآن الكريم قد سنّ للناس في اجتمعهم الإنساني سننا وقوانين لا تبديل فيها ولا تحويل سننا حاكمة للتقدم وللتخلف، للعدل والجور، للنهوض والانحطاط، فلقد تحدثت آيات القرآن الكريم على الانفراد بالسلطة والسلطان، والعدول عن المشاركة والاشتراك، هو السبيل المفضي إلى الطغيان، قطع بذلك القرآن الكريم، وأكده بأدوات التأكيد عندما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾[2]

ولقد ضرب القرآن الكريم الأمثال على صدق السنة، وعموم هذا القانون، وعلى الآثار الكارثية لسيادة هذا الاستبداد في حياة الأمم والشعوب والحضارات، ليدرك الناس أن النعمة كلها في الشورى والمشاركة والاشتراك، وأن النقمة جميعها في الاستئثار والاستبداد والطغيان، ففرعون، الذي أعتبر ملك مصر وخيراتها له هو، وليس لشعبها، فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[3] ۝﴾ فقد قادته هذه الأثرة وهذا الاستبداد

---

(1) عبدالرحمن الكواكبي ،طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد، ط2،دار الشروق ،القاهرة-مصر،2009، ص23

(2) سورة العلق:الآيات:6-7

(3) سورة الزخرف الآية:51

إلى الظلم والطغيان، الذي جعله يدعي الألوهية، ومن ثم يحتكر صناعة القرار، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[4]، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[5]ولقد كانت الكارثة هي عاقبة هذا الاستبداد الفرعوني، تلك الكارثة التي لم تقف عند فرعون وحده، وإنما شملت ملأه والنخبة التي رضيت بهذا الاستبداد، وخنعت له وشاركت فيه وربطت مصيرها بمصيره، ومن ثم لم تنتفض عليه كما صنع موسى وهارون عليهما السلام والسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى، ولم ترهبهم آلات التعذيب التي اصطنعها هذا الاستبداد، ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[6]ولأن العواقب الكارثية للاستبداد لا تقف عند المستبد وإنما تشمل الذين رضوا أو خنعوا لهذا المستبد - وذلك انطلاقا من السنة القرآنية، كانت عواقب الاستبداد الفرعوني شاملة للجميع.

وحتى يعتبر الناس بهذه العواقب الكارثية للاستبداد، شاء الله -سبحانه وتعالى- أن يجعل من بدن فرعون -بعد غرقه- آية وعبرة باقية، ليعتبر بها حتى الذين لم يشاهدوا بعيونهم عواقب هذا الاستبداد ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[7] ويشهد على هذا الاستبداد وآثاره الحوار الذي بين الصحابي «حاطب بن أبي بلتعة» - الذي حمل رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(4) سورة القصص الآية 38
(5) سورة غافر الآية:29
(6) سورة طه، الآيات:70-76.
(7) سورة يونس الآية 92

-إلى «المقوقس» والشعب المصري، فلقد ذكّر حاطب المقوقس بالاستبداد الفرعوني، وبعاقبة هذا الاستبداد، كي لا يسلك ذات الطريق، فيلقى ذات المصير، فقال ملخصا آفة الاستبداد وعاقبته في كلمات جامعة: "إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك"[8].

أوجه الاستبداد في النظرية الفرعونية

لم يكن من بين الفراعنة أعتى مثلما كان فرعون موسى منه على الله ولا أعظم قولا ولا أطول عمرا في ملكه منه، ولم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة، ولا أقسى قلبا، ولا أسوأ ملكة لبني إسرائيل منه[9]، لذلك تعددت أوجه استبداده وتنوعت لدرجة أنها أعطته دافعا قويا لترسيخ نظريته وجعلها رمزا من رموز الظلم والفساد تحت غطاء من الاستقرار الكاذب والتجانس المفبرك[10]، ولتنوع صور الاستبداد الفرعوني وبلوغه حد المغالاة بعث الله عز وجل موسى عليه السلام خصيصا لفرعون وذلك لفساد منطقه الرامي لتحقيق البقاء والمصلحة الشخصية قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝﴾[11]، وذلك على غرار الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوامهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾[12]

ويقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۝﴾[13]

ويقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۝﴾[14]

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۝﴾[15]

---

(8) عبدالرحمن الكواكبي، مرجع سابق، ص ص 9-11.

(9) أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، ط1، مج6، بيت الأفكار الدولية، الرياض، السعودية، 1994، ص130

(10) ثامر عباس، تقديس الزعامة (دراسة في ظاهرة الكاريزما السياسية)، ط1، دار ومكتبة عدنان، بغداد -العراق، 2015، ص592

(11) سورة طه، الآية 24.

(12) سورة هود، الآية: 25

(13) سورة هود، الآية:50

(14) سورة الأعراف، الآية: 73

(15) سورة هود، الآية:84

وقد اختص الله عزوجل فرعون برسالته وهذا لأنه:

-استعلى في الأرض بغير حق وتجبر.

-ادعى أنه إله دون الله يعبد.

- عاث في الأرض فسادا وظلما.

-نشر الجهل والتفرقة بين الناس وسيطر على عقولهم.

-استبداد فرعون بالرأي:

الاستبداد بالرأي هو أشد أنواع الاستبداد وطئا على الجمهور لأنه يجمد آرائهم ويجعلهم مذعنين لتفكير قاصر لشخص معين أو هيئة معينة، كما يجعل مختلف الآراء ذائبة في رأي واحد، فيؤثر بشكل متطرف على توجهات الأفراد، بالاستعانة بطرق مختلفة قصد قتل روح المشاركة والمبادرة، والأفكار البناءة، ولقد بيّن القرآن الكريم مثل هذا النوع من الاستبداد المؤثر، ليضرب مثلا في استبداد فرعون برأيه في قوله تعالى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[16] (مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ)، قال فرعون: ما أريكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحا وصوابا، (وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ)، يقول ما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب[17]، وقد جاء في تفسير الزمخشري لهذه الآية قوله: أن فرعون لما قال «مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى» أي ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى، «وَمَا أَهْدِيكُمْ»بهذا الرأي «إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» يريد سبيل الصواب والصلاح أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئا ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر[18]، وإن كان في الظاهر أن فرعون يقدم النصح لقومه في هذا المقام وأن رأيه صائب حسب زعمه، إلا أن هذا المنطق الفرعوني اتسم بكونه استبدادا مطلقا بالرأي كيف لا وقد نصب نفسه إلها وكيف يعقل -حسب نظريته الاستبدادية- لإله مثله أن يتقبل رأي الآخر! أو حتى يسمح لمن حوله من الجمهور إبداء آرائهم، فالمستبد يفرض

(16) سورة غافر الآية:29

(17) أبو جعفر الطبري ، تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (القصص-الجاثية)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، (424/6)

(18) أبو القاسم الزمخشري ، تفسير الكشاف (عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، ط3، دار المعرفة ، بيروت-لبنان، 2009، ص956

نفسه على الناس بقهرهم على ما يريد، فيصبحون ذائبين في شخصيته لتتجسد مقولة «أنا الجمهور والجمهور أنا».

فهو يتصور -وهما وغرورا- أن كلّ ما يقوله ويفعله صوابا لا شبهة فيه ولا ريبة، وهي ذات المعاني التي يروّجها كل مستبد، فكلّ ما يفعلونه حكمة بالغة ومصلحة سابغة! بينما نلاحظ انتشار الفقر والمرض والجوع والمحسوبية والرشوة والتأخر العلمي والاقتصادي، ومع هذا فإنّ الزعيم يهدي ولا يُضلّ!.

وبلغ استبداد فرعون برأيه أن حاول تقسيم مجتمعه إلى مجتمع طبقي، واللعب على ورقة الطائفية وإثارة العنصرية فيما بين أفراده قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾[19] أي قسمهم (فرقا)[20]، وهذه ميزة اتسم بها منطق فرعون الرامي إلى بث الفرقة بين قومه لاستعبادهم، وتركهم متنافرين متناحرين فيما بينهم كي يترك له المجال لتجسيد أفكاره الاستبدادية دون أن يتوحدوا ضده، أو أن يدركوا جهالته فتكون آرائهم متفرقة ورأيه هو السائد، وما زاد ثبات رأي فرعون وقوته زيادة على القوة التي اعتمدها لتخويف القوم وبسط رأيه عليهم هو المنطق العقلي الذي كان يفكر به بنو إسرائيل وقابليتهم لاستقبال هذا الرأي الاستبدادي المنحرف، فقد وجد فرعون أرضية جاهزة لبسط حكمه وإدعائه الذي وصل أنه الإله الآمر الناهي، والدليل على ذلك أنه حتى بعد موت فرعون وهلاكه، طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إله قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[21].

يقول القشيري: «أنهم لم تخلص في قلوبهم حقائق التوحيد فتاقت نفوسهم إلى عبادة غير الله، حتى قالوا لنبيهم موسى -عليه السلام-اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، وكذا صفة من لم يتحجر قلبه من الأشغال والأعلال، ومن المساكنة إلى الأشكال والأمثال، ويقال من ابتغى بالصنم أن يكون معبوده متى يتوهم في وصفه أن يخلص

(19) سورة القصص،الآية-4.

(20) أبو إسحاق الثعلبي ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن،ط1،مج20،دار التفسير ،جدة-المملكة العربية السعودية،2010 ، ص375.

(21) سورة الأعراف، الآية-138

إلى الله قصوده؟[22]، ولم يكفهم أن ذكّرهم موسى عليه السلام ما كان من أمر فرعون وجنوده حتى اتخذوا العجل الذي أخرجه السامري إله عبدوه أثناء غيابه قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾[23] إنه منطق فاسد ذاك الذي كان يفكر به بنو إسرائيل، فكيف بإنسان ادعى الألوهية أهلكه الله أمام أعينهم، ليسألوا بعدها نبيهم أن يجعل لهم صنما يعبدونه، ويتخذوا عجلا إله صنع من حليهم؟!.

ولا يخفى على المستبد، مهما كان غبيا، ألا استعباد ولا اعتساف إلّا ما دامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء[24]، وهذا ما كان من شأن فرعون فإنه قد وجد رعية حمقاء لها القابلية لتقبل رأيه المستبد، والتفاعل معه مما حفزه على التمادي في رأيه وترييبه لهم، فصور لهم أن ما يقوله هو الصواب وما يشير لهم به هو الحق رغم أنه باطل، إذ إن المذلّة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدّتها فإنّ انقيادهم ومذلّتهم دليل على فقدانها، فما رئموا[25] للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة[26] وكان من أمر فرعون - لما وجد المناخ المناسب الذي خلّفه جهل قومه- أن ادّعى الألوهية لنفسه وهذه قمة الاستبداد في الرأي وصلت إلى حد الخروج عن المألوف، فحبه للسلطة الدنيوية، جعلته ينحو اتجاها نحو التأليه، وذلك للإبقاء على مصالحه، فالتأليه يضعه في مركز الأمر والنهي بلا حدود، ومن خلاله يستطيع تنفيذ أهدافه في السلطة المطلقة.

فعلا قد دعا فرعون الناس إلى عبادته من دون الله، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[27]، وكان المراد من قوله هذا أن لا إله فوقه[28] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم

(22) عبدالكريم القشيري، تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات ،ج1، ط2دار الكتب العلمية ،بيروت-لبنان،2007،ص350-351

(23) سورة طه ،الآيتين:88-89.

(24) عبدالرحمن الكواكبي ، مرجع سابق ، ص44.

(25) رئم الشيء: أحبه و ألفه.

(26) عبدالرحمن ابن خلدون ،مقدمة ابن خلدون،تح:عبدالله محمد الدرويش،ط1، دار يعرب، دمشق،2004،ص275.

(27) سورة النازعات، الآية 24

(28) ينظر: أبو البركات النسفي ،تفسير النسفي (مدارك التنزيل و حقائق التأويل)،مج4،مكتبة نزار مصطفى الباز،ص1299.

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾[29]، وهذا استخفاف منه بعقولهم، لما وجد منهم من سفاهة[30]، وفي هذا الإطار فقد اعتبر البحث (مصطفى الحجازي) أن الاحتماء بالزعيم المنقذ، التعلق بالأبطال، كاللجوء إلى الأولياء، تحمل جميعا الدلالة ذاتها من الناحية اللاوعية، أنها عملية إيجاد نوع من التوازن مع صورة الأب القاسي المسيطر المهدد، من خلال خلق صورة الأب العطوف الحامي والمنقذ الذي يتعلق به، صورة الأب الإيجابية هذه تحد من حالة التهديد الدائم الذي تصاحبه، ومن هنا نفهم مدى تعلق الإنسان المسحوق بأبطال التاريخ الشعبي ومدى اهتمامه بسيرهم، التي تدور دائما حول إنقاذ الضعيف وحماية وإنصاف المظلوم، ومن هنا نفهم مدى الاتكالية التي تظهرها الجماهير المسحوقة في تعلقها الإنقاذي بالزعيم المنقذ[31].

ومن خلال إستبداد فرعون برأيه رأى أنه يلعب دور المنقذ -حسب زعمه- من تهديد دعوة موسى عليه السلام إلى الطريق القويم، في حين وجد فرعون أرضية ودعما كبيرا من ملئه لبسط آرائه وفرضها، فبالرغم من أنهم كانوا يعرفون أن منطق فرعون كان فاسدا إلا أنهم في كثير من الأحيان وافقوه الرأي، ودليل ذلك فيما جاء في: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[32]، فكان رأيهم من رأي فرعون المستبد﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾[33]، لهذا يقول الناس على سبيل التهكم: صار فرعون مذكرا، وهذا منه، فإن فرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام[34]، ومعنى الإفساد عندهم هو إبطال أصول ديانتهم وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة وحث بني إسرائيل على الحرية

(29) سورة القصص، الآية:38

(30) سعيد عبدالعظيم ،قصص القرآن عظات و عبر، ط1، دار العقيدة للتراث، القاهرة، 2001، ص333.

(31) ثامر عباس، مرجع سابق ، ص586

(32) سورة الأعراف، الآية:127

(33) سورة غافر، الآية .26

(34) أبو الفداء ابن كثير ،قصص الأنبياء ،تح:سعيد اللحام ،دار مكتبة الحياة ،بيروت-لبنان، 1988، ص339.

ومغادرة أرض الاستعباد[35]، وهذا القول منهم إنما تدعيما لرأي فرعون الاستبدادي.

-استبداد فرعون برأيه أدى إلى إضلال القوم وإهلاكهم:

-إضلال القوم:

إن صور الإضلال متعددة والوسائل المستخدمة فيها كثيرة فهي تحاصر الإنسان في كل مكان، فالعنف الكلامي والإلزام بمنطق القوة على أنه منطق الحق، في أحابيل الإغراء، والكذب والرياء، في اختلاق الاشاعات والدعايات المغرضة، في الخداع والتمويه والتعمية وسائر أنواع التمظهرات والتكتيف، في تبريرات المسؤولين ووعود القادة الانتهازية والنفعية المستترة بالخير العام والإصلاح ومحاربة الفساد، والداعية إلى غد أفضل، في كل ما يخطط لاجتذاب الناس وسوقهم عشوائيا وآليا تنفيذا لغايات ومآرب ومصالح[36]، كلها وسائل وطرق تستخدم لتنويم عقول الناس والتلاعب بها ومراوغتها، حتى ما إذا استيقظت من غفلتها تحصد مظاهر الندم والحسرة بعد فوات الأوان، ودليله قاطع في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[37]، وفي كثير من الأحيان في حال الضلالة يقع تصادم بين الضال والمضلول، بتوجيه التهم بينهما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝﴾[38].

(35) محمد الطاهر بن عاشور،تفسير التحرير و التنوير، ج9، الدار التونسية للنشر ، تونس، 1984، ص57.

(36) كلود يونان، التصليل الكلامي و آليات السيطرة على الرأي (الحركة الفلسطانية نموذجا)، دار النهضة العربية، ص9.

(37) سورة الأحزاب ،الآية:67

(38) سورة السبأ، الآيات31-32-33. جاء في الكشاف للزمخشري ، في قوله تعالى «وَلَو تَرَىٰ» في الآخرة موقفهم و هم يتجاذبون أطراف المحادثة و يتراجعونها بينهم العجيب فحذف الجواب ، و المستضعفون هم الأتباع ، و المستكبرون هم الرؤس و المقدمون. الزمخشري،تفسير الكشاف،ص875.

وقد شكل فرعون مشهداً للضلال، باتباعه لشتى الطرق والوسائل الممكنة في ذلك، خاصة في ترويجه لفكرة أنه إله يعبد من دون الله، ورغم الحجج والبراهين التي عرضها أمامه موسى عليه السلام إلّا أنه تمادى في كذبه وتزييف الحقائق المؤدية إلى سبيل الرشاد الحقيقي، لا كما ادعاه هو في قوله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝﴾[39]، بل ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝﴾[40]، يقول جل ثناؤه في معنى هذه الآية: وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله، وَمَا هَدَىٰ، ما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أن نهاهم عن إتباع رسول الله موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا بإتباعهم إياه[41]، وكان السبب الرئيسي في ذلك أن فرعون لم يجد لدى قومه رجاحة عقل، لأنهم كانوا منقادين لهواه ولزيفه، وهذا هو الضلال بعينه، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝﴾[42]، والمعنى أنه استفزهم وطلب منهم الخفة في مطاوعته أو استخف أحلامهم (فأطاعوه) فيما أمرهم به[43]، قيل: وجد عقولهم خفيفة، أو استجهلهم، يقال: استخفه، حمله على الجهل[44]، وإن هم قوة المستبد وقوته، بهم وعليهم يصول ويطول، بأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف في أموالهم، يقولون كريماً، وإذا قتل منهم ولم يمثل، يعدّونه رحيماً، ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ، وإن نقم عليهم بعض الأباة قاتلوهم على أنهم بغاة[45].

(39) سورة غافر الآية:29

(40) سورة طه،الآية: 79.

(41) الطبري، تفسير الطبري، (210/5).

(42) سورة الزخرف ،الآية 54.

(43) أبو السعود بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم في مرايا القرآن الكريم، ج8، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان،ص50.

(44) السيد مصطفى الشريف و آخرون، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، إشراف: مجمع البحوث الإسلامية الأزهر، ط 3، مج9، مطبعة المصحف الشريف، 1992، ص820

(45) عبدالرحمن الكواكبي، مرجع سابق، ص47.

-إهلاك القوم:

إن الاستبداد بالرأي كثيرا ما تكون له عواقب وخيمة على صاحبه وعلى الأشخاص الذين يحيطون به، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:«إن قوما ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا، فصار لكل رجل موضع، فنقر رجل موضعه بفأس فقالوا: ما تصنع؟ قال. هو مكاني أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا»(46)

ولقد اتضح من خلال السياسة التي انتهجها فرعون في فرض رأيه أن كانت لها نتائج كارثية عليه وعلى قومه، فرغم الدعوة المستمرة لموسى عليه السلام له ولقومه للعدول على ما كانوا فيه من ضلالة، وذلك بالحجج والبرهان، إلا أنهم تمادوا فيها وأطاعوا رأي فرعون وأمره، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝﴾(47)، والسلطان المبين:هو الحجج الواضحة، ويحتمل أن يريد بقوله (وسلطان مبين) فيهما، أي في الآيات، وهي دالة على صدق موسى عليه السلام، ويحتمل أن يريد بها العصا، لأنها أبهر تلك الآيات، والظاهر أن يراد بقوله (أمر فرعون) أمره إياهم بالكفر، وجحد معجزات موسى، ويحتمل أن يريد الطريق والشأن، وكلها تصب في إطار رأيه المستبد(وما أمر فرعون برشيد) نفى عنه الرشد، وذلك تجهيل لمتبعيه، حيث شايعوه على أمره ورأيه، وهو ضلال مبين، لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك لأنه أدعى الإلهية، وهو بشر مثلهم، عاينوا الآيات، والسلطان المبين في أمر موسى -عليه السلام- وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن إتباعه إلى إتباع من ليس في إتباعه رشد(48).

وقد استوجب استبداد فرعون برأيه أن أدلى بنفسه وقومه إلى سبل اللعنة والهلاك في الدنيا والأخرة، فهو﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ

(46) أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبيين، تح. عبدالسلام محمد هارون، ط7، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة ،1998،ص25

(47) سورة هود،الأيتين:96-97

(48) مع بعض التصرف،أبو حين الأندلسي، تفسير البحر المحيط ،تح:الشيخ علي محمد معوض و اخرون،ط1،ج5(أول التوبة-اخر النحل)،دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان،1993،ص258.

ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝ ﴾[49]، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، وقوله ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ الآية، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة[50].

والأدلة في القرآن الكريم كثيرة عمّا خلفه استبداد فرعون برأيه المتجبر، وهدايته لقومه إلى موجبات اللّعنة الدنيوية والأخروية قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝ ﴾[51]، قال القشيري:لا لشرفهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تلقهم قدّمهم في الخزي والهوان على كل أمة، ولكن لم يرشدوا إلّا إلى الضلال. ولم يدلوّا الخلق إلّا على المحال، وما حصلوا إلّا على سوء الحال، وما ذاقوا إلّا خزي الوبال، أفاضوا على متبعهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا قلوبهم فافتضحوا في خسّة مطلوبهم[52]، فشأن الإمام أن يقدم النصح في الرأي للناس ويدلّهم للطريق الصحيح، أما في هذا المقام فإن فرعون وملئه في هذه الدنيا كانوا أئمة و رؤساء يدعون إلى الشرك والضلال فاتبعوا فيها خزيا، وهم يوم القيامة من المبعدين.[53]

-نموذج ملك يوسف عليه السلام في مشاركة الرأي وعدم الاستبداد به:

إن مشاركة الرأي بين الحكام والجماهير تعد من الأساليب المهمة في النهوض بالمجتمعات وازدهارها، ونشر وعي المصير المشترك، وكيفية مواجهة التحديات المختلفة، وإعطاء دفعة قوية للجماهير للوقوف إلى جانب الحاكم الذي يرى في رأيهم سدادا لرأيه،

---

(49) سورة هود، الأيات:98-99.

(50) أبو الفداء ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1،مج 2، (من أول المائدة إلى آخر النحل)، المكتب الثقافي للنشر و التوزيع، الأزهر- القاهرة، 2001 ، ص458

(51) سورة القصص،الآيتين 41-42

(52) أبو القاسم القشيري ،لطائف الإشارات،(439/2).

(53) مع بعض التصرف جلال الدين بن أحمد المحلي،جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين،ط.3،دار الحديث ، القاهرة، 2001،ص513

وأنه جزء منهم لا هم جزء منه، فيجدون في ظل حكمه الأمن والأمان، والقوة والازدهار، ويعد نموذج ملك مصر في عهد يوسف -عليه السلام- من بين النماذج التي يضرب بها المثل في مشاركة الرأي والقرار مع الرعية، وعدم الاستبداد به قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[54]، قال الطبري في معنى قول الملك: يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي، أفتوني في رؤياي فاعبروها، «إن كنتم للرؤيا»عبرة[55]، فلم يقنعه جواب الملأ المقربين من الأشراف ممن يظن بهم علم[56]، ولم يقدموا له التأويل السديم لرؤياه وأحس جهلهم في ذلك، إذ ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾[57]، قال الزمخشري في معنى (أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ) أي تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث النفس، أو وسوسة شيطان[58]، ليأتي بعد ذلك رأي الساقي الذي كان سجينا مع يوسف عليه السلام ونجا من القتل ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾[59]، وقد اذكر قول يوسف لما قال له اذكرني عند ربك، وقد جثا بين يدي الملك وقال: إن في السجن رجلا يعبر الرؤيا، فأرسلني أيها الملك إليه، فأرسله إلى السجن[60]، وأفتاه يوسف في رؤياه فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[61].

---

(54) سورة يوسف، الآية 43.

(55) أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري (4/360)

(56) يروى أنه جمع السحرة و الكهنة و المعبرين فقال لهم (يا أيها الملأ) و قيل هو خطاب لجلسائه و أهل مشورته، و التعبير عن التعبير بالإفتاء بتشريفهم و تفخيم أمر رؤياه. شهاب الدين الألوسي، روح المعاني، في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، ج12، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ص250

(57) سورة يوسف الآية 44.

(58) أبو قاسم الزمخشري ص518.

(59) سورة يوسف، الآية:45

(60) أبو محمد البغوي، تفسير البغوي معالم التنزيل، مج4، دار طيبة للنشر و التوزيع، الرياض، 1411 هـ، ص246.

(61) سورة يوسف، الآيات 46-47

العبرة من القصة أن الملك شارك أمر رؤياه مع ملئه، وبعدما وجد قلة معرفتهم في تأويله أخذ برأي ساقيه حيث أرسله لسؤال يوسف عليه السلام الذي أقنعه في تأويل رؤياه، ولم يكتف بذلك بل رد له الإعتبار أمام النسوة وبرأه: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ[62]﴾، وقربه إليه وجعله الله سببا لتمكينه في الأرض ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾[63]

وإن أخذنا هذا الموقف من زاوية أخرى، أي لو استبد الملك في أمر رؤياه ولم يشاركه مع غيره، أو حتى إن شاركه مع ملئه وأخذ بأمر مشورتهم وجهلهم في تأويل الرؤيا ووافقهم فيما قالوا،أو إن لم يرسل الساقي إلى يوسف عليه السلام، أو إن لم يجعل يوسف عليه السلام على خزائن الأرض وولّاه بعضا من أمور الحكم فكيف كنا نتصور الأمر بعدها، لكان الملك قد جنا على نفسه وعلى قومه بالهلاك بالقحط والمجاعة، ومن هنا يتضح لنا أن مشاركة الرأي مع الجمهور بمختلف أطيافه يمكن أن يكون له أثر إيجابي على بقاء الأمة وازدهارها، وهذا على غرار فرعون موسى الذي استبد برأيه فجنا على نفسه وعلى قومه بالخسران المبين في الدنيا والآخرة.

إن الفرق بين ملك يوسف وفرعون موسى -رغم اشتراكهما في أزمان مختلفة في حكم مصر وأهلها- هو أن الأول(ملك يوسف) كانت له رجاحة عقل وشعر أن مصيره من مصير شعبه، وأنه مجرد حاكم في شؤونهم لا إله يعبد، وأخذ بالمشورة والنصح في رأيه وتواضع في ذلك، واستجاب لدعوة ربه فآمن وأعز نبي ربه وأعز من شأنه وقربه منه، فنجا ونجا معه قومه بل وحتى نجا معه من كانوا متاخمين لمصر الذين أصابهم القحط منهم آنذاك، أما الثاني (فرعون موسى) فكان له فكر قاصر ونظرة

(62) سورة يوسف، الآيات:51-52.

(63) سورة يوسف، الآيات:54-55-56.

قاصرة، فلم يأخذ لا بالنصح ولا بالمشورة بل استبد واستعلى برأيه واستعبد قومه، ونصب نفسه إله يعبد من دون الله وجحد رسالة ربه وظلم رسوله، فهلك وهلك معه قومه، وهتكت معه عقولهم وأبدانهم، ومن المهم كذلك أن تكون الرعية عارفة ومتعلمة كي تشارك الحكام وصناع القرار الرأي، فإن كانوا هؤلاء مخطئين أو جاهلين أو متعصبين يقوم الجمهور بتصحيح مواقفهم وتوجيهها إلى الطريق السوي، وإن كان الجمهور جاهلا فيزيد رأي الحكام وصناع القرار تعصبا أو جهلا وضلالا، مما يشكل خطرا عليهم وعلى ثقافتهم المجتمعية وحاضرهم ومستقبلهم، لذلك نؤكد على مسألة المعرفة والعلم في صناعة الرأي الصائب وتدعيمه، أو محاولة تقويم الرأي المستبد أو تجنبه وإزالته كما كان الشأن بالنسبة لمعرفة وعلم يوسف وموسى -عليهما السلام- وتفادي الجهل والضلال في المشاركة في الرأي والأخذ بالمشورة فيهما، على غرار ملأ ملك يوسف، وملأ فرعون موسى.

-الاستبداد بالفعل:

أبان القرآن الكريم على وجه آخر من أوجه الاستبداد الفرعوني ألا وهو الاستبداد بالفعل، ويعد هذا النوع من الاستبداد نتيجة شاذة من نتائج الحكم الظالم والعقلية المتجبرة، والتعصب الهمجي للحاكم، وقمة الإفساد في الأرض وظلم الرعية واستعبادها، وقد يخلف الاستبداد بالفعل آثارا سلبية في نفسية الرعية، كما قد تكون له آثارا على أبدانهم وما يخلفه من إهلاك لها، أو ترك عاهات مستديمة فيها، ليجعلهم عبرة للآخرين حسب زعمه، أو يشعرهم بالاحتقار المادي والمعنوي فلا يجرؤون على مواجهته ولا حتى الوقوف أمام وجه ظلمه، في حين اتخذ فرعون من هذه السياسة قانونا ردعيا لقومه، وترهيبا لهم فلا صوت يعلو فوق صوته، ولا إرادة تعلو فوق إرادته المتسلطة، وسولت له نفسه الضعيفة أنه الإله المعبود الذي يحيي ويميت[64] قال تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ

(64) لقد سلك فرعون سبيل النمرود لما حاج إبراهيم في ربه قال المولى عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [سورة البقرة :258] قال له إبراهيم ربي الذي يحيي و يميت ، يعني بذلك : ربي الذي بيده الموت و الحياة ،يحيي من يشاء ، و يميت من أراد بعد الإحياء ، قال أنا أفعل ذلك ، فأحيي و أميت ، أستحيي من أردت قتله فلا أقتله ، فيكون ذلك مني إحياء

قَٰهِرُونَ﴾[65]، وهكذا قفز فرعون قفزته الأخيرة في الظلام، وأفصح في النهاية عن نيته وقصده، وكان ما فعله يتسق كل الاتساق مع منطقه في الاستبداد والطغيان[66].

ويرجح أن تكون غلبة التفكير الأسود والكبرياء والتجبر في شخصية فرعون سببا قويا في اتخاذه سياسة القمع والتقتيل فاستولى ذلك على معادن فكره حتى صار لا يرى بميزان عينه واسودت الدنيا بأسرها في وجهه، فكان مثل كهف اضطرمت فيه نار فاسودّ جوه و حمي مستقره وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا يرى فيه صورة ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا خارج بل يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق[67]، فكذلك فعل فرعون بقومه فقد أعماه غيظ جنون ملكه عمّا أصابهم من بطشه وما خلفه من خوف وترهيب في أنفسهم، كما أن هذا الفكر الفرعوني المستبد كان ناجما عن استبداد فرعون برأيه والتعصب له -كما أشرنا له من قبل- وكان مكملا له فلم يكف فرعون أن يري قومه ما يرى من ضلالة وسخافة رأيه، وإنما تطاولت يده على بني إسرائيل وقهرهم وتغلّب منطقه على منطقهم و عصبيته على عصبيتهم ،يقول العلامة ابن خلدون في هذا الصدد:« ذلك أن الرّئاسة لا تكون إلّا بالغلب، والغلب يكون بالعصبية...لأنّ كل عصبية منهم إذا أحسّت بغلب عصبية الرئيس لهم، أقروا بالإذعان والإتباع »[68].

وقد عجّ التاريخ الإنساني بمثل هذا المنطق الفاسد المبني على قهر الناس وسلب أملاكهم وأرواحهم، وصار إفساد فرعون وهمجيته في الأرض مثلا يضرب ومنهجا يقتدى به، ولا زال المشهد الفرعوني يتكرر كلما ظهر منطق بشري يصبو إلى

له،و ذلك عند لعرب يسمى "إحياء" ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة:32]،و "قتل آخر، فيكون ذلك مني إماتة له.أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري(2/140).

(65) سورة الأعراف، الآية:127

(66) أحمد بهجت ،فرعون و الطغيان السياسي، ط1،العصر الحديث للنشر و التوزيع، بيروت-لبنان، 1988،ص9.

(67) مع بعض التصرف:أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ،ج3،مكتبة و مطبعة " كرياطة فوترا"، أندونيسيا،ص164.

(68) عبدالرحمن ابن خلدون، المقدمة، ج1 مصدر سابق،ص 261.

استضعاف الناس وسلب عقولهم وحقوقهم وأرواحهم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾[69]، والأمثال هي الأشباه، والمثل: كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول[70]، فكيف لنا أن نتصور حجم الفساد والدمار الذي خلّفه الاستبداد بكل أشكاله عبر ازمن؟ أعداد لا تحصى من الأرواح زهقت، وعقول راجحة انتقصت، وأملاك سلبت ظلما وعدوا بغير حق وشرّد أهلها،نتيجة نزوات أشخاص أصابتهم عدوى الغطرسة الفرعونية.

والأكيد أن من بين هذه الأزمان كان زمن حكم فرعون وسياسة التسلط التي انتهجها أشدها وأعتاها وأبكاها في تاريخ البشرية قاطبة، وجاءت شهادة ذلك بيّنة في قول ابن الأثير: قال بن عباس وغيره، دخل حديث بعضهم في بعض، إنّ الله تعالى لما قبض يوسف، وهلك الملك الذي كان معه، وتوارث الفراعنة ملك مصر، ونشر الله بني إسرائيل، لم يزل بنو إسرائيل تحت يد الفراعنة، وهم على بقايا دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق و إبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام، حتى كان فرعون موسى، وكان أعتاهم على الله ،وأعظمهم قولا، وأطولهم عمرا، واسمه فيما ذكر الوليد بن مصعب، وكان سيء الملكة على بني إسرائيل، يعذّبهم ويجعلهم خولا، ويسومهم سوء العذاب[71].

فبعدما قام فرعون بتقسيم قومه إلى شيع وطوائف، ركّز وسائل قمعه وإرهابه لاستضعاف بنو إسرائيل، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل في ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[72]، وبهذا العمل كان من المفسدين، والإفساد أن تأتي إلى شيء صالح في ذاته وتفسده، فكون

(69) سورة العنكبوت، الآية:43.

(70) مجير الدين بن محمد الحنبلي، فتح الرحمن في تفسير القرآن،تح نورالدين طالب، ط1، مج5، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إدارة الشؤون الإسلامية، دولة قطر،2009، ص252.

(71) عزالدين بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ،تح عمر عبدالسلام التدمري،ج1(تاريخ الرسل و الأنبياء)،دار الكتاب العربي،بيروت-لبنان،2012،ص151.

(72) سورة القصص، الآية:4.

فرعون يقتل الذكور من أطفال بني إسرائيل ويستحيي النساء فهذا فساد كبير، لماذا؟ لأن هناك شيء اسمه استبقاء الحياة، وآخر اسمه استبقاء النوع، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع، فهو يقتل الأولاد، خشية أن يناله منهم شر، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال، لأنهن ليست لهن شوكة، ولا خطر منهن على ملكه.[73]

فعلا كاد فرعون أن يهدد بقاء بنو إسرائيل ويفنيهم، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يولّون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما ويتركوا عاما[74]، فلم تكن شفقة منهم أو رحمة وإنما خشية أن يصيروا خادمين بعدما كانوا مقربين بسبب عدم استبقاء بنو إسرائيل واستئصال جذورهم نهائيا من فوق وجه الأرض، وبهذا بلغ فعل الاستبداد الفرعوني ببني إسرائيل أن حوّل ميلهم الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل [75]، فرضخوا لمنطق فرعون بالخشية، وأصبحوا صاغرين مستضعفين، يأتمرون بأمره، ويطيعونه لا يعصونه، فكان هذا الوضع السائد دافعا قويا لأن يستأله بجهله، ويتكبر بفعله، وهذا نهج كل مستبد الرامي للسيطرة والحكم بقبضة من حديد، واستحواء الناس تحت لوائه، باستعمال التعسف والقهر بشتى الوسائل والآليات الممكنة، في حين يمثل هاجس الخوف[76] مرآة عاكسة لأفعال كل حاكم مستبد، إذ تأتيه الرهبة والخوف من كل حدب وصوب، ويصيبه الشك في فقدان حكمه، ويخشى الغدر ممن حوله، وهذا كلّه إنما يشكل نقطة ضعف وهوان بالنسبة له، فيوجه سهام شره لكل من يهدد ملكه أو يشك في عدم ولائه، ولو كان أقرب الناس إليه، ففرعون أصابه خوف

(73) محمد متولي الشعراوي،قصص الأنبياء،ط1،دار القدس،2006،ص251.

(74) أبو الفداء ابن كثير، قصص الأنبياء، مصدر سابق، ص307

(75) بتصرف،عبدالرحمن الكواكبي ، مرجع سابق،ص104.

(76) الخوف أقوى أعداء العقل، و الخوف و العقل جوهريان لحياة الإنسان، لكن العلاقة بينهما غير متوازنة،فقد يبدد العقل الخوف أحيانا، لكن الخوف يغلق العقل دوما. و كما كتب إدموند بيرك في إنكلترة قبل عشرين عاما من الثورة الأمريكية:"ليس هناك شعور يسلب العقل كل قوى التصرف و التفكير بصورة مؤثرة مثل الخوف".آل جور،هجوم على العقل ،تر:نشوى ماهر كرم الله ،ط1،العبيكات، أبوظبي الإمارات،كلمة،المملكة العربية السعودية،2009،ص45.

وذعر عظيم، جراء هواجس فقدان عرشه، أقل ما يقال عنه أنه تخويف إلهي قذفه الله في قلبه، فاستشعر من خلاله أن ادعائه باطل وألوهيته مزيفة، فالخوف بمثابة دفعة قوية لأن يستبد بفعله ويقدم على التنكيل بقومه.

فحسب ابن مسكويه الخوف بأنه توقع مكروه وانتظار محذور[77]، وجاء في التعريفات: أن الخوف توقع حلول مكروه[78]، فجعل الله عزوجل وجل فرعون يستشعر زوال ملكه، فهاله ذلك الأمر واستعظمه، وذكر السدي عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مرّة، عن ابن مسعود، وعن أنس من الصحابة، أن فرعون رأى في منامه كأنّ نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضرّ بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحزاة، والسحرة وسألهم عن ذلك، فقال له الكهنة هذا غلام يولد من بني إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النساء[79]، وجاء على لسان الطبري: أن فرعون لما دعا السحرة والكهنة والقافة والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه يعنون بيت المقدس رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر ببني إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلّا ذبحوه ولا يولد لهم جارية إلّا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيهم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة[80].

فالخوف استحوذ على فرعون وأرهبه ودفعه لأن يخطط لقتل وذبح الغلمان دون رحمة أو شفقة، وإننا وإن لم نتوقع أن خطة كهذه قد تخطر ببال بي الإنسان غير أن هذا هو ما حدث بالفعل، وتحدث أمثالها بالفعل عبر الأحقاب في كثير من الأحيان، والواقع أن فرعون قد ذهب إلى أبعد من هذا حيث سوّل له شيطانه أمورا يحسبها

(77) ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق ، تح :ابن الخطيب ،ط1،مكتبة الثقافة الدينية، ص215.

(78) عبدالقاهر الجرجاني، التعريفات،تح: محمد صديق المنشاوي،دار الفضيلة، القاهرة،2004،ص90.

(79) أبو الفداء ابن كثير،البداية و النهاية ،تح عبدالله بن المحسن التركي، ج2،مركز البحوث و الدراسات العربية و الإسلامية بدار هجر، الجيزة،1997،ص33.

(80) أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص131

أنها تشفي ما في نفسه من حقد وضغينة وخوف، وكراهية[81]، هكذا كان التعذيب والتقتيل، بل كان النسف والتدمير، وأعجب ما في الأمر أن هذا كلّه إنما كان لمجرد أقاويل من ألسنة المنجمين وعقب ترهات من أفواه الكهنة المنحرفين، بل كانت لمجرد رؤية منامية، تسربل بها تحت دثاره ذات ليلة ،فإذا به يصحو وفي يده خنجر يذبح به ويقتل، فلا عقل، ولا قانون، ولا حكمة، بالله'.[82]

وكلما زادت هواجس فرعون وخوفه زاد معه قمعه واستبداده، فكيف نتصور الحياة التي كان يحياها، وجحيم الخوف الذي لازمه؟ فبالرغم من العيش الرغيد والملك العريض، أصيب بجنون التعلق بالملك، وهذه الخشية اقتسمها مع ملئه، فقذف الله الرعب في قلوبهم وخربوا ملكهم وديارهم بأيديهم، وإذا رجعنا إلى السبب الحقيقي لهذا كلّه هو الكفر والجحود، فالكفر ظلم قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾[83] أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرا[84] لأنهم جاحدون مكذبون برسله «هم الظالمون»، يقول هم الواضعون جحودهم في غير موضعه، والفاعلون غير مالهم فعله، والقائلون ما ليس لهم قوله[85].

وكنتيجة حتمية لكفر فرعون وملئه أصابهم الوهن والضعف في قلوبهم، ترجموه إلى بطش وقتل وإفساد في الأرض، وزاد هذا البطش والقمع لما أحس فرعون أن ما جاء به موسى عليه السلام هو الحق من ربه، وأن ما جاء به من بينات ليست بسحر وخداع وإنما آيات ربانية لكي تذكره وتزيده خشية في قلبه، ويعدل على طغيانه وبطشه قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝﴾[86]، لأن فرعون كان من أهل الطغيان واعتقاد أنه على حق فالتذكر: أن يعرف أنه على الباطل، والخشية: أن تردد في ذلك فيخشى أن يكون على الباطل فيحتاط لنفسه بالأخذ بما دعاه إليه موسى[87]، ولكن جبل الكافرون على أن الآيات

(81) علي يوسف علي، موسى عليه السلام،ط1،دار الجيل ،بيروت،1987،ص16.
(82) ينظر: المرجع نفسه ،ص18.
(83) سورة البقرة، الآية:254.
(84) تفسير ابن كثير(305/1)
(85) تفسير الطبري(125/2).
(86) سورة طه،الآية 43-44.
(87) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، ج16، د ر التونسية للنشر، تونس،

البينات لا تزيد قلوبهم إلّا قسوة، وبصيرتهم إلّا عمى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۞﴾(88)، فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع، وأن الغشاوة على الأبصار، وذلك في قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞﴾(89).

والختم، هو الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه ولا يدخل فيه خارج عنه،

والغشاوة: الغطاء على العين يمنعها من الرؤية.(90)

فلو صبغة خشية الله(91)، في قلب فرعون لكان ذلك دافعا قويا للعدول عن تطاوله وبطشه وقمعه لبني إسرائيل، ولكن الخوف لفقدان ملكه المبني على الظلم والباطل أعمى بصيرته وأغشى قلبه، ولكي نعطي مثالا بارزا للفرق بين خشية الله التي تؤدي إلى دحض الباطل، والخوف الذي يقوي الباطل ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۞ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ۞﴾(92).

قال ابن كثير: «لمّا سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم،

1984، ص226.

(88) سورة البقرة، الآية:6-7.

(89) سورة الجاثية، الآية:23.

(90) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،إشراف:بكر بن عبدالله أبو زيد، مج1،دار عالم الفوائد،مجمع الفقه الإسلامي،جدة،ص58.

(91) الفرق بين الخشية و الخوف، بأن الخشية تكون من عظم المخشي،و إن كان الخاشي قويا ، و الخوف يكون من ضعف الخائف ،و إن كان المخوف أمرا يسيرا .قال تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [سورة الرعد :21]،فإن الخوف من الله لعظمته،يخشاه كل أحد كيف كانت حاله.محمد بن عبدالله الزركشي،البرهان في علوم القرآن،تح محمد أبو الفضل إبراهيم،مج 4، ط3،دار التراث ، القاهرة ،1984،ص78.

(92) سورة طه، الآيات70-71.

وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده، وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك وزاده خوفا ورعبا، ورأى أمرا بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله[93]، فما كان الجزاء لقاء ذلك قوله ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝﴾[94]، ومن هنا يتضح لنا أن الخشية دعت السحرة لأن يمتنعوا عن زورهم وبهتانهم، وأن الخوف أدى بفرعون إلى سلوك سبيل العنف والتعذيب والتقتيل ضدهم، ظانا في نفسه أن ذلك سيردعهم عن خشيتهم لله فكان جوابهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝﴾[95].

- **الاستكبار:**

يعد الاستكبار إحساس وهمي بالعظم ، فالقول بأنه إحساس يفيد أن الاستكبار خلق في النفس ابتداء، إنه من الأحوال الباطنة لا الظاهرة، فصاحبه يسكن فيه سلوك مرضي بانتفاخ الشخصية وتضخم الذات، فكما أن الإنسان قد يصاب بالتهاب قد يتورم فيه جسده، كذلك قد يصاب بالتهاب معنوي تتورم فيه شخصيته، أما الوصف له بأنه وهمي فلإبراز أن الاستكبار تكلف للكبر دون استحقاق، إذ يتوهم صاحبه بأنه كبير وأنه فوق الجميع قال تعالى حكاية عن فرعون ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝﴾[96]، فقوله سبحانه: بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ حال لازمة لعاملها، إذ لا يكون الاستكبار إلا بغير حق، فصفة الكبر أو التكبر لا تكون إلا لله تعالى، لأنه هو الذي له القدرة والفضل ليس لأحد، فلا جرم أن يستحق أن يكون متكبرا، كما إن صفة ذم في حق جميع العباد وصفة مدح في حق رب العباد يدل على هذا ورود مادة الاتصاف بالكبر في معظم النصوص القرآنية بصيغة (الاستفعال) أو (التفعل) إشارة إلى أن المتصف بالكبر لا

(93) مع بعض التصرف:أبو الفداء ابن كثير، قصص الأنبياء،مصدر سابق ،ص ص334- 335.
(94) سورة طه، الآية:71.
(95) سورة طه ، الآية 72.
(96) سورة القصص، الآية:39

يكون إلّا متطلبا متكلفا له، كما أن صيغة (الاستفعال) اقترنت في جميع النصوص بالمخلوق لا بالخالق.

يقول تعالى. ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[97]، لقد طلبوا الكبرياء في أنفسهم من حيث لا يملكونها، والكبر في الشخصية ينطلق من أصالة العظمة في الداخل، أما عندما تكون الشخصية مستعارة والقوة مستعارة، يعطاها المخلوق الآن لتذهب غدا بسبب أي طارئ أو عارض، فما معنى أن يشعر بأنه كبير، وهو في حد ذاته مخلوق ضعيف؟ وأما حقيقة العظمة فهي أن المستكبر يرى لنفسه فضلا على الناس وحقا ليس لغيره، فيحمله هذا الشعور على التعالي عليهم، ومشكلة من يحمل هذا الخلق أن شخصيته تنتفخ ويعظم شأنه عند نفسه، فيبدأ باحتقار الناس من حوله في فكرهم ودعوتهم، واحتقار الدعوة إلى الحوار معهم، فهو يرى أنه أكبر من أن يحاور الآخرين أو يتعامل معهم، وأعظم من أن يستجيب لدعوة الحق عندهم، وهكذا تتحرك الكبرياء في داخله لتظهر في حياته تمردا على الحق وانحرافا عنه اعتزازا بالإثم والضلال وتجبرا على الناس ظلما وعدوانا.

إن الاستكبار في جوهره خلق باطن، موجبه العجب، إما بالعنصر أو بالقوة المادية أو بالسلطان الذي يمتلكه المتصف به[98] وقد اتخذ فرعون الاستكبار إزارا ومبدأ لتجسيد نظريته القائمة على التسلط والتعنت، حيث وجد مناخا مميزا لذلك، تجسد بالخصوص في القوة الاقتصادية والعسكرية، التي كان يمتلكها، وكذلك وجود حاشية حمقاء (ملئه) طاوعته وساندته في مواقفه الإجرامية، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[99]، فكان ذلك دفعة قوية من ملئه لأن يزداد كبرياء وتعسفا، فكان رده على ما قالوا في نفس الآية: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[100]،

(97) سورة الفرقان، الآية:21.

(98) مصطفى أوعيشة،مفهوم الاستكبار و الاستضعاف في القرآن الكريم(دراسة مصطلحية و تفسير موضوعي)،ط1،دار السلام للنشر و الطباعة و التوزيع ،القاهرة-مصر،2014،ص ص 32-34.

(99) سورة الأعراف، الآية:127.

(100) سورة الأعراف الآية:127

ويعني القهر الاستيلاء والغلبة عن طريق التذليل[101].

وقد يسول الكبر لصاحبه أنه حاكم لكل شيء ولا يردعه أي شيء، فيقوم في ذات الوقت ببسط نفوذه والإسراف في كل الأمور والتصرف في أمور الجماهير بحكم مشيئته لا بحكم مشيئتهم، إنما ذلك صورة أخرى من صور الاستبداد الذي تكلمنا عنها، بل الاستكبار يبقى ملازما للاستبداد، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[102]، فلا يمكن في أي حال من الأحوال أن نجد الاستكبار والخشية في قلب رجل واحد، كما أننا من المحال أن نجد الكفر والإيمان موجودان في قلب رجل واحد، لهذا يعطي الاستكبار لصاحبه تخيلا أنه يغرد خارج السرب، ويرى أن الناس الذين من حوله مملوكين لإرادته ومنطقه الفاسد، فيستخدم شتى الوسائل ليجعلهم صاغرين مستضعفين.

وقد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[103]، وقال عزوجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[104]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[105]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[106]، وذم الكبر في القرآن كثير، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر"، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي"، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى

(101) محمد بن يعقوب فيروزآبادي،بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز،تح:محمد علي النجار،ج4،لجنة إحياء التراث العربي، القاهرة،1992،ص314.

(102) سورة يونس، الآية.75. فلم يكفهم أن استكبروا في الأرض بل عدهم الله من المجرمين باستبدادهم و طغيانهم، و لقد رأينا أن الاستبداد الفرعوني هو جرام في حد ذاته في حق بنو إسرائيل.

(103) سورة الأعراف، الآية 146.

(104) سورة غافر، الآية 35.

(105) سورة النحل، الآية:23.

(106) سورة الفرقان، الآية 21.

يكتب في الجبارين فيصيبهم ما أصابهم من العذاب»[107]، ولذلك يظهر الاستكبار أنه أسوأ الأمور التي يمكن أن يقع فيها الإنسان.

وقد جعل الاستكبار منطق فرعون يصل إلى قمة الفساد في الأرض قال تعالى ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[108] وجاء في معنى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، أي كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها[109]، وهكذا وبالرغم من أن الله عزوجل أبان الآيات لفرعون وملئه وأن ما جاء به موسى-عليه السلام- هو الحق من ربه، إلا أنهم جحدوا بها كلها وقد صدهم عن ذلك إحساسهم الباطل بأن فرعون إله وسولت له نفسه وملئه أنه كيف يعقل لإله مثله لأن يلين قلبه ويخشى؟ رغم أن المطلوب كان أن يعدل عن ظلمه وأن يرسل بنو إسرائيل مع موسى وألا يعذبهم قال تعالى: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[110]، فطلب موسى من فرعون أن يدعهم يرجعون معه إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال[111]، ولكن شاء الله أن يتعنت فرعون في ذلك وأن يجادل موسى بغير حق وكل ذلك لأن الكبر استحوذ على نفسه الضعيفة وعلى ملئه الذين زينوا له سوء عمله وصدوه عن السبيل القويم، في حين تجسد الاستكبار عند فرعون وملئه في ثلاثة أشكال نذكرها:

-الاستكبار في الأرض:

سبق وأن أشرنا أن القوة الاقتصادية والعسكرية التي كان يملكها فرعون وملئه كانت دافعا قويا لأن يستكبروا في الأرض قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا

(107) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، (كتاب ذم الكبر و العجب)،مصدر سابق، ص ص،327-328

(108) سورة النمل،الآية 14.

(109) محمد بن علي الشوكاني،فتح لقدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير ، ط4، دار المعرفة ، بيروت-لبنان ،2007،ص1073.

(110) سورة الأعراف ، الآية 104.

(111) ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل و أسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي،ج3،ط1،دار التراث العربي ،بيروت-لبنان،ص26

لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾[112]

قال القشيري :أن فرعون أبى إلا أن يدوم جحوده، وعنوده [113]، وقد ساء تصرف فرعون وملئه في الملك الذي منحه الله إياهم فحسبوا أنه لا يوجد قوة يمكن لها أن تردعهم عما كانوا فيه من ضلالة وكفر النعم التي كانوا يتمتعون بخيراتها فأصابهم العجب، وكان حافزا لهم لادعاء القوة والنفوذ، وأنهم إلى الله لا يرجعون قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾[114]، فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا في الأرض بغير الحق، وكذبوا بالآيات والنذر.[115]

ويمكن لسلطة المال والنفوذ أن تكون سببا آخرا للاستكبار في الأرض و الطغيان باستعمال مختلف الوسائل القمعية صد الجماهير قصد إثبات العظمة الزائفة والقوة المصطنعة، ففي موضع آخر ضرب الله مثلا في قصة قارون[116] الذي تكبر هو الآخر في الأرض جراء الملك الذي منحه الله إياه قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾[117] فبعدما كان عاملا لدى فرعون بغى على قومه (فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) أي: ترفع وجاوز الحد مع بني إسرائيل،

---

(112) سورة القصص،الآيات:38-39.

(113) القشيري، لطائف الإشارات(2/439).

(114) سورة القصص، الآية:39.

(115) سيد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ط32، دار الشروق،2003،ص2695.

(116) قارون . اسم عبري غير منصرف ، و قيل مشتق من قرن ، فاعول منه للمبالغة ، سمي به لأنه قرن بالملك ثم قرن بالهلك. و كان ابن عم موسى و متزوجا بأخته ، و كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل قبل مجيئ موسى ، و كان في الجمال حد الكمال ، بحيث كانوا يلقبونه بالمنور لأن المجلس كان ينور بجماله . و سبب جمعه للمال اطلاعه على صنعة الكيمياء ، قال كان يعدم منه ثلثه ن و اخذ ثلثا من هارون و ثلثا من أخت موسى ، فكمل له و كثر ماله ، حتى صارت مفاتيح خزائنه تحمل على ثمانين بعيرا. الفيروزابادي ، بصائر ذوي التمييز (6/73).

(117) سورة القصص، الآية:76.

بظلمه وكفره وكثرة ماله، وخالف موسى، وكذّبه [118]، وبالتالي تملكت غبنة الملك وكثرة المال عليه كدأب فرعون وهامان، فوصفهم الله جميعا بالمتكبرين في الأرض قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ۝ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾[119] يقول الرازي في معنى ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي عن عبادة الله وقوله في الأرض إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم، وذلك لأن من في الأرض أضعاف أقسام المكلفين، ومن في السماء أقواهم، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف [يستكبر] من في الأرض، ثم قال تعالى ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي ما كانوا يفوتون الله لأنه مبينا في قوله تعالى ﴿وَمَا أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أن المراد أن أقطار الأرض في قبضة الله.[120]

وكان من استكبار فرعون في الأرض ما خلّفه من آثار كارثية نتيجة جحوده وعناده فلم يكتف بتكذيب موسى فيما جاء به من ربه، وتفريق قومه إلى طوائف وشيع، واستضعافه وتنكيله ببني إسرائيل، وافترائه على الله كذبا بل تمادى في افترائه فتصور أن الأرض ومن عليها-التي تكبر واستعلى فيها- ملكه فكانت حجة أخرى لادعاء ألوهيته والترخيص لنفسه بفعل ما يشاء، ولعب دور الحسيب والرقيب على شؤون قومه واتخاذ القرارات نيابة عنهم والتدخل في شؤونهم، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝﴾[121].

---

(118) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن في تفسير القرآن(5 217)

(119) سورة العنكبوت، الآيات:39-40.

(120) فخر الدين الرازي، تفسير فخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب،ط1، ج25، دار الفكر ، بيروت-لبنان، 1981، ص68.

(121) سورة الزخرف الآيات:51-52-53-54.

ولنا في سياق آخر من هذا الكتاب حديث عن ملك فرعون وسلطانه، وكيف كان دافعا قويا من بين الدوافع الأخرى التي أدت إلى تطبيق نضريته الفرعونية؟!، وكيف جعل هذا الملك فرعون يستكبر ويستبد في الأرض بغير حق؟! وجعل مما أوتي من ملك أداة لشراء الذمم، وقهر الناس، والسيطرة على الأبدان والعقول، ونشر العبث واللّهو بين رعيته، والاستخفاف بهم، ويبقى الملك والمال وسيلة من وسائل بسط القوة والاستكبار في الأرض، وذلك بإيجاد آليات وطرق للسيطرة على الجماهير وجعلهم خاضعين لمنطق الجهل والاستضعاف، ومحاولة تمزيق الأمة، ونشر الفساد في مختلف الميادين: الدين -السياسة -الأخلاق -التعليم -التربية...إلخ .

والغريب أن رغم استكبار فرعون وملئه في الأرض فقد وجهوا هذه التهمة إلى موسى وأخاه هارون، بأنهما تكبرا في الأرض وتلك تهمة وجهوها لهما لكي يلفتوا أنظار الناس عن رسالة موسى الهادفة إلى أن يعدلوا عن جحودهم وتكبرهم في الأرض قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ۝﴾[122]، والمعنى: أنهم قالوا مقصودك في مجيئك إلينا بما جئت هو أن تنتقل من دين آبائنا إلى ما تأمر به ونطيعك، ويكون لكما العلو والملك علينا، بطاعتنا لك، فنصير أتباعا لك تاركين دين آبائنا، وهذا مقصود لا نراه، فلا نصدقك بما جئت به، إذ غرضك إنما هو موافقتك على ما أنت عليه، واستعلاؤك علينا، فالسبب الأول هو التقليد، والثاني الجد في الرئاسة، حتى لا تكونوا تبعا، واقتضى هذان السببان اللّذان توهمهما مقصودا التصريح بانتفاء الإيمان الذي هو سبب حصول السببين، ويجوز أن يقصدوا الذم بأنهما إن ملكا مصر تكبرا و تجبرا[123] ، ويحيلنا هذا القول أن فرعون أراد أن يلبس تهمة الكبرياء بموسى وأخاه هارون رغم أن كبريائه كان جليا للأعيان، وهذه صفة كل متكبر إذ يقع في الإثم ويلبسه غيره.

---

(122) سورة يونس، الآية 78.
(123) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط (5/181).

-الاستكبار في النفس:

تعد النفس دولة صاحبها[124]، ومصدر كل فعل وإرادة يقول الإمام القشيري:«النفس في اصطلاح أهل الحقيقة: ما كان معلولا ومذموما من أوصاف العبد، وأحواله، وأقواله، وأفعاله» ويحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في قالب البدن، وهي محل للأخلاق المذمومة، والنفس على ثلاثة أقسام.

*النفس الأمارة: هي الأخلاق الذميمة، كالشهوة، والغضب، والكبر، والحرص، والبخل، والرياء.

*النفس اللوامة: هي النفس المطمئنة إذا تدنست بأوساخ المعاصي تلوم صاحبها على ما فعل.

*النفس المطمئنة. وهي نور من أنوار القدس، قابض على جوهر القلب.[125]

وتعد النفس الأمارة أشد هذه الأقسام تأثيرا على ملكة الإنسان وسلوكه، لما تكسبه من غرور، قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ يقول: إن النفوس نفوس العباد، تأمرهم بما تهواه، وإن كان هواها في غير ما فيه رضى الله[126]، وكون النفس الأمارة مصدر كل الأفعال المذمومة فذلك يحيلنا إلى القول أن لها تأثير ملازم لتأثير الظروف الأخرى على بيئة الإنسان ومجال عيشه وحتى الأشخاص الذين يحيطون به، وعلى أهم النشاطات

(124) يجدر الإشارة في قولنا هنا (النفس دولة صاحبها) أن للنفس دور مهم في إقدام الإنسان على أفعاله و تصرفاته و في تجسيد شؤون حياته، فأي فعل ينبع من إرادة الفاعل النابعة بدورها من نفسه ، فساعة تكون النفس أمارة بالسوء و ساعة تكون لوامة ، و ساعة تكون مطمئنة راضية ، و هي في حال آخر مرتبطة بالجوارح في حال السماع أو المشاهدة أو الكلام أو الإسرار في الذات كلها مرتبطة بالنفس ، فيصح لنا المقام إلى الإشارة أن الاتصال و ما يرتبط به من أفعال مرتبط بالجوارح ، و الجوارح مرتبطة بالنفس ، فقد تأمر النفس صاحبها بسماع أو مشاهدة أو الكلام بأمور سيئة ، و بالمقابل في حال استفاقة الشخص من غفلته يأتي دور النفس اللوامة التي تلعب دور الحسيب على صاحبها فيشعر بالندم حيال تلك الأمور السيئة ، أما في حال إذا كان الاتصال بالجوارح سماعا ، أو مشاهدة ، أو كلاما بأمور حميدة يشعر صاحبها بالرضا فتكون نفسه مطمئنة راضية.

(125) أبوبكر الرازي، حدائق الحقائق،تح.سعيد عبدالفتاح،ط1،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،2002،ص ص 246-247.

(126) أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري(4/365).

التي يقوم بها، وإن كانت غلبة هذه النفس على طباع المرء فيستحيل إرجاعها إلى الطريق السوي، وهذا راجع لانصياع النفس لمنطق الهوى الضال عن سواء السبيل، والاستكبار صفة من صفات النفس الأمارة، لما يصيب المرء من عجب، وكبرياء باطني، فينعكس سلبا على تصرفاته وسلوكه الخارجي ويظن أنه على حق وغيره على باطل، وأن منهجه هو السليم وغيره خاطئ، لتتولد مع الاستكبار صفات ذميمة أخرى كالحقد، والحسد، والكذب، والغرور وغيرها من الصفات التي تجعل الإنسان يستكبر ويتجبر بغير حق.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يلزم مجانبة التكبر، لما فيه من الخصال المذمومة هي:

- **إحداها**: أنه لا يتكبر على أحد حتى يعجب بنفسه، ويرى لها على غيرها الفضل؟

- **الثانية**: ازدراؤه بالعالم، لأن من لم يستحقر الناس لم يتكبر عليهم، و كفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغيانا.

- **الثالثة**: منازعة الله جل وعلا في صفاته، إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله جلا وعلا، فمن نازعه إحداهما ألقاه في النار، إلّا أن يتفضل عليه بفضله.[127]

وكان من أمر فرعون أن نفسه الأمارة بالسوء طاوعته إلى جانب ملكه في الأرض على الاستكبار، فقد سولت له هذه النفس أنه إله يحكم في أرض مصر قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾[128]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[129]، ويبقى هذا الأمر أشد شيء يمكن أن تسوله النفس الأمارة للإنسان أن يضع نفسه في مقام الألوهية بالرغم من طبيعته البشرية، وبهذا فقد صدر منه ما لم يصدر من أحد من الكفّار والمتمرّدين، ولا من قائدهم إبليس، منها: إنكار العبودية ودعوى الربوبية.[130]

---

(127) محمد بن حبان البستي، روضة العقلاء و نزهة الفضلاء،تح محمد حامد الفقي،مكتبة السنة المحمدية،ص ص 60-61.

(128) سورة القصص،الآية: 38.

(129) سورة النازعات، الآية:24.

(130) الفيروزابادي ، بصائر ذوي التمييز(6/59).

ولا ريب أن نفس فرعون كانت في مراحلها المتقدمة من التعفن والمرض واستحالة الرجوع إلى الصواب، بل تمادت عليه بقسوة فاستيقن الحق هو وملئه وجحدوه قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[131]، يقول صاحب الكشاف:«وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحرا بيّنا مكشوفا لا شبهة فيه[132].

وأجازت تلك النفس البغيضة لفرعون أن يراها في منزلة الفوقية، يستصغر أي شيء عظيم، بما فيها عظمة الله وجلاله قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[133] فاستصغر موسى وحديثه، وعابه بالفقر فسلّطه الله عليه، وكان هلاكه بيديه، فما استصغر أحد أحدا إلّا سلطه الله عليه.[134]

فكان أكبر عدو لفرعون هو نفسه الأمارة بالسوء الذي سولت له فعل المنكرات، واستصغار من حوله، فجنى عليه غروره فلم يسره من ملكه شيء بعدما نغصه عليه استكباره وجحوده، وكما تقول حكمة قديمة:« إذا زاد الغرور نقص السرور» وحتى لحظة هلاكه استكبر في نفسه ليجد أن هذه النفس المستكبرة والمنتفخة بصور التجبر، والغرور، والحقد قد خانته قال تعالى: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[135] روي أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفلق، ومضى فيه بنو إسرائيل قال لقومه: إنما انفلق لأمري، ولما أدركه الغرق كان إيمانه في حال الاضطرار، وأيس من نفسه.[136]

(131) سورة النمل، الآية:14
(132) الزمخشري،الكشاف(777/19).
(133) سورة الزخرف، الآية:51.
(134) القشيري، لطائف الإشارات(178/3).
(135) سورة يونس الآية:90.
(136) ينظر أبو حيان الأندلسي،تفسير البحر المحيط (5/ 188).

-الاستكبار عن الآيات:

اقترن لفظ «الآيات» بمصطلح «الاستكبار» في القرآن الكريم في موضعين هما:

1- قوله تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾[137]

2- قوله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾[138]

إن المقصود بالآيات في الآيتين الكريمتين هو مجمل ما جاء به رسل الله لأقوامهم من حجج وأدلة وبراهين على صدق رسالاتهم من دلائل وأحكام وشرائع كتبك الدالة على وجود الخالق ووحدانيته، والدالة على النبوة والمعاد ونحو ذلك[139] وتشمل هذه الآيات ما جاء به موسى عليه السلام لفرعون و ملئه قصد دفعهم للهداية والعدول على ظلمهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝﴾[140]، فلم يستثن فرعون وملئه من البرهان والدليل على عظمة الله وقدرته، بل خصهم الله ببينات عديدة ليؤكد لهم أن ما هم عليه باطل، وعظمة الإله القادر، خير من عظمة الإنسان المستأله العاجز، وكانت نتيجة ذلك استكباره عن الآيات ورأى منها هو وقومه أنها سحر رغم أنه كان يعلم في قرارات نفسه أنها ليست كذلك .

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ۝﴾[141]، و قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝ فَلَمَّا

(137) سورة الأعراف، الآيات:35-36.
(138) سورة الأعراف ، الآيات:40-41.
(139) مصطفى اوعيشة ، مرجع سابق ، ص ص 159-160.
(140) سورة الأعراف الآية:103.
(141) سورة الأعراف الآيات:109-110.

جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾» [142] ، يقول الطبري: أن الله تعالى بعث موسى وهارون ابني عمران، إلى فرعون مصر وملئه، يعني. وأشراف قومه وسادتهم، (بآياتنا)، يقول:بأدلتنا على حقيقة ما دعوهم إليه من الإذعان لله بالعبودية، والإقرار لهما بالرسالة (فاستكبروا)، يقول فاستكبروا عن الإقرار بما دعاهم إليه موسى وهارون، وكانوا قوما مجرمين، يعني: آثمين بربهم بكفرهم، يقول تعالى ذكره: «فلما جاءهم الحق من عندنا»، يعني: فلما جاءهم بيان ما دعاهم إليه موسى وهارون، وذلك الحجج التي جاءهم بها، وهي الحق الذي جاءهم بها[143] ويجوز القول أن فرعون وملئه قد أحتسوا بالغيض والحسد بما جاء به موسى من آيات، فبالرغم أن السحر كان منتشرا في زمانهم بشكل ملفت للانتباه وإجبار الناس على تعلمه قال تعالى على لسان السحرة: «وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾»[144]، قال الحسن: كانوا يعلّمون السحر أطفالا،ثمّ عملوه مختارين بعد[145]، فإن سحرهم لم ينفعهم أمام عظمة الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، وذلك لأنهم تحدوا إرادة الله عز وجل فلم يغن عنهم من الله شيئا بتكذيبهم بالآيات، ووصفها بالسحر قال تعالى: «قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾»[146]، وراحوا يكيدون لموسى لما رأوا الآيات، ولم يزدهم كيدهم إلا استعلاء وغرورا قال تعالى: «فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾»[147]، قالوا: ليكن عزمكم كلكم على الكيد مجمعا عليه ولا تختلفوا فتتخذلوا،«ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا» يعني جميعا، قال الزجاج: ثم ائتوا الموضع الذي تجمعون فيه لعيدكم وصلاتكم قال ويجوز أن قوله ثم ائتوا مصطفين أي مجتمعين ليكون أنظم

(142) سورة يونس ، الآيات:75-76.
(143) الطبري ، تفسير الطبري(232/4)
(144) سورة طه، الآية:73.
(145) أحمد بن أبي بكر القرطبي،الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان،تح: عبدالله بن عبدالمحسن التركي،ط1،ج14،مؤسسة الرسالة،بيروت-لبنان،2006،ص106.
(146) سورة طه،الآية:57-58.
(147) سورة طه، الآية :64.

لكم ولأمركم واشد لهيبتكم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ يعني قد فاز ونجا اليوم من علا بالغلبة[148].

ومن المفارقات الغريبة في موقف استكبار فرعون وملئه عن آيات الله، أنهم لما رأوا ما رأوا منها تعنتوا، وزاد استكبارهم وإجرامهم، ولما اشتد عليهم الأمر التجأوا إلى موسى لكي يدعو الله يخفف عنهم من وطئها، فلما كشف الله عنهم الرجز إذا هم ينكثون عهدهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝﴾[149]، وهذه صفة الظالمين المستكبرين على مر الأزمان، فبالرغم من أن الله عزوجل يرسل من الآيات ما تبين الحق واليقين إلا أن غلبة الاستكبار والجحود تعمي بصيرتهم قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾[150]، ومن عميت بصيرته عن الحق يرى من أفعاله أنها على حق رغم بطلانها، إذ إن استكبار فرعون على رعيته خلّف فسادا عظيما، وطباعا سيئة فيهم، فانساقوا وراء استكباره، وجبلوا عليه فحتى بعد هلاكه أورثهم خوفه، واستكباره، وجحوده لنعم الله ودليل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا

---

(148) أبو الليث السمرقندي، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم،تح مجموعة من علماء الأزهر،ط1،ج2،دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان،1993،ص346.

(149) سورة الأعراف، الآيات:143-144-145.

(150) سورة فصلت، الآية 53

هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾[151]، فقابلهم الله بجنس العمل جراء استكبارهم وخوفهم ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[152]، وفي القرآن الكريم من الآيات ما تدل أن بنو إسرائيل ورثوا كل الصفات الذميمة التي كان يتصف بها فرعون فاستكبروا، وظلموا، وكذبوا، ومكروا، وكادوا، وسلبوا حقوق الناس وأراضيهم، وقتلوا ومن جملة ما قتلوا الأنبياء، وعاثوا في الأرض الفساد، فانصبغت فيهم النظرية الفرعونية بكل ما تحمله من أوصاف دنيئة.

ومن هنا يمكننا القول أن الجماهير يمكنها أن تتوارث ما يملى عليها، من طرف الحكام والقادة ومن المستكبرين وذوي المكائد،باستعمال مختلف الوسائل والأجهزة التابعة لهم، والشعور بالانصياع إنما تظهر مخلفاته عبر مرور الأيام، فتستفحل بين الأفراد وتنتقل بينهم كالعدوى، وينتشر التقليد الأعمى الذي يخفي الحقيقة المبصرة، ويظهر مصطلح الولاء المضمر، والتبعية غير المنقطعة، وذلك مظهر آخر من مظاهر العبودية الخفية، لتجني الجماهير بعد ذلك جزاء ما توارثوه انتشار الفساد، والتعفن الخلقي، والجريمة، والجهل، واللّهو، ومختلف الصفات الذميمة كما كان الحال بالنسبة لما جنوه بنو إسرائيل من انصياغ سياسة فرعون ومنهجه فيهم، ويمكن التأكيد على أن أمر فرعون لم يكن رشيدا ليس على الذين عايشوه فحسب، بل حتى الذين نحوا سياسته وتفكيره الفاسد بعد هلاكه، وحتى ليومنا هذا، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[153]، وقال عزوجل: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[154]

-الدوافع التي أدت لتطبيق النظرية الفرعونية:

من الأهمية البالغة معرفة الدوافع التي أدت بفرعون إلى تجسيد نظريته، وهذا من خلال ما استخلصناه مما تقدم من مبادئها، وكذلك ما عرضه القرآن الكريم من أسباب حقيقية التي دفعت بفرعون بانتهاج سياسته، ولأن كل من الاستكبار

(151) سورة المائدة، الآية:20-21-22-23-24.
(152) سورة المائدة، الآية:26.
(153) سورة الأحزاب، الآية:62.
(154) سورة فاطر، الآية:43.

والاستبداد مثلا أعمدة النظرية الفرعونية ومبادئها فإن هاتين العلتين في النموذج الفرعوني لهما من الأسباب ما تجعل الحجة أبلغ و الدليل أبين على ما جسده فرعون من معاني القهر و الظلم ،و الاستكبار و الاستعلاء بغير حق، فتجسدت تلك الدوافع فيما يلي:

- غلبة الخوف على الملك:

من بين الدوافع التي يجب الإشارة إليها في النظرية الفرعونية دافع المحافظة على الملك والسلطان والخوف عليهما، خوف وصل إلى حد التعلق، والتشبث، والتفكير، والبحث عن الطرق والوسائل التي تكون كفيلة بكبح أية محاولة للاقتراب أو المساس بالثروة الدنيوية المحققة والسلطة المتجبرة المكتسبة جراء التعسف والإيثار بالبطش والإرهاب ضد بنو إسرائيل، وتجسدت غلبة ملك فرعون وسلطانه على مرحلتين:

المرحلة الأولى: قبل بعثة موسى عليه السلام.

المرحلة الثانية: بعد بعثة موسى عليه السلام.

والدليل على ذلك قوله تعالى على لسان بنو إسرائيل ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾[155] وتجسد الأذى في قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل أن يأتي موسى برسالة الله إليهم[156]، فكان ذلك تسلط منه عليهم، وكذلك استغلالهم وتصنيفهم في أعمال مختلفة لكي يربو ويزداد ثراء ملكه، فكان يعذبهم فيجعلهم خدما وخولا، وصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزيه، فسامهم كما قال الله (سوء العذاب)[157]، فكان ذلك غلبة بين الملك والسلطان، فتجسدت غلبة الملك في تسخير بنو إسرائيل في خدمة ملك فرعون وتوسعته، وتجسدت غلبة السلطان في إذاقتهم سوء العذاب.

أما الأذى بعدما جاء موسى عليه السلام برسالته كان ناجما على أثرة الخوف على الملك والسلطان التي اعترت فرعون وشعر بها، فبالرغم من أن موسى قد جاءه

(155) سورة الأعراف، الآية:129.
(156) ينظر: أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري(485/3).
(157) أبوجعفر الطبري،تاريخ الطبري،مصدر سابق،ص130.

بالبينة والحجة، ورغم أن الطلب كان مجرد إرسال بنو إسرائيل والكف عن أذيتهم كما أشرنا إليه من قبل وجاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝﴾(158)، فكيف يعقل حسب منطقه الفاسد أن يطلق سراحهم وأن يفك وثاقهم، وقد استغلهم لخدمة ملكه وتكريس سلطانه، فمن بعدهم يقومون على شؤونه، ومن غيرهم يرضون بسلطان إله مغلوب على أمره؟!.

فكان فرعون مصابا بمرض نفسي، يصيب القادة والحكام، عندما يبتعدون عن الله، ولا يدينون بدين الحق، إنه مرض الفرعونية !! وهو عقدة نفسية تصيب فرعون وأمثاله، إذ إن هؤلاء يرون أنفسهم حكاما مسؤولين، آمرين ناهين، ويرون الآخرين أذلاء مستسلمين، فينسون أنهم بشر كباقي البشر، وأن حكمهم للاخرين فرصة لخدمتهم وتقديم الخير لهم، وعندما ينسون ذلك تسوّل لهم أنفسهم أنهم آلهة وأرباب، فيدعون أتباعهم وأقوامهم إلى تأليههم وعبادتهم، ويتعاملون معهم بمنتهى درجات الازدراء والاستخفاف والاحتقار! فيقصمهم الله ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر.(159)

وبهذا تنوعت أشكال حرب الاستنزاف التي شنها فرعون وملئه على بني إسرائيل، حيث كانت تهدف إلى تسخيرهم لخدمة الملك والسلطان بسن قوانين ردعية قاسية تهدف إلى ملأ خزائنهم، وازدهار اقتصادهم وثروتهم، وتلك قمة الاستغلال ومنافذ للاستعمار، فأخذتهم العزة بالإثم واستعملوا السلب والنهب، والبطش والقتل لا لشيء إلا لتحقيق المنفعة الشخصية، على حساب شؤون الرعية.

ولسكرة الملك تأثير قوي على فرعون وملئه، فلم يكن همهم إلا الحفاظ عليه بشتى الطرق والوسائل، بل كان مصدرا من مصادر دعم إدعاء فرعون، حيث نصّب نفسه إلها في الأرض، فرأى أن الأرض ومن عليها ملكه، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ(160) ۝﴾، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾، بنفسه أو بمناديه، ﴿فِي قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافة أن

---

(158) سورة الأعراف، الآية:105

(159) صلاح الخالدي، القصص القرآني(عرض وقائع و تحليل أحداث)،ط1،ج2،دار القلم،دمشق،الدار الشامية ،بيروت،1998،ص265

(160) سورة الزخرف،الآية:51

يؤمن بعضهم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أنهار النيل، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ تحت قصري أو أمري، أو بين يدي في جناني، ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ذلك، ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ مع هذه الملكة والبسطة، ﴿مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرئاسة، من المهانة وهي القلة، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما به الرتة فكيف يصلح للرسالة، و«أَمۡ» إما منقطعة والهمزة فيها للتقرير إذ قدم من أسباب فضله، أو متصلة على إقامة المسبب مقام السبب، والمعنى أفلا تبصرون فتعلمون أني خير منه.[161]

ولم يكن في الأرض يومئذ ملك أعظم من ملك مصر[162] وكانت الجنات بحافتي النيل من أوله إلى آخره من الجانبين جميعا، ما بين أسوان إلى رشيد، وسبعة خلج: خليج الإسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، وخليج سردوس، جنات متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزرع ما بين الجبلين، من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء، وكان جميع مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها[163]، فهي بذلك أرض مغارس الغلات[164]، وكان أهل مصر أهل ملك عظيم وعزّ قديم يدلّ على ذلك آثارهم في عمائرهم وهياكلهم وبيوت علمهم الموجود أكثرها في الإقليم إلى يومنا هذا، وهي آثار أجمع أهل الأرض أنه لا مثل لها في إقليم من الأقاليم.[165]

---

(161) ناصر الدين البيضاوي، تفسير البيضاوي(5/93.)

(162) لما استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر كتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أن صف لي مصر،فكتب عمرو بن العاص إليه : ..اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، و شجرة خضراء ،طولها شهر،و عرضها عشر -عشرة أيام-يكتنفها جبل أغبر و رمل أعفر ، و يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ،تجري فيه الزيادة و النقصان كجري الشمس و القمر ، له أوان يدر حلابه ، و يكثر فيه ذبابه ،تمده عيون الأرض و ينابيعها حتى إذا ما أصلخم -اشتد- ،عجاجه -نهر عجاج : كثير الماء تسمع لمائه المتدفق عجيجا أي صوتا – وتعظمت أمواجه ،فاض على جانبيه .عبد العزيز الشناوي ،مصر في القرآن و السنة،مكتبة الإيمان ، المنصورة- أمام جامعة الأزهر،ص93.

(163) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط1،ج1،1967،ص19.

(164) أبو الحسن المسعودي،مروج الذهب و معادن الجوهر،اعتنى به و راجعه، كمال حسن مرعي، ط1،ج2،المكتبة العصرية، صيدا -بيروت،2005،ص49

(165) أبو القاسم بن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، 1912 ،ص38

فاستهوت أرض مصر بجمالها وغزارة مائها فرعون وملئه، وقد أعطى الله عزوجل للماء معنى للحياة فقال ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[166]، يعني: جعلنا الماء حياة كل شيء[167]، وبالتالي يتضح أن فرعون استغل هذه الثروة (المياه)، في خدمة الأرض وما قدمته له ولقومه من خيرات، وثروة لما لها من فائدة عظيمة في إحياء الأرض قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[168]، فاعتمد اقتصاد ملكهم في الأغلب على الزراعة المقترنة بوفرة الماء، لذلك دفع هذا الأمر بفرعون للقول (وهذه الأنهار تجري من تحتي) فرأى أنه بتحكمه بالماء فإنه يتحكم بعصب الحياة كيف لا؟ وهو مورد لكل شيء، ولا تقوم للحياة قائمة إلّا به، فرأى فيما رأى من سفاهته أن الأنهار مسخرة بأمره، ولخدمة ملكه.

ولكن من الضروري أن نكشف للقارئ ما هو الدافع الحقيقي الذي جعل فرعون المستأله يتساءل عن ملكه لمصر والأنهار التي تجري من تحته! فلو كان ملكه المزعوم حقيقة له لقال مثلا لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، ونحن نرى أن قوة الدليل التي جاء بها موسى عليه السلام جعلت فرعون يشكك في ملكه لهما، ويسأل قومه أن يعطوه إجابة مطمئنة على ذلك، ويجوز كذلك أن هناك من شكك في ملكه، وهذه علامة من علامات خوف فرعون على خسارة ملكه وضياعه، ومن جهة أخرى أراد فرعون أن يختبر ولاء قومه ومدى تأثير رسالة موسى فيهم، قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي: ويحه!افتخر بنهر ما أجراه ما أجراه.[169]

وقد اتضح أن فرعون فعلا قد استخف قومه وأطاعوه في قوله هذا، وسول لهم أنه بالفعل إله في الأرض يملك كل شيء، قال تعالى ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[170]، وطاوعوه على ملكه وهللوا له، وأشرفوا على شؤونه وسهروا على حمايته، رغم أنه ملك دنيوي زائل، أنساهم عبادة الله عزوجل الذي

(166) سورة الأنبياء، الآية30.
(167) السمرقندي،تفسير بحر العلوم (366/2).
(168) سورة الحج، الآية5.
(169) مجير الدين الحنبلي، (226/6).
(170) سورة الزخرف، الآية:54.

أمدهم بما كانوا به يتبجحون، لما زيّن لهم ملك فرعون، وكلامه الكاذب المضلل المزخرف في الظاهر، كزخرفة ملكه البائد، وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: «ونادى فرعون في قومه: قال: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين، ولا يكاد يبين؟»، إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهير، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه، فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما -ومصر لا تساوي هباءة فيه- فهو يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد! والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها، ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد![171]

وهذه صفة أشباه فرعون على مر الأزمان، فهم يظهرون لغيرهم من الناس أنهم في عيش رغيد، وملك عريض، لكي يسيلوا لعابهم ويطمعون في العيش مثلهم، ولكن في الباطن ما هو إلا متاع زائل، ونعيم مصطنع، معذبين به في الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[172]، وقد بيّن الله في موضع آخر أن الملك الدنيوي إنما هو ملك متاع زائل في قوله تعالى:﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾[173].

وقد ضرب القرآن في هذا المقام مثلا بقارون الذي طغى هو الآخر بملكه كما أشرنا إليه من قبل، وكيف جعل هذا الملك يثير بعضا من قومه إلى حد أن تمنوا أن يؤتوا مثله، ولما عذبه الله به عدلوا على قولهم قال المولى عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ

(171) سيد قطب،في ظلال القرآن(3193/6).
(172) سورة التوبة، الآية:50.
(173) سورة الزخرف، الآيات:34-35.

قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ ﴾[174]، فلا نتصور في أي حال من الأحوال أن الظالم الجاحد لنعم الله يدوم ملكه وعزه، وحتى الذين يتبعونه ويحذون حذوه، قد يصيبهم ما أصابه، فالإتباع والانقياد، وراء ملذات الدنيا وزينتها مما تشتمل عليه من ملك وثراء وغيره، خصوصا إذا كان كل ذلك مبني على الباطل، يورث الحسرة في قلوب الذين اتُبِعُوا وفي قلوب الذين اتَّبَعُوا فهم سواء في الحظ مما قد يصيبهم من صغار وذلة، وهم ومحنة.

أما فرعون فكان هلاك ملكه لمجرد دعوة دعاها موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[175]، ولما تبجح فرعون بملكه للأنهار وتصرف فيها وفق مشيئته، وغدقت عليه ما غدقت من خيرات، أساء الله نعمته عليه، وتاه بها، وعذبه الله بها ونغص عليه بها، فكانت معظم الآيات تدور حول الماء الذي تاه به واستكبر، هذا في حياته، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[176] ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ ﴾[177]، فالطوفان ماء من جنس ما افتخر به فرعون، ولكنه متلف للزروع والثمار.

والقمل: قال ابن جرير: واحدتها قملة، وهي دابة تشبه القمل، أو كما قال

(174) سورة القصص، الآيات:79-80-81-82.

(175) سورة يونس، الآيات:88-89.

(176) سورة الأعراف، الآية:130.

(177) سورة الأعراف، الآية:132.

عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: البراغيث، كأن الماء لم يجد شيئا في نظافته، فها هي البراغيث والضفادع، تتعصي عليه في قدحه وآنيته وثوبه، والدم، استحال نهره دما عبيطا، فما جدوى نهره ومياهه.

الآيات التي نغصّت عيشه من جنس ما استكبر به، ومتعلقة بالماء.

قال ابن جرير:

عن سعيد بن جبير قال: لمّا أتى موسى عليه السلام فرعون قال له أرسل معي بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان، وهو المطر، فصبّ عليهم منه شيئا، خافوا أن يكون عذابا، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ، فقالوا هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليه الجراد فسلّطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك، ليكشف عنّا الجراد، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فدرسوا الحب وأحرزوه في البيوت، فقالوا قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل – وهو السوس الذي يخرج منه – فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنّا القمل، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معهم بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال فرعون: ما تلقى وقومك من هذا. قال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثبت الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل [فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا] وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دما عبيطا[178]، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم!! فقالوا من أين سحرنا ونحن لا

(178) أي دما رطبا.

نجد في أوعيتنا شيئ من الماء إلّا وجدناه دما عبيطا[179]؟

وبهذا رد الله عزوجل على إدعاء فرعون أن الأنهار تجري من تحته، بأن أراه من الآيات ما تفند قوله وتشكك فيه، وأعزّ رسوله موسى لما استهزأ منه فرعون ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[180]، بأن هرع إليه فرعون وقومه ليدع لهم الله ليكشف عنهم ما رأوه من عذاب الله، ولقد استدرجهم الله وعلم أنهم سينكثون وعدهم لموسى كل مرة، فلما زاد عنادهم وكذبهم وجحودهم بآيات الله أهلكهم الله بذنوبهم، فتركوا ورائهم ملكا عريضا ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۞﴾[181]، (ءَاسَفُونَا) معناه أغضبونا وأسخطونا، وكون المراد بالأسف الغضب، يدل عليه إطلاق الأسف على أشد الغضب.[182]

ومما يدل أن فرعون غلب عليه ملكه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ۞﴾[183]، إذ أنه استهزأ بموسى عليه السلام الذي لم يؤت من المال والملك، فكان سبب على زعمه لحكمهم بخيريته(فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ) أي: فهلا ألقي إليه مقاليد الملك إن كان صادقا لما أنهم كانوا إذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب.[184]

وبهذا كانت غلبة الملك دافعا قويا لأن يطبق فرعون نظريته، التي جنت على ملكه وملك قومه قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۞﴾[185] وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞﴾[186] فلم يغن عنهم من الله شيئا لما استكبروا في

(179) سيد حسين العفاني، الجزاء من جنس العمل، ط2، ج1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1996، ص ص 212-213.
(180) سورة الزخرف، الآية:51.
(181) سورة الزخرف، الآيات 55-56.
(182) الشنقيطي، أضواء البيان(7/273).
(183) سورة الزخرف، الآية :53.
(184) أبو السعود، تفسير أبو السعود(8/50).
(185) سورة الدخان، الآيات:25-26-27.
(186) سورة الشعراء، الآية:58.

ملكهم، واستعلوا به في الأرض وحرسوا على المحافظة عليه بشتى الوسائل والطرق، فكادوا وكذبوا وخدعوا، ولكن تركوا كل شيء للذين استضعفوهم وسخروهم لخدمة ملكهم ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾[187]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[188]، فبالرغم من حرص فرعون وملئه للحفاظ على الملك، سلب منهم، بل سلبت أرواحهم وأبدانهم، وتركوا ملكهم ورائهم، فخربوا ملكهم بأيدهم.

وهناك دليل آخر أن فرعون كان صاحب ملك وزينة، وهذا في وصية المولى عزوجل لموسى، وأخاه هارون عليهما السلام، لمّا كلمه موسى أول مرة بألّا يعجبا بملك فرعون وزينته، فقال: "...ولا تعجبنكما زينته، ولا ما يتمتع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي قديما فأخرت لهم في ذلك، فإني لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة.[189]

-غلبة الخوف على السلطان:

غلبة سكرة السلطان انبجست هي الأخرى من منبع عين النظرية الفرعونية، وكانت دافعا آخرا لتجسيد فرعون لمنطقه، وإن كنا قد أعطينا إشارة طفيفة للعلاقة التي تجمع هذا الدافع بدافع الملك، إلّا أنه من الضروري تسليط الضوء على تسلط فرعون على قومه،خاصة وأن الملك والسلطان وجهان لعملة واحدة في سياسته، بل لا ينفصلان عن بعضهما في منطقه الفاسد.

ويجدر لنا في هذا الإشارة لمعنى السلطان المقصود في هذا المقام، وهذا لأن معناه جاء متعددا في القرآن الكريم، وقد وصف كل هذه الأوجه الميروزآبادي قائلا.[190]

---

(187) سورة الدخان، الآية: 28.

(188) سورة الشعراء، الآية:59.

(189) أبو الفرج الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم،تح:محمد عبدالقادر عطا،مصطفى عبدالقادر عطا،ج1،ط2،دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،1995،ص340.

(190) الفيروزآبادي ،بصائر ذوي التمييز(3 247).

والسلطان ورد في القرآن على وجوه:

الأول: بمعنى آيات القرآن: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾[191]

الثاني: بمعنى الحجة والبرهان: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ[192]﴾، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[193] أي بحجة.

الثالث: بمعنى الاستيلاء: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[194]، ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾[195]

الرابع: بمعنى المعجزة: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[196]

وبالتالي يظهر لنا أن السلطان المقصود فيما نتعرض له، هو سلطان القوة و الاستيلاء على كل شيء دون هوادة، فكان دافعا لفرعون لكي يجسد نظريته الفرعونية في مصر، ويحكم قومه بقبضة من حديد و يذيقهم ما أذاقهم من صغار وذلة، وجعل ملئه يتبعونه، يقولون بما يقول، ويفعلون بما يفعل فزاغوا بزيغه، وأطاعوه في أمره، وقد قيل: إن في صحبة السلطان خطر. إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بروحك فالسلامة ألّا يعرفك ولا تعرفه.[197] بل كان سلطان فرعون طامة كبرى حتى على الذين لم يعرفونه، أو حتى أن تكون لهم ملكة عقل كي يعرفوا ما فعله سلطان فرعون وجبروته ببراءتهم التي سرقت أمام أنظار أهليهم دون رحمة أو شفقة، ونقصد بذلك الولدان الصغار الذين قام بذبحهم وقتلهم شر قتلة، وحتى أقرب الأقربين له مسهم فيما مسهم من ظلم وجور سلطان فرعون وقهره، فصار لا يميز بين الأخضر واليابس، والصواب والخاطئ، بل استعمل أبشع الطرق للحفاظ عليه والاستعلاء به، مستصغرا الجميع، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى

(191) سورة يوسف، الآية 40
(192) سورة الحاقة، الآية 29
(193) سورة الرحمن، الآية 33.
(194) سورة النحل، الآية 99.
(195) سورة سبأ، الآية:210
(196) سورة الذاريات، الآية:38.
(197) الفيروزآبادي ، بصائر ذوي التمييز(246/3)

ٱلْأَرْضِ ﴾[198]،أي لغالب فيها وقاهر.[199]

والغريب في الأمر أن فرعون في البدايات الأولى لبزوغ سلطانه، نجده أنه كان ذو سيرة حسنة بين أهل مصر، فروي عنه فيما روي أنه كان عطارا، وكان من أهل أصبهان فأفلس وركبه دين فخرج يلتمس ما يقضي دينه فلم تزل ترفعه أرض وتضعه أخرى حتى دخل مصر، ورأى عند باب المدينة وقر بطيخ بدرهم، وفي المدينة بطيخة بدرهم.

قال فرعون: قد صرت إلى موضع أقضي ديني وأستغني فاشترى وقرا بدرهم، فضجر، فقالوا له: هكذا سنتنا، فقال: أما ها هنا أحد يعدل أو نصير؟ فقالوا: لا ها هنا ملك، قد خلا بلذاته، وسلط وزيره على الناس ليس ينظر في شيء، فبسط لبدا على المقابر، فجعل يأخذ من كل جنازة أربعة دراهم، فصبر بذلك ما شاء الله حتى ماتت بنت الملك، فمروا بها عليه، فقال: هاتوا أربعة دراهم، فقالوا: هذه بنت الملك، فقال: هاتوا ثمانية، فما زال وزالوا يتنازعون حتى أضعف عليهم مرات، فلما رجعوا قالوا للملك، عمل بنا عامل الموتى كذا وكذا، قال: ومن عامل الموتى، فوصفوا، فبعث إلى وزيره، فدعاه فقال: أنت استعملت هذا؟(أي فرعون) قال: لا، فدعاه، فقال: من استعملك، فقص عليه القصة، و أخبره بأمر البطيخ وأنهم قالوا له أنه ليس ها هنا أحد يعدل، فلما رأيت ذلك صنعت ما ترى لينتهي إليك، فتغير وتنتبه للملك، قال فمذ كم أنت على حالك، فقال: سنين كثيرة حتى صرت إلى الأموال الكثيرة، فأمر بوزيره فضربت عنقه، واستوزر فرعون فسار فيهم بسيرة حسنة وأذاقهم طعم العيش لما كانوا فيه قبل، ان يقضي بالحق ولو على نفسه، ثم إن الملك قد مات، فقالوا من نستخلف؟ فاجتمع رأيهم فقالوا: لا نستعمل غير هذا الذي أذاقنا طعم العيش، فملكوه على أنفسهم، فلم يزل عليهم يموت قرن ويخلفهم آخرون، وتراخى به السن وطال ملكه حتى ادعى ما علمتم.[200]

ويجوز القول أن فرعون عتا بسلطانه وحكمه بسبب كبر سنه والخرف الذي أصابه جراء ذلك، فاستهوته نفسه المستكبرة لتبني فكرة الخلود ونكران الرجوع

(198) سورة يونس ، الآية:83.
(199) فخرالدين الرازي،تفسير الفخر الرازي(17 151) . النسفي، تفسير النسفي(2، 472).
(200) أبو الفرج ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم (332-333 1)

إلى الله سبحانه وتعالى (وهي علامة من علامات الكفر وجحود النعم) ويحتمل كذلك أن الانصياع التام الذي استشفه من قومه، وكذا بسطة الملك والجاه التي اغتر بها بينهم وصدت إلى حد إدعاء الربوبية والعلو ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[201] الذي كل ربّ دوني، وكذب الأحمق[202]، ولقد استخدم فرعون فضلا عن ظلم واحتقار رعيته لتثبيت سلطانه فيهم، وإطالة بقائه وسائل عديدة، يمكن وصف منبعها أنه كلّه شر، وكانت الجنايات الأربع الناشئة عن هذا الشر الفرعوني وهي: الخداع، والفساد، وتسفيه موسى ومن آمن معه، والاستهزاء بهم، فانظر إلى ما تضمنت هذه الجنايات الأربع من النتائج المتسلسلة المترتبة على فرعون وملئه، في الجمل السبع، وهي: تحميقهم بطلب المحال، ثم تسفيههم بإضرار أنفسهم بنية المنفعة، ثم تجهيلهم بعدم التمييز بين الضر والنفع، ثم ترذيلهم بخبث الطينة ومرض معدن الصحة وموت منبع الحياة، ثم تذليلهم بتزييد المرض في طلب الشفاء، ثم تهديدهم بألم محض يولد ألما صرفا، ثم تشهيرهم بين الناس بأقبح العلامات نعني الكذب.[203]

وبالتالي يظهر لنا أن فرعون في سلطانه وحكمه انتهج سياسة مبنية على التجبر، ومحاولة تكبيل أفواه الناس عن قول الحق، وكذا تكبيل عقولهم لمعرفة معاني الحق الذي جاء به موسى من ربه فسلّط فرعون على قومه التيه والعمى، والاحتكام إلى سلطان الهوى، فصارت لديهم دعاوى الباطل التي ناد بها أمام الملأ حق، ودعوة موسى للطريق القويم باطل، وهذه هي فعلا غلبة السلطان الجائر، الذي يسعى إلى تخويف الرعية وسحقها، والتلاعب بعقول أفرادها.

إنها سكرة السلطان والتمسك بالعرش، والخوف من فقدانهما، فقد ظن فرعون أنه بمجرد الانصياع إلى الحق وإرسال بنو إسرائيل مع موسى أنه إنقاص لسلطانه والتدخل في شؤون حكمه، هذا الحكم الذي جعل الشعب المصري يذوب كلّه في إرادة فرعون، وصار فرعون هو مصر، ومصر هي فرعون، وهذا أول ما يفعله الاستبداد بالسلطان والحكم بالشعوب، إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر

(201) سورة النازعات، الآية:24.
(202) الطبري، تفسير الطبري(454/7).
(203) ينظر:بديع الزمان سعيد النورسي ، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، تح إحسان قاسم الصالحي،ط3،دار سوزلر للنشر،مصر،2002،ص92.

حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته كإنسان، وهذا ما فعله فرعون موسى بشعب مصر[204]، وأظهرت أجهزة الحكم في سلطان فرعون تواطؤها مع سياسته القمعية ومنهجه الظالم، بل وفي كثير من الأحيان كانوا مصدرا لاتخاذ القرار، ودافعا قويا لتطبيقه، ويعزى ذلك إلى طمعهم المتزايد في التقرب إلى فرعون والحفاظ على مناصبهم والترف والبذخ الذي كانوا يعيشون فيه، تحت سطوة السلطان الظالم، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾[205]، قيل بقوته وسلطانه[206]، واتخذ من هذه القوة والسلطان سلاحا ردعيا ضد من يقف ضده أو يتوانى في خدمته، أو لمجرد التفكير في مخالفة قواعده، أو الخروج عن إرادته المتعجرفة.

بل وفي المقابل الذي يحمي سلطان فرعون يقربه إليه، ويغدق عليه من خيراته قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝﴾[207]، وكان يقصد بذلك تقريبهم منه وتعظيمهم، لأن المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة[208]، وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شي سوى الأجر والمصلحة[209]، بل وصلوا إلى حد القسم بعزته ومدح ألوهيته، قال تعالى ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝﴾[210]، قال الطبري في معنى (وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ) أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه، ومنعت مملكته[211]، فأقسموا بعزة فرعون على أنهم يغلبون ثقة منهم باعتقاد ضلالهم أن إرادة فرعون لا يغلبها أحد لأنها إرادة آلهتهم[212]

---

(204) ينظر: أحمد بهجت، مرجع سابق، ص 08.
(205) سورة الذاريات، الآية:39.
(206) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط(139/8).
(207) سورة الأعراف، الآيات:113-114.
(208) الزمخشري ، الكشاف (378/9).
(209) السيد قطب ، في ظلال القرآن(2095/5).
(210) سورة الشعراء: الآية 44.
(211) أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري (506/5).
(212) ابن عاشور تفسير التحرير و التنوير(127/19).

وهذه سياسة الظالمين المصابين بهوس السلطان عبر الأزمان، يقربون منهم من يخدم مصالحهم ومن يساهم في تسيير أمورهم، لا يأخذون بعين الاعتبار ذوي الكفاءات والسير الحسنة، وقد يستهدفون أشخاصا من لهم صيت وذاع في مجتمعاتهم لكي يستعملوبهم كأبواق يؤثرون بصورة مباشرة على الناس، فيضللوبهم ويضلوبهم عن الحق، ويوهمونهم بزخرف القول غرورا، وهذا كلّه لحماية المصالح، وتثبيتها، وهذه صورة أخرى من صور الإلهاء وبث سموم الغفلة، فالطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية.[213]

ومن هنا حرص فرعون كل الحرص للمحافظة على سلطانه، وتأليه حكمه متخطيا شتى أساليب الحوار الراقي، ليستعمل الكذب، والمكر، والخداع، ولغة القوة لبسط نفوذه المتهالك، وإدعائه الباطل، وتغليبه لسلطان الهوى على سلطان السيادة، وأمارة سلطانه تلك القوة العسكرية الضخمة التي كان يمتلكها آنذاك، هو ووزيره، والتي استعملاها في ابطش والترهيب، واستعراض القوة، وتخويف الرعية، وقد وضع فرعون وهامان في حسبانهما تسخير هذه القوة العسكرية لإهانة وإذلال بنو إسرائيل، وإضعاف شوكتهم فقتل بها فرعون الغلمان، من بعد بعثة موسى عليه السلام، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل لملأ بني إسرائيل، لئلا تكون لهم شوكة يمتنعون بها أو يصلون على القبط بسببها[214]، وبالتالي شملت حماية العسكر لكل من ينضوي تحت لواء فرعون وكفره، فكان منعة لهم وأداة لبسط نفوذه.

وكانت هذه القوة تتحرك بإشارة منهما، وتأتمر بأمرهما، والدليل على ذلك أن لفظ الجنود قد اقترن في القرآن الكريم بضميرهما:

قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[215]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾[216]

(213) السيد قطب، في ظلال القرآن(2593/5).
(214) ابن كثير، البداية و النهاية(592/2)
(215) سورة القصص، الآية:6.
(216) سورة القصص، الآية:8.

وإضافة الجنود لضميرهما إما للتغليب أو لأنه كان لهامان جند مخصصون به وإن كان وزيرا أو لأن جند السلطان جند الوزير[217]، وفي موضع آخر ينسب لفظ الجنود لضمير فرعون وحده، لأن جنود هامان من جنود فرعون يشكلون حلفا واحدا منضوين تحت لواء سلطان فرعون وحكمه.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝﴾[218] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝﴾[219] وكل هذه الآيات القرآنية توضح أنه كان لفرعون قوة عسكرية مرعبة التفت حول سلطانه، وجهزت في أي وقت للاستجابة لأمره قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝﴾[220]، يقول تعالى ذكره: ﴿فأرسل فرعون في المدائن يحشر له جنده وقومه﴾[221]، وتلك قوة يدّخرها فرعون في المدائن يدعوها عند الحاجة للتعبئة والتفير، وقام بتسليحها وبث الحماسة فيها، بكلمات محملة بالتحقير والتقليل، والازدراء بموسى وقومه المستضعفين، كلمات جنت عليه وعليهم قائلا: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝﴾[222]، يعني طائفة وعصبة وجماعة قليلون[223]، وفي نفس الوقت أكد عليهم بأن يتوخوا الحيطة والحذر قائلا: وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ[224] ۝، أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم[225]، فجدّ في السير وراء موسى وقومه وتمعن في الطلب حتى أوشك أن يقترب منهم، لأنهم -على زعمه- عبيد آبقون، وأتباع مارقون وكان قد جيّش جيشه، وحشد خيله ورجله وسار وراء موسى ومن تبعه حتى صار منهم قاب قوسين أو أدنى[226]

(217) الألوسي، روح المعاني(44/20)
(218) سورة القصص، الآية 39.
(219) سورة القصص، الآية:40.
(220) سورة الشعراء، الآية:53.
(221) الطبري، تفسير الطبري(508/5).
(222) سورة الشعراء، الآية 54.
(223) السمرقندي، تفسير بحر العلوم(474/2)
(224) سورة الشعراء، الآية:56.
(225) ابن كثير،تفسير ابن كثير(342/3).
(226) محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، القصص القرآني، دار الجيل بيروت، ص ص131 132

ومن خلال هذا يظهر لنا أن فرعون إضافة إلى تولي زمام سلطانه، تولى من جهة أخرى زمام قيادة جنده، وهذه صفة المستبدين المستكبرين، فهم يرون أن بتولي قيادة الجيش وتسخيره لحماية حكمهم، ومصالحهم، يدرأون عن أنفسهم أية محاولة للانقلاب أو العصيان، أو الخروج عن الطاعة، وهذا وجه آخر من أوجه ممارسة فعل الإنقياذ وبسط القوة الموهمة، وفي موضع آخر يتضح أن جيش فرعون كان يتسم بالضخامة والقوة مقارنة بالعدد الضئيل للرعية المقهورة المظلومة التي لم تستطع مواجهة جيشه الجرار، وقد أعطى فرعون للجيش وتجهيزاته أهمية بالغة لتثبيت أركان سلطانه وحمايتها، ونبع هذا الاهتمام من خوفه الشديد الذي لازمه في نفسه، والهاجس القائم على أن موسى جاء لسلب إزار سلطانه، فسارع إلى قمع أية محاولة للتمرد عليه أو الخروج عن طاعته وتكليف الجند بالمهام القذرة من قتل وتعذيب وسجن وتجسس، وغيرها ساعيا لإخضاع الأعناق وطأطأتها تحت قدميه بمنطق القوة والقهر، لتجد الرعية نفسها مذعورة مغلوبة على أمرها، تشتكي في كل لحظة ضعفها وهوانها لموسى عليه السلام، والدليل في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾[227]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾[228]، أي: لملحقون متتابعون بالهلاك على أيديهم[229]، فكان خوفهم شديد من القوة لرهيبة التي لاحقتهم، والمعبئة بكل أنواع السلاح والعدة.

إن غلبة السلطان، بقدر ما كانت دافعا قويا لفرعون لتطبيق نظريته وترسيخ فكره الظالم المستبد بقدر ما جنت عليه وعلى قومه - بل سلطانه شمل الحياة الدنيا، التي لا سلطان له بعدها-[230]، بقدر ما كانت سببا في هلاكه وهلاك قومه، فكل ما بني على باطل فهو باطل ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[231]، فلم يغن حرص فرعون وملئه على الحفاظ على السلطان الدنيوي

(227) سورة الأعراف، الآية: 129.
(228) سورة الشعراء، الآية: 61.3.
(229) البيضاوي، تفسير البيضاوي (4/140).
(230) مع بعض التصرف: الطبري، تاريخ الطبري، ص ص 132-133.
(231) سورة القصص، الآية: 40.

والقوة والمنعة التي منحها الله إياهم، من عذابه شيئا بل هلكوا جميعا مخلفين ورائهم ملكا وسلطانا عظيما، ورحلوا إلى صغار وعذاب أليم.

وما أشبه الأمس باليوم، حيث صارت غلبة السلطان هاجسا قويا لدى مرضى النفوس، وعبدة الهوى، يستخدمونها لقهر الناس، واستعلائهم، والتأثير فيهم، وصارت جملة البقاء للأقوى سائدة في جميع مناحي الحياة، باستعمال مختلف الوسائل والأدوات، للتمكين في الأرض بغير الحق، واستعراض القوى. وإيهام الجماهير بعقدة الاستضعاف بمنطق لغة الجلاد، والمناداة بتمثيلية فرعون(**مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ**) وانسياق الجماهير العريضة ورائها، لدليل قاطع بأن النظرية الفرعونية لم تنقطع بزوال سلطان فرعون، بل ستستمر باستمرارية سيناريو خداع الناس وشراء ذممهم، وتلهيتهم عن الأمور التي من شأنها أن تحدد مصيرهم، بل صار السلطان والسعي لبلوغ مرامه دافعا قويا لخطف الأضواء كما خطفها تسلط فرعون بين قومه.

-وقوف الأتباع والمتبوعين إلى جانب باطل فرعون:

جسّد الأتباع والمتبوعين دافعا آخرا لترسيخ النظرية الفرعونية الاستبدادية، وذلك بمساندة وموافقة فرعون في أفعاله وأقواله، والخضوع لمنطقه الضال، والانصياع له بالسمع لكلامه، والطاعة العمياء لأوامره، بل كان لهم دور محوري في تفاقم استكبار فرعون واستعلائه في الأرض، وتنصيب نفسه إلها يُعبد من دون الله، والخنوع له بالذل والهوان تارة، وبالعبودية تارة أخرى.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل تعداه إلى درجة قولهم بما يقول، والعمل بما يعمل، والإقرار بما يقر، وتلك قمة الإتباع و الذوبان في المنطق الفرعوني الفاسد، فبالرغم من أن كل من الأتباع المستضعفين، والمتبوعين المستكبرين يدخلون في حيز الإتباع لملك فرعون وسلطانه، ارتأينا إلى تقسيم كل من وقف إلى جانب فرعون وسانده في طغيانه وظلمه، إلى أتباع ومتبوعين، وذلك لنعرف الدور الذي لعبه كل واحد منهم في النظرية الفرعونية وتفصيل ذلك من خلال ما ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن حال الأتباع المستضعفين من جهة والمتبوعين المستكبرين من جهة أخرى.

-المتبوعون من قوم فرعون:

المتبوعون هم الكبراء وسادة القوم الذين ذكرهم القرآن الكريم جنبا إلى جنب مع فرعون في آيات عديدة واقتران هذه الضمائر بضمير فرعون لدليل على موافقة منطقهم لمنطقه، وفكرهم لفكره، وكفرهم وجحودهم لكفره وجحوده، وسنقوم بذكرهم بالتسلسل على حسب مراتبهم، ومنزلتهم، وقربهم من فرعون، أما الأسباب التي جعلت المتبوعين يسلكون الطريق المعوج الذي سلكه فرعون المبني على الباطل وإغواء الأتباع المستضعفين بحيث سخرهم فرعون لخدمة ملكه وسلطانه والحفاظ على مكتسباته وجاهه، وترسيخ إدعائه المزعوم أنه إله ورب في الأرض يعبد هي:

1 - انتفاش نفسياتهم وانتفاخها، وشعورهم بأنهم أكبر بكثير من حجمهم الطبيعي.

2 - استحواذ فرعون عليهم، وإغواؤه لهم، وتحويلهم إلى حزبه، ليكونوا جنودا وأعوانا له.

3 - كفرهم بالله، ونسيانهم له، وتعديهم على حق الله في العبادة والاستعانة والحكم والتشريع، وموافقتهم لادعاء فرعون بالألوهية والربوبية، وتعبيدهم إياه من دون الله.

4 - عدم إيمانهم بالآخرة، بحيث لا يحسبون حسابا للنهاية، ولا للوقوف بين يدي الله، ولا لاستقرارهم في نار جهنم، فلو آمنوا لاستعدوا له وحرصوا على النجاة منه.

5 - انحرافهم، وانكبابهم على المعاصي والذنوب، وانغماسهم في الشهوات والملذات، وممارسة حياتهم بصورة إباحية بهيمية!

6 - اغترارهم بما جعل الله تحت أيديهم وبيد فرعون من مظاهر المال والجاه والمنزلة والسلطان، وتخدرهم بالقيادة والسيادة والمنصب والزعامة، وتحويلهم ما تحت أيديهم إلى أداة ضغط واستكبار، واستعباد لبني إسرائيل، وفرصة للاستحواذ على أكبر قدر ممكن من المنافع والمصالح الشخصية في ظل سلطان فرعون.

7 - رضوخ الأتباع المستضعفين لهم، ورضاهم بما يمارسه هؤلاء المتبوعين من استخفاف وازدراء و استعباد، وتنازل الأتباع عن وجودهم وشخصياتهم

وآرائهم، وإرادتهم وحرياتهم وعقولهم، وقبولهم أن يكونوا مجرد أصفار ضائعة أمام فرعون والمتبوعين (الأتباع المستكبرين).[232]

وبالمقابل كانت كل هذه الأسباب دافعا لفرعون لكي يتمادى في غطرسته واستكباره، بل وكانت تلك الأسباب تدور حول سبب واحد ألا وهو سعيهم إلى الحفاظ على مكتسباتهم المادية وكذلك المحافظة على قربهم من فرعون وتاجه، فكان أقربهم إليه هامان[233]، وكان وزير فرعون، وأصله من خرسان من قرية يقال لها بوشنج، وكان قد قرأ كتب المتقدمين، وكان له اليد الطولى في حساب النجوم، وكان يستدلّ من طالعه على مجمل أحواله وأحوال فرعون، وذكر شواهد شقاوته وخذلانه في مواضع من الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[234]، ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[235]، ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾[236]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ إلى قوله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾[237]، يقال: خمسة وزراء مالهم سادس، اثنان مسلمان وثلاثة كفّار، أمّا المسلمان فهارون وزير موسى ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى﴾[238]، والثاني آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام، وأما الثلاثة الكفرة: فبزر جمهر وزير نوشروان، وأرسطا طالس وزير ذي القرنين، وهامان وزير فرعون.[239]

والشواهد عديدة على اقتران ذكر اسم هامان بفرعون، وهذا دليل صارخ على تلك الصلة القوية التي كانت تجمع بينهما، وتلك الثقة الكبيرة التي وضعها فرعون في وزيره، وكذلك تشاركهما في الإثم والعدوان ومعصية الرسول موسى -عليه السلام- حيث كان سندا قويا في تطبيق النظرية الفرعونية، والمضي بها قدما، فكان

(232) مع بعض التصرف،صلاح عبدالفتاح الخالدي، الأتباع و المتبوعين في القرآن الكريم،ط1،دار المنار للنشر و التوزيع، عمّان -الأردن،1996،ص190
(233) هامان: اسم أعجميّ
(234) سورة القصص، الآية:8.
(235) سورة القصص، الآية:6.
(236) سورة العنكبوت، الآية:39.
(237) سورة غافر الآيات:23-24.
(238) سورة طه، الآيات :29-30
(239) الفيروزآبادي،بصائر ذوي التمييز (72/6).

الناطق الرسمي باسم سلطان فرعون، وحامي ظهره من أية محاولة للخروج عن طاعته أو عصيانه، وحامل لسياط ظلمه في وجه المستضعفين من أجل إخضاعهم لعبوديته، وكان أهلا للمشورة و دافعا لاستزادت عمى بصيرة فرعون وترديبها، فكان كلما برز نور في قلب فرعون أطفأه هامان بمشورة رأيه.

ثم إن الله عزوجل أوحى إلى موسى وهارون أن ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[240]، فأتياه فقال له موسى: هل لك يا فرعون في أن أعطيك شبابك ولا تهرم، وملكك لا ينزع منك، ويرد إليك لذة المناكح والمشارب والركوب، فإذا مت دخلت الجنة؟ تؤمن بي! فوقعت في نفسه هذه الكلمات، وهي اللّينة، فقال: كما أنت حتى يأتي هامان، فلما جاء هامان قال له. أشعرت أن ذلك الرجل أتاني؟ قال. من هو؟ وكان قبل ذلك إنّما يسميه الساحر، فلما كان ذلك اليوم لم يسمه الساحر قال فرعون: موسى، قال: وما قال لك؟ قال: قال لي كذا وكذا، قال هامان: وما رددت عليه؟ قال: قلت: حتى يأتي هامان فأستشيره، فعجّزه هامان وقال: قد كان ظني بك خيرا من هذا، تصير عبدا يَعبد بعد أن كنت ربا يُعبد![241]

وبالتالي استدرج هامان فرعون بزخرف القول غرورا، وأعماه عن الحق وأبقاه في دائرة الضلالة والطغيان، وتلك صفة الأتباع المستكبرين يزينون للحكام الظالمين أفعالهم ويصدونهم عن الحق، ويحسبون أنهم مهتدون، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:«إذا أراد الله بالأمير خيرا، جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك، جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكّره، وإن ذكّره لم يعنه».[242] وكان لهامان سلطة عسكرية في كنف سلطان فرعون، والدليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[243]، ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[244]، وإن كان فرعون هو القائد العسكري

(240) سورة طه، الآية: 44.
(241) أبو جعفر الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، ص 138.
(242) أبو زكريا محي الدين النووي، صحيح رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين ،تح:محمد الهلالي، دار غراس للنشر و التوزيع، الكويت،ص300.(رواه أبو داوود بإسناد جيد على شرط مسلم)
(243) سورة القصص، الآية:8.
(244) سورة القصص، الآية:6.

والروحي الأعلى للجيش فإن هامان هو الآخر، دور قيادي ورتبة عسكرية عالية خولت له لأن يأتمر الجند بأمره، وهذا كله لغاية حماية عرش فرعون، وملكه وسلطانه، فمن شأن الحكام المستبدين أن يضعوا ثقتهم في تسيير الشؤون العسكرية في الرجال الذين يثقون بهم، ويأمنون منهم شر الانقلاب عليهم.

ولم يكتف فرعون بتكليف هامان بمهام الكيد والاعتداء على من في الأرض، فكلّفه بمهمة العمارة والبناء -وذلك ببناء صرح-[245] قصد الإطلاع على من في السماء قال تعالى:﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ[246] ۝﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ[247] ۝﴾، وإسناد الإيقاد على الطين إلى هامان مجاز عقلي باعتبار أنه الذي يأمر بذلك كما يقولون: بنى السلطان قنطرة وبنى المنصور بغداد، وكانت أوامر الملوك في العصور الماضية تصدر بواسطة الوزير فكان الوزير هو المنفذ لأوامر الملك بواسطة أعوانه من كتاب وأمراء ووكلاء ونحوهم، كل فيما يليق به[248] من خلال هذا كلّه، كان هامان دافعا قويا لاقتراف فرعون ما اقترفه، وعونا مؤازرا لتطبيق نظريته الفرعونية وتجسيدها على أرض الواقع، فلم يقدم النصح لفرعون بل زاد من ضلالته واستكباره وجحوده، وحالفه على الشر، وأخذ بيده لسبل الهلاك والخسران.

من جهة أخرى كان لملأ فرعون دور كبير في تجسيد النظرية الفرعونية، لما ميّز هذا الملأ من ارتباط قوي بفرعون، إلى درجة ذوبانهم في منطقه، والعمل بنظريته، ولقد استعملهم فرعون في شؤون حكمه، وكذلك أداة تربص بها لأعدائه،

---

(245) الصرح بناء من اجر ،و كان فرعون أول من طبخ الاجر ،و كان نظرا طويلا مسه و هو المنارة ، و كان بلاطه خبث القوارير ،و كان الرجل لا يستطيع القيام عليه مخافة أن تنسفه الرياح و كان طوله في السماء خمسة آلاف دراع و عرضه ثلاثة آلاف دراع، فلما فرغ من بنائه جاء جبريل -عليه السلام-فضرب جناحه على الصرح فهدمه.ينظر: السمرقندي ، تفسير بحر العلوم (517/2).

(246) سورة غافر ، الآيات: 36-37.

(247) سورة القصص، الاية:38.

(248) ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير(123/20).

ومن جملة ما اختصوا به هو تفانيهم في الإخلاص له، والملأ هم أشراف قومه[249]، وقد بيّن القرآن الكريم في آيات كثيرة هذا الارتباط وأن الله عزوجل أرسل موسى وأخاه هارون -عليهما السلام- خصيصا إلى فرعون وملئه، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[250]، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[251]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[252]،﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[253]، ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[254] فالملأ هم أعمدة نظام حكم فرعون، من قادة الجيش والكبراء، الذين اعتمد عليهم فرعون في حكم قبضته على الأتباع المستضعفين، وجعلهم منساقين وراء فكرة أن لا إله غيره قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[255]، وبالمقابل ساهم هؤلاء الملأ بشكل مباشر في إيهام فرعون بأنه الإله الذي لا يجدر ترك عبادته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[256]، وجاءت هذه الموافقة التامة والإذعان، ملازمة للمصالح والمكاسب المحققة في كنف حكم فرعون، حيث أغدق عليهم بشتى أنواع النعم والخيرات، بل وأسند لهم تسيير شؤون الحكم والسلطان.

وجعل فرعون منهم سدا منيعا في مواجهة دعوة موسى عليه السلام للحق، وائتمروا بأمره، وشاركوه كل الصفات الذميمة التي وصفه الله بها في القرآن الكريم، فكانوا مستكبرين ومجرمين، كاستكباره وإجرامه، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ

(249) الشوكاني، تفسير الفتح القدير،ص490
(250) سورة الأعراف، الآية:103.
(251) سورة يونس، الآية:75.
(252) سورة هود، الآيات:96-97.
(253) سورة المؤمنون، الآية 46.
(254) سورة القصص، الآية:32.
(255) سورة القصص، الآية:38.
(256) سورة الأعراف، الآية:127.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[257]، وشاركوه إضافة لاستكباره، استعلائه في الأرض ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾[258]، أي طلبوا الكبر وتكلفوه فدم ينقادوا للحق، وكانوا قوما عالين مترفعين من عادتهم الاستكبار والتمرد، متكبرين على أهل ناحيتهم ومن في بلادهم من بني إسرائيل وغيرهم بالظلم قاهرين لهم[259]، وشاركوه كذلك الفسق ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[260]، أي: من الرؤساء والكبراء،إنهم كانوا قوما فاسقين، أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه[261]، وشاركوه كذلك الضحك والسخرية على الآيات التي جاء بها موسى قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[262] أي فلمّا جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون استهزاء وسخرية[263]، ولقد شكّلت هذه المشاركات كلّها مجتمعة قمة الولاء والإتباع[264] والغريب في الأمر أن حتى أقوالهم كانت مطابقة لأقوال فرعون فتارة يقول فرعون وتارة أخرى يقول الملأ فتشابهت أقوالهم وقلوبهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[265]، وقال فرعون نفس القول تقريبا في

(257) سورة يونس ، الآية:75.
(258) سورة المؤمنون، الآيات:45-46.
(259) البغوي، تفسير البغوي(310/3).
(260) سورة القصص، الآية.32.
(261) انظر.تفسير الطبري(73/20).
(262) سورة الزخرف، الآيت.46-47.
(263) انظر.تفسير النسفي(116/4)وروح المعاني(87/25).
(264) لقد أخذ الإتباع و الولاء في يومنا هذا عدة أشكال و صور ، فأصبح لبعض الأشخاص من ذوي النفوذ و السلطة أتباع و موالين، و حتى صار لبعض الميادين و بعض الوسائل و الأجهزة أتباع و موالين، كقولنا مثلا جمهور كرة القدم ، أو جمهور وسائل الإعلام، و الشيء الملاحظ فيما فساه أن مثل هذه الجماهير أعلنت ولاءها و إتبعها الهستيري لهذه الميادين و هذه الوسائل و ولو بصورة خفية مضمرة ،وصفها الدارسين بمصطلح التأثير، و ظهر مصطلح التفاعل ،و المشاركة و الإشتراك الذي ترجم بدوره مفهومي الولاء و الإتباع .
(265) سورة الأعراف، الآية:109.

موضع آخر ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ واستخدموا كل وسائل الظلم والطغيان، ونصبوا المصائد والمكائد لموسى ومن معه ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[266]، أي إن الملأ-وهم وجوه أهل دولة فرعون-يأتمرون بك أي يتشاورون بسببك، وإنما سمي التشاور ائتمار لأنّ كلا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر ليقتلوك، فاخرج من المدينة قبل أن يظفروا بك إنّي لك من الناصحين[267]، قال الأزهري: ائتمر القوم وتآمروا أي: أمر بعضهم بعضا[268]، ونفهم من قول الأزهري أن الملأ كانوا على مراتب في سلطان فرعون يوجهون الأوامر تنازليا، وينقلون المعلومات تصاعديا، والدليل على أن المعلومات كانت تنتقل تصاعديا في ملأ فرعون، قول الطبري: فلما نظر إلى موسى-أي الإسرائيلي الذي قتل لأجله القبطي بالأمس-قد أقبل نحوه ليبطش بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي، قال الإسرائيلي وفرق من موسى أن يبطش به من أجل أنه أغلظ الكلام ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[269]، فتركه وذهب القبطي، فأفشى عليه أن موسى هو الذي قتل الرجل[270]، وقد قام هذا الرجل بنقل المعلومة إلى الملأ المشرف على المدينة، ليتناقلونها بدورهم حتى وصلت إلى فرعون الذي أمر بالسعي وراء طلب موسى وقتله، وقال للذين يطلبونه: اطلبوه في بنيات الطريق، فإن موسى غلام لا يهتدي إلى الطريق[271]، فأصبح موسى مطلوبا في كافة أنحاء المدينة.

وبالتالي تقوّى فرعون بمدئه، فآزروه وعزّروه واتبعوا الضلالة التي جاء بها، واستخدموا شتى الطرق والوسائل التي من شأنها أن تحمي ملك فرعون وسلطانه، وبالتالي حماية مصالحهم، فعتوا في أنفسهم عتوا كبيرا، ولما أعلنوا الولاء لفرعون

(266) سورة القصص، الآية:20.
(267) الألوسي ،روح المعاني (58/20).
(268) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (254 16).
(269) سورة القصص، الآية 19.
(270) ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، ص132.
(271) المصدر نفسه،ص132.

بالسمع والطاعة، واستهواهم فرعون بملذات السلطان وزخرفه، وبدورهم استهووا فرعون بالقوة والمنعة جراء توليهم لمناصب حساسة في حكمه، وكذلك ائتمارهم بأوامره، والإذعان لرأيه وباطله، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

والملاحظة العجيبة المطردة في قصص القرآن أنّ الذين كانوا يقودون الكفار في مواجهة الأنبياء هم الملأ المستكبرون، فنوح عليه السلام واجه الملأ الذين كفروا من قومه، وهود عليه السلام واجه الملأ من قومه، وصالح عليه السلام واجه الملأ من قومه، وكلّ نبي واجه الملا من قومه، وحتى الأنظمة المعاصرة تعتمد على "الملأ" في حكمها، وهذه الظاهرة واضحة للعيان، وإن كانت في الأنظمة المعاصرة أكثر أهمية، وأعمق رسوخا وانتشارا، وأشد تأثيرا وخوفا ورعبا.[272]

ولا يخفى علينا كذلك مساهمة آل فرعون في تجسيد ظلم فرعون و استبداده، وشهد القرآن الكريم على الجرائم التي ارتكبوها في حق بنو إسرائيل، حيث أذاقوهم شتى أنواع البأس والإذلال، بالقتل والتعذيب، وهذا كلّه لأجل بقاء ملك فرعون واستمرار سلطانه، قال تعالى: **وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**[273]، وقوله تعالى: **وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**[274]، إذ ذكّر الله سبحانه وتعالى بنو إسرائيل بنعمة إنقاذهم من بطش الآلة التعذيبية والإجرامية المتمثلة في آل فرعون، حيث يتضح لنا أن لهؤلاء دور مهم في توطين النظرية الفرعونية ومحاول ترسيخها بمنطق القوة والقهر.

ولا بأس لنا في هذا المقام أن نعرّج على أوجه ذكر الآل في القرآن الكريم كما ذكرها الفيروزآبادي في تزيل اللبس على القارئ فيما يتعلق بمقصودنا بآل فرعون - ولو أن هناك اختلاف لدى كثير من المفسرين في معناها - حيث قسمها إلى ثلاثة أوجه:

(272) صلاح عبدالفتاح الخالدي، مرجع سابق،ص ص173-174.
(273) سورة البقرة، الآية:49.
(274) سورة الأعراف، الآية :141.

الأول: بمعنى القوم والتبع: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾[275]

الثاني: بمعنى أهل البيت والحاضرين من أهل القوت والنفقة: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾[276]

الثالث: بمعنى القرابة والذرية الكلية ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾[277]، ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[278] وقيل: الآل مقلوب من الأهل؛ لأنه يصغر على أهيل؛ إلا أنه خص بالإضافة لأعلام الناطقين، دون النكرات، ودون الأزمنة، والأمكنة، يقال آل فلان، ولا يقال: آل رجل، ولا آل زمان كذا، وموضع كذا، ويستعمل فيمن يختص بالإنسان (اختصاص ذاته) إما بقرابة قريبة، أو بمولاة، ولا يستعمل الآل إلا فيما شرف[279].

إذن آل فرعون كانوا من قومه وأتباعه، منحهم فرعون منزلة مشرفة في حكمه، وهذا لموافقتهم لرأيه، ومشاركتهم له تكذيب موسى، والآيات التي جاء بها من ربه قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[280]، وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾[281]، ودأبهم بمعنى: صنعهم[282]، وتكذيبهم وجحودهم للنذر ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[283] أي: كذبوا بتسع آيات كلها[284]، فبالإضافة لآيتي اليد والعصا، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ

---

(275) سورة القمر، الآية41.
(276) سورة القمر، الآية:34.
(277) سورة آل عمران، الآية:33.
(278) سورة مريم، الآية 6.
(279) الفيروزآبادي ، بصائر ذوي التمييز(2/162-163).
(280) سورة آل عمران، الآية:11.
(281) سورة الأنفال، الآية 54.
(282) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن (3/127)
(283) سورة القمر، الآيات:41-42.
(284) البيضاوي، تفسير البيضاوي(5/168)

ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ[285] ۝ فكانت هذه عقوبتهم من عقوبة فرعون في الدنيا، لعل وعسى أن يعدلوا على ما كانوا فيه من ضلالة، وإتباع لهوى فرعون وطول أملهم، والسعي إلى الإبقاء على نفوذهم، ونصيبهم من الملك والسلطان، الزائل زوال ملك فرعون وسلطانه، قال الشيخ الشعراوي: لم يأت الهلاك لفرعون وقومه فورا، بل جاء على مراحل، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه يأخذ الكافرين بالشدة، ليذكرهم بقوته وقدرته لعلهم يتوبون إلى الله ويرجعون إليه.[286]

ولقد منحهم فرعون عدة امتيازات، نظير تعاونهم وتظاهرهم معه على موسى، وتسخيرهم كواجهة لتجسيد الأعمال القذرة كترهيب الناس وإفزاعهم، وقتل الغلمان بحثا عن قتل الغلام المنتظر المنجي من كيد فرعون وظلمه، وفي آخر المطاف خذلوا إلههم المزعوم الجالس على عرش الباطل، بالتقاط موسى عليه السلام ليكون عدوا وحزنا لهم، فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۝[287]، إن أخذهم إياه كان سببا لحزنهم فكأنهم أخذوه لذلك وإنما كان أخذهم لم يكن لذلك.[288]

وقابلهم الله عزوجل نظير ظلمهم، وإتباعهم لأمر فرعون وتكذيبهم بما جاء به موسى من آيات بينات بإهلاكهم في الحياة الدنيا وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۝[289]، فأعماهم فرعون عن الحق، وأعموا بصيرته بإيهامه أنه القاهر فوق العباد، وأن له السطوة عليهم، قال الضحاك: ما عذب الله قوما قط وسلبهم النعم ولا فرق بينهم وبين العافية حتى كذبوا رسلهم فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل وسلبهم العز[290]، ولما أذاقوا بنو إسرائيل شتى ألوان القتل والتعذيب، قابلهم الله سبحانه وتعالى بجنس

(285) سورة الأعراف، الآيات:130-133.
(286) محمد متولي الشعراوي ،مرجع سابق ،ص307
(287) سورة القصص، الآية:8.
(288) السمرقندي، تفسير بحر العلم(510/2)
(289) سورة الأنفال، الآية: 54.
(290) السمرقندي، تفسير بحر العلوم(22/2).

العمل، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(291)، فكانت عقوبتهم أشد؛ شدة عتوهم وقهرهم للمستضعفين، والجرائم التي ارتكبوها في حقهم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء ما بقيت الدنيا يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخا ونقمة وصغارا لهم، وقال ابن زيد هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة، فذلك دأبهم في الدنيا فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(292)"(293).

الملاحظ من خلال الشواهد التي ذكرناها في أمر المتبوعين (هامان، الملأ، الآل)، أنهم كانوا دافعا مهما لتجسيد النظرية الفرعونية، ويصح القول أن فرعون قد تقوّى بهم، واستكبر واستعلى بوجودهم، وتمرد عن دعوة موسى بتمردهم وجحودهم، وذلك بمشاركتهم إياه شتى الصفات الذميمة التي وصف بها، وأعظم ما فعلوه هو إقرارهم بفكرة فرعون الإله الآمر الناهي، وذلك لخفة عقولهم، وطمعهم في مرضاته.

إنه الانصياع التام والانقياد للرعية، حفاظا على مكاسبهم ومصالحهم الشخصية، فنتج على ذلك عواقب وخيمة، ووبال عظيم، من بث للشقاق والفرقة، والعبث والمجون، ومحاولة نشر مظاهر الرعب والتخويف، والجهل والتحريف، قصد تثبيت إبر الأفكار المسمومة وتوطينها في أوساط الجماهير المحقونة، وهذا شأن واقعنا اليوم الذي تضاربت فيه المصالح، باستعمال منطق القوة والترهيب تارة، واستعمال منطق الإيهام بالتقليد تارة أخرى، فبعدما كان لفرعون زمانه، أصبح لكل زمان فرعونه، فكثر المتبوعين، واستوطنوا أجساد الناس وعقولهم، وسيطروا عليها، باستعمال كافة الطرق والوسائل الممكنة، وهكذا يكون المتمجدون أعداء لعدل، أنصار للجور، لا دين ولا وجدان ولا شرف ولا رحمة، وهذا ما يقصده المستبد من إيجادهم والإكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من أن يغرر بالأمة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلا لحرب محض التجبر والعدوان على الجيران، فيوهمها أنه يريد نصرة

(291) سورة غافر، الآيات:45-46.
(292) سورة غافر، الآيات:45-46.
(293) ابن كثير، تفسير ابن كثير(82/4).

الدين، أو يسرف بالملايين من أموال الأمة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة وأبهة المملكة، أو يستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء لها، أو يتصرف في حقوق المملكة والأمة كما يشاؤه هواه.[294]

-الأتباع المستضعفين من قوم فرعون:

الأتباع المستضعفين هم أصحاب المراتب الدونية، غير المقربين من فرعون، وليس لهم نفوذ في ملكه ولا منزلة في سلطانه، ما عدا تسخيرهم لخدمة العرش ومن يحيطون به من متبوعين، وهؤلاء تم إخضاعهم لفرعون بمنطق الإكراه والقوة، وكذلك إغراءهم بشتى أنواع الوسائل طمعا للقرب من فرعون والمتبوعين من السادة والكبراء، وترجع أسباب تبعية الأتباع لفرعون والمتبوعين، واستضعافهم أمامهم واستذلالهم لهم إلى:

1 - خوفهم على أموالهم وأرزاقهم وممتلكاتهم.

2 - خوفهم على أعمارهم وحياتهم ودنياهم.

3 - خوفهم من بطش المتبوعين وأذاهم.

4 - فسقهم وانحرافهم وابتعادهم عن المنهج الرباني.

5 - رغبتهم في الدنيا وإقبالهم عليها، وحرصهم على ملذاتها.

6 - نسيانهم الآخرة وإنكارهم لها.

7 - حرصهم على التزلف والتقرب لفرعون والسادة والكبراء المتبوعين.

8 - هوانهم على أنفسهم، و وأدهم لشخصياتهم و إرادتهم و حرياتهم.[295]

ومن ثم اتخذ فرعون والجهاز التابع له، هذه الأسباب حجة لبسط نفوذهم على المستضعفين وقهرهم وغصب حريتهم، وحلو عيشهم، فكانوا سببا آخرا لبروز نظريته الفرعونية المبنية على الغطرسة والاستبداد، **وأشهر الأساليب التي اتخذها فرعون والمتبوعين من قومه في إغواء الأتباع وإخضاعهم هي:**

(294) عبدالرحمن الكواكبي، مرجع سابق، ص55.

(295) ينظر: صلاح عبدالفتاح الخالدي، مرجع سابق،ص189.

1 - الاستخفاف بهم وازدرائهم، وإشعارهم بأنهم الأقل والأذل والأدنى، وأن متبوعيهم هم الأعزّ والأكمل والأفضل.

2 - التفريق بينهم، وتقسيمهم إلى شيع وأحزاب، وتصنيفهم إلى مؤيدين ومعارضين، وإيقاع الفرقة والخلاف بينهم.

3 - إذاعة الفساد فيهم، ونشر الشهوات بينهم، وتسهيل الحصول على الملذات، وذلك لينشغلوا بها، ويسهل قيادهم.

4 - استعمال أسلوب الإغراء والترغيب، وتقديم المصالح والمنافع والمراكز والمكاسب، ليقوا ممتنين لهم.

5 - استخدام أسلوب التهديد والوعيد والترهيب، لكلّ من يفكر في المخالفة أو المعارضة، فالإغراء والترغيب من جانب، والوعيد والتهديد من جانب آخر، وهي سياسة «العصا والجزرة» المعروفة.

6 اللّجوء إلى العنف والبطش بكلّ من يخالف ويخرج عن سياسة فرعون والمتبوعين، إيقاع أشد صنوف العذاب به لسحقه من جانب، وليكون عبرة لغيره من جانب آخر.[296]

وبهذا كانوا الأتباع فريسة سهلة في قبضة فرعون والمتبوعين، استغلوا ضعفهم لتحقيق مصالحهم وجعلوهم عبيدا لأهوائهم، ثم إنّه لمّا جاء موسى يدعوهم إلى الحق أصابتهم الخشية من لجوء هؤلاء المستضعفين لإتباع أمره، فلا يجدون بعدها من يسلّطون عليهم بغيهم، ويخدمون مصالح ملكهم وسلطانهم، لهذا سنقوم بتصنيف الأتباع، كل على قدر مجال تبعيته، وكيف كان كل صنف منهم دافعا لتجسيد النظرية الفرعونية؟.

فتصدّر السّحرة قمة الأتباع المستضعفين، والسبب الذي دفعنا لتصنيفهم ضمن الأتباع المستضعفين، هو أن فرعون قد أكرههم على تعلم السحر، وكذلك لأن أغلبهم كانوا من بني إسرائيل[297]، ويستدل على ذلك بقول السّحرة، لما قام فرعون

(296) مع بعض التصرف: المرجع نفسه، ص191.

(297) قال مقاتل في أمر السحرة الذين اجتمعوا للقاء موسى أنهم كانوا اثنين و سبعين ساحرا

بتهديدهم بالتعذيب والقتل، ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾[298]، وذكروا في ذلك الإكراه وجوها (أحدهما) أن الملوك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلّفونهم تعلم السحر، فإذا شاخ بعثوا إليه أحداثا ليعلمهم لكون في كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لأجل ذلك أي كنا في التعلم أولا والتعليم ثانيا مكرهين قاله بن عباس (وثانيها) إن رؤساء السّحرة كانوا إثنين وسبعين، إثنان من القبط، والباقي من بني إسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بساحر، الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلّا أن يعارضوه (وثالثهما) قال الحسن إنّ السّحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فاحضروا بالحشر وكانوا مكرهين في الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا في إظهار السحر (ورابعهما) قال عمرو بن عبيد دعوة السلطان إكراه وهذا ضعيف لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراها.[299]

ولمّا كان المتبوعين المستكبرين من قوم فرعون، مقربين لسلطانه، ومستكمين من ماله وخيراته، فإن السحرة ظهرت نقاط استضعافهم وإتباعهم، لما طلبوا من فرعون الأجر ووعدهم بدوره بالقرب ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾[300]، وفي خطاب السّحرة بذلك لفرعون دليل على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم، وبما يحصل للعالم بالشيء من الترفع على من يحتاج إليه وعلى من لا يعلم مثل علمه، وقال الحوفي: "في جوابه ما تقدم" ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي: نعم: إن لكم لأجرا، والمعنى (لمن المقربين مني) أي: لا أقتصر لكم على الجعل والثواب على غلبة موسى بل أزيدكم أن تكونوا من المقربين، فتحوزون إلى الأجر الكرامة، والرفعة، والجاه، والمنزلة، والمثاب إنما يتهنى ويغتبط به إذا حاز إلى ذلك الإكرام، وفي مبادرة فرعون لهم بالوعد

اثنان من القبط و هما رأسا القوم و سبعون من بني إسرائيل ينظر ابن إسحاق الثعلبي، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، مطبعة الحيدر،ص252.

(298) سورة طه،الآية:73.

(299) فخر الدين الرازي(تفسير الفخر الرازي،(22،89).

(300) سورة الأعراف،الآيات:113-114.

والتقريب منه دليل على شدة اضطراره لهم، وأنهم كانوا عالمين بأنه عاجز[301] وبهذا ظهرت حاجة فرعون للسحرة، بحيث جعلوا من سحرهم أداة للترهيب والتخويف النفسي، باستعمال الخداع البصري والخيال، قال تعالى: فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ[302]﴾، فقد شكّل السّحرة الذين كانوا أداة إعلامية وتأثيرية في يد فرعون في إرهاب الأتباع النفسي، حيث كانوا يسترهبونهم ويخيفونهم ويرعبونهم، بما يمارسونه فيهم من فنون السحر وصوره و ألوانه[303].

ولا يخفى علينا أن فرعون قد سخّر السحر كوسيلة للإتباع والإخضاع لمنطقه الفاسد، بل قام هو وملئه بالترويج إلى ذلك بقولهم: لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾[304]، وتظهر من هذه التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير:«هل أنتم مجتمعون، لعلّنا نبع السحرة؟»هي لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد، ليرتقب فوز السّحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي! والجماهير دائما تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويلعبون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس، وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السّحرة وموسى عليه السلام»[305] وبالتالي حاز فرعون -إضافة إلى القوة الاقتصادية والعسكرية- على جهاز إعلامي مرعب، مارس من خلاله السحر الإعلامي على الرعية المستضعفة قصد تخويفهم نفسيا، والتأثير عليهم، وإهانتهم، وإخضاعهم لسلطانه، ولنا حديث في موضع آخر من هذا الكتاب على الكيفية التي استغل بها فرعون هذه الوسيلة الإعلامية لتجسيد نظريته.

في حين مثّلت الطائفة المستضعفة[306] من بني إسرائيل الفئة الأكثر تضررا من

(301) أبو حيان الأندلسي،تفسير البحر المحيط(4/360)
(302) سورة الأعراف، الآية:116.
(303) صلاح عبدالفتاح الخالدي،مرجع سابق،ص170
(304) سورة الشعراء، الآية:40.
(305) السيد قطب ،في ظلال القرآن(5/2594)
(306) يقول السيد قطب «الضعفاء هم الضعفاء، هم الذين تنزلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم ، على الله حين تنزلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد -الاتجاه ، وجعلوا أنفسهم تبع للمستكبرين و الطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروا على

سياسة فرعون، وفي الحقيقة استضعافهم وهوانهم أمامه وأمام مقرّبيه، كان دافعا آخرا لتجسيد فرعون لنظريته، وهذا كلّه راجع لإذعانهم وخوفهم الشديد منه، ومن المستكبرين من قومه، لذلك كانوا مجبرين على إتباعه ولزوم مرضاته، فسخّرهم لخدمة مصالحه، بمنطق القوة والقتل والتعذيب، فلما خفتت أصواتهم وانحنت رقابهم، رأى فرعون من نفسه أنه إله! أغدق عليهم برحمات الذل والاستصغار والمهانة، وبهذا سلب منهم عقولهم، وشخصياتهم وحرياتهم، وحوّلهم إلى نكرات وأصفار وأتباع[307].

ولقد أورثت هذه الفرعنة[308]، بنو إسرائيل شتى مظاهر الخوف والاستكانة، وبلغ إتباعهم حدا لا يمكن تصوره، جراء ما رأوه من شدة وغلظة فرعون وقومه، وإرهاب وصل إلى درجة أن غلمانهم ذُبّحوا أمام أعينهم دون رحمة وشفقة، ولم يحركوا ساكنا، وقد جردوا من شتى مظاهر المقاومة المادية والعقلية والنفسية وحتى الروحية، ورضحوا بالاستسلام لمنطق فرعون، حتى أنهم حاولوا أن يذوبوا في شخصيته المستألهة، وكبرياء ملكه وسلطانه، خوفا من تجبره وتسلّطه عليهم.

ولما ذاقت ببني إسرائيل الأرض بما رحبت، وذاقت عليهم أنفسهم، نجاهم الله من فرعون وظلمه، بأن أرسل من صلبهم موسى - عليه السلام- لدعوته لأن يعدل عن قمعهم وسلب حرياتهم، وأن يرسلهم معه، والدليل على ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى ذكّرهم بنعمة إنجائهم من بطش فرعون وظلمه في قوله: وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى

الدينونة لله. و الضعف ليس عذرا، بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا، وهو يدعو الناس كلّهم إلى حماه يعتزون به و العزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه في الحرية - التي هي ميزته ومناط تكريمه- و أن ينزل كارها، والقوة المادية -كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية ، ويتمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه، اما الضمير ، أما الروح، أما العاقل، فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال. السيد قطب، في ظلال القرآن(2096/4)

(307) مع بعض التصرف:صلاح عبدالفتاح الخالدي،مرجع سابق،ص176

(308) قال السمين الحلبي عن اسم فرعون:" أن العرب قد تصرّفوا فيه، واستقوا منه فعلا، فقالوا: تفرعن فلان إذا فعل فعل فرعون. وقالوا هم الفراعنة للعتاة.ينظر:صلاح الخالدي، مرجع سابق، ص263 .

ﵟذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝ﵞ[309]، والبلاء: المحنة إن أشير إلى صنيع فرعون، والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء[310].

إنّ القاسم المشترك بين الأتباع والمتبوعين، هو أنهم سخّروا أنفسهم بالخوف تارة، والسعي للتقرّب من تاج فرعون خدمة له ولسلطانه تارة أخرى، وجعلوا منه إنسان مستأله، مشحون بالكبرياء والظلم، والقرآن الكريم إنما بيّن لنا اشتراكهم جميعا في بروز استبداده واستكباره من خلال نظريته الفرعونية، وترسيخ مبادئها، والالتفاف حولها ﵟٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚﵞ[311] وبالتالي هذا الاشتراك والإذعان كان ناجما عن غلبت سطوة فرعون التي وفرت له غطاءا لتجسيد نظريته، واقتداء كل من الأتباع والمتبوعين المغلوبين عن أمرهم سواء بمنطق الجاه والسلطان، أو بمنطق القوة والقهر، بنهج سبيله والذوبان في فكره الفاسد، فالمغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده والسبب في ذلك: أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنّما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها، حصل اعتقادا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبّهت به، وذلك هو الاقتداء، ولذلك ترى المغلوب يتشبّه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه.[312]

وهذا هو درب الخاضعين المنساقين وراء الأهواء يجدون لأنفسهم أسلوبا للحفاظ عن وجودهم، فيمارسون مظاهر الاحترام والتبجيل والتوقير مهما كان شكلها للسلطة، بعرض الحفاظ على بقاءهم واستمراريتهم، وفي نفس الوقت نتصور في هذا الموقف درجة الاستحواذ على الجماهير الخاضعة، بمختلف أطيافها بغض

(309) سورة البقرة، الآيات:49-50.
(310) الزمخشري، الكشاف(76/1)
(311) سورة فاطر، الآية:43.
(312) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون (283/1).

النظر عن الإهانة والاحتقار والعدوان والأسلوب المنحط الذي يتلقونه، فيبرز ما يسمى النفاق في مواقف الخاضعين، فتنسدب منهم مظاهر المقاومة، وتترسّخ مظاهر السيطرة، لتجد الجماهير نفسها مهزومة مستسلمة للإقتداء والتقليد الأعمى.

يقول يوسف العظم في هذا الشأن: «وأخطر ما في هذا النوع الرهيب من الهزيمة أن صاحبه لا يشعر به ولا يعترف، لأنه مخدر الذهن، مسلوب الإرادة، معبأ بما يحسبه الرفعة والمجد والظفر، وهو يحيا في أجواء من الغرور لا يملك معها أن يفسح لغيره حوارا، لأنه يطل على من حوله من بروج الاستعلاء التي تؤمن إلا بعبودية الفكر وقهر الإنسان».[313]

ونحن نقول في هذا الصدد أن أعظم هزيمة ليست تلك التي يستعمل فيها السلاح المادي للقتل، وإنما تلك التي يستعمل فيها سلاح التجهيل وتدمير العقول، ومحاربة القيم ونشر الفساد في الأرض، وجعل الجماهير قابعة في القاع يتم اصطيادها، ومحاولة انتشالها لغرض تنويمها، وإغفالها، وأصعب ما في الأمر هي تلك الاستجابة التي تأتي بمجرد دعوة كاذبة، سواء أكانت دعوة إفساد، أو دعوة إغرار، أو دعوة عدوان، أو دعوة إلهاء وإغفال، أو دعوة أريد بها باطل ...إلخ.

كقول الشيطان لما قضي الأمر: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾[314]، وهذه هي قمة الانقياد والتبعة، والانسياق البهيمي قصد تأمين البقاء الجسدي وإشباع الحاجيات، مقابل التكبيل النفسي والروحي وفقدان الذات، «فيصبح جماهير الرعية المتفرجين، منهم الطائشون المهلّلون المسبحون بحمد المُخْضِع، ومنهم المسحورون المبهوتون كأنّهم أموات من حين».[315]

(313) يوسف هويمل العظم، المنهزمون دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة، ط1، دار الضياء، عمّان-الأردن، 2006، ص 18.

(314) سورة إبراهيم، الآية 22.

(315) ينظر: عبدالرحمن الكواكبي، مرجع سابق، ص59

الوسائل التي اعتمدها فرعون لتطبيق النظرية الفرعونية:

لقد أفصحت مبادئ النظرية الفرعونية، والدوافع التي أدت إلى تطبيقها - والتي تطرقنا إليها سابقا- عن مجموعة من الوسائل، انتهجها فرعون و قومه، ضد موسى عليه السلام وأتباعه، كانت نابعة كلّها من طغيان فرعون وجحوده، ولا سبيل آخر له لتجسيد نظريته الفرعونية، إلّا باستخدامها واللّجوء إليها، فكانت ملاذه الأول والأخير، والشيء الرهيب في هذه الوسائل أنها كانت في مجملها قمعية، تم استخدامها بغرض قمع جسدي، أو قمع كلامي، أو قمع نفسي، أو حتى قمع عقلي، ونجم عن استخدام هذه الوسائل تخويف الرعية واسترهابهم، ومحاولة دفنهم في تراب الجهل والظلمات.

ولم يتوان فرعون وقومه من تجريب مختلف الوسائل التي من شأنها أن تقف في وجه الدعوة الصادقة التي جاء بها موسى من ربه، فحاولوا ردعها بوسائل القوة و القهر تارة، وبوسائل الاستهزاء والمكر تارة أخرى، فكانت في مجملها وسائل استبداد وإرهاب، حيث تجسدت هذه الوسائل التي اعتمدها فرعون لتطبيق نظريته الفرعونية في:

- وسائل القهر والاستبداد/ القتل والتعذيب والسجن:

قد لا نتصور حجم المعاناة التي عاشها موسى عليه السلام وقومه جراء قهر فرعون وتسلّطه، فلم يهنأ بقتل الأبناء واستحياء النساء، بل ناد بالاستزادة في القهر، والاستعلاء ، وها هو ذا يعلن أمام الملأ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [316]، والقهر في هذا المعنى هو الاستيلاء والغلبة على طريق التذليل[317]، حتى أنه أفرط في معاني القهر والطغيان والدليل على ذلك قول موسى وأخاه هارون ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [318]، فكان هو القاضي وفي نفس الوقت الجلاد، تصدر منه الأحكام ظلما وجورا، وتطبق بأمره العقوبات دون هوادة أو رحمة.

(316) سورة الأعراف، الآية:127.
(317) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز (314/4).
(318) سورة طه، الآية: 45.

تلك هي سياسة القهر التي انتهجها فرعون ضد بنو إسرائيل التي لم يشهد التاريخ البشري مثلها، ولقد صور القرآن الكريم مشاهدا متنوعة لقهر هذا المجرم الخطير المتمرد على قدرة الله وإرادته، بين قتل وتعذيب وسجن، والتي جعلته يخضع في الأخير إلى محاكمة العدل الإلهي **وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾**[319]، وقد وصلت وسائل القهر التي استخدمها، إلى حد الإسراف **وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾**[320].

فكان القتل الهمجي الإجرامي أشد هذه الوسائل وأعتاها، وأكثرها استعمالا في سياسة فرعون، ولم يزل يستخدم هذه الوسيلة البشعة حتى كاد أن يفني بنو إسرائيل من على الأرض، وقد وجد فرعون في القتل ملاذا سهلا بوضع حد للتهديد الذي شكله موسى ومن معه على ملكه وسلطانه، وهذا راجع إلى الخوف الشديد الذي تطور ونما في نفسه على مر الأيام، والذي غُرس فيه بمجرد رؤية منامية قد رآها،حتت آنذاك على معظم ولدان بني إسرائيل بالذبح والتشنيع[321]، دون أن يضع فرعون في حسبانه أن الغلام المنتظر سيولد في كنف العناية الإلهية، وسوف يتربى في ظلال ملكه وعزه قال تعالى: **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾**[322]، قال الجنيد: إذا خفت حفظه بواسطة فسلميه إلينا بإلقائه في اليم (نهر النيل) واقطعي عنك شفقتك وتدبيرك (ولا تخافي) أي من غرقه وضياعه ومن التقاطه فيقتل (ولا تحزني) لمفارقتك إياه (إنا رادوه إليك) وعد صادق يسكن قلبها ويبشرها بحياته وجعله رسولا.[323]

---

(319) سورة يونس، الآية:82.

(320) سورة يونس، الآية:الآية 83.

(321) قال وهب بلغني أنه ذبح سبعين ألف وليد فلما حملت أم موسى لم يتبين حملها ولم تعلم بولادتها إلا اخته مريم، فكتمته ثلاثة أشهر. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم (333/1).

(322) سورة القصص، الآيات: 7-8-9.

(323) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط (100/7)

تلك هي العناية والرعاية الإلهية التي بدّدت محاولات فرعون الإجرامية، والتنكيلية، فلم يغن عنه قتل الولدان وذبحهم شيئا، ليتفاجأ فيما بعد أنه أخطأ أمام إرادة الله سبحانه وتعالى، إنه موسى الفتى الذي ترعرع وتربى في قصره، وتقوّى من إغداق ملكه، فكان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثلما يلبس، وكان يدعى موسى بن فرعون[324]، ونهل ما نهل من العلم والمعرفة، وعلم ما علم من فساد عقلية فرعون وجوره، لأنه كان مقرّبا منه، ولكن لم يكن لكي يكون ظهيرا له مثلما كان الأتباع من قومه، وإنّما لكي يكون عدوا له وحزنا.

وبالمقابل تزامن القتل الوحشي الهمجي، مع سعي فرعون إلى تقسيم قومه شيعا وطوائف، وذلك ليضمن استفراده بالطائفة المستضعفة، ويذيقها شتى أنواع القتل والتنكيل، وكذلك لكي يبث الفرقة في المجتمع الواحد، وبالتالي تنعدم ملامح الوحدة وتنعدم معها مظاهر التعاطف والتضامن، ولا يخفى عنّا في هذا المقام أن طبيعة البشر جُبِلت على السعي وراء حب البقاء والمحافظة على الحياة والسعي وراء لقمة العيش، وتجنب أية محاولة من شأنها أن تهدد بقائهم، ومن خلال هذا كلّه فقد استطاع فرعون أن يشتت قومه، بين متفرج صامت أمام الجرائم المرتكبة، وبين آخرين منتظرين أدوارهم، إما مقتولين أو فاقدين أشخاصا تمّ قتلهم، وبين الإثنان أولهما أرحم.

ولا يخفى علينا أن هذا التقسيم والتفريق والتشرذم أتى بثماره، حيث أن الذين اتبعوا سبيل فرعون وفساده، انتهجوا سياسته في القتل والإجرام، ولأنهم كانوا جميعا من أهل مصر وعمّارها، دفعهم إلى تقتيل بعضهم البعض، وأذاق بعضهم بأس بعض، وكل هذا قصد إرضائه، وإرضاء نزواته ومنكره، وهذه نتيجة أخرى من نتائج التمييز الطائفي، ونلمح ذلك في حديث فرعون وأوامره في القتل فكان دائما يتكلم بصفة الجمع قال تعالى: **قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ**[325] ففي أوامر القتل والشر تكلم بصيغة الجمع ولا يستثني أحد، وهذا مناداة منه بالتحالف على الشر، وهذا كلّه لكي يسول لهم أنّ لهم مكانة عنده، ويبث في أنفسهم

(324) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم (1/334).
(325) سورة الأعراف، الآية:127.

مظاهر الشقاق، والسعي لأذية بعضهم البعض، وعلى النقيض من ذلك وأثناء مناداته بالسلطة والكبر تتكلم بصيغة الفرد كقوله ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[326].

ومن هنا رأى فرعون أنّ لوسيلة القتل فائدة كبيرة لترهيب الرعية وإذلالهم، فها هو ذا يدعو لاستخدامها مرة أخرى ضد موسى ومن معه،بعدما أحسّ خطورة مد دعوة الحق التي جاء بها موسى من ربه، وشعوره بخوف شديد جراء ذلك، وبقول من ملئه أعلن عن سفك الدماء من جديد ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[327]، لما قال لهم فرعون ذلك، لأنهم قد كانوا تركوا قتل الأبناء فأمرهم أن يرجعوا إلى ذلك الفعل[328]، وجاء في تفسير البيضاوي في قول فرعون: (قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ) أي: كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة[329].

ولم يكتف فرعون بتطبيق أحكام القتل والإغتيال، بل راح يهدد كل من يعصي أمره، ويهدد سلطانه وملكه، وها هو ذا يهدد موسى -عليه السلام- بالقتل بعدما أصابه الخوف مما جاء به من بينات، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[330]، ويبدو من قوله (ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ) أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة - من ناحية الرأي- كأن يقال مثلاً: إن قتل موسى لا ينهي الإشكال، فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به[331]

وحَسْبُ فرعون أنه قتل أقرب الناس إليه، زوجته التي لم يرفض لها أي مطلب قط، كان أبرزه طلب عدم قتل الوليد موسى وإبقائه على قيد الحياة، ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا

---

(326) سورة النازعات، الآية24

(327) سورة الأعراف، الآية 127.

(328) السمرقندي، تفسير بحر العلوم (562/1).

(329) البيضاوي ، تفسير البيضاوي(29,3).

(330) سورة غافر، الآية:26.

(331) السيد قطب ، في ظلال القرآن(3078/5).

يَشۡعُرُونَ[332] ﴾، قال ابن الأثير: فأمر فرعون حتى مدت بين يديه أربعة أوتاد، وعذبت حتى ماتت، فلما عاينت الموت ﴿قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[333]﴾، فكشف الله عن بصيرتها، فرأت الملائكة وما أعدّ ها من الكرامة، فضحكت، فقال فرعون: انظروا إلى الجنون الذي بها! تضحك وهي في العذاب، ثم ماتت[334]، وكل هذا لأنها آمنت واتبعت أمر موسى-عليه السلام- ومن هنا يرفع الستار عن أسلوب آخر من أساليب القهر المستخدم آنذاك، ألا وهو التعذيب، وهو لون من ألوان العتو الفرعوني، فلا يخفى علينا درجة الألم الذي يصاحب هذه الوسيلة الشنيعة، وما يلازمها من إجبار الشخص على البوح بمعلومات معينة، أو ترك طريقة أو مذهب أو منهج معين، كما هو الحال بالنسبة لسياسة فرعون القمعية، فهو جعل من التعذيب وسيلة للإذلال والعدول على إتباع ما جاء به موسى، وإجبار القوم على إتباع و خدمة ضلاله عنوة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ[335]﴾، يقول الزمخشري في قوله تعالى (مِن فِرۡعَوۡنَ)، كأنه في نفسه كان عذابا مهينا لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم، ويجوز أن يكون المعنى من العذاب المهين واقعا من جهة فرعون، حتى يكون المهين فرعون، وفي قراءة ابن عباس من فرعون لما وصف عذاب فرعون بالشدّة والفظاعة قال من فرعون بمعنى هل تعرفونه من هو في عتوّه وشيطنته؟ ثم عرّف حاله في ذلك في قوله (إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ) أي كبيرا رفيع الطبقة بليغا في إسرافه[336]

إذن استخدم فرعون وسيلة التعذيب للإهانة والإذلال، وإخضاع الرعية لفكره الضال بمنطق القوة، ومحاولته إيذاء الأجساد قصد تخويف العقول والأنفس، وتسخير أصحابها لخدمته وخدمة سلطانه، فقد اتسم فرعون بالغلظة وأخضع بنو إسرائيل بالقوة وراح يعذبهم فيجعلهم خدما وخولا، وصنفهم في أعماله، فصنف

(332) سورة القصص، الآية : 9.
(333) سورة التحريم، الآية:11.
(334) ابن الأثير، مصدر سابق، ص ص161-162.
(335) سورة الدخان، الآيات:30-31.
(336) ينظر: الزمخشري ، الكشاف(1005/25).

يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فسامهم كما قال الله، سوء العذاب، فعمر فيهم وهم تحت يديه عمرا طويلا يسومهم سوء العذاب[337] ثم إنه لما جاء موسى وهارون لدعوة فرعون طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل وأن يكف عن تعذيبهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[338]، ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون، لاستنقاذ بني إسرائيل[339]، والظاهر في ذلك أن فرعون قد تمادى في تعذيبهم وسلب كرامتهم، وتذليلهم، واستحقارهم، وفي موضع آخر من القرآن الكريم ذكّرهم الله بإنجاءهم من عذاب فرعون وآله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[340]، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلّا ذبح، وكان يأمر بتعذيب الحبالى حتى يضعْن، فكان يشقّق القصب، ويوقف المرأة عليه فيقطع أقدامهن، وكانت المرأة تضع فتتقي بولدها القصب[341]، ويمكننا أن نستشعر حجم ذلك البلاء، إلى درجة أن الجلود تقشعر منه وترتعد، وما نجم على ذلك من فقدان بصيرة فرعون وموت قلبه، فلا عنوان للرحمة والرأفة فيه، مقابل امتلائه بالكراهية والحقد، فقد سماه الله عزّ وجل بـ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[342]، يقال أنه كان له بيتا أوتد فيه أوتادا فإذا عذب أحد طرحه فيها ويقال سمي بذي الأوتاد لأنه كان إذا غضب على أحد وثقه بأربعة أوتاد ويقال: الأوتاد وهي الصلب إذا غضب على أحد صلبه كقوله لأصلبنكم[343]

وبهذا جُعِل التعذيب ضد كل من يخالف أوامر فرعون، ويتّبع أمر موسى، أداة للقمع والقهر والشواهد كثيرة على ذلك، من بينها تسجيل القرآن الكريم إحدى أبشع جرائم التعذيب الناجمة عن الحقد الدفين الذي كان يملأ قلب فرعون، وهذا بعدما تفاجأ بإيمان السحرة، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا

(337) الطبري، تاريخ الطبري، ص130.
(338) سورة طه، الآية:47.
(339) السد قطب، في ظلال القرآن(2337/4).
(340) سورة البقرة، الآية:49.
(341) ابن الأثير، مصدر سابق، ص152.
(342) سورة الفجر، الآية:10.
(343) السمرقندي، تفسير بحر العلوم (476/3).

لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ (344).

يقول الألوسي في معنى (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) هذا وعيد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ، أي من كل جانب عضوا مغايرا للآخر كاليد من جانب والرجل من آخر، والجار في موضع الحال أي مختلفة، ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ، تفضيحا لكم وتنكيلا لأمثالكم، والتصليب مأخوذ من الصلب وهو الشد في خشبة أو غيرها وشاع في تعليق الشخص بنحو حبل في عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم، والصلب الذي عناه الجبار هو شد الشخص من تحت الإبطين وتعليقه حتى يهلك، وهو كقطع الأيدي، والأرجل أول من سنه فرعون على ما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس(345)

وهناك شاهد آخر على همجية فرعون وبطشه، وإذاقة من يعصيه أشد أنواع العذاب، فقد كان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضا، وكانت ماشطة ابنة فرعون، فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا بل ربِّي وربك وربّ أبيك، فأخبرت أباها بذلك، فدعا بها وبولدها وقال لها: من ربك؟ قالت: ربي وربك الله، فأمر بتنور نحاس فأحمي ليعذبها وأولادها، فقالت: لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها، قال: ذلك لك، فأمر بأولادها فألقوا في التنور واحدًا واحدًا، وكان آخر أولادها صبيًا صغيرًا، فقال: اصبري يا أمّاه فإنك على الحقّ، فألقيت في التنور مع ولدها(346) كل هذه الشواهد وغيرها، من مشاهد التعذيب والقهر بيّنت عظم إرهاب فرعون وبطشه واستبداده، فهي شواهد مرعبة فضحت خوفه الشديد وغيضه مما جاء به موسى – عليه السلام- من الحق، فبالرغم من أن الله عزّ وجل أبان له تحمّل هؤلاء وصبرهم عن البلاء، وجازاهم على ذلك أحسن الجزاء، إلّا أن ذلك لم يزده إلّا طغيانا وكفرا، ولم يزدهم تعذيبه إيّاهم إلّا إيمانا وتسليما واحتسابا، وانتصارا على الباطل، ولم يزد دعوة موسى

(344) سورة الأعراف، الآيات:123-124.
(345) الألوسي، روح المعاني (27/9).
(346) ابن الأثير، مصدر سابق، ص 161.

للحق إلّا عزة ووقارا، وبالمقابل أحسّ فرعون بالإذلال والاحتقار، وغيض كبير ناجم عن بهتانه، وافترائه على الله الكذب، فكُسِرت بذلك شوكة كبريائه، وكُشِفت نقاط ضعف مآمراته ومكائده.

ومضى فرعون يقول لموسى: لأفعلن، ولأصنعن، إن اتخذت إلها غيري[347] مهددا بشتى أنواع أساليب الإجرام والقهر، ومن جملة ما هدّد به السجن ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[348]، هذه هي الحجة وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة ضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد![349] وبالتالي مثل السجن لون آخر من ألوان القهر في زمن فرعون، والسجن وسيلة جبرية غاية في الشدة والألم، خاصة الألم النفسي والعقلي، فيشعر صاحبه أنه آيس من الحياة، ونقصد بالحياة في هذا المقام العيش في حرية، وتمارس ضده شتى أساليب الضغط والقهر والإذلال كتكليفه بالقيام بأعمال شاقة وغيرها، وقد اعتمد فرعون على هذه الوسيلة كعقوبة للمخالفين لمنهجه، والعاصين لتعاليم كفره وجحوده وهذا ظهر في قوله: (لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ).

ومن خلال أساليب القتل والتعذيب التي استخدمها، يمكن لنا أن نتصور فظاعة السجون وقسوتها في زمنه، ولا بأس أن نذكر بعض صفاتها الرهيبة كما أشار لها بعض المفسرين لنبيّن فظاعتها ورعبها، قال ابن عباس: وكان سجنه أشد من القتل[350]، وقال ابن عاشور: وقد كان السجن عندهم قطعا للمسجون عن التصرف بلا نهاية فكان لا يدري متى يخرج منه[351]، ووصفه القرطبي قائلا: وبهذا كان إذا سجن أحدا لم يخرجه من سجنه حتى يموت[352]، وقال الكلبي: وكان سجنه أشد من

---

(347) القشيري، لطائف الإشارات (399/2).
(348) سورة الشعراء، الآية :29.
(349) السيد قطب، في ظلال القرآن(2593/5).
(350) السمرقندي، تفسير بحر العلوم (478/2).
(351) ابن عاشور، تفسير التنوير (122/19).
(352) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن(22/16).

القتل لأنه كان يأخذ الرجل إذا سجنه فيطرحه في مكان وحده فردًا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئا، يهوي به في الأرض[353]، وذكر أبي السعود أن سجنه كان أشبه بهوة عميقة يطرحهم فيها حتى يموتوا[354].

إنّ كل هذه الصفات المذكورة تتفق جميعها بأنّ السجن كان أداة قمعية، استخدمها فرعون لسلب كرامة الأشخاص وحريتهم، والغريب في الأمر أن الشخص كان يزج فيه دون وجود ذنب أو جُرْم مرتكب يلزم صاحبه قضاء عقوبة لا يعرف مدة انقضائها، فتتشابه في زمنه السجن والقتل والتعذيب، فالمسجون والمقتول والمعذّب على حد سواء، منكل بهم، مغلوب على أمرهم، آيسون من الحياة.

الظاهر في استبداد فرعون وجود همجية هوجاء لا حدود لها، عنوانها القهر بكل أشكاله، وإذا اطّلعنا إلى سببها الرئيسي، لم يكن سوى جحوده بدعوة موسى، والرعب الذي أصابه جرائها، وخوفه لفقدان ملكه وسلطانه، ترجمه في ذات الوقت إلى إرهاب وقمع شرسين، تسببا في إذلال رعيته واستضعافهم، وإكراههم على إتباع ضلاله، وكل هذا إنما سببه الخوف الشديد الذي بثه في أنفسهم، أدى إلى تكبيل عقولهم، ومنعهم من التفكير في إيجاد طرق لتتحرر من هذا القهر الرهيب، وقد يظن بعض الناس أن للقهر، وأدواته من قتل وتعذيب وسجن، حسنات مفقودة في الإدارة الحرة، فيقولون مثلا: القهر يلين الطباع ويلطفها، والحق أن ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة، ويقولون: الاستبداد يعلم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبير، والحق أن هذا فيه عن خوف و جبانة لا عن اختيار وإذعان، ويقولون هو يربي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحق أن ليس هناك غير انكماش وتقهقر، ويقولون القهر يقلل الفسق والفجور، والحق أنه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين، ويقولون هو يقلل التعديات والجرائم، والحق أنه يمنع ظهورها ويخفيها فيقل تعديدها لا أعدادها[355].

ولا يخفى علينا في هذا المقام أن صور القهر الفرعوني، لم تزل بزوال فرعون

(353) الثعلبي، الكشف و البيان عن تفسير القرآن (43/20).
(354) أبو السعود، تفسير أبو السعود(240/6).
(355) مع بعض التصرف:عبدالرحمن الكواكبي، مرجع سابق،ص79.

وسلطانه، بل اتخذت سنّة سيئة، كانت لها عواقب وخيمة على امتداد تاريخ البشرية، وصار التعدي على كرامة الغير شعارا فرعونيا يرفرف فوق الرؤوس، وهذا كلّه لغرض تحقيق المصالح وحمايتها، بل اشتد الأمر خاصة بعد توسع الأطماع، والسعي إلى استيطان الأراضي واستعمارها، وتقتيل وتعذيب وحبس أصحابها دون ذنب يذكر، وهذا قصد إذلالهم واستضعافهم وإرهابهم، لغرض استغلال أوطانهم واستغلالهم لخدمة أطماعهم.

ولم تسلم العديد من الأوطان من هذا الورم الفرعوني الخبيث الذي استفحل باستفحال المؤامرات والمكائد، والمناداة في المجالس والمؤتمرات بضرورة التحرر ومواكبة التحضر، وتلك نسخة طبق الأصل لمناداة فرعون بضرورة التحرر من دعوة موسى واتباع ضلاله المتخلف، فصارت الجماهير مغلوب على أمرها، إمّا أن تنساق وراء المد الفرعوني اللاّمتناهي، بالإتباع والانقياد بالسمع والطاعة، أو يتم استئصالها من جذورها بوسائل القهر المذكورة، وببث أشكال الفرقة والتمييز العنصري، وبالمقابل يتم نقل مشاهد القهر من قتل وتعذيب وسجن -وكلّها لا تقل فظاعتها على فظاعة قهر فرعون لقومه- عبر الوسائل والأجهزة المسخّرة لذلك لترهيب الجماهير وتخويفها، وقتل تعاطفها وتضامنها[356]، وبالتالي يزيد عدد المشتركين المبهوتين بهذا المد الفرعوني اللاّمتناهي، بزيادة حجم الاستخفاف بعقول الجماهير المغسولة، وفي الوقت ذاته يصير الظالم مظلوما والمظلوم ظالما.

وسائل التضليل والتجهيل/ التسلية واللعب واللهو:

لم يكتف فرعون باستخدام وسائل القهر والقمع المادي من أجل استضعاف قومه وإذلالهم، بل استعمل وسائل من شأنها تجهيلهم وتضليلهم، والاستخفاف بعقولهم، لإحكام قبضته عليهم وإبقائهم أتباعا لسلطانه وتسخيرهم لخدمة ملكه، ودفعهم إلى عبادته وتأليهه، فإذا كان استخدامه لكل من القتل والتعذيب والسجن، لغرض قهر الأجساد، فإن استعماله لوسائل التجهيل والتضليل كان من شأنها قهر

(356) إن تكرار المشاهد البشعة للقهر من قتل و تعذيب وسجن، خاصة في الأجهزة المسخّرة لغرض نقلها للجماهير، تولد لديهم فتورا عاطفيا، فتصير تلك المشاهد معتاد مشاهدتها، وتصبح روتينيا لا قيمة له لا عقائديا ولا خلقيا ولا قوميا ولا مجتمعيا، وبالتالي تنعدم معها معاني الوحدة والتضامن، وتبقى تلك المشاهد في نظر الجماهير سينمائية لا غير.

العقول والتلاعب بها، وتخديرها بأساليب الغفلة والتنويم، وهذا شكل آخر من أشكال السطوة والقهر، واستعملها قصد الاستخفاف بقومه، وتطبيق نظريته الفرعونية.

لأنه رأى أن القهر المادي الجسماني قد لا يكون له أي تأثير على ذوي العقول الحية الموقنة للحق كما كان الحال مع السحرة وزوجة فرعون والماشطة، في حين فكّر في أن للغفلة واللهو المؤديان إلى «خداع العقل وسكرته» تأثير كبير على الناس والسعي لحجبهم على الحق، والأمور المهمة التي من شأنها أن تقرر مصائرهم، ويمكن أن نستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[357]، ووسائل الغفلة من لهو ولعب وتسلية، قد تورث في القلوب قسوة مفضية للندم، وقد يسعى صاحبها إلى الإستفاقة بعد فوات الأوان، قال تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[358]، يعني في جهل(﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾) اليوم ثم ذكروا أن المرسلين أخبروهم فقالوا:(﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾) يعني: قد أخبرونا فكذبناهم قوله عز وجل[359].

وفي نظرنا أن الغفلة هي العلة الحقيقية لذهاب سلطان العقل، وما ينجم عليها من تضييع المصالح، والوقت، والعمر فيما لا ينفع، وقد يستعملها البعض سلاحا لتنويم الناس وتجهيلهم وتضليلهم، بطمس الحقيقة عنهم، وإكثار الملهيات ووسائلها، ونشرها بينهم، وكذلك بث اللهو واللعب في أوساطهم، وذلك لإغفال الحقيقة عنهم فيصبحون كالقطيع تابعين مذعنين، ومنساقين وراء أهوائهم و أهواء الذين يضلونهم بغير حق، ومما لا شك فيه أن فرعون لم يفته استعمال هذه الوسائل ضد قومه، وسعيه لجَعْلِ غفلته من غفلتهم، وها هو ذا موسى -عليه السلام- يكشف عن لون من ألوان اللّهو والتسلية في زمن الطاغية، ويظهر ذلك جليا في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾[360]، يقول السعدي: هو يوم عيدهم، الذي يتفرغون فيه، ويقطعون شواغلهم ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ أي: يجمعون كلّهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه ما يحصل فيه

---

(357) سورة الأنبياء، الآيات:2-3.

(358) سورة الأنبياء، الآية:97.

(359) السمرقندي، تفسير بحر العلوم (379/2).

(360) سورة طه، الآية :59.

من كثرة الإجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره[361]، في حين قال أبو حيان الأندلسي على يوم الزينة أنه كان عيد لهم يتزينون ويجتمعون فيه كل سنة[362] ومن الواضح أن موسى - عليه السلام- باختيار موعد لقائه بالسحرة (يوم الزينة)، كان يدرك أن الناس يجتمعون فيه للهو والغفلة والاحتفال، لذلك سعى إلى جلب وإثارة انتباههم، ومحاولة إخراجهم من غفلتهم بإظهار الحق وهزم الباطل، وفي موضع آخر جعل فرعون من السحر وسيلة للترفيه والتسلية، وهذا بسحر أعين الناس، وخداعهم وتجهيلهم، فقد رأى أن باستعمال السحر ضد الآيات التي جاء بها موسى، قد يستمر في خداع الناس وتضليلهم عن الحق كما فعل به من قبل.

والدليل على ذلك أنه أحس بغيظ شديد لما هُزِم السحرة أمام الحق ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[363]، حيث استغرب ذلك منهم، لأدبهم معهم وذلهم، وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك[364]، فقد خسر فرعون وسيلة من وسائل الفرجة والبهتان، فبعدما كان السحرة يمتعون الناس ويخدعون أبصارهم من جهة، ويرهبونهم ويرعبونهم من جهة أخرى، صاروا وسيلة لإظهار الحق وتبيانه للناس.

ومن جهة أخرى وفّر فرعون للمقربين من قومه وسائل اللهو والعبث، والترف ليذيقهم من نعيم الدنيا وزينتها، التي وصفها الله في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾[365]، ويعمي بصيرتهم عن الحق، ويمن عليهم ذلك، كما منّ على موسى لما: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[366]، وبذلك استطاع أن يخدر عقولهم، بإتباع سفهه وظلمه وجوره، وظهرت معالم لهوهم ولعبهم، لما راحوا إلى جانبه

---

(361) عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،تح عبدالرحمن بن معلا اللويحق،ط2، دار السلام للنشر والتوزيع،الرياض- المملكة العربية السعودية،2002، ص591

(362) مجير الدين الحنبلي ، تفسير فتح الرحمن في تفسير القرآن(4/301).

(363) سورة طه ، الآية :71.

(364) السعدي، تفسير كلام المنان، مصدر سابق، ص592.

(365) سورة الحديد، الىية:20.

(366) سورة الشعراء، الآية: 18.

يستهزئون بموسى والآيات التي جاء بها من ربه، وتلك سكرة وغفلة كانوا فيها بسبب الجحود والنكران، جنت عليهم بالهلاك والخسران.

- الاستهزاء والسخرية:

يعد كل من الاستهزاء والسخرية وسيلتين من وسائل التضليل والتجهيل، ولقد استعملهما الجاحدون المستكبرون منذ عهد النبي نوح - عليه السلام - ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[367]، يقول الألوسي في معنى هذه الآية: أي استهزأوا به لعمله السفينة إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه، ويشهد لعدم معرفتهم ما روى ابن عباس أنه عليه السلام حين قال الله تعالى له ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[368]، قال: يا رب وما الفلك؟ قال: بت من خشب يجري على وجه الماء، قال: يارب وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير، وإما لأنه عليه السلام كان يصنعها في برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضاحكون، ويقولون: يا نوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا[369].

والاستهزاء والسخرية هما سلاح كل مستكبر جاحد لايات الله ورسله عبر الأزمان، ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[370]، وذلك مظهر من مظاهر النكران والجحود، وقد يكون الاستهزاء ناجما عن الحسد والغيض الذي يصيب الشخص، إذا رأى غيره صاروا أفضل منه، أو أنعم الله عليهم بنعمة ما، كما يكون بسبب سوء الظن، والنوايا السيئة التي تكتنف المرء، فيشعر بالانتقاص في ذاته وحياته، فيترجم ذلك الانتقاص إلى سخرية واستهزاء بالآخر، ولقد نبّه وحذّر من ذلك سبحانه وتعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[371].

(367) سورة هود، الآية:38.
(368) سورة هود، الآية:37.
(369) الألوسي، روح المعاني (50/12).
(370) سورة الزخرف، الآيات:6-7.
(371) سورة الحجرات، الآية:11.

ومن جهة أخرى يمكن للسخرية[372] أن تكون نتيجة للاستكبار، وعدم شكر النعم بأن يرى الإنسان نفسه أعلى درجة من الآخرين، وأن معيشته أحسن من معيشتهم، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[373] والسخرية والاستهزاء هما دأب من لا يريد أن يسمع، فإنه يلجأ إليهم يقول جل وعز مخاطبا أهل الضلال يوم القيامة[374]: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[375]

ولقد استعمل فرعون هاتين الوسيلتين، لكي يطمس حقيقة ما جاء به موسى، ويحجبها على قومه، واتخذهما سلاحين إعلاميين قويين، لشن حرب نفسية هوجاء على دعوة موسى للحق، ومحاولة إضلال رعيته باستصغار عظمتها، والتشويش على محتواها حتى تُستَدبَ الريبة والشك في أوساط قومه، فمن المعروف أن للسخرية والاستهزاء آثارا سلبية على نفسية الإنسان المُستهزأ به، فهي تولد نوعا من الانكماش والتردد لديه، فيحس بالضعف والهوان والاستصغار، ولكن من حكمة الله أن ثبت موسى عن الحق فلم تؤثر فيه سخرية فرعون وقومه ولا استهزائهم فيه شيئا، لأنه سأل الله من قبل التثبيت: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي ۝ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[376].

(372) ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين(128/3).

(373) سورة الزخرف، الآية:32.

(374) فهد محمد الحارثي، الاتصال اللغوي في القرآن الكريم (دراسة تأصيلية في المفاهيم و المهارات)،ط1 ،مكتبة مؤمن قريش، بيروت،2014، ص109.

(375) سورة المؤمنون، الآيات:109-110.

(376) سورة طه ، الآيات:25-36.

وقد لجأ فرعون للاستهزاء والسخرية، بعد إحساسه بالخوف الشديد والضعف أمام الحجج التي ساقها له موسى -عليه السلام- ومحاولة الهروب منها وتفاديها، وخوفه إنما كان نابعا من ضلالته، فقد شعر بأن ما جاء به غريمه حق، وأن سفاهته لم تُجْدِ نفعا أمام ذلك، كما رأى معالم التصديق واللين في وجه قومه، فسعى ساخرا مستهزئا ليلفتهم عن ذلك.

وحدثنا القرآن الكريم عن صور الاستهزاء الذي كان موسى -عليه السلام- يلاقيه، قال تعالى: **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾**[377]، ويعني بقوله (مَهِينٌ) كما قال سفيان: حقير، وقال قتادة والسدي: ضعيف، وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال (وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) أي لا يكاد يُفهم، وقال قتادة والسدي وابن جرير: يعني عيي اللسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير[378] وهذا الذي قاله فرعون المستكبر إنما هو استهزاء وسخرية من موسى -عليه السلام- بعد إحساسه بحقارة رأيه، وضحد حجته، وكبح افترائه بالألوهية المزعومة.

وفي موضع آخر راح فرعون وقومه يسخرون من الآيات التي جاء بها موسى ويضحكون منها بالرغم من عظمتها ويقينها قال تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ**[379] ﴿٤٧﴾، يقول: فلما جاء موسى فرعون وملأه بحججنا وأدلتنا على صدق قوله: فيما يدعوهم إليه من توحيد الله والبراءة من عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه مما جاءهم به موسى من الآيات والعبر يضحكون[380]

وفي مشهد آخر ها هو فرعون وملئه يستهزأون ويسخرون من دعوة موسى وأخاه هارون بحجة أن قومهما لهم عابدون قال تعالى: **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**

(377) سورة الزخرف، الآية:52.
(378) ابن كثير، تفسير ابن كثير (128/4)
(379) سورة الزخرف، الآيات:46-47.
(380) الطبري،تفسير الطبري(525/6)

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾[381]، (فَقَالُوٓاْ) يعني فرعون وقومه(أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ) يعنون موسى وهارون (وَقَوۡمُهُمَا) يعني بني إسرائيل، (لَنَا عَٰبِدُونَ) خاضعون متذللون كالعباد[382]، وهذا إنما كان استهزاءا منهم واستصغارا بدعوة الإيمان التي جاء منه، وبالمقابل فإن سخريتهم هذه كشفت عن إفتراء وكذب وإدعاء فرعون بأنه إله يعبد، فلو عدنا لقولهم(أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ) فقد أقرّ فرعون وقومه بأنه من بني البشر وكيف لبشري أن يدّعي الألوهية ويدعو الناس لعبادته؟! ومن هنا يتضح من خلال الشواهد التي ذكرناها في سياق الحديث عن استعمال فرعون وقومه لوسيلتي السخرية والاستهزاء، أنها كانت نابعة من استكباره وجحوده، وأخذه لرسالة موسى بمحمل الهزل لا بمحمل الجد، فكانت عاقبة استهزائه هو وقومه خسرا، وبوارا في الدنيا وفي الآخرة، فلم يغن عنهم استهزائهم ولا سخريتهم من الله شيئا، بل سخروا على أنفسهم لما أرادوا أن يمكروا بموسى ومن معه، دون أن يشعروا أو أن يتحسسوا ذلك.

- الكذب والافتراء:

إذا سألت أي شخص عن الكذب، فإنه سوف يجيبك بقوله:"إنه الكلام الذي لا يتحرّى صاحبه الصدق في القول" أو يقول لك: "أن الكذب هو مباينة القول للواقع" بيدَ أن الحقيقة أن معنى الكذب يتّسع لأكثر من هذا، فالكذب لا ينحصر في عدم مطابقة الكلام للحاضر فحسب، بل يمتد ليشمل الحاضر والماضي والمستقبل[383] ويعدّ الكذب والافتراء فيه، رأس كل شر، لما فيه من مضار على الإنسان الكذّاب المفترى في ذاته، وعلى الناس الذين من حوله، وقد علّل الرازي ذلك قائلا: ...ونجد أن الكذب يجلب على صاحبه ذلا، فإنّ المدمن على الكذب المكثر منه لا يكاد تخطئه الفضيحة ولا يسلم منها، إما لمناقضة تكون منه بسهو ونسيان يحدثان له، وإما بعلم بعض من يحدثه واطلاعه من حديثه ذلك على خلاف ما ذكر.

(381) سورة المؤمنون، الآيات:45-47.
(382) مجير الدين الحنبلي،فتح الرحمن(475/4).
(383) يوسف ميخائيل أسعد ، الكذب و أثره في الإنسان ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.، ص5.

وليس يصيب الكذاب من الالتذاذ بكذبه – ولو كذب عمره كلّه- ما يقارب فضلا عن أن يوازي ما يدفع إليه – ولو مرة واحدة في عمره كلّه- من هم الخجل والاستحياء عند افتضاحه، واحتقار الناس له واستصغارهم وتسفيههم وترذيلهم له وقلة ركونهم إليه، ومثل هذا لا يعد في الناس، فضلا عن أن يقصد الكلام يقطع به في صلاحه، ومن أجل أن أسباب الفضيحة في هذا المعنى ربما تأخرت، كثيرا ما يغتر الجاهل بذلك، إلا أنّ العاقل لا يورط نفسه فيما يخاف أولا يأمن معه فضيحة، بل يستظهر ويأخذ بالحزم في ذلك[384]

والكذب أكثر الوسائل استخداما لتزييف الحقائق، وطمسها وتحريف محتواها، وكثيرا ما يتسبب الكذب في نفث الشرور والسموم من حقد، وقتل، وكيد، وفرقة... الخ "وغيرها من العوارض الرديئة التي يدعو إليها الهوى"[385]، ويمكن لشتى الأوصاف الدنيئة أن تنطبق عليه ولو كان الكذب-خاصة المذموم منه- يمشي فوق الأرض لقلنا عليه إبليسًا، فهو شكل من أشكال التجهيل والتضليل بل هو أشدها مرارة وحرقة، خاصة إذا صدر من أشخاص موثوق بهم، فمن المعلوم أن الثقة تستوجب الصدق لا الكذب، وإن اعتراها الكذب صارت مشبوهة، مخذولة، مترديه.

والموثوق بهم كثيرون، فهم يُمَنُّونَ الجماهير بضمان الحماية والأمان، والعطف والحنان، وسبل العيش الكريم، ومناهج التعليم، والرقي، والتربية، والأخلاق، وغيرها من معالم صدق واقع الحياة، أمّا إذا اعتراها الكذب تصير مجرد أحلام وأماني، وقد يصيبها الوهن، وطول الأمل، حتى أنه يمكن وصفها بالأمنيات، وتصير مستحيلة التحقيق إلى درجة أن يصيب الموعودين بها اليأس، فتصير ضمن المثاليات في كثير من الأماكن، والأوطان، وعديد الأزمان.

ويُلبِس الكذب صاحبه ظلما إذا تمادى فيه بين الناس فهو كالوباء سريع الانتشار، ويصبح بَيّن الأعراض، وإذا تفشت معانيه، وازداد معه عدد المتلقين من: المستمعين، والمشاهدين، والمنقادين المقلدين له من الجماهير، صار وبالًا عليهم

(384) أبو بكر الرازي، الطب الرّوحاني ، تح. عبد اللطيف العبد ، مكتبة المصرية، القاهرة، 1978، ص76

(385) المصدر نفسه،ص76.

وعلى مصالحهم، خاصة إذا صدر ممن يتولّون أمورهم، وشؤون حكمهم وعيشهم؛ فإن أرخصوا لأنفسهم فيه صاروا به موسومين، لأنّ الإنسان بقدر ما يسبق يعرف، وبما يظهر من أخلاقه يوصف، وبذلك جرت عادة الخلق أنّهم يُعدلون العادل بالغالب من أفعاله، وربما أساء، ويفسّقون الفاسق بالغالب من أفعاله، وربما أحسن».[386]

ومن خلال هذا الرأي يتضح لنا أن الكاذبون الموثوق بهم من ذوي السلطان والحكم، وأصحاب المصالح، والخائنون، والمنافقون، والجبناء كثيرون، فهم يستعملونه لإيهام الناس بسداد حكمهم، وصواب رأيهم، وسَبْق مصالح رعيتهم عن مصالحهم، فالأجدر لهم البدء بإصلاح أنفسهم حتى لا تكون هذه الوعود الكاذبة وبالًا عليهم وعلى رعيتهم، «فإذا بدأ الإنسان بسياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر، وإذا أهمل مراعاة نفسه كان بإهمال غيره أجدر»[387] فهم يجاهرون بالكذب أمام الناس ولا يستحيون، وكل هذا لدرء الأنظار والأطماع عن سلطانهم، وملكهم، ومصالحهم بل يسخرون أتباعهم للإكثار منه، عبر اللقاءات، والمجالس، والتجمعات، والتجمهرات، يشحنون عقول الناس ويحشونهم بالوعود الكاذبة، والعهود الزائفة، وكل هذا بغرض تضليلهم وتجهيلهم، وطمس الحقيقة عنهم، وبالتالي تزداد التبعية تجذرًا، والانقياد تأصّلا، فينزاح الناس عن الحق ويتبعون طريق الباطل الموجب لشتى أنواع الآثام والمهلكات.

وأبشع أنواع الكذب هو ذاك الذي يدعو لإشاعة العداوة والبغضاء بين الناس، وتشتيت صفهم ووحدتهم ورباطة جأشهم، ومحاولة سلخهم عن ماضيهم وأصالتهم، وتكبيل حاضرهم، وتعتيم مستقبلهم، باسم الوحدة والمساواة والحرية والتحضر، والغريب في ذلك أن الجماهير المخدوعة المنساقة وراء الأهواء الكاذبة، يُصدّقون ما يملى عليهم من خطابات كاذبة، ووعود مقنعة زائفة، ويأخذونها بمحمل الجد، وهذا راجع في نظرنا إلى سياسة التنويم والتخدير التي يخضعون لها، مع تسخير وسائل التضليل والتجهيل الأخرى التي تحدثنا عنها، وما تشتمل عليه من أساليب متفننة،

---

(386) ينظر: أبو الحسن الماوردي، درر السلوك في سياسة الملوك، تح: فؤاد عبدالمنعم أحمد، ط1، دار الوطن للنشر، الرياض، 1997، ص65.

(387) المصدر نفسه، ص58.

وبهذا يصبح الكذب في هذا المقام شكلا من أشكال الاستحمار الذي بات يرصد كل واحد منا، نخرج أنفسنا من شكله القديم، فيتلقانا بشكله الحديث، نتمرد عليه في مكان، فيلهينا ونقع في حبائله في مكان آخر، نرفضه من ناحية، فيسخرنا من ناحية أخرى؛ ننتبه إلى جانب منه، فيشغلنا في جانب آخر، نكتشف حربا إيهامية، فيوقعنا في حرب إيهامية أخرى، وهكذا دائما[388].

ولنا في كذب وافتراء فرعون عبرة، فهو أكبر مفتري كذّاب في تاريخ الأنام، حتى صار كذبه مثالا يضرب به لكثير من الظالمين المستبدين عبر الأزمان، وقد صوّر القرآن الكريم عدّة مشاهد لكذب هذا الطاغية، إذ استعمله كوسيلة إعلامية أخرى في حربه النفسية المضللة، لدرء الشبهة عن ضلاله، ومحاولة صرف أنظار قومه عن دعوة موسى للحق، وبلغ كذبه حد الافتراء على الله وآياته وذلك بالكفر والجحود، وقد وصف عزّ وجل الافتراء في هذا المقام على أنه أعظم و أشد أنواع الظلم بقوله: **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾**[389]، يعني: ممن اختلق على الله كذبا باتخاذ الآلهة[390].

وإسراف فرعون في كذبه كان نتيجة لانقياد قومه وراء رأيه الفاسد، وانصياعهم لأمره، وإذعانهم لكفره وجحوده، وراح يتدرّج في كذبه وافترائه حتى نصّب نفسه إلها وها هو يعلن أمام قومه قائلا: **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴿٣٨﴾**[391]، وهذا هو قمة الافتراء والكذب، ولمّا قويت عليه الحجج والبراهين الربانية التي جاء بها موسى -عليه السلام- وزلزلت كذبته المزعومة بأنه إله يُعبد من دون الله، تمادى في كذبه وبهتانه، وراح يجاهر به بين قومه، وهاهو ذا في موضع آخر يتهم موسى بممارسة السحر وجاء به لكي يخرجهم من أرضه به؛ **قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾**[392].

---

(388) علي شريعتي، النباهة والاستحمار، ط1، الدار العالمية للطباعة للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1984، ص95.

(389) سورة الأنعام، الآية:21.

(390) السمرقندي، تفسير بحر العلوم (478/1).

(391) سورة القصص، الآية:38.

(392) سورة الشعراء، الآيات:34-35.

وفي موضع آخر نجد أن الملأ وافقوه نفس الكذب والافتراء ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾[393]، وفي هذه الآية أن هذا قول فرعون للملأ وفي آية (قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ) والجمع بينهما أن فرعون قاله لمن حوله فأعادوه بلفظه للموافقه التامة بحيث لم يكتفوا بقول: نعم، بل أعادوا كلام فرعون ليكون توطهم على تمام قوله[394]، فصار كذبهم من كذبه وافترائهم من افترائه، ومن هنا تنكشف لنا درجة الانصياع والانقياد والذوبان في الرأي الفرعوني الكاذب، الذي تجذّر فيهم.

وما زاد انصياغ كذب فرعون وافترائه فيهم هو ادعائه بأنه يحتاج إلى رأيهم وأمرهم، وبالتالي منحهم حرية إبداء الرأي فيما يضرّهم من كذب ولا ينفعهم، لما قال: (مَاذَا تَأۡمُرُونَ) ، فرأوا أنّه من الواجب موافقته الكذب، لكي يرضى على نفسه، ويرضى عنهم، بالرغم من أنه صرّح من قبل كاذبا ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[395] وبهذا رمى فرعون وملئه موسى بفرية كبيرة، لمّا أحسوا بعظم الآيات التي جاء بها، وسعوا للتشكيك في بعثة موسى ورسالته، ولم يخف فرعون وملئه خوفهم من صدق ذلك، فراحوا ينشرونها بين الناس، وتمادوا في تكرارها ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[396] ، وهذا تعلّل وتحير ودليل على أنه علم كونه محقا حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه[397]، وحتى السحرة الذين دعاهم فرعون لمواجهة موسى أسروا النجوى بينهم بأن موسى وهارون ساحران جاءا ليخرجوا الناس من أرضهم قال تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾[398]، كأنّهم تشاوروا في تلفيقه حذرا أن يغلبا فيتبعهما الناس، ويستولوا على الأرض، ويذهبا

(393) سورة الأعراف، الآية:109.
(394) ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير(124/19).
(395) سورة غافر الآية:29.
(396) سورة طه، الآية :57.
(397) البيضاوي، تفسير البيضاوي(30/4).
(398) سورة طه، الآيات:62-63.

بمذهبهم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما، وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم، وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث أنهم قدوة لغيرهم[399] ولما هُزم السحرة أمام الحق وأيقنوا أن ما جاء به موسى ما هو بسحر، بُهت فرعون من الموقف ولم يجد إلا وسيلة الكذب ليخرج نفسه من المأزق الذي وقع فيه، بعد دعوته لجمع غفير من الناس يشهدون المكيدة المرتب لها مسبقا، لما قالوا: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾[400] فقال كاذبا ملفقا: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، فاستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة، ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر والكذب منه، وظنوه صدقا، مع ان هذه المقالة التي قالها، لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من مدين وحيدا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له من كل ساحر عليم، فجاءوا غليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص، وكادوا أشد الكيد، على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان فهل يمكن أن يتصور هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى، واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال[401]

ولم يتوقف فرعون وقومه على إشاعة الكذب والافتراء بين الناس، خاصة كذبة أن موسى ساحر جاء ليخرجهم من أرضهم فأضاف لها تهمة الجنون، لكي يُسفّه موسى وينقص من رجاحة عقله، لأنه كان يعرف أن المجنون لا يُعتد بكلامه، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[402]، أي لا بد أن يكون أحدهما[403]، والعجيب في ذلك أنّ هاتين الكذبتين لم يختص بها فرعون و قومه، بل قالها أقوام

(399) البيضاوي،تفسير البيضاوي(31/4).
(400) سورة طه،الآية: 64.
(401) السعدي، تفسير السعدي،ص592.
(402) سورة الذاريات، الاية:39.
(403) مجير الدين الحنبلي ،تفسير الرحمن (408/6).

الرسل كلهم أجمعين، وهذا نتيجة جحودهم وكفرهم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝﴾[404]، أي: كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضا بهذا القول حتى قالوه جميعا إضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه[405]، وهذا دأب الظالمين المستبدين عبر الأزمان والأماكن فهم يشتركون ويتشابهون في شتى أشكال الكذب ويتمننون فيه، حتى صاروا الآن يشتركون جميعا في الأجهزة، والوسائل، والأساليب التي يستخدمونها لذلك.

وفي مشهد آخر، ها هو ذا مجددا يجاهر بهذه الكذبة أمام قومه، ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝﴾[406]، يقول إنّ رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله، لأنه يقول قولا لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونَسَبَ موسى عدوُّ الله إلى الجِنَّةِ، لأنه كان عنده وعند قومه أنّه لا ربّ غيره يُعبد، وأنّ الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة[407]، والشيء الملفت للانتباه في كذب فرعون وقومه، أنهم استعملوه في نَكْثِ وعدهم لموسى بأن يرسلوا معه بني إسرائيل، قال تعالى:﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝﴾[408]، أي: لما كشف الله عنهم الرجز بدعاء موسى راحوا ينقضون عهدهم ويصرّون على كفرهم[409]، فما كان جزائهم إلّا أن انتقم الله منهم جراء غفلتهم وجحودهم وكذبهم، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝﴾[410]

(404) سورة الذاريات، الآيات : 52-53.
(405) البيضاوي، تفسير البيضاوي(151/5).
(406) سورة الشعراء، الآية:27.
(407) الطبري، تفسير الطبري(5/502-503).
(408) سورة الأعراف، الآيات: 133-135.
(409) جلال الدين بن أحمد المحلي ، جلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين مصدر سبق، ص211
(410) سورة الأعراف، الآية:136.

من خلال الشواهد التي أوردناها حول كذب فرعون وافترائه، اتضح لنا أنه قد استخدم هذه الوسيلة في حربه الإعلامية الشرسة التي قادها ضد موسى ودعوته للحق، فراح مجاهرا بكذبه بين الناس ومُشيعا له، وكل هذا لكي يشكك في نبوة موسى والآيات التي جاء بها من ربه، وبالموازاة مع ذلك سخّر أتباعه المستكبرين لإذاعة الكذب ومحاولة نشر الإشاعات المغرضة، بين الجماهير الغافلة المُستخف بها، قال تعالى: **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾**(411)

- مجالس المراء والمجادلة:

تعدّ كل من مجالس المجادلة والمراء من بين الوسائل والطرق الأكثر استعمالا لتشتيت الرأي وتفريقه، خاصة إذا كان محتواها عقيم غير مُوصل لنتائج واضحة، ويعمّ بلاءها كلما عمّ انتشارها بين الناس، مما تسبّبه من خصومات وتنافر بينهم جراء عدم تقارب الآراء و تفرّقها، وفي كثير من الأحيان تعصبها، قال تعالى: **وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾**(412)، (**وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ**) والمراد: جميع الناس، وهو الأصح. (**أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا**) خصومة، المعنى أن الإنسان أكثر جدالا من غيره(413)، وذكر الله عز وجل الجدال بالباطل أنه صفة من صفات الكفار الجاحدين للحق، قال تعالى: **وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾**(414)، فالجدل في الله محمود مع أعدائه، والجدل مع الله شرك لأنه صرفٌ إلى مخالفة تُوهِمُ أن أحدا يعارض التقدير، وتجويز ذلك انسلاخ عن الدين، ومن امارات سعادة للمؤمن فتح باب العمل عليه، وإغلاق باب الجدل دونه، وأرسل الله الرسل -عليهم السلام- تترى، وأيدهم بالحجج والبراهين، وامرهم بالإنذار والتخويف، والتشريف في عين التكليف، وتضمين ذلك بالتحقيق، ولكن سعِد قومُ باتباعهم، وشقِيَ آخرون بخلافهم(415)، إذ اتخذ فرعون من مجالس المناظرة منبرا إعلاميا، ليبث سموم حقده وكفره، والتشكيك في بعثة موسى والآيات التي جاء بها، والملاحظ من خلال الشواهد التي جاءت في

---

(411) سورة الزخرف ،الآية 54.

(412) سورة الكهف ، الآية:54.

(413) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن (188/4).

(414) سورة الكهف ، الآية 56.

(415) القشيري، لطائف الإشارات (225/2-226).

القرآن الكريم أن فرعون إمتهن أسلوب التهرب من الاتصال المواجهي المبني على البيّنة والحجة، وراح يناقض الحجج والأدلة التي جاء بها موسى، وألحّ في الخوض فيها بكلام مليء بالسخرية والاستهزاء والتكذيب بما جاء به الرسول من ربّه، يقول الرازي: أن فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم إن موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والإيذاء بل خرج معه المناظرة لما أنه لو شرع أولا في الإيذاء لنسب إلى الجهل والسفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره[416].

وراح يخاصم موسى ويجادله، والمجادلة كما يفسّرها اللّغويون تنحو منحى الخصومة، بمعنى أن استعمال هذه المادة يكاد يلزم الخصومة في أي صورة من صورها، ولو بمعنى التمسك بالرأي والتعصب له[417]، وبهذا أبى فرعون إلّا ليدوم جحوده، وكان الطغيان هو عنصر الخصومة في المحاورة، قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[418]، فالطغيان أعمى بصيرته عن الحق، واتخذ من المجادلة والمراء أداة سعى من خلالها لتسفيه موسى، ومحاولة تعجيزه من جهة، ولتضليل قومه وتجهيلهم عن الحق من جهة أخرى، فكان كلما دعاه موسى –عليه السلام– للمناظرة لإظهار الحق وتبيانه، دعا قومه للحضور للاستئناس بضلالهم وجهلهم.

وقد تقوّى فرعون كثيرا بهذه المجالس، لِمَا وجد فيها من عقول مخدرة، مُستخف بها، لذلك برزت حججه واهية صاخبة ساقها لكي يتحاشى محاورة موسى في المضمون الرئيسي للرسالة التي جاء بها ألا وهو وحدانية الله وعظم قدرته، وإذا انهار مبدأ الرسالة انهارت معه القضية كلها، وهذا بالتشكيك في صحتها، وبالتالي حاول فرعون أن يقيم على هذا المبدأ موقفا مضللا ليخفي خوفه وعجزه أمام موسى والآيات التي جاء بها من ربه.

وظهرت ملامح تأثير المراء جلية في أوساط قومه لَمّا صدّقوا افترائه وكذبه، بل أدخلهم كطرف في الخصومة، بِمَسْرَحَتِهِ لمشاهد الحوار الذي قام بينه وبين موسى من

---

(416) فخر الرازي،تفسير فخر الرازي(22/62-63).

(417) عبدالحليم حفني ، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ، ط3 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص11

(418) سورة طه الآية:23.

جهة، وبينه وبين الرجل المؤمن من آله من جهة أخرى، فمجرد ما يأتي موسى بالحجة و البيان أمامه إلا يجد نفسه ملتفتا لقومه لصرف انتباههم عن بيانه، ويتحاشى الرد عليه بمثله، لأنه يفتقد أصلا للبيان والحجة، فأضلهم بغير علم، ولعب دور الممثل الذي يقوم باستغفال الجماهير واستعطافهم أثناء تأديته لأطوار تمثيليته.

والشاهد على ذلك قوله تعالى قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ [419]، جاء في تفسير البغوي: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله إلي؟ فأجابه موسى عليه السلام بذكر أفعاله سبحانه التي يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها.

(قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) أنه خالقهما، فلما قال موسى ذلك تحير فرعون في جوابه.

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ) من أشراف قومه، قال ابن عباس: كانوا خمس مائة رجل عليهم الأسورة، قال لهم فرعون استعبادا لقول موسى (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم، فزادهم موسى في البيان، (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ).

(قَالَ) يعني: فرعون: (إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)، يتكلم بكلام لا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل، فزاد موسى في البيان

(قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ).

(قَالَ)، فرعون – حين لزمته الحجة وانقطع عن الجواب – تكبرا عن الحق:

(قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) من المحبوسين، قال

(419) سورة الشعراء، الآيات:23-31

الكلبي: كان سجنه أشد من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فردا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئا، يهوي إلى الأرض.

(قَالَ) له موسى حين توعده بالسجن (أَوَلَوْ جِئْتُكَ) أي: وإن جئتك (بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) بآية مبينة، والمعنى الآية:أتفعل ذلك وعن أتيتك بحجة بينة؟[420] ومن هنا يتضح لنا ذلك التَمَسْرُخ الحاصل، من خلال الدور الذي جسّده فرعون لتفنيد البيان الذي جاء به موسى، حيث أحسّ بالعجز في المواجهة والرد، وراح يتدرّج في ذلك حتى أصابه الغيظ لانقطاعه عن الجواب، لينقلب إلى الدور الذي أفلح فيه دائما ألا وهو دور الطاغية المهدد، ونشعر في مشهد آخر من هذا الحوار أن فرعون راح يجادل بالباطل ليضل قومه بغير حق، ويمكن أن يصدق فيه قوله تعالى: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ [421].

ومن جهة أخرى راح فرعون يجادل الرجل المؤمن من آله الذي جعله الله منارا للحق ومصدقا لما جاء به موسى، وليكشف ارتياب فرعون وجداله بالباطل قال تعالى: وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ

(420) البغوي، تفسير البغوي(111/6).

(421) سورة الحج، الآيات:8-9.

مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝ [422]

من خلال كل هذه الأدلة والبيان الذي جاء به الرجل المؤمن، ها هو فرعون يخرج مجادلا مخاصما بقوله: قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ، وكأنه أراد أن يضرب كل هذه الأدلة عرض الحائط، ويوحي لقومه أن رأيه هو السائد، وذلك سعيا منه لصرف أنظارهم على ما جاء به الرجل المؤمن، وتكبيل عقولهم عن الحق المبين، ولما قوية عليه الحجة والبيان، طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ)، وهذا لمّا علم من سفاهة رأيه، واحتقاره للبيان وارتيابه أمام البرهان.

ونستشف من خلال الشواهد التي قمنا بذكرها حول جدال فرعون، أنه استعمله كأداة أخرى لتضليل وتجهيل قومه، خاصة لمّا شهدوا حضور المناظرات، وتوريطهم كطرف في جهله وكفره، فصار جداله ومرائه حاجزا منيعا أمام البيان الذي جاء به موسى والرجل المؤمن، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجادل الظالم بظلمه وجهالته، وبالمقابل يجد الحق وأصحابه أنفسهم متضررين، مكابدين معانين لإيصال رسالتهم، وتظهر معه تلك المشاق الجسيمة التي يتحملونها جراء ذلك، في حين يجد الأشخاص المنقادين وراء الجدال وأهله أنفسهم منساقين، مكبلين عن فهم الحق و فهم أهله.

- السحر الإعلامي:

يمكن أن نعرّف السحر الإعلامي على أنه: الأسلوب الذي يتم من خلاله إيهام الناس وخداعهم، باستعمال الحيل والخيال، بعرض التأثير على سمعهم وأبصارهم، وعقولهم، ونفسياتهم، إمّا تخويفًا لها، أو ترويجًا عنها، وقد يستعمل في السحر الإعلامي

(422) سورة غافر، الآيات:28-37

شتى الوسائل الدنيئة من كذب، ومكر، وخداع، وغيرها، والتي من شأنها أن تقوم بتضليل الناس، وتجهيلهم، ويصبح السحر الإعلامي بذلك وسيلة من وسائل الحرب الإعلامية والنفسية، حيث يتم إنفاق لأجل تثبيتها أموالا طائلة ووقتا وجهدا، وهذا بغرض تسفيه الجماهير وتنويمهم، بل تعد من أهمها من حيث التأثير، وقبل أن نقوم بتفصيل أوجه استخدام هذه الوسيلة المؤثرة من طرف فرعون لا بأس أن نبين في هذا المقام معاني السّحر كما أوردها الفيروزآبادي:

الأول:الخداع، وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عمّا يفعله بخفة يد، وما يفعله النمّام بقول مزخرف عائق للاستماع.

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرّب إليه، كقوله تعالى ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[423].

الثالث: ما يذهب إليه الأغتام[424] وهو اسم لفعل يزعمون أنّه من قوّته يغيّر الصّور والطبائع، فيجعل الإنسان حمارا، وحقيقة لذلك عند المحصّلين، وقد تصوّر من السّحر تارة حسنه، فقيل: إنّ من البيان لسحرا، وتارة دقه وفعله، حتى قالت الأطبّاء: الطبيعة ساحرة. وسمّوا الغذاء سحرا من حيث إنّه يدقّ ويلطف تأثيره، قال تعالى: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾[425]، أي مصروفون عن معرفتنا بالسّحر، وعلى ذلك قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾[426]، قيل ممّن جعل له سَحْر، تنبيها أنه يحتاج إلى الغذاء، كقوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾[427]، ونبّه أنه كان بشرا، و قيل معناه ممّن جُعل له سِحْر يتوصّل بلطفه ودقته إلى ما يأتي به ويدّعيه.[428]

وكل هذه المعاني المذكورة للسحر إلّا ولها تأثير على الناس سواء نفسي، أو عقلي، أو روحي، وفي بعض الأحيان تمتد تأثيراتها لتمس الأبدان، ويحمل السّحر من الأسرار

(423) سورة الشعراء، الآيات:221، 222.
(424) الأغتام:الذين لا يفصحون و لا يبينون ، يقال رجل اغتم ، و قوم غتم و غتام.
(425) سورة الحجر، الآية 15.
(426) سورة الشعراء،الآية 153-185.
(427) سورة الفرقان ، الآية:7.
(428) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التميز(198-199)

ما يبهر العقول والألباب، لما فيه من إيهام وخيال، وشيء العجاب، وللسّحر قدرة تجعل القليل من الناس تمتهنه، لأنه مخصوص ببعض الميزات لا يمكن إيجادها عند عامة الناس وجاء السّحر في القرآن على سبعة أوجه:

الأول. بمعنى العالم والساحر بمعنى العالم الحاذق ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[429] أي أيها العالم.

الثاني: بمعنى الزور والكذب ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[430] أي كذب وزور، ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[431] أي كذب قوي تام.

الثالث: بمعنى ربط العيون ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[432]

الرابع: بمعنى الجنون، والمسحور المجنون، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[433]، ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[434]، أي مجنونا.

الخامس: بمعنى الصّرف عن الحق ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[435]، أي تصرفون.

السادس: بمعنى الإحواج إلى الطعام والشراب ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾[436].

السابع: بمعنى آخر الليل ومقدّمة الصّبح: ﴿نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ﴾[437]، ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[438]، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[439].

إن ما يميّز هذه الوسيلة التضليلية (السحر الإعلامي) عن غيرها من وسائل التضليل والتجهيل التي استخدمها فرعون، أنه أعطاها الأهمية البالغة، ودعا الناس إلى تعلّمها بالإكراه كما رأينا من قبل، وبرزت في نفس الوقت حاجته الملحة لها،

(429) سورة الزخرف الآية:49.
(430) سورة الأعراف ، الآية 116.
(431) سورة القمر، الآية:2.
(432) سورة الأعراف، الآية:116.
(433) سورة الإسراء، الآية 47.
(434) سورة الإسراء الآية 101.
(435) سورة المؤمنون، الآية:89.
(436) سورة الشعراء، الآية 153.
(437) سورة القمر الآية :34.
(438) سورة آل عمران، الآية :17.
(439) سورة الذاريات، الآية 18.

لمواجهة الآيات التي جاء بها موسى من ربّه ، ظانا في نفسه أن لها القدرة على ذلك، والوقوف الند للند أمامها، ويمكن لنا أن نرصد وجهان للسّحر الإعلامي الذي مارسه فرعون وأتباعه لغرض إضلال القوم وإيهامهم وخداعهم

1 - السّحر الإعلامي الكلامي:

للكلام سحر مميّز، فقد يستطيع المرء من خلاله أن يوهم الناس بأنّه قادر على فعل المستحيل، بالرغم من استحالة ذلك، وهذا إنّما هو اصطناع منه، وكذب وإفتراء، وقد يقع الناس ضحية سّحره الكلامي، وذلك بإيهامه وخداعه لهم، وقد يتفنن مثل هؤلاء الأشخاص في رسم الكلمات وتزيينها، وكذلك يختارون باحترافية بالغة الأوقات، والأماكن، والمواقف، لتجسيد مشاهد سّحرهم الكلامي.

في حين استغل فرعون هذا الجانب لتضليل قومه وإيهامهم بادّعائه أنه قادر على القيام بالمستحيل قصد إضلالهم، ودليل ذلك قوله تعالى: **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ** [440]، فلمّا بني له الصرح ارتقى فوقه، فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فَرُدَتْ إليه، وهي ملطخة دما، فقال: قد قتلت إله موسى[441]، ويظهر لنا أن فرعون سعى من خلال قوله هذا أن يوهم قومه ويخدعهم بأنّه إله، استطاع أن يرقى إلى السماء، ويقتل إله موسى، وهذا أمحل المحال، فكيف به أن يقتل إله موسى، ولم يستطع أن يقتل موسى في حد ذاته!!.

وشاهد اخر على استعماله للسّحر الإعلامي الكلامي قوله تعالى: **وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا** [442] روي أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفلق، ومضى فيه بنو إسرائيل قال لقومه: إنما انفلق لأمري[443]، وهذا تخييل وإيهام آخر منه، بأنّ له القدرة على أن يأمر البحر فينشق، فكيف به يشق البحر ويسمح لموسى ومن معه بالعبور من خلاله!!.

---

(440) سورة القصص، الآية:38.
(441) الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص136.
(442) سورة يونس الآية:90.
(443) ينظر: أبو حيان الأندلسي،تفسير البحر المحيط (188/5).

إنّ هذه الشواهد وغيرها تؤكد أنّ فرعون تعامل مع قومه بقدر إتباعهم لسفاهته، فأوهمهم بسحر الكلام على أنه قادر على القيام بأمور يستحيل لأحد من بني البشر أن يقوم بها إلّا بقدرة الله وسلطانه كحال الآيات التي جاء بها موسى -عليه السلام- ولخفة عقولهم اتبعوا سحر كلامه، ولا عجب أن يقول لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [444]، فمن شأن الساحر أن يستعرض قوة سحره لكي يوهم عقول الناس، و يبهرهم بعرضه، فكانت هذه المقولة أكبر خدعة سحرية كلامية أوهم بها قومه، و أشدّها تأثيرا فيهم، لأنها لخّصت سحره الإعلامي الكلامي في جملة واحدة، وكيف له أن يريهم ما يرى و يهديهم إلى سبيل الرشاد، ولم يروهم كذلك معه من الحق شيئا !؟.

2 - السحر الإعلامي المشهدي:

تعدّ المشاهد السحرية من بين أقوى الوسائل إيهاما وخداعا للجماهير، فهي تحمل في تضميناتها قوة إعلامية خفية يسعى من خلالها الساحر إيهام عقول الناس والتحكم بها بطريقة لا إرادية، فمن المعلوم أنّ الإنسان يبحث على الأشياء غير المألوفة، لأنه يجد فيها ملاذا للترويح عن النفس والتلذذ بها سماعًا وإبصارًا، خاصة فيما يدخل ضمن ما هو خيال، وفي هذا المعنى يمكن اعتبار السحر تمويه، وتخيل الشيء بخلاف حقيقته مع إرادة تجوزه على من يقصده به، وسواء كان ذلك في سرعة أو بطء[445]، وقد يتعدى تأثير المشاهد السحرية، كونها عروضًا ترفيهية وترويحية، لتصبح في كثير من الأحيان مشاهدًا ترهيبية وتخويفية، باستعمال حيل و خدع وتخييلات مخيفة ومرعبة، من شأنها جعل العرض أكثر تشويقًا وإثارة، ويمكن للمتلقين في هذا الموضع أن ينبهروا بالمشاهد التي تقدّم أمامهم، وقد يصل هذا الانبهار حد التصديق، وإن وقع ذلك معناه أنّ عقولهم انجرفت وراء الحيل والخيال المقدّم أمامهم، وإذا وقع هذا الانخداع في هذا الموضع، يقع معه الانقياد والانسياق، ويصبح بذلك السحر الإعلامي المشهدي أكثر خطورة وتأثيرًا على الجماهير، وأداة أخرى من أدوات التخدير والتنويم.

(444) سورة غافر الآية 29.

(445) أبو هلال العسكري، الفروق في اللّغة، تح محمد إبراهيم سليم ،دار العلم و الثقافة ، القاهرة، ص257

وقد صوّر لنا القرآن الكريم الكيفية التي استغلّ بها فرعون هذه الوسيلة لتضليل قومه وتجهيلهم بالسعي إلى إقامة العروض والمشاهد السحرية، قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝﴾ [446]، أي: ابعث في جميع مدنك لتي هي مقر العلم ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في سحره، فإن الساحر يُقابل بسحر من جنس سحره، فقيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، فعمل فرعون برأي ملئه، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد، ونودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود وقالوا لهم: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فنتبعهم ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر[447]

يمكن القول أنّ هذا الشاهد هو أبلغ الشواهد عن حرص فرعون واستدراجه الإعلامي لإعطاء أهمية بالغة للسحر الإعلامي المشهدي، فهاهو ذا يقوم بإرسال الحاشرين لجمع أمهر السحرة، وبعدها يقوم بدعوة الناس لحضور العرض والمواجهة، وبعدها يُمَنِّ هؤلاء الناس بغلبة السحرة وإتباعهم.

وفي موضع آخر استطاع السحرة أن يوهموا أعين الناس وأتوا بسحر عظيم قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [448]، أي صرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل، وهذا هو السحر، (وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ)، أي: أرهبوهم وأفزعوهم ،(وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) ، وذلك أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا، وفي القصة أن الأرض كانت ميلا في ميل فصارت حيات وأفاعي في أعين الناس[449].

وقد جاء بعدها دور موسى الذي ألقى عصاه لتفضح أن ما جاؤوا به مجرد تخييلات وأباطيل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۝﴾ [450]، فألقاها

(446) سورة الشعراء، الآيات:38-40.
(447) السعدي، تفسير السعدي، ص692.
(448) سورة الأعراف، الآية:116.
(449) البغوي، تفسير البغوي(265/3).
(450) سورة الأعراف، الآية:117.

فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق، قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالاسكندرية، يقال: بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة ثم فتحت فاهًا ثمانين ذراعا، (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ) أي تبتلع (مَا يَأْفِكُونَ)، يكذبون من التخاييل وقيل يزوّرون على الناس، فكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحدًا واحدًا حتى ابتلعت الكلّ وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألفا، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت، فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ، قال الحسن ومجاهد: ظهر الحق، وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، من السحر[451].

إنّ موسى بإلقائه للعصا حتى انقلبت حية، إنّما كان ذلك بمشيئة خالق قادر، لكي يبيّن للحضور من قوم فرعون أن ما جاء به الحق، وفي ذات الوقت أراد أن يخرجهم من التخدير والتنويم الذي جاء به السحرة، ويكشف لهم أنّ ما أتوا به مجرد خداع بصري وخيال، كانوا واقعين في مصيدة بطلانه وخدلانه.

ومن الشواهد الأخرى على أنّ ما جاء به السّحرة تمويه وخداع قوله تعالى: فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ [452]، قال القرطبي: ذلك أنّهم لطخوا العصّي بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت واهتزت، قال الكلبي: خُيّل إلى موسى أن الأرض حيّات، وأنّها تسعى على بطنها، فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ أي أضمر وقيل: وَجَدَ، وقيل: أحسّ، أي: من الحيّات، وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدّم، وقيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه، وقيل خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا.[453]

ومن خلال هذه الشواهد نلاحظ قوة تأثير هذا النوع من السحر على الناس الذين حضروا المواجهة التي أقيمت بين السّحرة وموسى، ودرجة الخوف والرهبة التي خلّفها في أنفسهم، وإذا عدنا إلى السبب الحقيقي لذلك، نجد أنّهم قد تلاعبوا بعقولهم وأوهموهم بالتخييلات، والخدع البصرية، قصد تضليلهم وصرفهم عن

(451) البغوي، تفسير البغوي(265/3)
(452) سورة طه،الآيات:66-67.
(453) القرطبي، تفسير القرطبي (100/14).

دعوة موسى للحق، ويمكننا أن نتصوّر في تلك اللّحظة بالذات سعادة فرعون بالموقف، ومراقبته لتلك الدهشة التي اعترت وجوههم، والتي نغّصها عليه موسى بإلقائه العصا، التي انقلبت حيّة تسعى تلقف ما كانوا يصنعون، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨﴾[454].

الأمر الغريب أنّ السحر الإعلامي قد شهد امتدادا رهيبا من الزمن الفرعوني عبر الأزمان، وبالتحديد في زماننا هذا الذي احتدمت فيه الحرب الإعلامية، وأصبحت أكثر ضراوة وشراسة، خاصة مع التطور التكنولوجي والتقني الذي شهده العالم مؤخرا، خاصة في ميادين الإعلام والاتصال، حيث غزا السحر الإعلامي بوجهيه الكلامي والمشهدي هذه الميادين، وهذا بغرض تضليل الناس وسحر أبصارهم، خاصة مع تطور السينما، والإعلان، وغيرها من الصيغ الإعلامية الأخرى التي سعى أصحابها نشر التخاييل والأكاذيب بين الجماهير الغافلة، فصرنا نشاهد ونسمع بقدرات خيالية لا مثيل لها، ومخلوقات لا وجود لها، وحماة للأرض مزيّفين يتمتعون بقدرات خارقة، سعى صناعها من خلالها إلى ترهيب الجماهير وإخافتهم، والتلاعب بعقولهم.

وتُرْجِمَ السحر الإعلامي في كثير من الأحيان إلى تعابير التشويق والإثارة، واللّهو والتسلية، وفي الحقيقة ما هو إلّا وسيلة لغسل الأدمغة وتنويمها وتخديرها، وبث الخوف والرهبة في أوساط الجماهير الضالة بأهوائها، وتلك هي علامة أخرى من علامات الانقياد والانصياع، ولا يَعْدُ ذلك إلّا خيالا وأوهاما، فأصبح الناس بمختلف أعمارهم ومشاربهم ومللهم محاصرون بحملة هوجاء مبنية على قاعدة من الخيال والأوهام، ولو عدنا للأسباب الحقيقية التي جعلت الكثير يهتمّون بتوطيد السحر الإعلامي، ونفث تعويذاته بين الجماهير، نجد أن منبعها هو الإلهام الفرعوني، المبني على تضليل الناس وتجهيلهم، ولو أننا نرى أن ممارسة السحر الإعلامي أخذت الآن أشكالا مختلفة، وأساليب متنوعة، ولكن تضميناتها كانت من تضمينات النظرية الفرعونية، ويمكن حصر هذه التضمينات المشتركة في النقاط التالية:

---

(454) سورة الأعراف، الآية:118.

- إعطاء أهمية بالغة للسحر الإعلامي بتسخير المال، والوقت، والجهد لاصطناعه بمهارة فائقة، وقدرة عالية.
- بسط القوة والغلبة والنفوذ باستعمال التحييلات والأوهام، وذلك بتسخير أمهر السَحرة والمخادعين، بغرض السيطرة على عقول الناس، وتضليلها، وتخويفها.
- تصوّر عدو قادم من السماء، يجب مواجهته، واستعراض القوة ضده، وإيهام الناس بالوقوف أمامه ومواجهته، والوقوف ضده بمنطق الخيال والمكر والخداع.
- لعب دور الحامي، والمنقذ من التهديدات الخارجية وخلق عدو من نسج الخيال ومحاولة تخليص الناس منه.
- سحر أعين الناس واسترهابهم، وتخويفهم، واصطناع قوة خيالية مرعبة من شأنها استعراض العضلات، وإخافة الجماهير، والتأثير على نفسياتهم وعقولهم.
- ترسيخ مبدأ السيادة على السحر الإعلامي، وتعلّمه، وإتقانه، واحترافه، ودعوة الناس إلى حضور مشاهده وعروضه.
- ويبقى القاسم المشترك الأكبر بين تضمينات السحر الإعلامي الفرعوني القديم والحديث هو انخداع الناس بهما، وانسياقهم وراء التخييلات والأوهام الكلامية والمشهدية المعروضة أمامهم، وبالرغم من أن التمويه والتزييف هما عنوان هذه التضمينات إلّا أنّ الاستفهام يبقى مطروحا على تلك السطوة السحرية الرهيبة على الجماهير، وانقيادهم وراء المخادعين والموهمين، حتى انعكست صور الخيال والوهم على ملبسهم ومشربهم وأقوالهم، وحتى سلوكاتهم ومواقفهم.

- **العنف الكلامي:**

المثير للانتباه في منطق فرعون استخدامه إلى جانب العنف والقهر الجسدي، العنف الكلامي الذي سعى من خلاله إلى تخويف وترهيب الرعية، حيث كان كل مرّة يشدد لهجة التهديد والوعيد، فصارت معظم خطاباته مليئة بصيغ العنف والإرهاب الكلامي، حيث يعد هو الآخر وسيلة تضليل وتجهيل وتسفيه للناس، والتلاعب بعقولهم، وقد ينجم العنف الكلامي في أغلب الأحيان عن حالة هستيرية قد تصيب الشخص تكون ناجمة عن الغضب الذي يعتريه، أو عن شعور ينتابه جراء فقدان

الثقة في نفسه وخوفه، أو عن سوء ملكة أو مزاج، وفي كثير من الأحيان قد يكون ناجما عن استكبار واستبداد.

ويمكننا القول أن العنف الكلامي: هو أسلوب استفزازي مليء بصيغ الترهيب والتخويف، ذو لهجة حادة، يتخلله سوء كلام وتهديد وتعنيف، وسخرية واستهزاء وتهكم، ويتسم بالقسوة المؤدية إلى فظاظة اللسان وتسلطه.

وقد يسبق العنف الكلامي في كثير من الأحيان العنف الجسدي، وقد يقع في أحيان أخرى دون أن يقع العنف الجسدي، وذلك لغرض بث الخوف في النفوس وجعلها خاضعة منساقة، ومن جهة أخرى قد يؤدي العنف الكلامي إلى فقدان ثقة الناس واحترامهم، وقد نبه الله تعالى على ذلك مخاطبا رسوله محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[455]، قال ابن كثير: واللفظ الغليظ، والمراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك (غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ) أي لو كنت سيء الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك[456].

والغريب في أمر قوم فرعون أن بالرغم من فظاظة كلامه وقسوة قلبه، لم ينفضوا من حوله، و هذا دليل آخر على موافقتهم لأقواله وأفعاله، فكان كلامهم من كلامه، قاسيا مثل قسوة أفعالهم وأفعاله، وبالتالي استوطن العنف الكلامي عقول رعيته كما استوطنها عتوه واستبداده، فكأنّ فرعون قد سيطر عليهم تماما، فلم يكفهم إتباع رأيه وأمره، فاتبعوه حتى في كلامه الذي نلمس فيه هو الآخر نوعا من الغلظة، والقسوة، والدعوة إلى القهر والعدوان.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم، شواهد عديدة عن الإرهاب الكلامي الذي مارسه فرعون لإخافة موسى ومن معه من جهة، ومحاولة إيهام رعيته بشدّته وغلظته، وحتى في قسوة كلامه نستشعر نوع من الاحتقار والاستهتار، وشكلا آخر

(455) سورة آل عمران، الآية: 159.
(456) ابن كثير، تفسير ابن كثير(410/1).

من أشكال الاستكبار، وهذه صفة المستكبرين على مر الأزمان، يمارسون نوعا من الترويع النفسي على الجماهير وذلك بالتلفظ بكلام عنيف قاسي، يكون أثره بليغا عليهم، ويمكن لهذا الترويع أن يصير تقليدا متعارفا بينهم، فيتوارثون عنف الكلام وقسوته.

كدأب فرعون وقومه الذي أصبح كلامه العنيف رمزا من رموز النظرية الفرعونية، من الضروري الإقتداء به، حيث نجد أن معظم أقواله المذكورة في القرآن الكريم إلّا وتدلّ على ذلك كقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (457)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ (458)، وقوله سبحانه:﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (459)، وقوله تعالى:﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (460)

كل هذه الأقوال وغيرها، تحمل في مضامينها حقد دفين، وغيض مشين، انعكس بشكل جلي على ألفاظه وكلماته، فجاءت كلّها عنيفة كعنف بطشه وقهره، ومما لا شك فيه أنّ القرآن الكريم قد سجل أقوال هذا المستبد لكي تكون شاهدا قويا على حكمه الجائر، ولسانه السليط الفاجر، الذي سخره هو الآخر لنشر الخوف والترهيب بين الرعية، ولإشاعة الغوغائية والخطاب غير المهذب والأحقاد العنصرية والتعصب العرقي.

ويمكننا أن نتصور التأثير الكبير الذي تركه العنف الكلامي في نفوس الناس، واتخاذه كوسيلة قوية لاسترهابهم وإسكات أصواتهم، وقد استغل فرعون جهل الجماهير الغافلة من حوله لينشئ حول عقولهم حيزا من الفراغ والجهل بعزلهم عن الحق، وهكذا ليصل بهم إلى أحط مستوى باستخدامه غلظة الكلام حتى يؤمّن لنفسه السلطة والغلبة، وبالمقابل نستشعر من خلال أقواله ملامح الخوف والرهبة

(457) سورة الأعراف الآية:127.
(458) سورة غافر، الآية :26
(459) سورة الشعراء، الآية:29.
(460) سورة طه، الآية:71.

التي اعترت نفسه، والتي انقلبت إلى غضب مضمر صبّه على موسى ومن معه.

ويعد بذلك العنف الكلامي أحد صور التواصل المعرقل للحوار البنّاء ويكون مليء باللوم والإهانات والتحقير وإطلاق الصفات والانتقاد والمقارنات والتشخيصات[461]، وغيرها من صور الكلام العنيف والمتدني، وقد يمثل هذا النوع من الكلام مرآة عاكسة لصاحبه، فيكون إمّا جاهلًا مستكبرًا، أو حاذقًا متجهمًا، وفي كلتا الحالتين يعتبر الكلام العنيف مجسّد للسلوك غير الراقي في الحوار، فيصير وبألًا عليه وعلى غيره، وفي كثير من الأحيان يجد الشخص العاقل الرصين نفسه أمام عوائق جسيمة لإيصال رسالته للطرف الآخر الذي تملأ خطاباته وأقواله لغة العنف، كما هو الشأن مع موسى – عليه السلام- الذي وجد صعوبة كبيرة في الحوار مع فرعون وقومه، الذين جنت عليهم أفعالهم وأقوالهم جميعا بالهلاك والخسران المبين.

إنّ هذه الوسائل التضليلية والتجهيلية كلّها مجتمعة، شكّلت عصب النظرية الفرعونية وشرايينها، وكلّها تحمل معاني التنويم والتخدير بغرض إبقاء الرعية منساقة دوما وراء أهواء فرعون وضلالته، حيث عاش القوم في كنف الغفلة والجحود، كما أنّه لم يتوان في استغلال هذه الوسائل لشن حرب إعلامية ونفسية شرسة ضد موسى ورسالة الحق التي جاء بها من ربه، وعمل المستحيل للوقوف ضدها ومواجهتها بدلا من تقبّلها وإتباعها.

وكان منه أنه سلك سبل الضلال، وتكريس حبائل المكر والعدوان، وقد حرص كل الحرص على ترسيخ هذه الوسائل في أذهان الناس، لكي يظلّوا بضلاله، منقادين منساقين وراء سفاهته وجهله، حيث استطاع أن يؤثر فيهم ويغفلهم عن الحق، وسخّر بالمقابل أتباعه المستكبرين للتكثيف منها ونشرها بينهم، والشيء الأكيد هو ذلك الولاء الزائد الذي تعاظم في نفوس قومه إلى درجة أنّ تلك الوسائل التضليلية أدّت غرضها بشكل لافت للانتباه، وفي هذا الصدد يقول العلّامة عبدالحميد ابن باديس: عندما تتخلل محبة شخص من الناس قلبك، وتمتزج بروحك ويستولي بسلطان مودته عليك، تصير أقواله وأفعاله كلّها عندك مرضية، وعيوبه ونقائصه

---

(461) ينظر. مارشال بي.روزنبرج ،التواصل غير العنيف لغة الحياة ، مكتبة جرير، المملكة العربية السعودية ،ص15.

عنك محجوبة، فتمسي طوع بنانه، ورهن إشارته، يوجهك حيث شاء ويصرفك عما أراد، وهذه حالة من أخطر الأحوال عليك، لأنك فيها قد سلبت تميّزك، وخسرت إرادتك، وصرت آلة في يد غيرك، فقد ترى الخير وتدعى إليه فيصرفك عنه، وقد ترى الشر وتحذر منه فيوقعك فيه.(462)

والملفت للانتباه الامتداد التاريخي للفرعونية، واستعمال لمثل هذه الوسائل للسيطرة على عقول الناس والتلاعب بها، بل شهدت انتشارا رهيبا، وسُخّر لأجلها الوقت والجهد والمال، وأصبحت الجماهير فريسة سهلة للمصائد والمكائد، حتى انعكست صور التضليل والتجهيل عليهم، وأضحى الجميع في سكرة عمياء، وظلمة دهماء، لا يعرف صوابها من خطأها، ولا ليلها من نهارها، والعجب كلّ العجب أن مظاهر الاستبداد والاعتساف، أخذت منحًا آخرًا غير الذي عان منه بنو البشر في عهود سابقة من صور الإرهاب والعنف والقهر الجسدي، وصار الاستبداد تضليليا وتجهيليا بالدرجة الأولى مثلما كان الحال مع قوم فرعون، وفي نظرنا أنّ هذا النوع من الاستبداد هو أشدّ تأثيرًا من النوع الذي يستعمل القوة، لأنّ سكرة التخدير والتنويم باستعمال وسائل التضليل والتجهيل المذكورة، تشبه في نشوتها وتأثيرها، نشوة وتأثير سكرة كأس المُدَامْ المفضية لكل الخبائث، بل هي أشد وطئًا منها، لما ينجم عنها من وبال كبير على عامة الناس.

ويكون تأثير هذه الوسائل أشد عندما يتم استغلالها لتمرير بعض الأفكار والتوجهات التي لا يلقى لها بال، فيتعاظم تأثيرها على الجماهير عبر مر الأيام والأزمان، خاصة إذا كانت تبعاتها شاملة لكافة الميادين خاصة الاجتماعية منها، وقد أشار إلى ذلك المفكر الجزائري مالك بن نبيّ بقوله: إن ما يخيف على الأخص من عمل الاستعمار هو المستوى الميكروسكوبي، إذ يجب أن نخشاه حين يستعمل حبة الرمل أكثر مما نخشاه حين يستعمل القنبلة الذريه، لأنّ عمله حينئذ يفلت تماما من مراقبتنا، إن عمله حين يصبح صامتا، وخافتا، وغامضا، حينئذ تكون نتائجه أكبر لأنه يكون قد طغى على تيقظنا وجهاز دفاعاتنا على حين غرّة، إنّ الجسد

(462) عبدالحميد ابن باديس الصنهاجي،تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط 2،، دار الكتب العلمية ،بيروت-لبنان، 2003 ،ص171

الاجتماعي أشد عرضة لنتائج هذا العمل، مثلما يكون جسد الطفل أشد عرضة للتأثر بالميكروبات، لأنه لم يكتسب بعد المناعة الضرورية.[463]

ومن الضروري أن نشير إلى أن وسائل التضليل والتجهيل قد كثرت وذاع صيتها بين الجماهير، حيث أصبحت عابرة للحدود، وتحيط بهم من كل حدب وصوب، خاصة مع التطور التقني والتكنولوجي الذي شهده العالم مؤخرا، وعدوى تلك الوسائل التي لم تترك شخصا إلّا وأصابته، حيث أنّ الزمن الفرعوني قد أعاد نفسه، وأصبح كل من الكذب، والسخرية، والعنف الكلامي، والسحر الإعلامي، ومجالس الجدل، يروّج لها عبر الأجهزة المسخّرة لهذا الغرض، وبالتالي حقّقت لعنة النظرية الفرعونية الممتدة عبر الزمن مبتغاها، الهادف إلى إغفال الناس عن الحق وتجهيلهم، وتضليلهم بشكل جنوني، تُفقد معه العقول والأنفس والأرواح، وحتى القيم السامية والأخلاق الراقية.

- الوسائل التي اعتمدها موسى -عليه السلام- لمواجهة النظرية الفرعونية:

بعد تتبعنا لأهم ما حملته النظرية الفرعونية من معاني الإستبداد والإستكبار، والتأثير الكبير الذي خلّفته في أوساط قوم فرعون، من خوف ورعب واستخفاف وتضليل وتجهيل، لا بد لنا الإشارة في هذا المقام إلى الطرق والوسائل التي اعتمدها موسى - عليه السلام- لمواجهة هذا التأثير المخيف لهذه النظرية.

فمن حكمه الله عزّ وجل أنّه بعث في كل أمة رسولا قال تعالى: **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿٤٧﴾[464]، ومن شأن هؤلاء الرسل أنهم كانوا مبشرين ومنذرين قال تعالى: **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴿٢٤﴾[465]، ومن هنا قابلوا أقوامهم بالحجة والدليل لتبصيرهم عما هم فيه من تضليل وتجهيل، وتبيان سبل الحق والدعوة إلى اتباعه.

---

(463) مالك بن نبيّ، من أجل التغيير، ط4، دار الفكر المعاصر، بيروت -لبنان، دار الفكر، دمشق -سوريا، 2005، ص110.

(464) سورة يونس، الآية:47.

(465) سورة فاطر، الآية:24.

وتختلف بعثة موسى عليه السلام عن بعثة من سبقه ومن تلاه من رسل، كون أنّ الرسل كلّهم أجمعين بُعِثوا إلى أقوامهم، في حين كانت بعثة موسى خصيصا إلى فرعون الذي استحود على قومه واستغلب على أمرهم، واستخدم منطق العنف والاستبداد، وبالمقابل أوصى الله عز وجل موسى وأخاه هارون -عليهما السلام- بمخاطبة هذا المستبد بقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[466]، قال الرازي. أما قوله تعالى(فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا) ففيه سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد (الجواب) لوجهين (الأول) أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فامره ان يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين (الثاني) أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادو عتوا وتكبرا، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق.

السؤال الثاني: كيف كان ذلك اللين (جواب) ذكروا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال (هل لك إلا أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى) وذكر أيضا في هذه السورة بعض ذلك فقال(فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) إلى قوله(والسلام على من اتبع الهدى) (وثانيها) أن تعداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه إلّا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغني أن فرعون عمّر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام إن أطعتني عمرت مثل ما عمرت فإذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة (أما الأول) فقيل لو حصلت له هده الأمور الثلاثة في هذه المده الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى وذلك لا يصح مع التكليف (وأما الثاني) فلأن خطابه بالسكينة أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله (فقولا له قولا لينا).[467]

(466) سورة طه، الآيات:43-44.

(467) الرازي، تفسير فخر الرازي (22/58).

وحكمة أخرى من حكم الله سبحانه وتعالى أنه بعث كل رسول بلسان قومه **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾**[468]، فإنه يدل على أن لغة (قوم كل نبي) بن علمهم بها مقدم على الوحي، كان الوحي مقدما على العلم بها، فلزم تقدم كل من الوحي والعلم باللغات على الآخر وتأخره عنه، فلزم تقدم كل منهما على نفسه وتأخره عنه، وبطلانه بيّن، والجواب أن الآية إنما تدل على أن كل رسول له قوم، فعلم قومه بلغتهم مقدم، على الوحي إليه.[469]

وبهذا اقتضت هذه الحكمة أن يبعث الله سبحانه وتعالى موسى -عليه السلام- إلى فرعون وقومه بعدما تربى في كنف عزّه، وترعرع في سلطان ملكه، وعلم من جور فرعون واستبداده على بني إسرائيل، وكذلك علم بأهم الأساليب والوسائل التي استخدمها لتجهيل وتضليل قومه، كلّ ذلك مهّد الطريق أمام موسى عليه السلام لأن يقف في وجه فرعون ويدلّه إلى سبيل الحق، وبالموازاة مع ذلك أتاه الله حكما وعلما **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾**.[470]

وأيده الله بالحجة والبيان لكي يستيقن عظمته، ويعدل فرعون عن إدعائه المزعوم بأنه إله في الأرض، يقول الجاحظ: والبيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسّامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.[471]

(468) سورة إبراهيم، الآية:4.
(469) علاء الدين القوشجي، عنقود الزواهر في الصّرف، تح أحمد عفيفي، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 2001، ص ص 190-191.
(470) سورة القصص، الآية:14.
(471) الجاحظ، البيان و التبيين(76/1).

ولما أوتي موسى الحجة والبيان راح يجادل فرعون وقومه بالتي هي أحسن، ويظهر لهم معاني صدق الفعل والكلام، حيث واجهته صعوبة كبيرة في إقناع فرعون وقومه للعدول على ما كانوا فيه من كفر وجحود، والتمسك بالدنيا، ولاقى ما لاقاه هو والذين آمنوا معه من أذى وقهر، في حين تمسك موسى باليقين الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في قلبه، وبرز جليا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[472]، ومعناه: (فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ) ولما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القويّ والحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء (إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ) فردّ عليهم قولهم وزجرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر (كَلَّآ) أي: لم يدركوكم (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي) أي: بالنصر على العدو(سَيَهۡدِينِ) أي:سيدلّني على طريق النجاة .[473]، هذا اليقين جعل موسى يستعين بالدعاء في مواقف عدّة، فقد استعان به ليسأل الله التثبيت والسداد في دعوة فرعون وقومه للحق، ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾[474]، والدعاء كان سببا لمغفرة الله له لما ارتكب جرما، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[475]، والدعاء كان سببا قويا للمنجاة من فرعون وعمله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[476]، ومن

(472) سورة الشعراء، الآيات:61-62.
(473) القرطبي ، تفسير القرطبي(32/16).
(474) سورة طه ، الآيات:25-35.
(475) سورة القصص،الآية:16.
(476) سورة يونس،الآية:8-8.

هنا تنكشف لنا الفائدة العظيمة للدعاء، وكيف استعمله موسى-عليه السلام- كوسيلة للوقوف في وجه ظلم فرعون وعتوه، فهو مطلوب في وقت الشدة والرخاء، وهو سبب من أسباب دفع الشر واستجلاب الخير.

وهذا جليّ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [477]، روى النعمان بن بشير عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إن الدعاء هو العبادة. ثم قرأ: وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين، حيث قيل ادعوني بلا جفاء، أستجب لكم بالوفاء، وقيل أيضا: ادعوني بلا خطأ أستجب مع العطاء[478]، فالدعاء كان سببا قويا لإهلاك فرعون وقومه، ونجاة موسى وأتباعه قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[479]

واليقين منح موسى ومن معه الصبر عن الأذى، والمشاق، والصبر هو أعظم سبيل لمواجهة المحن والمصائب، فهو يورث العزيمة وإرادة التغيير، وقد أوصى به موسى قومه، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [480]، وجعل هذا الصبر منهم أئمة يهدون بأمر الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [481]، وبصبرهم عن الشدائد، وأذى فرعون وقومه أيدهم الله بنصر من عنده، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [482] وقد أيد الله عز وجل رسله،

(477) سورة غافر، الآية:60.
(478) السمرقندي، تفسير بحر العلوم(3/172).
(479) سورة يونس، الآية:89.
(480) سورة الأعراف، الآية:128.
(481) سورة السجدة، الآية:24.
(482) سورة الأعراف،الآية:137.

خاصة أولي العزم منهم بالصبر على جحوذ وكفر أقوامهم وحث نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإقتداء بصبرهم لأنه أعظم وسيلة للدعوة للحق، ومثبته على المضيّ لما قلّده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوة صلى الله عليه وآله وسلم. وأمره بالاتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من أقوامهم من المكاره، ونالهم فيه من الأذى والشدائد[483]، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[484] ومن بين أعظمهم صبرا على عبء الرسالة، والأذى، صبر موسى -عليه السلام- على أذى فرعون وقومه، فمن حلال الوسائل القمعية والتضليلية التي استخدمها- والتي أشرنا إليها من قبل- يمكننا أن نتصور عظم الصبر والتحمّل الذي أبداه موسى، فقد وجد صعوبة بالغة في إقناع فرعون الذي كبّل بدوره عقول قومه عن فهم الرسالة الإلهية واستعابها والإيمان بها، فحصل نوع من التصادم بين الحق والباطل، حيث تعاظم الباطل، واشتدّ مع مرور الأيام، واشتدّت معه وسائل القمع والتضليل، وعظم معه الصبر على البلاء، ودلّ الله عز وجل في موضع آخر موسى وأخاه هارون إلى وسيلة أخرى من وسائل مواجهة النظرية الفرعونية ألا وهي ذكر الله تعالى، ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾[485]، أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك، ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾[486]، فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها ويخفف حملها[487]، والذكر وسيلة عظيمة لإحلال الطمأنينة والسكينة في قلوب الناس، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[488]، والاطمئنان: السكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشك، لأن الشك يستعار له الاضطراب[489]، والذكر سبب من أسباب التثبيت والنصر على

(483) الطبري، تفسير الطبري(28/7).
(484) سورة الأحقاف، الآية:35.
(485) سورة طه، الآية: 42.
(486) سورة طه، الآيات: 33-34.
(487) السعدي، تفسير السعدي، مصدر سابق، ص 589.
(488) سورة الرعد، الآية:28.
(489) ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير(13,137).

الأعداء قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[490]، فأمروا بذكر الله إذ هو تعالى الذي يفزع إليه عند الشدائد، ويستأنس بذكره، ويستنصر بدعائه، ومن كان كثير التعلق بالله ذكره في كل موطن، حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل شيء، ويغيب فيها الحس.[491]

وفي موضع آخر أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى وأخاه هارون، لدعوة بنو إسرائيل لأن يجعلوا بيوتهم مساجد، وذلك للتخفيف من هول الأذى الذي خلقه فرعون في نفوسهم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[492]، فإقامة الصلاة فيها معونة على جميع الأمور، (وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا[493]، فالصلاة من بين أعظم أنواع الذكر فهي تريد المؤمن قربا من الله عز وجل، قال تعالى موصيا موسى -عليه السلام- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[494]، قيل معناه صل لتذكرني[495].

لو أردنا أن نعقد مقارنة بسيطة بين الوسائل التي انتهجها فرعون لتطبيق نظريته، والوسائل التي اتبعها موسى -عليه السلام- للاحظنا وجود فارق كبير بينهما، فالوسائل التي انتهجها فرعون لمواجهة دعوة موسى بالباطل، في مجملها مادية وحسية، تمتاز بالفراغ الروحي وقوتها المادية وضخامتها ورعبها، سعت إلى التدمير والتخريب والترهيب، وتضليل وتجهيل عقول الجماهير، أما الوسائل التي اعتمدها موسى -عليه السلام- في مجملها روحية إيمانية، تخلو منها معالم المادية والحسية، منحته قوة نابعة من حكمة إلهية عظيمة، مليئة بحسن الظن بالله واليقين، مغمورة بالتوسل، والاستكانة، والاستعانة، واللّجوء إلى الله، استطاع من خلالها أن يتغلّب على غطرسة فرعون واستكباره.

---

(490) سورة الأنفال، الآية:45.
(491) أبوحيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط (4 498).
(492) سورة يونس، الآية:87.
(493) السعدي، تفسير السعدي، مصدر سابق، ص427
(494) سورة طه، الآية: 14.
(495) ابن كثير، تفسير ابن كثير (150/3).

إن هذه المقارنة، والاختلاف العجيب، يجعلنا نقف لحظة تأمل في قدرة الله تعالى في خلقه، وعظم اليقين به، والتمسك بمنهجه السليم، الذي فيه خير كثير، تلك القدرة التي ضربت ملك فرعون وسلطانه عرض الحائط، وجعلته هباءا منثورا، بعدما جحدها هو قومه، وقابلها بسماهته وجهله، بالرغم من صدق ما جاء به موسى من ربه، فاليقين الروحي من شأنه أن يحدث التغيير اللازم في نفس الإنسان، ويدفعه إلى التفكير السليم الموجب لاستجلاب كل خير، فهو يمنحه القدرة على العيش الهنيء، ويخلق لديه قدرة دفاعية ضد التهديدات المضمرة الناجمة عن سموم الغفلة والضلالة والجهل، ذلك اليقين الروحي والإيمان بقدرة الله الذي جحده فرعون وأهل القرى من قبله، فكان جحودهم وبالًا عليهم، ومستجلبًا لهلاكهم، ونقمة الله عز وجل عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[496].

(496) سورة الأعراف، الآية: 96.

الفصل الثاني

الاستبداد في وسائل الإعلام

الاستبداد في وسائل الإعلام

في كلمة له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، تحدث رئيس الوزراء الماليزي الأسبق مهاتير محمد في الثاني من أكتوبر 1993 «إن ما نسمعه أو نشاهده هو في الواقع ما قررت وسائل الاعلام الغربية هذه إننا يجب أن نسمعه أو نشاهده» وأشار إلى «الإهتمام البالغ الذي تبديه وسائل الإعلام الغربية برقصة المغني مايكل جاكسون، أكثر كثيراً من إهتمامها بإذاعة شيء يحدث في اللحظة ذاتها ويتعلق بمذابح، وعمليات قتل جماعية، أو معاملة وحشية يتعرض لها بنو الإنسان في أماكن أخرى من العالم»، هذا التصور يشبه الى حد كبير ما كان لصور الحروب من تأثير كبير على الجمهور فجأة، جرّ كل من كان يشاهد التلفزيون إلى ساحة المعارك، عندما هبت العواصف الرملية، لم ير المشاهدون ما أمامهم تماماً مثلما كان عليه الجنود، وعندما كانت الكاميرا مثبتة على القنابل الذكية، كان الجمهور يشعر بأنهم أصبحوا قنبلة.[497] هذا أستبداد وسائل الإعلام، إذ أن «المستبد» قد يسمى ملكا او فرعونا أو امبراطورا أو عاهلا أو سلطانا أو أميرا، وقد يكون شيخا قبليا أو ضابطا انقلابيا أو زعيما ثوريا أو قائدا قوميا أو طائفيا أو حاكما نفطيا أو أي أمير أو خليفة أو رئيس أو جنرال يصل الى سلطة الدولة فيرى أن له «الحق» في الاستحواذ عليها وادارتها وفقا لارادته الخاصة دون قانون بغض النظر عن نواياه ودوافعه وغاياته.[498]

وعرف مارتينو الاستبداد في القرن الثامن عشر بأنه: «الشكل الحكم الذي يكون فيه العاهل سيدا مطلقا، لا يحد سطوته شيء، وأن سلطته اعتباطية، وهو لا يحتكم لقاعدة سوى ارادته»[499] كما يصف أمام عبد الفتاح في كتابه عن الاستبداد السياسي: كلمة المستبد (Despot) مشتقة من الكلمة اليونانية ديسبوتيس (Despotes) التي تعني رب الاسرة، أو سيد المنزل، أو السيد على عبيده، ثم خرجت من هذا النطاق الاسري، إلى عالم السياسة لكي تطلق على نمط أنماط الحكم الملكي المطلق الذي تكون فيه سلطة الملك على رعاياه ممثلة لسلطة الاب على أبنائه في

(497) عبد الجبار ناصر، ثقافة الصورة في وسائل الاعلام، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2001، ص204

(498) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، دار المدى، بغداد، 2016، ص14

(499) المصدر السابق نفسه، ص13

الاسرة، أو السيد على عبيده، وهذا الخلط بين وظيفة الاب في الاسرة التي هي مفهوم أخلاقي، ووظيفة الملك الذي هو مركز سياسي يؤدي في الحال إلى الاستبداد، ولهذا يستخدمه الحكام عندنا في الشرق للضحك على السذج، فالحاكم "أب" للجميع او هو "كبير العائلة" وهذا يعني في الحال ان من حقه ان يحكم حكما استبداديا، لأن الاب لا يجوز -اخلاقيا- معارضته، ولا الاعتراض على أمره، فقراره مطاع وأحترامه واجب مفروض على الجميع..الخ، فينقل هذا التصور الاخلاقي إلى مجال السياسة، ويتحول إلى كبت للمعارضة أيا كان نوعها!! وتصبح الانتقادات التي يمكن أن توجه إليه "عيبا" فنحن ننتقل من الاخلاق الى السياسة، ونعود مرة أخرى من السياسة الى الاخلاق، وذلك كله محاولة لتبرير احكم الاستبدادي، كما يصف المفكران الإستراتيجيان الأمريكيان(فرانسيس فوكوياما) و(صموئيل هنتنجتون) في مقال بمجلة (نيوزويك) الأمريكية، الأصولية الإسلامية "بالفاشية" وبأنها تشكل تحدياً أيديولوجياً هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية، فالإسلام هو الحضارة الرئيسة الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشكلات الأساسية مع الحداثة الأمريكية المسيطرة في السياسة الدولية، ومن ثم فإن الصراع الحالي ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية، الأصولية- الفاشية الإسلامية-التي ترفض الاستهلاكية الغربية، الحداثة الغربية،وعليه ليس هناك "إستبداد شرقي" أو "إستبداد غربي" لكن هناك إستبداد، بل إستبداد بشع هنا أو هناك في الشرق كما في الغرب، فالاستبدادُ هو قانونُ السيِّد المطلق، الذي يحكُمُ بلداً ويمارسُ فيه السلطةَ دونَ مشاركةٍ من أحد، أي يستبدُ بالسلطةِ ويستأثرُ بها لنفسه، ومعنى الاستبداد هو حرمان الناس من ممارسة حقوقهم الطبيعية كأحرار، فالاستبداد هو غرور المرء برأيه والانفة من قبول النصيحة ويراد بالاستبداد عند إطلاقه إستبداد الحكومات خاصة، لكننا هنا نشخصه في وسائل الإعلام المختلفة، لأن الإعلام أعظم مظاهر أضرار الاستبداد فضلا عن الحكومات التي جعلت الانسان أشقى ذوي الحياة، والاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بالمشيئة الفردية، وبلا خوف من أية تبعة، ويعتقد البعض فيما مضى أن قوة وساطة وسائل الإعلام يعود لقدرتها على ان ترينا ما تراه فقط، فتناوبت وسائل الاتصال المتتالية

وصولا إلى شبكة الانترنت، ففي هذا الصدد يشخص الباحثون ذلك، أن هتلر ما كان له أن يوجد ويلحق المآسي بالعالم لو كان التلفزيون موجودا حينذاك، ويبررون قولهم أن الصورة التلفزيونية التي تظهر الشخص الهستيري تؤلب الرأي العام ضده، فالتلفزيون يحبذ السكينة والسلم والاسترخاء والمرح، فمن يصدق هذا الاعتقاد وهو يرى أن الحروب بكل وحشيتها وقبحها تحولت إلى فرجة واستعراض تلفزيوني نتابعه، بصمت وربما بلامبالاة، ونحن نتناول طعامنا؟ لقد استطاع الإعلام العالمي (والعربي بلا وعي) أن ينمط الإرهاب بهوية، وكل مقولات «الإرهاب لا هوية له» تصبح عبثا يجتره الإعلام أمام واقع إعلامي لا يعالج الخبر بموضوعية ويعيد للمفردات معانيها الصحيحة، نحن أمام إرهاب دموي يتواطئ فيه الإعلام أيضا، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، والإعلام المشغول بوعي صار حالة نادرة هذه الأيام.

ويرصد الكاتب الاردني خيري منصور شجرة الاستبداد وغبته، إذ يقول: قبل أكثر من قرن كتب عبد الرحمن الكواكبي عن الاستبداد وطبائعه، كما تجلت في عصره، ودفع الثمن إذ مات مسموما، وكانت آخر عبارة قالها لابن اخيه هي، سموني يا عبد القادر... وأهمية ما أنجزه الكواكبي ليست فقط في توصيف الاستبداد، بل في استقصاء هذا الشر حتى الجذور، بحيث رأى فيه سلالة تتكاثر، فالاستبداد ليس مجهول النسب، لأن ما يفرزه بمرور الوقت وتفاقم الصمت هو بمثابة مضادات لكل ما هو سوي في الوضع البشري، كما أن الكواكبي رأى غابة الاستبداد وشجرته معا، ولم يحجب أحدهما الاخر، ولو اقتصر في مقاربته المشحونة بطاقة عرفانية ووعي مفارق لدسائد في زمنه على التصدي لمستبد بعينه، سواء كان حاكما أو فئة تحتكر السلطة وتحول دون تداولها، لربما طواه النسيان كما طوى المستبد الذي كتب عنه، لكنه أدرك أن للاستبداد منظومة من المفاهيم، وله ممارسات متكررة تتحول إلى أعراف، لهذا شملت رؤاه الاستبداد والمستبدين معا، بعكس ما يحدث الآن، حيث يعزل فقهاء التسويغ وشرعنة الفساد بين الفساد كمفهوم مجرد، والفاسدين، وكأن الفساد نبت شيطاني بلا جذور أو شر من شرور الطبيعة وكوارثها، التي لا حول للإنسان فيها ولا قوة.

وربما لهذا السبب عاقب المستبد الكواكبي بإعدامه في منفاه مسموما، ولم يخطر ببال القاتل أن المقتول سيفيض كثيرا عن مساحة قبره، ويولد مرارا بحيث

يكون مرور أكثر من قرن على رحيله بمثابة قيامة له، وإعادة نشر لأفكاره، فالكتاب لم يفقده التاريخ صلاحيته بل كرّسها، لأن مؤلفه اكتشف المفاعيل التي تؤدي إلى عبور الاستبداد للعصور، فكانت مقارباته عابرة لعصرها، وحين نقرأ فصولا من الكتاب تبدو لنا كما لو أنها كتبت للتو وعن أيامنا العجاف، التي تحالف فيها الاستبداد مع الفساد بمختلف أشكاله لإنجاب ما نراه من استعباد للبلاد والعباد! والكتب المؤهلة للبقاء هي تلك التي رأى مؤلفوها ما هو أبعد من زمانهم، وما هو أشمل من الجغرافيا التي عاشوا فيها، ليس لأن ما لديهم من فائض الخيال يتيح لهم ذلك، بل لأنهم قادرون على التقاط المشترك التاريخي والمتكرر المأساوي في الوضع البشري، ولأن الكواكبي لم يكن ضحية لسطوة بُعد واحد على ثقافته، فقد رأى ما هو نقيض الاستبداد، وكانت له يوتوبياه لكنها يوتوبيا أرضية، وتخيل مؤتمرا شاملا للأمة كلها في كتابه «أم القرى»، فاستبق ما يسمى الآن اللعبة الافتراضية، التي يتداول فيها المتخصصون سيناريوهات الحرب والمواجهة.

ما أعنيه بشجرة الاستبداد هو الزعيم أو الفرد الذي يحجب الغابة، بحيث يتوهم الناس أن الاستبداد سيزول مع زوال المستبد الفرد، والحقيقة عكس ذلك تماما، وهناك أمثلة لا تحصى عن نهايات المستبدين التي لم تضع حدا لنهاية الاستبداد، لأن استبدال شهاب الدين بأخيه لن يغير المشهد، بقدر ما يكون تواطؤا مؤقتا لحجب الحقيقة، فالمستبدون على اختلاف الأسماء والألقاب هم من إفراز ثقافة استبدادية تتأسس على الاحتكار والإقصاء، وهناك من يصف المستبد أو الفاسد بالبثور التي تظهر على الجلد، لهذا فالعلاج إذا اقتصر على المرئي والسطحي لا رجاء منه، لأن الاستبداد يتناسل وله ميراث ينتقل من جيل إلى جيل، وعلى سبيل المثال كتب الكثير عن الاستبداد الستاليني، أو ما سمي عبادة الفرد، لكن هناك من الباحثين من تجاوزوا الشخصنة إلى المفاهيم المجردة، فكتبوا عن الستالينية وليس عن ستالين، لأن ستالين هو الشجرة التي حجبت غابة من المفاهيم ومكونات الأيديولوجيا التي تتأقلم مع الأشواق النرجسية لبشر لديهم تصور بأنهم من طينة أخرى، وليسوا من البشر الفانين، لهذا يتسلل وهم المعصومية لديهم، فهم ملهمون ولا يخطئون ولهم وحدهم الحق في القول وما على الآخرين إلا ترديد الصدى كالببغاء الذي وصفها

أحمد شوقي بقوله إن عقبها في أذنيها! والفارق بين رؤى جدلية للتاريخ وأخرى أفقية هو أن الرؤى الجدلية لا تفصل بين الغابة والشجرة، وتستطيع أن ترى الاثنتين معا، لكن بالبصيرة وليس بالبصر فقط، تمامــــــا كما أن نهر الزمن الذي قال عنه هيراقليطس لا يقطع مرتين، يمكن قطعه مرارا، لكن بأدوات وأساليب أخرى غير الحسية والمباشرة، والإبداع بحد ذاته محاولة لتحقيق مثل هذا الحلم، وروايات من طراز «البحث عن الزمن الضائع» لبروست أو «رباعية الإسكندرية» لداريل، هي محاولات لقطع النهر مرة أخرى من خلال ما يتحقق من عبقرية المزاوجة بين الخيال والذاكرة، إذ إن حكاية الشجرة والغابة رغم بساطتها وكثرة تداولها، تبقى أشد تعقيدا مما نتصور، فما يحجب الغابة هو عنصر من عناصرها وليس خارجا عنها، لهذا فإن ما يحجب الاستبداد كمفاهيم وأعراف هو المستبد الذي ما أن يزول حتى نكتشف بأنه يعود باسم آخر.[500]

فمنذ ملوك بلاد فارس، وأباطرة الصين، استندَ النظامُ الاستبداديُ على تقليدٍ وحيد، فهو وإن لم يُكتَب، فقد استمد شرعيته من تاريخ طويل، وموروثٍ خاص، وهكذا فإن المستبد يستقرُ في حكمه من خلال الديمومة، والقانون الخاص به، فهو قد يبني سلطته على أسطورةٍ، أو على النَسَبِ الإلهي، أو على سلطةِ الأُبُوّة الموروثة، إذ إن أغلب الدراسات الحديثة تشير إلى أن من يسيطر على الإعلام الآن إنما يسيطر على الوسيط الأكثر قوة في العصر الحديث، وقد أدرك اليهود أهمية ذلك مبكرًا؛ حسبما أوردنا من نص البروتوكول، وبالتالي: ركزوا جهودهم الاقتصادية والسياسية في إحكام السيطرة على هذه الآلة الفاعلة والمؤثرة، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، من خلال تملك العديد من وسائل الإعلام في الغرب، من سينما، وصحافة، وشبكات إذاعية وتلفزيونية.. وغيرها من الوسائل التي تكوّن في مجموعها ترسانة إعلامية واسعة الانتشار تغطي العالم كله تقريبًا، تروج لمخططات اليهود، وتسوق لأفكارهم ومعتقداتهم، ولعل هناك حادث جدير بالتأمل، جرى في يوم 5 أبريل من العام 1996، حيث إنه وخلال إذاعة إحدى حلقات برنامج (التوك شو) الشهير (لاري

(500) خيري منصور، شجرة الاستبداد وغابته، جريدة القدس العربي، السنة الثلاثون العدد 9210 السبت 9 حزيران 2018

كينج شو) الذي يقدمه الإعلامي الأمريكي (لاري كينج)، وعلى الهواء مباشرة أعلن الممثل الأمريكي الشهير (مارلون براندو) على الملأ حقيقة صادمة، حيث قال: (اليهود يحكمون هوليود، بل إنهم يملكونها فعلاً!)، وانقلبت أمريكا كلها على (مارلون براندو)، واتهموه بالعنصرية ومعاداة السامية، حتى استسلم في النهاية لهذا الهجوم، وأعلن أنه لم يقصد ما قاله، ولكن العاصفة التي أثارها تصريحه لم تنته؛ فلقد جليت على أثرها تساؤلات كثيرة عن حجم هذه السيطرة، ومدى النفوذ التي وصل إليه اللوبي اليهودي.

الاستبداد بوصفه منطق للسيطرة على الخطاب الإعلامي

يقول مصطفى أمين: «إن الصحافة أنتقلت من كونها صاحبة الجلالة لتكون جارية في البلاط» فوسائل الإعلام التي تقف كوسيط بين الواقع والجمهور تخفي جملة من الحقائق، منها أن وراء كل وسيلة إعلامية توجد سلسلة من الوسطاء الذين يعملون على غربلة الأحداث واختيار الأخبار، وترتيبها حسب أهميتها، وإنتقاء الكلمات والصور التي يعتقد أنها تعبر عنها أفضل من غيرها، وعبر هذا المسار من الوساطة، تنتهي وسائل الإعلام إلى «إعادة إنتاج الواقع» ليشكل ذاكرتنا الجماعية في المستقبل، و«يؤسس» ساحة تتصارع فيها الأفكار والتيارات السياسية والفكرية والتصورات، أو يحتلها الفكر الواحد ويهيّمن، وتُمتّن وسائل الإعلام قواسمنا المشتركة التي تشكل مرجعيتنا في الحكم على الظواهر والأشياء والحياة، وتثري تجربتنا الجماعية بما تملكه من مقدرة على نقلنا إلى العوالم البعيدة عنا جغرافيا وزمنيا، لأن الحقل الإعلامي أشبه بحقل ألغام، فوسائل الإعلام لا تعمل في فراغ، اللعبة تحتاج إلى حرفية في الالتزام بالمعلوماتية والخبرية، إذ أن قدرة وسائل الاعلام في التأثير على أفراد المجتمع ولكن ماهو الحال لو طغى واستند هذا الإعلام فبدلاً من تصدي الإعلام لمحاربة الطغيان نجد أن الإعلام يسلك سلوك الطغاة بتسخير أقلامه وميكرفوناته المأجورة لخدمة أشخاص معينة . تعظم دور وسائل الإعلام بحيث أصبحت تتسيد الادوار، أو تتصدر الادوار الخاصة بنشر المعلومات او نشر المعرفة.[501] إذ ان البحث عن إعلام غير

(501) د.يوسف محمد، النظريات النفسية والاجتماعية في وسائل الاتصال المعاصرة والالكترونية، دار الكتاب الحديث، سلسلة بنء الاتصال، الكتاب الثاني، القاهرة، 2015، ص200

خاضع للتجاذبات بين طرفي الخصومة في الفضاء العربي صار يشبه البحث عن إبرة في كومة قش الفضائيات العربية عامة والعراقية خاصة، فالإعلام دوما يحمل رسالة، بغض النظر عن قوتها وجودتها أو رداءتها، فهناك دوما رسالة ما يتضمنها المحتوى الإعلامي مرئيا أو مسموعا أو مكتوبا.

وبما ان الاستبداد لصيق السيطرة، فالفكر المستبد يسعى وبكل الطرق والوسائل للقضاء على الفكر المنظم (الفكر العلمي)، لأن الحاكم المستبد يدرك أن الفكر الصحيح يخلق الوعي والإدراك في الإنسان، وهذا الفكر يشكل خطرا على الحاكم المستبد الذي يسعى دوما في خلط الأوراق وترك المواطن يتخبط في المشاكل، حتى تتاح له الفرصة لتثبيت مكانه في الحكم، هو وحاشيته، لأنه يفكر بمنظور استغلالي للآخر، يقول أهل الإختصاص أن الفكر الإستبدادي فكر مُشَوَّهٌ ومُزَيَّفٌ لأنه يتناقض مع الفكر العلمي كما يناقض طبيعة العقل الإنساني، وحسب تعبير الكواكبي في حديثه عن الإستبداد فإن الحرب تظل قائمة بين العلم والمستبد، الذي يعمل على قتل المعرفة، والعدالة والحق، ويسعى إلى نشر الأفكار الميتة كما سماها مالك بن نبي، ووضع القوانين الجائرة التي لا تخدم البشرية، ويحاول تدمير كل محاولة من ورائها ينهض المجتمع وترتقي الأمة، يتضمن مفهوم الاستبداد جملة من المعاني دفعة واحدة تاريخية وقانونية وأيديولوجية، لذلك فهو فضفاض جدا، وهذه السمة تزداد تعقيدا عندما نجعله خاصا بالشرق أو باسيا، إذ أن أخذه بهذا التحديد أو التعميم يطرح مشكلة مهمة وهي هل هو نوع من النظام السياسي أم مجرد نمط من ممارسة السلطة، ونحن نرى ان الاستبداد هو طريقة في الحكم وليس نظاما للحكم، وهذا يعني أنه نمط من ممارسة السلطة يمكن ان يظهر في أي بلد، وهو سبق ان وجد في إسبانيا وانجلترا والمانيا وفرنسا وروسيا، كما وجد في الصين والهند والشرق الاسلامي وافريقيا، والملاحظة الاخرى هي عدم وجود فترة تاريخية محددة من عمر المجتمعات يظهر فيها الاستبداد، فهو يمكن ان يوجد في أقدم المراحل من التطور السياسي، كما يمكن أن يوجد في المتقدمة منها.[502]

وعليه فإن تحليل محتوى مضمون الفضائيات العربية ومنها العراقية وأنماط خطاباتها الإعلامية، يؤكد أن معظمها يكرس لثقافة الطائفية والقومية، حيث

(502) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م، س، ذ، ص18

التغطية الخبرية للأحداث والوقائع تفتقد إلى الموضوعية والحيادية، ومضامين البرامج تتجه إلى تعميق ثقافة ونشر أفكار الأحزاب وطائفتها وقوميتها على حساب أفكار الوطن والمواطنة، وهذا ما أدى إلى انقسام جمهور الفضائيات إلى جمهور شيعي وسني وكردي، وباتت هذه الفضائيات خنادق للقتال الطائفي، وأدوات تفريق وتحريض وتأجيج للنعرات الطائفية، وترويج بذور الكراهية والتفرقة.[503] وقد ادرك افلاطون ان من يروي الحكايات هو الذي يحكم، كما أدرك الفكر السياسي اليهودي في وقت مبكر جدًا الأهمية الكبرى للإعلام في السيطرة على العقول وتوجيهها؛ فلم يكن أبدًا من قبيل المصادفة أن يكون أول ثلاث وكالات للأنباء أنشئت في العالم مؤسسوها من اليهود في بريطانيا وألمانيا وفرنسا، كذلك فإن سيطرة اللوبي اليهودي على وسائل الإعلام وصناعة السينما في الغرب -وفي الولايات المتحدة تحديدًا- لم تكن -أيضًا- من قبيل المصادفة، بل جاءت نتيجة تخطيط جاد، نابع عن إدراك لأهمية الإعلام وخطورة الدور الذي يمكن أن يلعبه في ترويج أفكارهم والتسويق لها بين مختلف شعوب العالم، ومن ثم التمهيد بكل طرق الخداع والتضليل لقبولها والاقتناع بها، وفي سبيل ذلك سعى اليهود إلى امتلاك العديد من المؤسسات الإعلامية الكبرى حول العالم، وكان من بينها: مركز صناعة السينما في هوليود، إلى جانب إنشاء العديد من الصحف والمجلات والفضائيات لخدمة أهدافهم ومخططاتهم الخبيثة، والتسويق لها، ولعل ما ورد في البروتوكول الثالث عشر من بروتوكولات حكماء صهيون يفسر اهتمام اللوبي اليهودي بإحكام السيطرة على الآلة الإعلامية، وننقله هنا بنصه نظرًا لدلالاته الهامة: «علينا أن نلهي الجماهير بشتى الوسائل، وحينها يفقد الشعب تدريجيًا نعمة التفكير المستقل بنفسه، سيهتف جميعًا معنا لسبب واحد هو أننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيدين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة» فالنظام المستبد هو الذي يمارس حكم الناس دون رضاهم ودون أن يكون مقيدا بقانون أو برقابة، سلطة مضادة: وهذا التعريف التاريخي ينطبق على كل مستبد مهما كان زمانه أو مكانه وأيا كان شكله وثنيا كان، أم مسيحيا، أم إسلاميا، أو أي شكل آخر يتشكل به مهما كانت الأفكار والإيديولوجيات على مر الدهور والعصور.

---

(503) د.يس خضير البياتي، مفخخات الطائفية في الإعلام العراقي، جريدة العرب، نُشر في 2013/11/30، العدد: 9395، ص8

إن التشابه الجوهري في المادة الإعلامية، وفي التوجهات الثقافية التي تنقلها كل وسائلنا الإعلامية يستلزم أن ننظر إلى الجهاز الإعلامي بوصفه وحدة واحدة، وتبقى حقيقة واضحة: ليس هناك خيارات بما أنه ليس هناك تنوع، وليس هناك تنوع في ظل الاحتكار، وسيظل الاحتكار ما دامت الأنظمة لا تسمح بمنافسة وسائل الإعلام المحلية، وإن سمح بمنافستها؛ فهي منافسة شكلية، كما ينافس التاجر نفسه بإنزال اسم جديد لنفس الصابون الرائع الذي يبيعه! وستظل الأنظمة السياسية لا تسمح بالمنافسة الإعلامية في ظل سياسة الاستبداد، وربما نظل كذلك في ظل عدم الوعي والبعد عن منهج الله، لذلك حرص القرآن الكريم على وصف استخفاف فرعون بقومه فأطاعوه، إذ قال الله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزُّخرُف:54]، فأي حوار وسيوف الأنظمة مسلطة على رقاب شعبوهم؟ الدين والطائفية والقبلية واليسار واليمين في عالم الإستبداد هي مجرد أدوات بيد المستبد ليخضع شعبه وليرهبه كي لا ينبث ببنت شفة عن فساد النظام واستبداده، إن طاحونة نقد الطائفية ونقد الدين ونقد القبلية وغيررها، رغم أهميتها. لا فائدة من ذلك دون أن تبدأ النخبة بقرع أبواب القصور كي ترفع سيوفها عن أعناق الشعوب. وبعدها يبدأ الحوار بين الأديان وبين المذاهب وبين اليسار واليمين وحتى الهبيين. كم من الكتاب يقضون معظم نشاطاتهم في نقد الدين والطائفية ولا يتطرقون إلى القصور. ليس خوفاً وإنما حرصاً على مصالحهم وانتشائهم بأن يكونوا على شاشات وفي ندوات الإستبداد؟ إنه النفاق الذي هو أثمن هدية للإستبداد الذي يستعمل ذوي النفاق من النخبة كي يقنعوا الشعوب بأن المشكلة هي بالدين وبالطائفية وباليسار وباليمين، وليست بالإستبداد. بل الإستبداد يحمي الشعوب إما من تغول المتدينين او من المتطرفين.

إنها لعبة الأستبداد التي انتبه لها اليهود في وقت مبكر جدًا لخطورة الوسيلة الإعلامية، فمثلا شهد عام 1776م الولادة الحقيقية للمخطط اليهودي للسيطرة على وسائل الإعلام العالمية، ففي ذلك العام، وكما يذكر الأميرال الأمريكي (غاي كار) في كتابه: «أحجار على رقعة الشطرنج» اعتنق الألماني (آدم وايزهوبت) الذي كان أستاذًا للاهوت والقانون الدولي في جامعة (نعولد شتات) الألمانية الديانة اليهودية، وأسس

جمعية سرية كان جميع أعضائها من اليهود، وأطلق عليها اسم (جمعية النورانيين)، وكان الهدف الرابع من أهداف الجمعية ينص على ما يلي: «على النورانيين الوصول إلى السيطرة على الصحافة للتحكم بالأخبار قبل وصولها إلى الناس» وبعد حوالي مائة عام، وبالتحديد في عام 1869م، أعاد حاخام براغ الحاخام (راشورون) التأكيد على أهمية تنفيذ المخطط اليهودي للسيطرة على وسائل الإعلام العالمية خلال خطاب ألقاه في كنيس براغ قال فيه: «إذا كان الذهب هو قوتنا الأولى للسيطرة على العالم، فإن الصحافة ينبغي أن تكون قوتنا الثانية» وفي هذا مزيد من التوضيح للصورة القائمة؛ حيث إن الإعلام يأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد القوة الاقتصادية، لذلك فالنظام الاستبدادي التقليدي يحكم بواسطة تعميم الرهبة منه والخوف، إلا أن ما يهدف إلى تحقيقه أساسا هو فرض سيادة الاستبداد المطلقة على الجميع عبر ضمان ولاء القوى والبنى الاجتماعية الاخرى في الدولة واعترافهم به سيدا عليهم ومشاركتهم في الدفاع عن سلطته المطلقة عند الحاجة، ونادرا ما يفكر في أبعد من المدى المنظور، اما ما عدا ذلك فإنه يترك الآخرين وشأنهم بكل ما يتعلق بتنظيم وممارسة شؤونهم الخاصة ومعتقداتهم وحياتهم الداخلية وعلاقاتهم التقليدية بل يسعى غالبا الى حماية شرفهم الخاص وحق حمايتهم جسديا عند الضرورة باعتبارهم جزءا من رعيته إلا إذا توجس أو توهم خطرا محتملا منهم، ويكفي تأمل دول الاستبدادالكبرى في التاريخ من الصين الى الشرق الاوسط ومن روسيا الى فرنسا، للتيقن من صدق هذه الافكار والتيقن أيضا من نتيجة كبرى، وهي ان الاستبداد لم يقف حاجزا امام انبثاق حضارات لامعة وعظيمة احيانا في نطاق هيمنته واحيانا بتشجيع ودعم منه ما دام ذلك لا يصب ضد سلطته المطلقة على المستوى المنظور والمباشر.(504)

الاستبداد العبودي والغوغائي للإعلام

قال العرب قديما، من يرمي الذباب بالمنجنيق يخسر سهامه في المعارك العظيمة، هذا المثل الرائع يصور فعليا حالة الإعلام العربي، الذي يتجمع على أبواب السياسة وأصحابها، ويصفق للفاشلين والسراق والقتلة، المستبدون الذين يسعون إلى نشر إيديولوجيتهم، يقومون بعمليات تزوير في الانتخابات من أجل فرضها على الشعب،

(504) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م. س. ذ، ص227-228

كل هذا الهدف منه الدفاع عن مشاريعهم وتسيير مصالحهم، والحفاظ على مكاسبهم وثرواتهم، فالإعلام العبودي له صفاته التي تميل نحو الاستبداد وهناك الكثير من الموضوعات التي أثارها الإعلام الغربي وخاصة ضد الاسلام والمسلمين وأبرزها:[505]

1 - المسلمون عدوانيون.

2 - المسلمون يحتلون أوروبا.

3 - اضطهاد المرأة.

4 - العنف تجاه الاطفال.، -تشويه صورة المهاجرين المسلمين في اوروبا.

5 - إساءة معاملة الحيوانات.

6 - تصوير الاسلام بوصفه "دينا عربيا».

أ - نمط B : اي ان الصورة النمطية للعرب والمسلمين في الاعلام الغربي تحمل خمس صفات تبدأ كل وحدة منها بحرف B كالاتي:

ب - بدوي (Bedouin) الهمجي البربري.

ج - الراقصة الشرقية (Blly dancer). ثقافة هز الوسط.

د - رجل البازار (Bazar man) اي المسلم الذي يعتمد على عمليات المساومة والابتزاز.

و - الثري (Billionaore) الذي يمارس القمار ويشرب الخمر.

هـ - الانتحاري (Bomber) قاذف القنابل الاستشهادي.

9 - العنصرية ضد المسلمين.

10 - التحيز في تغطية الصراع العربي- الاسرائيلي.

يأخذ كتاب (حراس السُلطة: أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية) على عاتقه مهمة هدم الأساطير التي تروجها العديد من وسائل الإعلام عن حيادها، ويلح على إنتزاع القارئ من الوهم الذي ينزلق إليه كثيرون، عند تعاطيهم مع الأخبار والمعلومات، بإعتبارها حقائق تتسم بالصدق والوضوح ولا تقبل التشكيك، بواسطة

(505) احمد عبد الرحمن موسى، الحروب الاعلامية على لاسلام والمسلمين، دار زهور المعرفة والبركة، الجيزة، مصر، 2013، ص13-17

إماطة اللثام عن حقيقة التناقض الكامن خلف ما يطلق عليه أسم "الصحافة الحرة التابعة لمؤسسات الأعمال"، فمؤسسات الأعمال تلك لا تأبه لشيء قدر مضاعفة أرباحها، وتعظيم ثروات حملة الأسهم، ولا تبالي بما يطلق عليه المسؤولية الإجماعية، ولا تحرص على خدمة الصالح العام، والأمر الوحيد الذي يستنفر طاقات مديري وأصحاب تلك المؤسسات، هو خطر إنخفاض قيمة الأسهم، أما المصائب التي تصاب بها المجتمعات جرّاء أعمالهم، فلا مكان لمعالجتها ودرء أخطارها في قائمة أولوياتها، كما إن تأثير رواية جورج أورويل (1984) يظهر جلياً في محاولة بعض الباحثين تقديم نموذج لآليات الدعاية في وسائل الإعلام؛ لتفسير النمط السلوكي لهذه الوسائل في إختيار إستراتيجية الإعلان، وفي الإعتماد على مصادر الأخبار، وعلى رأس هذه النماذج، نموذج «الأخ الأكبر» الذي يعني هنا الاستبداد المتمثل بالقوى الغربية، بأولوياتها وأهدافها، والتي دأبت وسائل الإعلام الغربية على الالتزام بها، والتحيز لها أيضا، ورغم رفض الكتاب تفسير تحيز وسائل الإعلام، إستناداً إلى وجود نظرية تآمرية، وتأكيده على عدم وجود آليات سياسية حقيقية؛ لإنفاذ سيطرة الأخ الأكبر/القوى الغربية، إلا إنه يطرح ما يراه أكثر النماذج التفسيرية رجاحة، النموذج الذي قدمه كل من إدوارد هيرمان ونعوم تشومسكي في كتابهما (صناعة الإجماع: «الاقتصاد السياسي ووسائل الإعلام) فحسب هذا النموذج، يتشكّل أداء وسائل الإعلام، وفقًا لقوى السوق وآلياته، ويكشف النموذج عن وجود مجموعة من المرشحات، التي تعمل على تنقية أعمال وسائل الإعلام؛ لتقوم في النهاية بتشكيل نتاجها، والسيطرة على مخرجاتها، كما أن الإنفعالية المفرطة -التي تشكل الوجه الآخر المميز للمغالاة الإعلامية- فقد وجدت على الدوام مع وسائل الإعلام، إذ تنتمي إلى نوع من الصحافة "الغوغائية" التي كانت تلعب على وتر الإدهاش والإستعراضية والصدمة والإنفعالية، وعلى العكس من ذلك كانت وسائل الإعلام المرجعية المرموقة تراهن على الدقة والرؤيا الهادئة، المتروية، وتمتنع أكثر ما أمكن عن إثارة الشفقة من خلال التزامها الصارم بالوقائع والمعطيات والأفعال.[506]

---

(506) إينياسو رامونه، الصورة وطغيان الاتصال، ترجمة نبيل الدبس، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009، ص30

وتتفاعل ثنائية المشاهدة والتأويل بوصفها خاصية تحل محل القراءة والتفسير للمشهد الإعلامي بمختلف مسمياته، التقليدية والالكترونية، وتكشف عمليات التأويل للصورة إننا في حالة إستقبال دائمة تتسم بالقدرة على النقد تتوافق فيها ممارسة القبول والرفض، وتحدث خلالها أيضا ثنائية التماهي أو الإنكفاء، وفي كل ذلك لا يقف الجمهور المتلقي سلبياً في الغالب، بل يتعاطف مع الرسائل التي تخرج من الشارع مباشرة، وهذا ما وجدناه بالمتابعة المستمرة لما كانت تبثه الفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعي من ساحات الحراك الشعبي في الأقطار العربية، إذ صورت الاكف والأيدي كل ما يدور حولها فالكاميرا تحوَل المشهد إلى مقاربة تأريخية للتحول السياسي تعيد إلينا موروث الكفاح الشعبي الذي لم تسجله الكاميرا سابقاً، وإنما نقلته لنا اللغة المكتوبة، في الواقع كانت بنية جديدة للواقع التاريخي الحديث يعاد صياغتها حية نابضة أمامنا، وكأنها تولد ثانية في إطار من تفاعلية الزمن والحقيقة الواجبة التصديق والإعتراف، بأن وسائل الإعلام زيفت الواقع وحقائقه من خلال التقنيات المتاحة لها في اروقة الشبكة العنكبوتية، بالغت وهولت وضخمت، في جانب وزورت وجهلت وهمشت واقصت واستبعدت جوانب اخرى لا تقل أهمية عن الاولى.

الاستبداد الافلاطوني مقابل الاستبداد الإعلامي

يشير كارل بوبر -الذي كان يكتب في ظل الفاشية في الأربعينيات من القرن الماضي- إلى الطبيعة الاستبدادية لفكر أفلاطون في كتابه «الجمهورية» وسواء أكان هذا وصفًا دقيقًا للعمل ككل أم لا، فإنه يعبر عن طبيعة القيود التي فرضها أفلاطون على حرية التعبير، وفي التسعينات كرس بيير بورديو اهتماما كبيرا لنقد الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام والميديا الجديدة في فرنسا وشن نقدا حادا على فساد وسائل الإعلام الفرنسية وتبعية المثقفين الفرنسيين-كلاب الحراسة الجدد- لوسائل الإعلام من صحافة وإذاعات وبشكل خاص الدور الذي يلعبه التلفزيون في تكريس الاوضاع والمصالح السائدة، وفي التفريغ السياسي والتلاعب بعقول المستهلكين من المشاهدين والذي يقدم تحليلا لبنيته وآلياته، فلا يمكن فهم ظاهرة ما دون أن نحلل بنية هذه الظاهرة والآليات التي تحكمها وتعمل وفقا لها.[507] إذ أن

(507) بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة وتقديم درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، 2004، ص9

سطوة الاستبداد تدفع بأذرعه وأنصاره إلى الصدارة، وتجعل أصوات الكذب أعلى من كل الأصوات، فقد رصد الاستبداد ميزانيات ضخمة لا يرصد مثلها عادة لسكان المقابر الأحياء، ولا لمن يبحثون في القمامة عن بعض الطعام، تتميز دولة الاستبداد الفضائي العبودي بمحاولة إدلال المجتمع عبر علاقة مالك العبيد بالعبيد من خلال تسليط اجهزتها القمعية سيدا على رعية بلا ادنى قيمة، وجعل وجود المجتمع، الهش في الاساس، شكليا وهزيلا في وعي أعضائه، اما بناها الجوهرية اللازمة للسيطرة على المجتمع فهي كما يلي:[508]

- تسليط طغمة هجينة وعشوائية التكوين وبلا قيم إطلاقا من الخدم كسيدة على المجتمع المنظور له كخطر بذاته.
- احتكار المؤسسات القمعية عبر اساليب قبلية وبدائية رثة ووضيعة.
- خلق واجهات من المرتزقة للاشراف والتدخل المباشر في الانشطة الاجتماعية لتدمير روحها الحية.
- مركزة النظام الاقتصادي الريعي الموروث، لأن الاستبداد التابع يعيش طفيليا على الاقتصاد لذلك لا يعرف ان يهتم بخلق قاعدة اقتصادية جديدة ولا يستفيد من تحديث النظام الاقتصادي بل يركز على تغليب وتضخيم مركزية النظام الريعي الموروث.
- تحويل الدولة من دولة مؤسسات الى دولة اجهزة تعمل على إذلال وتدمير الذات لدى افراد المجتمع.

الاستبداد الإعلامي المنظم

يقول عبد الرحمن الكواكبي: الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان، فيسوقُ الناسَ إلى اعتقادِ أن طالب الحق فاجر، وتاركُ الحق مُطيع، والمشتكي المتظلم مُفسد، والنبيه المدقق مُلحد، والخامل المسكين صالح، ويُصبح كذلك النُصح فضولاً، والغيرة عداوة، والشهامة عُتواً، والحميةُ حماقة، والرحمةُ مرضاً، كما يُعتبر أن النفاق سياسة، والتحايل كياسة والدناءة لطف والنذالة دماثة" وهنا لأبد لنا ان نتساءل:

(508) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م، س، ذ، ص249

هل هناك وسائل إعلامية مستبدة ويقف ورائها أشخاص مستبدون وطغاة يحاولون التكسب من وراء إثارة بعض القضايا والوقوف في جانب معين دون الآخر لتحقيق مصالح خاصة؟ يربط كتاب (حراس السُلطة: أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية) بين ما أسماه بالكبت غير المسبوق لحرية التعبير، بظهور فكرة الصحافة المحترفة، فيوضح أن الناشرين قد تمتعوا بذكاء، جعلهم يدركون أن صحفهم بحاجة إلى أن تبدو محايدة وغير متحيّزة، وإلا أصبحت أعمالهم أقل ربحاً، وهو ما دفعهم للاهتمام بتعزيز مناهج التعليم في مدارس تعليم الصحافة؛ إذ أستطاعوا بذلك الإدعاء بأن المحررين والمراسلين يتخذون قراراتهم التحريرية بإستقلالية، إنطلاقًا من خبرتهم المهنية، وليس إستناداً إلى حاجة ملاك الصحيفة أو المعلنين، وبهذا يمكن أن يبدو إحتكار وسائل الإعلام بمثابة خدمة مجتمعية محايدة، والتحيزات الكبرى في العمل الصحفي، فتظاهر الصحافيون بإختيارهم المتوازن والمحايد والنزيه للقصص، في حين أصبح عرفًا بينهم الإهتمام بالأخبار ذات المصدر الرسمي، بإعتبارها تشكّل أساس الأخبار المشروعة، مما يعني أن الصحافة المحايدة تقوم على تقديم تقارير تعبّر عن وجهات نظر مسئولي النظام الحاكم والشخصيات العامة البارزة، دون التفكير في مدى صحة هذه الأخبار، وهو ما دفع نيك روبنسون المحرر السياسي لمحطة تليفزيون (آي. تي. في) إلى أن يكتب في النيوزويك عن حرب العراق: "كنت وزملائي في ثنايا ذلك الصراع نجأر بالشكوى، لقد تحولنا إلى ناطقين بلسان مستر بلير. لماذا؟ كان ذلك ما نحتاج إلى إجابة عليه، لماذا ندلي بالتقارير دون تفنيد؟ ودون أن نتساءل عن صحة تحذيره بأن صدام كان يمثّل تهديدًا؟ ولماذا لم نقرأ ما قاله سكوت ريتر أو هانز بليكس؟ لكنني كنت أجيب على تساؤلاتي دائمًا بطريقة وحدة، وهي أن وظيفتي تحتّم عليّ أن أكتب ما يقوم به من بيدهم السلطة، أو ما يفكرون فيه، هذا كل ما يمكن لشخص في مثل مهنتي أن يفعله"، فضلا عن التأثير الطاغي لسياسة الثواب والعقاب (العصا والجزرة) التي يتبعها المعلنون، والأحزاب السياسية الحاكمة، في توجيه الصحافيين ناحية موضوعات بعينها، والانصراف عن موضوعات أخرى؛ إذ تعتمد الصحف في أكثر من 75٪ من عائداتها على إعلانات المؤسسات، ولذلك يقل إحتمال تركيزها على الأثر المخرب لهذه المؤسسات على الصحة العامة، والبيئة، وعلى رخاء وإستقلالية شعوب العالم الثالث، لذلك فأن رصد التعطية والتحليل للأخبار

وكيفية تعاطي وسائل الإعلام الليبرالية، مع غزو العراق وأفغانستان، والتي دأبت خلالها على التغاضي عن أعتى جرائم الدول الكبرى ذات النفوذ، وإبعاد الشكوك عن حقيقة بشاعتها، مقابل التركيز على جرائم وممارسات أعداء تلك الدول، وتضخيمها، ووضعها تحت المجهر تحت لافتة الليبرالية والزعم بالحياد.

ثمة منطق يستخدم لتفسير انحسار مستويات المصداقية في السنوات الأخيرة، فإذا ما كان الأداء «الجيد» سببا لارتفاع المصداقية، يبدو من ناحية أخرى ان الأداء "السيء" يفسر هذا الانحسار بالثقة، والاتجاهات الحالية للصحافة المعاصرة، ومنها مثلا الاخبار المتدنية المستوى والنزعة التجارية الجامحة، وغلبة اخبار النجوم والمشاهير، والمبالغة في عرض النزعة الحزبية السافرة ونشر الانحرافات الاخلاقية، كلها يوجه اليها اللوم عن انحسار هذه الثقة[509] وقد لا نتصور حجم المعاناة التي عاشها موسى عليه السلام وقومه جراء قهر فرعون وتسلّطه، فلم يهنأ بقتل الأبناء واستحياء النساء، بل ناد بالاستزادة في القهر، والاستعلاء، كما تفعل وسائل الإعلام الآن في الفضاء الملغوم، وها هو فرعون يعلن أمام الملأ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ، والقهر في هذا المعنى هو الاستيلاء والغلبة على طريق التذليل، حتى أنه أفرط في معاني القهر والطغيان والدليل على ذلك قول موسى وأخاه هارون قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ، فكان هو القاضي وفي نفس الوقت الجلاد، تصدر منه الأحكام ظلما وجورا، وتطبق بأمره العقوبات دون هوادة أو رحمة، كما يفعل الخطاب الإعلامي والرسائل الإعلامية المستقاة من المنظومة السياسية المستبدة.

وسائل القهر والإستبداد في وسائل الإعلام

يقول عبد الرحمن الكواكبي (مامن مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقاماً ذا علاقة بالله) وهو في هذا الفصل يستخدم مجهراً ومشرطاً حاداً في تشريح نفسية الشرق التي تميل كما عبر هوالي (تأليه الحاكم)

(509) مجموعة مؤلفين بإشراف كاترين فولتمر، وسائل الاعلام الجماهيرية والاتصال السياسي في الديمقراطيات الجديدة، ترجمة محمد الخولي، مراجعة هيثم غالب ناهي، المنظمة العربية للترجمة، بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2016، ص181

فالطاغية هو من تولى حكماً فاستبد وطغا وتجاوز حدود الاستقامة والعدل تنفيذاً لمآربه فيمن تناوله حكمه أو بلغت سلطته إليه ومن سماته أنه يصل إلي الحكم بطريق غير مشروع فليس من حقه أن يحكم لو سارت الأمور سيراً طبيعياً، وتصبح إرادته هي القانون الذي يحكم ويسخر كل موارد البلاد لإشباع رغباته، وهو لايخضع للمساءلة أو الرقابة، وهكذا يقترب من التأله، فالمستبد فهو الحاكم الذي يبرر حكمه بأبوته للمواطنين يعاملهم علي أنهم أطفاله القصر غير البالغين لايقدرون علي حكم أنفسهم ولذا فهو الذي يوجههم ويعاقبهم، وهذا خلط بين سلطة الأب الأخلاقية وبين سلطة الحاكم السياسية، وتنطلق وسائل القهر والاستبداد في النظرية الفرعونية المرتبطة بوسائل الإعلام ضمن تلاقحها وتصاهرها بطريقة تبادلية تتم بين الحاكم والمحكوم وكالآتي:

1 - التفسير الظاهر في إستبداد فرعون وجود همجية هوجاء لا حدود لها، عنوانها القهر بكل أشكاله، وإذا اطلعنا إلى سببها الرئيسي، لم يكن سوى جحوده بدعوة موسى، والرعب الذي أصابه جرائها، وخوفه لفقدان ملكه وسلطانه، ترجمه في ذات الوقت إلى إرهاب وقمع شرسين، تسببا في إذلال رعيته واستضعافهم، وإكراههم على إتباع ضلاله، وكل هذا إنما سببه الخوف الشديد الذي بثه في أنفسهم، أدى إلى تكبيل عقولهم، ومنعهم من التفكير في إيجاد طرق للتحرر من هذا القهر الرهيب، ففي أزمنة الحرب والصراعات تزداد أهمية وسائل الإعلام بشكل كبير، إذ تولي الدول المتقدمة اهتماما أكثر بالإعلام أثناء الحرب، ليس لنقل الأخبار وتغطية الأحداث فقط، وإنما لتكون وسائل الإعلام متغيراً رئيساً في تبرير الحرب نفسها، فالتغطيات الإعلامية لا ينحصر تأثيرها على جمهور الوسيلة الإعلامية، لكنها تمتد لتشمل أولئك المشتركين في الصراع، إذ تعمل وسائل الإعلام على تغيير مفاهيم المعارضين والمؤيدين والمحايدين، وهناك أمثلة عديدة كان لوسائل الإعلام أثر في بلورة قرارات الحرب والتدخلات العسكرية، ويمكن القول أن وجهة النظر العالمية للتدخلات العسكرية الأمريكية المختلفة قد تأثرت - إلى حد كبير - بالصور التي بثتها الولايات المتحدة، ونذكر هنا على سبيل المثال التدخل العسكري الأمريكي

في بنما (1989م) والعمليات العسكرية في شمال العراق في أعقاب حرب الخليج (1991م) والتدخل في هايتي (1994م) وقصف حلف شمال الأطلسي ليوغسلافيا(1999م) إذ إن التدخل العسكري الأمريكي في الصومال في التسعينيات من القرن الماضي يعزى بصورة واسعة إلى الصور التلفزيونية التي بُثت والتي عكست معاناة الصوماليين، كما أن سحب أمريكا لجنودها من الصومال قد تم بعد أن بثت قنوات التلفزة العالمية صور الجنود الأمريكيين المقتولين وقد مُثل بهم في شوارع مقديشو، وكان لصور تفجير مقر مشاة البحرية الأمريكية في بيروت عام 1983م التي بثتها وسائل الإعلام العالمية آنذاك أثراً كبيراً أدى إلى خروج القوات الأمريكية من لبنان.[510]

2 - يكون المتمجدون أعداء للعدل، أنصار للجور، لا دين ولا وجدان ولا شرف ولا رحمة، وهذا ما يقصده المستبد من إيجادهم والإكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من أن يغرر بالأمة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلا لحرب محض التجبر والعدوان على الجيران، فيوهمها أنه يريد نصرة الدين، أو يسرف بالملايين من أموال الأمة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة وأبهة المملكة، أو يستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء لها، أو يتصرف في حقوق المملكة والأمة كما يشاؤه هواه، فمثلا كان فرعون ينوب يومئذ عن مصر كلها ويقوم مقامها، وهذا هو الاستبداد بعينه.

3 حكم فرعون لمصر لم يكن حكما طبيعيا ولا كان يؤدي الى مناخ طبيعي، كان الحكم استبداديا، قاهرا، يتعامل بالسيف مع كل رأي معارض أو مخالف أو تفوح منه رائحة المعارضة او إمكانياتها، وفي الحكم الاستبدادي تلتوي فطرة الناس، وتفسد نفوسهم وتتراجع إرادتهم، ويصبح همهم هو النجاة من القتل، والعذاب، والترويع، والسجن.احمد بهجت فإستبداد فرعون كان سببا في شلل الشعب المصري وعدم قدرته على الحركة، رغم اتضاح الامر وظهور الحقيقة والتأكد من كذب فرعون، وهذا ابسط ما يفعله الاستبداد بالشعوب، أنه يشل

(510) باسل يوسف انيرب، قتل الشهود الاغتيالات الأمريكية للصورة الإعلامية العربية - غيناء للنشر - الرياض - الطبعة الأولى 2004م ص 32 - 33

إرادتها فيستوي لديها الحق والباطل، ولا تنفعل لهما انفعال القبول او الرفض، إنما تكتفي بالفرجة فحسب، ومن هنا يبيد دورها وينمحي، ولا يعود لها في تاريخ الفترة السائدة وزن او قيمة.(511)

4 - الشاعر العربي يقول: «إنما العاجز من لا يستبد»!! فالاستبداد قوة وفحولة، وسطوة، وهيمنة، أما الديمقراطية فهي «مساواة» ورخاوة وسيادة للقانون الذي هو بطبيعته كلي، وكبح نزوات الحاكم، وهي امور كلها تضعف الحاكم في بلادنا وتجعله عاجزا.(512)

5 - أن «المستبد» قد يسمى ملكا او فرعونا او امبراطورا أو عاهلا او سلطان او اميرا، وقد يكون شيخا قبليا او ضابطا انقلابيا او زعيما ثوريا او قائدا قوميا او طائفيا او حاكما نفطيا او اي امير او خليفة او رئيس او جنرال يصل الى سلطة الدولة فيرى ان له «الحق» في الاستحواذ عليها وادارتها وفقا لارادته الخاصة دون قانون بغض النظر عن نواياه ودوافعه وغاياته، ليس هناك «استبداد شرقي» او «استبداد عربي» لكن هناك استبداد، بل استبداد يشع هنا او هناك في الشرق كما في الغرب.(513)

6 - حرب السيطرة على الوعي، إذ يصف القائد الامريكي ديفيد بتريوس افغانستان على أنها «حرب السيطرة على الوعي، تدار بأستمرار بالاستعانة بوسائل الإعلام الإخبارية، ما يهم في الواقع ليس المعارك اليومية ضد طلبان، وإنما كيف يبعث المغامرة في امريكا، حيث تؤثر وسائل الإعلام مباشرة على رأي الجمهور المهم» هذا هو المهم في نظر الادارة الامريكية: التأثير على الداخل الامريكي، حتى يستمر في تأييد الحرب، إذن كل التشويه أو التضليل موجه الى وعي الشعب الامريكي، وليس الرأي العام الخارجي، ويضيف بلجر قائلا: في بداية فيلمي «الحرب التي لا تراها» هناك إشارة الى حديث خاص سابق لعصر وكيليكس،

---

(511) احمد بهجت، فرعون والطغيان السياسي، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 1988، ص9-12

(512) امام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الإستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 183، 1994، ص186-187

(513) د حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م. س، د، ص18

في كانون الاول 1917، بين ديفيد لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى وسي بي سكوت رئيس تحرير حارديان مانشستر، قال رئيس الوزراء "إذا علم الناس الحقيقة، فسوف يوقفون الحرب غدا، ولكن بالطبع هم لا يعلمون ولا يستطيعون أن يعلموا" مايضمن الا يعلم الشعب بما يجري في الحروب التي تقودها بلاده هو دور المجتمع الإعلامي- العسكري، حيث يرافق الصحفيون الجنود في نقل وجهة نظر واحدة، فالمذابح التي تصيب المدنيين لا تنقل صورها، ويكون خبرها مقتضبا لا يتصدر الصفحات الاولى من الصحف، وبطبيعة الحال. ما لا يذاع ولا ينشر، لم يحدث.[514]

سوق الافكار المستبدة

يقول الفن توفلر: حرب افغانستان هي (حرب السيطرة على الوعي)، فـ"دليل الاستبداد والمستبدّين" يخبرنا مؤلفه أنه يحاول تتبُّع العناوين ارئيسة للسلطة، وكيف أنها تعلّف نفسها كلّ يوم بالخدع والاحتيالات والمغالطات والمخاتلات، وفي الكتاب يؤكد المؤلف أنّ الإعلام هو كلّ ما لدى المستبدّ المهووس بالكرسيّ، فهو يتصوّر أنه ينادي للشعب عبر الشاشات، إذ أن الاستبداد السياسي حسب عبد الرحمن الكواكبي: "هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة، وبلا خوف تبعه" مضيفا: "إن المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على افواه الملايين" اما الاستبداد في نظر العراقي د.محمد حسين النائيني فهو كما افتتح به كتابه "تنبيه الامة وتنزيه الملة" "أن يتعامل السلطان مع مملكته كما يتعامل المالكون مع اموالهم الشخصية، فيعتبر البلاد وما فيها ملكا شخصيا له، ويجعل الشعب عبيد له، فهم كالاغنام والعبيد والإماء لم يخلقوا إلا له، فيقرب من كان وافيا بهذه الاغراض متفانيا في تحقيق شهوات السلطان، وينفي عن البلاد –التي ظنها ملكا شخصيا له- من وجده مخالفا لذلك، وقد يعد مع أو يقدمه لقمة سائغة لكلابه، وما حوله من الذئاب الضارية، ثم يأمرهم بنهب أمواله، وسلب عياله".[515] إذ أن الافكار البشرية وسلوكها يتم تسخيرها بشكل سري من

(514) نيثان غردلز، ومايك ميدافوي، الاعلام الامريكي بعد العراق، حرب القوة الناعمة، ترجمة وتقديم بثينة الناصري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015، ص14

(515) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م، س، ذ، ص14

قبل بعض الاعلاميين، من اجل السيطرة والتوجيه والتلاعب بسلوكنا الشرائي، أي الخداع المرئي، وإستخدام تقنيات الخداع السمعية والبصرية والشمّية ايضا، ودمج كلا التقنيات المرئية والسمعية، والتي كانت ذات تأثير وتحريض من اجل إنتاج التأثير المرعب للمتلقي.[516] ومن هنا فأن سوق الافكار يرتبط بحرية الاخبار غير المقبولة من وجهة نظر الحفاظ على البنى الاجتماعية المعقدة والدقيقة للمجتمع، فوجود المحرمات الاخلاقية المنفذة من خلال شتى أنواع الرقابات، شرط ضروري لكبح تأثير المعلومة المدمر تحت حد ما حرج مقبول.[517] فالاستبداد بوسائل الإعلام المختلفة يتجسد من خلال النظريات الاتية:

1- **نظرية تأليه الحاكم:** وهي الفرعونية النظرية السياسية الحديثة التي تهتم بالتطور السياسي عبر التاريخ بإتجاه تركز السلطة في يد الملك (المعبود الواحد) ليتطور الحال في العصر الفرعوني، لتأخذ السيادة السياسية نمطا دينيا بإعتقاد الرعية ان الملك الفرعوني منحدرا من أصلاب الالهة، وقد جاءت تسميات الفراعنة مثل (رع) التي تعني باللغة المصرية القديمة بالإله إنما هي تعبيرا عن هذا النمط المقدس الذي استمد سلطته من الألهة، بل اصبح فيما بعد الملك هو الاله نفسه، يعبد وتقدم له القرابين كسلطة سياسية ودينية مطلقة.

2 - **نظرية الاصل الالهي (الحق الالهي):** ودعاتها يذهبون بالاتجاه القائل "ان تفسير الدولة المطلقة يكون وفق مذهب ديني للرد على كل الظواهر الاجتماعية والسياسية والقانونية بالرجوع الى الله، وينتهي أصحابه الى تقديس السلطة العامة بإعتبارها حق من حقوق الله وحده، ومنه يأتي حق الحكام.

3 - **نظرية التفويض الالهي:** ومضمونها يكمن في ان الملوك هم مخولون في السلطة، بإعتبارهم وزراء الله وخلفائه على الارض في حكم رعاياه وفق مقتضى القوانين الالهية.

---

(516) ويلسون براين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، ترجمة محمد الواكد، دارصفحات للدراسات والنشر، سوريا دمشق، 2008، ص13

(517) سيرجي قره-مورزا، التلاعب بالوعي، ترجمة: عياد عيد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2012، ص437

4 - **نظرية اللعب المتوازن**: باتت لعبة الإعلام في أنظمة الاستبداد مكشوفة للجميع، هل يمكن لنظام مستبد أن يعتمد مراسلاً من دون غطاء أمني، أو حزبي، أو ما شابه!

5 - **نظرية النظم العقائدية**: كانت النازية والفاشية والشيوعية نظم عقائدية يتبناها بحماس ملايين الرجال والنساء من ذوي الثقافة الرفيعة، وكانت العقائد الاستبدادية كافة، بلا استثناء، مستقلة بذاتها ويتم توصيلها عبر تدفق الدعاية في اتجاه واحد يمنع الناس، الذين وقعوا في شرك الأيديولوجية من المشاركة الفاعلة في الاعتراض على افتقارها للقيم الانسانية.[518]

6 - **نظرية التكبر والتعالي**: فالفرعونية تتميز بـ(التكبر والتعالي والانانية والجور والفسق) ووسائل الإعلام مثلها، فمن خلال ثلاثة أحداث رئيسة حددت شكل العلاقة بين الإعلام والعولمة وخاصة الإعلام السياسي: حرب الخليج الثانية 1991، أحداث 11 ديسمبر 2001، حرب إحتلال العراق 2003، إنعكست هذه الأحداث بشكل خاص على تغييب وتعطيل المعايير المهنية للنشر والبث الإعلامي وبروز المعايير السياسية البعيدة تماماً عن الموضوعية والدقة، وهي هنا قريبة من الفرعونية التي تستند الى ما يقوله فرعون لقومه: (**ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**)(سورة غافر29) بل إن هذه الحقبة صاحبها تطرف كبير في إيجاد معايير سياسية جديدة أكثر تزييفاً وجرأة وعلانية من ذي قبل تقوم على الفرض والقهر على المستوى السياسي يتبعه فرض وإملاء على المستوى الإعلامي، ومع الإستمرار في هذه السياسة تتحول إلى أمر عادي ويقبلها الجمهور من قبيل الإستسلام واليأس وربما تتحول مستقبلاً إلى أمر مقبول عن قناعة، فالأحداث الثلاثة كانت مسرحاً بين هؤلاء الذين يحترمون حق الناس في المعرفة، وأولئك الذين أرادوا دفن الحقيقة تحت تراب الدعاية والخداع الأمريكي، وقد كان كل جانب على خط المواجهة يحاول أن يكسب الجولة في الحرب على القلوب والعقول، سواء كان ذلك بإشاعة الأكاذيب أو بنشر الحقائق، إلا أنه كان من الواضح للعالم كله أن المصادر تكذب والإعلام

---

(518) آل جور، هجوم على العقل، ترجمة نشوى ماهر كرم الله، دار العبيكان، ابوظبي الامارات العربية المتحدة، 2009، ص374

العراقي يرد ويصحح، وهناك أيضاً ثلاثة أفكار أو أطروحات فكرية أساسية تعد جوهر الأساس الفلسفي والفكري لأطروحة العولمة وهي كالآتي:(519)

الأولى: «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» التي طرحها الكاتب الأمريكي الياباني الأصل «فرنسيس فوكوياما» عام 1989، حيث يزعم أن الغرب قد وصل إلى نقطة حاسمة في التاريخ البشري تتحدد بإنتصار النظام الرأسمالي والديمقراطية الغربية على سائر النظم أو التنظيمات المنافسة لهما، وإن العالم أدرك بعد فترة حماقة طويلة أن الرأسمالية هي أفضل النظم الإقتصادية، أن الليبرالية الغربية هي أسلوب الحياة الوحيد لصالح البشرية، وأن الولايات المتحدة وإمتدادها الإقتصادي القيمي (النظام الرأسمالي المادي) في أوروبا يمثلان النهاية للتاريخ وإن الإنسان الغربي هو الإنسان الكامل الأخير.

الثانية: "صدام الحضارات" التي طرحها أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد (صموئيل هنتجتون في مقال له بمجلة الشؤون الخارجية في ربيع عام 1993، قدم من خلاله تصوراً معيناً للمستقبل يحل فيه صدام أو صراع الحضارات محل الحروب الباردة والمعارك الأيديولوجية التي سيطرت على صراعات القرن الماضي (الفاشية والإشتراكية والديمقراطية) ويتوقع هنتجتون أن يميل الناس إلى تعريف أنفسهم وفقاً لأنتماءاتهم الحضارية: الغربية، الإسلامية، الكونفوشيوسية الصينية، السلافية، الارثوذكسية، الأمريكية اللاتينية..الخ، وإن هناك مواجهة حضارية قادمة بين الحضارة الغربية من ناحية والحضارات الأخرى وبخاصة الإسلامية والصينية من ناحية أخرى، إلا أنه أفرد مساحة أكبر للحضارة الإسلامية وإعتبرها الأكثر خطورة والأكثر إستمرارية في صراعها مع الغرب، وأرجع ذلك إلى الزيادة المستمرة والهائلة في أعداد المسلمين، وتمردهم على ثقافة الغرب وحضارته، فضلاً عن تزايد المد الإسلامي وعدم توقف نشاط التيارات الأصولية والإرهابية "الجهادية" والسلفية التشددة، ومن يتأمل الفكرتين في إطار سياقهما الزمني والموضوعي يجد إنهما يكملان بعضهما البعض، فنهاية التاريخ عام 1989 لصالح الإنسان الغربي بعد

(519) د.صابر حارص، الإعلام العربي والعولمة الإعلامية والثقافية والسياسية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص44-47

سقوط الشيوعية وتحول العالم إلى الرأسمالية دعوة تبدو واقعية وصريحة إلى العالم كله للدخول في الدين الجديد "العولمة" بسلام ودون أية مواجهات، ومن يشك في ذلك أو يتأمل الفكرة في إطارها المستقبلي كمحطة في التاريخ وليس نهايته(عجلة التاريخ، دورة الحضارات) أو حتى من يجتهد في تفنيد ونقد القيم الرأسمالية الجديدة أو العولمة التي تفرغ الإنسان من إنسانيته وروحانيته أو من يتجرأ على المستوى العملي ويرفض الإنخراط في العولمة فلا يجد أمامه إلا المواجهة والصدام والصراع مع الغرب الأمريكي النموذج الأقوى إقتصادياً، والمتفوق عسكرياً، والمنتصر أيديولوجياً وحضارياً، والمهيمن إعلامياً ومعلوماتياً وتكنولوجياً، وهو ما رسمه كتاب "صدام الحضارات" عام 1993، ومن لم ينخرط في العولمة سلماً سينخرط فيها عنوة وهو ما حصل للعراق وبلدان الوطن العربي فيما بعد بما سمّي بالربيع العربي الذي طال تونس وليبيا ومصر واليمن وسوريا، وكلا الفكرتين (النهاية والصدام) نابعتان من الأرض والجنسية الأمريكية مما يعكس ليس فقط دور القيادة والزعامة في إدارة الغرب لشؤون العالم، بل ضرورة أن ينضم الغرب تحت اللواء الأمريكي ويعمل في إطاره عند مستوى الحليف التابع وليس الشريك المستقل. ففكرة نهاية التاريخ لصالح الإنسان الغربي وليس الأمريكي فقط، وصدام الآخر مع الغرب كله وليس الأمريكي فحسب، أي أن الغرب، كله يجب أن يتوحد ضد الآخر لصالح الإنسان الغربي عامة.

الثالثة: "حوار الحضارات" وإذا كانت فكرة صدام الحضارات موجهة بالأساس لإحتواء أوربا وترهيب الآخر غير الغربي وفي مقدمته الإسلام فإن الدهاء والمكر الأمريكي المتخوف من رد الفعل الإسلامي سواء على مستوى الرأي العام أو على مستوى التنظيمات الإسلامية من جانب وإحراج أنظمة الدول الإسلامية الحليفة من جانب آخر أدى إلى ظهور الفكرة الثالثة أو الخدعة الثالثة "حوار الحضارات" ولكن هذه المرة موجهة بالأساس إلى الإسلام وحده، والحضارة الإسلامية وحدها، ليس فقط لتطويق المد الإسلامي وتهدئة أنصار الحفاظ على الهوية وضرب حركات الجهاد والمقاومة الإسلامية وما يسمى "بالإرهاب" ولكن لتفريغ الحضارة الإسلامية ومحاولة إذابتها في الحضارة الغربية من خلال الجدل والسفسطة والنشر الممنهج

والبث غير المتوازن الذي يوهم المسلمين بأن هناك حواراً ولكنه حوار غير متكافئ يعكس إذلال الرموز الدينية والثقافية لدينا، والعكس لديهم.

سيادة الإعلام وسيطرة السلطة

يقال ان مجنونا كان يعتقد انه حبة قمح وعمل الاطباء النفسيون دون كلل حتى اقنعوه انه انسان وفعلا اقتنع الرجل، وحانت وقت التجربة، جاؤوا بدجاجة للمريض فما ان راها حتى صرخ واختبأ تحت السرير، صدم الاطباء وسألوه عن السبب فأجابهم بكل بساطة : لقد اقتنعت انني انسان ولكن من يقنع الدجاجة أنني لست حبة قمح! ومن هنا فالسيطرة على بعض مؤسسات الإعلام في العالم ومنها العربي، ومنها القضايا الدينية فقد اتخذت الصبغة الدينية، إذ أن الصبغة الإسلامية أمتدت أيضاً إلى محتوى البرامج والتقارير، ولفهم هذا التحول يكفي أن نرجع إلى تغطية احمد منصور للحصار الأمريكي في الفلوجة عندما راح يصرخ ملء رئتيه وينادي بضرورة الجهاد، آنذاك، تجاوز منصور حدود مهنته كمراسل ليصبح «الجهادي» الذي كان عليه خلال الحرب الأفغانية في ثمانينيات القرن العشرين، ربما يحق لمنصور أن يبدي رأيه في برنامج حواري أما أن يتحول التقرير الإخباري أو الخبر ذاته إلى رأي، فهنا تسقط المهنية، كما يؤخذ على وسائل الإعلام نزعتها إلى مايمكن تسميته بالمشهدية، أو الإستعراضية (الفرجة) وسعيها بأي ثمن خلف كل ماهو مثير، ذلك السعي الذي يقود غالباً إلى التخريف والإحتيال (bidonnages) ولا شك في أن حالات "الإحتيال" والكذب قد وجدت على الدوام في ساحة الإعلام الجماهيري، لكنها تتزايد بتواتر كبير، مثل القصص العاطفية التي نسجتها صحيفة نيويورك تايمز ونشرتها عام 1981 حول الحرب الكمبودية، بين الفيتناميين والخمير الحمر، وقد رواها، وبطريقة بالغة الإثارة تأخذ بمجامع القلوب، كريستوفر جونز، مراسل شاب في الرابعة والعشرين من عمره، وتبين إنها كانت كلها كاذبة تماما، هذا الصحفي اللامع لم يضع قدمه في مواقع الأحداث، فنسجها من وحي خياله، مسترخياً قرب مسبحه في منتجع ماربيللا في اسبانيا "إنه رهان أجريته"كان هذا تصريحه الوحيد تفسيراً لتصرفه، أما الصحفية جانيت كوك، من صحيفة واشنطن بوست، فقد نالت جائزة بوليتزر، عام 1982، عن ريبورتاج مذهل حول الطفل جيمي

(8سنوات) الذي كان مدمناً على الهيروين، وتبين فيما بعد أن هذا الطفل هو أيضاً من نسيج الخيال، لكن الريبورتاج الكاذب الأكثر شهرة عن حرب الخليج هو ذلك الذي قدم ممرضة كويتية شابة تروي، بتفاصيل أقرب إلى الإقناع، والدموع تهمر من عينيها، كيف أقحم الجنود العراقيون، كالبرابرة، حضانة الأطفال في مستشفى "مدينة الكويت" ليستولوا على الحاضنات، بعد أن أنتزعوا منها الأطفال الرضع، وتركوهم يموتون على الأرض، كان الموضوع كذباً في كذب "الممرضة" كانت أبنة السفير الكويتي في واشنطن، وهي طالبة تدرس في الولايات المتحدة، وقصة الحاضنات كانت بكاملها من بنات أفكار مايك ديفير، مستشار سابق في شؤون الإتصال للرئيس ريغان، والمؤسسة (Hill and Knowlton) الأمريكية للعلاقات العامة، التي تعمل لصالح إمارة الكويت، إذ أن هؤلاء الصحفيين قد أختاروا مسبقاً الرواية التي يفضلون، وهي الرواية الأكثر إثارة، ولعل هذا السلوك يدلل على التوجه الحالي الذي ينحو إلى "سينرة" الحقيقة وإلى خلق "ميزانسين" للخبر، وجعل هذا الأخير يخضع للسيناريو الذي يلبي أهواء الصحفيين.[520] وتلعب وسائل الإعلام دورا كبيرا في تغذية العنف والارهاب وتشجيع الافراد ممن يملكون نزعات التمرد على القيام بأعمال عنف مشابهة للأعمال التي قام بها افراد أو جماعات في بلد أخر، ولا سيما بعد ان جعلت وسائل الإعلام العالم شاشة بحجم كف اليد، يقبض المتلقي على العالم بين يديه ومن هنا يعد إدراك دوافع الاستبداد في وسائل الإعلام واضحا وجليا، ويجمل بالآتي:

اولاً- تبعية النظام الإعلامي للنظام السياسي: خضعت وسائل الإعلام منذ وقت مبكر لسيطرة الأنظمة السياسية، وأنحصر دور وسائل الإعلام في هذا الإطار إلى مجرد بوق دعائي لتلك الأنظمة السياسية، لا ترى إلا ما تراه، ولا تعكس أية وجهة نظر معارضة، في الوقت الذي تتعاطى فيه دول العالم المتقدم مع المعارضة بوصفها ضلعاً ثابتاً من أضلاع الديمقراطية وحقاً مشروعاً أصيلاً للجميع.

ثانيا- سيادة منطق الإعلامي الموظف لا المحترف. الحرية للإعلامي كالماء

(520) نقلاعن إيناسو رامونه،الصورة وطغيان الاتصال، ترج: نبيل ادبس،وزارة الثقافة،الهيئة العامة السورية للكتاب،دمشق، 2009، ص83-85

والهواء، وعندما لا ينعم الإعلام والإعلاميون بنسيم الحرية ينعدم الإبداع، ويركن الجميع إلى التعاطي مع الرسالة الإعلامية بمنطق الموظف لا المحترف، الموظف الذي يؤدي عمله -يومياً- على أحسن وجه ولكن دون رغبة منه، فهو يعلم مسبقاً أن لا جدوى من هذا العمل، فلا أحد يقرأ أو يسمع أو يشاهد منتجه الإعلامي، وإن حدث ذلك فلن يصدقه أحد، وفي تلك الأجواء تحل العقلية الناقلة محل العقلية الناقدة، وتذهب ساعتها مجمل النفقات (التي تقدر بالملايين) والطاقات البشرية والمادية الموجهة في قطاع الإعلام أدراج الرياح.

ثالثا- الجهل المركب: يعد الجهل المركب نتيجة منطقية للنقطتين السابقتين، فإذا كان ثمة وصاية مطلقة من النظام السياسي على النظام الإعلامي، وهو ما يدفع إلى سيادة منطق الإعلامي الجاهل، فلماذا إذن يضيع الإعلامي بعضاً من وقته "الثمين" في القراءة والاطلاع؟ لماذا يبذل الجهد في صنع رسالة إعلامية يعلم مسبقاً أنها قد تهبط عليه من قبل جهات سيادية عليا في أية لحظة؟ إذ أن الجهل هنا ليس جهلاً أحادي الاتجاه بل هو جهل مركب يتعدى قدرة الإعلامي على قراءة ما بين السطور ليشمل إفتقاده القدرة على التحليل والتفسير، والنفاذ إلى الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الأحداث، فضلاً عن جهله بإستخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة التي تتيح الاطلاع على أطنان من المعلومات والحقائق التي حاولت الأنظمة السياسية، عبثاً، إخفاءها عن شعوبها فيما مضى، وتقنيات الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي فضحتها من خلال التسريبات كملفات ويكيليكس وأوراق بنما وغيرها.

رابعا- يمكن لنا فهم بعض أسباب الاستبداد الإعلامي من خلال البعض، ممن يمارسون ذلك -ربما دون وعي كامل بما يفعلون- بأنهم في الحقيقة يقومون بحماية أنفسهم والدفاع عنها، ولهذا، فإن موقفهم يكون قسياً وأحياناً ظالماً، وإذا كان الشخص المستبد يمتلك شخصية متسلطة عنيفة لا تؤمن بالمبادئ الإنسانية والمتحضرة التي تراعي حقوق الآخرين وبواجدهم العادل في المجتمع، فإن وقوعه في سوء الفهم الذي يجلب ظلم النفس وظلم الغير يُصبح أمراً لا مناص منه.

خامسا-إيجاد نقطة توازن خلال عرض الآراء داخل البرنامج نفسه أو في النشرة التي تليه، ولأسباب مهمة أو غير مهمة فإن عرض المعلومات أو المعارف

-حقائق أو صورا- لا يتفق في حالات كثيرة مع الواقع الحقيقي، وينتج عن ذلك نشر صور زائفة أو حقائق محرفة عن هذا الواقع، بطريقة تجعل الاستبداد الإعلامي واضحا في الترويج لها.

سادسا-أصبحت الأنباء والأفكار والأراء من التضارب والتناقص بحيث أدت إلى بلبلة أفكار المتلقين العاجزين عن التفرقة بين النبأ الصادق الموضوعي والنبأ المغرض المدسوس المتلون، فأن نوعية المعلومات التي تحويها الرسائل الإعلامية وطرق معالجة هذه المعلومات، يوصلنا إلى حقيقة المخاطر التي يواجهها المجتمع والتحكم في مدركات الجمهور بشأن هذه المخاطر، وبأن وسائل الإعلام تبالغ في التصدي لبعض القضايا والأحداث، في حين تتجاهل الكثير منها، وهي تضحي بفكرة الموضوعية وأهميتها في العمل الإعلامي، في مقابل اللعب على الأوتار الحساسة والعاطفية للجمهور،إذ غالبا ما تتورط وسائل الإعلام في الإعتماد على التقارير المنتقاة وفقاً لمعايير خاصة، وتلك التقارير المنحازة والمحرفة التي تهتم وتؤكد في الأساس عنصر الدراما والصرع، والسلبي من الأقوال والأفعال، كما أن تقارير وسائل الإعلام تميل إلى التركيز على الأحداث ذات الطابع الدرامي، وغالباً ما تفشل في تقديم العادي والطبيعي من الأحداث، في مقابل الأزمات الخطيرة والمفزعة كحوادث الطرق المميتة وحوادث القتل، وتتعدد الدراسات التي تؤكد مثل هذا التحيز والمبالغة في مضامين وسائل الإعلام للأزمات المجتمعية المختلفة.[521]

سابعا-أظهرت تغطية هجمات الحادي عشر من سبتمبر والأحداث التي تلتها أن التلفزيون يستطيع أن يؤدي خدمة ثمينة، وفي أوقات الأزمات، التلفزيون لا يقدر بثمن، أما في الأوقات الأخرى، فتقع الأخبار ضحية للقوى نفسها التي تؤثر في برامج التلفزيون الأخرى، الحاجة إلى زيادة الأرباح، في وقت من الأوقات، كانت الأخبار تعد خدمة تقدمها الشبكات للمستمعين، ولكن وحدها المعايير الإنسانية والأخلاقية هي السياج الذي يحمي الرسالة الإعلامية من السقوط تحت عجلات قطار المصالح والغايات الضيقة، وعندما تتلاشى أو تنهار تلك المعايير، فأن الخداع

(521) د.الاميرة سماح فرج عبد الفتاح، الإعلام وتشكيل الاحساس بالخطر الجمعي، أزمات المجتمع المصري إنموذجاً، سلسلة أطروحات الدكتوراه (106) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012، ص55-56

سيحرن تدريجيا بل الصدقية والموضوعية، وليس هنالك من خط وهمي يمكن رسمه بين قدرة الوسيلة الإعلامية على الدقة والصدقية والتخلي عن الإستقلالية والحيادية ولذلك فأن الصرخة المدوية التي أطلقها علماء الإتصال والإعلام حول إنهيار الإعلام كرسالة أخلاقية تستند على ما قد توفر لمصادر صنع القرار السياسي من إمكانات مادية ومعلوماتية على درجة عالية من التفاعل والأحكام التي أدت إلى سلب المؤسسة الإعلامية إستقلالها وحياديتها، وبالتالي جرى إخضاعها كليا للقرار السياسي.[522] وصار التباهي بالاستبداد سمة رئيسية من سمات السلطوية يغتال فاوستيو الاستبداد النزعة الإنسانية بالاستعلاء على المغردين خارج السرب واستبعاد أفكارهم وآرائهم دون نقاش، وتوظيف الهجوم عليهم «اللاالتحاق المربح» بخدمة البطل المنقذ الذي تحول سريعا إلى سلطان مستبد، فالاستبداد السياسي حسب السوري عبد الرحمن الكواكبي: «هو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بالمشيئة، وبلا خوف تبعه» مضيفا: «إن المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على افواه الملايين» اما الاستبداد في نظر العراقي د.محمد حسين النائيني فهو كما افتتح به كتابه «تنبيه الامة وتنزيه الملة»: «أن يتعامل السلطان مع مملكته كما يتعامل المالكون مع اموالهم الشخصية، فيعتبر البلاد وما فيها ملكا شخصيا له، ويجعل الشعب عبيد له، فهم كالأغنام والعبيد والإماء لم يخلقوا إلا له، فيقرب من كان وافيا بهذه الاغراض متفانيا في تحقيق شهوات السلطان، وينفي عن البلاد -التي ظنها ملكا شخصيا له- من وجده مخالفا لذلك، وقد يعدم أو يقدمه لقمة سائغة لكلابه، وما حوله من الذئاب الضارية، ثم يأمرهم بنهب أمواله، وسلب عياله».[523]

الاستبداد والنظم الإعلامية المتعددة

يرصد الدكتور صباح ياسين في دراسته للفضائيات العربية اثناء الثورات الشعبية طبيعة الإدمان على مشاهدة التلفزيون الفضائي لدى المتلقين أثناء الحراك الشعبي، في كل مكان وبأمتياز التقنيات التواصلية عبر أقمار الصناعية حقق البث المباشر

(522) صباح ياسين، الإعلام النسق القيمي وهيمنة القوة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2006، ص148

(523) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م، س، ذ، ص14

رصد ومراقبة التطورات وتفاصيل هذا الحراك في الميادين على مدار الساعة، وكان التلفزيون عين المشاهد التي لا تغمض، فقد عشنا على إيقاع مشاهد الإعتصامات والإحتجاجات والمواجهات والعنف المستخدم بكل أشكاله ومشاهد الشباب المندفعين إلى الشارع وهم يواجهون السلطة المدججة بكل ممكنات أدوات القمع التي تملكها وعلى مدار الساعة وأصحى الحدث ليس واقعة (حبر) تسجل ويعاد بثها برفقة الخبر المعبر عن تفاصيلها، وانما تمكن المشاهد من الإحاطة التفصيلية بكل ما يحدث دون تزوير أو تدخل قصدي بالحذف أو الإضافة، وشكلت طبيعة الرسالة السمع-بصرية سطواً على العين، لا يمكن مقاومة إغراءه واضح تكرار وجود الصورة واقعاً لا يقبل النقاش في صدقيته، والمعارك التي تحدث في الشارع إنما تحدث وجوداً بين جمهور المتلقين بكل تفاصيلها الحسية والمادية، وكان المشاهد شريكاً في الحراك ويسمع ويرى وحتى يشَم رائحة البارود حين يطلق الرصاص على المتظاهرين، وقد حدد الدكتور عبد المجيد شكري نظم إعلامية جديدة برزت في الساحة الإعلامية العربية أبرزها:[524]

1 - **إعلام التزامي**. إعلام يلتزم بخطة واضحة وأهداف محددة من أجل خدمة الجماهير، إعلام يقوم على حرية الرأي والفكر والتعبير، ويقوم بالتحليل لا التبرير، يساند الرأي العام ويوظف نفسه لخدمة أهداف التنمية وتحقيق حرية الشعب والإنحياز إلى جانبه، إعلام قد تقوده الصفوة المستنيرة، إنطلاقاً من سياسة إتصالية رشيدة، يرسمها نظام ديمقراطي يعمل من أجل صالح المجتمع والمصلحة العليا للوطن.

2 - **إعلام إلزامي**. إعلام تسلطي، لا يؤمن بحرية الفكر والرأي او التعبير، الرأي فيه هو رأي السلطة فهو خادمها ويقوم على دعم ممارستها القمعية عند الشعب ويبرر اخطاءها دوما وينحاز دائما الى جانبها.

3 - **إعلام مسطح**: إعلام جاهل لا هوية له لا يعرف التخطيط الإعلامي السليم، يفتح المجال أمام أي غزو إعلامي او ثقافي من الخارج، مع عدم وضوح الرؤية

(524) د.عبد المجيد شكري، الاتصال الجماهيري، مكتبة الكتاب العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ص25-30

بالنسبة للمصلحة العليا للوطن ومصلحة الجماهير، فهو يقدم أي شئ وتختلط لديه المواقف، فقد يمنع ماهو صواب ويبيح ماهو خطأ، ويفضل المظهر على الجوهر ويمارس التعصب ويدعمه، وقد يمارس التحرر غير المحسوب حيث تتغلب صور التسلية على صور الثقافة والإلتزام الموضوعي.

4 - **إعلام عميل**: إعلام صوت سيده سواء كان هذا السيد من قوى الإستعمار بكافة صوره، وأشكاله او قوى الضغط العالمية والمحلية والسياسية والاقتصادية أو الاجتماعية.

5 - **إعلام طفيلي**: إعلام لا يبالي سوى بحساب الربح أو الخسارة، يبيع نفسه أو يبيع الوقت، بل يبيع الجماهير كسلعة لأصحاب رؤوس الاموال من المعلنين، ويستخدم كافة وسائل الجذب مع تفريغ كل ماده إعلامية من محتواها الجيد.

6 - **إعلام تضليلي**: إعلام يمارس التضليل عن طريق ما يبثه الى الجماهير المستهدفة في الداخل والخارج من أجل الإبقاء على سيطرة النظام وهو ما نراه حتى في كبرى الدول الراسمالية، ويمارس التضليل في وسائله الإعلامية الموجهة الى الخارج لحساب نفس القوى الاقتصادية المسيطرة من الداخل.

لكن ذلك لا يعني أن وسائل الإعلام هدفها النهائي تقديم ما يرغب أو يهدف له الجمهور، أي ليست السير وراء ما يريد، إنما تتخلله أهداف مرتبطة بالسياسة الإتصالية المركزية وفلسفة الحكومة أوالمؤسسات الخاصة والشركات، فغالباً ما تحصل عمليات دمج في الأهداف والطروحات، أي أن القائم بالاتصال (يرمّز) ما تمليه عليه سياسة المؤسسة وخلفياته تجاه الجمهور وحاجاته، إذ ان العملية تشبه الى حد بعيد أيهما (يتصيّد) الآخر، وتسير الرسائل الإتصالية بين هدف القائم بالإتصال وما يريده جمهوره، وتبقى الثقة، والمصداقية والتجربة، وموضوع الرسالة هي الفيصل في حسم الأمر، وعملية التفضيل للرسائل من دون أخرى ولرسائل دون غيرها والذي يسمى (التعرض المتخيَّر غير العشوائي) حيثُ الأفراد يميزون الأجهزة الجماهيرية، والمضمون الذي يعتقدون أنه سيكون مشوقاً مدعماً لآرائهم ووجهات نظرهم وتجاربهم، هذه الإهتمامات والميول والتفضيل، تسترشد بها الجماهير في الإختيار الذاتي وتعتمد إلى حد كبير على التركيب الجماعي الذي يعيش في داخله كل

فرد من أفراد الجمهور، وتنحى باتجاه تكريس الإغتراب الثقافي في نفوس المتلقين، ومن أهم آليات تكريس الإغتراب الثقافي للذات المتلقية:(525)

1 - **مؤسسات العنف.** لا يكاد مجتمع مغترب يخلو من مؤسسات العنف، بإعتبارها حائط الصد الأكثر فعالية في حماية الآخر من غضبة الذات، إلا أن تلك الوظيفة وغيرها من الوظائف الأخرى التي تشتهر مؤسسات العنف في المجتمعات المغتربة بالأداء المتميز لها، لا تعدو كونها ستاراً فولذياً يخفي وراءه وظيفة أكثر خطورة وأشد وطأة، ألا وهي الإجهاض الوقائي لأية محاولة مهما بلغت ضآلتها لقهر الإغتراب الثقافي وتحرير الذات من نيره الثقيل، والمعتاد أن تؤدى مؤسسات العنف تلك الوظيفة عبر الترويع الدائم للبسطاء وغيرهم بدعوى الحفاظ على تلك المجتمعات، وكأن المجتمعات لا تصان إلا بإهدار آدمية البسطاء وتغريبهم ثقافيا، فالتجربة الإنسانية قد أثبتت أن الترويع الدائم للإنسان جعل منه ولا يزال فريسة سهلة للإغتراب الثقافي، ويتورط بعض البسطاء في إرتكاب العنف، بحكم انخراطهم في مؤسسات العنف، حيث يجب أن يكون هناك من يرغب ومستعد لتطبيق السياسات نيابة عن الآخر.

2 - **مؤسسات التلقين الإعلامي:** أدت سيطرة الآخر في مجتمعات بعينها، خاصة المجتمعات المتخلفة، على وسائل العلم إلى حرمان الغالبية العظمى من أبناء تلك المجتمعات من التعبير عن آرائهم ومواقفهم، وبالتالي تكريس إغترابهم الثقافي، ورغم أنه لا يوجد إجماع في تلك المجتمعات على تحديد دور ومسئوليات الصحافة ووسائل الإعلام، إلا أن الممارسات العملية طرحت رؤية موحدة، وإن اختلف مضمونها إختلافاً نسبياً، وتحدد هذه الرؤية الدور الساسي للصحافة وسائر وسائل الإعلام في ضرورة إستخدامها كأداة في يد الآخر، وذلك للقيام بدور الشرح والتفسير والتأييد لقراراته، أكثر من كونها أداة للنقد والتطوير الجادين، ويلاحظ بصورة عامة أن الآخر يعد أي نقد موجه له على أنه موجه للمجتمع كله، بزعم الدفاع عن النظام العام وأمن المجتمع، وهما من المفاهيم المطاطة التي تستخدم على نطاق واسع في شتى أنحاء المجتمعات المتخلفة، مما

(525) حازم خيري، الاغتراب الثقافي للذات العربية، القاهرة. دار العالم الثالث، 2006

ترتب عليه غياب الرؤية النقدية الحقيقية، سواء في أجهزة العلم أو لدى المسئولين أو بالنسبة لتلك المجتمعات المقهورة المشار إليها.

3 - **المؤسسات التعليمية:** تعد المؤسسات التعليمية بكافة أشكالها واحدة من أهم وأخطر آليات تكريس الغتراب الثقافي في المجتمعات المتخلفة، إن لم تكن أخطرها على الطلق، فالرحلة التعليمية عادة ما تبدأ بتهيئة الطفل لدخول نفق الإغتراب المظلم، عبر منهج منظم وصارم، وقد تتكفل السرة أحيانا بإنجاز تلك المهمة البائسة، فيدلف الطفل إلى مدرسته وقد هيئ تماما لحياة الإغتراب الثقافي، غير أن الأكثر شيوعا أن تتضافر جهود الأسرة والمدرسة في تهيئة الطفل في سنواته المبكرة لن يصبح مغترباً ثقافياً. فالوالدان المغتربان غالبا ما لا يدخران جهدا في تلقين وليدهما أبجديات الإغتراب في سن مبكرة، والأرجح أنهما يسقياه إياها مع لبن الأم، دون أن يدركا بالطبع مدى جنايتهما على وليدهما، لاعتقاد راسخ لديهما بحتمية تأهيله للتعاطي الكفء مع ذاته ومع مجتمعه المغترب، وفاتهم أنهم بذلك يدمرون قدراته النقدية والإبداعية ويحيلونه مسخا مشوها، لا سلطان له على ثقافته، فلا يملك لها نقداً ولا تطويراً، ثم لا تلبث المأساة أن تكتمل عندما تضطلع المؤسسات التعليمية الآخرى بمهمة تكريس هذا الإغتراب وترسيخه.

4 - **محترفو التبرير الديني:** لعل في حيرة المرء وتردده إزاء صياغته لهذه الجزئية المهمة والخطيرة، دليلا حيا على عمق مأساة الاغتراب الثقافي وخطورتها، فالمرء يخشى والحق معه أن يجد تجار الآلآم، وما أكثرهم في كل زمان ومكان، سبيل إلى تحريف مضمون كلماته والعبث بها، خاصة وأن لهم خبرة لا يستهان بها في التعاطي مع المغتربين وخلط الاوراق أمام عيونهم، على نحو مذهل ومتفرد، قلما توفرت لغير الاخر. فهيهات أن تجد إنسانا غير مغترب يرفل في غلائل بالية، وهو بها راض، لا يطيق لها تبديلا! وهيهات أن تجد إنسانا غير مغترب يحسب مأساته فردوسا، يقاتل من أجله حتى الموت! وهو ما يقوم دليلا على مهارة وحرفية الاخر في هذا الصدد، يقول الكاتب هذا وفي نفسه غصة لا شفاء منها، فما أسهل أن يدير القارئ البريء ظهره لكلماته تلك، استجابة لغواية تجار الآلآم وزعمهم الماكر بتعارضها مع المقدسات، فأي مقدسات تلك التي تبيح لهم الزج بالابرياء

في آتون الاغتراب وترسيخهم الآثم في أذهانهم أن المألوف هو دائما الحق وأن مخالفة الاراء الشائعة لا يجوز، حتى لو ثبت خطأها؟

الاستبداد بإعلام الطفل

شخصت العديد من الدراسات التأثيرات السلبية لوسائل الإعلام في سلوك الأطفال وهذه التأثيرات أصبحت مصدر قلق للمهتمين بمعالجتها لتفسير إنتشار ظاهرة العنف والسلوك العدواني بين الأطفال ورد هذه الظاهرة إلى العلاقة مع كثافة التعرض إلى برامج العنف بالذات وكانت البداية عندما ربط الناس العاديون بين إرتفاع معدلات الجريمة والعنف والتغيير في القيم وبين إنتشار التلفزيون في الخمسينات والستينات وعلى الرغم من أن هذه الدراسات والبحوث تشير إلى عمق العلاقة بين التعرض أو إستخدام برامج العنف والسلوك العدواني بصفته سلوكاً سلبياً يكتسبه الأطفال ويرتبط بكثافة التعرض والإستخدام، ولذلك تتحدد بعض آثار التعرض للمحتوى القائم على العنف ضد الأطفال بـ:[526]

1 - في ألعاب الفيديو العنيفة يشارك الطفل بنفسه في العنف، بالقتل والضرب والتخريب والتفجير والسحق والخطف وغير ذلك، وربما كان ذلك بأداة تحكم على هيئة مسدس في يده، فتكون بمثابة تدريب شخصي فردي له.

2 - إن الإدمان على مشاهدة العنف يؤدي إلى تراكم المشاعر العدوانية، والعزلة، وقد يقود الطفل إلى خطر الإنحراف نحو جانب العنف، ومعاداة المجتمع.

3 - الإدمان على ألعاب الفيديو العنيفة يؤدي أحياناً إلى إصابة الأطفال بتشنجات عصبية، تدل على توغل سمة العنف والتوتر الشديد في أوصالهم ودمائهم، حتى ربما يصل الأمر إلى أمراض الصرع الدماغي.

4 - بعض الألعاب تعتمد على أن قتل الشرطة نوع من البطولة، بدلاً من أن ينشأ الأطفال على حب النظام واحترام الشرطة، ورجال الأمن.

5 - إدمان العنف يؤدي إلى تبلد إحساس الطفل تجاه ضحايا العنف، وعدم الشعور بمعاناتهم.

---

(526) د.محمد عبد الحميد، التربية الاعلامية، والوعي بالاداء الاعلامي، عالم الكتب، القاهرة، 2012، ص24

والبحث عن المثير والمشهدي، والتلفزيون يستدعي المسرحة، بمعنى مزدوج: فهو يخرج الحدث بالصور من ناحية، ويضخم أهميته من ناحية ثانية، وكذلك يفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى الكلمات، فيجب إستخدام كلمات خارج المألوف، وهذه الكلمات تعمل أشياء، وتخلف هلوسات، ومخاوف رعب، أو ببساطة تمثلات خاطئة، إذ تنضح آليات البرمجة بما فيها من تفكيك تخفيه المسرحة والإثارة، والإعلام - بحسب وصف بعض الباحثين- مسرح دائري يقفز عليه من هب ودب، ويمكن إبراز النماذج المتعلقة بتدمير المعنويات من كل العناصر الدعائية التي طرحتها البيئة الإعلامية من مختلف وسائل الدعاية المعادية وأبرزها:

1 - تغليف الأخبار والمعلومات بنظرية الرعب النفسي التي أساسها تحويل المضمون الإعلامي إلى مادة معلوماتية بقصد إشاعة نمط من الإرتباك والفزع دال الشخصية.

2 - تضمين المادة الإعلامية من أخبار وتعليقات مجموعة من الأفكار المتناقضة ضمانا لجعل المواطن في حالة توتر مستمر مع المبدأ الدعائي المعروف تحويل (بؤرة الإهتمام).

3 - تقديم الصورة المأساوية للقتال وللمستقبل بأخبار مضخمة تارة وملفقة تارة أخرى بقصد إثارة الفزع والخوف لتمزيق الشخصية وتدمير العقل.

4 - تهديد حرية الصحافة والإعلام ونقل المعلومات، وعلينا هنا أن نتأمل ما قام به أكثر من مائة من أبرز وألمع نجوم هوليوود يوم 10ديسمبر 2002 بمظاهرة إحتجاج ضد الحرب على العراق، وعقدوا مؤتمراً صحفياً قرروا فيه إرسال خطاب مفتوح إلى الرئيس بوش يطالبون فيه بإنتهاج الأساليب الدبلوماسية لحل المشكلة بدلاً من القوة العسكرية، فما كان من الصحف الأمريكية إلا أن تجاهلت نشر الخبر تماماً، وشنت شبكة CNN وfox هجوما من السخرية والإستهزاء على المحتجين.

5 - الإعلام طرفاً فاعلاً في صناعة الرأي العام: إذ يقف الإعلام، والإعلام التلفزيوني الفضائي بوجه خاص، طرفاً أساسياً في بناء الرأي العام وفق مقومات فاعلة، بل أصبح الإعلام الفضائي مولداً للمعرفة التفصيلية للقضية المعروضة، وحامياً لديمومة بناء المواقف إزاءها، أنه بإختصار يساهم في توسيع دائرة النقاش

وتفعيل التوجهات، ولا نعني بذلك المساهمة في الأخبار عن الواقعة وتفاصيلها فحسب، بل جذب الأفراد للإدلاء برأيهم -طواعية أو غير ذلك- وبوجه خاص أضحى الفضاء بأسره الملعب اللامحدود لتناثر الأفكار والآراء والمواقف، ولدعوة الأفراد للتعبير عن آرائهم ومواقفهم.

الاستبداد والإغراق الإعلامي

في محاضرة لعبد الله شليفر عنوانها"الإعلام والدين في العالم العربي والإسلامي" ألقاها ضمن محاضرات مؤسسة تمبلتون الأمريكية عن الدين والشؤون الدولية يعلن جازماً: أن الفوضى هي النمط السائد في معظم الإعلام العربي، وبالنسبة لدقة وتوثيق المعلومات والصدق فأن الإعلام العربي خاصة والصحافة الناطقة بالعربية قد تكون مخزية ومعارضة للأعراف الصحافية العالمية وللتراث الإسلامي الذي يلح على الدقة في الكلمات، و لدقة والصدق وكان يمكن للإعلام العربي أن يرتكز على هذه الطريقة في التحقق من الأخبار، لكن الإغراق الإعلامي الذي تسعى وراءه وسائل الإعلام كافة، هو الهدف الأساس في ذلك، ويفترض بالإعلام العربي أن يخفف من المعاناة المتواصلة التي يعيشها المواطن العربي ولا تجعله في دوامة الغضب والملل والتخبط، وما يثير الإنتباه هو بروز ظاهرة الإغراق الإعلامي وتنوع مصادره من خلال الفضائيات، وهو الإغراق الذي يؤدي إلى تنمية القلق داخل الشخصية، وإحداث ثغرات في الشخصية والمعارف والسلوك والإتجاهات، وأثار الباحثون بأن تزايد المعلومات وتدفقها في نظام إجتماعي يؤدي إلى توسيع ثغرة المعرفة بدلاً من تناقصها، بينما يشير روجرز إلى أن المعلومات لن تؤدي فقط إلى تزايد ثغرات المعرفة بل إلى ثغرات في السلوك والإتجاهات، وبقدر ما تثير الجرائم الإنسانية في المجتمع العربي من قتل وتشريد وتهجير وإستهداف وتصفيات جسدية تطال أغلب مواطنيه وخاصة بعد إحتلال العراق وبعد ما سمي بالربيع العربي، تثير قشعريرة وحزناً عميقاً في النفوس بما تمثله من كارثة إنسانية حقيقية، بقدر ما تثير من تساؤل حول دور الإعلام والإعلاميين في الإشتباك مع هذا المجال الخطر والحساس لتحقيق وظيفة الإعلام الإجتماعية والأخلاقية.

ونكتشف وفق النظرية الفرعونية في وسائل الإعلام **﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾** أنّ هنالك جرائم إنسانية بشعة تقع في مجتمعات

متقدمة، ونقرأ عنه بين الفينة والأخرى، صحيح انها تحدث لكن الفارق في نقطتين جوهريتين. الأولى: أن هذه القضايا تحظى بإهتمام إعلامي واسع هنالك، لا يقف عند حدود الخبر وتغطيته الساخنة، إنما يصل إلى ما وراء الخبر ومناقشته نفسياً واجتماعياً وثقافياً، أمّا النقطة الثانية: أنّ هنالك ضعفاً ومحدودية في التغطية الإعلامية المحلية للقضايا الإنسانية ومتابعتها والكشف عن الأمراض الاجتماعية والنفسية، ودور مؤسسات المجتمع المدني والدولة والمؤسسات الإعلامية والسلوكية في معالجتها، وكم من القصص ما تزال خارج التغطية الإعلامية والإهتمام العام؟ بل هنالك موضوعات وقضايا، نشتبك معها يوميا، لا تحظى بأي مستوى حقيقي من الإهتمام الإعلامي، كظاهرة عمالة الأطفال وحالات الطلاق المنتشرة والمفاهيم الخاطئة عن الدين والمجتمع وتربية المراهقين ومستوى التعليم والقضايا الصحية والأمراض الإجتماعية والنفسية، وحالات الإدمان والكبسدة وإغتصاب الأطفال والعنف ضد المرأة..الخ، وإذاعة "سوا" الموجهة إلى جيل الشباب من الفتية والفتيات العرب، والتي تمكنت في فترة قياسية من إستقطاب جمهور عريض منهم، تهدف إلى إختراق عقول وذهنية وطرائق تفكير هؤلاء الشباب، عن طريق البرمجة الذكية للأغنية والصياغة المتقنة للخبر، الذي تسرب من خلاله الفكرة والرسالة الإعلامية، ما يساعد في إختراق التربية العقائدية والإيديولوجية هم.[527] ويمكن للضغط الإعلاني المنظم أن يحدث أثراً عكسياً، وقد أطلق الباحثون على آخر أجيال وسائل الإعلام المعاصرة في عصر الأنترنت مثل «الفيس بوك، واليوتيوب وتويتر» بـ«السلطة الخامسة» إذ لم يعد للرقيب الإعلامي (التدخل الإعلامي) أية سلطة على حظر نشر موادها لتكون في متناول المواطن إينما كان موقعه في العالم، وهي تسمية رافقت تسمية أخرى هي (الإعلام الجماهيري) وفي تحريف رسالة الإعلام، إنطلاقاً من ما يأتي:

1- أن الفضائيات والمحطات الإذاعية والشبكة العنكبوتية غزت كل البقاع، والصحف تطبع وتنسخ بلا عدد، وتنقل عبر الأقمار الصناعية في أوقات قصيرة محققة تأثيراً تكييفياً لعقول الناس، فلا بد من مراعاة حقوق الإنسان

(527) علي الشعيبي، دور وسائل الاعلام بين التثقيف والترفيه، ضمن كتاب الاعلام العربي في عصر المعلومات، مجموعة باحثين، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2006، ص169

بالقدر الكافي للمعلومات الحقيقية.

2 - تتسابق الدول للتسلح العسكري، لكنها في الوقت ذاته تتسابق لامتلاك السلاح الإعلامي الذي يمنحها الوجود في معارك حروب إعلامية، وهذا التوجه يمثل حالة تجني على دور الإعلام المستقل ورسالته في التنوير والتوجيه والتنمية والبناء.

3 - الدعوة لتفعيل دور منظمات المجتمع المدني التي هي الرأي العام لمجابهة تسلط السلطات الرسمية على نطاق عالمي سواء في البلدان المتقدمة أو النامية والمساعدة بمنح الحريات الديمقراطية للناس.

4 - ليس كل مطبوع صحافي أو بث إذاعي أو فضائي أو حتى مقروء عبر الأنترنت إعلاماً يستهدف خدمة الإنسان والمجتمع وتنويره، فلا بد من الفرز بين ما هو أداة بيد السلطان الجائر، وما هو وسيلة دفاع وممانعة بيد الناس ضد السلطان.

5 - ترتبط بين الإعلام والحريات الديمقراطية علاقة وثيقة يصعب تجزئتها في الدول الديمقراطية، بينما تصبح العلاقة بمسافة كوكب السماء عن كوكب الارض، وتقتصر على التسمية لدى الإنظمة الشمولية والإستبدادية فحسب.

6 - أن التطور الديمقراطي لدى بعض الأنظمة الغربية إرتقى إلى منح الإعلام موقع السلطة الأولى، بينما لم ينل مفهوم السلطة الرابعة لدى غالبية البلدان النامية.

7 - إستفحال حيلة الإقتباسات التي تتبعها بعض وسائل الإعلام: ويقول الناقد الإعلامي بيتر فايس: "إقرار الإقتباسات هو أحدث حيلة لجعل شخص ما يتكلم" وبينما يعترف فايس بأنه في بعض الأحيان يوافق على ممارسة هذه الحيلة، فهو يسميها "شكلاً من أشكال الفساد منخفض المستوى الذي يقبله الطرفان دون أن يتحدثا عنه" والسبب وراء شعور الصحفيين بالقلق من هذه الطريقة أنهم يعطون المصدر سلطة التحكم فيهم هم وفي الحقيقة، لكي يبدو هم أنفسهم في صورة جيدة، وهناك سبب آخر كون الإقتباسات الدقيقة محيرة، ولكنه في الوقت نفسه موضوع، نادراً ما يتحدث عنه أحد، وهو مواطن الضعف المهنية، فبعض المخبرين الصحفيين لا يمكنهم وحسب كتابة الملاحظات بالسرعة الكافية،

وليس مطلوباً من الصحفيين تعلم الإختزال، وبناء عليه فأنهم غلباً ما لا يمكنهم متابعة الكلام الذي يقال بسرعة.(528)

8 - الإعلام حارس للمدن: إذ أن الإعلام الراقي هو حارس المدينة من كل أشكال الإستفراد والتسلط والإنحراف عن القيم السوية التي تمثلها المواطنة الإيجابية، كما يقدر الإعلام أن يكون مؤازراً كبيراً وقوياً لديناميكية المجتمع المدني الذي يناضل من أجل علاقة متوازنة بين الدولة والمجتمع من جهة، وبين السلطات الثلاث والمواطن من جهة أخرى، ولعل هذا ما يفسر إلى حد كبير أن النظم غير الديمقراطية تسعى إلى تملك أجهزة الإعلام والتحكم في مضامينه وتوجهاته وأدائه ورموزه.

9 - فاعلية الأسلحة الإعلامية: إذا كان معروفاً أن الحروب تخاض بالسلاح كما تخاض بالكلمات منذ فجر التاريخ، فتقوى وتتجاور في فتكها فعالية الأسلحة، فللتدليل على حجم التخوف الذي يجعل الكلمة مقصلة قادرة على القتل، وتهيئة المعارك وإذكائها عن طريق تشويه الصور وحقن النفوس والتحفيز على التدمير، وهذا أمر في صلب الصراعات العسكرية والسياسية، ويدرس في الجامعات مادة أساسية في الدعاية السياسية والحروب النفسية وعلم الإشاعة وتضليل الحقائق وتشويهها كباب في هزيمة الآخر وإعادة إحيائه.

10 - طرائق اللعب بالإعلام: في كثير من وسائل الإعلام في العالم، يجري اللعب على أوتار عنصرية معينة تناسب قطاع الأكثرية التي تتوجه لها الوسيلة الإعلامية، ويأتي ذلك اللعب بطرق ضمنية تارة وسطحية مكشوفة تارة أخرى، ففي بعض المجتمعات التي تتألف من مجموعات عرقية أو طائفية أو دينية تستغل بعض وسائل الإعلام تلك الفسيفساء فتنتشر مواد إعلامية تتضمن تهكماً أو تحقيراً أو إدانة لهذا الطرف أو ذاك، فإذا كان ثمة خبرأمام الوسيلة الإعلامية يتعلق بنجاح أحد الرياضيين مثلاً بالفوز بالميدالية الذهبية، فأن تلك الوسيلة الإعلامية ستقدمه بهويته القومية أو الوطنية التي تخص الأكثرية، أما إذا

(528) جون ماكسويل هاملتون، وجورج أ.كريسكي، صناعة الخبر في كواليس الصحف الامريكية، ترجمة. احمد محمود، دار الشروق، القاهرة، 2000، ص129-130

كان الخبر يتناول جريمة نكراء مثلاً كالتجسس أو الإرهاب أو القتل، فأن بعض وسائل الإعلام تقدم الفاعل ليس بصفته الوطنية أو القومية، بل بصفته "العرقية" أو "الدينية" أو "الطائفية".

11 - إنهيار اللغة الإذاعية والتلفزيونية والالكترونية: لأن الإذاعة هي الوسيلة الأفصح التي تبرز فيها إنهيارات العربية الفصحى في المحكيات واللغات بعدما كان صوتاً تشظى إلى مجموعات من الأصوات والتوجهات المتباعدة المتنافرة والمتصارعة لا يجمعها سوى الشكل المارج الذي كان ربما أقصر الطريق إلى جذب الجمهور في الإفهام والتأثير والتجيير في مواقع الصراعات.[529]

12 - في تعابير مثل عوائل الأسلحة (Waffenfamilien) يجري تحويل الأسلحة إلى أجزاء من العائلة البشرية وتحويل الضحايا إلى صور غير إنسانية لكي يتم أستبعادها من الواقع الإعلامي المرئي والمسموع، فالحديث عن الأسلحة المدمرة يصبح طبيعياً وعادياً حسب هذه اللغة لأنه مقرون بالإعجاب والدهشة الكاملة،أما الضحايا فيصبحون أمراً مقززاً يتم إستبعادهم من الصور المرئية لكي لا يتم خدش مشاعر المشاهدين وأحاسيسهم.

13 - اختلاط التجسس بالمهنة الاعلامية: كانت اجهزة المخابرات البريطانية او الامريكية اما تستعين بصحفيين يستطيعون الدخول الى اماكن لا تستطيع عناصرهم الدخول اليها، لمدهم بالمعلومات المطلوبة، واما تنكر عناصرهم بهويات صحفية، وقد جرى مثل هذا في كل الحروب في القرن العشرين، وخاصة في الحرب على يوغسلافيا، وافغانستان، والعراق، وليس من قبيل المصادفة ان الصحفيين هم الاكثر تعرضا في مثل هذه المناطق للاختطاف والقتل من قبل الجماعات المقاومة المسلحة التي تعتبرهم «جواسيس».

الاستبداد والخداع الإعلامي

في كتابه «الأخبار في الحرب» الصادر عام 1988يتحدث الباحث السويدي هوكان هفيتفيلت ما سماه «الخدع الدلالية» في لغة الحرب، فيتحدث عن أسلوبين

(529) د.نسيم حوري، الاعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة اطروحات الدكتوراه(50) بيروت، 2005، ص314

إعلاميين في مجال إستغلال اللغة، أولهما أسلوب عام يهدف إلى جعل الواقع ممتعاً قدر الأمكان، وثانيهما خاص يستعمل عندما تسيطر المصالح الدعائية لوسائل الأخبار على مصالحها التجارية، ففي سياق الدعاية، وإلى جانب الأسلوب الخاص، تستخدم أيضاً الكلمات الأكثر فعالية التي تخدم الخلفيات التي يستند إليها غرض الدعاية، ويشير إلى أن بعض الحوادث والأمور تحتاج إلى الدعم والترسيخ، ما يستلزم وقتها إستخدام أقوى لغة ممكنة، بيد أنه في الحالتين، إذ تستغل وسائل الإعلام الخصائص نفسها في اللغة، ولكن بأساليب مختلفة ولأغراض مختلفة.[530] فقد أنطفأ الخطاب الإعلامي الإبداعي التفاعلي المحكوم بتكوين النسقي المعرفي والفكري للقارئ، وساد خطاب الشعارات والإنفعال، وبرز إعلام الضجيج، قد يكون من مستلزمات العمل السياسي في ظرف ما أستخدم الضجيج الإعلامي، بديلاً عن الخطاب الإعلامي المتوازن، ولكن إستمرار هذا الضجيج الإعلامي وإدمانه وتحوله إلى إستراتيجية يدل على أن هناك خللاً ما تحاول وسائل الإعلام العربية إخفاءه، **وتتجلى فجوة العقل الإعلامي الذي يتمخض عنه الخطاب الإعلامي في عدة مجالات رئيسة هي:**

1 - تعددية الرؤى الفلسفية والنظرية في هذا الحقل المعرفي المهم.

2 - تنوع الممارسات المهنية في وسائل الإعلام المقروء والمرئي والمسموع والإلكتروني.

3 - طبيعة الجمهور المتلقي، التي تزخر بكثير من التباينات الإقتصادية والثقافية والديمغرافية، فضلاً عن تعدد مستويات الوعي السياسي والإجتماعي.

4 - البحث عن أكبر شريحة لتوجيه الخطاب الإعلامي لها إذ أن المؤسسات الإعلامية تسعى إلى توظيف مختلف وسائل الإعلام، بغرض طرح خطابها الثقافي أو السياسي ضمن مادة إعلامية يمكن بثها إلى أكبر شريحة ممكنة لغرض تكوين صورة حسنة لما تمارسه من أنشطة وتعميق وعي الآخر بماهية أهدافها على أرض الواقع.

5 - تعددية الاندماج الاستبدادي، كالاندماج بين العسكري والإعلامي، والاندماج بين السلطة والإعلام، الاندماج بين المال والإعلام، تولد الدعم والاستبداد تجاه المتلقي.

---

(530) د.علي ناصر كنانة، جيوش اللغة والاعلام، منشورات الجمل، بيروت، 2012، ص244

الإستبداد وإنتهاك اللغة وإتقان أساليب الإقناع

كان إفلاطون يعرف البلاغة بأنها: «كسب عقول الناس بالكلمات» وكان أرسطو يرى البلاغة إنها: «القدرة على كشف جميع السبل الممكنة للإقناع في كل حالة بعينها» وقد لاحظ علماء الإجتماع وخبراء العلاقات العامة، أن الأفراد يكونون أكثر إستعداداً لتدعيم إتجاهاتهم الموجودة عن تطويرهم لأتجاهات جديدة عليهم تماماً، وتدعم أبحاث الإتصال هذا الرأي، وتشير بقوة إلى أن الرسالة تصبح أكثر فاعلية حينما تجعل الرأي أو السلوك الذي تعرضه يبدو للجمهور على أنه وسيلة لتحقيق إحتياجاته الموجودة فعلا، أما خلق إتجاهات جديدة وإجبار الجماهير على إستيعابها، فأنه يبدو مهمة أكثر صعوبة، وقد أدرك الروائي العالمي «وليم شكسبير» هذه الحقائق منذ أكثر من أربعمائة عام في مسرحيته العظيمة «انطونيو وكليوباترا» في الموقف الذي خاطب فيه «مارك انطونيو» أعضاء مجلس الشيوخ بعد إغتيال «يوليوس قيصر»، وكان «بروتس» قد نجح في إقناع الغوغاء من الرومان لتوه بأن «قيصر» لم يكن البطل الذي تصوروه، وأنه لهذا أستحق القتل، في هذا الموقف، كان على «مارك انطونيو» أن يقنع الناس بشئ آخر مختلف، وقد أدرك أنه أعترض على ما قاله «بروتس» مباشرة فإن الناس سوف يقتلونه لأنهم في حالة إنفعال شديد وغضب حاد، لذلك أستخدم «انطونيو» سلسلة من الأدوات التي تعلمناها اليوم ونقوم بتدريسها في مقررات مهارات الإتصال الشخصي وهي:[531]

1 - بدأ «انطونيو» في مخاطبة الناس بقوله: «إيها الأصدقاء الرومان رجال الدولة» ذلك إننا نميل إلى تصديق الأشخاص الذين نعتبرهم منا(one of us).

2 - ثم كتب شكسبير في مشهد المسرحية إذ أضاف "انطونيو" العبارة التالية: "أعيروني آذانكم لمدة ثانية" (Just a second lend me your ears) لقد أتيت لموارة القيصر وليس لأمجده (praise him).

عند هذه النقطة من النص، إستطاع "انطونيو" أن يجذب أسماع الناس في هذا الصخب لما يريد أن يقوله، أي إنه خاطب الناس بما يريدون سماعه، وبهذا

(531) نقلا عن: د.حسن عماد مكاوي، الإعلام ومعالجة الازمات، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2005، ص63-65

أنتهى من المهمة الأولى، وبعد أن قدم بعض الأدلة والإستشهادات أنتهى إلى إثبات إتهام"بروتس"وأن "يديه مغموسة بالدم" وشئ معادل لما فعله "انطونيو" قام به "بوب ريد"(Bob Reid) في الثمانينات من القرن الماضي، وكان رئيس شركة "شل" للبترول في بريطانيا وحدثت أزمة للشركة نتيجة إنفجار أحد أنابيب البترول وتلويث نهر(Mersey)في إنجلترا، وكانت إستجابة "ريد" الفورية لهذا الحدث هي عقد مؤتمر صحفي وتقديم "الإعتذار" للأمة عما حدث (خاطب الناس بما يريدين سماعه) وبعد ذلك قام بتذكير الناس بأهمية البترول، ثم شرح لماذا تقع مثل هذه الحوادث أحيانا، ونجحت هذه الرسالة الإقناعية لأن الناس تأثروا به وتقبلوا تقديم الإعتذار، ونخلص من ذلك إنه عند مواجهة الأزمة لابد أن نتعامل مع الحدث من منظور الآخرين، وليس من الضروري أن نعلن الأسف، ولكن لا بد أن نظهر الإهتمام والتعاطف، وأن نعمل على ترك أثر طيب يخفف من وقع الصدمة.

وبوعي متفاوت من قبل أولئك الذين يؤثرون بالصياغة اللغوية أثناء العملية الإخبارية بغية تضخيم ومشهدة وتشويه الواقع لأغراض الدعاية، بالرغم من أن الرسالة المضللة، ولأسباب لغوية، لم تكن مع ذلك أكاذيب محضة، ولعل هفيتفيلت يعني هنا أن التضليل لا يجري دائماً على نحو من إختلاق المعلومات المزيفة وإنما في كيفية إستخدام المعلومات الحقيقية من حيث السياق والتوقيت والإجتزاء والأسلوب اللغوي، وكيفية الإستخدام في الوسيلة الإعلامية ويسمّي هوكان هفيتفيلت هذه الأساليب التي تستعملها وسائل الإعلام لتضخيم ومشهدة وتأويل وتزييف وتشويه الواقع "خدعاً دلالية" "Semantiska Knep" ويحدد عدداً من هذه الخدع التي تظهر في مقالات الحرب لتشويه الواقع، بوعي أو بدون وعي، لخدمة أغراض الدعاية:(532)

1 - تعبيرات وجدانية، سلباً أو إيجاباً.

2 - تعبيرات زاخرة بالكناية تحدث تداعيات دراماتيكية.

3 - المجازاة اللغوية، لغة تصويرية.

(532) د.علي ناصر كنانة، جيوش اللغة والاعلام، جيوش اللغة والاعلام، منشورات الجمل، بيروت، 2012، ص244

4 - تعبيرات قياسية.

5 - تعبيرات علائقية.

6 - كلمات وتعبيرات غامضة كلياً أو غير محددة.

ويرى الباحث الإعلامي البريطاني ماكس جنشر أن على الكاتب الصحفي توخي الوضوح وتجنب التكرار الممل، والصيغ المبتذلة، والكليشيهات التي سبق ترديدها والإقلال من الإقتباسات، ويفهم من هذا أن على لغة الصحافة الإبتعاد عن توظيف القوالب الجاهزة بدون وعي وبلا تبصر، لأن ذلك الأمر قد يوحي لقارئ بأنه لغة جامده فاقده للحيوية والإبتكار والتجدد، ويجمع العديد من الباحثين في لغة الصحافة على أن الخاصية الأساسية للكتابة الصحفية هي سلامة اللغة من خلال الكتابة الإملائية الصحيحة ومعرفة تطبيق قواعد الصرف والنحو وحسن إختيار المفردات والتنقيط المناسب فضلاً عن إيجاز الجمل والفقرات وإستخدام الجمل المباشرة والأفعال والأسماء القوية، إذ أن الدعوة إلى إحترام قواعد الكتابة من حيث النحو والصرف تؤكد أن من الخطر المحدق باللغات والكتابات الصحفية التي تتم في أغلب الأحيان خارج القواعد الصحيحة للغة مما يغرس في المتلقين روح عدم التقيد بالكتابة السليمة، وإزدراء قبولها، كما أن لغة الإعلام لا تثري زادنا اللغوي فحسب بل تمنحنا تصوراً لطبيعة الأشياء وحقيقة محيطنا وأصوب السلوكيات وأكثرها تطابقاً مع قيمنا ومثلنا، فعلى سبيل المثال إذا أستعمل الإعلامي اللفظ العيف فقد يمتضي إثارة الناس بيد أنه إذا أحاطنا بكلمات الفسق والسوء والبذاءة فمن المتوقع أن يتم إستخدامها من قبل الجمهور، فاللغة الإعلامية تصبح جزءا من حياة الناس، أي أن رجال الصحافة والإعلام يخلقون الذوق اللغوي ويفرضون الصواب، الذي قد يبدو في أول الأمر ثقيلاً، لكنه مع مرور الوقت يصبح مقبولاً وشائعاً. وعرف مارتينو الاستبداد في القرن الثامن عشر بأنه: "شكل الحكم الذي يكون فيه العاهل سيدا مطلقا، لا يحد سطوته شيء، وأن سلطته اعتباطية، وهو لا يحتكم لقاعدة سوى ارادته"[533] **ويرى باحثون أن اللغة الإعلامية تعاني أزمة تتمثل في:**

(533) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م، س، د، ص13

1 - **الإستنساخ**: فالمفردات والصياغات أما متوارثة أو متهالكة أو مبتدعة دون أساس من القواعد والنحو.

2 - **الإستهلاك**: ثمة نصوص مستهلكة لم يبذل الإعلاميون جهداً في إعادة صياغتها إعادة جمالية أو نقدية.

3 - **العامية**:تسربت كلمات وتعابير عامية إلى وسائل الإعلام من خلال المدونات والمواقع الألكترونية نتيجة عدم تأهيل معظم المشتغلين فيها ممن يطلق عليهم بالمواطنين الصحفيين الذين لا يقيمون أي إهتمام للغة بقدر عنايتهم بمحتوى الفكرة أو مضمون الرسالة بكل ما تتضمنه من صور وإشارات أو رموز.

4 - **الإفراط البلاغي**: نعثر على هذا النمط من المحتوى في الإعلام الثقافي والصحافة الثقافية والملاحق الأدبية التي يشعر القارئ العادي ذاته عند مطالعتها بالإغتراب.

5 - **الجهل بتقنية الكتابة الإعلامية**: ويتضح ذلك عبر عدم إعتماد أسلوب تقطيع النص إلى فقرات وجمل وغياب علامات التنقيط.

6 - **عدم التمييز بين لغات الأجناس الصحفية المختلفة**: مثل الخبر والتحقيق والمقال، والجهل بما يقتضيه كل جنس صحفي من طريقه لتعبير اللغوي عن الأفكار، وهو ما موجود في شبكة الانترنت.

7 - **النقل اللغوي الأعمى**: عن مصادر دون إعادة صياغة لغوية بحبكة مهنية.

الاستبداد وتزييف الوعي وتغييبه في الخطاب الإعلامي

اللغة في الخطاب الإعلامي كأداة في الاتصال الإعلامي صارت هي الحقل الذي ربما أختطفته إقطاعيات إقتصادية وتجارية ورأسمالية وضمته لمشروعاتها السياسية، ذلك أن نظام القهر لا ينتج إلا إعلاماً مقهوراً وخطاباً مستسلماً قدرياً متراجعاً عن معنى الالتزام بالثوابت الوطنية، فالنظام الاستبدادي التقليدي ووسائل الإعلام المرتبطة به يصادر حق الافراد بحرية الكلام لكنه يترك لهم الحق بحرية الصمت، اما نظام الاستبداد العبودي فهو يصادر الحق بالصمت ايضا بهدف ملاحقة كل قدرة لدى الفرد على ممارسة الحرية أو الصدق، فيجبره على قمع ضميره والكذب عليه، إذ

تفنن الخطاب الإعلامي بإستخدام مصطلحات مختلفة في كل زمان ومكان تنبع من روح المصلحة السياسية لهذا البلد أو ذاك، إذ أن مضمون الخطاب الإعلامي يذهب في الفضائيات العربية أبعد من إستضافة شخصيات، بل بإستخدام المصطلحات وفي ذلك يقول الدكتور نبيل دجاني:»كنا نقول فلسطين، الأراضي المحتلة، العدو الصهيوني، الآن بتنا نقول إسرائيل والسلطة الفلسطينية، هناك توجيهات واضحة بعدم ظهور العلم الإسرائيلي على الشاشات، لكننا نراه يخفق في الكثير من البرامج، الإسرائيلي يظهر على الشاشة بكل حرية ليقول لنا كل ما يريد، والأسوأ أننا قدمنا كل هذه التنازلات مجاناً وبحجة واحدة: معرفة الآخر« وفي ذلك نشر موقع كنعان اون لاين، بحثا لـ بثينة شعبان يسرد قائمة من ثنائية المصطلحات التي حل أحدها مكان الآخر، بقصد أو بغير قصد، في الخطاب التلفزيوني،»ناشط« بدلاً من »مقاوم«، »إغتيال ثلاثة من العرب« بدلا من »الشرطة الإسرائيلية أو المستوطنين يقتلون ثلاثة من العرب« ذاك أن جملة من دون فعل وفاعل هي جملة رخوة حتى ولو كانا مضمرين، »الجدار يفصل إسرائيل عن الضفة« في حين أن الجدار قد بني على أراض يقع 45٪ منها في الضفة الغربية، »دخول« بدلاً من »إجتياح يدمر الأحياء والبيوت ويقتل المدنيين«، »أهداف« بدلاً من القول إن الصواريخ قد قتلت نساءً وأطفالاً، عدم ذكر الإسماء في عملية نزع الأنسنة عن الضحايا، ونظرا لتعاظم دور وسائل الإعلام التقليدية والالكترونية وسيادتها في مجال عرض الحقائق ونشرها، فأن الافراد في المجتمع يعتمدون عليها في رسم الصور الذهنية لهذه الحقائق المحرفة أو المتحيزة، دون بذل جهود إضافية لمقارنة هذه الصور الذهنية مع الواقع الحقيقي.(534) ويرتبط الخطاب الإعلامي بمجمل السياسات العربية المختلفة المؤتلفة أحياناً والنافرة فيما بينها في أحيان كثيرة، مثلما يرتبط النظام الإقليمي (ومنه العربي) الجديد بالنظام العالمي الجديد بعلاقة تبادلية، فهو نتيجة له، كما أنه يشكل له جسراً وغطاء كما يؤكد المفكر العربي محمد عابد الجابري، إذ حدد الدوافع الثلاث التي يرتكز عليها النظام الاقليمي الجديد والذي يستند عليه الخطاب الإعلامي بالآتي:(535)

(534) د.يوسف محمد، النظريات النفسية والاجتماعية في وسائل الاتصال المعاصرة والالكترونية، م، س، ذ، ص200

(535) نقلا عن د.حياة الحويك، الفضائيات الاخبارية العربية بين عولمتين، منتدى المعارف، بيروت، 2013، ص211

1 - شلّ الدولة الوطنية، ومن ثم تفتيت العالم لتسهيل هيمنة الشركات متعددة الجنسيات والشبكات الرأسمالية الجديدة.

2 - إرساء مبدأ البقاء للأقوى والأكثر قوة، هو الذي ينجح في كسب الثروة والنفوذ.

3 - وضع وسائل الإتصال والإعلام في خدمة الهجمة الثقافية وإستعمار الأفكار ما يقتضي إنتهاك الدولة - الأمة وسيادتها.

4 - تكريس مفهوم حرب الأفكار، الحرب التي تؤدي فيها وسائل الإعلام دوراً أساسياً يتعاظم أكثر مع تحويلها إلى بداية للحرب العالمية الثالثة، عسكرية كانت أم باردة.

5 - إذا ما شذت وسيلة اعلامية عن سقف معين ولو لفترة، فأن قراراً سياسياً لا يلبث أن يحجمها، ويعيدها إلى التغريد داخل السرب.

6 - الخطاب الإعلامي العربي يكرس لتحويل إهتمامات الجمهور عبر برامج التسلية المفرغة والإعلانات التي تنخر سلّم القيم، وبرامج الإغتراب الميتافيزيقي والشعوذة، للتغطية على الجوانب السياسية، التنازلات المقدمة للغرب ولتحقيق أهداف أخرى في مقدمتها تمييع موضوع التطبيع مع إسرائيل، وتسفيه الفكر القوي، وإرساء فكر ديني يقوم على ثنائية الأصولية الدينية من جهة، وترسيخ الشروخ الطائفية والمذهبية من جهة ثانية، في ما يترجم بثلاث: تدمير ذاتي على أساس المواجهة الفئوية هذه، فضلاً عن المواجهة العرقية أو الأثنية، عولمة إسلامية غائمة، وتحويل العداء عن إسرائيل إلى عدو بديل، ويأتي على رأس هذه المعادلة تأجيج الحساسية السنية/الشيعية، بل وتحويلها إلى فتنة وعداء لا يقتصر على العالم العربي وحده بل يطال كل العالم الإسلامي.

فالخطاب الإعلامي الذي هو مجموعة القيم والمبادىء والتصورات التي تحكم العملية الإبداعية وتؤثث لها شكلاً ومضموناً ومنهجاً كعامل تواصل في زمكانية ما، كونه صناعة وثقافة مؤثرة أكدتها مقولة وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت:(إن شبكة سي.ان.ان.الأمريكية هي العضو السادس دائم العضوية في مجلس الأمن) كونها تعي مالها من تأثير يفوق التصور، ولذلك فأن الخطاب الإعلامي

الرقابي كثيراً ما يخضع إلى اللعبة السياسية حيث أستخدم التشهير ضمن الصراعات السياسية بحجة رفع شعار النزاهة، كما أن تطور مفهوم الموضوعية في الدور الرقابي في وسائل الإعلام كان ينظر إليه كرد فعل على القطيعة الصحفية التي تهدف إلى الإثارة بدوافع شخصية، ولذلك يسعى الإعلاميون أن يكونوا غير متحيزين ونزيهين ومتوازنين في تعاطيهم مع حالات الفساد المنتشرة في مفاصل الدولة، أما الصحفيون الذين يسعون إلى التوازن المصطنع تفتقد تقاريرهم أساساً إلى الدقة، وبالتالي يكونوا متجاوزين للحقائق المهنية، والكتابة من وجهة نظر ضيقة غير نزيهة وتقديم صورة ناقصة عن الخرق أو الفساد أو تفسير الأزمات وغيرها.

وبغياب الإعلام الموضوعي والجاد وغياب الثقافات الرصينة مرجعه إلى أن الدولة في عديد المجتمعات ومنها العربية رفعت يدها أو أنسحبت تدريجياً من إدارة المجتمع إقتصادياً وإجتماعياً وثقافياً، وأنه في ظل التعددية السياسية والديمقراطية المظهرية لم تعد الدولة تمارس سلطانها على العقول والأذواق والسلوكيات، وهي كذبة كبيرة لأن غياب ثقة المجتمعات، ومنها العربية، في مؤسساتها وعلى رأسها المؤسسة الإعلامية هو الذي فتح الطريق أمام هذا النوع من الاستبداد في الإعلام السائد لملء الفراغ الإعلامي بكل ما هو رخيص وتافه من حديث الفضائح والخرافة ونفاق العواطف، وهذا الوضع أنشأ نوعاً من الخطاب الإعلامي والتفكير المزدوجين مما يسمح للفرد بأن يؤمن من ناحية بإمكانية العيش الكريم، ولكنه يشجع من ناحية أخرى على الهروب منه وتجنب التفكير في تحمل تبعاته، إذ أنتقلنا من مرحلة الخطاب الزائف إلى مرحلة الخطاب الذي يسعى إلى تزييف الوعي، بحيث أختلطت المفاهيم والمنهجية في سياقات نمطية أدت إلى إفراز معطيات أصبحت من التقاليد اليومية للخطاب الإعلامي، ومن هذه المعطيات.[536]

1- أن العرب يتناولون الإعلام في سياقه السياسي أكثر مما يتناولونه في سياقه الحضاري سواء أكان ذلك على الصعيد الوطني أو القومي أو الدولي.

2- الإعلام العربي الداخلي ليست له في البلدان العربية تقاليد سوى قاعدة واحدة

---

(536) د.بس خضير البياتي، يورانيوم الاعلام، حروب الاعصاب بالتقنيات الرقمية، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، 2008، ص125

مطلقة، وهي ذات شقين النظر إلى المواطن العربي على أنه غير جدير بالثقة والنظر إلى رجل الإعلام أنه أداة للتصفيق الحاد.

3 - الإعلام العربي ما يزال في مجموعه يرى في الإعلام الخارجي أمتداداً للإعلام الداخلي، وما تزال جميع صور الإعلام تخضع لمنطق واحد أساسه منطق الإتصال الداخلي.

4 - الإعلام العربي سلطوي التوجه والتعبير ويفتقر إلى المشاركة الجماهيرية في صنع القرار الإعلامي.

5 - الإعلام العربي يتمركز في العاصمة والمدن الكبرى، فحينما تكون السلطة تكون وسائل الإعلام، لذلك فالإعلام العربي حضري ولا يشبع رغبات وأذواق واحتياجات أهل الريف الذين يشكلون الأكثرية في المجتمع العربي.

والإعلام الالكتروني الجديد والبديل فضلا عن مواقع التواصل الاجتماعي والفضائيات وبدلاً من أن يلعبوا الدور الأساس كوسائل إتصال حضارية. كانوا وأصبحوا من السهولة إستخدامهم كأداة صراع في حروب الفضاء ولأغراض سلطوية في معظم الحالات، وكتكريس لخطاب إعلامي يشوبه الكثير من المغالطات المهنية، إذ دأب الإعلام العربي إلى أتباع أساليب عديدة في إبراز خطابه الإعلامي متبعاً عدة أساليب في تغطيته لبعض الوقائع، ويراد منه حرف وتحويل المعلومات عن مؤداها الطبيعي ومسارها الحقيقي بغرض التأثير على الرأي العام الذي لا يتحقق بسير المعلومات في إتجاهها الطبيعي، وتلجأ بعض وسائل الإعلام إلى التحريف والتضليل ولّي أعناق المعلومات حتى تتلاءم مع الأهداف التي وضعتها الجهات الداعمة والمسيطرة والمالكة للمؤسسات الإعلامية.

الاستبداد الإعلامي والمرأة

تعتمد وسائل الإعلام على توظيف المرأة من أجل الإثارة الحسية والجنسية، وذلك من خلال الأغاني الراقصة الخارجة عن الذوق والأدب والنساء شبه عاريات، أو في أغاني الفيديو كليب المعروضة في القنوات الفضائية، أو في الصور التي تعرض على الشاشة للمذيعات اللاتي يتسابقن في عرض أجسادهن في مشاهد تكرس حالة التعري والإغراء، فالفضائيات تقدم المرأة هدفاً لإستثارة الإيحاءات الجنسية، وهو

ما يؤدي إلى إحتقار المرأة والنظر إليها كشيء منحط يستخدم للذة فقط، وكثيراً ما هوجمت وكالات الإعلان (والشركات التي توظفها) بسبب الطريقة التي من خلالها تصور المرأة في الإعلانات المطبوعة والإعلانات التجارية، عدد هائل من العارضات التي براهن في الإعلانات اللأمعة في المجلات وعلى صفحات الجرائد هي عيناب مادية غير عادية يظهرن كما لو أنهن فاقدات للشهية أو على وشك ذلك، صور تلك العارضات تعطي فكرة للنساء الأخريات أنهن يجب أن يكن نحيلات إذا أردن أن يكن براقات وجميلات، كذلك تقدم هؤلاء العارضات فكرة أن النساء يجب أن يعرفن أنفسهن ككائنات جنسية يحدق فيهن ويشتهيهن الرجال، لا كأفراد نشيطات وقويات، وكثيرا ما تصور المرأة في النصوص السردية بوصفها ضحية تنقذ من قبل الأبطال الذكور، إذ أن إدخال إيديولوجية معينة تتجلى في صورة المرأة في الإعلام، إذ ما يزال الإعلام العربي على الرغم من التطور التقني يقدم المرأة بصورتها التقليدية النمطية، أو بالصورة المعَلبة للنموذج الغربي لمفهوم الموديل، وهو ما يجعلها وسيلة للجذب الجنسي ولتشجيع وزيادة الإستهلاك، على إعتبار أن نموذج المرأة الحديثة هو نموذج المرأة المستهلكة، ولأن هذه الصورة التي تبثها بشكل مكثف وسائل الإعلام العربية، وبحكم وقع الصورة المؤثر في زمن الصورة، تدفع المرأة ذاتها إلى تبني الصورة السلبية عن نفسها والتماهي مع هذه الصورة للظهور بمظهر المرأة الحديثة من الزاوية الشكلية، إذ تنطوي المادة المقدمة من قبل القنوات الفضائية العربية على حيز ضخم من جوانب الإثارة الجنسية سواء في شكلها المستتر البسيط، أو في شكلها المباشر الفج، وفي هذا السياق يمكن القول بأن جسد المرأة يمثل الجانب الرئيس من المادة المعروضة في العديد من هذه القنوات الفضائية بشكل عام، وفي القنوات التي ترتكز أنشطتها على الجوانب الترفيهية بشك خاص، وعلى حد تعبير المنظر الفرنسي الأشهر جان بودريار إن العري المقدم في وسائل الإعلام التي تتحكم بها أو تلهمها الرأسمالية الجديدة هو نتاج ثقافة إعلامية تعتمد على النجوم العاطلين من الموهبة إلا موهبة التعري، وهو نتاج ثقافة تحفل بما هو شعبي جماهيري ومثير ومتعَلق بالجسد، كما أنه هو نتاج ثقافة تميع الفواصل ما بين العام والخاص، فالعري الذي كان شأناً خاصاً أصبح شأناً عاماً بشيوع الوسائط الإعلامية الجديدة

والقدرة غير المسبوقة على النشر والسباق غير المسبوق على النجومية.[537]

وتتعرض المرأة لمظاهر عنف متعددة عبر وسائل الإعلام المختلفة، وتشمل مظاهر عنف الإعلام ضد المرأة شواهد متعددة أخرى، فالصورة الإعلانية وعدد من النشرات الإخبارية تعتمد المرأة بوصفها جسداً، أو سلعة وليست مضموناً، أو أداة في نقل الرسالة، واستخدام المرأة بهذا الشكل «المزخرف» عنف لساني ضمني يمس كرامة المرأة من جهة ويشوه الحقائق أمام المتلقي الذي قد ينجذب إلى الشكل دون المضمون، فيبدو الأمر وكأن هذه الوسيلة تريد أن تسوق خدماتها وسلعها عبر جسد المرأة «المزين» وقيمياً، فأن التعلق بهذه الصورة يبعد الفرد عن القيمة ويشغله عن دوره ومكانته الحقيقية في الأسرة والمجتمع، ناهيك بما يترسب في «لا وعي» الفرد من «خيال مقهور» على النحو الذي تحدث عنه علماء النفس، وتشمل هذه الأساليب ما يعرض من أفلام العنف والجنس والمسلسلات التي تنقل معاني القوة والبذخ واستعراض الجسد وطول الحديث وتمجيد «النجوم» السينمائيين...الخ وهو الوضع الذي يشغل حتى المجتمعات خارج المنطقة العربية والإسلامية، لما له من تأثير سلبي واضح في الثقافة والذوق والسلوك، ويضاف إلى هذه الأساليب اللغوية المباشرة وغير المباشرة، إدخال العامية في لغة بعض هذه الوسائل بما في ذلك لغة الصحافة المكتوبة، فإدخال العامية وإن كان على نطاق محدود يعد إفساداً لسانياً على مستوى قواعد النحو، وضوابط الأصوات، وهو مقدمة لإفساد البنية القيمية للغة نظراً للترابط القائم بين القواعد والقيم.[538]

تصوير المرأة بانها الذات المستهلكة: وهنا فأن نظرية السوق مبنية على العرض والطلب وهذا ما حدث فعلاً أمام تزايد ضخ وسائل الإعلام المختلفة التي تظهر كنبت عشوائي بين الحين والآخر، إذ المرأة لعبت دوراً كبيراً فيها إذ إن هذه الوسائل استطاعت في وقت قصير أن تدخل إلى بيوتنا بل إلى غرفتنا وتجالسنا دون إذن مسبق وهي ليست واحدة أو اثنتين بل عشرات الأوجه والتخصصات وتتفنن في جذب

(537) د.محمد حسام الدين إسماعيل، الصورة والجسد، دراسات نقدية في الإعلام المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008ص 198

(538) د.عبد الرحمن عزي، ومجموعة باحثين، اللسان العربي وإشكالية التلقي، سلسلة كتب المستقبل العربي(55) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2011ص27-28

المشاهد بأية وسيلة، إذ أن الإعلانات فيها تحدثنا عن منتوج يتحرك خارج كل المدارات الثقافية التي ترسم حدودها الصريحة والضمنية الذات المستهلكة المحلية، فالمنتوج عندها ليس حالة وعي، وليس تعبيراً عن ميل من الميولات المحددة للأهواء ولنظرة الذات لنفسها وللآخرين، ولن يكون بطبيعة الحال مستودعاً للقيم أو خزاناً للمفاهيم، إنه يعكس حالة الهجاة الفكرية والحضارية التي نعيشها: جزر حداثية تعيش منغلقة على نفسها على شكل زوايا أو طوائف دينية، ومحيطات من التخلف تدوس على كل مظاهر الجمال بلا رحمة ولا شفقة، وصورة المرأة في وسائل الإعلام هي صور سلبية وإيجابية، سلبية تقليدية لا تتصل دائما، كما يحيل إلى البعض، بإستغلال جسدها وبأدوارها المختلفة بل، بمداركها العقلية وقدراتها الذهنية وأخلاقها.

أوجه الاستبداد في النظرية الفرعونية

أولا-إستبداد فرعون بالرأي:

إستبداد فرعون برأيه أدى إلى إضلال القوم وإهلاكهم إذ قال فرعون **(ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)** عكست عبارة فرعون ملخصا لأسلوب الطغاة ومنطق المستبدين في الارض، في كل زمان ومكان، وكان اخطر ما فعله فرعون –في مملكة الظلام- أنه ابتدع في الطغيان وابتكر وتفنن، ووفق معطيات استبداده وكالآتي:

1 - في مقام "الاستبداد" كلمات: إستعباد، وإعتساف، وتسلط، وتحكم، ويستعملون في مقام صفة "مستبد" كلمات: جبار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق، ويستعملون في مقام وصف الرعية "المستبد عليهم" كلمات: أسرى، ومستصغرين، وبؤساء ومستنبتين» وتلك العبارات تنطبق تماما على الإعلام.

2 - الاستبداد: أوجه الاستبداد: أشد أنواع الاستبداد وطئا على الجمهور لأنه يجمد آرائهم ويجعلهم مذعنين لتفكير قاصر لشخص معين أو هيئة معينة، كما يجعل مختلف الآراء ذائبة في رأي واحد، فيؤثر بشكل متطرف على توجهات الأفراد، بالاستعانة بطرق مختلفة قصد قتل روح المشاركة والمبادرة، والأفكار البناءة، وهو ما برز في التناول الإعلامي ووسائله.

3 - الاستبداد بالرأي: وإن كان في الظاهر أن فرعون يقدم النصح لقومه في هذا المقام وأن رأيه صائب حسب زعمه، إلّا أن هذا المنطق الفرعوني اتسم بكونه استبدادا مطلقا بالرأي كيف لا وقد نصب نفسه إلهً! وكيف يعقل -حسب نظريته الاستبدادية- لإله مثله أن يتقبل رأي الآخر! أو حتى يسمح لمن حوله من الجمهور إبداء آرائهم، فالمستبد يفرض نفسه على الناس بقهرهم على ما يريد، فيصبحون ذائبين في شخصيته لتتجسد مقولة "أنا الجمهور والجمهور أنا" فهو يتصور -وهما وغرورا- أن كلّ ما يقوله ويفعله صوابا لا شبهة فيه ولا ريبة، وهي ذات المعاني التي يروّجها كل مستبد، فكلّ ما يفعلونه حكمة بالغة ومصلحة سابغة! بينما نلاحظ إنتشار الفقر والمرض والجوع والمحسوبية والرشوة والتأخر العلمي والاقتصادي، ومع هذا فإن الزعيم يهدي ولا يُضلّ!. وهو ما تجتره وسائل الإعلام في خطابها لإحاطة المستبد نحو انتشار خطاب المدح وأضفاء صفات الالوهية له.

4 - أن ادّعى الألوهية لنفسه وهذه قمة الاستبداد في الرأي وصلت إلى حد الخروج عن المألوف، فحبه للسلطة الدنيوية، جعلته ينحو إتجاهها نحو التأليه، وذلك للإبقاء على مصالحه، فالتأليه يضعه في مركز الأمر والنهي بلا حدود، ومن خلاله يستطيع تنفيذ أهدافه في السلطة المطلقة، وإذ رسخت وسائل الإعلام ذلك التاليه محاولة تزييف الوعي وتضليله بحجج مختلفة لأغراض السيطرة وفرض الاستبداد.

5 - وجود رعية حمقاء لها القابلية لتقبل رأيه المستبد، والتفاعل معه مما حفزه على التمادي في رأيه وتزيينه لهم، فصور لهم أن ما يقوله هو الصواب وما يشير لهم به هو الحق رغم أنه باطل، إذ إن المذلّة والانقياد كاسران لصورة العصبية وشدّتها فإنّ انقيادهم ومذلّتهم دليل على فقدانها، فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة بالحقوق والاصلاحات خاصة وان وسائل الإعلام ساهمت في قيادة المتلقي نحو صور مرعبة ومشوهة عن واقعه ليتقبل الاقل عنفا وإذلال لقبول رأي السلطة المستبدة أومن يقودها.

6 - ترك المجتمع متنافر متناحر فيما بينه كي يترك له المجال لتجسيد أفكاره الاستبدادية دون أن يتوحدوا ضده، إذ حرضت وسائل الإعلام على العنف بخطاب ناري وبتفعيل خطاب التحريض والكراهية على الآخر المختلف عقائديا أم قوميا، عن طريق التناحر والتلاسن والتشاتم وأبلسة الخصم وشيطنته.

ثانيا-استبداد فرعون برأيه أدى إلى إضلال القوم وإهلاكهم:

1 - إضلال القوم: إن صور الإضلال متعددة والوسائل المستخدمة فيها كثيرة فهي تحاصر الإنسان في كل زمان ومكان، منذ ان بدأت الإنسانية بابتكار وسيلة اتصال معرفية وتواصلية فيما بينها.

2 - العنف الكلامي والإلزام بمنطق القوة: على أنه منطق الحق، في أحابيل الإغراء، والكذب والرياء، في اختلاق الاشاعات والدعايات المغرضة عبر مختلف وسائل الإعلام، في الخداع والتمويه والتعمية وسائر أنواع التمظهرات والتكيّف، في تبريرات المسؤولين ووعود القادة الانتهازية والنفعية المستترة بالخير العام والإصلاح ومحاربة الفساد، والداعية إلى غد أفضل، في كل ما يخطط لاجتذاب الناس وسوقهم عشوائيا وآليا تنفيذا لغايات ومآرب ومصالح، كلها وسائل وطرق تستخدم لتنويم عقول الناس والتلاعب بها ومراوغتها، حتى ما إذا استيقظت من غفلتها تحصد مظاهر الندم والحسرة بعد فوات الأوان.

3 - تشكيل فرعون مشهدا للضلال، بإتباعه لشتى الطرق والوسائل الممكنة في ذلك، خاصة في ترويجه لفكرة أنه إله يعبد من دون الله، ورغم الحجج والبراهين التي عرضها أمامه موسى عليه السلام إلّا أنه تمادى في كذبه وتزييف الحقائق المؤدية إلى سبيل الرشاد الحقيقي، وهو ما تعمل به الأخبار المزيفة في وسائل الإعلام المختلفة عن مختلف موضوعات الحياة.

4 - إن الاستبداد بالرأي كثيرا ما تكون له عواقب وخيمة على صاحبه وعلى الأشخاص الذين يحيطون به، واتضح من خلال السياسة التي انتهجها فرعون في فرض رأيه أن كانت لها نتائج كارثيه عليه وعلى قومه، فالتحريض والعنف في وسائل الإعلام أحد أبرز ما تتعرض له مجتمعاتنا من إرهاب.

5 - استوجب استبداد فرعون برأيه أن أدلى بنفسه وقومه إلى سبل اللعنة والهلاك في الدنيا والآخرة، وهو ما يقع في عصمة وسائل الإعلام وخصة الالكترونية.

6 - الرشد إلى الضلال، ولم يدلوا الخلق إلا على المحال، وما حصلوا إلا على سوء الحال، وما ذاقوا إلا خزي الوبال، أفاضوا على متبعهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا في خسة مطلوبهم، فشأن الإمام أن يقدم النصح في الرأي للناس ويدلهم للطريق الصحيح، أما في هذا المقام فإن فرعون وملئه في هذه الدنيا كانوا أئمة و رؤساء يدعون إلى الشرك والضلال فاتبعوا فيها خزيا، وهم يوم لقيامة من المبعدين.

7 - إن مشاركة الرأي بين الحكام والجماهير تعد من «الأساليب المهمة في النهوض بالمجتمعات وازدهارها، ونشر وعي المصير المشترك، وكيفية مواجهة التحديات المختلفة، وإعطاء دفعة قوية للجماهير للوقوف إلى جانب الحاكم الذي يرى في رأيهم سدادا لرأيه، وأنه جزء منهم لا هم جزء منه، فيجدون في ظل حكمه الأمن والأمان، والقوة والازدهار.

8 - فكان له فكر قاصر ونظرة قاصرة، فلم يأخذ لا بالنصح ولا بالمشورة بل أستبد وأستعلى برأيه وأستعبد قومه، ونصّب نفسه إله يعبد من دون الله وجحد رسالة ربه وظلم رسوله، فهلك وهلك معه قومه، وهلكت معه عقولهم وأبدانهم.

9 - ومن المهم أن تكون الرعية عارفة ومتعلمة كي تشارك الحكام وصناع القرار الرأي، فإن كانوا هؤلاء مخطئين أو جاهلين أو متعصبين يقوم الجمهور بتصحيح مواقفهم وتوجيهها إلى الطريق السوي، وإن كان الجمهور جاهلا فيزيد رأي الحكام وصناع القرار تعصبا أو جهلا وضلالا، مما يشكل خطرا عليهم وعلى ثقافتهم المجتمعية وحاضرهم ومستقبلهم، لذلك نؤكد على مسألة المعرفة والعلم في صناعة الرأي الصائب وتدعيمه، أو محاولة تقويم الرأي المستبد أو تجنبه وإزالته، من خلال تسويقه في وسائل الإعلام.

ثالثا-استبداد الانفراد بالسلطة والسلطان:

1 - الاستبداد بالفعل يعد هذا النوع من الاستبداد نتيجة شاذة من نتائج الحكم الظالم والعقلية المتجبرة، والتعصب الهمجي للحاكم ، وقمة الإفساد في

الأرض وظلم الرعية واستعبادها، وقد يخلف الاستبداد بالفعل آثارا سلبية في نفسية الرعية، كما قد تكون له آثار على أبدانهم وما يخلفه من إهلاك لها، أو ترك عاهات مستديمة فيها، ليجعلهم عبرة للآخرين حسب زعمه، أو يشعرهم بالاحتقار المادي والمعنوي فلا يجرؤون على مواجهته ولا حتى الوقوف أمام وجه ظلمه.

2 - يرجح أن تكون غلبة التفكير الأسود والكبرياء والتجبر في شخصية فرعون سببا قويا في إتخاذه لسياسة القمع والتقتيل فأستولى ذلك على معادن فكره حتى صار لا يرى بميزان عينه وأسودت الدنيا بأسرها في وجهه، فكان مثل كهف أضطرمت فيه نار فاسودّ جوه وحمى مستقره وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو أطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا يرى فيه صورة ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا خارج بل يصير إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق، فكذلك فعل فرعون بقومه فقد أعماه غيظ جنون ملكه عمّا أصابهم من بطشه وما خلفه من خوف وترهيب في أنفسهم.

3 - أن الفكر الفرعوني المستبد كان ناجما عن استبداد فرعون برأيه والتعصب له، وكان مكملا له فلم يكف فرعون أن يري قومه ما يرى من ضلالة وسخافة رأيه، وإنما تطاولت يده على بني إسرائيل وقهرهم وتغلّب منطقه على منطقهم وعصبيته على عصبيتهم، يقول العلامة ابن خلدون في هذا الصدد: «ذلك أن الرّئاسة لا تكون إلّا بالغلب، والغلب يكون بالعصبية، لأنّ كل عصبية منهم إذا أحسّت بغلب عصبية الرئيس لهم، أقروا بالإذعان والإتباع».

4 - عجّ التاريخ الإنساني بمثل هذا المنطق الفاسد المبني على قهر الناس وسلب أملاكهم وأرواحهم، وصار إفساد فرعون وهمجيته في الأرض مثلا يضرب ومنهجا يقتدى به، ولا زال المشهد الفرعوني يتكرر كلما ظهر منطق بشري يصبو إلى استضعاف الناس وسلب عقولهم وحقوقهم وأرواحهم، قال تعالى: وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، والأمثال هي الأشباه، والمثل: كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول، فكيف لنا أن نتصور حجم الفساد والدمار الذي خلّفه الاستبداد بكل أشكاله عبر الزمن؟ أعداد لا تحصى من الأرواح زهقت،

وعقول راجحة انتقصت، وأملاك سلبت ظلما وعدوا بغير حق وشرّد أهدها، نتيجة نزوات أشخاص أصابتهم عدوى الغطرسة الفرعونية.

5 - بعدما قام فرعون بتقسيم قومه إلى شيع وطوائف، ركّز وسائل قمعه وإرهابه لاستضعاف بنو إسرائيل، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل في ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم.

6 - الإفساد أن تأتي إلى شيء صالح في ذاته وتفسده، فكون فرعون يقتل الذكور من أطفال بني إسرائيل ويستحيي النساء فهذا فساد كبير، لماذا؟ لأن هناك شيء اسمه استبقاء الحياة، وآخر اسمه استبقاء النوع، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع، فهو يقتل الأولاد، خشية أن يناله منهم شر، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال، لأنهن ليست لهن شوكة، ولا خطر منهن على ملكه.

7 - كاد فرعون أن يهدد بقاء بنو إسرائيل ويفنيهم، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يولّون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما ويتركوا عاما، فلم تكن شفقة منهم أو رحمة وإنما خشية أن يصيروا خادمين بعدما كانوا مقربين بسبب عدم استبقاء بنو إسرائيل واستئصال جذورهم نهائيا من فوق وجه الأرض.

8 - بلغ فعل الاستبداد الفرعوني ببني إسرائيل أن حوّل ميلهم الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل، فرضخوا لمنطق فرعون بالخشية، وأصبحوا صاغرين مستضعفين، يأتمرون بأمره، ويطيعونه لا يعصونه، فكان هذا الوضع السائد دافعا قويا لأن يستأله بجهله، ويتكبر بفعله، وهذا نهج كل مستبد الرامي للسيطرة والحكم بقبضة من حديد، واستحواء الناس تحت لوائه، باستعمال التعسف والقهر بشتى الوسائل والآليات الممكنة، في حين يمثل هاجس الخوف مرآة عاكسة لأفعال كل حاكم مستبد، إذ تأتيه الرهبة والخوف من كل حدب وصوب.

9 - يصيبه الشك في فقدان حكمه، ويخشى الغدر ممن حوله، وهذا كلّه إنما يشكل نقطة ضعف وهوان بالنسبة له، فيوجه سهام شره لكل من يهدد ملكه أو يشك

في عدم ولائه، ولو كان أقرب الناس إليه.

10 - أصاب فرعون خوف وذعر عظيم، جراء هواجس فقدان عرشه، أقل ما يقال عنه أنه تخويف إلهي قذفه الله في قلبه، فاستشعر من خلاله أن ادعائه باطل وألوهيته مزيفة، فكان هذا الخوف بمثابة دفعة قوية لأن يستبد بمعله ويقدم على التنكيل بقومه.

11 - استحوذ الخوف على فرعون وأرهبه ودفعه لأن يخطط لقتل وذبح الغلمان دون رحمة أو شفقة، وإننا وإن لم نتوقع أن خطة كهذه قد تخطر ببال بني الإنسان غير أن هذا هو ما حدث بالفعل. وتحدث أمثالها بالفعل عبر الأحقاب في كثير من الأحيان، والواقع أن فرعون قد ذهب إلى أبعد من هذا حيث سوّل له شيطانه أمورا يحسبها أنها تشفي ما في نفسه من حقد وضعينة وخوف، وكراهية .

رابعا-التعذيب والتقتيل:

1 النسف والتدمير، وأعجب ما في الأمر أن هذا كلّه إنما كان لمجرد أقاويل من ألسنة المنجمين وعقب ترهات من أفواه الكهنة المنحرفين، بل كانت لمجرد رؤية منامية، تسربل بها تحت دثاره ذات ليلة ،فإذا به يصحو وفي يده خنجر يذبح به ويقتل، فلا عقل، ولا قانون، ولا حكمة، بالله..!!

2 - أصاب الناس الوهن والضعف في قلوبهم، ترجموه إلى بطش وقتل وإفساد في الأرض، وزاد هذا البطش والقمع لما أحس فرعون أن ما جاء به موسى عليه السلام هو الحق من ربه.

3 - تحصل أن الختم على القلوب والأسماع، وأن الغشاوة على الأبصار.

4 - أن الخشية دعت السحرة لأن يمتنعوا عن زورهم وبهتانهم، وأن الخوف أدى بفرعون إلى سلوك سبيل العنف والتعذيب والتقتيل ضدهم، ظانا في نفسه أن ذلك سيردعهم عن خشيتهم لله.

خامسا-الاستبداد بالخوف:

1 - أن فرعون إضافة إلى توليه زمام سلطانه، تولى من جهة أخرى زمام قيادة جنده، وهذه صفة المستبدين المستكبرين، فهم يرون أن بتولي قيادة الجيش وتسخيره

لحماية حكمهم، ومصالحهم، يدرأون عن أنفسهم أية محاولة للانقلاب أو العصيان، أو الخروج عن الطاعة، وهذا وجه آخر من أوجه ممارسة فعل الإنقياذ وبسط القوة الموهمة، وفي موضع آخر يتضح أن جيش فرعون كان يتسم بالضخامة والقوة مقارنة بالعدد الضئيل للرعية المقهورة المظلومة التي لم تستطع مواجهة جيشه الجرار، وقد أعطى فرعون للجيش وتجهيزاته أهمية بالغة لتثبيت أركان سلطانه وحمايتها، ونبع هذا الاهتمام من خوفه الشديد الذي لازمه في نفسه، والهاجس القائم على أن موسى جاء لسلب إزار سلطانه، فسارع إلى قمع أية محاولة للتمرد عليه أو الخروج عن طاعته وتكليف الجند بالمهام القذرة من قتل وتعذيب وسجن وتجسس، وغيرها ساعيا لإخضاع الأعناق وطأطأتها تحت قدميه بمنطق القوة، والقهر، لتجد الرعية نفسها مذعورة مغلوبة على أمرها، تشتكي في كل لحظة ضعفها وهوانها، والذي رسخته وسائل الإعلام المختلفة في تشكيل الاحساس بالخطر الجمعي.

2 - وقوف الأتباع والمتبوعين إلى جانب باطل فرعون: جسد الأتباع والمتبوعين دافعا آخرا لترسيخ النظرية الفرعونية الاستبدادية، وذلك بمساندة وموافقة فرعون في أفعاله وأقواله، والخضوع لمنطقه الضال، والانصياع له بالسمع لكلامه، والطاعة العمياء لأوامره، بل كان لهم دور محوري في تفاقم استكبار فرعون واستعلائه في الأرض، وتنصيب نفسه إلها يُعبد من دون الله، والخنوع له بالذل والهوان تارة، وبالعبودية تارة أخرى، وهو المشهد الذي نرصده في إعتماد السياسة على منافذ وسائل الإعلام والاستحواذ عليها لأغراض الترويج والسيطرة والتحكم بالرأي.

أوجه الاستبداد في وسائل الإعلام

تلبست وسائل الإعلام وجوها كثيرة من أوجه استبدادها بحق المتلقي ووفق المعايير الأتية:

أولا -تجاهل أو تأخير الإهتمامات الحقيقية:

إذا كانت مراعاة الإهتمامات الحقيقية للجمهور تمثل البداية الصحيحة للتنوير فأن تجاهل هذه الإهتمامات أو تأخيرها في أجندة إهتمامات الإعلام يمثل أيضاً بداية التزييف، وهذا التجاهل أو التأخير لا يتم على مستوى القضايا والمشكلات

فقط، بل يمكن أن يتعداه إلى مظاهر أخرى من شأنها أن تؤدي إلى تشويه الواقع الحقيقي وأهم هذه المظاهر:

1 - **تجاهل أو تأخير الأسباب الحقيقية للمشكلات والقضايا الأساسية:** التي يعاني منها المجتمع وتسبب حرجاً للنظام الحاكم في الوقت نفسه، حيث تقوم وسائل الإعلام بمحاولة إقناع أعضاء المجتمع بأن مشكلاتهم تنتج من أسباب أخرى غير أسبابها الحقيقية التي لا يعلنها الإعلام الرسمي أو المحايد للنظام، ومن الأمثلة على ذلك إيهام العراقيين بأن الخلافات السياسية هي سبب سوء الخدمات ونقص البنية التحتية وليس الفساد الإداري والمالي وهكذا.

2 - **تجاهل أو تأخير الإهتمام بالفئات المنتجة:** كالعمال والفلاحين الذين يمثلون الأغلبية العددية في مقابل تزايد الإهتمام بالنخبة السياسية والإجتماعية بإعتبارها مصادر معلومات وآراء وهدفاً أساسياً للتقارير الإخبارية في معظم الأحوال.

3 - **تأخير الإهتمام بنشر وتغطية الأحداث القريبة من الواقع المألوف في مقابل إعطاء قيمة إخبارية أعلى للأحداث التي تبتعد عن هذا الواقع،** ولذلك فأن الأحداث المحتمل ظهورها أكثر في وسائل الإعلام هي تلك التي تنطوي على سمات المفاجأة أو العنف أو الغرابة، ومثل هذه الأحداث غير عادية ولا تعبر عن سمات وخصائص الواقع الحقيقي.

4 - **فرض الإهتمام بسلع غير ضرورية:** حتى لو لم يكن الناس في حاجة ماسة إليها، وحتى لو كانت إحتياجاتهم الحقيقية تتعلق بأشياء مختلفة عنها، وفي سبيل ذلك تقوم شركات الإعلان-التي تعتمد على علماء وباحثين في فن الإغراء والإقناع- بإبتكار أكثر الطرق فاعلية لخلق حاجات أو رغبات مصطنعة بين الناس، وللقضاء على قدرتهم في التمييز بين ماهو ضروري وما هو غير ضروري من خلال البرامج الإعلانية الحافلة بالإثارة والعنف والجريمة والجنس الرخيص وكلها أمور تؤثر في ملكات التفكير السليم لدى البشر، فضلاً عن المادة الإعلانية نفسها تحرص-بطرق مدروسة- على تعهد عناصر الرغبة الرخيصة أو التافهة وتجاهل أي عنصر جاد في طبيعة البشر.

5 - **خلط الرأي بالمعلومات والوقائع:** تكمن خطورة خلط الرأي بالمعلومات والوقائع في أنها تضعف قدرة القارئ في التفريق بين ما هو خبر وما هو تعليق وبالتالي يمكن أن يتقبل بعض الآراء أو وجهات النظر على أنها وقائع أو حقائق.

6 - **التنكير:** يقوم الكاتب بصياغة المعلومات المتعلقة بحدث ما بصيغة المبني للمجهول، أو ما يسمى كذا، أو ما يطلق على نفسه كذا، أو المدعو فلان بن فلان، بحيث يظهر الشخص أو الجهة مدار الحديث نكرة وكأن الناس لا يعرفونها، وكأنها جهة وهمية غير واقعية وتطلق على نفسها ألقاباً لا تحق لها.

ثانيا-التهوين:

أن يبلغ الصحفي أدنى غاياته وأقرب نهاياته، إذ يحتاج القائم بالإتصال إلى التهوين والتقليل من شأن الأخطار التي تحدق بجماعته، ويوهم المتلقين بأن تلك الأخطار الكبيرة وكأنها لا تضره ولا تؤثر فيه، وله مؤشرات عديدة أهمها:

1 - **تعمد إهمال بعض الحقائق:** ويتم ذلك من خلال تأكيد جوانب معينة في الرواية الإخبارية أو الموضوع بطريقة تخدم إتجاهات محدودة أو سياسات معينة.

2 - **تعمد تحرير الخبر أو عرضه بصورة تقل عما يتناسب مع قيمته الصحفية:** إذ أن تعمد نشر الخبر وعرضه بصورة تقل عما يناسبه، وهو ما يعرف لدى الصحفيين بتعبير "دفن الخبر" وهو يعني نشره تحت عنوان صغير أو غير واضح أو غير معبر أو وضعه في صفحة داخلية أو في نهاية خبر آخر، أو دمجه في خبر أقل أهمية من أبراز الخبر الآخر وإختيار العنوان منه، وتجنب إستخدام أية وسيلة من وسائل الإبراز المعروفة أو تجنب الإشارة إلى أهم جزء في الخبر أو أهمية الشخص الذي يتناوله، أو وضع إشارة إلى ذلك في الصفحة الأولى مع إفتراض أن القيمة الصحفية للخبر تتطلب ذلك.

3 - **التحريف:** تلجأ وسائل الإعلام إلى أسلوب تحريف الواقعة أو الحدث من خلال لي بعض الحقائق المتعلقة بتلك الأحداث أو الوقائع لتحقيق غاية ما يتمناها القائم بالإتصال، لغرض تحريف خطابه الإعلامي بإتجاه ما يخدم تلك الغاية ومن يقف وراءها.

4 - **التكتيم أو التعتيم:** تعمد وسائل الإعلام إلى إخفاء المعلومات التي يؤدي نشرها إلى تعذر أو صعوبة في تحقيق أهدافها المرسومة لها، كمثل أنباء المعارك التي توقع الخسائر الفادحة في المعارك أو إخفاء أسباب بعض الأزمات السياسية التي تبرزها في خطابها الإعلامي.

5 - **الإستخفاف أو الإستغفال:** يعد الإستخفاف من أهم أسباب تجرأ وسائل الإعلام على ممارسة الدعاية وقلب الحقائق وإستخدام أساليب التضليل الإعلامي المتعددة، إذ أن المتلقين الدين يدققون في الرسائل الإعلامية ستيوصلون بمتابعة تراكمية لها مع شيء من التركيز الواعي إلى أنهم يتعرضون إلى دعاية موجهة وسيكتشفون أنهم لا يتلقون معلومات مجردة يمكن الإعتماد عليها في التحليل وبناء المواقف.

6 **التجاهل:** يحب الجمهور أن تتفاعل المؤسسات والهيئات والشخصيات مع القضايا التي يهتمون بها ويحتاجون إلى معرفة معلومات عن الجهات المتعددة ومواقفها المتلاقية والمختلفة إزاء تلك القضايا، إذ تبعث وسائل الإعلام الممارسة للتضليل الإعلامي بالأمر وتتجاهل المواقف التي يعرقل نشرها تنفيذ أهدافها الرامية للتأثير في الرأي العام بشكل معين.

ثالثا-التهويل والتضخيم:

المبالغة في تصوير الأحداث والمواقف، وهناك العديد من المؤشرات الدالة على ظاهرة التهويل في الصحافة بشكل عام والصحافة العربية بشكل خاص، إذ يسعى العدو جاهداً لخلق صورة نمطية لنفسه تجعل منه قوة خارقة عبر التهويل من قدراته العسكرية ومستوى أسلحته وتطورها، وبث الأكاذيب عن المعارك التي يخوضها الجنود في الميدان، مثل ذلك الحديث عن الأسلحة الفتاكة، وأبرز هذه المؤشرات هي:

1 - **إفتعال الإهتمام:** يعد إفتعال الإهتمام بحدث ما وإبرازه والحصول على تفاصيل تافهة حوله وأبرزها من مظاهر التهويل التي تلجأ إليه الصحافة، ومن الأمثلة على ذلك إهتمام بعض الصحف -غير الملتزمة بأصول التحرير-إهتمام مبالغاً فيه بتصريحات أو زيارات المسؤولين، فنرى الوسيلة الإعلامية وأبرزت-بإهتمام مفتعل- تصريحات المسؤول وحرصت على إختيار عناوين ضخمة منها، رغم إنه

لا يتضمن شيئاً جديداً أو خبراً لم يسبق نشره، وفي وسائل الإعلام العربية تعالج الأخبار الخاصة بشخوص جهاز الحكم ورأس الدولة بإهتمام بالغ حتى ما كان منها روتينياً أو بروتوكولياً.

2 - **إستخدام كلمات مبالغ فيها**: التي يحاول الصحفي بها إيهام القراء بأهمية ما ورد في الخبر، على الرغم من عدم صحة ذلك، إذ قالت السيدة أولبرايت"في نظر"نا" إن العقوبات (على العراق) مجدية" والضمير المتصل "نا" هنا يعني قتل وإفناء أعداد لا تحصى من المدنيين يجري سوقهم إلى الإبادة الجماعية بواسطة مجرد جملة واحدة، أن الكلمة الوحيدة القادرة على كسر القفزة إلى مثل تلك الفرصنة الجماعية هي كلمة"إنساني"، والأنسنيون إذا هم تخلوا عن الإنسانية الجماعية الكاشفة والمدروسة والهادمة للأساطير، لن يكونوا أكثر من مجرد آلات نحاسية ضاجة أو صناجات رنانة، على ما يقال، ويقودنا هذا إلى مسألة المواطنة أيضاً، وهكذا يجب أن يحصل.[539]

3 - **المبالغة في الصفات**: إن الإفراط في الوصف وإستخدام الألفاظ والكلمات الضخمة والمثيرة أو العاطفية من قبيل (نصر ساحق) (نتائج مذهلة) (يوم تاريخي غير مشهود) (خطاب تاريخي) يؤثر المصداقية بل ويشوه الحقائق، فالمبالغة في الوصف وإستخدام الكلمات الضخمة والمثيرة يطلق العنان في بعض الأحيان لخيال القارئ ويجعله يتخيل كثيراً من المعاني التي غالباً ما تزيد في حجمها عن الواقع الذي حدث بالفعل، ذلك أن الخيال حر في إنطلاقه نحو المعاني التي ترتسم في ذهن القارئ، وتلعب دوراً حساساً وبالغاً في التأثير عليه.

4 - **لفت الأنظار**:عند وقوع أحداث كبيرة تهدد تحقيق الأهداف المرسومة تلجأ وسائل الإعلام إلى أسلوب لفت الأنظار، بحيث تغير مجرى الحديث وتسلط الأضواء على متعلقات أخرى غير أصل المعلومات، لتحصر التفكير فيما يخفف من الآثار المترتبة على الأحداث الواقعة.

5 - **التخويف(الإرجاف)**: يسبق التخويف أو الإرجاف عادة العمليات العسكرية

(539) ادواردسعيد، الانسنية والنقد الديمقراطي، ترجمة:فواز طرابلسي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2005، م، س، ذ، ص104

الكبرى التي تنفذها الجيوش، كما أن التخويف مستمر بالتهديد والتلويح بإستخدام القوة لمنع فعل ما أو دفع إلى فعل ما.

6 - الكذب أو التشويه:عندما تعجز وسائل الإعلام المعادية عن تحقيق مرادها بالتأثير في الرأي العام، تلجأ إلى التشويه ونشر الأكاذيب وتلفيق الأخبار غير الحقيقية.

رابعا:الدعاية والإثارة:

1 - قلب الصورة:عند وقوع جريمة مخجلة تضر بالصورة العامة، تذهب وسائل الإعلام المعادية إلى قلب الصورة، بحيث يجعل من نفسه الضحية ويجعل من الضحية مجرم، أو يرتكب الجريمة ويرمي بها بريئاً.

2 - الإثارة: عندما يثير أمر ما إهتمام المتلقي فأنه يظل مشدوداً إلى معرفة التفاصيل والمزيد طالما يشعر بالإثارة النفسية، وتحت تأثيرها يسمع ويقرأ ويشاهد جميع المعلومات الواردة إليه، وتصاغ المعلومات بشكل تسلسلي على هيئة قصة.

3 - الإيهام والتدليس: تبث وسائل الإعلام الوهم وتدليس على المتلقين من خلال إستخدام ألفاظ تحمل معان متعددة أو تتلاعب بالألفاظ ليتوهم المتلقي بأمور غير صحيحة، ويبقى موقفها سليماً، أو تعمل على منح نفسها المصداقية، تمارس وسائل الإعلام التدليس على المتلقين وتقوم بإيهام الجمهور إنها تأتي بالأخبار من مصادرها الأصلية، بحيث يظن القارئ أو المستمع أو المشاهد أن الوسيلة الإعلامية حصلت على المعلومات من مصدرها الأصلي

4 - التخليط أو إثارة البلبلة: من أهم موانع إتخاذ المواقف الحاسمة هو ضبابية الأوضاع وإختلاط الأمور، وهذا ما تمارسه وسائل الإعلام المعادية لتحقيق مآربها، وتصنع حالة من البلبلة وخلط الأمور من خلال تضارب الأنباء ونشر المعلومات والأخبار التي يكذب بعضها بعضاً في الزمن الواحد، أو التي تكون غير مؤكدة، من خلال ممارسة الارهاب المتطرف من حلال بث كل ما يتعلق بالارهاب وما تبثه الجماعات الارهابية تعيد بثه وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة الفضائيات والمنصات الالكترونية منها.

5 - **دس السم بالعسل**: وهذه أخطر الأساليب المستخدمة في التضليل الإعلامي، إذ تمارس وسائل الإعلام دس السم بالعسل وتصنع الخبر على أسس سليمة، وتضع فيه ما نسبته 90 - 95٪ من الصدق والحقائق الدامغات بينما تدس فيما تبقى السم الزعاف.

6 - **التكرار**: من الثوابت في النظريات الإعلامية إن الإعلام يحقق نتائج إيجابية لصالح المخططات الإعلامية بجهود تراكمية يرفد بعضها بعضا، ويتأتى ذلك من خلال تكرار الرسالة الإعلامية بوسائط متعددة ووسائل مختلفة وعلى السنة شخصيات وجهات متعددة التوجهات.

7 - **الدعاية**: التعامل النفسي بقصد تغيير الرأي، الدعاية ليس لها من هدف سوى تغيير القناعة بالإنتقال من موقف التأييد إلى المعارضة أو العكس، والمسافة بين التلاعب والدعاية أو بين التضليل والإقناع تكمن أساساً في أن الجهد الأول(أي التلاعب) يخدم تضليل الجماهير وعدم إتاحة الفرصة لها للتعرف على وضعها الحقيقي ومصالحها، ونشر المعرفة بصورة سيئة ومشوهة أي تشكيل صورة زائفة في ذهن المتلقي للمعلومات وسرعان ما تتضح وتتحول إلى عامل إحباط وإنكسار، فيما يخدم الجهد الثاني (أي الدعائي الإقناعي) الجماهير من خلال ما ينسبه للكلمات والمفاهيم من مدلولات متطابقة مع الظروف الواقعية، والتي يمكن التعرف على صحتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الواقع القائم ذاته، لهذا يؤكد رجال الدعاية أن أول ما تتطلبه صياغة المعلومات الفعالة والمؤثرة في الأفراد والجماعات (الجماهير) للمعرفة التامة بوعي الجمهور كي يمكن إقناعهم بطريقة سليمة ومؤثرة ومفهومة ومقنعة.

8 - **السخرية**:من أهم أسباب الهزيمة هو الشعور النفسي بعظمة العدو، لذلك يلجأ القائم على الدعاية الممارس لسياسة التضليل الإعلامي في خطابه إلى السخرية من العدو لأن ذلك يقلل من حجم الشعور بالرهبة من العدو ويساعد في مواجهته على صعد مختلفة.

9 - **عرض الحقائق**: إن الإستمرار في التضليل الدائم، وبالأساليب المذكورة سابقا، يمكن أن يؤدي مع مرور الوقت إلى فقدان جمهور المستهدفين الثقة في الرسالة الإعلامية الواردة إليهم من الجهة القائمة بالتضليل وبذلك يفقد مصداقيته،

وبالتالي تأثيره في الرأي العام، لذلك فأنه بحاجة بين الحين والآخر إلى عرض الحقائق كما هي بدون شوائب، وطبعاً ينتقي منها ما يناسب أهدافه الموضوعة مسبقاً.

10 - **برمجة اللغة العصبية:** تعتمد هذه الركيزة على الفهم النفسي العصبي للكلمات والعبارات التي يسمعها أفراد الجمهور المستهدف، وتندرج تحتها الصورة والصوت والمكتوبات بحيث تدفعه دفعاً نحو الفهم الذي يقصد القائم على التحرير والإخراج في الوسيلة الإعلامية، وسيتأثر بأشخاص وجماعات يتعرف عليها من خلال ما تبثه وسائل الإعلام ورسالتها الإعلامية المضللة.

11 - **التسميم السياسي:** ويعني غرس القيم الجديدة بحيث تتم من خلالها إعادة تشكيل لنظام القيم السائدة فإذا بالقيم العليا القومية تتزحزح إلى مرتبة ثانية لتحل موضعها القيم الدخيلة وغير المعبرة عن التقاليد التاريخية والقومية لترتفع إلى مرتبة القيم العليا.

12 - **التزييف:** يعد التزييف مؤشراً لغياب المصداقية في الإعلام، حيث يكون الوعي الزائف تصوراً جزئياً ومشوهاً ومغلوطاً للواقع المحيط سواء كان هذا الواقع طبيعياً أو إنسانياً.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الاستكبار في وسائل الإعلام

الاستكبار في وسائل الإعلام

في روايته الشهيرة (1984) أستطاع جورج أورويل، أن يصوِّر، وبحرفية مدهشة، كيف يمكن للأنظمة الاستبدادية ذات الطابع البوليسي أن تستخدم وسائل الإعلام في تزييف الحقائق وتشويه التاريخ، بل وفي إستبداله بتاريخ آخر إن لزم الأمر، إذ أستطاعت الدولة، بوساطة وزارة الحقيقة/ الإعلام، إقناع المواطنين بشعاراتها الثلاث:(الحرب هي السلام، الجهل هو القوة، الحرية هي العبودية) وصار لماكينة الإعلام الدور الرئيس في إحكام قبضة الدولة على الشعب، وبات بمقدورها أن تجعل من مقولات على غرار ديكتاتورية الحزب، والمطالبة بالسلام وحرية الرأي والتعبير، مصدر تهديد لمن يجرؤ فقط على التفوه بها! وفي عصر بات فيه من العسير أن يحدد المرء بدقة في أي عام هو، وليس بمقدوره أن يتذكر عهداً لم تخض فيه دولته حربا مع دولة ما لا يستطيع تحديدها هي الأخرى، أضحى من الممكن تصديق أن حليف الأمس أصبح عدو اليوم والعكس، إن الحزب قادر على محو ما حدث في الماضي بالفعل، ويلتزم حرفيًا بمقولة «من يستطيع أن يسيطر على الماضي يملك المستقبل، ومن بمقدوره السيطرة على الحاضر يملك الماضي»، ومن مهام وسائل الإعلام أيضًا، تزييف اللغة وتشويه جمالها وتحويلها إلى وسيلة ذات غرض محدود، وتدمير كل ما من شأنه أن يحض يوماً على التفكير والإبداع، وإبتكار لغة جديدة، تساعد الحزب في السيطرة على الحقيقة، إن «التفكير المزدوج» يعد من أكثر مصطلحات اللغة الجديدة رواجاً، ويعني التمسك برأيين متناقضين في الوقت ذاته وتصديقهما معاً، أي أن تعرف الحقيقة لكنك لا تطلق/ تصدق سوى الأكاذيب!! ويرسم هذا المصطلح دور وسائل الإعلام في ظل النظم الشمولية، حسب رواية أورويل، الذي ربما لم يكن يدرك خلال كتابته لروايته تلك أنه يخط بيده نبوءة ما سوف تتحقق على يد وسائل الإعلام الليبرالية، على الرغم من إنها تضفي حولها هالة من الموضوعية والحياد، وتنفي عن نفسها، في الوقت ذاته، تهمة التحيز، لترسيخ الاستكبار، والذي تجسد عند فرعون وملئه في ثلاثة أشكال نذكرها:

-الاستكبار في الأرض.

-غلبة الخوف على الملك.

-تخويف القوم.

-بسط الرأي على المجتمع.

- تقسيم المجتمع إلى مجتمع طبقي.

- اللعب على ورقة الطائفية.

- إثارة العنصرية فيما بين أفراد المجتمع.

لذلك استندت السلطة السياسية في بلاد ما بين النهرين إلى مصدر إلهي، فالنظام الملكي هبط من السماء، والملك هو حاكم المدينة، وهو الكاهن الأعظم، وهو نائب الآلهة ومندوبها، ويتفاخر ملوك بابل بالأصل الملكي، ولا يفتأون يذكرون الناس باختيار الآلهة لهم، وعندما يختار الملك ابناً ليتولى الحكم بعده، يحرص على أن يعرض هذا الأختيار على الآلهة لتقره، وبعد المصادقة على الاختيار يقسم الابن يمين الولاء والخضوع والاحترام لأبيه، ليدخل بعدها إلى بيت الوراثة ويدرّب على مهام منصبه المقبل، ومع ارتقائه العرش تُجرى له احتفالات دينية، ويختار الاسم الملكي الخاص به، ويقلّد الشعارات ورمز السلطة الإلهية، من الناحية القانونية ملك بابل يعتبر وكيلاً لإله المدينة، لذا كانت الضرائب تُفرض باسم الإله، وأثناء التتويج كانت تخلع عليه الكهنة سلطته الملكية ويأخذ بيد "بعل" ويخترق شوارع المدينة في موكب مهيب وأسمى الفضائل في بلاد ما بين النهرين عامة، وبابل خاصةً هي الطاعة التامة، فالدولة تقوم على أساس الطاعة والخضوع للسلطة، فالمسألة ليست متعلِّقةً بفترة تاريخية مُعيَّنة، ولا بحيِّز من الأرض، ولا بقومٍ دون الخرين، إنما هي مجموعةٌ من الخصائص تَتجمَّع بالتَّراكُم في شعبٍ أو شعوبٍ تَنهار نفسيًّا فتَفقِد الثقة بذاتها، ولا تَقوَى على تَفعيل طاقاتها البشرية والمادية، فتخلد إلى إسلام أمرها إلى كلِّ مُتَسلِّط يفعل بها ما يشاء، سواء كان احتلالاً خارجيًّا، أم حاكمًا جائرًا، فهي كالجسم الفاقد للمناعة تَعبَث به العِلَل وتُنهِكه الأمراض، فيُحاوِل صدَّها بأدوية لا فاعليَّةَ لها فيَنتَهي به الأمر إلى الاستسلام، وربما لعن المرض والعلاج الفاشل وغفل عن حالته العامّة، وعدم أداء مختلف الأجهزة والغُدَد والأعضاء لوظائفها، فالموت هنا مسألة وقت لا محَالة، فالاشخاص الذين يرغبون بالحصول على عالم معقول ومستقر وقياسي يأخذون المظهر الاول للحدث او الشخص، ويلتصقون به، وغالبا يرافق

ذلك عناد وقائي نفسي، او يرافقه تقييد طبيعي لمخيلاتهم، إنهم لا ينغمسون –أبدا في التغالي، أو التعمق.[540]

الآلة الإعلامية ومضمون الاستكبار

كتب هتلر في «كفاحي»: القوة التي إلى حركة التيارات التاريخية الكبرى في المجال السياسي أو الديني، كانت منذ الازمنة السحيقة هي السطوة السحرية للكلمة المنطوقة وحدها، يخضع الجمهور الاكبر من الناس لسطوة الكلمة دائما، كتب هتلر ذلك بصفته متلاعبا ممارسا ومنوما مغنطيسيا، لكن الفيلسوف المعاصر من موسكوفيتشي يؤكد على الامر ذاته تقريبا في كتابه «علم الجماهير»: «المدهش وغير المفهوم في الكثير من النواحي هو سطوه الكلمات على سيكولوجيا الحشود، هذه السطوه التي لا تولد مما يقال بل من سحرها» ومن الانسان الذي ينطقها ومن الجو الذي تولد فيه، ينبغي التعامل معها كأقسام من الكلام، بل كأشكال مولودة، كبذور ذكريات، وتقريبا كمخلوقات حية.[541]، ومن هنا لنسأل: كيف تستطيع الالة الاعلامية ان تواجه المعارضة، وان تقوم بإستكبارها العالي بتشويه أية حركة إصلاحية تصبو إلى نشر الوعي لمواجهة المشكلات؟ فقد أصبح الإعلام السمة المميزة للعصر، وأضحى تأثيره في مفاصل الحياة ملموساً، يغزو العقول ويحركها، ويغير اتجاهات الأفراد ويوجههم إلى حيث يشاء، وأضحى يصنع الأحداث والأخبار ويخطو بالشعوب والدول ويتقدم بها إلى مستقبل أفضل، لذلك فأن مهمة الإعلام هي(جمع وتحليل ومعالجة البيانات، والمعلومات والصور والحقائق والرسائل، التعليمات من كافة المصادر عن الأنشطة الإستراتيجية والتأكد من مصداقيتها وصياغتها بأسلوب يتقبله المجتمع ونشرها محلياً وخارجياً، بإستخدام كافة وسائل الإعلام) تلك العملية التي يترتب عليها نشر الأخبار والمعلومات الدقيقة التي ترتكز على المصداقية والموضوعية والواقعية، ومخاطبة الجماهير والارتقاء بمستوى الرأي، بمعنى أن الإعلام منوط بتقديم المعلومات الدقيقة والصادقه والحقائق التي تساعد على إدراك ما يجرى من

---

(540) ويلسون براين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، ترجمة محمد الواكد، دارصفحات للدراسات والنشر، سوريا دمشق، 2008، ص23

(541) سيرجي قره-مورزا، التلاعب بالوعي، ص154-155

أحداث دولية وإقليمية وأبعادها الجيواستراتيجية، وتكوين تصور موضوعي وآراء صائبة في الأمور ذات الأهمية السياسية والاقتصادية والعسكرية لدى المستقبل، بحيث لا تتعارض تلك الحقائق والمعلومات مع التحديدات السياسية والعسكرية العليا، والتي ترتبط بقضايا الأمن القومي والدولة في آن واحد، فأن الإعلام هو جزء من الاتصال ، فالاتصال أعم واشمل، يمكن تعريف الإعلام بأنه تلك العملية الإعلامية التي تبدأ بمعرفة المخبر الصحفي بمعلومات ذات أهمية، أي معلومات جديدة للنشر والنقل، ثم تتوالى مراحلها، تجميع المعلومات من مصادرها ونقلها والتعاطي معها وتحريرها ثم نشرها وإطلاقها أو إرسالها عبر صحيفة أو وكالة أو إذاعة أو محطة تلفزة إلى طرف معني بها ومهتم بوثائقها.[542]

تتبع وسائل الاعلام القليل من الاضواء الوامضة على الشاشة يوحي-بوضوح ووعي- شبح الموت- اصوات غريبة ومخيفة (والتي يمكن تسميتها في اللصق الصوتي) تشق طريقها إلى الداخل والخارج لخلق وترقية الشعور بالخوف، واستخدام العديد من التقنيات المشابهة -ايضا- والتي تصادق على القدرة الهائلة لوسائل الاعلام على التلاعب بالانسان، وإنتاج خوف لا يمكن السيطرة عليه، وكذلك تجاوبات عميقة.[543]، ويرى بعض المتخصصين أن الإعلام بشكل عام ومنه الإعلام العربي لا يزال خاضع لأهواء وتطلعات الجهات المالكة أو المستفيدة او الممولة والداعمة له، التي تسعى إلى نقل وإظهار ما يخدم مصالحها حتى وأن أستدعى الأمر تزييف تلك الحقائق وفبركتها، وهو ما يكون بعيدا كل البعد عن المهنية والمصداقية التي ترفع كشعار من قبل الجميع، مؤكدين في الوقت ذاته على أن العديد من القنوات الإعلامية لا تزال تحت هيمنة السلطات ومراقبة الحكومات واستكبارها على المتلقين.

حراس السلطة وعصا الاستكبار

يؤكد كتاب (حراس السُلطة. أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية) أن ما فعله الغرب الاستكباري بالعراق شيء يستعصي على التصديق والاستيعاب، فقد أوقع

(542) سمير محمد حسين، الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام، عالم الكتب، القاهرة، 1984م ص3

(543) ويلسون براين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، ص14

أعداداً هائلة من الضحايا، وتسبب في كارثة إنسانية، ومع ذلك لا توجد لمحة من الحقيقة على شاشات التليفزيونات، فالجثث المدفونة والمحترقة تعوق بيع السيارات، وخلة الأسنان، والشركات الكبرى تعلن بوضوح أنها لن تقوم بالإعلان عن منتجاتها في البرامج التلفزيونية التي تعرض الأعمال الوحشية في العراق، بحجة أن أحداً لن يرغب في مشاهدة الإعلانات المرحة المليئة بالبهجة، بعد نشرة إخبارية تبث الحكايات المروعة في العراق، وبطبيعة الحال لم تنج وسائل الإعلام من براثن مؤسسات الدولة وأنيابها، فهي ترزح بإستمرار تحت ضغوطها، وكان مصير معارضو الحرب على العراق في الـ B.B.C، هو الاضطرار لتقديم إستقالاتهم، بعد حملة هجوم مرعبة، شنتها عليهم الحكومة البريطانية، حدث هذا قبل أن تتكفل تطورات الأحداث في العراق في إثبات صحة مواقفهم، وقد أتت ضغوط الحكومة البريطانية أكلها، فخلال إنهماك وسائل الإعلام في متابعة التقارير الصحفية، عن إجتياح القوات الأمريكية الوحشي لمدينة الفلوجة العراقية في نوفمبر 2004، كان ثمة تساؤل حول التزام إذاعة B.B.C الصمت حيال تورط القوات الأمريكية في مقتل نحو 600 شخص على الأقل، إذ إن الأمريكيين ذاتهم لم ينكروا الواقعة، وشبكة الإنترنت تمتلئ بتقارير لصحفيين مستقلين، عن وحشية القوات الأمريكية التي تبدت في قصف المستشفيات، والقبض على العاملين فيها وإطلاق الرصاص عليهم، بل وعلى المرضى، ومنع وصول الإمدادات الطبية والدم اللازم للحالات الحرجة، ونقلت التقارير شهادات مفزعة لأطباء عن قوات المرينز الأمريكية، وهي تقصف البيوت وتهاجمها، وتصوب البنادق نحو المسنين والأطفال، لكن ما الذي دفع الـ B.B.C (المحايدة) لتجاهل القصة وتكتّمها؟، لكن هناك نماذج أكثر صراحة في تحيّز الـ B.B.C، وتحدث إعلاميون بمعلومات عن تقارير التقطها مراسلو B.B.C،عن إستعمال الأمريكيين للنابالم، والقنابل العنقودية، والحارقة، والغازات السامة، لكن لم تتم إذاعتها، وقد أنكرت مديرة أخبار B.B.C أن يكون مراسل الشبكة في العراق قد أرسل تقارير عن هذه الأحداث، كما أدعت أن كبير الباحثين في منظمة مراقبة حقوق الإنسان، قد أجرى بعض التحقيقات، لكنه لم يعثر على أدلة تؤيد هذه المزاعم، وبالسؤال عن ذلك، جاءت الإجابة مشفوعة بالحيرة إزاء الإدعاءات الكاذبة من الـ B.B.C، وكان لنشر الديلي ميرور صورا تبرز

معاملة الجنود البريطانيين للسجناء في العراق، وقع الصاعقة على عدد كبير من الصحفيين والساسة في بريطانيا، إذ تولوا القيام بشجب نشر الصور، بينما أدعت القوات العسكرية البريطانية أن الصور مدمقة، وقد أتهم محرر الديلي ميرور الذي قام بنشر الصور، إتهامات بأن ما فعله يضاعف الكراهية تجاه القوات البريطانية في العراق، الأمر الذي يعد من قبيل الخيانة، وإستهدافا لمصالح البلاد، أي أكاذيب تسيئ إلى القوات الوطنية وقت الحرب، ولا يمكن الصفح عن هكذا إساءة!، وفي مثال واضح على ما يمكن للصحفيين المهنيين تجرّعه، من تهديد وإبتزاز، عندما تتفق مصالح كل من الحكومة ورجال الأعمال، ضد ما ينشرونه من حقائق، تم إعفاء بيرز مورجان محرر الديلي ميرور من منصبه بضغط من حملة الأسهم الأمريكيين. وكما لاحظ بحق جيف راندال أحد محرري B.B.C «إن هذه المؤسسات لا تضحي بمثل هذه الشخصيات البارزة في الميديا لمجرد التسلية، لكنها كذلك لا تغمض عينيها عن تصرفاتهم». كما هو حال أسلوب الأرهابيين الذين ينتمون الى (تنظيم الدولة الاسلامية) أو ما يسمى (داعش) وبأفعالهم الدموية وطرق القتل والتعذيب للصغار والكبار من رجال ونساء وأطفال، والتمثيل بجثثهم ونحرهم وحرقهم، إذ تبنت كل وسائل الإعلام عملية الترويج لطرق القتل البشعة وبثتها من خلال الفضاء العام والالكتروني، بل سارعت في تسابق حميم لنشر كل اعمال (داعش) الإجرامية الوحشية مما زرع الرعب والخوف في نفوس الناس في أي مكان وزمان.

وعليه يمكن توصيف أنواع الإعلام بإنها ثورة الإعلام، تلك ثورة حقيقية جعلت مهمة رجال الإعلام والأكاديميين صعبة للغاية، إذ دمرت نظريات إعلامية كانت شبه مقدسة، وجعلت علماء الإجتماع والإعلام وعلم النفس الإجتماعي يعيدون النظر في الكثير مما يدرسون ويدّرسون، وإذا كان الواقع التقليدي يعاني من إشكاليات إنتشار الجوع والأوبئة، وكثرة الحروب، والإستحواذ السلطوي، وطلب المناصب والسلطة، وسيادة الظلم وغلبته على مواطن الحق، وعدم تكافؤ الفرص أمام مواطني بلدان الارض، وغيرها من المشكلات والإشكاليات التي صاحبت الإنسان منذ توطن على الكرة الأرضية، فأن وسائل الإعلام بمختلف مسمياتها، رغم السمة التخيلية والمثالية لبعض مفردات خطابه الإعلامي وغياب المظهر المادي الصلب

عن كثير من مظاهره، لا يخلو أيضاً من إشكاليات تلتصق ببيئته، فتثقله وتثقل كاهل قاطنيه، وترايد خطابات الكراهية في بعض الفضائيات والتي تهدد السلم الاهلي والامني والاجتماعي، فلقد غيرت وسائل الإعلام المختلفة معادلة العملية الإتصالية، وجعلها أشبه بموكب كبير من العربات المحملة بالمعارف القابلة للفهم لتوزع من دون توقف، أشبه بصندوق الساحر، الذي تدخل فيه كل الدنيا وتخرج منه كل العجائب، وتحول الإنسان بذاته إلى صورة، كما هو الحدث صورة، والماضي صورة، وكما هو الحاضر والمستقبل صورة تتشكل، وكل ذلك ينتج علاقة قائمة على عقلانية تقاسم الادوار، نحن ننتج الصورة، والتلفزيون يحملها بضاعة توزع علينا أيضاً، أنه نوع من التماهي الإنساني الذي يحدد السلوك البشري ويشبع حاجته إلى الحرية، حرية المعرفة والتعبير وحرية أن نعرف أكثر.

- التنافس "الخفي" بين البلدان العربية على النفوذ الإعلامي في المنطقة. ويعود هذا العامل إلى بعض النزاعات "العربية العربية" التي عادة ما تجد الطريقة التي تتناول بها قناة "الجزيرة" القطرية مثلاً من جهة، وظهور قناة "العربية" السعودية كمنافسة لها من جهة أخرى.
- **إرتباط التفاعل المستمر بين النظام الإعلامي والنظام السياسي:** بعلاقات القوة بينهما، وترجع قوة النظام السياسي إلى قدرته على بلورة وإبراز الإهتمامات وتعبئة القوى الإجتماعية لأغراض الفعل السياسي، أما قوة وسائل الإعلام فقد ينكرها البعض بحجة إنها مؤسسات ثانوية تعتمد على غيرها من المؤسسات للحصول على الخبر والرأي، كما إنها مقيدة في عملياتها بالعديد من العوامل السياسية، والإقتصادية، والثقافية في المجتمع.
- **تكريس صورة الحرب التكنولوجية:** يؤكد نعوم تشومسكي أن ثمة دائماً هجوم إيديولوجي يؤدي في النهاية لخلق وحش وهمي تعقبه حملات للتخلص من هذا الوحش، والترويج لوحشية العدو لإدراك الحرب لدى الرأي العام أرتدى أساساً شكل خطاب حول "الحرب النظيفة" هذا الموضوع أستهدف مقارنة أداء المسؤولين الغربيين في قيادة العمليات العسكرية ببربرية وعنف خصم يملك الأسلحة الأكثر قتلاً وتدميراً (تهديد كيميائي وبكتيري ونووي...الخ) وبالمقابل،

تمت التغطية على صور القتل والدمار الذي مارسته قوات التحالف على العراقيين للظهور بمظهر الحريص على خوض حرب نظيفة خالية من مشاهد العنف بفضل تكنولوجيا دقيقة، روجت الدعاية الأمريكية إنها قادرة على إصابة أهدافها دون خطر الوقوع في أضرار جانبية، وأقتصرت الصور على نقل وجاهه الأسلحة عالية الجودة بعيداً عن التحقق من ضحاياها، وعبر الكاتب الأمريكي د.كاتر عن هذا الأمر بالقول: "شاهدنا صوراً عن التكنولوجيا الحربية، وإعلانات عن طائرات أنيقة، وقذائف ومعدات أخرى، مع عرض للمهام التي من المفروض أن تؤديها أثناء المعركة، بدأ الأمر كله وكأنه ليس هناك طرف ثان في الحرب، وكتب الكاتب دوعلاس كيتلز يقول: أن ما يهم وسائل الإعلام الأمريكية ويشغلها هو صورة الحرب التكنولوجية، ووصف الكاتب ج.جرنبر هذه الظاهرة بأنها:"جزء من فيلم حرب الخليج الذي أنتجته وسائل الإعلام الأمريكية، إذ بدت حرب الخليج عام 1991 حرباً للأسلحة الناعمة في غياب مشاهد الجثث والدماء عن معظم التغطية الإعلامية للمجموعات الصحفية، بعكس ما حدث مع الافعال الاحرامية للمجاميع الارهابية ضد العراق وسوريا وليبيا ومصر.

- **إدارة الخوف والقطيع التائه**:أصبحت إدارة "الخوف" علامة بارزة في الخطاب الإعلامي الغربي والعربي على حد سواء، كما هو علامة بارزة في السياسة الأمريكية مثلاً تجاه مواطنيها وتجاه العالم بأسره، وقد تجلت هذه الإدارة في حربها وإحتلالها للعراق، لدرجة أستوقفت العديد من الكتاب والمفكرين منتقدين لظاهرتها، ومحصين لأثارها وتداعياتها، فالمفكر الفرنسي بول فيريليو يتحدث عن تحول" وزارة الدفاع إلى وزارة الخوف، تتولى إدارة الخوف العام" وعن ما يسميه"ديمقراطية الإنفعال الجماعي" التي بدأت تحل محل ديمقراطية التمثيل الإنتخابي وديمقراطية الرأي، والتخويف يلعب من دون شك دوراً أساسياً في "الإنفعال الجماعي"ويتحدث نعوم تشومسكي عن مجتمع النخبة والقطيع التائه، و"مجتمع النخبة" يرى أنه يجب تخويف"القطيع التائه"لأنه إذا لم يكن مسكوناً بكل أنواع الخوف والشياصين التي تهدد بتدميره سواء في بلاده أو في الخارج، يمكن للقطيع أن يبدأ بالتفكير، الأمر الذي يهدد بخطر شديد، لأن القطيع يفتقر إلى ما يؤهله للتفكر، ولذلك لا بد من إلهائه وتحييده.

- **إطلاق شعارات بقوالب جذابة.** يشتهر الخطاب الإعلامي في وسائل الإعلام العربية والأجنبية بإطلاق شعارات ضمن قوالب جذابة وسهلة التناول والتداول، تبدو بسيطة في ظاهرها لكنها تكتسب مع التكرار ضمن أوضاع وحالات إثارة تصاحبها، قوة الفعل وتأثير الأيديولوجية فمن مبادئ الدعاية الجيدة إطلاق شعارات تضم معاني لا يملك أحد الطعن أو التشكيك فيها لأنها غالباً ما تدخل في نطاق المبادئ المتفق عليها في المجتمع، وقد وجد الشعار قوته وعرف نماءه وازدهاره في أرض الفرص المتاحة للإقتناص، تلكم هي الأسطورة الأمريكية التي كانت دوما جاهزة لإستقطاب الباحثين عن فرص حياة أفضل، وبهذه الممارسة ظهرت قوة الشعار يختزل رسالته في كلمتين أو ثلاث تحول معه الرسالة -بالتكرار- إلى رمز يستدعي كل المخزون فيه، ويذكر به سريعاً وشاملاً، فأمريكا هي "أرض الفرص" وهي "أرض الوفرة" وهي قصة النجاح المتاح لكل الناس، وفي هذا الإطار، فإن السياسة الأمريكية أعتمدت قوة الشعار ونقلته من مجال الدعوة للهجرة إلى مجالات السياسة والتجارة من نوع "معنا أو مع الإرهاب" وقد أعادت الإدارة الأمريكية توظيف قوة الشعار في كلمات مختزلة سرعان ما تتلقفها وسائل الإعلام وتساهم في الترويج لها بقصد أو بغير قصد، فشعار "محور الشر" مثلاً، وهو عبارة مركبة من كلمتين، تبدو بسيطة وعابرة، لكنها تحث على إستدعاء صورة سلبية راسخة في الذاكرة الجمعية تعيد إلى الأذهان الحرب العالمية الثانية، وما تخللها من ظهور لـ "دول المحور" المتحالفة مع ألمانيا "الهتلرية" وقتها، وتربطها بواقع حديث بعيد عن المرحلة وظروفها وملابساتها.
- **إنقسام الناس إلى معسكرين متنازعين:** أن الخطاب الإعلامي الموجه جعل الناس تنقسم معسكرين متنازعين، فما كان من الشباب إلا أن ينحازوا إلى الرمز الغوغائي الطائفي الإقصائي الذي ربما هو الذي يحميه وليس غيره.
- **تجلي حضور الأيديولوجيا في مجال الإعلام:** إذ تمثل في تحول المنتج الإعلامي ذاته إلى بضاعة تخضع لمنطق تجاري محض وهنا يتحول الإنتاج الثقافي أيضا إلى بضاعة ثقافية، إما التجلي الأخر فهو يكمن في إحتكار الثورة الإعلامية المعلوماتية، فمهما تذرع إيديولوجيو ثورة المعلومات والإتصالات بأنها ثورة تؤدي

لإقتسام ثورة المعلومات والإخبار، فأن القرائن تظهر أن تدفق المعلومات هو تدفق يتحكم فيه عقلان. الأول عقل إقتصادي يعادي النزعة النقدية ويهرع وراء تراكم رأس المال، والثاني عقل سياسي يعادي هو الآخر النزعة النقدية ويهرع وراء تأييد سيادة السلطات المؤسساتية القائمة، وهو التجلي للأيديولوجيا في حقل الإعلام فيتمثل في تقنية الإضمار التي تحبك تفاصيلها وسائل الإعلام خاصة المرئية منها حيث يتم تورية الحروب والجرائم ...الخ، والرسائل الإعلامية هي نتاج رؤى وأيديولوجيات ينطلق منها القائم بالاتصال، والمؤسسات الإعلامية أو كلاهما معاً. وإذا اتفقت توجهات القائم بالاتصال مع توجهات المؤسسة الإعلامية فإن ذلك يعزز الأثر الذي تحدثه الرسالة الإعلامية المصبوغة بمواقف الإعلاميين ومعتقداتهم.

تغليف الواقع واستكباره

يقول فولتير: «أن تقدم العقل بطيء بينما جذور الأفكار الفاسدة ضاربة في العمق» وهو ما تعد الأخبار المفبركة مشكلة كبيرة تؤرق حكومات كثيرة في العالم، فبحسب ما نشر موقع The New York Times حديثاً، فإن مديرين تنفيذيين لأشهر مواقع التواصل الاجتماعي، مثلوا أمام لجنة في الكونغرس للإجابة عن أسئلة حول استخدام منصات فايسبوك وتويتر من قبل القراصنة الروس وغيرهم بهدف نشر أخبار مفبركة هدفت إلى تشويه الانتخابات الرئاسية الأميركية الأخيرة، يقول الموقع أنه أثناء الحملة الانتخابية الأميركية في 2016، باع موقع فايسبوك إعلانات بأكثر من 100000 دولار لشركات على علاقة بالكرملين، كما باع موقع غوغل إعلانات بأكثر من 4500 دولار لحسابات مرتبطة بالحكومة الروسية. ولكن، لماذا يصدق بعض الناس الأخبار المفبركة حتى تلك التي يظهر بعد التفكير أنها غير منطقية؟ يرى تقرير The New York Times أن انحيازنا السياسي يلعب دوراً كبيراً في تصديقنا الأخبار المزيفة، فمثلاً إذا كنتم تعارضون رئيساً معيناً، فستصدقون أي خبر سلبي ينشر عنه، وإذا كنتم تكرهون ممثلاً معيناً أو مطرباً فستقومون بنشر أي خبر سيئ عنه لمجرد أن تشعروا نفسياً بأن كرهكم إياه على حق، يرى التقرير أيضاً أن بعضنا مستعد لتصديق أي خبر من دون تحقق إذا كان مَن نشره "رمزاً" بالنسبة إليه، فمثلاً

إذا كنتم تحترمون شخصية سياسية ونشرت خبراً ولو كذباً فستتعاملون معه باعتباره حقيقياً، فالمتخصصون في الإعلام يعرفون بأن وسائل الإعلام لعبت دورا مساعدا وخطرا من خلال الانتقال بين الايديولوجي واليوتيبي، هدفها تحقيق هذا الشكل من اشكال الامتصاص اللاواعي للأخر، وهكذا سعت الحكومات المتعاقبة لاستغلال المشاهد العراقي من خلال تقديم منتج إعلامي محاولة فيه اقناع المستهلك(الشعب) بصدقية المعلومة والصورة التي يروج عنها، وتمثل عملية تجاوب المستهلك مع رسالة المنتج نجاح عملية الاتصال المركبة والتي كانت ديدن الفضائيات يهدف من خلالها خلق بنية صورة إعلامية استكبارية وفق النظرية المرعونية تسعى الى:

1 تغليف الواقع الموضوعي بنوع من الواقع البديل والذي يستهدف الى جعل الفرد يسير كما يسير(الفرس او الحصان باتجاه واحد) محاطا بهالة من الوسائل الإعلامية من ايديولوجيا ويوتيبيا تسد اذني الفرس لا ينظر لا يمين ولا يسار ولا يعلق ولا يعارض فعرفنا سابقا خطابا إعلاميا تنتجه بنى حكومية وايديولوجيا تغرس جرعا من الايديولوجيات واليوتيبيات من الاعلى والاسفل هي مقدمات تكمل الخطاب الحكومي او تكمل صورة فلسفة الحكومة في مجال التربية والتعليم والثقافة والاقتصاد وغيرها.

2 ان وسائل الإعلام الحكومية والخاصة صارت مطية بيد الحزب او الحاكم او السلطة يستغلها للتعبير عن مشروعه الفكري والسياسي والثقافي.

3 - إن الخطاب الإعلامي في الفضائيات العراقية وتوجهاته واهدافه لها علاقة ارتباطية مع التمويل بل تنطلق من حجمه واهدافه ومنبعه، لان ذلك مس الانا العراقية وجرح الهوية الوطنية، حين تحول الى عامل تدمير فان الفضائيات مهما كانت مهذبة تفوح منها رائحة القصد من وراء الاسلوب المقصود الذي يتم توجيهه للمتلقي، إذ انها أغفلت الى حد كبير دور القيم والاتجاهات الثقافية والاجتماعية للعراقيين من حيث إعاقة القيم الإعلامية المتعارف عليها في نظريات الإعلام، والعجز عن استخدام المعرفة الحسية لصوغ خطابها والارتقاء بذائقة المتلقي، وحري بها وفق ذلك ان تغير معدلات الفائدة في ذلك وتحرر خطابها من غائيته كي تتمكن من كسب ثقته وتشرعن الى حد ما مصدر تمويلها.

4 - ظاهرة التضخم الإعلامي: يبين ماكلوهان أن وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أو يضطر إلى إستخدامها ستحدد طبيعة المجتمع وكيف يعالج مشاكله، وأية وسيلة أو إمتداد للإنسان، تشكل ظروفاً وتؤثرعلى الطريقة التي يفكر بها الناس ويعملون وفقا لها، وذلك لأسباب تتعلق بإرضاء ذاته وإشباع فضوله العقلي وتطلعاته الفكرية، لكن في الجانب السلبي فقد أنعكست أحداث ما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق على تغييب وتعطيل المعايير المهنية للنشر والبث الإعلامي وبروز المعايير البعيدة تماما عن الموضوعية والدقة، بل أن في بعض فترات الأزمات صاحبها تطرف كبير في إيجاد معايير أكثر تزييفا وجرأة وعلانية تقوم على الفرض والقهر على المستوى السياسي يتبعه فرض وإملاء على المستوى الإعلامي ومع الإستمرار في هذه السياسة تتحول إلى أمر عادي ويقبلها الجمهور من قبيل الإستسلام واليأس وإلى أمر مقبول عن إقتناع تام في تلقي تفسيرات هذه الأزمة أو تلك، وأستحوذت وسائل الإعلام المختلفة على إهتمام وإنتباه مشاهديها وتكاد تحاصرهم في كل مكان وفي جميع الأوقات حيث أصبح المشاهد عرضة لمضامين ما يشاهده في هذه الوسيلة الإعلامية، وعليه فأن أخبار العنف تجد لها صدى لدى المتلقين (مسألة غريزية) وقد شكل العنف اليومي في العراق مادة أساسية للوسائل الإعلامية، وغالبا ما يكون هذا العنف مادة للنشرات الإخبارية الرئيسة وبرامجها المختلفة وخاصة في الفضائيات لما لها من الخصائص والمميزات كالصورة والنقل المباشر والفوري للأحداث ووجود حاسة البصر، أي أن الوصف يكون أكثر تفصيلي مما يجعله أكثر تأثيراً في المتلقين ونسبة المشاهدة تزداد عندما يتعلق الخبر بالعنف (سيارات مفخخة، قتال، إغتيالات، إعتداء على المقدسات، معتقلين، خلافات سياسية، إتهامات)

إعلام الفضائح واستكباره

خضعت أساليب الإعلام إلى محاولة التسقيط السياسي حتى لو على حساب كرامة الإنسان وأدميته، والإفراط في التدفق المعلوماتي دون التحقق من صدقية المعلومة ومصدرها وهذه الزيادة الهائلة في المعلومات من ضعف في الإدراك وتدهور في الفهم وإشاعة الفوضى خاصة في الأزمات، تؤدي إلى إلحاق الأذى بذائقة المتلقي

ولا يقدم حلولا لمشكلاته المختلفة، وبالتالي فأن كثرة المعلومات وتنوعها أمر ضروري للمعرفة ويمكن التغلب على آثارها السلبية بالتعامل مع القدر المطلوب منها بما يضيف للإنسان وخاصة الإعلاميين مهارة القدرة على الفرز والإنتقاء، فضلاً عن إن وسائل الإعلام هي وسائل للتواصل البشري، لكننا نعاني اليوم من هجوم صور تهدم الثقافات وتحط من قدسية القيم، لدينا تقنيات متطورة، لكنها مبتذلة في مضامينها المؤسفة، تبث هاجس الجنس والعنف والسجالات السياسية، فلا بدّ من ردة فعل وإعتراض على مثل هذه الرسائل التي تجرّد الثقافة من حضارتها والإنسان من إنسانيته، ويبيّن تماماً الإنسان لذاته، هذه الأنسنة تشكل جوهر ثقافة السلام وتكرس المواطنة، ودورها يكمن في صياغة خطاب وطني حقيقيّ ينأى عن التعويم المصطنع لمنطق الثوابت الوطنيّة، فإنه دور رسالي، لأن أنسنة الإعلام أداة تفاهم تقوم على تنظيم التفاعل بين الناس، ويُكوّن في المجتمع المواقف والإتجاهات، ويُغيّر القناعات والسلوك، وهو خطاب عام كما هو التعليم والوعظ تماماً، لذا لا بد من إيضاح غياب الأنسنة الإعلامية من وسائلنا، من خلال تشخيص بعض الخلل في هذا الجانب وأبرزه:

1 - غياب الرسالة الإعلامية التي تتكيف مع طبيعة الجمهور العربي الذي يضم مختلف الأديان والقوميات والطوائف والمذاهب، مع الاحتفاظ بالثوابت والمشتركات.

2 - غياب الدافعية المهنية التي تتلاءم مع تنوع الجمهور، وحاجاته النفسية.

3 - غياب الوضوح في أهداف الرسالة وضعف وسائل إيصالها وغموضها في أغلب الرسائل أي عدم وضوح الهدف من إرسال تلك الرسائل الملغومة بين طيات نشرات الأخبار.

4 - يعبر عن مرجعيته المادية أكثر من إنتماءه المعنوي للجمهور.

5 - عدم إستطاعة الإعلام بمنتجاته أن يؤثر إعلامياً على مكونات المجتمع الأخرى دون أن يؤدي الدور عنها.

6 - فشلت في غرس الطمأنينة في نفوس الجمهور وإستبعاد القلق عنه.

7 - التعامل مع الضحايا أثناء التفجيرات كأرقام، وفشلت في أنسنة قصصهم لإيصالها للعالم.

8 - غياب وجود المهنيين ممن يتبنون إيصال الرسالة الإعلامية سواء أكانت خبراً أم حواراً أم أي فن من الفنون الصحفية المعروفة.

ومع تطور وسائل وثورة المعلومات، لم يعد الإعلام المعاصر مجرد أداة لتوصيل المعرفة وترويد الناس بالخبر والحدث، أو حتى مجرد وسيلة للترويج والترفيه والتسلية، بل يحوي ذلك كله ليصبح أداة فاعلة في صناعة الرأي العام الذي لم يعد مستقبلاً للمعلومة أو الخبر فقط، بل أصبح يتفاعل عقلياً وفكرياً وسلوكياً، إذ أن الإعلام بوسائله الحديثة وبرامجه المتنوعة إنما يصدر عن تصورات وأفكار ومبادئ تعمل على أحداث تغير مقصود في المجتمع المستهدف ليس في دائرة محددة أو مجتمع بعينه، بل يحدث ذلك على المستوى العالمي مغطياً البشرية في كل أرض وتحت أية سماء، مما جعل العالم كله كما يقول بعض المختصين قرية واحدة تعيش الحدث وتتلقى الخبر في وقت واحد وزمن مشترك عن طريق وسائل الإتصال الجماهيري المباشرة، إذ أن لوسائل الإعلام تأثيراً واضحاً على المجتمع الإنساني، حتى أصبحت هذه القضية مثار إهتمام العلماء والباحثين في مجال الممارسة الإعلامية بعد أن ثبت أن للإتصال صلة وثيقة بثقافة المجتمع، وخصوصاً مع التطورات السريعة في تقنيات وسائل الإعلام والإتصال، وظهر ذلك جلياً في مجال التعليم ومجال التبادل الإخباري ومجالات الأنشطة الإجتماعية والرياضية والتغييرات الثقافية، مما قلل من أهمية الثقافات المحلية والأقليمية، ولا شك أن لهذه الوسائل آثارها الإيجابية وآثارها السلبية، مما دفع العلماء لوضع نظريات توصل هذه الظاهرة عرفت بنظريات التأثير الإتصالي.

ولكن من أهم مرتكزات البرامج الحوارية في الفضائيات العربية التي تتحدد بـ:

1 - السخونة المتعمدة.

2 - الإعتماد على التناقض والتباين.

3 - الإنتقال من الحوار إلى الشجار.

4 - التلاسن والتلاعن والتشاتم.

وفي إطار هذه الثلاثية، يكتسب البرنامج حرارة شكلية، تروق لقطاع كبير من المتلقين، لكن المحصلة الموضوعية تفضي إلى نتائج سلبية:

1- التشويش الفكري، لأن أحدا لا يسمع أحد.

2 - نسف آداب الحوار، والتحول إلى دائرة التراشق والعراك.

3 - ضعف المحصول التراكمي وغياب الفائدة المرجوة للوعي بالقضية.

ربما لأن إثارة الفضائح هي المطلوبة لكونها ترضي نزعة اللصلصة عند الجمهور، وتجيب عن حشرية المشاهد وتجذبه أكثر من أعمال الضيف، وهذا ما يجعل العام يتداخل بالخاص، وما يكرّس الحق المطلق للصحافة بالتدخل في العلاقات والحياة الخاصة للمشاهير، من دون الأخذ بعين الإعتبار حقوق هؤلاء في الإحتفاظ بحميمياتهم، وقد بدت البرامج الحوارية وكأنها إستعراض تلفزيوني ممسرح للمشكلات الإجتماعية، الناتجة من التفاوتات الطبقية، والإختلافات الإثنية والعرقية، والتباعدات الثقافية والقيمية، ومن إستيطان الأفراد مشاعر العنف والإستبعاد والتهميش، المعبرة عن تعثر البنى السياسية والإقتصادية الحديثة في ولوج المشروع التنموي القادر على خلق مناخ من الديمقراطية المجتمعية، بحيث يحفّز المواطنين على الإستفادة من تنوعهم عبر المزيد من المشاركة الفاعلة في الإعلام الإجتماعي، إذ أن المسرحة و"الشو" قد أفرغتا الإعلام الإجتماعي من مضمونه، محولة إياه إلى إعلام ترفيهي، بقصد وضع المشاهدين في وضعية المتسلين أو المتلهين بمشكلاتهم.[544]

الاستكبار الإعلامي بين أبلسة الخصم وشيطنته

تطور أسلوب أبلسة الخصم في النزاعات الحديثة وقد كانت تكتيكاً مغريا، إذ أن ما تصنعه وسائل الإعلام ذات الأهداف المضللة حين نهدف إلى غاية ما بشأن الموقف من الأخرين هو أحداث التشويش والتداخل بين جملة من المصطلحات المحيطة بمفهوم «الإرهاب» وحشره في مضمون مصطلحي «الحرب» و«المقاومة» وفي هذا الإطار أطلقت السياسة الأمريكية وسوقت نعوتاً مختلفة تناثرت مفردات

(544)د.نهوند القادري عيسى، قراءة في ثقافة الفضائيات العربية الوقوف على تخوم التفكيك، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص292

عديدة أسهمت في إشاعة التشويش حول حقيقة مفهوم «الإرهاب» ودوافعه ونتائجه، بل مارست وسائل الإعلام الأمريكية إرهاباً فعلياً ضد مصادر الأخبار التي تحاول أن تحافظ على حياديتها في تناول الأحداث السياسية في العالم الثالث وربطت بين مفهوم «المقاومة» و«الشر» و«الإنتفاضة» و«الإرهاب»وحرب العصابات الشعبية بأعمال العنف غير المسيطر عليها وغيرها من التعبيرات التي قدمتها وسائل الإعلام الأمريكية داخل الولايات المتحدة وخارجها بهدف عرض صورة منمطة سلبية عن حركات التحرر الشعبية والمقاومة ضد الهيمنة والإحتلال ونضال الشعوب من أجل التحرر وكذلك عن علاقة العرب والمسلمين بالآخرين وبإتجاه إثارة نزعة عنصرية ضدهم.[545] مثلما تم شيطنة الجيوش العربية كما حصل مع الجيش العراقي والجيش السوري لعدة أسباب:[546]

1 - أن النقطة الأساسية في المخطط الذي ينفذ الان في المنطقة العربية هو التخلص من أي جيش قوي محيط بإسرائيل، التخلص بتدميره وإعادة تشكيله مع تغيير عقيدته(لذلك كان قرار حل الجيش أول قرار أتخذه بريمر في العراق، وكان مطلب تغيير عقيدة الجيش جوهر الصراع مع الأمريكي في لبنان).

2 - إن الجيش هو من يواجه التدخل الأجنبي إذا ما حصل.

3 - إن ثمة حديثاً كان يدور في أروقة المعارضة الوطنية كما في أروقة الموالاة، عن حل ما يأتي عبر تكفل الجيش بعملية إنتقال سلمي إلى وضع ديمقراطي للبلاد، خاصة بعد أن كانت حيادية الجيشين التونسي والمصري ضمانة عدم تدمير البلدين، أهداف تقتضي كلها أيضاً تفكيك أي وقوف شعبي وراء الجيش في أية معركة سياسية أو عسكرية، لذلك جرت الإعتداءات العنيفة على الجيش والتركيز على تشويهه بكل الوسائل والتهم، وتضخم قوته بعد المناورات التي قام بها في عام 2012، لتبرير تدميره أما بالتدخل العسكري الأجنبي، كما حصل مع الجيش العراقي، وأما بإستمرار إستهدافه من قبل الجماعات المسلحة.

---

(545) صباح ياسين، الإعلام النسق القيمي وهيمنة القوة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص64

(546) د.حياة الحويك، الفضائيات الاخبارية العربية بين عولمتين، م، س، ذ، ص485

وأضحى تعبير مثل (شيطنة) أو (تبشيع) الخصم سائداً ومنتشراً في الحملات الإعلامية ضد الخصوم المحتملين، وهو يوظف غالباً في الحملات من أجل الحرب، أو من أجل خلق أزمة ما، إذ أن "إفتراس" وسائل الإعلام للمتلقي بوسائل إكراه مقصودة تؤدي إلى إنسداد في مجرى دائرة الفعل ورد الفعل وهنا تستقر حالة العنف بإعتبارها واقعاً يصعب مقاومته ومن ثم القبول به والتعامل معه والعنف هو ليس الفعل المادي المباشر وإنما فعل الإندماج والتراضي مع الوقائع اليومية لمشاهد القتل والتدمير، كما أن جانباً سلبياً أخر قد يسود مجتمعاتنا اليوم من جراء الإدمان على الإعلام والخوف منه وهي تشكل ظاهرة عدم المغايرة أو الإنصياع والتسليم المطلق بما نقدم لنا، ولذلك حين نطلب منا الإعلام أن نصمت، فأننا نبرر ذلك الصمت بإعتباره توافقاً مع رأي الأغلبية، وحين يطلب منا أن نعارض فأنه يبرمج ضمن محراب قدسية المطالبة بالحقوق وممارسة الديمقراطية والتصدي للفساد والإنحراف والظلم، إنها فعلاً توترات ناتجة من تراكم حالة إستكبارية وإسلابية، تقود إلى خلق إرتباك معرفي عميق يعرقل حالة التوافق مع الذات البشرية، وهي الحالة التي ترعى الشعور بالإطمئنان وتدعم التعامل الإيجابي مع الواقع ومعطياته.

الكلب أذكى من ذيله

يتحدث نعوم تشومسكي عن الكيفية التي يؤبلس فيها العدو ويصنع الخوف بغية وضع الإنسان في وضع يندفع فيه للدفاع عن نفسه، فالناس لا يرون سبباً للإنخراط في مغامرات خارجية وقتل وتعذيب، ولذلك لا بدّ من جلدهم حتى يخافوا، كما فعل هتلر في الثلاثينيات مع الألمان حين زرع فيهم الخوف الخطر الداخلي والخطر الخارجي، وفي ثمانينيات القرن العشرين وما قبلها كان الروس هم مصدر التخويف الذي على الأمريكان الدفاع عن أنفسهم ضده، ولكن الروس فقدوا فاعليتهم فيما بعد ولا بدّ من أعداء جدد لضمان إستمرارية الخوف: (إنك تخيف السكان، ترهبهم، ترعبهم حتى يكونوا خائفين جدا ويجثموا خوفاً، بعدها ستحقق نصراً عظيماً على غرينادا، بنما، وبعض جيوش العالم الثالث الأخرى التي لا حول لها ولا قوة فتستطيع سحقهم قبل أن تتجشم عناء النظر اليهم، وهذا هو ما حصل فعلاً).[547]

(547) د.علي ناصر كنانة، إنتاج وإعادة إنتاج الوعي، عنصر الاستمالة والتضليل، منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص111

كثيراً ما يبدو أن وسائل الإعلام، وبفضل قوة الإعلان السياسي، هي «الذيل» الذي يهز «كلب» الحكومة(548) ولكن ان كان الذيل اذكى فأنه هو ما سيهز الكلب(549) إذ إن هذه التكنولوجيا جعلت الإنسان (بيتيا) بمعنى أن يكمن في بيته ويبيع ويشتري ويشاهد ويسمع ويمارس حياته كاملة من عرفة مكتبه في المنزل أو حتى من غرفة النوم، يطوف العالم كله وهو جالس بما سيزيد من عزلة الإنسان فيجعله في عالم غريب لا يخاطب الناس إلا عبر شبكات الويب ليضيع التعاطف الإنساني، وقد أكدت البحوث النفسية الحديثة، الأثر السلبي على ذاكرة الإنسان عند تعرضه للمعلومات المضللة، إذ أن تقديم المعلومات المضللة يسهل تصديقها والتأثر بها حين تكون ظاهرياً قابلة للتصديق، ووفق النتائج التي توصل إليها الباحثون وأبرزها:

1 - أن تأثير المعلومات المضللة يجعل إيجاد وخلق هذه المعلومات الكاذبة أمراً ميسوراً.

2 - أن أثر المعلومات المضللة هو مثال على خلق وإيجاد ذاكرة كاذبة ومضللة.

3 - إن الشخص قد يعتقد في أحداث ويعبر عنها في حين إنها لم تحصل أبداً.

وعلى مستوى الإعلام العربي تتحمل البيئة الإعلامية مسؤولية المشاركة في تشويه الواقع حيث لا يحتوي مضمونها في الغالب على ما يحتاجه الجمهور أو على ما يمكن ان يساعد في تكوين شخصية الإنسان الواعي بمشكلاته وقضاياه أو قضايا وطنه إلا في حالات إستثنائية ترى قيادة النظم الإتصالية أن من مصلحة النظام إطلاع المواطن عليها أو حثه على المشاركة فيها، وثمة تجاهل أو عدم إهتمام بالإحتياجات لفئات كثيرة من المواطنين، فهناك تهميش للقضايا والمشكلات الحيوية وانغماس في القضايا التافهة لتحويل الإنتباه وتغييب الوعي، وهناك أيضاً الإسراف المبالغ فيه في الإهتمام بالرياضة وخاصة كرة القدم، فنظم الإتصال العربية لإعتبارات شتى لا تستجيب على نحو سليم لإحتياجات شعوبها.

(548) مقولة «هز الكلب» (Wag the Dog) المقصود بها تحويل الانتباه من امر مهم الى ما هو اقل اهمية، وتأتي المقولة من المثل "الكلب اذكى من ذيله" (a dog is smarta than its tail)

(549) للمزيد انظر: آرثر اسا بيرغر، وسائل الإعلام والمجتمع، ترجمة صالح خليل أبو أصبع، عالم المعرفة الكويت، العدد 386، آذار 2012، ص 24

ولذلك فأنه لا يمكن أن يتم أي تغيير في المجتمعات في معزل عن إستخدام هذه الوسائل التي تعد الأدوات الهامة والرئيسة والمساعدة في مخاطبة الناس وشرح ونقل تلك التغييرات الجديدة التي تحدث في المجتمع وفي بنيانه ووظائفه حتى يعرف كل فرد دوره ومكانته وفقاً للتغيير الذي يطرأ، وهذا يشير إلى أن وسائل الإعلام هي أساس عملية التغيير الإجتماعي، وذلك لما يتم من خلال تلك الوسائل من عمليات تكوين الآراء وتغيير المفاهيم وأنماط السلوك وتثبيت القيم المرغوب فيها وتدعيمها، وأحتل الإعلام دوراً أساسياً في التأثير على الإنسان والأفكار والمجتمعات في كل مكان وفي كل مجال وأصبح شريكاً فعالاً في مجمل نشاطات وآفاق العمل الوطني والقومي سلباً وإيجاباً ودوره الخطير الذي لا يقتصر على النقل الفوري والسريع للأحداث وإنما يمتد أحيانا إلى التحضير لها وحشد الرأي العام المحلي والدولي وآراء بعض القضايا بنفس القدرة التي يملك بها التعتيم على غيرها، لذلك فأن تأثير وسائل الإعلام أعظم وأمكانات البناء أو الهدم المتاحة لها أكبر وأسرع وأوسع أنتشاراً وأعمق تأثيراً الأمر الذي فرض ضرورة أن يوظف الإعلام من أجل رفع المستوى الثقافي وتغيير العادات الضارة وبلورة نسق إيجابي للقيم الإجتماعية وتوجيه الإنسان نحو الإنتاج وإتاحة وسائل النمو الذاتي وربط الفرد بمشكلات مجتمعه وحماية ثقافته وتوعيته بالمتغيرات المعاصرة وتبصيره بالتحديات المحيطة به.

وسائل الاستكبار منافذ للرسائل الإعلامية

أوضح كل من الأستاذ برونو فري والأستاذ دومينيك رونر من جامعة زيورخ في سويسرا عام 2006 في بحثهما المعنون (الدم والحبر) لعبة المصلحة المشتركة بين الإرهابيين والإعلام، إذ إن الطرفين الإعلام والإرهابيين يستفيدان من الأعمال الإرهابية، فالإرهابيون يحصلون على دعاية مجانية لأعمالهم، والإعلام يستفيد مالياً لأن التقارير التي تنشر في هذا المجال تزيد من عدد قراء الجريدة وعدد مشاهدي التلفزيون، وبالتالي تزداد مبيعات الجريدة وقيمة الدعاية المنشورة عليها وزيادة قيمة الدعاية التي يبثها التلفزيون، إذ إنهما وضعا لدراسة هذا الأمر معدلات رياضية بالعوامل المؤثرة على نشر الخبر مثل الشهرة والسلطة والمال والتأثير الفكري، وهذه العوامل هي عبارة عن أهداف يراد الوصول إليها من وراء العمل الإعلامي أو العمل

الأرهابي على حد سواء، رقد تبين لهم أن الطرفين، الإعلاميون والإرهابيون لهم نفس هذه الأهداف، فالإعلام يريد الشهرة والإرهابي يريد الشهرة أيضاً، والإعلام يريد السلطة على أكبر عدد ممكن من القراء أو المشاهدين وكذلك الإرهابي يريد السلطة على أكبر بقعة ممكنة من البلد الذي يحارب فيه وعلى أكبر عدد ممكن من الناس.

وكان واضحاً من خلال مؤسسات إعلامية عربية وعالمية والتي كانت تشكل أستكبارا ملموسا في الرسالة الإعلامية كما تشكل عملاً إرهابياً منظماً، بل وأن التنظيمات الإرهابية كانت تستفيد بشكل كبير من التحشيد والترفيع الإعلامي من خلال التنسيق في نقل وسرعة الحدث ومما مكن التنظيمات من وضع أسس لعملها إستناداً للمعطيات وتقارير الإعلام، فنرى مثلا أن القاعدة كانت تنفذ عمليات نوعية وخاصة في محدودية مكان يصعب الوصول إليه والدخول عبره لنرى أن تلك المشاهد المؤلمة للعمليات الإرهابية بحق المواطنين تتناقل عبر وسائل إعلام بسرعة مذهلة مما يؤكد وجود صلة بين تلك المجاميع الإرهابية والمؤسسات الإعلامية والتي صنعت الإرهاب، إذ أن وسائل الإعلام تقوم أحياناً، بالترويج لغايات الإرهاب وإعطائه هالة إعلامية لا يستحقها في ظل الأهداف التي يراد تحقيقها من وراء العمل الإعلامي أو العمل الإرهابي بما هي شهرة وسلطة ومال، وتأثير فكري، وعليه فأن هناك علاقة غير مباشرة بين الإرهاب وبعض وسائل الإعلام كما هو حال بعض المؤسسات الإعلامية العالمية كمؤسسة البي بي سي البريطانية وغيرها، ومما يخيب الأمل أن عوامل أخرى كالصدق أو الأمانة أو الموضوعية في الطرح هي مفاهيم غابت عن الساحة في بيئة وسائل الإعلام التي تلهث وراء الأخبار التي يسهل بيعها على المتلقي (القارئ، المستمع، المشاهد) كما أن غياب الرقابة وعدم الردع وعدم وجود نص قانوني يجرم الإعلام الإرهابي أو مساندة الإعلام للتنظيمات الإرهابية، ونشر أفكارهم وعملياتهم أدى إلى تفشي ظاهرة الإعلام الإرهابي والمحرض في العالم.

إذ تبدلت الأوضاع من علاقات تبعية كانت مفروضة ومرفوضة في معظم الأحيان إلى علاقات تكامل وتعاون تحظى بالرضا والقبول، ويشير نموذج الإعتماد على وسائل الإعلام إلى أن أفراد الجمهور يعتمدون على المعلومات التي توفرها وسائل الإعلام رغبة منهم في إشباع حاجاتهم وتحقيق رغباتهم وأهدافهم في إطار وجود تفاعلات تسير في إتجاهات ثلاثة بين وسائل الإعلام وأفراد الجمهور ثم النظام

فالأفراد والجماعات، مثل النظم الإجتماعية، ينشؤون علاقات إعتماد على وسائل الإعلام (******) لأن الأفراد توجههم الأهداف، وبعض هذه الأهداف تتطلب الوصول على مصادر تسيطر عليها وسائل الإعلام الجماهيرية.[550]

الاستكبار وبنية سيادة الصراخ

يتنبأ الفنان الأمريكي كورت روي ستون (Curt Royston) بسيادة الصراخ والزعيق الأمريكي (Screen) بمفرده في العالم أجمع إذ إن ثمة جهوداً خارقة تبذل لكي يتخذ العالم صورة واحدة، ولا ريب في أن المحصلة النهائية لمثل هذا التطور ستكون في المجال الثقافي[551] فالبعض يتهم وسائل الإعلام بالمسؤولية عن إنحطاط الذوق العام والثقافة لدى الجماهير، وزيادة معدلات العنف وجنوح الأحداث، وإصابة الناس بالسطحية السياسية، وتفاقم الأزمات أكثر من المساعدة في مواجهتها...الخ، بينما يرى البعض الآخر أن لوسائل الإعلام تأثيراً في كشف المساد والإنحراف، وإنها وسيلة لحرية التعبير وثراء ثقافات الجماهير وتزويد الأفراد بالأخبار والأحداث العالمية، المساعدة في إدارة الأزمات بشكل فعال يساهم في التغلب عليها، وهكذا تظل وسائل الإعلام على الرغم من تعرضها للنقد بالايجاب أو السلب موضوع إهتمام الناس دائماً، هذا فضلاً من أن الجمهور على تنوعه، قارئاً أكان أم مشاهداً أم مستمعاً، غالباً ما يكون في حالة تفاوض مع معاني المحتويات الإعلامية المرسلة إليه، وهذا ما يغير المعاني المتوقعة لدى المنتجين، فهذه المفاوضة للمعاني من قبل الجمهور يمكن أن تتم تبعاً لمواقف ثلاثة. إما يكون الجمهور في وضعية المتقبل، أو المفاوض أو المعاكس، ومن الطبيعي أن يكون الناس العاديون بما يتمتعون به من حس وطني فطري سليم في وضعية المعاكسين إزاء أي إنتاج إعلامي يمس وجودهم وقضاياهم الوطنية الكبرى، إن عمليتي الرفض أو القبول لما نراه أو نسمعه في الإعلام تتعلق بجزء كبير منها بمعتقداتنا وتاريخنا وتجاربنا، وإلا لما كان هناك من تعرض إنتقائي لوسائل الإعلام، ومن دون تذكر إنتقائي.[552]

---

(550)

(551) هانس بيتر مارتيني، وهار الدشومان، فخ العولمة، الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة: د.عدنان عبس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص43-44

(552) د.نهوند القادري عيسى، قراءة في ثقافة الفضائيات العربية، م، س، ذ، ص103

يقول جان كلود برتران، أستاذ الأخلاقيات والآداب المهنية في المعهد الفرنسي للصحافة في باريس:«أن وضع الإعلام تحت إشراف الدولة يقود إلى التلاعب والتضليل، وهذا ما حصل في ظل الحكم الشيوعي، بينما في المقابل، قد يؤدي منح أجهزة الإعلام حرية مطلقة إلى أن يمارس صحافيون العهر الإعلامي سعيا وراء المال والنفوذ» ويرى برتران أن الطريقة الوحيدة لإلزام الصحافيين بخدمة المصلحة العامة وضمان هذا الأمر يكون بوجود ميثاق شرف أو نظام من الآداب المهنية، فضلا عن نظام ناجح من المساءلة لأصحاب أجهزة الإعلام، ويعدد برتران العقبات الحقيقية أمام قيام أنظمة مساءلة ناجحة لأصحاب وسائل الإعلام بما يأتي:

1 - **الشغف بالنفوذ**: فأصحاب الوسائل الإعلامية، وخصوصاً أصحاب الصحف والتلفزيونات، يملكون قوة تأثير في الجمهور، وهم ليسوا على إستعداد للتنازل عنها.

2 - **الغطرسة والاستكبار**: يرفض أصحاب الوسائل الإعلامية الإعتراف بأخطائهم.

3 - **الغرور والأنانية الهشة**: أصحاب وسائل الإعلام الذين أعتادوا إنتقاد الآخرين، سواء في عالم السياسة أو في عالم الأعمال، ومهاجمتهم بقسوة، يرفضون أن توجه إليهم الإنتقادات، أياً يكن نوعها، وينتفضون في وجه منتقديهم.

4 **الثمن**: غالباً ما يكون ثمن المساءلة غالياً، سواء أكان مادياً أم معنوياً.

5 - **أسطورة الموضوعية**: الموضوعية في العمل الصحفي ليست واقعاً إلا إذا أراد الصحفي أن يلتزم بها بمحض إرادته، وبدون ذلك فهي تبقى أسطورة لا تمت إلى واقع العمل الإعلامي بصلة.

6 - **تكريس ظاهرة النقاش السطحي**: إن الإعلام الفضائي بشكل عام يفتح النقاش والأبواب لإهتمام غير مسبوق بالتغيير الإجتماعي وعلى نطاق واسع، لكن بشكل سطحي، بيد أنه في الوقت نفسه يعزز من الإنشطار الرأسي الإجتماعي القائم بين رؤية دينية لتغيير الإجتماعي ترى أنه "يجب" على المجتمعات أن تنخرط في نسق التغيير الذي تعتقده، ورؤية علمانية منافسة ترى أنه "يجب" على المجتمعات أن تنخرط في رؤيتها للتغيير.

7 - **شيوع نظرة كئيبة للمجتمع**: إذ أصبحت أخبار الجريمة والعنف والفساد والكوارث ذات وزن يفوق أخباراً ذات أهمية حقيقية مثل إنتشار السلام وأعمال البناء وغيرها، وكان شيوع نظرة كئيبة للمجتمع بين أبنائه هو نتاج طبيعي لذلك، فالناس يذكرون بالفساد والشر دوماً في كل أنحاء العالم من خلال ما تذيعه وسائل الإعلام من أخبار تنشر اليأس والإحباط والكآبة، فهي لا توحي للناس أبداً بأن العالم مايزال جميلاً، به من الجمال أكثر مما به من القبح، فقد أعتاد الناس أن الأخبار تأتي بالشر أكثر مما تأتي بالخير، مما يؤدي في النهاية إلى سيادة شعور بالقلق والخوف والإغتراب عن الآخرين.

8 - **غياب الإلتزام الفاعل بمواثيق الشرف الإعلامية**: يرجع ظهور مواثيق الشرف الأخلاقية على مستوى العالم، كما تقول بعض المصادر، إلى عام 1913 بهدف تحسين الأداء الإعلامي والتحكم في وسائل الإعلام لصالح عامة الناس، وقد بذلت محاولات كثيرة من قبل منظمات غير حكومية لوضع قواعد سلوك مهني للصحفيين، واقدمها هو ما أطلق عليه بـ«قواعد الأخلاق الصحفية» أو «قانون القيم الصحفية» الذي أعتمده أول مؤتمر لصحافة عموم أمريكا عقد في واشنطن عام 1926، ففي ذلك العام أنشئ الإتحاد الدولي الأول للصحفيين، الذي أتخذ خطوات مختلفة إنشاء محكمة دولية للشرف عام 1931، وتطبيق ميثاق الشرف المهني عام 1939، وحل هذا الإتحاد بعد الحرب العالمية الثاني.

9 - **فقدان الدقة والتوازن في الرسائل الإعلامية**: وهما صفتان أساسيتان تميزان الصحافة الجيدة من السيئة، وتميزان الصحافة المحترفة مما هو موجه نحو الدعاية، وتتطلب الدقة للتحقق وعرض جميع الحقائق اللازمة لفهم حدث أو موضوع معين، حتى ولو كانت بعض الحقائق تتعارض مع معتقدات وأحاسيس جهة البث أو الموظفين لديها، التوازن، أو عدم التحيز، يتطلب عرض جميع وجهات النظر أو التفسيرات الرئيسة لحدث أو موضوع ما، بغض النظر عما إذا كان المراسل الصحفي أو المحرر أو الجمهور لا يؤيدون وجهت النظر هذه، إن هذين العنصرين "الدقة" و"التوازن" ضروريان كليهما، لكي يحصل المواطنون على صورة متكاملة وواقعية عن العالم الذي حولهم، هذا هو الغرض الأساس

للإعلام، وتعتمد الديمقراطية، التي تتطلب مشاركة فعالة من قبل مواطنين مطلعين، على أن يجعل الصحفيون المواطنين مطلعين على أهم الأحداث الدائرة، أن حذف حقائق ووجهات نظر ذات صلة من التقارير حول الموضوعات الرئيسة التي تهم الشعب تشتت النظر عن الحقيقة التي تعرضها جهة البث، وبالتالي تضلل الجمهور، والدعاية هي عكس الصحافة المحترفة هي التشتيت المتعمد للحقيقة، لكي يتوصل الجمهور إلى مفهوم خاص للأحداث والموضوعات واستنتاجات معينة حولها دون النظر لحقيقة الأمر.

10 - **إرضاء المشاهد بأية وسيلة:** وقعت بعض المحطات الفضائية العربية في فخ المحظور إخلاقياً وقيمياً، وذلك من خلال محاولاتها الساعية إلى جذب المشاهدين بأية وسيلة ممكنة، فعمدت إلى إستنساخ مجموعة من برامج اللهو والإثارة غير المألوفة والتي سبق وأن جربتها التلفزيونات الغربية في إطار برامج تسمى برامج التصوير الواقعي أو تلفزيون الواقع، فبعض القنوات العربية بدأ يتسابق على إرضاء الجمهور العربي، وبخاصة الشباب، واجتذابه بأية صورة من خلال بث المواد التي تتعارض مع التنشئة الإجتماعية العربية وبخاصة البرامج المحملة بفنون الإثارة الجنسية والغريزية والتي قد لا نجدها حتى في القنوات الأجنبية.

11 - **تكريس ظاهرة الغزو الثقافي وترسيخها:** إن المبدأ السائد في العالم هو مبدأ إباحة التدفق والتواصل بين المجتمعات، وفتح الأبواب للمعلومات والآراء، وقبول تعددية التيارات السياسية والإجتماعية، ولكن واقع الحال يؤكد أن عدداً من الدول والقوى سخرت هذا المبدأ لتحقيق الإختراق والغزو الثقافي وتشويه وعي المجتمعات، وخلخلة الشخصية الوطنية للشعوب، ونشر التقاليد الإستهلاكية، وفرض التبعية الثقافية والإقتصادية والسياسية، أي لأمركة العالم، تحت شعارات الحرية الحصول على المعلومات وحق الإتصال وحرية الرأي والتعبير وحقوق الإنسان ومبادئ الحرية والديمقراطية، وبدلاً من أن تكون هذه المبادئ وسيلة للتفاهم بين الشعوب، وتعزيز السلام والتعاون الدولي، صارت وسيلة للهيمنة والتبعية، إذ تحول الحقل الإجتماعي والثقافي لمجتمعات

الجنوب إلى ميدان خصيب لتوطين نظام كامل من القيم والرموز ونظم التفطير، مضاد للذاكرة الجماعية والقومية، هادف إلى إعادة صوغ الشخصية الإجتماعية على القوام الذي تستهدفه هذه الجراحة الثقافية الجديدة.

12 - **منبر لبث الهذيان العنصري:** ينقل الإعلام يومياً عيّنات من مضامين الإهانة والعنف ومن سلوكيات مرضية وإنحرافات وحماقات تُقترف في حق التسامح والتعايش، تحوّل فيها الإعلام السمعي البصري الدولي إلى منبر لبث الهذيان العنصري، ويتعلق الأمر بإستجواب CNN للقس الذي أراد حرق المصحف الكريم.

13 - **صناعة الوهم:** عملياً فقد حرر التلفريون كأداة ووسيلة فكرة الإعلام بأسرها من ثنائية المرسل والمتلقي وعدت الفورية تغييراً على نحو غير مسبوق في الواقع بين المصدر بإعتباره منبعاً للحدث والأفكار والمتلقي، أيضاً بإعتباره مستهدفاً وغاية، وأضحى عالم الإتصال تفجر تحت ضغط السرعة والراهنية، بل لم يعد هنالك مصدر يصنع الحدث، بل حدث الإندماج بين الحدث والإدراك الاحق، بمعنى أن عملية فك الرموز أضحت عملية حيوية دائمة التفاعل بين المصدر والمتلقي، والأخير هو ذاته المصدر، في الوقت نفسه وهكذا.

14 - **فقدان وظيفة المواطنة:** تحول الصحفي الآن شيئاً فشيئاً إلى مجرد رابط بسيط، أنه السلك الذي يؤمن الربط بين الحدث ووسيلة بثه ليس إلا، لم يعد لديه الوقت اللازم للغربلة أو للتدقيق أو المقارنة، لأن ذلك يتطلب إضاعة كبيرة للوقت وبالتالي سيسبقه زملاؤه لإذاعة الخبر، وفي هذه الحالة بالطبع سيقع عليه اللوم من قبل رؤسائه، والحال هذه ينحو النظام الإعلامي شيئاً فشيئاً نحو الإقرار بوجود إعتبارات عالية القيمة (الآنية وحشد الجمهور) وأخرى أقل قيمة، أي أقل مردودية(معايير الصدقية)، المعلومة أصبحت سلعة، إنها تفقد شيئاً فشيئاً وظيفة المواطنة.

15 - **توسيع مجال الإتهام والتشويه:** وسعت الوسائل الإعلامية الغربية مجال الإتهام والتشويه ليشمل العالم الإسلامي أيضاً الأمر الذي عزز مقولة البعض بأن العالم الغربي بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي والخطر الشيوعي بات يرى في الإسلام الخطر

الجديد الزاحف الذي يحتاج إلى الردع والمقاومة وشن هذه الحرب الإعلامية الوقائية، التي تحاول الإستناد إلى حوادث بسيطة لتجعل منها دوافع ومسببات لحربها الإعلامية الدعائية التي تتخذ أساليب ووسائل متعددة، الهدف منها تشويه الصورة العربيه وإبقاء العالم العربي في دوائر التبعيه، وخلق العداء بين الأنظمة العربية وشعوبها، والإبقاء على حالة العداء العربي، والإساءة للإسلام بإعتباره ديناً يشكل طاقة كبيرة للوجدان العربي والإسلامي.

حرب الكلمات والاستكبار تجاه المتلقي

تتخذ الحرب أشكالاً متعددة وتقاد معاركها في ساحات مختلفة وعلى مستويات عديدة منها الأفكار، والإشارات، والصور، والكلمات لكنها في النهاية تتكامل لتحقيق الأهداف المرغوبة، والكلمات المستخدمة في الحروب عادة ما تكون مسكوكة من أجل الإستهلاك الإعلامي، وترمي إلى تقليص القراءات المتعددة لمعاني الصورة، وهي بذلك تتعاضد مع الصورة بشكل تكون فيه الأدوار متكاملة، ويمكن تمييز أوجه عديدة لحرب الكلمات:[553]

1 - **حرب الكلمات «والمرجعيات،القيم- الملجأ»:** وغايتها خلق متماسك داخلي في مواجهة العدوان الخارجي، وغالباً ما تتصل هنا بمرجعية دينية أو مذهبية او طريقة عيش متأصلة.

2 - **حرب الكلمات والكذب المبرر للعنف:** من جملة هذه الأكاذيب المرتبطة بحربي الخليج الثانية والثالثة، والتي أصبح لدينا اليوم مسافة زمنية كافية لتمحيصها (إمتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل) والتي أثبتت سنوات ما بعد الإحتلال بطلانها، لكن الغرض من هذا الصنف من حرب الكلمات تبرير ضراوة الهجمات التي قد تصل أحيانا ذروة الوحشية.

3 - **حرب الكلمات والمهادنة التكتيكية:** كتحييد الإسلام كدين متسامح لا يعكس تصرفات بعض المسلمين.

---

(553) د.شهرزاد لمجد،الإعلام وادارة الازمات، دار اسامة للنشر والتوريع، عمان، الاردن، 2013، ص193

4 - **حرب الكلمات والتعابير المختزلة النافذة:** وغايتها إختزال الحقائق في صيغة تتلاءم عموماً مع إنتظار الجمهور، ويتم تركيب هذه الجمل على أساس التناقض، وأبرازه في حالة الأزمات الحادة، كما نلاحظ من خلال التعابير التي أطلقت بمناسبة أزمة ما بعد 11 سبتمبر 2001، كـ"الخير ضد الشر"، " الأخيار ضد الاشرار"، "الديمقراطية ضد الإرهاب"، "الديمقراطية ضد الدكتاتورية".

5 - **حرب الكلمات والصمت المربك:** حينما قال جورج وولكر بوش إبه، لإعتبارات أمنية وتكتيكية، لن تدلي الحكومة الأمريكية بكل الحقائق، ولن تكون شفافة بالقدر الذي يرغب فيه الصحفيون، فإن ذلك كان "حرب كلمات صامتة" وهي مقوم أساس من مقومات الحرب الإعلامية النفسية.

الاستكبار ولطخة الطين

قبل أكثر من مائة عام (1898) ترك أميل زولا الروائي الفرنسي الشهير علامته المميزة على القرن العشرين بدفاعه عن «ألفرد دريفوس» ضابط الجيش الفرنسي اليهودي الذي أتهم زوراً بالتجسس، وفي رسالته الشهيرة«انا أتهم»كتب زولا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية قائلا:(يا لها من لطخة طين على أسمك-قضية دريفوس المشينة هذه- سوف أقول الحقيقة، حيث إنني لا أريد أن أكون واحداً من المذنبين في هذه الجريمة، فشبح رجل برئ يعاني من تعذيب رهيب لجريمة لم يرتكبها، سيقض مضجعي في الليل) وقف زولا إلى جانب رجل عانى نتيجة خطأ ومن أجل بقاء الحقيقة ومن أجل فكرة إقامة دولة التسامح، ومن أجل سمعة بلده، فرنسا، وقد جعل من قضية دريفوس معلماً للرأي العام، وكان زولا هو من جعل فرنسا تنتصر، إذ صاغ زولا المعايير والأخلاقيات للكتاب والمفكرين طيلة قرن كامل، ولهذا السبب فأن على أي كاتب، أو ناقد أو صحفي أن يرى وجه زولا إذا أراد أن يفهم مهنته بوصفها شيئا أهم من مجرد كسب النقود، وبفضل زولا شعر الصحفيون النابهون، طيلة القرن الذي تلا، بأنهم ملزمون أخلاقياً بالمشاركة في السياسة بوصفها مؤشراً على الإهتمام بالمصلحة العامة، لا أداة صراع على السلطة، وشعر المفكرون بالفخر لإيمانهم بأنه أوكلت إليهم مهمة نزع القناع عن وجه المجتمع.

وفي السياق نفسه يتحدث فيلم وثائقي عن الملاكم الأمريكي محمد علي كلاي، إذ يدور هذا الحوار بين المحقق العسكري وكلاي الذي رفض الخدمة في

الجيش الأمريكي في فيتنام: ولماذا لا تريد الخدمة في الجيش؟ يضيف المحقق، ليأتيه الجواب: ولماذا تريدني أن أذهب لأقتل أناساً لم يقولوا لي يوما: أنت أسود، ولم يعاملوني بعنصرية؟ وفي كليات الإعلام تدَرس مقولة مفادها: إن حرب فيتنام قد أنتهت على شاشات التلفزيون الأمريكية قبل أن تنتهي على الأرض، فيما يعني أن ردات فعل الأمريكيين على ما كانوا يرونه على الشاشة الصغيرة هي التي جعلتهم يضغطون بإتجاه وقف الحرب، ولا شك في أن ذلك ينتقص كثيراً من حق الشعب المناضل الذي قدم التضحيات الأسطورية، ليفرض الهزيمة على القوة العظمى، لكن ما من شك في أن إبراز أمر أو إخفاء آخر يقرر توجهات الرأي العام، خاصة وأن الشرائح المستهدفة من قبل واضعي الإستراتيجيات الإعلامية، هي التي تتشكل من الذين يقفون في الوسط من الأمور الجارية، ولا يملكون بالتالي قناعات ثابتة وراسخة، كما إنهم لا يملكون المعطيات والعقلية التحليلية، أو لا يريدون إتعاب أنفسهم بها، من هنا يتسع مدى تأثير التلفزيون في خلق واقع قد يختلف عن الواقع الحقيقي، وإرسائه في ذهن المشاهد، وصولاً إلى تكوين حالة عامة وتوجه عام، التلفزيون أكثر من سواه من وسائل الإعلام، لأنه أقلها نخبوية، أكثرها وصولاً للناس بكل شرائحهم، حتى الأميين منهم.[554] فالإعلام أباح وما زال يبيح لنفسه- بأسم الجانب الترويجي من رسالته، وبفعل الجانب الإقتصادي من نشاطه -السخرية من الكثير من المقدسات الإجتماعية، وجاءت معظم هذه السخرية شديدة الفجاجة في كثير من البرامج والأعمال الدرامية العربية، واسهمت وما زالت تسهم بقوة في مزيد من إفساد مناخ التنشئة الإجتماعية للمجتمع العربي بصورة عامة، فضلاً عن الإعلانات التي تعرض ثقافة بديلة للقيم الأخلاقية الثابتة، وأمام هذا الكم من الغذاء المعنوي الفاسد اللاأخلاقي يصبح من المحال على النفوس ألا تمرض.[555]

وتتجسد صور الاستكبار بوصف فيلسوف الإعلام الكندي مارشال مكلوهان التغطية الإعلامية، بأنها هي الحرب، إذا لم تكن ثمة تغطية، لن تكون هناك

(554)د.حياة الحويك، الفضائيات الاخبارية العربية بين عولمتين، م، س، ذ، ص485 486

(555)د.الاميرة سماح فرج عبد الفتاح، الإعلام وتشكيل الاحساس بالخطر الجمعي، أزمات المجتمع المصري إنموذجا، سلسلة أطروحات الدكتوراه (106) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012، ص178

حرب، أجل، الصحفيون ورجال الإعلام من حول العالم هم المقاتلون حالياً وليسوا الجنود» وفي ذلك يقول مدير شركة إعلانية: نحن الآن «نسوق» السياسيين والرؤساء على طريقة تسويق منظفات الغسيل، والمشكلة ليست في وسائل الإعلام في حد ذاتها، ولكن المشكلة تكمن في معتقدات الكثير من الناس الذين يديرون وسائل الإعلام حول نوعية المادة التي ستكون محبوبة، هذا الأمر هو المسؤول إلى حد كبير، عن المستوى المتدني للترفيه في معظم وسائل الإعلام.[556]

حجب المعلومة عن الجمهور وعلاقته بالاستكبار

لم تكن طريقة القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية فيما يتعلق بإخفاء المعلومة عن وسائل الإعلام والجمهور أمراً حديثاً، بل إن محاولتها الاستفادة من وسائل الإعلام لتمرير سياساتها قد حدث قبل عقود، فقد استخدمت هذه الفئة من السياسيين وسائل الإعلام لنشر وإذاعة أخبار وتقارير مغلوطة أثناء الحرب الباردة وحرب الخليج الثانية، بل يمكننا القول أن القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية كانت تطبق مفهوم حجب وإخفاء المعلومة قبل تلك الحرب، وهناك العديد من الأمثلة التي تقف شاهداً على ذلك، تشير عدد من المصادر إلى أن سياسة حجب المعلومة وإخفائها كانت سياسة متبعة من الحكومة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية وذلك من خلال تقييد حرية الصحفيين، وهو ما أشار إليه بيتر آرنت المراسل الصحفي الأمريكي المعروف عندما قارن بين القيود التي تفرضها القوات الأمريكية في العراق على الصحفيين بتلك التي كانت تحدث في الحرب العالمية الثانية، ففي الحرب العالمية الثانية كانت الحكومة الأمريكية تشعر أنها تخوض حرباً من أجل أمنها وبقائها ولذا حجبت المعلومة عن الأجهزة الإعلامية، وفي هذا السياق نذكر أن الحكومتين الأمريكية والبريطانية هاجمت المؤسسات الصحفية، وبخاصة قناة الجزيرة الفضائية القطرية لعرضها صوراً لاثنين من الجنود البريطانيين المتوفيين وصوراً لاثنين آخرين وقعا كأسرى حرب، وقد عبّر رئيس الوزراء البريطاني توني بلير عن إدانته عرض هذه الصور وعبر عن الفزع من عرض مثلها.

(556) نقلا عن: آرثر آسا بيرغر، م، س، ذ، ص215

كتب شيوعي أمريكي يدعى"فيليب يونوسكي" كتاباً قبيل تفتيت الإتحاد السوفيتي عنوانه هل يعطينا مراسلونا الصحفيون في موسكو الحقائق عن الإتحاد السوفيتي؟ إذ بدأ كتابه بجملة من موسوعة جون بيكنج للفطنة والحكمة تقول: ليست المشكلة مع الناس إنهم لا يعرفون قدراً كبيراً ليس هو الحقيقة، إذ أن الفارق في مفهوم الحقيقة والقوالب الجاهزة تعوق عناصر المصداقية من التفاعل وتعطلها في الإعلام، وقد ظلت قضية مصداقية وسائل الإعلام ومعايير هذه المصداقية مثاراً للعديد من الكتابات والأبحاث التي رصدت إختفاء العديد من هذه المعايير حتى قبل إندلاع الحرب الأمريكية ضد العراق، وكان من أهم هذه المعايير غيبة الموضوعية وإنحياز وسائل الإعلام لأتجاهات بعض مصادر السلطة والنفوذ حتى داخل المجتمعات الغربية، حيث أشار «برنار جولدنبرغ» إلى أن هذا الإنحياز الذي يؤدي إلى غيبة الحقيقة قد برز ليس في وقت الحرب فحسب، بل في العديد من الممارسات الإعلامية، حيث يبرز تأثير الإنتماءات السياسية داخل غرف الأخبار، فضلاً عن النقص الشديد في التعددية الفكرية في شبكات التلفزيون.[557]

أن الاستكبار في رسائل وسائل الإعلام يرتبط بتنمية البيئة السياسية التي يقع الإعلام تحت فخ الإستعمال السياسي فيها عادة، إذ أضحت مهمة وسائل الإتصال الجماهيري، هي (بناء البيئة السياسية) وإعادة تشكيلها، إذ من دون هذه الوسائل، ما عاد أحد خارج الحلقة السياسية، يستطيع أن يطلع على الأحداث السياسية، فهناك جمع من الأحداث المتسارعة، والبنيات التي ترتكز عليها غير معروفة إلا عن طريق الوسائل التي ترسم لنا واقعاً قد مضى، وهذا قد يكون خطيرا بمقدار ما لا يمكن تصحيح تحريف الواقع وتشويهه تبعاً لأهداف الخبير الدعائي أو المخطط الإعلامي، لأن هذه الوسائل هي وحدها التي تعرفنا بهذا الواقع، ويتم بناء البيئة السياسية من خلال:[558]

1 - ظاهرة الشخصنة السياسية: هذه الظاهرة لم توجدها وسائل الإتصال الجماهيرية إلا أن هذه الوسائل قد ضخمتها إلى حد تحويلها إلى عمل أساس في التركيب السياسي، وهذا الإتجاه قد سرَعته الوسائل السمعية البصرية (فالمحادثات قرب

(557) د.هويدا مصطفى، الاعلام والازمات المعاصرة، م، س، ذ، ص151

(558) د.حميدة سميسم، نظرية الرأي العام، مدخل، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 1992، ص284

الموقد) التي كان يجريها روزفلت في الولايات المتحدة في عام 1936تمثل أنموذجاً لمدى تأثيرها في الرأي العام المدافع والمعارض لروزفلت، حيث دمغت شخصية البيئة الأمريكية بطابعها الخاص، وهذا هو جوهر ظاهرة الشخصنة السياسية في أوسع مفاهيمها.

2 - مسرحة الحياة السياسية: فالحياة السياسية التي سبقت عصر الإتصال الجماهيري، ظلت بعيدة عن التعريف، والعلاقة المباشرة مع الجماهير، ثم جاءت أدوات الإتصال الجماهيري لتجعل من نفسها "مسرحاً" تدور من خلاله أحداث الحياة السياسية، وبالتالي أستطاعت هذه الأدوات أن تغير من نمط الحياة السياسية ذاته، والوقت الذي يمضيه المسؤولون السياسيون بالحديث والمناقشة والمقابلات التلفزيونية والحوارات الساخنة، تبين إلى أي حد أضحت هذه الوسائل ذات أهمية فائقة في تعريف الجمهور بالحياة السياسية قبل عصر الإتصال الجماهيري بأي شكل من الأشكال، لأن هناك (تابو سياسي) فيما يتعلق بالدولة والسلطة وممارستها المختلفة.

3 الدور السياسي لوسائل الإتصال الجماهيري، في تغيير الصورة السياسية لحزب من الأحزاب أو لسياسي ما أو للنظام السياسي من جانب آخر، وقد لا يكون التأثير حاسماً ولكنه يظل تأثيراً محسوباً في كل الأحوال، وتسهم زيادة كمية الإعلام أو الدعاية السياسية من خلال هذه الوسائل في تحسين الصورة أو التأثير في السلوك السياسي، في أوقات الحملات الدعائية أو السياسة تجاه موقف، أو حدث ما.

4 - ظاهرة أسلوب التراشق الإعلامي والذي يكمن في إنعدام الإدراك بأن المتضرر من هذا التراشق هو البلد كله في ماضيه وحاضره ومستقبله ما لم يتدارك القائمون على وسائل الإعلام بوعي الواقع، فتشرع الأنسنة لبناء واقعنا الإعلامي بما يضع حداً للانتهاكات التي يتعرض لها المتلقي، وهي مهمة لا يمكن أن تكون لها ولادة جديدة إلا بإعادة النظر بالخطاب الإعلامي والرسالة الإتصالية، ومعاملة الجمهور بما يستحقه من إحترام، والتعامل مع كل قضية أو خبر بالإهتمام المناسب لتقديم صورة واضحة واقعية عن الأحداث مع مراعاة مشاعر ضحايا الجريمة

والحروب والكوارث وأحاسيس ذويهم والمشاهدين، وإحترام الحق في الخصوصية ومراعاة قواعد الذوق العام في إختيار المادة الفيلمية المصاحبة للأخبار، وتحديد الأسس والمعايير المنهجية للأداء المهني، لضمان الموضوعية لتعزيز ثقة المتلقي بالوسيلة الإعلامية.

إثارة الدهشة والاستكبار

لم تعد وسائل الإعلام التقليدية تثير الدهشة كما كانت في العقود السابقة، بل أن إثارة الدهشة رافقت الإعلام الالكتروني بمختلف مسمياته، بما فيه مواقع التواصل الاجتماعي بما تنشره من مواد مهمة تتعلق بحياة الشعوب والناس جميعا ومنهم المشاهير، والقادة، وفي كتاب للروائي الأمريكي جورفيال بعنوان (أسطورة حرية الصحافة) أستعرض فيه عددا من ألمع وأبرز الصحفيين الأمريكيين تجاربهم خلف الكواليس في الصحف وعلى شبكات التلفاز وعلى مر سنوات طويلة من العمل الصحفي وكلها تجارب قادرة على إثارة الدهشة التي قد تصل إلى حد الصدمة، تكشف بجلاء عن السياق الذي تحركت من خلاله «الميديا الأمريكية» في تغطية الأحداث التي وقعت في أعقاب 11 سبتمبر حيث أغرقت وسائل الإعلام أو بالأحرى غرقت في مستنقع من الأكاذيب وأنصاف الحقائق التي وظفت في خدمة الصورة السياسية التي رسمها المسؤولين في البيت الأبيض: أمة خيرة، ديمقراطية، محبة للسلام، تتعرض لهجوم مجموعة من المجانين الأشرار الحاقدين لما تتمتع به أمريكا من حرية ورخاء، وأستناداً إلى عدة دراسات فأن الميديا الجديدة التي ينصهر بها الناس هي إشارة أكثر قيمة لسلوك المستهلك من العوامل الديموغرافية، فالناس في المقام الأول يختارون المواقع بناء على المحتوى الغريب والمتفرد من فيديوات وغيرها، وهذا المحتوى هو إنعكاس لقيم ومعتقدات ومصالح جهة ما، كما يحصل مع المجاميع الارهابية وداعميها.

وفي ظل هذا التكاثر العشوائي وغير المنضبط للفضائيات العربية الحكومية والتجارية، ظهور خلل واضح في التوازن المفترض بين وظائف التلفزيون وهي التثقيف والتربية والترفيه، فالغلبة دائما للترفيه، ومع إقرارنا بأهمية الترفيه لحياة الإنسان وقدرته على إمتصاص الكثير من حالات الضغط النفسي والإحباط

والغضب الإجتماعي، إلا أن الترفيه السلبي يأتي بصورة متعمدة وشرسة في كثير من الأحيان على حساب وظيفة الثقافة التي تمنح بعضا من الوقت الميت تلفزيونيا، وعلى إستحياء وربما بنفور وإستياء من قبل مديري البرامج ورؤساء مجالس المحطات التلفزيونية، حتى أن دوائر البرمجة والتنسيق في هذه المحطات تبحث عن الأوقات الميتة غالبا لبث البرنامج الثقافي لأنه بالنسبة إليهم جاف ونخبوي، والحق أن الكثير من البرامج الثقافية العربية التلفزيونية تشكو من علة الجفاف والنخبوية والاستكبار على المتلقي، إلا أن هذه العلة نابعة من عدم القدرة أو بالأحرى إنتفاء الدافعية والتوجه إلى تقديم البرنامج الثقافي ليكون مقبولا عند المتلقي، وخاصة عندما تتحول البرامج التلفزيونية الثقافية إلى برامج إذاعية لا تتعامل مع مكونات العمل التلفزيوني الذي يجمع بين الصوت والصورة والحركة، أو إلى كتلة جامدة من الحوارات النخبوية.(559)

أن إشاعة روح الأحباط وهو إحساس نفسي بالإخفاق أو الفشل أو عدم الإستطاعة يأتي عادة من المقارنة التي يعقدها المشاهد بين واقعة وواقع الحياة الغربية كما ينقلها لهم التلفزيون المباشر والواقع الثاني الذي قد يكون في أغلبه غير حقيقي أو يغلب عليه طابع الخيال يخلق لدى البعض تطلعات غير مشروعة وآمال لا يمكن تحقيقها في ضوء قدراتهم أو قدرات بلادهم الحقيقة، ووحدها المعايير الإنسانية والإخلاقية هي السياج الذي يحمي الرسالة الإعلامية من السقوط تحت عجلات قطار المصالح والغايات الضيقة، وعندما تتلاشى أو تنهار تلك المعايير، فأن الخداع سيحل تدريجيا بل الصدقية والموضوعية، وليس هنالك من خط وهمي يمكن رسمه بين قدرة الوسيلة الإعلامية على الدقة والصدقية والتخلي عن الإستقلالية والحيادية ولذلك فأن الصرخة المدوية التي أطلقها علماء الإتصال والإعلام حول إنهيار الإعلام كرسالة أخلاقية تستند على ما قد توفر لمصادر صنع القرار السياسي من أمكانات مادية ومعلوماتية على درجة عالية من التفاعل والأحكام التي أدت إلى سلب المؤسسة الإعلامية إستقلالها وحياديتها، وبالتالي جرى إخضاعها كليا للقرار

(559) علي الشعيبي، دور رسائل الاعلام بين التثقيف والترفيه، ضمن كتاب الاعلام العربي في عصر المعلومات، مجموعة باحثين، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2006، ص165- 166

السياسي، إذ يفسر مايكل آيزنر(Michae Eisner) عملاق صناعة الإعلام ورئيس مجلس إدارة شركة والت دزني، هذا الأمر على النحو التالي."تتميز وسائل التسلية الأمريكية بالتنوع، وهي بهذا تتلاءم مع الإمكانات والخيارات وطرق التعبير الفردية المختلفة، وهذا هو في الواقع ما يرغب به الأفراد في كل مكان" ويضيف تاجر هوليود دونما إكتراث قائلاً:"وكنتيجة للحرية الواسعة المتاحة أمام كل من يريد الإبتكار، تتصف صناعة التسلية الأمريكية بأصالة لا مثيل لها في العالم أبداً" وهذه التسلية يرفضها بنجامين ر.باربير (Benjam R. Barber) مدير مركز والت وايتمان (Walt Whitman Center) في جامعة روتغيرز(Rutgers University) في ولاية نيوجيرسي تفسير آيزنر، ويصف نظريته بتنوع ما تقدمه وسائل التسلية الأمريكية بـ"الكذب والبهتان" فهذه الأسطورة تتناسى أمرين حاسمين: طريقة الإختيار وحرية الإنسان في تحديد ما هو بحاجة إليه فعلاً.[560] وهاجم أعضاء من مختلف النخب الإجتماعية والفكرية والجمالية ذوق عامة الشعب مستخدمين شتى الحجج، قد نجد بعض الهجمات مقنعة تماما، وقد تبدو غير متطرفة نوعا ما، الشيء المهم هو أن تكون على علم بما يأخذه العديد من النقاد في الإعتبار من التأثيرات السلبية المتعددة التي تأتي من إهدارنا للوقت مع وسائل الإعلام، بصفة عامة، والتلفزيون على وجه الخصوص، وأبرز هذه الإنتقادات هي:[561]

1 - **المشاهدون فاقدو الحساسية تجاه العنف:** نتيجة لكل هذا العنف الذي نتعرض له نحن، بوصفنا مشاهدين للتلفزيون، فأننا نفقد الحساسية لطبيعة العنف الحقيقي، مما يؤدي إلى عدم الإهتمام إزاء العنف، وربما إلى نزعة لدى البعض منا للجوء إلى العنف في حياتنا من أجل حل المشكلات، عدم الحساسية هذا إتجاه العنف أيضاً حيث يمكن القول بأنه غالباً ما يكون هناك بعد نفسي للعنف.

2 **صورة لواقع مشوه:** أن التلفزيون لا يظهر لنا العالم كما هو حقا، لكنه يقدم صورة مشوهة جدا له، العالم على شاشة التلفزيون حافل بالعنف والتلميحات الجنسية، فنحن نشاهد عددا لا يحصى من عمليات وجرائم القتل على شاشة التلفزيون،

(560) هانس بيتر مارتيني، وهار الدشومان، فخ العولمة، م، س، ذ، ص41
(561) آرثرآسا بيرغر، م، س، ذ، ص100-112

بينما لا يرى معظمنا أي شخص يتم قتله أو إغتياله في الحياة الحقيقية،وبرامج الواقع الجديد،مثل الناجي(Survivor) والعالم(The Real World) هي إلى حد ما ضرب من الإحتيال تم تحريرها بإتقان، والناس فيها ليسوا عينة تمثل جميع أنواع الناس الذين نتعامل معهم في حياتنا اليومية، إذ أن الأخبار ليست ببساطة "مرآة" تعكس العالم، إنها وسيلة لنقل الأفكار والرموز، منتج صناعي يعزز مجموعات من الأفكار والإيديولوجيات، وتقوم بناء على ذلك، بدور الصابورة "ثقل التوازن" الإجتماعية، وأن كانت في بعض الأوقات أيضاً نذيراً للتغيير الإجتماعي، لأن الأخبار نسيج معرفي، فالعالم بشكل ووسائل الإعلام تظهره بشكل آخر، ويرى بعض الباحثين أن وسائل الإعلام الإخبارية لا تعكس العالم، بل تبرزه وفق ما تم تفسيره من قبل المحررين وغيرهم من الذين يتحكمون في الصور التي يسمح لنا برؤيتها والكلمات المسموح لنا بسماعها في برامجهم الإخبارية.

3 – **تحول الفنانين المبدعين الجادين:** لأن التلفزيون يدفع تلك الرواتب الخيالية، فأنه يغري العديد من الكتاب الجادين والمخرجين وفناني الأداء للعمل من أجله وتحويلهم من المسرح وغيره من أشكال فن النخبة ومن ثم حرمان الجماهير من مساهماتهم في هذا النوع من الفن (هذا ينطبق خاصة على صناعة السينما التي تعودت إستئجار ورشات لكبار الكتاب لإنجاز نصوص الأفلام) والإغراءات المالية المقدمة من وسائل الإعلام هي من الضخامة بمكان بحيث يصعب على الفنانين الجادين مقاومتها، مما يعني إنتاج عدد أقل من الأعمال المسرحية والأدبية الجادة.

4 – **الهروبية:** يوفر التلفزيون ملاذاً للهروب، كوميديات المواقف الهزلية، وبرامج العنف والمغامرة، وأنواعاً مماثلة من المواد قليلة القيمة الإجتماعية أو الجمالية، لأن هذه البرامج سطحية، ولا تتناول قضايا جادة أو خطيرة، ويمكن للناس أن يستهلكوا كميات هائلة من هذه المواد، وحتى البرامج الإخبارية طغت عليها الحاجة إلى الترفيه، وأشار نقاد وسائل الإعلام إلى أنه في الوقت الحاضر هناك عدد قليل، نسبياً، من الوثائقيات التلفزيونية التي تتناول القضايا الجادة، مقارنة مع عشرين أو ثلاثين سنة خلت.

5 - **خلق وعي زائف:** تميل القصص التي تعرض على شاشة التلفزيون إلى الإيحاء بأن ما يسمى بـ"الحلم الأمريكي" لا يزال قائماً وبخير، وأن أي شخص لديه ما يكفي من العزم والإرادة سوف ينجح حتما، فمعظم الشخصيات في السرد التلفزيوني تميل إلى أن تكون من الطبقة المتوسطة أو الغنية، هذا يعني إننا نعيش في مجتمع لا طبقي، وذلك لأنه تم تصويره-لأغراض عملية-على أنه حصرياً من الطبقة المتوسطة في حين أن الأقليات والجماعات الأثنية والعرقية والجماعات الأخرى، يتم تجاهلها، ونادراً ما يتم التعامل مع الصعوبات الرهيبة التي يواجهها الناس من الطبقة العاملة، يقول بعض نقاد التلفزيون أنه يمكن أن ينظر إليه على أنه نوع بارع من غسل الدماغ يهدف إلى إقناع الناس بقبول الوضع الراهن وإفتراض أنه لا يمكن تغيير أي شئ.

6 **طبيعة نمطية:** بغية تمكين الجماهير من فهم ما يجري في السرد، يستخدم كتاب السيناريو التلفزيوني شخصيات تقليدية ونمطية وخطوطاً معروفة لسير الأحداث في القصة، ولهذا ينتهج التلفزيون -إلى حد كبير- صيغة متبعة، ويتجنب المواد التي تحتوي على مواقف صعبة لأن ما هو أصيل وإبداعي يتطلب من جانب المشاهدين قدراً معيناً من الجهد، وبما أن مشاهدة التلفزيون والأفلام تتطلب جهداً فكرياً ضئيلاً للغاية، يجد كثير من الأطفال والمراهقين صعوبة في بذل الجهد المطلوب لقراءة كتاب ما.

7 **التجزئة/التشرذم:** الطريقة التي تقطع بها ساعة عادية من ساعات البث التلفزيوني، من خلال العديد من الإعلانات التجارية والمحملات الترويجية، تؤدي إلى الشعور بأن الحياة بشكل عام مجزأة وغير منظمة، إذ يرى المرء في كثير من الأحيان عدداً كبيراً من الإعلانات التجارية لمنتجات مختلفة، واحداً تلو الآخر، غالباً ما تؤدي إلى تفاهم المشكلة، وفي سياق المشاهدة المسائية، يمكن للمرء أن يشاهد أي عدد من أنواع مختلفة من البرامج: البرامج الإخبارية، والمسلسلات الكوميدية، وبرامج الرعب، وبرامج الحركة-المغامرات، مما يعزز الشعور بأن الحياة مجزأة، ومشوشة، وتفتقر إلى التماسك، وهكذا تتطلب طبيعة التلفزيون إن تصمم البرامج التلفزيونية بحيث تكون فيها فواصل عديدة

لمصلحة الإعلانات التجارية، وتؤدي هذه العملية إلى نقصان مدى الإهتمام للكثيرين منا.

8 - **التجانس**:يقول بعض النقاد أن الثقافة التي تبرزها وسائل الإعلام تنشر معها الإيديولوجيات التي تقف وراءها أهداف الرسالة الإعلامية الموجهة والتي تكون مخبأة في النصوص، وليست واضحة لأولئك الذين يستهلكونها مما جعل البعض يفرض على وسائل الإعلام تسميات مختلفة مثل (إمبريالية وسائل الإعلام).

9 - **النشاط المفرط**: نتيجة للوابل السريع من الصور وهذا النوع من الإشباع الفوري الذي يوفره التلفزيون، هناك ما يدعو إلى الشك في أن مشاهدة التلفزيون تسهم في السلوك المفرط لدى العديد من الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون أعتادوا الترفيه الذي لا ينتهي ولا يطورون قدرتهم على أن يكونوا هادئين في الفصول الدراسية، وأن يركزوا على دراستهم، قد يكون الإرتفاع المذهل في عدد الإطفال والكبار، المصابين بإضطراب نقص الإنتباه(ADD) أو نقص الإنتباه للنشاط المفرط (ADHD) مرتبطاً بمستويات عالية من مشاهدة التلفزيون والتعرض لوسائل الإعلام.

10 - **اللامسؤولية**:أن الناس الذين يقررون ما يعرض على شاشة التلفزيون هم غير مسؤولين،وأكثر إهتماماً بالربح من الإهتمام بما يعود بالنفع على المشاهدين يثير قلقاً أخلاقياً، موجات الأثير مملوكة للجمهور، ومن حيث المبدأ ينبغي أن يعمل التلفزيون، وكذلك الإذاعة من أجل تعزيز المصلحة العامة، وبدلاً من ذلك، في مسعى جنوني للتقديرات/التصنيفات، يبث منتجو التلفزيون قدراً كبيراً من البرامج التافهة التي تلاقي إستحساناً على نطاق واسع، ولكنها قد تكون ضارة.

11 - **العزله**: على الرغم من أن التلفزيون يخلق جمهوراً كبيراً من المشاهدين، فأن معظم الناس الذين يشاهدون البرامج التلفزيونية في أي وقت تقريباً هم معزولون في مجموعات أسرية صغيرة، وتبين الإحصاءات في بعض دول العالم المتقدم منه والعربي أن نسبة كبيرة من الأطفال في سن المدرسة لديهم أجهزة تلفزيون خاصة بهم في غرفهم، ما يعني أنه حتى المجموعة الأسرية لم تعد هي

جمهور مشاهدة التلفزيون لأن الاطفال الآن يشاهدون التلفزيون في غرفهم الخاصة، كل ذلك يوحي في نهاية المطاف بأن التلفزيون يؤدي إلى زيادة العزلة، وينتج عنه أن الناس يفصلون أنفسهم عن الأخرين حتى عن أفراد في اسرهم.

12 - **القاسم المشترك الأصغر**:من أكثر الهجمات على وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون هو أنه يستهدف القاسم المشترك الأصغر، وهذا يعني أن التلفزيون يقلل من أهمية الإشياء ويبسط الأمور كثراً، ويتجنب القضايا المهمة في محاولة لإرضاء أكبر قدر من الناس من الناحية النظرية، كلما "أنحدرت" جذبت مزيداً من الناس، ما يعني أن هناك قوى تعمل على أعداد البرامج التي أقل ما يمكن وصفها بأنها تافهة، إذ وصفها بعض النقاد بأن البرامج السيئة تطرد البرامج الجيدة.

13 - **التلاعب**: أن التلفزيون، يتلاعب بمشاهديه بإستخدام الفكاهة والجنس، وأي شئ آخر يمكنه جذب الجماهير، ومن خلال الإعلانات التجارية، لدفع الناس إلى شراء المنتجات والخدمات التي تعلنها، فضلاً عن ذلك ولأن التلفريون يعرض فقط بعض وجهات النظر للأحداث الإخبارية، فهو أيضا يتلاعب بالرأي العام، ويقول الناس أن الرؤية هي التصديق، من دون التفكير في أنه عندما يشاهدون التلفزيون فأن شخصٌ أخر يحدد دائماً ما يرونه، وأن ما يرونه قد يكون منزوعاً من سياقه، أو وفق المصطلح العلمي "خارج السياق".

14 - **مخدر**: هناك سبب يدعو إلى الإعتقاد بأن التلفريون يعمل مثل المادة المخدرة، إنطلاقاً من عدد الأشخاص الذين أصبحوا يعتمدون نفسياً عليه والذين يصفون أنفسهم أحياناً كـ"مشدودين" إلى التلفزيون، ولقد أصبحوا، مدمني تلفزيون، كغيرهم من المدمنين الكثر، يفتقر هؤلاء الناس إلى الوعي بإدمانهم، يرون أنفسهم بدلاً من ذلك أنهم أناس يحبون التلفزيون ولكن يمكنهم أن يعيشوا من دونه، حتى أن بعض المشاهدين أقاموا علاقات شبه إجتماعية مع بعض الشخصيات التي يشاهدونها في التلفزيون، وهم يشعرون بأنهم يعرفون فعلاً هذه الشخصيات والفنانين الذين يؤدون أدوارها، هؤلاء المشاهدون في حاجة إلى أن يكونوا مع هذه الشخصيات في برامجهم المفضلة،

التي يمكن أن ينظر إليها كبديل مثير للشفقة لإقامة علاقات حقيقية مع أناس حقيقيين.

15 - **موضوعات محددة**: التلفزيون مهووس بمجموعة ضيقة نسبياً من الموضوعات العنف والجنس، الإستهلاك، والشباب، والشهرة، وعدد آخر قليل من الموضوعات إذا ما حكمنا عليها من زاوية العدد الكبير من الموضوعات المتعلقة بالحالة الإنسانية التي يمكن أن يتعامل "التلفزيون" معها، يحاجج المديرون التنفيذيون للتلفزيون "إننا فقط نعطي الناس ما يريدون" متجاهلين حقيقة أن الجماهير تختار فقط مما هو متاح في ليلة محددة في التلفزيون، والأقمار الإصطناعية، أو الكابل، في نهاية المطاف، يؤدي هذا التركيز الضيق في التلفزيون، إلى تضاؤل حاسة الإحتمالية لدى المشاهدين وضيق لما يعنيه مفهوم أن يكون المرء إنساناً، إذ أن التلفزيون لا يعطي الناس ما يريدون، ولكن يعلمهم أن يريدوا ما يحصلون عليه.

16 - **الخصوصية**: أن مشاهدة التلفزيون تؤدي إلى الخصوصية تستند إلى الإدعاء بأن مشاهدي التلفزيون يتعلمون التركيز على حياتهم الخاصة والإهتمامات الشخصية وبصفة عامة إهمال المسائل الإجتماعية والمجال العام، نصبح منشغلين عن المسائل الخطيرة التي تنطوي على السياسة أو القرارات المتعلقة بالقضايا الإجتماعية إذ نركز بدلاً عن ذلك على إهتماماتنا الخاصة، على وجه الخصوص، وعلى رغباتنا للمنتجات الإستهلاكية والخدمات، وهكذا تؤدي متابعة وسائل الإعلام ومشاهدة التلفزيون إلى النزعة المادية.

17 - **العاطفية**: كثيراً ما أنتقدت الدراما التلفزيونية لكونها عاطفية بإفراط، وذلك لنهاياتها السعيدة عموما، أو لأنها عاطفة أكثر مما ينبغي في أنواع مختلفة من السرد، وثمة من يقول أن التلفزيون يميل إلى إهمال الأبعاد المأساوية في حياة البشر، وغسل كل شئ بقشرة من التفاؤل، ورؤية كل شئ من خلال نظارة وردية.

18 - **الإستغلال الجنسي**: الأدوار التي تمنح للمرأة في الدراما التلفزيونية، والطريقة التي تصور بها في الإعلانات التلفزيونية وغيرها من النصوص تستغل الجاذبية الجنسية للمرأة وتستخدمها في الإثارة الجنسية، وبيع المنتجات، إذ أن التخيلات

المثيرة التي تم توليدها بوساطة التلفزيون تهيمن على تفكيرهم، مما يؤدي إلى المشاعر السلبية تجاه شركائهم في العالم الحقيقي.

19 - **تحديد الاتجاهات**:لوسائل الإعلام والتلفزيون خاصة قوة لا تصدق لخلق الإتجاهات، والبدع-الذي غالباً ما ينطوي على مسائل مثل أنماط اللباس وقصات الشعر وإستخدام مصطلحات عامية جديدة- ويقع المتلقي في تناقض:نريد أن نكون أنفسنا، لكننا نطمح أيضاً إلى أن نكون متوافقين مع "الموضة" أو "العصرية"

20 - **العنف بإعتباره حلاً**: أن العديد من سرود وسائل الإعلام الجماهيرية تستخدم العنف كحل سهل لمشكلات مأساوية، وتقف بإتجاه تفعيل مفردات العنف وآلياته، وأدواته، ويستند معظم ما نعرفه عن العالم إلى مايسمى بـ"التعلم الإفتراضي"(incidental learning) والذي هو التعلم الذي نلتقطه خارج غرفة الصف، وربما أن ما يتعلمه كثير من الناس من وسائل الإعلام الجماهيرية، من دون أن يكونوا واعين لما يتعلمونه، هو أن العنف أفضل طريقة للتعامل مع صعوبات معينة، وهكذا إذ يوجد هناك إفراط في إستخدام العنف والإستغلال الجنسي على شاشة التلفزيون في الأفلام وفي العديد من الفيديوهات الموسيقية، بالرغم من الإنخفاض الملموس في مقدار العنف والجنس في التلفزيون إستجابة للدعاية السلبية التي تلقتها منظمات وسائل الإعلام بشأن العنف والإستغلال الجنسي في وسائل الإعلام.

21 - **عوالم الثورة الإتصالية الرقمية**: التي جعلتنا نحيا الآن بين ثلاثة عوالم، الأول عالم الأفكار والثاني هو العالم الفيزيائي، والعالم الثالث ليس عالم التجارب الذاتية، بل العالم الأثيري أو الإفتراضي الذي تخلقه تقنيات الإتصال، وكانت معرفة الحقيقة هي التطابق مع ما هو واقع، وكان عالم الكليات من المثل المجردة والأفكار المطلقة هو العالم الحقيقي، أي هو الحاكم على هذا العالم الواقعي والناظم له، أما الآن فأن الحاكم والناظم هو عالم الأشباح الضوئية من المنتجات الألكترونية غير الملموسة، ومعنى ذلك أن الحقيقة هي ليست ما نعرفه بل ما نختلقه من الوقائع أو ما تصطنعه من العوالم، والعالم الإصطناعي

الذي يدار به الواقع الآن، والذي في منتهى الهشاشة وهو أشد واقعية من الواقع بقدر ما بات يتحكم به أو ينوب منابه وتلك هي المفارقة، فلم تعد الأشباح خلال الحقيقة بل ما تصنع به الحقائق، ويتدافع عليه الناس في إبراز مشكلات حيواتهم ورغباتهم وأحلامهم.

الحقيقة مفهوما نسبيا

هناك كلمة شهيرة لـ(ماكولاي) مدير الشؤون الهندية، قال: إذا أردنا أن نقضي على الإنتفاضة الهندية والأمة الهندية يجب أن نكسر عمودها الفقري، وعمودها هو اللغة والتراث الروحي والديني والذاكرة الوطنية، ويذكر بأن جون غبسون من قناة فوكس نيوز كتب في 24 مارس 2003 معرباً عن إستغرابه من إستهداف التلفزيون العراقي متسائلا: «هل ينبغي أن نقطع بث التلفزيون العراقي» أجل، لأن التلفزيون لغة، والحرب صراع بين لغتين، كذلك كان الأمر منذ البداية، كما يقول جيرالد دونللي سميث: بعد الشروع بالحرب على الإرهاب التي بدأت بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 التراجيدية بقليل، أضحت الحقيقة مفهوماً نسبياً، وبدلا من توضيح الحقيقة، أستعملت اللغة للبسنة الواقع.[562] إذ أن ظهور تعبيرات وألفاظ خاصة في وسائل الإعلام يراد بها تجنب إستعمال الألفاظ اللغوية الأصلية للمعاني، ووضع تعبيرات أخف وقعاً على مسامع الجماهير والقراء، مع إنها تدل على المعاني الأصلية بطريقة ملطفة ومخففة، وقد تكون تلك العبارات من وضع الجهات المسؤولة أو من إيحاءاتها، كما قد تكون من وضع الإعلام نفسه وذلك مثل «تحريك الأسعار» ويقصد به زيادتها و«الرأي الآخر» ويقصد به المعارضة و«المتحفظ عليهم» ويقصد بهم المقبوض عليهم و«النكسة» ويقصدون الهزيمة و«السلبيات» ويقصدون نقصه وتقليله، وهو باب من البيان الذي لا يخفى على حس المواطنين وفطنتهم، وهذا الجانب يسمى مرض اللغة بالنفاق أو الخوف أو الضعف العصبي، وقد يؤدي هذا المرض إلى عواقب وخيمة في عقيدة الأمة، وفي تطورها، وهنا فإن تفريغ المعاني من مدلولها الحقيقي بإستخدام لغة ملتوية أو منافقة أو مرتخية يصيب المجتمعات بأفدح الكوارث والهزائم وتتضاعف الكوارث والهزائم عندما يسمونها نكسات،

(562) نقلا عن د.علي ناصر كنانة، جيوش اللغة والاعلام، م، س، ذ، ص87

وأصبح النص أو النوع أو الحقل الإعلامي، جزءاً من نسيج الثقافة في المنطقة العربية، التي أصبحت تتشكل بإستمرار، بعيداً عن المؤثرات الثقافية الأصيلة والمحددات التأريخية الحضارية الأخرى، ولم يتم بعد حسم هذه العلاقة غير المتكافئة «المشوهة»بين الإعلام كعالم رمزي تتشابك فيه المحلية والعولمية، من جهة، والثقافة كعالم معيشي ومصدر هوية وإنتماء وصراع، من جهة أخرى، وهناك عدة أنواع من النصوص تشكل بنية الفضائيات وهي:(563)

1 - **النص الغريزي**: ويشمل عدة نصوص فرعية، كالنص الغنائي و«الفيديو كليب»: يتميز هذا النص بالإعتماد على إيديولوجية الغريزة ومخاطبة الفئات الشابة بالأساس، ويشكل هذا النص مدخلاً إلى«موت المعنى» في الرأسمال الرمزي المعاصر، ويتناغم هذا النص مع نصوص أخرى مشابهة كالنص السينمائي والدرامي التجاري والنص الإعلاني القائم على تسويق الجسد..الخ ويؤشر تعلق المتلقي بهذا النص إلى مدى تفكك البيئة الإجتماعية والفراغ والإغتراب الذي يولده هذا الواقع، وبنيوياً فأن هذا النص يحمل في الظاهر(Signifier) التنفيس والتعبير عن تحدي المؤسسة الثقافية التي نشأ عليها أصحابه(إستعراض الجسد مثلاً)وفي الدلالة الكامنة (Signified) التدمير الذاتي بتكسر الحواجز الثقافية والقيمية بالجملة والتفصيل، وإزالة الحساسية تجاه"الممنوعات الثقافية" ويلعب هذا النص على المستوى الأوسع دور "الإلهاء" وتفريغ طاقة الفئات الشابة في هذا الإشباع الرمزي بعيداً عن الواقع الإجتماعي وقضايا المجتمع، وحينئذ يبدو هذا النص غير إعتباطي، وأنه يؤدي وظائف إجتماعية محسوبة.

2 - **النص السياسي**: تتضمن الفضائيات أكثر من نص سياسي، محايد نسبياً في القنوات الإخبارية شبه المستقلة، ورسمي في القنوات الحكومية، ومتنوع نسبياً في بعض المجالات المحدودة، ويعد النص الرسمي "مشبهاً نسبياً" في إرتباطه بالخطاب السياسي السائد الذي يغيب فيه الكثير من التفاعل الإجتماعي وتناقضاته، ويبرز ذلك أكثر في المجال السياسي "البحت" ويمتد بصفة إرتدادية

(563) عبد الرحمن عزي، «الراسمال الرمزي الجديد«قراءة في هوية وسوسيولوجية الفضائيات في المنطقة العربية، ضمن كتاب ثورة الصورة المشهد الاعلامي وفضاء الواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل(57)، بيروت، 2008، ص110-115

إلى الحقول الأخرى الإجتماعية والثقافية والفنية، وتقوم هذه الرؤية على بنية فلسفية ونفسية قديمة، مفادها أن "المجال السياسي ليس في متناول العامة" وتترتب عن ذلك أن تكون النظرة إلى الفرد أو الجمهور "نظرة فوقية" ويتبين أن هذا النص لا يتحرك " في" ولكن "على" المجال الإجتماعي، أي أنه يبحث بإستمرار عن التمجيد وإضفاء "الشرعية الرمزية" بعدما تراجعت مع الزمن معظم الشرعيات الأخرى، كالشرعية التاريخية والثورية والقبلية والعائلية، والحاصل أن النص الرسمي يحمل وظيفة إجتماعية حاسمة تتمثل في التنشئة السياسية و"الضبط الإجتماعي".

3 - **النص الديني**: يعد ظهور النص الديني على الفضائيات بهذا الشكل الواسع ظاهرة حديثة نسبيا، رغم إنها تمثل بعض الإمتداد الذي كان حاضراً قبل ذلك في وسائل الإعلام المحلية الأخرى كالصحافة المطبوعة والإذاعة والتلفزيون، ولعبت الأحداث الدولية والمحلية دوراً في بروز هذا النص الذي يبحث في منظوره الواسع عن الإعتدال و"تهدئة" أو "ترويض" تلك الفئات الإجتماعية الجديدة التي تكاد تفلت من قبضة المؤسسات التقليدية والرسمية القائمة، أملاً في تقييد توجه هذه الأخيرة نحو "الغلو" أو "التطرف" وما يميز هذا النص نصيته، أي أنه نص عن نص وليس فيه الكثير من الحراك الإجتماعي السياسي، ويتحول أحياناً إلى نص ذي طبيعة فقهية بحتة في ما يخص برامج الفتاوى مثلا، أن قراءة أولية في النص الديني تشير إلى أن هذا الأخير يكرر مكوناته سواء في الشكل أو في المضمون، مما يضفي سمة التشابه على هذا الأخير وإن كان الفاعلون متعددين.

4 - **النص الاصطلاحي المختزن**: تحمل الكلمات والمصطلحات المستخدمة في وسائل الإعلام أثناء الحروب والأزمات معاني ودلالات خاصة وغير محايدة، موجهة لتعبئة الجماهير ضد أو مع موقف أو حدث أو توجه ما، وغالباً ما تجد هذه الدلالات أصلها فيما يثير ويشحن العواطف الإنسانية من مشاعر الخوف أو الشفقة أو الغضب أو الرضا والإستحسان، وتعمل وسائل الإعلام أثناء الأزمات على إعادة وتضخيم المصطلحات التي يتداولها المسؤولون السياسيون والعسكريون لإثارة النقمة ضد الخصم، وتستخدم مفردات تصنع مرجعيتها من الخوف أو الشفقة مستندة في ذلك على المراجعات التأريخية لجعل العدو

موضوع خزي عام، ومن بين الكلمات والعبارات المختزنة التي شاع إستعمالها في الأزمات الناهصة خلال العقدين الأخيرين."محور الشر" و"ديكتاتور بغداد" و"الوحش البارد" و"الاعمال البربرية" و"الحرب النظيفة" و"الحرب الجراحية" و"تحرير الشعب العراقي"..الخ وهناك مصطلحات أخرى من الإعلام العراقي"الإجتثاث" و"المهمشين" و"الإقصاء" و"المناطق المتنازع عليها" و"مكونات الشعب العراقي" وغيرها من المصطلحات التي تكرس للطائفية السياسية، وسياسة التهميش والإقصاء.

5 - **النص الإقناعي**: إذا كانت المفردات اللغوية ذاتها وسيلة للحصول على المعاني فأن هذه المفردات تؤدي دوراً مهماً في رسم أبعاد ذلك الواقع الذي ترسمه وسائل الإعلام وعبر الخطب السياسية خاصة، وأسهمت الكتابة الصحفية في توسيع اللغة المهنية ذات الطابع التقني، وذلك بإعتماد لغة الإقناع عن طريق إيراد المعلومات المعززة بالإحصاءات والبيانات، أما لغة الإعلان في الصحافة فقد تميزت بإعتماد اللغة الفصيحة القائمة على الجملة ثم توزيع الكلمة في الجملة إلى تقطيعات مقرونة بالتسجيع الخفيف أو إعتماد الجملتين أو لثلاث القصيرة جداً، ويمكن للغة العربية أن تحافظ على كونها ميزة تنافسية لا تقدر بثمن في مجال صناعة الثقافة، نظراً للجمهور العريض الذي تخاطبه عبر الإنتاج الإعلامي، فهذا الإنتاج تحميه اللغة خاصة لجمهور لا يعرف معظمه اللغات الأجنبية، وشكلت وسائل الإعلام وسيطاً وناقلاً وحاملاً للغة العربية ودفعت بها إلى النهوض الذي تمثل في الأساليب التعبيرية، وفي تعدد فنون القول فيها، وهي إدخال مفردات مولدة عن طريق الإشتقاق والإقتباس والوضع والتعريب للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة.

والمؤسف أن البعض يريد أن تصمت الفصحى وذلك بإشاعة اللهجات العامية في وسائل الاعلام، وهذا الفصل يخفي حقيقة لايريد هؤلاء البوح بها وهي جهلهم التام والمطبق للغة العربية الفصحى، وبأن الحرص الذي كان على العربية وعلومها في بعض وسائل الإعلام تضاءل شيئا فشيئا حتى أنقلب إلى حرص على العامية المحلية ونبذ -بل ومحاربة- للفصحى ولكل ما يمت إليها بصلة، وتحول ذلك الدور الكبير في

نشر العربية إلى دور كبير في هدم العربية وتقويض دعائمها بطرق متعددة وأساليب مقصودة وغير مقصودة، لكنها في النهاية تثمر نتيجة واحدة هي التلوث اللغوي، ومن هذه الأساليب:[564]

1- غلبة إستخدام اللهجات العامية بين الفضائيات العربية والتنافس المحموم لحيازة قصب السبق بإنتشار عامية هذه الفضائية أو تلك بين عدد أكبر من المشاهدين حتى تنوعت وتعددت لهجات الفضائيات بعدد الدول العربية فدخلنا فيما يسمى: «الازدواجية اللغوية» وكان إبتداء إنتشار هذا التلوث اللغوي بظهور المسلسلات والأفلام وكانت الحجة في ذلك محاكاة الواقع وحماية «التراث الوطني» ثم أنتقلت هذه المحاكاة إلى برامج التراث والإعلانات والبرامج الحوارية حتى العلمية وأدى هذا الاندفاع نحو العامية إلى جعل بعض اللهجات أقرب إلى فهم المتلقي من الفصحى خصوصا بالنسبة للأميين وأنصاف المتعلمين والأطفال،واللهجة المصرية أصدق مثال، فقد أنتشرت في أرجاء العالم العربي وأضحت بمثابة لغة التواصل بين العرب يفهمها الجميع العماني والخليجي والشامي والعراقي والمغربي والليبي، وظهرت في الساحة الإعلامية اليوم لهجات أخرى تنافس العامية المصرية على مقعد الشهرة والانتشار كالسورية والخليجية وغيرهما.

2 - كثرة إستخدام اللغة الأجنبية في الفضائيات العربية، فمسمى القناة أجنبي ومسميات البرامج أجنبية فمن مظاهر الجناية على اللغة العربية في بعض القنوات الفضائية إتخاذ أسماء أجنبية لبرامجها، والمذيعون يحرصون على تطعيم عاميتهم بمفردات أجنبية، وهذا أحد مظاهر الإستلاب الذي تعانيه الأمة العربية، ومن مضاعفات هذه الظاهرة تشويه الذات وتحقيرها والرفع من قيمة الآخرين وتراثهم ومنجزاتهم (ولغاتهم) فيقود لتدمير الذات وإستبدالها بذات أخرى وهمية أو مصطنعة، إذ أضحت اللغة الأجنبية أحد دلائل التميز والنجومية في المجتمعات العربية. والمتحدث بها إنما يريد أن يؤكد إنتماءه إلى طبقة النخبة

(564) د.نصير بوعلي، اللغة وعنف اللسان وفساد الإعلام في الفضائيات العربية الغريزية، مقاربة استقرائية، كلية الاتصال، جامعة الشارقة.

التي تتميز عن العامة حتى في لغتها، وقد ساهمت الأعمال الدرامية العربية في تأصيل للمفهوم، فغالبا ما تحوي لغة الشخصيات التي تمثل الأثرياء وأصحاب النفوذ في المجتمع الكثير من المفردات والألفاظ الأجنبية، تأكيدا لتميزهم من جهة، وتشويها للعربية وبخساً لقدرها من جهة أخرى.

3 - تعمد بعض الفضائيات على إظهار الفصحى في الأعمال الدرامية وغيرها على أنها لغة علماء الدين، مما قد يوحي للمشاهد غير المثقف بأن إستخدام هذه اللغة يقتصر عليهم، كما يكون مفهوما خاطئا عن العلاقة بين العربية والدين، إن هذا المفهوم الخاطئ ينذر بإقصاء الفصحى وإبعادها عن كل مجال علمي أو ثقافي أو اجتماعي وجعلها لغة شعائرية تؤدى بها الصلوات وتلقى بها الخطب في المساجد ويتكلم بها المتدينون فقط، وهذا ما تعمل على عرسه بعض وسائل الإعلام في نفوس المشاهدين والمتابعين لها.

4 - شيوع الظاهرة اللهجية والتلوث اللغوي وعنف اللسان والإعلام جزء من الواقع المعايش في المنطقة العربية حديثا، ويمكن ملاحظة ذلك في تدني نوعية الخطاب اليومي الذي ينتجه الأفراد أو الجماعات وإنحدار الكثير من محتويات الوسائل المسموعة والمرئية إلى مستوى مخاطبة الغرائز والنزعات الإستهلاكية سعيا وراء الكسب المادي وتقليدا للموضة السائدة في الإعلام الدولي وخاصة الغربي منه، فالعنف اللساني ليس قيمة بل صفة منبوذة (ومتناقضة مع القيمة) وهي ليست صفة قائمة في حد ذاتها ولكنها رد فعل غير متوازن عن قول أو فعل أو وضع أو ظاهرة تجعل المتكلم يفقد السيطرة على اللغة ميلجأ إلى جملة من الانحرافات التي تكون من صنع الكلام حتى وإن كان المتحدث قد "ورث" ذلك من المتحدثين الآخرين.

5 - اللجوء الى تخريب الذوق اللغوي، وهنا فأن البيئة الإعلامية تبرز العديد من التأثيرات السلبية الناشئة عن البث الفضائي والالكتروني وما تقدمه من برامج ومواد إعلامية تستحق وقفة للنقد والمناقشة، فأن بعض المحطات العربية تقوم بتخريب الذوق اللغوي العربي من خلال العامية الفجة التي تلح عديها سواء في أسماء البرامج أو الحوارات أو أطلالات المذيعين وهي عامية تتناق مع رسالة

الإعلام العربي في التوجه إلى المواطن العربي في كافة الأقطار العربية التي تعد اللغة العربية الفصحى عامل توحيد لها بدلاً من هذه العاميات التي تكرس الأقليمية والمحلية وتتنافى مع وحدة الثقافة العربية ووحدة الهموم العربية.

6 - المحرضات التي تتدفع المشاهد للتلقي بروح نقدية هي عوامل متجذرة في واقعه ونتيجة لكم من المصاعب التي تواجهها منطقة تعيش منذ قرن: الحروب، الإحتلالات، والدكتاتوريات، في تحالف ليس من شأنهم إلا إعاقة التنمية كما أنه يقع في أساس الإستراتيجية الإعلامية لكن الخطاب الإعلامي يظل أخرس من دون أذن وعين المشاهد وهنا يكمن التحدي التاريخي لكليهما فبإمكان المشاهد أن يبحث في هذا الطوفان غير المعهود عما يستجيب لحاجته في أن يكون فرداً منتمياً لمجتمع ولوطن مصالحهما واضحة والحريات العامة فيهما مصانة لكن تعاقب الأحداث والتمزقات بقوة وبسرعة لم يسبق لها مثيل يجعله يغرق في الجدل السياسي البحت والآني وينزلق أكثر فأكثر نحو مرجعيات فئوية في غياب سيادة الدولة والعدالة الإجتماعية مقابل حضور طاغ لقلق الوجود.

ويرتكز كل ما تقدم من أساليب استكبارية في وسائل الإعلام على أستكبار فرعون وملئه، وكان دافعا لكي يتمادى في غطرسته واستكباره، وسعيه إلى الحفاظ على مكتسباتهم المدية والمحافظة على قربهم من فرعون وتاجه، وكانوا قوما عالين مترفعين من عادتهم الاستكبار والتمرد، متكبرين على أهل ناحيتهم ومن في بلادهم من بني إسرائيل وغيرهم بالظلم قاهرين لهم ، وشاركوه كذلك الفسق والملاحظة العجيبة المطردة في قصص القرآن أنَ الذين كانوا يقودون الكفار في مواجهة الأنبياء هم الملأ المستكبرون، كما هي وسائل الإعلام ومالكيها وداعميها، فنوح عليه السلام واجه الملأ الذين كفروا من قومه، وهود عليه السلام واجه الملأ من قومه، وصالح عليه السلام واجه الملأ من قومه، وكلّ نبي واجه الملا من قومه، وهو حال الأنظمة المعاصرة التي تعتمد على "الملأ" في حكمها، وهذه الظاهرة واضحة للعيان، وإن كانت في الأنظمة المعاصرة أكثر أهمية، وأعمق رسوخا وإنتشارا، وأشد تأثيرا وخوفا ورعبا! والملاحظ من خلال الشواهد التي ذكرناها في أمر المتبوعين (هامان، الملأ، الآل)، أنهم كانوا دافعا مهما لتجسيد النظرية الفرعونية، لذا قلنا بها في وسائل

الإعلام، ويصح القول أن فرعون قد تقوّى بهم، واستكبر واستعلى بوجودهم، وتمرد عن دعوة موسى بتمردهم وجحودهم، وذلك بمشاركتهم إياه شتى الصفات الذميمة التي وصف بها، وأعظم ما فعلوه هو إقرارهم بفكرة فرعون الإله الآمر الناهي، وذلك لخفه عقولهم، وطمعهم في مرضاته، فالمنطق الفرعوني ومثله المنطق الإعلامي: لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل تعداه إلى درجة قولهم بما يقول، والعمل بما يعمل، والإقرار بما يقر، وتلك قمة الإتباع والذوبان في المنطق الفرعوني الفاسد، فبالرغم من أن كل من الأتباع المستضعفين، والمتبوعين المستكبرين يدخلون في حيز الإتباع لملك فرعون وسلطانه.

الفصل الرابع

الاعتساف في وسائل الإعلام

الاعتساف في وسائل الإعلام

يكتب الروائي السوري هيثم النعيمي عن ظاهرة الإعلام المشهديّ عربيّا فيقول: لا شيء يبرر الافتعال، حتى ولا قول الحقيقة، تفنيد رأي الآخر بشكل منهجيّ ليس عقلا، إنه موقف مُلتَبس حيال ما لا نجرؤ، أو لا نقدر، على تفكيكه ونقده بشكل منطقي، وهو (التفنيد الآلي على الهواء)، على أي وجه أُخِذ، ليس برهانا، لا على صدق ما نقول ولا على حقيقته، إنه نَفْي غير متماسك لما يقوله الآخر، ولو كان فيه كثير من البلاغة، وهو خطير، مثل ركض دائريّ على مسار الآخر، ولكن باتجاه «معاكِس»، مما يحرّض سريعا على التنافر والاصطدام، إنه انفعال لا عقلانيّ، مشْبَع بالعواطف والسفسطة، أو هو نوع من «النقار» المأزوم الذي يُفعِم المتحاورين، والمشاهدين، بمقولات عبثية تشلُّ طاقة النقْد عندهم وتدفعهم، سريعا، إلى «الاستسْلام السّلْبي»، وهو، من هذا المنظور، مزلزل للعقل، بدون أن يكون عقلانيا، إعلام الصراخ و«التلاكُم اللفظيّ»، هذا، (وأحيانا الجسدي) لا يُغيِّر، وإنما يُدمِّر، يعرض الأحداث الجليلة بشكل ساذج ومبتذل، يسلب إرادة المعرفة لدى المشاهِد بإزاحتها من الفاعلية إلى البلادة، هكذا، يتسَلّط، بشكل فجائعي مصطنع، على نفس المشاهِد (والنفس أمّارة بالخنوع)، بعد أن يكون قد استَحْوذ على عينيه، ومن ثمّ على قلبه، وهو، إذْ يفعل ذلك، يتصوّر أنه يُخمِد، بهذا الفعل الملتبس، استياءه العميق من الوضع العربي الراهن، ويُنَفّس عن كربه وخيبة أمله التي لا عزاء لها ومع أنه يخطئ في تصوُّره المخادع، هذا، إلا إنه يظلّ يتابع، بإصرار، «تغلغله» في الفضاء العام: فضاء المشاهدين المتعطّشين إلى ما يساعدهم على الإدراك، لكنهم، ويا للمفاجأة المستمرة منذ سنوات، لا يجدون أمامهم سوى العِراك! وهو ما يجعلهم يغرقون من جديد، آسفين، في لجّة من «الصخب والضجيج» بلا جدوى، غاية هذا "النهج الإعلامي" الأساسية إذن، ممارسة الاعتساف، ليس تنشيط المخيلة المعرفية لدى المشاهد، وإنما تثبيطها.

بمعنى آخر، شلّ طاقة الحس النبيل لديه، وإلهاؤه عمّا يدمّر حاضره، وسيلته في ذلك تحويل المأساة الإنسانية العربية الهائلة إلى مماحكة تَهْويلية مفتعلة تحلّ فيها «الصيغ النظرية اللافاعلة» محل الفكر النقدي المطلوب، خاصة، عندما يطرح

صانعو «المشهد» ومنفّذوه الأمر بشكل يكاد أن يكون عفويا، و«بريئا»، مع أنه ممنهج بدقة، ومخطط له، ومحسوب، وذلك غاية التضليل، إنه نوع من اللعب على العواطف، ونحن نعرف أن العواطف عواصف، ونهايتها السكون، منطق مَنْ، إذن، هو منطق الإعلام المشهدي، عربيا؟ ومَنْ يحرّك خيوطه اللامرئية في هذا الفضاء اللامنطقيّ؟ هذا الفضاء الجائع لا إلى الحرية، وحسب، وإنما إلى المعرفة، قبل كل شيء! ومنْ هو المستفيد من التبسيط المخلّ بالعقل لواقع عربي صار فوق سيرياليّ؟ ألا يحق لنا أن نتساءل؟ أن نتساءل عن دور السلطات الثقافية في إعلام مثل هذا (وهي المالكة الحقيقية لوسائل التغبية والتجهيل السمعية البصرية، ولغيرها أيضا)؟ ومَنْ منا يجهل رغبتها العميقة في «رَدْم» حساسية المشاهد، وحَشْو رأسه بما ترغب هي أن يستوعبه، وغَلْفه بما تريد؟ نحن نعرف أنه لا يوجد في العالم العربي، اليوم، إعلام حر، متماسك، ذو نهج محايد ومقبول (ولو شكليا). لكن ذلك ليس عذرا لأحد، وبالخصوص «لأهل الصنعة» وهو لا يمكن أن يكون مبررا لنا، لئلاّ نقول رأينا بصراحة، وهو، كذلك، لا يعطي المصداقية للناشطين في هذا المجال الخطير، حتى وإن ادّعى بعضهم «مجابهتهم» للسلطة، وبالخصوص عندما يكون برهانهم على «حقيقة» ما يدّعون كونهم «يخالفونها»، ويتجاوزون خطوطها الحمْر، أحيانا! فهذا الادعاء الكاذب هو التأكيد الصارخ على تواطؤ هذا الإعلام المخاتل والسيّئ النوايا، إعلام الصخب، وإقصاء أية فرصة صالحة للإدراك، وأكاد أتساءل: إدراك ماذا! في خضمّ هذا اللّغو العبثيّ العربيّ المائج؟ هدف المحاورات الإنسانية، كما نتصوّر، خاصة عندما تكون مرئية من العموم، هو «إعطاء شكل ومحتوى لنشاط الكائن»، يجعله جديرا بالاحترام، ويقرّبه من الإدراك أمّا أن تتحوّل المحاوَرة إلى «مُهاتَرة»، وعلى رؤوس الأشهاد، كما في هذه «المحاورات المشهدية اللاسقراطية» فهذا ما لم نكن نتوقعه، «الأنا المتضخمة» لدى المشرفين عليها، وحتى لدى المتحاورين، ترفض الاندماج في «حقل المنطق» هم لا يبحثون عن حقيقة مَنْ يحاورونه، وإنما عن «دَحْره»، وبأي وسيلة كانت! «الإلْغاء الآلي»، إذن، لكل ما يصدر عن «اللانقيض» (فهم كلهم توأم الوضع العربي البائس، ويبدون متماثلين إلى أبعد حد، خاصة عندما يريدون أن يَتَناقضوا)، هو قاعدة «اللاحوار» المعمول بها، إنه، بالأحرى، اعتساف على قاعدة «المبارزة الحاسمة» بينهم، ولا شيء آخر وهو ما يذكرنا بالمبارزات التاريخية

القاسية بين عبيد روما القدماء (العلاذياتور) من أجل البقاء، التي كانت تنتهي دائما بالموت.

لا يخبرك الإعلام أيهما عدوك، إنما يشدك إلى طرفه كي تقف معه في مواجهة عدوه! تغيب التوعية الإعلامية تماما، وتحل محلها الجبهوية، والمراشقات الثأرية، والنفاق الاجتماعي الخسيس، والاكتفاء بالجهل، والاستغناء عن الحقيقة، والشتات العاطفي والتاريخي، بين تضارب القيم، حيث يتذرع باعة الضمير بالسلام لخرق الخطوط الوطنية والإنسانية، في سبيل مصالح شخصية وآنية، فلا تبيض وجوه ولا تسود أخرى، إنما يتساوى الجميع في موت حيادي، يصنف البطل حسب الهوية الإعلامية لفريقه، بعيدا عن الاعتبار الوطني والتاريخي لحجيمه! فلا مناص من القول للذاهبين إلى «الاتجاه المعاكس» إنهم يزجّون بأنفسهم في صراع ديكة مرير، في حلبة معدّة لجمهور مولع بالإثارة، برفقة معدّ برنامج يتوقف نجاحه على المهارة في إثارة الغبار، وعلى مقدار النتف وعدد الجروح وكمية الدماء المهدورة على أرض الحلبة، إذاً ليس من حق المشاركين بعد ذلك الشكوى من أن ظهورهم لم يكن مُرْضِياً لهم، لهذا السبب أو ذاك، هذا ما رصدته الاديبة والصحفية لينا ابو بكر وهي تصف اعتساف وسائل الإعلام تجاه المتلقي.

تزييف الوعي الجمعي

يقول عالم النفس الأمريكي الألماني الأصل (فريدرك فيرثام) في معرض رده على الذين يُشكّكون بقدرة وسائل الإعلام وتأثيرها على الناس: «كلما وقع نظري على كتاب من هذا النوع، وهي (كتب مصوَّرة للأطفال فيها مشاهد عنف وجنس) في يد صبي في السابعة من عمره، وكأنما عيناه ملتصقتان بغراء على الصفحة المطبوعة، أشعر وكأني أبله حين أطالب بأن آتي بالدليل على أن مثل هذا الشيء ليس غذاءً عقليًا صالحًا للأطفال»، بل يذهب البعض الى ان تأثير وسائل الإعلام على الناس تكون وفق عملية التدوير أو التحوير(The Spin) ويعني قيام الوسيلة توجيه انتباه الجمهور المتلقي الى موضوعات بعينها على حساب الاخرى وهي الموضوعات التي تود الوسيلة التركيز عليها وإهمال القصص الإخبارية الاخرى التي قد تكون أكثر أهمية وهو ما يؤثر بدوره في بناء الاولويات لدى الجمهور المتلقي، ويظهر

هذا النوع من التحيز بصورة واضحة أثناء التنافس الذي يقع بين محطات وسائل الإعلام وبعضها البعض، إذ يستطيع التنافس أن يزيل تأثير التحيز الإيديولوجي لكنه يشكل باعثا ومحفزا لتحوير القصص الإخبارية بغرض جذب أكبر عدد من المشاهدين.[565] وبحسب الاديبة والكاتبة الفلسطينية لينا ابوبكر فالاعتساف يأتي من ان هناك ما يقارب من 1800 قناة ناطقة بالعربية في مختلف لهجاتها وأجنداتها ومستوياتها تسرح في فضاء هذا الكوكب، 1800 قناة تتفاوت جماهيريتها ومحتوياتها وأنواعها، لكنها كلها تنطق العربية وألف قناة منها على الأقل تدعي أنها موضوعية وحيادية وتقدم الحقيقة، فيا أيتها الحقيقة، كم من مشاهد كان قربانا لك على مذبح الرسيفر، وانت تتسلقين عبر الأنظمة السياسية، والامبراطوريات التي تمتلك أكبر (ترسانة) إعلامية، وتشكل هذه الترسانة الإعلامية أداة من أدوات الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية، سواءً كانت هذه الترسانة على شكل وكالات أنباء، أو مراكز إنتاج، أو بحوث، أو قنوات، أو صحف، أو إذاعات، أو وكالات إعلان.. أو غير ذلك، وهذه الترسانة تصبح بعد ذلك شركات عابرة للقارات، أو متعددة الجنسيات، فهذه نسخة عربية من حيث ألفاظها، ومن حيث مقدميها، أو كتابها، أو مذيعيها، ولكن تبقى الحقيقة والمضمون الفكري واحد لا يتغير ولا يتبدل، ينتهك الخصوصيات الثقافية، ويحطم أساسات المجتمع الثقافية، ويعتدي على عاداته الأصيلة؛ ليقدم لنا ثقافته وأفكاره ومبادئه وعاداته التي لا ينبغي الاعتراض عليها، وإلا؛ فأنت ولا شك متخلِّف من العصور الرجعية! أو إرهابيٌ من المتطرفين! أو شاذٌ من المخالفين! وإلا فلماذا لم تنخرط فيما يريده منك الأسياد؟!

ويتعزز الاعتساف أكثر من خلال الأنظمة السياسية المحلية، إذ أن كثير من الأنظمة السياسية في العالم العربي والإسلامي تمنع ترخيص صحيفة، أو فتح قناة، أو التصريح لإذاعة، فلا يصح عندها أن يوجد منافسًا محليًا للوسائل الإعلامية الحكومية، وتزداد المشكلة إذا علمنا أن هذه الوسائل لا تعبر إلا عن الرأي الرسمي، وتضيق ذرعًا بالرأي الآخر؛ فهي وسائل إقصائية في تعاملها مع الآراء المخالفة، هذا

(565) هبة حسين عبد الوهاب، مستويات مصداقية القنوات الإخبارية العربية والاجنبية كما تراها الصفوة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، 2010، ص87

الرأي الواحد يُكرَّس لدعم النفوذ السياسي والفكري لهذه الأنظمة، وأي رأي آخر يعدل أو تعاد صياغته بما يساعد على تكريس الفكرة، فإن لم يمكن ذلك يلغى، وهذه السيطرة السياسية على الوسائل والمراكز الإعلامية جعلت المتلقي يعزف عن متابعة ما يقدم فيها؛ لأنه يعرف أن ما يقدم حتى لو كان حقيقة؛ فهي حقيقة متحيزة، أومن جهة واحدة، لا تعبر عن تطلعاته، ولا عن آماله؛ فهي لا تتوائم مع نبض الشارع بقدر ما تتوائم مع نبض النخب الحاكمة، فلا حياد في الإعلام.

وفي حكمه على وسائل الإعلام، يشخص «بيير بورديو» اهم المصطلحات التي تخص التناول الإعلامي وأعتسافه تجاه المتلقي، وارتباطه بالعنف والسلطة، ومصطلح «العنف الرمزي»، واحد منها، فهو مصطلح يستخدم مقابل لـ«العنف الجسدي» الذي تستخدمه القوات البوليسية كقمع مجموعة من المتظاهرين مثلا، والعنف الرمزي هو «الاكراه الذي بواسطته يتأزر المسيطر عليهم مع السيطرة التي تمارس عليهم، وذلك لأنهم ضحايا أنظمة إدراك وتقدير ادمجوا فيها» وميدان «العنف الرمزي» هو الشاشة وجنوده هم المرتزقة من الإعلاميين والصحافيين وموالي الأنظمة التعسفية الذين اتخذوا اسم المثقفين زورا وبهتانا، والذين اطلق عليهم «بورديو»: «كلاب الحراسة الجدد» واما الاسلحة التي يستخدمونها فهي سلاح التلاعب بالكلمة والصور الذهنية، وتفريغ الواقع من واقعيته، ومن هنا تأتي خطورة «الشاشة» إذا ما تم تركها بلا رقيب هكذا، فإن «بيير بورديو» يؤكد أن الشاشة أصبحت إحدى أدوات الضبط والتحكم السياسي والاجتماعي في المجتمعات الراهنة، وهذا هو التطبيق العملي لأدوات العنف الرمزي الذي تمارسه الطبقات الاجتماعية التي تهيمن على أدوات العنف الرمزي، والتي تسيطر على وسائل ضبط المجتمعات.[566]

الفوبيا الإعلامية

دعونا نبدأ من احداث الحادي عشر من ايلول وما رافق هذه الكذبة من ضجيج إعلامي أدخل الرعب بداخلنا، والحقيقة التي اعتبرها البعض (Taboo) لا يمكن البحث والاقتراب منها، كما اعتبرها البعض الزلزال الذي سيدمر العالم، الى

(566) محمد علي فرح، صناعة الواقع وضبط المجتمع، أفكار حول السلطة والجمهور والواقع، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2014، ص330-334

آخر مصطلحات التي رافقت تلك الاحداث التي كانت لعبة مفبركة وعالية الدقة غايتها ان تكون الذراع التي يضرب بها كل من يحاول عصيان وحيد القطب، اما التسونامي الإعلامي الآخر في قرننا الحالي فقد جاء تحت شعار تعليب الديمقراطية ونشرها، وكانت اولى ضحايا هذا المنتج الامريكي الذي حمل صورة جورج بوش الابن كصفحة غلاف، تدمير العراق ونهب ثرواته وسرقة تاريخه، اما البدعة التي تلت اكذوبة الديمقراطية هي الازمة المالية العالمية، التي روج لها الإعلام وطبل وزمر، وكثيرة هي الامثلة التي يبث من خلالها الإعلام الرعب في قلوبنا وقد نكون نحن ابناء العالم الثالث، حسب التصنيف الاعلامي المرعب، اكثر المتضررين على اعتبار اننا لم نعد نمثل الاسواق لتصريف المنتجات الغربية، بل اصبحنا حقول تجارب لتلك الدول، إذا هي الفوبيا من الآتي عبر الإعلام، لكن يبقى السؤال الاخطر من يدير هذه الفوبيا؟ ويصدرها إعلاميا وينفذ عملياتها على ارض الواقع؟ هي حرب معلنة في ستار إعلامي مدروس ومبرمج معطيات كثيرة لا تعد ولا تحصى، وطالما اننا قلنا حرب فمعطياتها واضحة وتوجهاتها واضحة إلا لمن في عيونهم عمى وفي آذانهم صمم، والبرامج الموجهة والحملات الإعلامية المدججة التي تطالعنا في كل يوم بقناة أمريكية موجهة للعرب بلغتها العربية وعناصرها العربية، او ببرامج تدس السم في الدسم، او بتحركات هنا وهناك لإثارة العالم ضد الاسلام والمسلمين، أو بقلب الحقائق وتدويرها وتدويلها بشكلها المزور، اما عناصر هذه الحرب فهي تتضح من خلال الكلمة والصورة وتقنيات إعلامية عالية التطور، هذا التطور الهائل والمتسارع يجعل من أدوات الإعلام وعناصره عجينة طيعة يجري تشكيلها كيفما يبرمجها العقل الامريكي العالمي المدبر والمدمر المسيطر على الإعلام العالمي[567]

الاعتساف عبر نشرات الاخبار

يقول بيير بورديو: الصحفيون يشبهون «نظارات» خاصة بوساطتها يرون أشياء معينة ولا يرون الاشياء الاخرى، كما أنهم يرون هذه الاشياء بطريقة معينة، أنهم يمارسون عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الذي تم اختباره[568] ويبدو ان

(567) ميساء نعامة، الفوبيا من الإعلام واصعف الايمان، مجلة الباحثون، دار الشرق للطباعة والنشر، سوريا، العدد 31 كانون الثاني 2010، ص117

(568) بيير بورديو، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، م. س، د، ص49

منظر الدماء على شاشات التلفزة أصبح أمرا من الخوف الاعتيادي عليه، فالإعلام المتلفز العربي والعالمي ومواقعه الالكترونية وتغريدات الرؤساء والمسؤولين تطالعنا ضمن دراما نشرات الاخبار اليومية، مشاهد دموية تقشعر لها الابدان، لكنها تعجز عن تحريك لضمائر، أنه الإعلام الذي بتنا نخاف على اطفالنا من مشاهدة نشرات الاخبار العربية خاصة، على اعتبار أنها المعنية في نقل الوجع الدموي العربي، لكننا في حقيقة الامر لا نخاف على اطفالنا من منظر الدم اليومي بقدر ما نخاف من سؤالهم لماذا يستباح الدم العربي؟، ترى كيف ستكون الاجابة عن هذا السؤال؟ لقد اصبحنا نستبق مشهد نشرات الاخبار عبر توقع الكوارث ومشهد الدماء، وحرائق ونزاعات وأزمات إلى ما هنالك من عنف يقض مضاجع نومنا وحياتنا بشكل عام ومنعكسات هذا العنف على الحالة العصبية التي باتت الفيروس واسع الطيف بين معظم الافراد، اما تصدير العنف الدرامي والبرامجي وحتى الغنائي، فأنه مملوء بالوخز القاتل والاعتساف المتفرد، ومنصات دعائية تمارس الاعتساف والقهر.

يقول روجرز ماثيوس في مداخلة في ندوة الصحافة العالمية:(كل الحكومات من دون إستثناء تكذب، وواجب الصحافي أن يكشف الحقيقة) وعليه فأن مهنة الإعلام ترتكز بالدرجة الأولى على (الدقة في نقل الخبر والسلوك المسؤول تجاهه) فالإعلام، فن وصناعة وإستخدام الوسائل والأدوات السمعية، المرئية والمكتوبة، الناقلة للجمهور المتلقي في الفضاء المعلوماتي أو ما يشكل شبكة الاتصال بين البشر في المجتمع الإنساني، فالمؤسسات الإعلامية، مرئية كانت أم مكتوبة أم مسموعة، عادة ما تكون منحازة إلى طرف سياسي (حكومي أو خاص) وخاضعة لسلطة مالية ما، وكثيراً ما يقع الصحافيون في فخ الانحياز- عمداً أو عن غير قصد- سيما في تغطية الحروب والأحداث الجسام، والأمثلة على ذلك كثيرة في تعطيات وسائل الإعلام الأمريكية والعربية لأحداث 11 أيلول/سبتمبر وحربي أفغانستان والعراق وتعاطيها مع صعود الإسلام السياسي، على سبيل المثال لا الحصر، وبعد تجربة إدارة بوش وحملة الأكاذيب والأضاليل التي روجتها بتواطؤ بعض الإعلاميين الأمريكيين البارزين في تبرير شن الحرب على العراق وإحتلاله، لا نحتاج إلى إثباتات قاطعة على إستمرار هذا السلوك المشين، فالمهنية في عالم الإعلام ترعاها القوانين ومواثيق الشرف الإعلامي

التي تضبط العمل الإعلامي في إطار قانوني مسؤول يحفظ حرية الإعلام وحرية المواطن على السواء ومنع التجريح والحديث على الكراهية أو العنصرية، وهناك أربعة شروط أساسية تتعلق بمهنية الإعلاميين ليتمكنوا من أداء دورهم بأفضل وجه وهي: الموضوعية، المصداقية، الالتزام، التوازن. والابتعاد عن التحيز، فالتحيز الإعلامي معناه: أن تتحيز وسائل الإعلام للوضع الراهن ضد التغيير، أو للتغيير ضد الراهن، أو للسلطة ضد قوى المعارضة أو لجماعة أثنية ضد أخرى، كما لا يخفى على أحد أن التحيز يحمل في طياته دلالة التحامل بما يفيد الإيديولوجيا.

الاعتساف الإعلاني في الفضاء العام

يقول جورج اورويل: "الاعلان هو تحريك عصا داخل صندوق قمامة" فالإعلانات مصممة من اجل التأثير العاطفي، وليس الفكري، أي بالمفاهيم التعليمية من اجل الإغراء العاطفي، رجال الاعلانات ليسوا معتمدين على التفكير، بل على الشعور، إذ ان الاشخاص في الاعلانات يعتمدون على دراسات ديمغرافية ونفسية لتصميم إعلان لتصوراتنا الشخصية لذاتنا، المعلومات الديموغرافية تخبرهم اشياء كأعمارنا، وجنسنا، ومواردنا المالية، وما شابه ذلك، إذ المعلومات النفسية تخبرهم عن تخيلاتنا، وعن عاداتنا الاساسية، معلومات كهذه توفر ملفا عن الحياة الشخصية، والتي نستخدمها التكتلات الإعلامية، بحيث دعاياتهم تتناسب مع ملفاتنا تلك، عندما يحصل ذلك، يكونون قد سيطروا علينا، وتلاعبوا بسلوكنا الشرائي، لقد تم امتلاكنا.[569] ويتجسد ذلك في:

1 - اغراء اللاوعي: مظهر من مظاهر إحساسي الذوق او النكهة، إذ ان التجاوب مع وسائل الاعلام المتعددة الاحاسيس ليس مفهوما جديد في نظرية الاتصال (ولا حتى الحس المترامن) وذلك عبر تحفيز احد التجاوبات الحسية عبر حاسة اخرى ضمن منافذ التأثير.

2 - وجود المناخ المناسب الذي خلّفه جهل القوم، وهنا جهل المتلقي الذي يروج للاعتساف ويدافع عنه.

(569) ويلسون برين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، م، س، ذ، ص15-16

3 - حالة التهديد الدائم الذي يصاحب الانسان: اعتبر الباحث (مصطفى الحجازي) أن الاحتماء بالزعيم المنقذ، التعلق بالأبطال، كاللجوء إلى الأولياء، تحمل جميعا الدلالة ذاتها من الناحية اللاوعية، أنها عملية إيجاد نوع من التوازن مع صورة الأب القاسي المسيطر المهدد، من خلال خلق صورة الأب العطوف الحامي والمنقذ الذي يتعلق به، صورة الأب الإيجابية هذه تحد من حالة التهديد الدائم الذي تصاحبه، ومن هنا نفهم مدى تعلق الإنسان المسحوق بأبطال التاريخ الشعبي ومدى اهتمامه بسيرهم، التي تدور دائما حول إنقاذ الضعيف وحماية وإنصاف المظلوم، ومن هنا نفهم مدى الاتكالية التي تظهرها الجماهير المسحوقة في تعلقها الإنقاذي بالزعيم المنقذ.

وحال وسائل الإعلام هو حال ما فعله فرعون بقومه، لكن العناية والرعاية الإلهية التي بددت محاولات فرعون الإجرامية، والتنكيلية، فلم يغن عنه قتل الولدان وذبحهم شيئا، ليتفاجأ فيما بعد أنه أخطأ أمام إرادة الله سبحانه وتعالى، إنه موسى الفتى الذي ترعرع وتربى في قصره، وتقوى من إغداق ملكه، فكان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثلما يلبس، وكان يدعى موسى بن فرعون، ونهل ما نهل من العلم والمعرفة، وعلم ما علم من اعتساف عقلية فرعون وجوره، لأنه كان مقرّبا منه، ولكن لم يكن لكي يكون ظهيرا له مثلما كان الأتباع من قومه، وإنّما لكي يكون عدوا له وحزنا، ولذلك فإن اهم وسائل الاعلام مقربة من السلطة لكونها تشكل احد الدوافع المهمة للفعل التواصلي، ولا سيما انها تمنح المعتسفين الدعاية التي يسعون إليها، والمعادلة السياسية - الإعلامية الأمريكية في حرب العراق أفرزت تساؤلات كثيرة حول حرية الرأي والتعبير، ومدى استقلالية الإعلام عن السلطة، وحق الإعلامي في نشر الحقيقة، وحرية الإعلام في أن يكون رقيباً على أداء الحكومة، هذه تساؤلات تثار على الصعيد المحلي داخل الولايات المتحدة، وأما خارجها، فإن الإشكالية المهنية تدور حول مدى حيادية الإعلام الأمريكي، حتى وإن كان تابعاً أو خاضعاً لسلطة الحكومة، ومدى موضوعية المضامين التي ينقلها هذا الإعلام للرأي العالمي أو المحلي، بيد أن المتتبع لفلسفة الإعلام الأمريكي لا تخطؤه حقيقة ظاهرة، وهي أن هذا الإعلام كان مصدر الإسناد الأول للمشروع

الأمريكي في العراق، من خلال تطبيق مفهوم «حجب المعلومة» بأساليب شتى، وطرقاً عدة، ووسائل متنوعة، إذ إن وسائل الإعلام المختلفة وما تبثه من سموم في المجتمع بعرضها مشاهد الإرهابيين وبياناتهم إنما كانت توقع المشاهد في شرك نفسي وعقلي لا يقدر معه على الفصل أو التمييز بين الواقع والوهم أو بين الحقيقة والخيال والخير والشر، بين الممكن وغير الممكن، إذ أن الناس في المجتمعات المعاصرة أصبحوا أكثر إعتمادا على مصادر غير شخصية للخبرة وإن صناعة الثقافة الجماهيرية أصبحت منتجاً تقدمه وسائل الإعلام ويقف في مقدمتها مواقع التواصل الاجتماعي والفضائيات التي تنفرد بالاستخدام غير الانتقائي من قبل الجمهور والناس يمتصون المعاني التي تقدمها بشكل غير واع مما يخلق وجهات نظر وغرس معتقدات جديدة لديهم، وأصبحت هذه المواقع والفضائيات تحتل مساحة هامة في حياة المواطن، فالنتاجات الفيلمية المسلحة روجت من خلال ما عرضته من أفلام للقائمين بالإرهاب أفرادا وجماعات لموضوعة الإرهاب وامتلكت هذه النتاجات شكلاً معبراً، أعتمد على التأثير من خلال التقنية المستخدمة وقد تركت مواقع التواصل الاجتماعي والتلفزيون من خلال تقديمهما لهذه النتاجات تأثيراً في مجالات نشر ثقفة الإرهاب بين الشريحة المجتمعية الأكثر تأثراً بهذه الوسائل الإتصالية مما جعل المجتمع في توتر مستمر أثر منهجية الفضاء المفتوح التي زرعت الشك في نفوس أبنائه عبر ما تقدمه من مغالطات وتداخلات إعلامية، لكون ما تملكه وسائل الإعلام، خاصة الالكترونية منها والفضائية من إمكانات مهمة تستطيع من خلالها التأثير على الجمهور المتلقي، فهي تستطيع تكوين قناعات جديدة وتفنيد أخرى قائمة، وإضفاء الشرعية على أمر ما من خلال الإقناع وحشد الطاقات بإتجاهه، كما أن هذه الوسائل تستطيع أن تخلق نوعاً معيناً من الجمهور يؤمن بما تطرحه حتى وإن كان يخالف قناعاته حيث أن الإتساق بين ما يطرح وتكراره يرسخان الفكرة المطروحة ويجعلانها أقرب للتصديق والإيمان بها من قبل الجمهور المستهدف، وتساهم وسائل الإتصال في التأثير المتدرج على الفرد المتلقي من حيث تأسيس فكره السياسي والثقافي بإمداده بالمعلومات والمعارف وصولاً إلى هندسة آراءه ومعتقداته وإتجاهاته، ومن ثم سلوكه الاجتماعي والحياتي مما يؤثر في المجتمع طبق التشكيل الجديد لبديهياته وتصديقاته وتصوراته ورؤاه.

فالتحريض على الكراهية في الخطاب الإعلامي أحد اقسى الاعتساف الإعلامي، وعدّ بعض الباحثين بأن «التحريض على الكراهية» هو أحد أبرز القضايا الشائكة المرتبطة بحرية التعبير، وهي قضية تلعب الممارسات المهنية في الكتابة دورا رئيسا في تلافيها، إذ أن بث خطاب الكراهية يصبح أيسر وأكثر سهولة نتيجة عدم الالتزام بالممارسات المهنية في الكتابة الخبرية، ويلعب الالتزام بالمعايير المهنية في الكتابة الخبرية، ومنح كافة الأطراف مساحات متساوية في التغطية الإخبارية، وتوفير توازن في المصادر، ووضع الأخبار في سياقها، دورا أساسيا في توفير مساحة للأطراف المعرضة لنتائج سلبية لهذا الخطاب في الدفاع عن نفسها والرد على هذا الخطاب، كما يؤدي تلافي تحيز الكلمات ذات الحمولات والتنميط إلى الحد من خطاب الكراهية، والذي يستند في غالبية الأحوال على إعتماد مثل هذه التحيزات خاصة عند ربطها بتحيز تقديم الرأي كخبر، إذ إننا صرنا في الإعلام العربي الفضائي إقصائيين، نمارس الاعتساف، وفي كل الخنادق، نتراشق السباب والاتهامات ولا ندرك حجم تأثير ذلك على المنظومة المجتمعية والقيمية المرتبطة بها.

البث الدموي سيرك لأخلاقنا

يكتب الصحفي الاردني مالك العثامنة المقيم في بروكسل في عموده الاسبوعي في جريدة القدس العربي: يبقى واقعنا العربي بكل أزماته الدموية المستمرة في عرضها المتواصل، ذخيرة حية تطلقها محطاتنا الإخبارية خبرا عاجلا يصيب الوجدان ويهتكه، أية فائدة يمكن تحقيقها من كل هذا البث الدموي لنهايات بعض القادة العرب، لقد صرنا نشهد ظاهرة اللذة في رؤية الدم والموت بأبشع صوره، وصار المشاهد العربي يتسمر أمام الشاشة (تلفزيون أو موبايل) ليتتبع خيط الدم وتفاصيل الجثة المعروضة أمامه كأنك في قاعة تشريح مفتوحة للعلن أو عرض سيرك لأخلاقنا، في مقتل علي عبدالله صالح (الرئيس اليمني)، تصارعت الفضائيات مع وسائل التواصل الاجتماعي لبث هذا المشهد غير الإنساني في التعامل مع جثة، تصوير المشهد بكاميرا تهتز بحماسة مع مصورها، ومجموعة أخرى تتحلق حول الجثة، وهم يتراقصون حولها كالضبع وطيور القمام، فالجثة الملفوفة ببطانية وسخة لا حول لها ولا قوة لها وتفاصيل البشاعة التي لم نملك إلا أن نتجرعها غصبا ونحن نشاهد أجزاء

من رأس في غير محدها، أي حد من الانحدار وصلنا إليه لنتنافس على إرضاء غرائزنا الدموية بهذا الشكل؟ اتفقنا أم اختلفنا مع هؤلاء الطغاة، اليست للجسد كرامة؟ أليس للموت أدنى حرمة، طيب فلنفترض أنهم طغاة إلى حد إنكار حقهم بالكرامة بعد موتهم، أليس للأحياء من المشاهدين أدنى حق بمشاهدة تليق بإنسانيتهم؟ كم طفلا من المحيط إلى الخليج شاهد المقطع الدموي؟ كم صورة ترسخت في عقل هذا الطفل وسيكبر ليبني عليها قيما جديدة تتناسب وهذا الدم العالق في وجدانه وعقله؟ كان مشهدا مكررا سبقه مشهد الموت المعلن والبشع لمعمر القذافي بإخراج همجي وقبله كذلك شنق صدام حسين وهو المشهد الذي ضاعف وهم الخرافة، إذ إن ما نراه من بشاعة في المشهد، الذي وللمفارقة نحن من نصوره ونخرجه ونقدمه منتجا جاهزا للفضائيات، التي يثيرها الدم، ليست الأولوية فيه استحقاق القتيل (فهو ميت) لكن الأولوية فيه استحقاق إنسانيتنا كمشاهدين! ويقترب هذا الطرح من معرفة طبقات المجتمع الفرعوني في فكر السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) التي تلتقي مع طبقات المجتمع الإعلامي والذي يحدد بأن الفرعونية على مر التاريخ تبني العلاقات بين الانسان وأخيه الانسان على أساس الظلم والاستغلال، ومن هنا تهدر ما في الانسان من قدرة على الإبداع والنمو الطبيعي على سلامة علاقات الانسان مع الطبيعة، وعملية التجزئة الفرعونية للمجتمع تفرز عدة فصائل وجماعات أبرزها:

- **الجماعة الأولى**: ظالمون مستضعفون، في نفس الوقت الظالمون الثانويون او بحسب تعبير ائمه اهل البيت(ع) أعوان الظلمه، فهؤلاء يشكلون حماية للفرعون والفرعونية وسندا في المجتمع لبقاء الفرعونية واستمرار وجود إطارها، وهي جماعة تشبه جماعة وسائل الإعلام التي تدافع بقوة عن افكار وأخبار مالكيها وداعميها وتفعيل برامجهم تجاه الأخر المختلف، مصلحيا، سواء كان سياسيا أم تاجرا.
- **الجماعة الثانية**: ظالمون يشكلون حاشية ومتملقون، أولئك الذين لا يمارسون ظلما بأيديهم بالفعل ولكنهم دائما وابدأ على مستوى نزوات فرعون، يسبقونه بالقول من اجل ان يصمموا مسلكه ومسيرته، وهو ما يفعله الإعلاميون مع مؤسساتهم للتقرب ممن يقف وراءها.
- **الجماعة الثالثة**. وهم الذين عبر عنهم الامام علي (ع) بـ (همج رعاع) جماعة هم مجرد آلات مستسلمة للظلم، ولا تدرك ان في المجتمع ظلما. هذه الفئة تفقد كل

قدرة على الإبداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة، وما يشبهه الكثير مما هو يلتحق بركب الرعاع للكسب فقط دون الوعي بخراب المجتمع.

-**الجماعة الرابعة**: وهم أولئك الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم اولئك الذين لم يفقدوا لبهم امام فرعون والفرعونية فهم يستنكرون الظلم لكنهم يهادنونه ويسكتون عنه فيعيشون حالة توتر وقلق في انفسهم وهذه الحلة أبعد ما تكون عن حالة تسمح للإنسان بالإبداع والتجديد والنمو على ساحة علاقات الانسان مع الطبيعة وهؤلاء يسميهم القرآن ظالمي انفسهم، ووفق هذه الجماعة نجد ان هناك صيحات قاهرة بشأن الفقر الفكري ونزاهة الخطاب الإعلامي وفقدان الابداع وغياب الحقيقة.

- **الجماعة الخامسة**: وهي الطائفة الى تتهرب من مسرح الحياة وتبتعد عن المسرح وتتهرب منه وهذه الرهبانية موجودة في مل مجتمعات الظلم على مر التاريخ، ومثله يتجسد في الانزواء وعدم تقديم الحلول الكفيلة بإصلاح الرسائل الإعلامية وهي تتخذ صيغتين:

الأولى: صيغة جادة. رهبانية جادة تريد ان تمر بنفسها لكي لا تتلوث بأوحال المجتمع هذه الرهبانية الجاده عبر عنها القرآن بقول (ورهبانية ابتدعوها) وهذه الرهبانية يشجبها الإسلام لأنها موقف سلبي تجاه مسؤولية خلافة الانسان على الأرض.

الثانية: صيغة مفتعلة يترهب ويلبس مسوح الرهبان ولكنه ليس راهبا في أعماق نفسه وإنما يريد بذلك ان يخدر الناس ويشغلهم عن فرعون وظلم فرعون ويسطوا عليهم نفسيا وروحيا.

-**الجماعة السادسة**: وهم المستضعفون، إذ أن الفرعونية حينما جزأت المجتمع الى طوائف استضعفت طائفة معينة منهم لأنها هي الطائفة التي يتوسم ان تشكل إطار للتحرك ضده ولهذا استضعفها بالذات، وقد علمنا القرآن الكريم ضمن سنن التاريخ أيضا أن موقع أية طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم يتناسب عكسيا مع موقعه بعد إنحسار الظلم وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ "سورة القصص الاية5"

معادلة الاعتساف وبناء الثقة

في ضوء اعتساف وتشتت الإعلام والغياب المزمن لتوافق الآراء بشأن المعايير والممارسات الصحفية، لا يزال الصحفيون يستخدمون استراتيجيات مختلفة لبناء الثقة بين صفوف الجماهير، وتقوم استراتيجيات بناء الثقة على أساس مجموعتين من التوقعات: مهنية وعقائدية، وفيما تنطلق الاولى من فكرة ان الصحافة مسؤولة تقنيا عن تقديم الاخبار، فإن الثانية تستهدف بناء المصداقية على اساس الفكرة القائلة بأن الصحافة تدافع عن مصالح بعينها، وفيما تقول الاولى عليكم ان تثقوا بي فأنا الخبير، فـأن الاخرى تقول عليكم ان تثقوا بي فأنا «واحد منكم» وفيما تتفق الاولى مع نموذج «صحافة المعلومات» فإن الثانية تتفق مع نموذج «صحافة الافكار»[570] فتربية أبنائنا وجماهيرنا ليبغضوا الاساليب الفرعونية في التناول الإعلامي أشدَّ البغض، ويحترسوا أشدَّ الاحتراس من الخَواء الرُّوحي، وضعْف الفاعليَّة، وتفرُّق الكلمة التي تبذر بسطء بذور القابليَّة للاستخفاف، هذه الحالة التي تُعتبر معصيَة دينيَّة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[الزخرف: 54]، وإرهاصًا بموت الأمَّة، فلا يجوز لنا التَّساهُل مع مَن يستسيغون الفرعونية ويُبَرِّرونها بذَرائع مختلفة، ويدعوننا إلى الصبر بمعناه السلبي المتمثِّل في طأطأة الرُّؤوس، والانسحاب من ميادين إثبات الذات، والعمل بقاعدة التصوُّف الأعجمي: «دعِ الخلق للخالق والملك للمالك»، إنَّنا في حاجة إلى التشبُّع بثقافة العِزَّة والكرامة والهمَّة العاليَة حتى نرتَقِي إلى مصافِّ الأمَم التي تستحقُّ تولِّي مهامِّ الخلافة والعمارة، والتمكين في الأرض، فإذا كانت الفرعونيَّة مُصيبة فإن القابليَّة للاستخفاف تُساويها بل قد تتجاوَزها؛ لأنها تُمثِّل التخلِّي عن خصائص الإنسان المكرَّم.[571] ويصف د.جاك شاهين في كتابه «عربي التلفزيون» ردود فعل طفليه على الصورة السلبية المشوهة للعرب في برامج التلفزيون الأميركي ومحاولة تغيير هذه الصورة لديهما بالتأكيد على دور فنانين

---

(570) مجموعة مؤلفين بإشراف كاترين فولتمر، وسائل الاعلام الجماهيرية والاتصال السياسي في الديمقراطيات الجديدة، ترجمة: محمد الخولي، مراجعة: هيثم غالب ناهي، المنظمة العربية للترجمة، بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2016، ص197-198

(571) عبدالعزيز كحيل، الفرعونية والقابلية للاستخفاف، وفق الرابط: http://www.alukah.net/culture/0/21681/#ixzz4etWo6M6e

أميركيين مرموقين متحدرين من أصل عربي مثل الممثل الكوميدي داني توماس والمغني والملحن والممثل بول أنكا، ولتوثيق الصور السلبية للعربي في التلفزيون الأميركي قام جاك شاهين بدراسة أكثر من 100 مسلسل وبرنامج رسوم متحركة وأفلام وثائقية تلفزيونية تتعلق بالعرب وتشتمل على أكثر من 200 حلقة تلفزيونية عرضت على شبكات التلفزيون الأميركية، وتؤكد جميعها على الصورة النمطية السلبية للعرب، واستعرض د.جاك شاهين، في كتابه الشهير «العرب الأشرار في السينما.. كيف تشوه هوليوود أمة» أكثر من 900 فيلم أميركي ظهرت فيها شخصيات عربية، ووجد أن 12 فيلما منها فقط تقدم صورة إيجابية للعربي و50 فيلما تقدم صورة متوازنة، في حين أن البقية، وهي الأغلبية، تقدم صورة سلبية للعربي إذ أن العرب يظهرون كأشخاص مختلفين وخطرين عبر العدسات المشوهة لهوليوود، وقد تحوّل هذا الكتاب إلى فيلم وثائقي يحمل العنوان نفسه في العام 2006، وقام د.جاك شاهين بدور الراوي في هذا الفيلم الذي أظهر فيه كيف أن الاستمرار في تقديم الصور السلبية في الأفلام السينمائية الأميركية أسهم مع مرور الوقت في تطبيع مواقف التعصب المجحف نحو العرب والثقافة العربية، ما أدى خلال ذلك إلى تعزيز نظرة ضيقة نحو العرب وتعزيز تأثير السياسات الأميركية المحلية والدولية المحددة على حياتهم، إذ إن الشخصية النمطية الواسعة الانتشار للعربي مزروعة في النفسية الأميركية، ويستشهد شاهين بعدد من الأفلام الأميركية التي تعزز هذه الصورة النمطية، فهذه الأفلام تكشف ثلاث أساطير أساسية منتشرة على الدوام حول العرب:(أنهم أثرياء بشكل خرافي، أنهم همجيون ومتخلفون، أنهم مهووسون جنسيا ومولعون بشكل خاص بالنساء الغربيات) إذ أن هذه الأساطير ليست مقتصرة على السينما، بل تظهر أيضا في الرسوم الكاريكاتورية وخير شاهد ما فعلته جريدة شارلي أيبدو من رسومات تستخف بالإسلام والمسلمين، وكذلك المسلسلات التلفزيونية والمسلسلات القصصية المصورة في الصحف والكتب المصورة والكتب الجامعية والمدرسية والروايات والمجلات والصحف والسلع والهدايا المسلية والطريفة.

إن من النتائج المترتبة على الثورة الإتصالية التي شهدها عالمنا المعاصر، إنتشار الإعلام الالكتروني والفضائيات، فكل الفضاء المفتوح يحمل توجهات قيمية

وأيديولوجية مختلفة، تثير منذ ظهورها جدلاً واسعاً بين الأوساط العلمية، إلى جانب الجدل الدائر بين أوساط عامة الناس، فلقد أنقسم هؤلاء، سواء من الأوساط العلمية أو من عامة الناس إلى فريقين إثنين، فريق مؤيد، يرى في الفضاء المفتوح وسيلة إتصالية تسهم في إشاعة المعرفة عن العالم المحيط بنا، وإنها تؤدي وظيفة الترفيه والتسلية، كما تؤدي وظيفة الأخبار، بمعنى أنها تطلعنا على العالم برمته وتجعله في لحظات معدودة أمام أنظارنا، كذلك لا تكمن وظيفتها كما يزعم المؤيدون على نقل أخبار العالم السياسية فحسب، وإنما تنقل الينا كل جديد عن العالم، لكي نكون على إتصال بما يجري فيه من أحداث وتطورات، وفريق معارض يرى في الفضاء المفتوح، إنها وسيلة إتصالية تستهدف تزييف وعي الأفراد، ومن ثم تصرف أنتباههم إلى قضايا أقل أهمية، وأية ذلك، فأن هذا الجدل، لما يزل بعد، دائراً بين الأوساط العلمية منها والشعبية،وتكمن فلسفة الأدوات الإتصالية الجماهيرية بشكل خاص في قدرتها على تحرير العملية الإتصالية من قيود الزمان والمكان أولاً، وفي خلقها نوعاً من البنية الصورية بين الإنسان والعالم الموضوعي الحقيقي ثانياً، وبذلك أستطاعت أن تقوم بما يأتي:(572)

1 - **إنها تغلف (الواقع الموضوعي) بنوع من (الواقع البديل)**: وهنا تكمن خطورة إستثارة الأساطير الدعائية في إثارة الجمهور، وأساطير «الشيوعية» و«النازية» تمثل نماذج واضحة لذلك، إنها تقود ما هو حسي عقلاني، إلى ما هو غير منظور لا شعوري، وبذلك تغلب التأثيرات العاطفية على الحس العقلاني للجمهور، من خلال ممارسة هذه الوسائل على المدركات الحسية، دور القوى الترويضية الفاعلة.

2 - **أصبحت إحدى الأدوات السلطوية في ممارسة (الضبط الإجتماعي) وفي ترسيخ** أيديولوجية وقيم السلطة الحاكمة المسيطرة على هذه الأدوات.

3 - **إتساع حجم المشاركة في الممارسة السياسية والإجتماعية والإقتصادية**، فلم يصبح العالم قرية صغيرة بحسب تعبير ماكلوهان؟ وهو أوضح تعبير عن إتساع حجم المشاركة هذه.

---

(572) د.حميدة سميسم، نظرية الراي العام، مدخل، م، س، ذ، ص285

4 - **يمثل الفضاء المفتوح أهمية لا سيما بين وسائل الإعلام الالكترونية**، فهو ينقل الكلمة والصورة المسموعة والمرئية فضلاً عن أنه يخاطب الأميين والمتعلمين على إختلاف مستوياتهم التعليمية، ويعد وسيلة ترفيه وتسلية في حين ينظر إليه البعض الآخر على أنه جهاز له إمكانية إعلامية وسياسية وتعليمية واسعة إذ أنه معطى خطيراً في حياة الأمم، والشعوب والأجيال.

5 - **التجاوز القسري للحدود الوطنية**: منذ وقت مبكر أثار التلفزيون الكثير من مخاوف علماء السياسة والإجتماع وتوقفوا عند ظاهرة التأثير المتواصل لهذه الأداة، مقابل نفوذ العائلة والمدرسة والقادة المحليين وأضحت الدعاية السياسية المتسلطة عبر التلفزيون أشد تأثيراً وأقوى فاعلية من كل أشكال الدعاية الأخرى وتعزز ذلك بالتحاوز القسري لحواجز الحدود الوطنية للدول، وأنظمة الرقابة وأسيجة الحماية الألكترونية وأضحى التلفزيون والبث عبر الفضاء أو الفضائي على وجه الدقة هو العامل الفاعل الذي يجمع المتلقي بكل مايحيط به من أحداث على مستوى بيئته والإطار العالمي.

6 - **تركيز الاهتمام على القضايا المهملة والمسكوت عنها**. إن الحياة اليومية مليئة بالمفردات الجديرة بالإهتمام، بعيداً عن دائرة الإرهاب والعنف، وتركيز الإهتمام على القضايا المهملة والمسكوت عنها ليس نجاحاً مهنياً بقدر ما هو نجاح سياسي وفكري، لأنه يرسخ معنى مختلفاً للبرنامج الإخباري من ناحية، ولأنه يرتفع بمعنى الإثارة وتهييج العواطف والمشاعر إلى أفق جديد يختلف عن الدعاية الدائمة للعنف والإرهاب كما هو الحال في المواقع الالكترونية.

7 - **تصنيع الثقافة**: نجحت الدول الغربية الصناعية المتقدمة، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، في (تصنيع الثقافة) وتعليبها في معلبات براقة ذات جاذبية هائلة سريعة التأثير قوية الإنتشار، مستفيدة من ثورة التكنولوجيا الحديثة، مما أدى إلى تعميم ثقافتها ونشرها عبر وسائل التواصل الأجتماعي، وكأنها معلبات تعتمد على الإبهار الفني الجذاب أكثر مما تعتمد على العمق الثقافي الأصيل،وأصبح تدفق المعلومات من خارج البلدان العربية إلى داخلها وإنسيابها والحصول عليها من قبل الناس جميعا ممكناً بفضل ثورة المعلومات

وثورة الإتصال، وصار بإمكان الفرد إمتلاك هذه المعلومات ومقارنتها وتحليلها وتشكيل موقف في ضوء ذلك، وصار من المتعذر على أية سلطة منع هذه المعلومات أمام ضعف الامكانات العربية في مجال الإتصال وعدم تأدية وسائل الإتصال وظيفتها وتحقيق أهدافها، وأصبحت البلدان العربية جاذبة للتدفق الإعلامي والثقافي، من أوربا وأمريكا، ولم تلحظ الأنظمة السياسية العربية مبكراً هذا التدفق وتجاهله خلال أربعة عقود ولم تشعر به إلا بعد إنتشار التوابع الفضائية وتجاوز الإرسال التلفزيوني والمعلومات الحدود بدون إذن، وبقوة وعمق وسهولة إنسياب.

8 **إشاعة إعلام التهريج:** تؤكد دراسات إجتماعية كثيرة أن واقع الإعلام العربي في ترديه ما هو إلا إنعكاس لحالة المجمع العربي في إنكساراته الملاحقة بعد سقوط المشروع النهضوي العربي، وتراجع الحريات أو إنعدامها، وسحق فكرة الرأي والرأي الآخر، وأن تبني مفهوم إعلام تزييف الوعي بدأ من الإذاعات العربية التي أعتمدت الخطاب «الحنجوري» مروراً بالصحف الصفراء وكتاب الأعمدة وقادة الرأي العام الذين خانوا الأمانة وأصبحوا من كتبة السلطان، وما كدنا نتخلص من الخطاب الإعلامي العربي المزيف للوعي، حتى هاجمتنا جحافل جديدة من الإعلاميين العرب ومنهج جديد عرف بإعلام التهريج.[573]

9 - **خضوع الرسالة الإعلامية لعوامل نفسية:** قدرات الفضاء المفتوح في إحداث التأثير، وظروف المجتمعات، من دون إغفال العوامل الوسيطة التي تعني أن الرسالة الإتصالية ليست هي العالم الوحيد، والأساسي للتأثير، وأن عملية التأثير في ذاتها تخضع لعوامل أخرى كالإنتباه والإدراك والفهم والتذكر الإنتقائي.

10 - **الإعلام المعلب يسيطر على أنماط تفكير المتلقين:** من وسائل إعلام وشركات إعلان وتصريحات رسمية وحجاج وتشغيل العقل» ينزع أولاً نحو أن يتلبس أشكالاً مبتسرة وخاطفة تحاول أن تؤثر بالجمهور.

(573) علي الشعيبي، دور وسائل الاعلام بين التثقيف والترفيه، ضمن كتاب الاعلام العربي في عصر المعلومات، مجموعة باحثين، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2006، ص167

11 - الصراع بين الوسائل والمواطنين: يتسم الفضاء المفتوح ووسائله بأنه يقوم على التناحر والتبادل وقد يصل الى التصاهر عن مختلف القضايا.

تغطية الأحداث أم الترويج لها

تقول الصحفية شيري ماكارني في نيوز داي بتاريخ 20 مارس/آذار 2003، بخصوص الحرب غزو العراق عام 2003، إن: «الأخبار التلفزيونية لم تغط الحرب، وإنما هي روجت لها» فالرغم من أن هناك مشكلات عديدة تعترض التوقع بأن تكون الأخبار عاكسة للحقيقة، فأولاً أن الحقيقة بحد ذاتها تتمثل في أستحالة إيراد جميع الأحداث، وأنه لا بد من اللجوء لعملية الإنتقاء، وتتمثل المشكلة الثانية وهي أكثر جوهرية من سابقتها في أنه لا يمكن معرفة الحقائق وراء الكثير من الأحداث التي يتفق الجميع على إعتبارها قضايا ذات أهمية للجمهور إذ اندفعت مختلف وسائل الإعلام بقوة، لنقل الأحداث والوقائع بصور صادمة ومفجعة، وكأن جميع المشاهدين في قلب معركة ضارية، رؤوس مفصولة عن جثثها، جثث مشوهة، أشلاء أجساد متناثرة، صور التعذيب الوحشي ضد النساء والصغار أو العاجزين أو حتى الأشخاص العزل، ويذكرنا ذلك بمشاهد ما بعد انتهاء كارثة الحرب العالمية الاولى، إذ ظهر اعتقاد عام بالقدرة البالغة لوسائل الاتصال الجماهيرية، برز الاعتقاد بأن وسائل الإعلام قادرة على تكوين الرأي العام، وحمل الجماهير على تغيير رأيها إلى أية وجهة نظر يرغب القائم بالاتصال في نقلها، والفكرة الاساسية التي اعتمد عليها هذا الاعتقاد هي أن الرسائل الإعلامية تصل الى جميع أفراد المجتمع بطريقة متشابهة، وأن الاستجابات الفورية والمباشرة تأتي نتيجة للتعرض لهذه المؤثرات (الرسائل)، فالجماهير عبارة عن ذرات منفصلة من ملايين القراء والمستمعين والمشاهدين، وهذه الجماهيرمهياة دائما لأستقبال الرسائل، وتمثل كل رسالة منبها قويا ومباشرا بدقة المتلقي للاستجابة بالشكل الذي يحقق هدف القائم بالاتصال.[574]

ويتفق الباحثون والخبراء على ان وسائل الاعلام لا تخبرنا بما نعتقد، ولكنها تقترح علينا ما يمكن ان نوافق عليه جميعا لمناقشته او تمثيله في السلوك

(574) د.يوسف محمد، النظريات النفسية والاجتماعية في وسائل الاتصال المعاصرة والالكترونية، دار الكتاب الحديث، سلسلة بناء الاتصال، الكتاب الثاني، القاهرة، 2015، ص379

الاجتماعي، وبذلك فإنها تقدم بداية قبول القضايا العامة من خلال طرحها فتدير حوارا عليها بين الناس، وبذلك فإن وسائل الإعلام تركز على الاحداث العامة والقضايا، لتحقيق التوحد الجمعي، وتشكيل الخطاب الاجتماعي، فهناك عدة مشكلات تعد من الضغوطات المهنية التي يتعرض لها الإعلاميون وأبرزها:(تأويل التصريحات وتجزأتها، إستطلاعات للرأي إنتقائية، تلفيق الشهود، وتعبئة الرأي العام إتجاه قضية ما، إذ يراود المراسلين بكون القصة الإخبارية تصبح نابضة بالحياة حين تكون مدعومة بعبارات منقولة على لسان رجل او امرأة في الشارع بقولهم(لسان حال المواطن يقول كذا وكذا..) والهدف من وراء ذلك هو تعبئة الرأي العام بإتجاه القضايا المختلفة، فضلا عن الوصف الوجيز لآراء شخص ما ومواقفه السياسية يظهر فجأة أنواع المشكلات كلها، فصفات مثل «مصلح» و«متشدد» و«راديكالي» و«رجعي» و«معتدل» و«متطرف» تستخدمها بعض وسائل الإعلام وكأنها نقاط مرجعية ثابتة ومشابهة للتصنيفات الحزبية لكنها ليست كذلك فهي متحركة لا تعرف الجمود ويعتمد معظمها على المنظور الذي تستخدمه لوصفها، كما إنها تستخدم بمضمون إزدرائي، وحتى تحقيري، فمن يخالفك الرأي أو يعارض الأفكار السائدة فهو «متطرف» وهي صفة تحمل كل مضامين «الغلو» الواضحة التي تحيل إليها الكلمة، ولا ننسى المثل القائل: «المدافع عن الحرية من وجهة نظر شخصية هو إرهابي من منظور آخر» فهناك العديد من الكلمات الأخرى المشحونة الدلالات شكلت مصادر لهذه الصفات، أما إستخدامها فيعتمد غالبا على الحكم المسبق والمتحيز للمرسل إو الإعلامي، فالإجراءات التي تتخذها السلطات بحق مجموعة معينة من الناس توصف بأنها «حملة منظمة بغرض التغيير» أو«مطاردة مسعورة» وذلك إعتماداً على سياسة وسائل الإعلام، كما تلجأ بعض وسائل الإعلام إلى وصف الجماعات التي تؤيدها بأنها «جماهير شعبية حاشدة» كما يمكن للجماعات أن تصبح تجمعات غير مؤثرة وتصريحاتها غير مسؤولة ولا تعبر عن واقع الأغلبية وهمومهم، أما ترسخ ظاهرة التأويل للأحداث لإنقاذ الموقف والمتعلقة بتصريحات المسؤولين وصناع القرار السياسي وجماعات الضغط سواء داخل الحكومة أو خارجها هي سلاح ذو حدين، فهي من جانب تكشف الإحتراف الإعلامي والخبرة المهنية في التلاعب بعقول الآخرين حتى لو كان وهماً ضمن منهج إعلامي وسياسي مخطط ومدروس،

ومن جانب آخر تفقد مصداقيتها مهما رفعت من شعارات"الحيادية"و"المصداقية" و"الموضوعية" في تغطيتها الإعلامية، ولكن أسلوب "إنماذ الموقف" رغم أنه يتطلب من القائم بالإتصال في كثير من الأحيان الصلة الوثيقة بصناع القرار السياسي للحصول على قاعدة البيانات التي تمنحهم أرضية الرد أو التعليق على التصريحات المتناقضة أو الأحداث التي تعرضت للتمزيق بمشرط جرّاحي صالات الأخبار، ولكن في بعض الحالات يتطلب "إنقاذ الموقف" الصمت الإعلامي وتحويل الإنتباه بإتجاه قضية أخرى مغايرة تماماً للقضية الرئيسة التي تركز عليها وسائل الإعلام، وهذا الأسلوب يقلل من قيمة التهافت الإعلامى على القضايا التي شكلت محور جدل في الساحة الإعلامية والسياسية وبالتالي الخروج من دائرة الأزمة الإعلامية.

إن عرض المناظر والمشاهد المأساوية وتصوير الأضرار بشكل متكرر ومبالغ فيه، فضلاً عن بث وجهات نظر الإرهابيين التي يقصد منها إثارة الخوف، وتشكل خطورة تنطوي على ردود فعل سلبية من شأنها خدمة العمل لإرهابي، خاصة في ظل تنافس وسائل الإعلام المختلفة على النقل الفوري للأحداث المتعلقة بالإرهاب من أجل تحقيق سبق صحفي لأستقطاب أعداد متزايدة من جمهور القراء والمشاهدين والذي قد يكون على حساب القيم الأخلاقية والإنسانية التي ترفض المساعدة في نشر العنف والتطرف، وتعد وسائل الإعلام وسيلة للإنتقاص وكيل الشتائم والسباب للجهة الأخرى، وبذلك تفقد وظيفتها الرئيسة التي يحتملها الواجب الوطني والإعلامي في التصدي لمعالجة الواقع الحياتي المتردي لعموم المجتمع، وهنا يفقد الإعلامي جرأته وشجاعته في تفسير الظواهر بحيادية وصدق تحت تأثير الإنفعال الوقتي أو المجاملة أو الخوف من رصاصة الغدر أو التصفية الجسدية أو الفكرية وقسم آخر سميَ بالإعلامي المرتزق من خلال ممارسة المهنة لأنه يبحث عن الكسب المادي، الإعلام في الحرب يهدف إلى إقناع الناس بالقتال أو تأييده أو إقناع الخصوم بترك القتال والإستسلام فهو في جوهره عملية حربية، كذلك إستخدام أساليب الخداع والتمويه الإعلامي من خلال التركيز على معلومات بعينها وتضخيمها والتهوين من معلومات أخرى، أو تقديم معلومات متناقضة وتقديرات متعارضة تدفع الأخرين للإنشغال بتفسيرها والإعتماد على مصادر متعددة، إذن

فأن الناس يستخدمون وسائل الإعلام- وإن وسائل الإعلام تستخدم، للتاثير في، أو التلاعب- بالناس، وإن العلاقة بين مستخدمي أو مستهلكي وسائل الإعلام ومنتجي وسائل الإعلام لا تزال معقدة.

بناء الحواجز أم الصدام الثقافي

يقول عبد الرحمن الراشد «إننا نعيش مرحلة جديدة لم نعرف مثلها من قبل، سماء مفتوحة تسطر بثاً تلفزيونياً من كل مكان ويصل إلى كل مكان، ويقدم الأخبار والأغاني والرقص والوعظ الديني والطبخ والمباريات، وكلها تواجه تساؤلات حول هويتها وموضوعاتها، والمحتوى الإجتماعي منها يصطدم بإحتجاجات كبيرة من منطلق عادات موروثة محدودة الخيارات، والمحطات الغنائية تحديداً هي محل نقاش ومحل غضب مع بعضنا كونها تتحدى، كما يرى بعض المراقبين للأداء الإعلامي، مجتمعاتنا المحافظة، ولكن على المجتمع المحلي المحافظ أن يتعايش، فهو في كبسولة زمن سريعة الإنتقال، وبالتأكيد تنتقل على نحو أسرع من قدرة كبار السن على التعليم والتأقلم، إذ نحن ضحية خوف وتخندق تخلط بين الجديد المعقول المقبول والغريب اللامعقول المرفوض، والأكيد، إننا حتى لو رفضنا الجديد فلن نستطيع أن نوقف المياه من شقوق السد بإصبع، ولن نفكك الصدام الثقافي إلا بفهم طبيعة المشكلة أولاً، وفرز ما يحتمل وما لا يحتمل بأقصى قدر من التفهم والتسامح مع توقعات جيل الشباب، وحتى المرفوض لن نستطيع منعه بسهولة، بل يكاد يستحيل علينا حجبه مع تطور التقنية، وبسبب توالد المزيد من التحديات وعجزنا عن منع ما لا يعجبنا في الفضائيات نلحظ حالة إرتباك تتعجل بناء الحواجز، دون أن تعطي فرصة للمراجعة والفهم، ومن ثم العلاج الذي لن ينفع معه الإنغلاق».(575) ولذلك تزايدت البحوث حول موضوع «وسائل الإعلام والعنف» منذ الستينيات بشكل مستمر، دون أن تحدد بشكل قاطع مسؤولية وسائل الإعلام في العنف، وخلافا لما يعتقد، لم تثبت جل الدراسات العلاقة المباشرة بين المواد الإستعراضية العنيفة

(575) عبد الرحمن الراشد، الفضائيات وقضية الترفيه، ضمن كتاب الإعلام العربي في عصر المعلومات، مجموعة باحثين، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2006، ص172-173

في التلفزيون والسلوك العنيف، لكنها لم تنف وجود علاقة غير مباشرة تصنعها العوامل الإجتماعية أو الكامنة في مضمون المواد الإستعراضية ذاتها، ففي هذا الصدد فالبحوث تؤكد على الحقائق التالية:(576)

1 - الإدمان على مشاهدة صور العنف على القنوات التلفزيونية يؤدي إلى إعتبار العنف شيئا عادي في سلوك الناس، لا يبعث على الدهشة أو الإستغراب ناهيك عن الإستنكار والتنديد.

2 - عندما يستهلك الأفراد الأفلام الخالية من العنف يقلل من السلوك العدواني لدى المشاهدين.

3 - الأطفال الذين نقدم لهم الألعاب المستخدمة في مشاهد العنف في التلفزيون يصبحون أكثر عدوانية وعنفاً.

فالتلفزيون وسيلة تكاد تسيطر على حياة الفرد في توجهاته ومواقفه وسلوكه إلى درجة لا يكاد الفرد يحس بذلك، وكأن الأمر شئ طبيعي، ويقترح الطبيب النفسي جوليوس.إي.هوشر، في كتابه"دراسة طب نفسية للأساطير والحكايات الجنية"(APsychiatric Study of Myths and Fairy Tales) بأن صغار الأطفال الذين يتعرضون للمواد المتعلقة بالبرامج التلفزيونية الخاصة بالكبار-نظراً إلى مستويات سنهم ونموهم- يصبحون أكثر إصطراباً، كما أنه يوضح أن: الطفل الذي يعرض لوفرة من صراعات ورغبات الكبار الحياتية، وبالتالي يتم دفعه بإتجاه أفكار ناضجة، يميل إلى أن يصبح خائفاً من أن يكبر، هذا تتعطل عملية نضجه، إذ لا يوجد أي علاج حقيقي للتعامل مع وسائل الإعلام المرئية سوى تعلم الصور التي يتجاوز تحليلها التقني ليتناول تبعاتها العاطفية على الأطفال، إذ أن معظم وسائل الإعلام ووسائل التقنية الحديثة غير صالحة للأطفال وذلك للأسباب الآتية:(577)

1 - إن ظاهرة التلوث الإجرامي تصبغ كثيراً من وسائل التقنية الحديثة التي يتعامل

---

(576) د.محمد عبد البديع السيد، اثر القنوات الفضائية على القيم الاسرية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص70

(577) د.نصر الدين لعياضي، شذرات الكلام في نقد وسائل الاعلام، مركز الخليج للدراسات، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الشارقة،2008، ص48

معها الأطفال، وهي ظاهرة خطيرة تعانيها كل دول العالم دون استثناء .

2 إن وسائل الإعلام والتقنية الحديثة التي يستعملها الطفل حالياً كالقنوات الفضائية، وشبكة الانترنت، وألعاب الفيديو، ومحتوى الهاتف الجوال، وفي ظل إنعدام الرقابة على إستخدامها، وإدمان الطفل عليها، فإنها يمكن أن تشكل خطراً حقيقياً على نفسية الطفل وصحته ومستقبله.

3 - تقوم هذه الوسائل بعملية تنشئة إجتماعية متواصلة ودائمة وشاملة، تغذي الأطفال بالقيم، وتتعهدهم بالرعاية، وتحدث أثاراً سلبية عميقة الأثر في نفوسهم الغضة، التي تتعرض لهذه المؤثرات بشكل مستمر، شديد الكثافة والتركيز .

وتتضمن أساليب العنف المباشرة إظهار مشاهد العنف في النشرات الإخبارية والمواقع الالكترونية التي وإن كانت تعكس واقعاً معاشاً، غير انها لا تتلاءم وتباين مستويات المتلقي في إدراك هذه المشاهد في سياقاتها وبخاصة عندما يتعلق الأمر بفئة الأطفال مثلا، وقديماً، عمد العديد من المجتمعات إلى التدرج في إدخال مفردات العنف على لغة الأطفال، كأن ينهى الطفل مثلا عن إستخدام كلمات "الدم" و"السكين" و"الذبح" و"القتل" و"الأغتصاب" في المراحل الأولى من العمر، لإحداث مسافة ممتدة نسبياً بين الطفل وإدراك دلالة هذه المفردات، والمعروف أن التعود على الشيء مقدمة إلى فعله دون تأنيب ضمير، ومن لم يتعود على ذلك صعب عليه الإنتقال إلى الفعل خوفاً أو جهلاً أو حياء...الخ وإذاً فأن مثل هذه المشاهد جزء من عنف الإعلام تجاه فئة الأطفال على وجه التحديد، لذا فأن الآثار السلوكية والأسرية لإدمان وسائل الإعلام والتقنية الحديثة تتحدد بـ:[578]

1 تقليص العلاقة بين الطفل والأسرة، بل وإغتراب كل فرد في الأسرة في عالمه الخاص بعيداً عن الأخر.

2 - القضاء على كثير من النشاطات والفعاليات المهمة للنمو المتوازن للطفل، كاللعب الحقيقي الجماعي المشترك، وممارسة الرياضة، والقراءة، والهوايات المفيدة.

---

(578) د.عبد الرحمن عزي، ومجموعة باحثين، اللسان العربي وإشكالية التلقي، سلسلة كتب المستقبل العربي(55) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 2، 2011، ص27-28

3 - السهر وتغيير عادات النوم، واعتياد سلوكيات غذائية غير صحية في الوجبات والأطعمة والمشروبات.

4 - تعرض الطفل لاستخدام الهاتف المحمول بسبب الأوضاع السيئة في الجلوس والمتابعة لساعات طويلة يومياً إلى أضرار صحية، مثل تشوهات العمود الفقري، وضعف البصر، والسمنة والبدانة.

5 - التعرض للإخفاق الدراسي، وضعف تطوير المهارات الدراسية، وتدني المستوى التحصيلي، وقتل روح الإنتاج والإبداع لدى الطفل.

6 - إستنزاف طاقة الطفل الفكرية واستهلاكها، وشحن ذاكرته بكل ما هو سلبي وغير مفيد.

7 - تمرد الأطفال وإصابتهم بالغضب والعنف، عند محاولة وضع حدود وضوابط لإستخدام وسائل الإعلام والتقنية الحديثة من قبل الوالدين، أو تحايل بعضهم لإستخدامها والدخول إليها كالأنترنت مثلاً من دون علم الوالدين، أو تحدياً لهم.

ولاشك أن الإعلام الالكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي هي الأداة الأكثر فاعلية في التأثير، سلباً أو إيجاباً، فهي قادرة على تشكيل القيم والأفكار، ومن ثم التأثير على السلوك والممارسات، ومع دخولنا عصر الفضاء الإلكتروني وشبكات التواصل الاجتماعي، أنكفأت المرجعيات التقليدية وحلت اللامركزية، أصبح المجتمع المولود حديثاً ينتظم حول الشبكات بعدما كان منتظماً حول هرمية السلطات، تراجع دور دولة العناية التي كانت ترعى الشباب وتخفف من إنعكاس أزمة النظام الإقتصادي الحر عليهم، حف دور الوسطاء وبالأخص الأحزاب التي كانت تشكل قطباً جاذباً لحيوية ونشاط الشباب، وبهتت الأيديولوجيات السياسية التي كانت تشغل تفكيرهم وتحاكيهم في طموحاتهم وأحلامهم وأستبدلت بها أيديولوجيا الإتصال الحاملة لأساطير تغري في العديد منها الشباب وابرز تلك الاساطير:

1 - أسطورة "التقدم" الذي قيل إنه أصبح حقيقة ولا يمكن إيقافه، نتج عن ذلك قلق لدى شبابنا من أن يكونوا متأخرين عن مقاييس التقدم العالمية "عن أختراع، نسبة، موضة، دواء".

2 - أسطورة "التقنية" التي تعمل على تركيز الفكر على الـ"كيف" لتخفي السؤال "لماذا" "بدلاً من التساؤل مثلا عن أسباب ونتائج العنف على التلفزيون. تجعلنا التقنية نعتقد أن الحل هو بابتكار زر إلكتروني ينبهنا إلى المشاهد المؤذية" ينتج عن هذه الأسطورة إسكات الناس غير المختصين أي غالبية المواطنين.

3 - "السرعة والآنية" كل من يتحرك سريعاً يتقدم. يؤدي هذا الإيمان بالسرعة إلى قبول الشباب كلية بكل التطورات الحديثة "يحب الركض وأخذ القطار بسرعة وهو يمشي" غير أن عبادة السرعة هذه تولد لديهم نفاد الصبر وعدم متابعة الأمور.

4 - أسطورة "روح العصر" يسهل أستدعاؤها من قبل وسائل الإعلام لإخضاع الفرد لمتطلبات الحداثة. وبالتالي لمتطلبات الإستهلاك، لكن من يقرر ما العصر؟ من بين ملايين الوقائع التي تحصل في اللحظة نفسها. من يحدد ما وقائع العصر؟ في الحقيقة. العصر هو بناء سينوغرافي. وما نسميه حدثاً هو ثمرة إنتقاء ومسرحة إعتباطية قام بها الإعلاميون تبعاً لفكرة مسبقة لديهم عن العصر، من يقرر مثلاً أن شخصية ما سوف تصبح شخصية الأسبوع أو الشهر أو العام.

5 - أسطورة "الإتصال" الذي أصبح حقيقة تجيب على حاجات الشعوب وأصبح في أساس كل نجاح مهني أو عاطفي أو فني أو سياسي. لذا أهمية تعلم الاتصال تفادياً للإخفاق، نتج عن ذلك أسطورة "الإنسان المتصل" الذي لم يعد مهماً أن يتحدد من خلال عائلته أو غرائزه وانفعالاته، بل أصبح يتحدد بجزء كبير من الخارج. من خلال مقدرته كفرد موصول بأنظمة إتصالية عديدة على جمع وتحليل ومعالجة الإعلام والمعلومات التي هو بحاجة إليها كي يعيش، نتج عن ذلك أن علاقة الشباب مع الوقت والمكان قد أختلت بسبب الإنفتاح على الآنية المستمرة والإمحاء التدريجي للمعالم المكانية "الساحة العامة. الشارع. المحلة" الأمكنة المميزة للبناء الإجتماعي. للمواجهة مع الآخرين وللتمفصل ما بين الإجتماعي والإقتصادي.

6 - التفاعل داخل"الملتيميديا" الذي أصبح يترجم بتفاعل الإنسان وحيداً مع شاشته. مع المعطيات الموضوعة أمامه من قبل الطرف الآخر من الشبكة. مع

النظراء والمختصين والخبراء، وتكون النتيجة غياباً شبه كامل للعلاقات التفاعلية العلائقية بين المواطنين الجديدة بتقوية الروابط الإجتماعية، من هنا نجد إنكفاء الشباب نحو ذواتهم، لا مبالاتهم، عبثيتهم وارتيادهم المكثف لمقاهي الـ «netwrok»وأحياناً نحو تعبيرات دلاليه مضادة تترجم بفورة موسيقى الروك، العودة إلى كاريزمات الدين والسياسة، عروض الرسم التجريدي، الرياضة، الإغراءات الشهوانية للإعلان وجميعها طرق للعودة إلى الجسد المطرود من الإتصال الرقمي.

هذه الأساطير كونت نظاماً عالماً، قوته أن مختلف مكوناته لا تكف عن الترابط وعن مساندة بعضها البعض، فإذا ضعفت إحداها حلت محلها الأخرى، إذا شككنا في مجتمع الإستهلاك سوف نتابع الإعتقاد بيقينية التطور التقني. وإذا تخوفنا من "الميديا" ترانا نحتفظ بالصورة الشاملة للحداثة التي تنقلها لنا، نرثي العولمة ونقف مبهورين أمم هذا الإتصال الرائع الذي يوحد الكرة الأرضية.

إن أستعمال الفضاء الالكتروني تميل إلى خلق فرضية بأن المتهم مذنب وليس بريئاً، إذ يعمل الأفراد على أن يحصلوا من كل وسيلة على أحتياجاتهم من الترفيه والإعلام والتوجيه والتثقيف وغيرها، وفقاً لإمكانات وصياغات كل وسيلة،وتوافقا مع رغباتهم وميولهم وإمكاناتهم الدلالية واللغوية، ويخصص الجمهور وقتاً أكبر للوسيلة الجديدة وخاصة في أيامها أو أسابيعها الأولى، من خلال البحث عن صيغة للتوافق والمهارة في التعامل معها أو(فك كود رسائلها) أو فهم مضمونها، فكلما قلت هذه المهارات أو التدريب والتوافق الذي يحتاج إليه المتلقي للتعرض للوسيلة وفهم مضمونها، كلما زاد الجمهور الذي تجتذبه هذه الوسيلة وزاد الوقت المخصص لها، وقد تدفع الوسيلة ذاتها الجمهور إلى إكتساب المهارات لإستخدامها والتوافق مع مضمونها، وكلما حققت الرسالة أهدافاً بطريقة واحدة، معتادة، ومبسطه، كلما كان إحتمال الإختيار والتعرض لها بالطريقة والكيفية نفسها، والرسالة التي لا تجد لها إستعمالاً أو ما يجعلها غير مرتبطة بفائدة أو توقع منفعة فإنها لا تؤثر في الأفراد حيث أن قيم الناس وإهتماماتهم وروابطهم وأدوارهم الإجتماعية، إنما هي عوامل أساسية تجعلهم يختارون وينتقون الأسلوب الإتصالي المناسب فيما يسمعون، ويشاهدون،

ويقرؤون بالنظر إلى هذه الإهتمامات والمصالح والعلاقات والأدوار.

أما عناصر إنتاج الوعي فتتجسد في أن الإعلام متداخل في عناصر إنتاج الوعي إلى حد التضليل، بل إلى حدَ تتهدَد معه جميع القيم الإعلامية المعلنة، من موضوعية وإستقلالية ومهنية، ففي المجتمعات التي تهيمن فيها الدولة البيروقراطية على آليات القوة والسلطة، كما يقول تشومسكي وهيرمان "يتضح جلياً من السيطرة الإحتكارية على وسائل الإعلام، وربما يصاحب ذلك غالباً من رقابة رسمية، إن الإعلام يخدم غايات نخبة مهيمنة" وربما يكون الرئيس الأسبق لمحطة CBS News قد حلَ اللَبس وواجه الأوهام بقوله:"إعلامنا هو أن لا نعطي الناس ما يريدون، وإنما نقرّر ما يتعيّن أن يكون لديهم".[579]

ولكي تخدع وسائل الإعلام جمهورها فإنها تعمل على تغييره، فتساهم في تنشئة ذوق جديد للجمهور، يطلب الخداع، ويطيب له سماع الكذب، ويطرب للسطحية والإثارة في السياسة والمجتمع بدل أن يبحث عنها في مجالات أخرى، وبالرغم من الوظائف المتعددة للفضائيات التي تؤديها في حياتنا اليومية، فإنها ولا ريب، متهمة بتزييف الوعي الإجتماعي، وبذلك أصبحت في دائرة الإتهام، وهذا معناه، أن الرسائل الصادرة من هذه الفضائيات، تستهدف تضليل الناس ازاء قضايا معينة، وفي الوقت نفسه، تحاول الفضائيات تشكيل وعيهم، طبقا لأيديولوجيا النظام السياسي، وأن الحيادية التي يؤكدها المسؤولون عن خطابها، إنما هي محض وهم، وعلى ذلك، فان الفضائيات التي تنتشر في البلاد العربية، متهمة من جانب بعض المراقبين، بالسعي الحثيث لصرف إنتباه اناس عن قضايا معينة وتركيزها بإتجاه قضايا أخرى أقل أهمية، وتركيز الإنتباه بإتجاه قضايا تهم الخطاب الرسمي بالدرجة الأساس.

علائقية التواصل بين الإعلام والارهاب

الحدث الأبرز في حقل الإعلام، يكمن في أن هذا القطاع المهم أنتقل من موقع الجماهير إلى موقع لسلطة، وبدلاً من أن يكون أداة فاعلة بيد المواطن صار أداة ضاغطة بيد الحاكم، والحاكم لا يعني بالضرورة الملك أو الرئيس، بل يمكن

(579) د.علي ناصر كنانة، إنتاج وعادة إنتاج لوعي، عناصر الاستمالة والتضليل، منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص74

أن يكون شركة عملاقة يلهث وراءها الجميع بما فيهم الحكام أنفسهم، ويمكن القول أيضاً بأن الإعلام لم يتحرّر، منذ نشأته حتى الآن، من سلطة رأس المال، وبقيَ مرتبطاً بأجندة المالكين بالرغم من محاولات رجال الإعلام التحرّر من هذه السطوة، وبالقدر الذي يعلن فيه عن كون الإعلام الوجه الأكثر سطوعاً للعلانية والرقابة وحرية التعبير عن الرأي، كان على الدوام سلاحاً متقدماً في جميع الحروب، ومع مرور الزمن، تطوّر دور الإعلام من إستيعاب عناصر إنتاج الوعي داخلياً الى التأثير في الوعي الكوني بعد ثورة الاتصالات التي مكّنت الدول المتقدمة، وخاصة الولايات المتحدة، من السيطرة على فضاء الإعلام العالمي، وبالتالي التدخل في صوغ الوعي العالمي للأحداث الكبرى والقضايا الإستراتيجية، وقد تأثرت بشكل كبير مبادئ العمل الإعلامي في العراق بعد الإحتلال، إذ حدث إختلال كبير بسبب إجراءات وقوانين الإحتلال التعسفية، مما أثر بشكل مباشر على طبيعة الأداء وقدرته على الموازنة والحيادية ونقل الصورة الحقيقية عن الواقع، فقد وقع الأداء الإعلامي بأسره تحت إرهاب مباشر، في الوقت الذي صنع فيه الإحتلال إعلامه الدعائي الخاص ليمرر عبره رسائله وقراراته وتصوراته، ومن هنا فإن الدعوة إلى تشديد العمل بمبادئ وقيم ومواثيق الشرف الإعلامي لا تستهدف فقط صيانة الأداء وتطهيره من عوامل الإساءة أو التخريب القيمي والأخلاقي، بل إلى تعزيز القدرة الإبداعية وصيانة الأمانة والموضوعية، إذ إن التزام الإعلامي بكل مقتضيات الشرف والأمانة والصدق في واجباته، إنما يتصل بالإلتزام الوطني، بما يحفظ للمجتمع مثله وقيمه، وبما يحفظ الحقوق المشتركة، ويصون الحريات العامة، بعيداً عن أي تعصب وانحياز غير موضوعي ودون أية إثارة للتطرف الفكري والسياسي والمذهبي، وكل ما من شأنه أن يحط من الإنسان ويعادي حقه في الحياة الحرة الآمنة والكريمة، وأظهرت التغطية الإعلامية الأمريكية للحرب على العراق كيف يمكن أن تصور الحرب بعدسة المعتدي، فتتحول الغزوات إلى فتوحات، ويتحول الإحتلال إلى تحرير، وذلك من خلال الإستخدام الذكي للدعاية والحرب النفسية وتكنيكات التصوير الحديثة، وذلك مخالف لبدايات نقل الحروب عبر التلفزيون في حرب فيتنام، حيث قوبلت هذه التغطية بإستنكار ورفض من بعض العسكريين الذين أعتبروا أن نقل الحرب عبر التلفزيون يقيد تحركاتهم، فلا يعترض العسكريون على تغطية الحروب

تلفزيونيا، حيث أيقنوا بأهمية هذه التغطية التلفزيونية كأحد أهم أدوات الحرب النفسية التي تعد شكلا من أشكال الدعاية، يراد منها إقناع الخصم بأن الإستسلام وعدم المقاومة هو الحل، مما يقلص من خسائر الطرف الأقوى ويختصر زمن الحرب، وهي بذلك تستهدف زرع الهزيمة في نفوس الأعداء وإقناعهم بعدم جدوى الحرب وضرورة التوقف عن القتال، وتستخدم عبقرية الدعاية أو التهديد بالقنابل الفتاكة بغرض التهويل والخداع والقضاء على المقاومة وروح النضال، فضلا من أن إستخدام القنوات الفضائية قبيل الحرب ساهم بشكل واضح في تحطيم الروح المعنوية للشعب العراقي.[580]

إن الإعلام في العراق بعد الإحتلال قد شهد حالة من التفكك والتشرذم، وسادت خلاله لغة القهر والتهديد، وأنتشرت فيه أقلام مأرومة حاقدة على إنتماء العراق للأمة العربية، تحاول أن تشوه تاريخه وتزرع الفرقة العنصرية والطائفية فيه، وتكريس كل ما من شأنه أن يعزل العراق عن محيطه القومي والإسلامي، وهي بذلك تكرس ما يسعى إليه الإحتلال لإضعاف النسيج الإجتماعي في العراق، وبالتالي إدامة حالة الصراع وصولاً إلى الإقتتال، وتطبيق هدف الإحتلال في تقسيم العراق ضمن مخطط إعادة رسم خريطة المنطقة بأسرها، كما أطلقت الولايات المتحدة الامريكية فيروسات مختفية في أقنعة واردية متنوعة، تهدف بشكل مزدوج إلى تخريب منظومة الأفكار والقيم الوطنية المعادية للبرنامج الأمريكي أولا، وإحلال حالة الغموض وعدم التيقن والتشرذم في مدركات الوعي والإدراك لدى الآخر، إذ كان أغلب العراقيين يأملون تغييرا محوظاً في الخطاب الإعلامي بوضع ثقتهم ببعض التيارات المدنية، ولكن وسائل الإعلام اليساروية خاصة، فشلت في مواجهة الإعلام المتأسلم او ما يسمى الإسلاموي، المدعوم بقوة من جهات متنفذة وقادرة على الإستمرار والتواصل، ورعب وتخوف اليسار من مواجهة المد القوي للإعلام الديني وبالأخص القنوات الفضائية، وإفتقاره لإستراتيجية ورؤية مهنية وإحترافية

(580) نهى عاطف العبد، صناعة الاخبار التلفزيونية في عصر البث الفضائي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2007، ص137-138

للمواجهة بل إفتقاره لأدواته المعرفية والبراجمية والتطلعاتية، بالرغم من توافر التمويل الذي يعد عصب اوسيلة الإعلامية، ولم ينجح في إستثماره في المواجهة، ووقف الإعلام اليساروي متفرجا بل غير قادر على المواجهة في المشهد الإعلامي، وبالمقابل فأن صورة الإعلام اليساروي في نظر الجمهور هي أكثر إدراكا لفشله في المواجهة وإثبات وجوده وعدم قدرته على ترسيخ خطاب إعلامي معتدل بعيد عما يبثه الإعلام الآخر، وقد خذل جمهوره في ذلك تماما.

وعلى الرغم من كل الأجراس التي تقرع بشأن مخاطر الإستبداد المتبادل، سواء كان عبر السيطرة على الإعلام وتكميمه،أوعبر إنفلات رسالة الإعلام وتجاوزها أهدافها الموضوعية، فإن كل المواثيق والإتفاقات توضع جانبا، ويترك الإعلام يشبع غرائزه في مواصلة السيطرة والتحكم، وليتحول أداة لتكريس مفهوم القوة الغاشمة والسالبة لحرية المتلقين، وعبر ذلك دخل عنصر المال الفاسد في صفقات مشبوهة وتحالفات غير نزيهة المقاصد، ليستخدم الإعلام كوسيلة بالغة التأثير في الحياة العامة، وبشكل خاص في الحملات الانتخابية ودورات المشاركة في الحياة السياسية، كما شخصه العديد من الباحثين، وخاصة في ظل أزماتنا المتتالية التي لا تتوقف، وتجعل المتلقي يعيش حالة من العوق الذهني في تراتبيتها، وحجم تأثيرها، مما يؤدي إلى عوق تام لكل جوانب حياته، وتشعره بأنه غريب في وطنه، يفتقد لأبسط درجات العدالة الإجتماعية، التي تعجز الإدارة الحكومية عن موازنتها، مما يرسخ شعور المواطن بأنه أقل أماناً وأقل أحساساً بالإستقرار في مجتمعه، لصنع مايسمى بـ(مجتمع المخاطر) ثم (مجتمع الخوف).

أبشع ما مر به العراق بعد إحتلاله هو كارثة تفجير الاممين العسكريين عليهما السلام في سامراء في الثاني والعشرين من شباط 2006، إذ اتبعت وسائل الإعلام أطرا مختلفة للتعامل مع الحادثة وما رافقها من عمليات قتل وتهجير لبعض مكونات الشعب العراقي وبمختلف الاديان في اغلب مناطق العراق، فمنها من اتبع أطر الصراع وتأجيجه بين الطوائف، واتخذت وسائل الإعلام اساليب التحريض والتحشيد، وبحسب ولاءتها الحربية، فضلا عن الدور التحريضي الذي قامت به

قنوات إعلامية عربية ضد العراقيين جميعا، ومحاولة النيل من تماسكهم ووحدتهم حتى كاد العراق ان يعيش حربا اهلية غير منظورة، استمرت لسنوات من 2006 الى 2009، وبقيت وسائل الإعلام تتبع الاساليب التحريضية مع زيادة وتيرة العمليات الارهابية التي تستهدف الجميع، بالرغم من ان كل وسائل الإعلام ساهمت في تأجيج الاوضاع في جميع أنحاء العراق وزيادة وتيرة الخطابات والتصريحات التي كان لها دور كبير في أزمة تفجير الأمامين العسكريين عليهما السلام ولمرتين متتاليتين، وما زالت وسائل الإعلام المختلفة تساهم بشكل أو بأخر بتاجيج البنية المجتمعية بعد ان القت المنظومة السياسية بصراعاتها على المناصب والمغانم على المنظومة الاجتماعية.

ففي العراق على الرغم من أن الاعمال الارهابية كانت مجازر مروعة فقد تمكن إعلام الإرهاب أن يصورها على أنها بطولات وتضحيات من أجل العراق والاسلام، وحتى المكاسب السياسية والمالية التي حققتها بعض الوجوه السياسية للإرهاب والقوى العراقية المساندة للإرهاب والتي تبنت سياسة الارهاب في العراق، إن هذه المكاسب كانت مقرونة بنشاط هذه القوى الإعلامية المتناسق مع الأعمال الإرهابية، فالأعمال الإرهابية دون تغطية إعلامية لها تعد بمفهوم حرب العصابات أعمال فاشلة، وقد أزدادت قوة الإرهاب عندما وفرت له بعض الفئات السياسية العراقية المساندة لقوى الإرهاب التغطية السياسية من داخل البرلمان ومن داخل الحكومة، فقد أستغل هؤلاء الوضع الفوضوي في العراق وعدم خبرة بعض الأطراف السياسية العراقية وطيبة وسذاجة البعض الآخر، لكي تستخدم حتى البرلمان كمنبر للدفاع عن الإرهابيين والترويج لأعمالهم، مما ساهم مساهمة كبيرة في احتلال المجاميع الارهابية لمدينة الموصل في حزيران 2014، ولكن جاءت فتوى المرجعية الدينية المقدسة والتي دعت فيها جميع الشباب العراقي لـ(الجهاد الكفائي لتحرير الموصل) وجاء الشباب والشيب أفواجا أستجابة لتلك الفتوى المقدسة، وتحررت الموصل في تموز 2017، وبقيت وسائل الإعلام لا ترتقي الى مستوى صولة البواسل في تخليص الموصل من يد الارهابيين، وعكست التغطية الإخبارية للحرب على داعش في القنوات الفضائية العربية والأجنبية العديد من الإشكاليات وأثارت العديد من

التساؤلات، ولعل من أهم هذه الإشكاليات: العلاقة الوثيقة التي ربطت بين الأداء الإعلامي والتوجهات السياسية، حتى بدا أن القنوات الفضائية أصبحت جزءا لا يتجزأ من الواقع السياسي والأهداف السياسية للأطراف المؤثرة في أحداث الحرب، حيث أنها توجه الحرب وتؤثر فيها من خلال المضامين المقدمة، بل تلجأ الى التضليل والتزييف، والتركيز على قضايا ثانوية لا ترتقي الى حجم المعركة ضد الارهاب والتي ابهرت العالم، ولكن الإعلام اخفق في توصيفها، من خلال كشف المعلومات عن الحدث مع أخفاء الخلفية، أو تزييف الواقع الخلفي، وهو ما يجعل الجمهور غير قادر على فهم الحدث، وبالتالي يتبنى المتلقي وجهات نظر مزيفة غير قابلة للإقناع، فضلا عن تحويل إنتباه الجمهور: فالفضاء المفتوح شجع على تغطية معارك الموصل التي ركزت على بطولة الجيش العراقي لمحاربة الارهاب والارهابيين، فيما صنعت وسائل إعلام أخرى خطابا غيبيا لمسار المعارك يشبه الى حد بعيد الذي مارسته الإدارة الامريكيه في غزو العراق وهيمنتها الإعلامية على كافة وسائل الإعلام، فهي قامت بممارسات عدة لمنع نقل الصورة الحقيقية للمتلقي، ومنعت وسائل الإعلام من نقل الحقيقة في أحداث النجف عام 2004 ونقل معركة الفلوجة في نفس العام، وأجبرت الإعلاميين على مغادرة المدينة وإلا تعرضوا للقتل والإعتقال بغية منعهم من التغطية الإعلامية المباشرة، فنجد الإدارة الامريكية مارست العديد من الأساليب منها:

1 - تغييب الشهود.وفي إطار الممارسة المنظمة يتم تغييب الإعلاميين عن مواقع الأحداث للحيلولة دون الوصول إلى تغطية مباشرة للحدث، وما فعلته السلطات الأسبانية مع مراسل الجزيرة (تيسير علوني) عام 2005 خير دليل على ذلك، بل أن الحكمة الوطنية الأسبانية قامت في شباط 2005 بزج علوني في السجن، وذلك بضغط من الإدارة الامريكية.

2 الإحتكار والهيمنة: وفيها يستبعد الصحافيون والإعلاميون المستقلون أو المحايدون عن ساحة العمليات والأحداث، والهيمنة المطلقة على تدفق المادة الإعلامية، والإنفراد بمصادر المعلومات، إذ قامت الإدارة الامريكية بتنظيم وجود الصحفيين أثناء غزو العراق عام 2003 وأجبرت الإعلاميين على عدم نقل

أية صورة وحدث إلا بموافقة أو من خلال القوات الأمريكية، فأنشأت حينها ما يسمى بالستار الحديدي.

3 - إزدهار الكذب: إتخذت قوات الإحتلال الامريكية في العراق طرقا وأساليب عدة لإبعاد العين الإعلامية الراصدة للأحداث من نقل الصورة الحقيقية بكل الوسائل والسبل، ولجأت في أكثر الاحيان لتزييف الاخبار.

4 - الموت من أجل الحقيقة: قامت قوات الإحتلال الأمريكي بإستخدام العنف المفرط ضد الإعلاميين في العراق، وقد أدى هذا الأمر إلى سقوط أكثر من (300) إعلامي في العراق بعد الغزو الأمريكي.

5 - إفتراس المتلقين: الهيمنة والإستبداد الذي يسود مكونات وآليات المسؤولية المهنية، إذ أن الهيمنة لم تقف عند حدود الرسالة الإعلامية، بل تعدى ذلك إلى الهيمنة والسيطرة على عقلية المتلقي ليكون أداة طيعة بعية تشكيله من جديد وحسب توجهات المصدر، فأصبح المتلقي يتسلم الأوامر من الوسيلة الإعلامية كل يوم بمجرد قراءة الصحيفة أو فتح جهاز التلفاز، فيما يجب أن يفعله هذا اليوم.

6 - صفقات مشبوهة: إذ يؤكد البنك الدولي أن أكثر من ثمانين مليار دولار يتم إنفاقه سنويا على الصفقات المشبوهة، وأن الجزء الأكبر من هذه المبالغ يخصص لمشاريع أعلامية مشبوهة، تهدف إلى إنشاء مؤسسات إعلامية مشبوهة أو شراء ذمم الإعلاميين والمثقفين المعروضين للبيع طبعا.

7 - تقديم الرشاوى للإعلاميين: قامت الإدارة الأمريكية بتقديم رشا علنية لبعض الإعلاميين والصحافيين في العراق، مقابل نشر مقالات جاهزة تتحدث عن إنتصارات قوات الإحتلال وعن نجاحات السياسة الأمريكية في العراق.

لقد كان العراق قاسما مشتركا في الكشف عن الوجه القذر للنظام العالمي الجديد في العام 1991 والوجه الاكثر قذارة للعولمة السياسية في العام 2003، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكون الوجه القذر هو بوش الاب في 1991 والوجه

الاكثر قذارة هو بوش الابن في عام 2003، وكلاهما أعضاء بارزين في إحدى الحركات الصهيومسيحية التي تؤمن بأن الدعم المادي والمعنوي اللامحدود لاسرائيل والكيان الصهيوني هو عمل يرضي الرب والزام إيماني وديني يفرضه الانجيل ويحقق مصالح الولايات المتحدة في الحاضر والمستقبل، وقد تأكدت هذه الحقائق على لسان كتاب مسيحيين ومسلمين ايضا حيث يؤكد فهمي هويدي ان القناعات الدينية للرئيس بوش الابن هي صاحبة الدور الاساسي في تحديد وقفه الداعم لاسرائيل وان ما يفعله في إطار هذا الموقف لم يصدر عن رغبة في التقرب الى اليهود فحسب لكنه كان ايضا رغبة في التقرب الى الله، ففي عام 2003/3/11 كان عنوان غلاف مجلة نيورويك في كلمتين اثنين هما: "بوش والرب" وفي الداخل خصصت المجلة حوالي 12صفحة استعرضت فيها الجانب الايماني في حياة الرئيس الامريكي الذي بعد ان هداه الله وكف عن الشقاوة أعتبر نفسه من بين الذين "ولدوا من جديد" وهذه ليست صفة ولكنها عنوان لجماعة تحمل ذلك الاسم وتضم 64٪ من ابناء الشعب الامريكي إذ يقدر البعض عددهم بنحو 120 مليون نسمة ويرى اخرون ان هذا الرقم مبالغ فيه وان عددهم لا يتجاوز اربعون مليوناً وهي تقدم الرئيس بوش وفريقه ممن يوصفون بانهم من "المحافظين الجدد" ووصفتهم المجلة بانهم الاشد رسوخاً في الايمان في العصور الحديثة، قائلة كأن الرئاسة تاسست ودعمت وارشدت في ظل قوتهم الدنيوية والروحانية، واضافت المجلة ان الرئيس بوش يؤمن بأن الارادة الالهية تحركه وتبارك خطواته، لذلك فإنه قبل ان يترشح للرئاسة جمع نفراً من القساوسة لينال بركتهم، بعدما اخبرهم انه تمت دعوته لكي ينشد منصبا ارفع، ومنذ تولى منصبه وهو يتصرف كمبشر يتولى منصب القيادة ويفسر الاحداث تفسيرا غيبيا، وهؤلاء الانجيليون الذين ولدوا مرة ثانية اصوليون بامتياز، حيث يعتبرون النبوءات التوراتية عموداً فقريا لرسالتهم، إذ من خلالها يقرأون التاريخ ويفسرون ان العالم ستنتهي قريبا وان المعركة الفاصلة التي ستكون علامة النهاية تعارضها الكنائس الكاثوليكية والارثذوكسية والانجيليكانية وتعد اطروحاتها (هرطقة لا تستحق المناقشة لاهوتيا) ويرون ان نهاية العالم المحققة للنبوءات التوراتية بدأت

عام 1948، مع إنشاء الكيان الصهيوني على ارض إسرائيل ذلك ان تجمع اليهود على ارض الميعاد هو في نظرهم إرادة عليا القصد منها الإعداد للمعركة الفاصلة بين قوى الخير (اسرائيل والولايات المتحدة) وقوى الشر التي تضم كلا من العرب والمسلمين والاوربيين وايضا الامم المتحدة، وستنشب المعركة حسب النص التوراتي الذي يقرأونه، في مرج ابن عامر شمال فلسطين (هرمجيدون او وادي الملح)، في تلك المعركة سيجري تدمير الارض وهو ما يشير الى عودة المسيح ليحكم العالم الف سنة، اما اليهود فما عليهم الا ان يشهروا ايمانهم بالمسيحية ولو قبل دقائق من وقوع الكسوف الاخير، وذلك بأن يقوموا بنسف المسجد الاقصى لكي يبنوا مكانه الهيكل الثالث، تكفيرا عن انكارهم الطويل لحقيقة ان عيسى ابن مريم هو المسيح الحق (71٪ من الانجيليين يؤمنون بهذا السيناريو) كما ان الكاتبة الامريكية جريس هالسل التي الفت كتابين عن الاصوليين الانجليين او ما يسمى بـ"الصهيونية المسيحية" تحدثت في كتابها "يد الله" عن الحضور الإعلامي القوي لتلك الحركة في الولايات المتحدة، فذكرت انها تملك وتشرف مباشرة على مائة محطة تلفزيونية والف محطة اذاعة، ويتسع نشاطها الكنسي على نحو مثير للانتباه، حيث يبشر بتعاليمها 80 الف قسيس، وفي الثمانينيات وحدها تم انشاء 250 مؤسسة وجمعية دينية في الولايات المتحدة، مؤيدة لإسرائيل في إطار الرؤية الصهيونية المسيحية؟[581]

صناعة التزييف

يكتب الباحث والصحفي نصرالدين لعياضي: لا يخفى على عاقل أن الأخبار الكاذبة والمزيفة ليست وليدة اليوم، لكنها أضحت تكتسي أبعادا غير منتظرة وخطيرة مع تزايد عدد مستخدمي مواقع الانترنت والشبكات الاجتماعية، خاصة أثناء الأزمات والحروب وفي ظل التنافس السياسي في الانتخابات البرلمانية والرئاسية ، مثلما حدث في الحملة الانتخابية للرئاسيات الأمريكية مؤخرا، وتذكرنا الأخبار المزيفة بالشائعات التي تنخر عالم الإعلام والصحافة خاصة عندما تتحول الى فاعل

(581) د.صابر حارص، الإعلام العربي والعولمة،الإعلامية والثقافية والسياسية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة،2008، ص77-78

سياسي نشيط، وهذا ما يقلق رجال السياسة وأصحاب القرار لأنها تنمي الشك وتغرس الضغائن والأحقاد وتعسر كل حوار اجتماعي أو سياسي داخل المجتمع. ففي هذا الصدد يقول رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، باراك أوباما، في حديث أدلى به إلى مجلة "نيو يوركر" الأمريكية قُبَيْل مغادرته البيت الأبيض الأمريكي «إن القدرة على نشر الأخبار المضللة، ونظريات المؤامرة التي يقودها الهديان، ووصف المعارضة بأبشع الأوصاف السلبية دون منحها إمكانية الرد والطعن، كلها مظاهر تتسارع لتحدث استقطابا حادا في أوساط الناخبين مما يجعل كل حوار مشترك صعبا جدا»، وتصنف عالمة الاجتماع الفرنسية، مليسا زيمدار، صناع الأخبار الكاذبة في مواقع الشبكات الاجتماعية والمنصات الرقمية، والتي قد تقتبسها بعض وسائل الإعلام التقليدية وحتى الرسمية، إلى الأصناف التالية: الراغبون في جمع المال من الإعلان الذي يحققه انتشارها، والساعون إلى إبراز وجهات نظرهم ومواقفهم من الحياة العامة دفاعا عن القضية السياسية والأيديولوجية التي يؤمنون بها، وتندرج هذا الإطار الحركات السياسية الوطنية والقوى الأجنبية، والذين يقصدون التنكيت من وراء نشرها بغية المزاح والمداعبة، والذين ينشرونها دون أن يدرون أنها مزيفة؛ أي يعتبرونها حقيقية وصادقة، وهؤلاء هم الأخطر في نظر العاملين على مكافحة الأخبار المزيفة في الميديا الجديدة والتقليدية لأن البحث عن نواياهم السياسية والنضالية وأهدافهم الاقتصادية ورغبتهم في تصفية حساباتهم الشخصية صعب لأنهم ينشروها عن حسن نية أو دون وعي بتبعاتها.(582)

إذ إن الميديا المعاصرة تسعى، جاهدة، إلى إحداث انقلاب كبير في قواعد العمل الصحفي، إنها تعمل على بث الأخبار ونشرها أولا، ثم التأكد من صحتها وصدقها بعد النشر، وهذا يخالف قاعدة العمل التي رسخت في قاعات التحرير وسائل الإعلام التقليدية، التي تمنع نشر أي خبر قبل التأكد من صحته، لذا نجد أن وسائل الإعلام «التقليدية» تجتهد في إبتكار أساليب ذكية للتحري في صحة ما تنشره من أخبار

---

(582) نصر الدين لعياضي، الأخبار الكاذبة عملة مزيفة نشر بمجلة الشروق الإماراتية 6--12 مارس 2017

مستقاة من مواقع الشبكات الاجتماعية دون التفريط في آنية الأخبار وسرعة نشرها أو بثها، لذلك فإن الصحافيين الذين لا يملكون تقاليد التقصي عن مصادر الأخبار ومقارنتها وفحصها، ويفتقدون الأدوات التي تسمح لهم بالتأكد من صحتها وواقعيتها يتعبون كثيرا في التعامل مع الأخبار السارية في مواقع الشبكات الاجتماعية، فإذا تعاملوا معها بما يملكون من خبرة الإعلام المُوَجَّه وتقاليد الصحافة «الجاسة» فإنهم يتحاشونها أو ينشرونها كما وردت دون أي جهد في البحث عن مصداقية مصدرها.

الفصل الخامس

الاستعباد في وسائل الإعلام

الاستعباد في وسائل الإعلام

-يقول الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه المسألة الثقافية:(لم يعد إخضاع الأبدان شرطاً لإخضاع النفوس، بل العكس لقد غدا إخضاع النفوس طريق لإخضاع الأبدان) ومع تحوّل العالم الى قرية كونية، بل أصبحت شاشة بحجم كف اليد، وطغيان تكنولوجيا المعلومات الرقمية، وتعدّد الجهات التي توظّفها في شرق الكرة الأرضية وغربها، وصناعة صحافة وإعلام المواجهات وصراع الثقافات، الأديان، المذاهب والحضارة في مختبرات سرية، وتضارب المصالح، وصراعه، ووسائل الإعلام تثبت لك ذلك، في دولة القمع العربية يمسك العلمانيون والملحدون ومعهم شيوخ السلطة بأجهزة الاعلام ليشكلوا وعي الشعب وفق عقيدة الاستعباد وقبول الامر الواقع، فقد جرى تفضيل مفهوم «الانحراف الإعلامي» بدل «التضليل الإعلامي» لمواءمته مع المقاربة المعتمدة في الكشف عن رهانات الفضائيات الأجنبية على إغراء وكبت الجماهير والتأثير في الشأن العام واعتمادها على المشهدية لتحقيق هذه الغايات على حساب جودة المضامين وأخلاقيات المهنة في بعض الأحيان، ولمزيد من التعمق في هذا المفهوم ننصح بمراجعة أعمال الباحث في مجال الاتصال والإعلام، باتريك شارودو.

ويخبرنا فرويد كيف تجري إزاحة أو تحويل سيكولوجيا الخوف إلى أيديولوجيا وطنية بالكثير من الرطانة والتسامي المعروف جيدا في علم انفس كتصريف سلبي للترويض الجمعي، إذ أن ثورة الإتصالات الحديثة غيرت المشهد الإعلامي والإتصالي العالمي حيث تعددت القنوات الفضائية وتعممت شبكات الأنترنت وتطورت وسائل الطباعة الحديثة بحيث بإمكان صحيفة واحدة أن تصبح في القارات الخمس في نفس اللحظة، وبذلك أتسع تأثير وسائل الإعلام وتعاظم بشكل لافت، كما أن إنهيار المنظومة الإشتراكية وإستفراد مجمعات متكتلة إقتصادية ومالية بالسوق العالمي والولايات المتحدة بالقرار السياسي الدولي، كل هذا قد جعل وسائل الإعلام تتخلى تدريجياً عن وظيفتها التقليدية كسلطة رابعة مضادة لتتحول إلى سلطة خامسة، بل إلى سلطة أولى، فالإعلام خرافة، ولا يمكن للخرافة أن تصنع حقيقة أو تكتشفها، فالإعلام يمارس الاستعباد للمتلقي، والإعلام هو التعبير الموضوعي

عن عقلية الجماهير واتجاهاتها، فهو من أهم مؤسسات التشكيل الثقافي، ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا أن جميع مصادر التشكيل الثقافي على تنوعها أصبحت بحوزة الإعلام وفق عدة معطيات واضحة وجلية للمراصد أبرزها:

- بث الفرقة بين الناس من خلال ترسيخ خطاب الكراهية والتحريض والعنف لإستعباد الناس والتحكم بهم مثلما فعل فرعون في بث الفرقة بين قومه لاستعبادهم.
- اصبحت وسائل الإعلام تنحو منحى واضحا في تمجيد الساسة واظهارهم بأنهم عالون في الارض مثلما تميز فرعون بالاستعلاء في الأرض بغير حق.
- تمتاز وسائل الإعلام بجبروتها في رصد المشكلات الإجتماعية وغيرها وتفرض خطابها عن طريق التكرار والتهويل وهذا يقترب من نظرية التجبر التي استخدمها فرعون.
- الادعاء بالألوهية أي أنه إله دون الله يعبد.
- عاث في الأرض فسادا وظلما.
- نشر الجهل والتفرقة بين الناس.
- السيطرة على عقول الناس.
- محاولة إدراك جهالته فتكون آراء الناس متفرقة ورأي الإعلام هو السائد.

الخلاعة المفرطة دون الأخذ بنظر الإعتبار تقاليد المجتمع العربي، أو تقاليد المجتمعات الأخرى، وعلى طريقة ذلك القاضي الأمريكي، الذي علق على أحد الأفلام الخلاعية:«لا يوجد تعريف محدد للخلاعة، أنا أحددها حين أراها» فالحرب الإعلامية لا تقل أهمية عن الحرب العسكرية.

معارك الفضاء الإعلامي

يكتب الإعلامي الكبير زيد الحلي عن معارك الفضاء الإعلامي والتي عدها أبرز محن المواطن في العراق:: ان المواطن يعيش اليوم، صراعا داخليا مع نفسه، فتراه يظهر غير ما يبطن، ويبتسم، ووجدانه باك، فقد بات القلق لازمة يومية في سلوكه، نتيجة تلاطم امواج التصريحات، والحوارات الساخنة التي يسمعها ويشاهدها من

على شاشات التلفاز، فاختلط عليه الخيط الاسود من الخيط الابيض، وبات والقلق صنوان لا يفترقان، لعدم قدرته على إظهار مشاعره الداخلية الشخصية أو التعبير عنها صراحة، نتيجة هيمنة منظورة وغير منظوره يخشاها، ابرزها المستقبل غير الواضح في مناحي الحياة، وتقلباتها، بسبب تباين ما يدخل دهنه من صراخ يومي، وليس يخاف على احد، ملاحظة الخوف النفسي الذي يصاحب المواطن في مسيرته اليومية، وعدم القدرة على التغلب على أي موقف يواجهه، وهذا ليس بالأمر السهل، فهو مؤشر على ضعف القوة الداخلية للإنسان، وهي من أكثر أنواع القوى التي لا يمكن مراوغتها وتجاهلها، لما لها من تأثير محبط وانعكاس على الفرد والمجتمع، إذ أن بلوغ القوة الداخلية وعكسها على أنفسنا وحياتنا اليومية ليس بالأمر السهل، وعلى الحكومة ومؤسساتها ان تسعى الى كبح كل ما هو سلبي، فالإحساس بالمناعة والتقدير للحياة يكسبنا نوعا من القوة، وهي الامتنان لما هو جميل وخير، لكن من اين تأت المناعة ونحن نعيش في بحر متلاطم من المشاكل والتصريحات وعراك الفضائيات وأخبار السرقات والسحت الحرام، فيا بعض من نشاهدهم يوميا، ونقرأ لهم يوميا، كلكم أعزاء علينا، نرجوكم إدراك أن لغو الكلام والصراخ، ربما هو قارب شهرة مؤقتة، لكن هدوء الحوار والمنطق الحقيقي هو شاطئ السلامة المجتمعية، فرحمة بالمواطن البسيط، فالوطن على صفيح ساخن، فيما نرى أفواهكم وأفواه ضيوفكم تتبارى في حلبات أمام جمهور، ضاعت عليه الافعال وردودها.

فوسائل الإعلام التي تقف كوسيط بين الواقع والجمهور تخفي جملة من الحقائق، منها أن وراء كل وسيلة إعلامية توجد سلسلة من الوسطاء الذين يعملون على غربلة الأحداث واختيار الأخبار، وترتيبها حسب أهميتها، و انتقاء الكلمات والصور التي يعتقد أنها تعبر عنها أفضل من غيرها. وعبر هذا المسار من الوساطة، تنتهي وسائل الإعلام إلى " إعادة إنتاج الواقع" ليشكل ذاكرتنا الجماعية في المستقبل، و" يؤسس" ساحة تتصارع فيها الأفكار والتيارات السياسية والفكرية والتصورات، أو يحتلها الفكر الواحد ويهيمن. وتُمتّن وسائل الإعلام قواسمنا المشتركة التي تشكل مرجعيتنا في الحكم على الظواهر والأشياء والحياة. وتثري تجربتنا الجماعية بما تملكه من مقدرة على نقلنا إلى العوالم البعيدة عنا جغرافيا وزمنيا.

فساد الإعلام أم فساد الذمم

ويتجسد الاستعباد في الفساد الإعلامي، الذي سببه إما خط تحريري مهزوز ومُـوَجَّه، أو توظيف عديمي الخبرة بقواعد السلوك المهني، وقد كان البعض يعتقد أن قوة وساطة وسائل الإعلام تعود لطبيعتها التكنولوجية فقط، لذا اتجهت الآمال إلى السينما حينما تم اختراعها، وراهنت على قدرتها على تقريب الشعوب وتعميق التفاهم بينها لكن الأيام أجهضت هذه الآمال، فتناوبت وسائل الاتصال المتتالية على نقل هذه الآمال وصولا إلى شبكة الانترنت دون أن تجسدها، وأنتبه البعض إلى أن مصدر خيبة الآمال يكمن في تضخيم الخصائص التقنية للميديا على حساب المضمون الذي يناسب خصوصيتها، ففي هذا الصدد يؤكد البعض، بكل جد، أن هتلر ما كان له أن يوجد ويلحق المآسي بالعالم لو كان التلفزيون موجودا حينذاك، ويبررون قولهم أن الصورة التلفزيونية التي تظهر الشخص الهستيري تؤلب الرأي العام ضده، فالتلفزيون يحبذ السكينة والسلم والاسترخاء والمرح، فمن يصدق هذا الاعتقاد وهو يرى أن الحروب بكل وحشيتها وقبحها تحولت إلى فرجة واستعراض تلفزيوني نتابعه، بصمت وربما بلامبالاة، ونحن نتناول طعامنا؟[583] وترسخت الأساليب الاستعبادية وفق ما يكتبه المغردون بكراهية وحقد، شتائم، تلميحات بذيئة وتعابير سيئة، صبوا جام غضبهم، عن أية قضية ممكن أن يطرحها انسان، لربما بؤس حيواتهم وقمع نفوسهم، تتدفق التغريدات كأنها قطار حقد وكراهية انطلق بسرعة جنونية غير عابئ بالخروج عن السكة الحديد ودعس من يقف في طريقه.

ما نراه اليوم في المشهد الإعلامي هو صورة مؤلمة لممارسات تحمل في ثناياها خطاباً إعلامياً مؤججاً ومبرمجاً لصالح الانتماء الطائفي والعرقي، أكثر مما هو لمصلحة الوطن، إذ كانت الأهداف الأميركية أثناء الاحتلال واضحة في استثمار الإعلام في تغذية الأزمات، وهذا ما ظهر في الميدان عمليا، كسياسة تعميق الفوضى في العراق لأسباب سياسية تتعلق بوجوده وبإستراتيجية البقاء، لتدمير الدولة العراقية وإشاعة الفوضى والاقتتال السياسي والطائفي، وإشاعة ثقافة الاحتلال وتعميقها من خلال

(583) نصر الدين لعياضي، مقال منشور في صحيفة الخبر يوم 9 .2015,5

أجهزة الإعلام الممولة من المحتل، وإيجاد سياسة احتلالية قائمة على مبدأ «فرق تسد» وخلط الأوراق، وتكريس النظرية النفسية (التنفيس) من خلال فتح قنوات التعبير وتشجيعها بما يحقق للمحتل مصالحه السياسية في إلهاء المواطن بموضوعات ثانوية، وإبعاده عن التفكير بممارسات المحتل وأجنداته السرية، لذلك كانت حرية التعبير في كثير من الأحيان تأخذ شكل صراعات حزبية وطائفية لا علاقة لها بمصلحة العراق، وأفرز المشهد الإعلامي العراقي الجديد ثلاثة أنواع وهي. الإعلام الحكومي الذي تبنت تمويله الحكومة وأغدقت عليه ملايين الدولارات. والإعلام الحزبي ممثلاً في الصحف والمحطات التلفزيونية والإذاعية التابعة للأحزاب والكتل السياسية، والإعلام المستقل الذي تحوم الشكوك حول استقلاليته، لأنه في الغالب مستقل شكلاً بسبب عدم قدرته على تمويل نفسه، لذلك تجده يخضع للجهات الممولة، وما نراه اليوم في المشهد الإعلامي العراقي هو صورة مؤلمة لممارسات تحمل في ثناياها خطاباً إعلامياً مؤججاً ومبرمجاً لصالح الانتماء الطائفي والعرقي، أكثر مما هو لمصلحة الوطن من خلال أكثر من صورة أبرزها:[584]

1 - وقوع الإعلام العراقي في فخ المنازعات والصراعات السياسية والحزبية والطائفية والفئوية والقومية لأسباب ترتبط بخلفيات بعض الأحزاب وأجنداتها الخارجية، وعدم استيعاب الكثير منها للفكرة الحزبية في العراق وممارسة الديمقراطية.

2 - التنوع في وسائل الإعلام، وهو تنوع إيجابي إذا كان يهدف إلى بناء الإنسان العراقي الجديد، وتوعيته بوحدة العراق ومخاطر التقسيم والاحتلال، وتعميق الوحدة الوطنية، وإشاعة ثقافة الديمقراطية واحترام الرأي الآخر، ولكن هذا التنوع الإعلامي اتجه إلى مسارات تخدم الأحزاب وتلتقي بأجندتها السياسيّة.

3 - ظاهرة التمويل الإعلامي ومخاطره على مستقبل الإعلام العراقي واستقلاليته، خاصة إذا كان هذا التمويل خارجياً هدفه تحقيق أهداف سياسية ضد مصلحة الوطن، ولاغرابة أن بعض الصحف والفضائيات تم دعمها من قبل الاحتلال أو من دول مجاورة للعراق، بحيث أصبح التمويل امتيازا لبقاء البعض على حساب

---

(584) دياس حضير البياتي، مفخخات الطائفية في الإعلام العراقي، جريدة العرب، نُشر في 30/11/2013، العدد: 9395، ص8

صحف وطنية وقومية قاومت الاحتلال إعلاميا، ولكنها لم تستطع مقاومة البقاء لأسباب مادية.

4 - العنف الرمزي، إذ أن الفضاء المفتوح يمارس نوعا من "العنف الرمزي" المفسد والمؤذي بشكل خاص، وهو عنف يمارس بتواطؤ ضمني من قبل هؤلاء الذين يخضعون له واولئك الذين يمارسونه بالقدر الذي يكون فيه أولئك كما هؤلاء غير واعين بممارسة هذا العنف أو الخضوع له، إن علم الاجتماع مثل كل العلوم وظيفته أن يكشف القناع عن الاشياء الخفية، هذا العمل يمكن أن يسهم في تقليل العنف الرمزي الذي يمارس في العلاقات الاجتماعية وبخاصة في علاقات أدوات الاتصال الإعلامية.[585]

وإذا كانت تفجيرات الفتنة الطائفية لقتل الأبرياء في صورة السيارات المفخخة تشكل جريمة بحق الشعب والوطن، فإن تفجيرات الفتنة الإعلامية التي تم تفخيخها داخل وسائل الإعلام العراقية هي الأخرى جريمة بشعة لا تقل عن جريمة قتل العراقي بدم بارد، لأنها تحاول إيقاظ الفتنة والتحريض من خلال خطاب إعلامي مؤجج ومبرمج لمصلحة الانتماء الطائفي والقومي والعرقي، فنحن نشهد اليوم ظهور وسائل إعلامية حزبية ودينية ذات ولاءات طائفية تشيع ثقافة الولاء للطائفة، والأخطر هو تسابق الأحزاب والطوائف والمذاهب على إنشاء إذاعات وفضائيات، معظمها تبشر بثقافة الطائفة وتلغي الآخر تحت مبررات عديدة، ليضاف للمشهد الجديد فتنة حريق الإعلام الطائفي الأجنبي وبعض قنوات الإعلام العربية، لصناعة خطاب التحريض والفتنة، وليصبح المشهد العراقي مشهدا إعلاميًا صراعيًا بين الطوائف والقوميات والأديان، ولم يكن المشهد الإعلامي معزولاً عن الحياة السياسية العراقية من محاصصة طائفية وعرقية ودينية في مجال الإدارة الحكومية وميادين التعليم والصحة والاقتصاد، فهي دون شك سياسة المحتل منذ دخوله العراق، والذي تجسد في قانون "بريمر" الخاص بإدارة الدولة العراقية الذي عمّق المحاصصة لإشعال الحرب الأهلية وتقسيم العراق، ومن المؤسف أن يعيد التاريخ نفسه، فنحن اليوم أمام ظاهرة (حرية إطلاق القنوات) و(الحرية الإعلامية) في العراق، وهي حرية

(585) بيير بورديو، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، م، س، د، ص43

استثمرت ضد الوطن ووحدة مواطنيه، لصالح أحزاب وتكتلات دينية وقومية ارتأت أن تقدم مصالحها الطائفية والقومية والعرقية على مصلحة الوطن من خلال خطابات طائفية وعنصرية ودعائية بحيث أصبح المشهد الإعلامي العراقي يقارب المشهد السياسي، فهناك قنوات شيعية وسنية وكردية تدافع عن طائفتها وقوميتها، مثلما هناك أحزاباً شيعية وسنية وكردية، وهكذا تحولت هذه الفضائيات إلى منابر إعلامية لتأجيج الصراع السياسي بين الأحزاب والطوائف والقوميات والأديان، وأداة تحريض لإشعال فتيل الحرب الطائفية وتكريس ثقافة المحاصصة والمصالح، وإثارة الغرائز والدوافع النفسية بنبش الماضي وانتقاء الأحداث بإزدواجية المعايير، وفق ظاهرة الفضائيات في العراق، لعدة أسباب هي:(586)

1 - إن هذه الفضائيات ولدت في بيئة سياسة صراعية تحت الاحتلال، وهي بيئة أفرزت أنماطا إعلامية مستنسخة من الواقع السياسي العراقي وطبيعة العملية السياسية المبنية على ظاهرة المحاصصة الطائفية، وهذا ما يجعلها في كثير من الأحيان تعبر عن أحزابها وتكتلاتها بعيداً عن منطق الحيادية في تناول الأخبار والأحداث والوقائع.

2 - قضية تمويل هذه الفضائيات، فمن المعروف أن إنشاء فضائية عبر الأقمار الصناعية يحتاج مبالغ طائلة لتأمين المعدات والأجهزة والأستديوهات وتكاليف العاملين، وما يثير الاستغراب هو ظهور عشرات الفضائيات بعد الاحتلال مباشرة من قبل أحزاب وأشخاص، مما يدعو إلى الريبة بأن هناك جهات إقليمية ودولية وراء إنشاءها لتحقيق مكاسب سياسية.

3 - غياب المهنية في هذه الفضائيات، والتي أثرت في نوع الخطاب الإعلامي وتوجهاته السياسية، وعمقه الثقافي والمهني، حيث الركاكة والضعف في أداءها وافتقارها إلى الكوادر الإعلامية المؤهلة، والأخطر هو افتقار هذه الكوادر إلى أخلاقيات الإعلام ورسالته النبيلة بانحيازها إلى طائفتها وقوميتها أو لحزبها السياسي دون مراعاة الحيادية والموضوعية.

---

(586) د.ياس خضير البياتي، مفخخات الطائفية في الإعلام العراقي، مصدر سبق ذكره.

4 - ظاهرة الفضائيات الدينية ذات التوجهات الطائفية التي تنطلق من مرجعيات دينية مختلفة، ويغلب على خطابها الإعلامي المحتوى الطائفي أو الانفصالي وإجازة الاقتتال الطائفي، وتكريس الانتماء للطائفة والقومية، حيث فضائيات لا تهتم إلا بقضايا الشيعة، وأخرى تهتم بقضايا السنة، وكلها تحاول استخدام أسلوب الدعاية القائم على إثارة العواطف وتعييب الآخر، وإضعاف ثقافة المواطنة والوحدة الوطنية.

5 - غياب السياسة الإعلامية لهذه الفضائيات حيث تتجه إلى المحلية في نقل الأحداث والأخبار من وجهة نظر حزبية ودينية وقومية لتأسيس فكرة (الانتماء الطائفي والقومي) ومحاولة كسب الناس بخطاب يكرس مفهوم الطائفة والقومية والعرق تحت مبدأ سياسة الدفاع عن مصالحها وتجريدها من انتماءها الوطني، فنحن نشاهد معارك إعلامية فئوية وطائفية بين الفضائيات لإثارة النعرات وتعميقها وتكريس الحقد الطائفي والقومي، وتثوير الأحداث وشحنها بموروثات الماضي، وإشاعة ثقافة الانفصال تحت يافطة تحقيق المصالح، ومحاولة إضعاف الانتماء الوطني في النفوس وربطه بالمكاسب المادية.

ومثله تتفاقم المحتويات السيئة والضارة في مواقع التواصل الأجتماعي وخاصة الفيسبوك، وبما أن فيسبوك يعد مدياري مشترك، فهذا يعني أن هناك مرجع واحد لكل 250.000 مستخدم. إن ذلك لا يمثّل إلاّ جزءا بسيطا ممّا يستوجب توفيره لمتابعة ومراقبة تفاقم المحتويات غير الأخلاقية والمنتهكة للأعراض ومواجهة أخطار الدعاية والأخبار الزائفة، وهو ما كان فاعلا بحروب القرن الماضي إذ ان جزءا كبيرا من مبادئ دعاية غوبلز[587] ينطلق من القواعد السيكولوجية التي وضعها غوستاف لوبون وأبرزها:

1 - التحكم في كل مصادر الاخبار كوسيلة لوضع القيود على ما يتلقاه القارئ أو المستمع، فكان يقوم بتصنيف الاخبار التي تمر به، ليحدد كيف سيتم عرضها على الجمهور، وما سيلازمها من تحريضات، ويراقب ما سيتبعها من تغيرات.

(587) وزير دعاية هتلر

2 - اتخاذ التكرار كأهم أسلوب من أساليب الدعاية: وكان غوبلز يرى ان هذا الاسلوب هو نفس الاسلوب الذي استخدمته الكنيسة للتحكم في جماهيرها بدون وعي منهم، اسلوب التكرار كان احد أهم الاساليب التي نبه لها لوبون، فضلا عن اسلوب التأكيد، واشار لوبون بأن "نابليون" قال:"لا يوجد إلا شكل واحد جاد من اشكال البلاغة هو: "التكرار".

3 - إحياء عقيدة أساسية: فالعقيدة أيا ما تكن، تبقى بنفس القوة فيما يتعلق بالتأثير على نفسية الجماهير، بل ان نابليون يرى ان العقيدة هي المنطلق الاساس لأي حزب ولا يمكن لدعاية الحزب ان تؤثر في الجماهير بدون إيمانها بعقيدة ما، إذ كانت العقيدة التي أنشئها هتلر وغوبلز مكونة للمفاهيم الاساسية للفكر النازي، مشكلة من الصليب المعكوف شعارا لهذه العقيدة، وكلمات مثل القوة والعظمة والهيبة والتحكم والقدرة تعد صفات لأصحاب هذه العقيدة، التي لها خصائص هي :1 - عبادة إنسان يعد خارقا للعادة والخوف من القوة التي تعزى إليه، والخضوع الأعمى لأوامره، واستحالة أية مناقشة لعقائده/ 2 - الرغبة في نشر هذه العقائد، والميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء.[588]

4 - عملية غربلة وانتقاء: هناك عملية غربلة وإنتقاء مسبق للمعلومات، ويذكر العلماء أربع عمليات إنتقائية هي التعرض الإنتقائي، والإدراك الإنتقائي، والتذكر الإنتقائي، إلى جانب القرار الإنتقائي، فالتعرض الإنتقائي: هو ميل الأفراد إلى تعريض أنفسهم إختيارياً لرسالة وسائل الإعلام التي يهتمون بها أو يجدونها ملائمة لإتجاهاتهم، ويتجنبون تلك غير الملائمة لإتجاهاتهم، والإدراك الإنتقائي، ميل الأفراد إلى تحريف معنى رسالة وسائل الإعلام أو تشويهها إختيارياً حتى تصبح ملاءمة لإتجاهاتهم الراهنة ولخبرتهم السابقة، أما التذكر الإنتقائي فهو ميل الأفراد إلى تجنب تأثيرهم بوسائل الإعلام التي لا تتلاءم واتجاهاتهم الحالية، وهكذا فأن التعرض بوسائل الإعلام يكون دائماً إنتقائياً، أما القرار الإنتقائي فهو ميل الأفراد إلى تجنب تأثيرهم بوسائل الإعلام

(588) محمد علي فرح، صناعة الواقع وضبط المجتمع، أفكار حول السلطة والجمهور والواقع، م، س، ذ، ص68

التي لا تتلائم وأتجاهاتهم، وأثبت(بول لازارسفيله) أن الإنتباه لأخر الأخبار سببه في الواقع وبصورة أساسية ما لنا من علاقة بالحدث، وهذا يفسر تشدد المواقف السابقة بدلا من تغييرها بوساطة الوسائل، إذ أن ظاهرة التذكر الإنتقائي تمحو من الذاكرة أقساماً معينة لا تتلاءم مع آراء الفرد الذاتية، أي أن صعوبة إستيعاب رسالة ما، وبالتالي تحديد الموقف السياسي منها، يرتبط أما بعلاقة مضمونها بالمواقف المسبقة للمستقبل، أو بالمضمون وبالموقف بآن واحد معاً، وتصطدم وسائل الإعلام من خلال أدائها الوظيفي تجاه الأفراد والمجتمع ببعض العقبات أو المعدات التي تقلل من فاعليتها، هذه العقبات يطلق عليها في علم الإتصال بالعمليات الإنتقائية وهي:

1 - **الإهتمام الإنتقائي**: وفحواه أن الناس لايستطيعون الإهتمام بكل شيء يوجه لهم، بل أنهم اذا حاولوا ذلك سيعانون حملاً زائداً في الحال ولذلك فأنهم يحصرون إهتمامهم في مجرد جزء محدود مما هو متاح يومياً ويهملون الأجزاء الأخرى، وهذا الإنتقاء يرتبط لديهم بالإهتمام الفردي والإنتماء الفئوي والروابط الإجتماعية.

2 - **الإدراك الإنتقائي**: أي تفسير الخطاب الإعلامي بأساليب تختلف من فرد إلى آخر أو من جماعة إلى أخرى وفق الصفات النفسية المميزة والتوجهات السلوكية الخاصة بالفئات الإجتماعية، وانتماءات الروابط الإجتماعية.

3 - **التذكر الإنتقائي**: هناك أنواع معينة من الخطاب الإعلامي، لأنواع معينة من الجمهور، يتم تذكرها بسرعة ولوقت طويل، بينما نفس هذا الخطاب قد يتم نسيانه بسرعة من قبل فئات أخرى لها هياكل معرفية وإنتماءات فئوية وروابط إجتماعية مختلفة.

4 - **السلوك الإنتقائي**: إن كل فرد لن يتصرف بنفس الأسلوب نتيجة التعرض لخطاب إعلامي معين، وهذه الإستجابات تعتمد على التأثيرات المتداخلة للمتغيرات الموجودة.

وأصبحت وسائل الإتصال المرئية اليوم، سبيلا لنشر الثقافة المدمرة القائمة على الإثارة وتمجيد العنف والعدوان وإشاعة مناخ إحباطي هدام إستنادا إلى نظريات

تهدف إلى محاصرة الجماهير في متاهات الجنس والعنف والغرائز البدائية وتجريدها تماما من مقدرة اللجوء إلى العقل والمنطق مما ييسر قيادها والتحكم في مصيرها، وتأسيساً على ذلك فأن الصورة التي نستهلكها ليست محايدة ولا موضوعية بالكامل، ولم تكن أبدا إنعكاساً كلياً ومتكاملا للواقع، إذ أن الكاميرا هي آلة تسجيل تعيد صياغة الأشياء الملموسة من منظور مستخدمها، ولأنها كذلك فسيبدو كل ماهو مصور ومعروض على الشاشة بما في ذلك الفيلم الوثائقي بأنه منمق ومفتعل ومصعد عاطفيا لكي يلبي رغبة جمهور الدراما، لهذه الأسباب يشك العديد من التسجيليين باللقطة الجميلة، إذ أنها توحي بالتدخل والتنسيق من قبل صانع الفيلم، إذن فأن صانع الفيلم أو البرنامج أي كان نوعه فأنه يقوم بالضرورة بإنتقاء أفضل جزء من الشئ المصور بمعنى أنه يقوم بتنويع وتغيير وإختيار أفضل الزوايا في عملية التصوير.(589)

عصر لمحة البصر وتسليع الثقافة

يرشد الكاتب رشيد الخيون المشهد الإعلامي الالكتروني والنقاشات التي تدور حوله بأننا أمام هذا المشهد المحتدم النقاش وبحماس بين متفائلين بإعلام جديد كاسح، ومتشائمين من زوال الإعلام التقليدي، فالفريقين لم يدركا أنهما أمام ظاهرة لا يملكان الزيادة أو النقصان فيها، ومن يخشى الغزو الثقافي عبرها، أقرب له تغيير مجاري أنهار الأرض، من أن يمنعها ويعتزل العالم، إنه عصر «لمحة البصر»، ظل في مخيلتنا ومخيلة أجدادنا مرتبطاً بفعل الجن، وإذا بالتكنولوجيا تجعله واقعاً من فعل الإنسان، ها هي تكنولوجيا التواصل الاجتماعي تحقق حلمَ «هدبة بن الخشرم»(توفي نحو 50هـ)، باستخدام الريح لإيصال الخبر، كإعلام «لمحة البصر»، فهو القائل: «ألا ليتَ الرياح مُسخراتٌ/ بحاجتنا تُباكرُ أو تؤوبُ/ فتخبرنا الشِّمال إذا أتتنا/ وتخبر أهلنا عنا الجنوبُ»(البغدادي، خزانة الأدب). حلمنا وحققوا حلمنا، بصحوة استبدل بها خطاب العلم بخطاب الحرب بين الأديان والمذاهب، أما صحوة شرقنا، التي أعطت ثمارها علقماً في حوادث (1979)، فعادت بنا إلى الوراء بلمحة بصر أيضاً، صحويون يريدون استخدام أرق ما توصل إليه عقل الإنسان، ولكن بشرط عفوتنا! هذا هو الاستعباد بعينه الذي يصدره الإعلام لنا.

---

(589) د.كاظم مؤنس، خطاب الصورة الاتصالي وهذيان العولمة، عالم الكتب الحديث، اربد، الاردن، 2008، ص100

وتسبب هذه الأمور مجتمعة بلبلة وإضطراباً فكريين للوسط الثقافي، خصوصاً بعدما راحت الميديا تبحث عن أنصاف مثقفين ممن لديهم المقدرة على تأدية دور المفكرين إزاء الجمهور المختص، وتأدية دور المعنيين بالأدب والفكر إزاء الجمهور العام؟ وبعدما خسر المثقف الفعاليات التقليدية الداعمة له، وبعدما فقدت الأيديولوجيات الكبرى بريقها، وبعدما تكاثر الإعلاميون المثقفون، أصبح المثقف يعاني أكثر فأكثر مشكلة هوية وأعتراف إجتماعي، وهذا ما زاد الضغط على الدائرة الثقافية من خلال جذب المثقفين إلى دائرة النجومية، فمنهم من آثر الأنكفاء والعزلة فكان نصيبه التهميش، ومنهم من جذبته الأضواء فأضطر إلى ترك المسائل التي تهمه، وكرس نفسه للمسائل التي تهم الجمهور الجديد بأن يفهمها أو الجديرة بإرضائه، ولم يعد مهما لديه التحليل والتعمق في الموضوع، إنما المهم الظهور والتعبير عن الرأي، أي أنه تخلّى عن ميزته الأساسية، ميزة التغيير، وراح يعمل لصالح ما هو عابر، وما هو متوافق عليه، فتحوَل إلى "إعلاموقراطي» (Mediacratie) وإلى مثقف جديد يثبت يوميا جدول أعمال الفضاء العام، ويعمل ضمن منطق الإختيار الفائق المتولّد عن التقاء التقنية وحقوق الإنسان، أي أبتعد عن دعواه الحقيقية، بإختصار، هناك هوية جديدة للمثقف أملاها منطق الميديا، حيث تسود مؤثرات الرأي على مؤثرات المعرفة.[590]

وهيمنة ثقافة المظهر والشكل والإبهار واللمعان والإستعراض والمهرجان على حساب ثقافة الجوهر والمضمون والقيمة والعمق، وبمعنى أخر تصبح الصورة بديلاً عن الواقع حيث تزييف الوعي وغيابه، ويتحول الإنسان إلى شي أو سلعة، فضلا عن إختفاء الإبداع، حيث سيادة ثقافة الكثرة والإستهلاك وثقافة صناعة النجوم، وتحويل البشر إلى سلع، وممارسة وظيفة الإلهاء المتزايد للمتلقين، وبروز البرامج السياسية ذات الطابع الإنقسامي والصراعي من خلال إثارة النعرات الطائفية والقومية والعرقية، والنزاعات المحلية والإقليمية وتثوير الرأي العام، وهذا ما يفسره جزئيا تنوع الرسائل والوسائل الإعلامية حيث أن هناك دوافع وحوافز تدفع الجمهور إلى إقتناء رسالة أو وسيلة إعلامية دون أخرى، فضلا من أن «تسليع الثقافة» أستعاد

(590) د.نهوند القادري عيسى، قراءة في ثقافة الفضائيات العربية، م. س، ذ، ص325

حيواته في الفضاء المفتوح لأنه مسألة قديمة طرحتها مدرسة فرانكفورت منذ الأربعينيات، وشكلت مدخلاً لنقد «الثقافة الجماهيرية» أو إدانتها، وان النقد أو الإدانة كانت تنطلق من الرفض الضمني لفكرة تصنيع الثقافة الذي يسلب منها كل تجارب أصيلة ومتميزة أكثر من إستنادها لرفض نمط الإنتاج الرأسمالي للثقافة، وهو ما يتمثل فيما يأتي:[591]

1 - إن إرادة «تسليع» المواد الثقافية لم تات نتيجة للتطور المنطقي لنمط الإنتاج السائد في هذا البلد أو ذاك، بل بدأت تفرضه تلك الإرادة السياسية التي تمارس الضغوط على المنظمات مثل المنظمة العالمية للتجارة وعلى الدول لفرض قوانين السوق على الأفلام السينمائية، وبرامج التلفزيون، والصور، والأشرطة السينمائية، فقد أستهجنت الكثير من الأوساط هذه الضغوط وسعت وتسعى لمقاومتها، خاصة تلك التي تحمل حنين للماضي الذي يربط بين الثقافة والخدمة العمومية، الحنين المشبع بالرؤية الطوباوية التي تجمع بين الثقافة والتحرر أو التي تخشى على مستقبل المواد الثقافية «الوطنية» جراء إخضاعها عنوة لقوانين السوق.

2 - إن "تسليع"الإعلام الذي بدأ نتيجة ميلاد وكالات الأنباء العالمية، وتدويل الصورة التلفزيونية بدءاً من الخمسينيات، قد تعمق بشكل لا نظير له على المستوى القاعدي رفق بعدين أساسيين:

البعد الأول: الإجماع شبه التام على دور الإعلان في تمويل المؤسسة الإعلامية المعاصرة حتى تلك التابعة للقطاع العام والتي تضطلع بدور الخدمة العمومية، هذا الإجماع لا يخفي التفاوت النسبي في إسهام الإعلان في تمويل مختلف وسائل الإعلام المختلفة(صحيفة، إذاعة، تلفزيون)لكنه يضعف الإرادة السياسية في تقنين الإعلان والحد من تأثيره السلبي في مضمون المادة الإعلامية وفي بنيتها وفي شكل تقديمها، إذ أندثرت العديد من وسائل الإعلام في الدول التي تحكمها قوانين الطلب والعرض الصارمة نتيجة عجزها على جذب المعلنين.

(591)د.نصر الدين لعياضي، وسائل الاعلام والمجتمع، ظلال واضواء، دار الكتاب الجامعي، العين، الامارات العربية المتحدة، 2004، ص140-141

البعد الثاني:سمحت التكنولوجيا الحديثة بمحو الحاجز الفاصل بين الإعلان والإعلام، ففي شاشة الكمبيوتر يتعايش النص الإعلاني بجانب النص الإعلامي، إذ أن المادة الإعلامية لا توجد سوى لمرافقة المادة الإعلانية المتحركة في الشاشة، وهذا ما أدى إلى الإجهاز على كل الجهود الثقافية والقانونية التي بذلت للفصل بينهما منذ ما يزيد من قرن، فمن باب الحرص على أحترام حق الجمهور في الإعلام والمعرفة وحمايته من التضليل، الذي يمكن أن يمارسه "القفز" المفاجئ من الإعلام الذي يمثل الواقع إلى الإعلان الذي يحمل قدراً من الخيال أو التحايل على الواقع، كان الإلحاح القانوني على إخطار الجمهور بأن هذا إعلان وذاك إعلام، ليس هذا فحسب، فالعديد من الدول فرضت سقفاً معينا على نشر الإعلانات أو بثها.

4 - العمل لتخريب الواقع: عالم يجري فيه العمل لاقناع الناس بعكس أو نقيض الواقع، انه العمل لتخريب النظرة السوية الى الواقع بقوة الإعلام، فيكون الواقع في الاعلام لا الحدث المكتفي بذاته.

إذ أن الصناعة الثقافية هي علامة واضحة على إفلاس الثقافة أي سقوطها إلا في السلعنة (التسليع) ذلك أن تحويل الفعل الثقافي إلى قيمة تبادلية يقضي على قوته النقدية، ويحرمه من أن يكون أثراً لتجربة أصيلة، فالصناعة الثقافية هي العلامة الفاصلة على تراجع الدور الفلسفي-الوجودي للثقافة، ومن هنا فأن علاقة المثقفين بالتلفزيونات العربية يمكن حصرها في راويتين أساسيتين:

1 - الكثير من المثقفين لا يعرفون ماذا يعني التلفزيون، ولا يملكون ثقافة تلفزيونية، ولا يسيطرون على أدوات إنتاج الخطاب التلفزيوني، والبعض الآخر لا يتحكم في الحديث عن التلفزيون، حقيقة إن الحديث عن التلفزيون داخل الأستديو التلفزيوني لا يقدم شيئا ذي بال، بيد أننا نقصد الحديث عن التلفزيون في المنابر الثقافية الأخرى، أي أن جزءاً كبيراً من المثقفين العرب لم يع، كل الوعي بأهمية التلفزيون في الحياة المعاصرة ودوره في تشكيل الخلفية الثقافية والمعرفية وفي صقل الذوق.

2 - هناك عدد محدود من المثقفين يتعاملون بدراية مع التلفزيون بينما نجد في المقابل عدد كبير من المثقفين الذين يتعاملون مع القنوات التلفزيونية دون دراية

ومعرفة لقواعد ونواهي العمل التلفزيوني وخصوصيته، إذ يذكر الباحث العربي نصر الدين لعياضي حادثة ما جرى لأحد المثقفين العرب الذي بدأ يتحدث مع أحد مذيعي التلفزيون طالباً منه أن يبقي ما صرح به خارج التسجيل(Off the record) أو لا يبث، علماً أنه أبلغ مسبقاً بأن البرنامج يبث مباشرة على الهواء أو ذاك الذي طلب منه التدخل في إحدى الجرائد المصورة ليدلي بشهاداته ورأيه، فبدأ بتمهيد عريض وطويل قبل أن يدخل في صلب الموضوع، ولما شرع في إستعراض وجهة نظره قطع عنه الخط لأن الوقت المخصص للإتصال عبر القمر الصناعي قد أنتهى.

3 - غياب الثقافة النقية: إذ ساهمت الفضائيات العربية في نشر ثقافة التطرف بشكل غير مباشر، لترسيخ الشرخ الرأسي للمجتمع الإجتماعي، الحداثي/الديني، الذي يحدثه الإعلام الفضائي بشقيه الترفيهي والإخباري، وفضلاً عن ذيوع الثقافة الفنية الصادمة لمجتمعات محافظة، هناك شيوع لمعالم ثقافة متطرفة وإقصائية أسهم فيها الشق الإخباري من الإعلام الفضائي، ويمكن رصد بروز تلك المعالم مباشرة بعد أحداث 11 ايلول 2001 وبروز تنظيم القاعدة، ثم حرب إحتلال أفغانستان والعراق، وقد بلغت تلك الظاهرة ذروتها خلال المدة 2002-2004، وأخذت بالإنحسار بعض الشئ في مرحلة لاحقة، ثم أستفاقت بعد ذلك بعد ثورات الربيع العربية عام 2011، وتفاعل الجماعات الإرهابية كـ(داعش)، ففي مرحلة الذروة، وفي سياق التنافس على السبق الصحفي، أنزلق الإعلام الفضائي الإخباري أو بعضه على الأقل، إلى مربع الترويج غير المباشر للجماعات الإرهابية التي تستند إراقة الدماء وسفكها، وتحت مرأى الكاميرا، وبمسميات الجهاد والمقاومة على إختلاف تنويعاتها، وذلك عن طريق إستقبال وبث شرائط فيديو يظهر فيها القتل والذبح وقطع الرؤوس، إلى جانب ملثمين يهددون بقتل هذا المخطوف أو ذاك الرهينة، وقد تلاحقت تلك الأشرطة وبثها بشكل قارب من أن تصبح رؤية تلك الأشرطة أمراً عادياً ويومياً على شاشات تلك الفضائيات، والأثر السئ الذي ترتب على بث تلك الأشرطة هو أن هذا الدم المراق بشكل إعتيادي ومستسهل يسهم في تأسيس ثقافة دموية تشجع

على إستساغة أصناف القتل والذبح، ولا يبدو أن ثمة مناصاً من الإقرار بأن الفضائيات ومواقع التواصل الإجتماعي وخاصة اليوتيوب تتحمل جزءاً من المسؤولية، ولو بشكل غير مباشر، في تشجيع تلك الثقافة وجعلها عادية.

كل ذلك جعل بعض الباحثين يذهب إلى أن وظيفة الإعلام الأساسية هي نقل الحدث وتحليله، بينما يذهب بعض آخر إلى أن الإعلام يصنع الحدث في بعض الأحيان، وسواء كانت وظيفة الإعلام هي نقل الحدث وتحليله أو صناعة الحدث فمن الواضح أمامنا أنه في بعض الأحيان تقوم بعض وسائل الإعلام، عن قصد أو دون قصد، بتدعيم بعض الظواهر غير المقبولة مثل الفتنة والاحتقان والصراع ومشاعر الكراهية والحقد والغضب بين أبناء الوطن الواحد، والدفع بإتجاه الطائفية، أو ما أصطلح على تسميته بإعلام الفتنة، ولذلك فأن **التأثيرات الثقافية للفضائيات في تكريس مفهوم ثقافة التطرف، تدور في عدة دوائر رئيسة أبرزها:**

1 - **الرموز (Symbols)**: تؤكد الدراسات العلمية أن ثمة تحولاً في تبني الرموز الثقافية من قبل المشاهدين في الدول النامية ومنها الدول الإسلامية والعربية حيث أكدت هذه الدراسات أن الجماهير في تلك الدول يتبنون رموز أجنبية في مجالات الفكر والثقافة والأدب والفن، وهم في هذا الصدد أكثر عكساً وإعتناقاً لتلك الرموز مقارنة بالرموز المحلية ويعد ذلك مؤشراً هاماً لتراجع دور الرموز المحلية في تشكيل الإستجابات المعرفية والوجدانية لجماهير دول العالم النامية، وتكمن خطورة هذا النمط من التبني الثقافي في أن جماهير المشاهدين في الدول النامية تنسلخ عن واقعها ورموزها وتحتضن رموزاً أجنبية تحت إدعاء الثقافة العالمية إذ أن الثقافة العالمية يفترض أن تقوم على التبادل الثنائي بين الثقافات المختلفة.

2 - **أنماط الحياة(The way of life)**: تؤكد الدراسات الإعلامية صحة نموذج جيرت هوفستيد فيما يتعلق بأنماط الحياة حيث تغيرت تلك الأنماط في كثير من الدول النامية، وأكدت تلك الدراسات تبني الجماهير في الدول النامية الأطر الغربية في أنماط المعيشة وحتى الأكل والأثاث والزي والأكسسوارات وكل مايتعلق في الإستخدامات الشخصية اليومية حيث تراجعت الأطر المحلية في هذا الصدد بشكل ملحوظ.

3 - **الطقوس(Rituals)** أن الفضائيات تمارس دوراً جوهرياً في تغيير الطقوس المحلية في الدول فعلى سبيل المثال أنتشرت الأعياد والمناسبات والمهرجانات في البيئة العربية في السنوات الأخيرة وكان لتلك الطقوس طابع عالمي غير مرتبط ببيئة تلك الدول مثل أعياد رأس السنة، عيدالحب، عيد الزهور..الخ ومن ناحية أخرى تؤكد الدراسات العالمية تزايد الإنفاق العام للشعوب العربية في تلك الطقوس التي لا تمت بصلة للثقافة العربية على جانب تراجع الإهتمام بالطقوس النابعة من الثقافة العربية وأختفت فعاليتها وآليتها.

4 - **القيم(Values)**:يشير مفهوم القيم إلى مستوى التفضيل من بين طرفين متناقضين وتأخذ تلك القيم قيمة أما إيجابية أو سلبية فيقال الخير والشر والحب والكره والعمل والكسل والتدين والإنحلال وغيرها من المعاني المتضادة، وتشير الدراسات العملية إلى الدور المحدود للفضائيات في تغيير منظومة القيم لدى الجمهور نظراً لأن الجماهير تستمد القيم من موضعيات محددة فعلى سبيل المثال يستند العرب مرجعياتهم من الإسلام والثقافة العربية ولكن تم رصد نوع من التغير الكيفي في منظومة القيم وهي غالباً تتجه إتجاهاً سلبياً.

5 - **تأجيج نيران الفتنة**: أن الخليط من الممارسة الإعلامية المربكة كان السبب الرئيس في تأجيج نيران الفتنة واللعب على أوتار التناقض الطائفي تحيلنا فوراً إلى تفلتات الإعلام المرتزق ودوره في إذكاء الإنقسامات الفئوية والثقافية ما بين أبناء الشعب الواحد خدمة لمخططات وتمنيات جهات معادية لحق الشعوب بالحرية والعدالة والحكم الرشيد، كما أن هذا الإمتطاء الملتبس لتقنيات الإعلام الحر والفضاء المفتوح لتقديم تغطية مضللة موظفة لخدمة وإدامة صورة الشعب المنقسم المختلف المتناقض عن طريق صور وعبارات زاعقة لبعض الغاضبين في برامج مفتوحة على الهواء، لا يمكن أن تكون إلا سحب إعلامي تعتاش عليها قنوات الحنين للزمن المقتطع من عمر البلدان في ممارسة فجة مموهة بخرق ظاهر لتقاليد العمل الإعلامي المهني الملتزم، إذ أن الأهمية البالغة للإعلام تفرض على المتصدين لمهمة التعبير عن صوت المواطن وهمومه وإنشغالاته التي غيبتها المحاصصات الطائفية والعرقية أن يكونوا على مستوى التحديات التي

تجابه الشعب في صميم إنتمائه الوطني، وأن يرتقوا إلى سمو المكانة التي يتبوأها الإعلام الجاد والرصين كعامل معزز في بناء أرادة المجتمع وتنمية حسه الوطني من خلال إشاعة مفاهيم المواطنة والمساواة ولغة التسامح وعدم التمييز وقبول الآخر وتعميق الحوار بين أطراف المجتمع الواحد رغم إختلاف أطيافهم.

6 - **ترسيخ الاكاذيب**: غرقت وسائل الإعلام في مستنقع من الأكاذيب وأنصاف الحقائق التي وظفت في خدمة الصورة السياسية التي يرسمها المسؤول السياسي، سواء حركته مصالحه أم طبيعة ما تفرضه عليه المرحلة، ويطلق أصحاب النظريات على أساليب حربة الدعاية التي أنحدر إليها الإعلام الامريكي، مايعرف باللجوء إلى (القوة الناعمة - soft Power) وهي القدرة على الحصول على ما تريده عبر إقناع الآخرين بإحتضان أهدافك، وتحقيق ما دعتك إليه مصالحك، في مقابل(القوة الصلبة-Hard Power) وهي اللجوء إلى إستخدام أساليب الضغط الإقتصادي والقوة العسكرية لإجبار الآخرين على الرضوخ والإذعان، بحسب رأي البيت الأبيض والبنتاجون، كما ان الحرب ضد الإرهاب أو من أجل الديمقراطية تقتضي إستخدام القوتين معاً الناعمة والصلبة بحسب مدى قرب الطرف الآخر أو بعده وتصنيفه كعدو أو صديق طبقاً للمقولة السائدة كل شئ مباح في الحب والحرب، وفي هذه الحالة فأن القوة الناعمة تنبثق من ثورة الإعلام والمعلومات والقدرة على تشكيلها، ومن الثقافة والفنون في جميع صورها والوانها، لذا فأن العالم يشهد الآن واحدة من أشرس المعارك التي تستخدم فيها (القوة الناعمة) لخدمة أهداف سياسية سواء فيما يتعلق بالحرب ضد الإرهاب أو بالحرب ضد العراق أو بالقضاء على محور الشر إجمالا.

ولعل أخطر أشكال الهيمنة الإعلامية، هي الأشكال التي تبدو غير مرئية، وتعبر عن نفسها غالباً، بأشكال من التضليل الأيديولوجي المبطن التي تتقنها فئة إجتماعية واحدة، هي فئة المثقفين الإنتهازيين الذين لا يقولون لأحد، أنهم متواطئون مع السلطة من أجل منافع مادية صغيرة أو كبيرة، بل بسبب الوقائع وموازين القوى، هكذا تحولت المصطلحات والمفاهيم إلى شعارات ملتبسة، ومصيدة وأطر أشكال الهيمنة الإعلامية والسياسية والإقتصادية، وتحولت التناقضات والتعارضات إلى مترادفات لغوية وسياسية، أيضاً، وماذا تريد السلطة أكثرمن خلط الأوراق على

هذا النحو وتحويلها من خصم إلى صديق، أو موضوع تعارض ثانوي، إذ أن لعبة اللغة والمصطلحات والمفاهيم الدارجة مثل المثاقفة، الليبرالية، الأنا، الآخر..الخ أكبر وأخطر مما يعتقد كثيرون، قد تتسلل بين أصابعهم وقراءاتهم وهم يتخذون هذا الموقف أو ذاك من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، على حد سواء، وتتحول هذه المفاهيم من أدوات معرفية-إجتماعية ضرورية وديمقراطية للنهوض بالأمة ووضعها على طريق التكامل مع العالم، إلى أدوات لتفكيكها وتحويلها إلى "أنات" كيانية قطرية وأصغر من ذلك ملحقة بالأجندة الخارجية وإستحقاقاتها، وتمثل إقتراحات المفكر الأمريكي جوزيف ناي حول "القوة الناعمة" نموذجاً لهذا الشكل من الإستراق والتضليل الإعلامي، فبدلاً من كل هذا الشطط في إستخدام القوة المباشرة، بإمكان الهيمنة الذكية "القوة الناعمة" أن توفر الكثير من الطاقة وموجات "الكراهية" ضد الأمريكيين، وعلى خلاف صاموئيل هنتيغتون وصقور المجمع الصناعي الحربي الذي يدعو إلى ما يشبه القطيعة الثقافية مع الإسلام والكونفوشية، يعد ناي ذلك عملاً ليس مفيداً، فالأسواق والمجالات الحيوية تحتاج إلى تحضيرات ثقافية بقدر حاجتها إلى طائرات الأباتشي ومشاة البحرية، **ويمكن تقسيم المحتوى الإعلامي إلى ثلاث درجات على النحو التالي:**[592]

1 - **المحتوى الهابط**: وهو الذي يثير إستياء النقاد بشكل مستمر مثل: الدراما التلفزيونية التي تؤكد على العنف، أو البرامج الجنسية الفاضحة التي تصل إلى حد الدعارة، أو الكوميديا المسفة، أو الموسيقى المثيرة، أو أي محتوى يساهم في خفض الذوق وإفساد الأخلاق أو الإثرة للقيام بسلوك غير مقبول إجتماعياً.

2 - **المحتوى الذي لا يثير الجدل**: ومن أمثلة ذلك: تقارير الطقس، والمجلات التي تركز على الإهتمامات المتخصصة، ولا شك أن هذا المحتوى لا يرفع مستوى الذوق ولا يحط من قدره، ولا يهدد المستويات الثقافية.

3 - **محتوى الذوق الرفيع**: وهو المحتوى الذي يرقى بالأخلاق والتعليم مثل الموسيقى الجادة، والدراما الهادفة، والمناقشات السياسية.

(592) د.عماد مكاوي وليلى حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط9، 2010، ص129-130

أما نتائج إنتشار الثقافة الهابطة والإعلام السلبي فمنها ما يأتي:[593]

1 - خلخلة فكر المجتمعات وقيمها ونسيجها المترابط، وإعاقة حركة نهوضها وتقدمها وتنميتها البشرية.

2 - تقليل قدرة الإنسان على أن يبذل جهداً عقلياً منظماً لتطوير نفسه وبناء ذاته، وتطوير مجتمعه.

3 - إستنزاف أوقات الشباب وطاقاتهم، وإلهائهم عن حياتهم، وإغراقهم فيما لا يعود عليهم بالفائدة.

4 - إستغلال الموارد المالية للمشاهدين، وإستنزاف قدراتهم المادية، بأساليب متعددة ومتنوعة.

5 - تحويل الشباب العربي إلى مستهلكين شديدي الولاء للجوانب السلبية في الثقافات الأجنبية، فلا يتم تسويق قيم العمل وأخلاقه، ولا البحث العلمي وأدواته، ولا الإلتزام المجتمعي ومؤسساته، ولا الحراك الحضاري وآلياته، وإنما يقوم الإعلام السلبي بتسويق أخلاقيات الشوارع المظلمة، والطبقات السفلى من الثقافات الأجنبية .

6 - تغيير وتبديل وقلب المفاهيم، وتزييفها أمام المشاهدين، فالإعلام السلبي يجعل اللصوصية بطولة، والغدر كياسة، والخيانة فطنة، والإحتيال ذكاء، والعنف أقصر الطرق لتحقيق المآرب، وعقوق الآباء تحرر، وبر الوالدين ذل، والزواج رق وإستعباد، والنشوز حق، والعفة كبت.

7 - إثارة الغرائز الجنسية، وتشجيع إنتشار الرذيلة، والترويج لشرب الخمور، وتناول المسكرات، وتعاطي المخدرات، ولا يكون ذلك بإعلانات مباشرة، ولكن بالتضمين والإدراج والإيحاء، في سياق المحتوى الإعلامي، الذي يجعل من هذه الإنحرافات شيئاً شهياً مغرياً، يحفز الإنسان لتجربته.

وتؤكد الدراسات الإعلامية الأسباب الكامنة وراء إنتشار ما سمي بـ"الإعلام الهابط" في العالم العربي، ومخاطر إنتشار هذه الظاهرة على جيل الشباب وعلى

---

(593) - فهد عبد الرحمن الشميمري، التربية الإعلامية، كيف نتعامل مع الإعلام، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض، 2010، ص129-133

النظام الاجتماعي وأسسه القيمية والاخلاقية، ومسؤولية المجتمع المدني، في تحصين الأجيال الناشئة وضرورة مواجهة آثار هذا الإعلام سواء على صعيد الأسرة أو المؤسسة التعليمية أو وسائل الإعلام أو شبكات المجتمع المدني، وبشأن مناقشة أهمية الفضائيات، إذ أصبح جميع المجتمع تحت رحمة سلطة الصورة، وهي سلطة ناعمة تقترب من وجدان المشاهد وتشكل له الصور والعالم الإفتراضي من الرموز والمخيلات، وقد عزز ذلك ظهور الفضائيات العربية في منتصف عقد التسعينيات، إلى إنقسام أفراد المجتمع إلى خمس فئات مختلفة بالنسبة إلى إستقبالهم للمعلومات من وسائل الإتصال الجماهيرية بشكل عام وهي:

1 - أفراد ومجتمعات، لا تدري ما يعرض عليها.

2 - أفراد ومجتمعات، تشاهد ما يعرض عليها.

3 - أفراد ومجتمعات تتعجب مما يعرض عليها.

4 - أفراد ومجتمعات، تتاثر بما يعرض عليها.

5 - أفراد ومجتمعات، تصنع ما يعرض عليها.

إن إستسلام الأخبار المتلفزة لنشوة البث المباشر إلى درجة بدت وكأنها مسكونة بجنون الوصل والنقل والربط ودفعت حرب الخليج هذه الحمى إلى ذروتها لأن التلفزيون والـ CNN، على وجه الخصوص وجد فيها فرصة سانحة كي يستعرض إمكاناته التقنية الحديثة، وسيطرته، غير التامة أحياناً، على آليات الربط الحي والمباشر: واشنطن، عمان، القدس، طهران، بغداد، القاهرة، كانت تتلاحق على الشاشة بشكل يبعث على الدوار، وكأن تلك الشاشة كانت تمارس نوعاً من التنقل الذاتي من قناة لأخرى، بجهاز تحكم عن بعد وبطريق مذهلة ساحرة تبعث النشوة ومنذ ذلك الوقت والقنوات التلفزيونية كلها تقلد الـCNN، بحيث أصبح أي حدث محلي بسيط (إنتخابات تشريعية أو رئاسية، زواج أمير أو أميرة) يثير هستيريا الربط المباشر وجنون الوصل الحي مع عشرات "المراسلين الخاصين" وأن ظاهرة العولمة الإتصالية عبر البث التلفزيوني "الفضائي" المباشر ترفع قوة الصورة إلى أداة العصر وفي كل الميادين، البحث العلمي، الأخبار، الإتصال، الحروب العسكرية، التجسس،

التعليم، الإعلان، الأزياء، الدعاية والعلاقات العامة..الخ، وأمام مأساة بهذا الحجم كان الإعلام بعيداً كل البعد عن الشفافية، لقد أفسدته الفكرة القائلة أنه إذا وقع حدث ما فلا بد من عرضه ويخشى من أن يدفعنا هذا إلى حد الإقتناع بأنه ليس ثمة من حدث إلا ذلك الذي تم تسجيله وأمكن متابعته في بث حي ومباشر، تغلفه نشوة أعتادتها أغلب الوسائل الإعلامية بل أسبغت عليها قيم إخبارية جديدة تستند إلى نقل كل حدث مباشرة بغض النظر عن أهميته للمتلقين، وهو ما يحصل بشكل مقرف ومقزز في المنصات الألكترونية ومواقع التواصل الإجتماعي.

التلوث المعلوماتي وعلاقته بالاستعباد

يخلق الاستعباد مدركات ملوثة في مضمونها إذ يحل مفهوم التلوث بدل التكييف الأيكولوجي وتتراجع المبادئ والقيم التي أسس عليها علم الإتصال والإعلام، وبشكل خاص عند تحويل الوسائط التقنية التي أسهمت في سرعة إنتشار ودقة وصول الرسائل الإعلامية إلى المستهلكين، إلى قوة للسيطرة على المتلقي ومحاصرته في كل ميدان ويتحول الإعلام إلى مصدر "تلوث" للسلوك الإنساني سيقود إلى زرع الإغتراب داخل الفرد ودفعه إلى الإنكفاء والوحدانية بدلاً من سيادة روح الجماعة الإيجابية، فأذا كان التلوث في الحياة والطبيعة يتوالد من مصدرين هما المحلي والخارجي: المحلي من نتاج سلوك الإنسان جراء تجربته الراهنة وسلوكه "غير الحضاري" في الإستهلاك المدمر لمصادر الطاقة والحياة والبيئة، والخارجي من جراء العطب الذي يترتب على خرق حرمة طبقة الأوزون والإخلال بها، فأن التلوث في السلوك الإتصالي يتوزع على مصادر عدة، وأضحى نموذج الزحف الصحراوي على البيئة الخضراء مطابقاً لزحف قيم السوق ومصالح التوسع والهيمنة على قيم ومبادئ حق الإتصال وثوابت العمل من أجل إستمرار توافق نظام التواصل الإنساني مع حاجات التنمية والتطور، وتحول حق الإتصال من حق الإنتفاع إلى حق المصادرة، وبتعبير آخر من الحق في حرية التواصل إلى حق تكييف حرية التواصل وفق أحقيات محددة ومبرمجة في إطار مصالح وغايات لا إنسانية، قمعية أو أستبدادية أو إستعمارية وإمبريالية، إذ أن وسائل الإعلام تلعب دوراً كبيراً في دفع الناس وتحريكهم نحو التقمص الوجداني، حيث تقدم هذه الوسائل العديد من النماذج التي يمكن أن يتوحد معها جمهور

المتلقين، ويحاولون إسقاط هذه النماذج على أنفسهم، وإدماجها في حياتهم الخاصة، ونتيجة لزيادة وسائل الإعلام وتغلغلها في حياة الأفراد، فإنها تسارع من عملية التقمص الوجداني الذي يميز الأفراد في المجتمعات المتحضرة.[594]

إننا في الوقت الحالي مع العصر الإعلامي في الفضاء الالكتروني، عصرالشاشة الصغيرة (شاشة الموبايل) بدلاً من عصر (القرية الصغيرة) بل العالم عبارة عن شاشة بحجم اليد، صحيح أن اللغة تشبه الإدمان ترسخت بين الشاشة والناس، إلا أن التحليق أمام الشاشات خرج عن نطاقه القديم مع الإجتماعية إلى الفردانية حتى يبدو وكأن لكل فرد برامجه وشاشته الخاصة، فقد تشظت الصور مع تشظي الشاشات هندسياً وتعددها للفرد الواحد(شاشة للتلفزيون، وثانية للكمبيوتر، وثالثة للكاميرات الخفية، والهاتف الخلوي...إلخ) ومن هذه المساحة العائلية المتشظية بالذات يمارس الإعلام المتطور سلطات الشاشة، فيزرع الصمت ويعزل الناس محققاً بالإتصال أجيالاً غير لغوية، متعلقة بالصورة سلطة السلطات، إذ أن ما تتصف به الفضائيات«الترفيهية» هو غياب القيمة، ويتجسد ذلك في التركيز على نوع من الخطاب في شكل «غناء، طرب، رقص، لهو» الذي يحاكي الغرائز ويستهدف أوساط الفئة الشابة في المجتمع، وقد سمي هذا النوع «النص الغريزي» بفعل أن كينونته الظاهرة والخفية تتمحور حول إستدعاء الجسد بوصفه وسيلة للإثارة والتعلق الرمزي، ويكون، من جهة أخرى، أقل الوسائل تكثفة في إختراق الممنوعات والتنفيس عما يعد أنه مكبوتات إجتماعية خاصة في المجتمعات المحافظة نسبياً في المنطقة، ويترتب على هذا الخطاب إبعاد القيمة، أو تحييدها على الأقل، تحت راية «التحرر» ومسايرة العصر والإستجابة للإحتياجات النفسية العاطفية الملحة، ويكون هذا المنحى منسجماً مع نوع من الطرح السياسي ذي النزعة «الإلهائية» والمتناغم مع خطاب العولمة الداعي إلى التعديل الثقافي وإبعاد الفئات الناشئة عن التطرف مثلاً.[595] إذ أن الشاشة دائماً هي في عجلة من أمرها، فلا مجال للتوقف

---

(594) للتفصيل انظر ملفين ل.ديفلير وساندرا بول- روكيتش، نظريات وسائل الإعلام، ترجمة كمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1993، ص273

(595)عبد الرحمن عزي،«الراسمال الرمزي الجديد»قراءة في هوية وسوسيولوجية الفضائيات في المنطقة العربية، م،س، ذ، ص90

والتفكير والعودة إلى الوراء، وهي تعمل على ضغط الزمن قدر الإمكان، لأن زمن البث سعره مرتفع، وكلما تمكنت من ضغطه استقطبت الإعلانات، لذا نرى دائماً الأحداث والإيقاعات سريعة، وكذلك الإتصالات (سؤال يليه جواب، الآن وبسرعة، وإلا فات الوقت وحدثت الخسارة)، وصور الفيديو كليب متلاصقة، هكذا يعيش المشاهد في حاضر أبدي وإهتمامات اللحظة، إنها ثقافة الراهن، والديمومة وحسّ الإستمرارية يغيبان عن الوعي الإجتماعي والأفق السياسي، وذلك ما يفرض البحث عن متع اللحظة الراهنة.

ويتجسد الاستعباد أيضا في أن وسائل الإعلام تعلمنا هي وغيرها من الوكالات التعليمية والإجتماعية والثقافية رؤية النفق فتؤهلنا للإحساس بمشكلات المجتمع بوصفها تفاصيل معزولة وبهذا تعزز رؤيتنا النقدية، فالمسببات الكبيرة تتضاءل لتغدو حوادث بارزة، في حين لا يذكر شئ عن روابط الثروة والسلطة والسياسة أو تدفن تحت إنطباعات سطحية أو شخصية، إذ تصنع وسائل الإعلام الحدود على الخطاب العام والإدراك العام، ربما تقولب دوماً الآراء، لكنها ليست مرغمة دوماً على عدم قولبتها، إذ يكفي لها أن تخلق رؤية للآراء وتمنح لشرعية لبعض الأفكار واللاشرعية للبعض الآخر، وتفعل وسائل الإعلام الشئ نفسه بالموضوعات الجوهرية التي تصنعها للمرشحين، فترفع بعضهم من زاوية النسيان وتضفي الشرعية عليهم في حين تسلم البعض الآخر إلى دائرة النسيان، إذ أن سلطة تمرير جدول الموضوعات وتدفق المعلومات وتفاصيل المناظرة السياسية كي تمتد من أقصى اليمين إلى نقطة لا تبعد عن الوسط المعتدل هي سلطة لا تزال تبعث الرعب فينا.[596]

إن الإستجابة للرسالة الإعلامية تتضمن عمليات نفسية كثيرة، فضلا عن العمليات الثقافية والفكرية التي تمثل أطرافاً في معادلة الإتصال ومن الناحية السيكولوجية، أي من زاوية علم النفس، تعد الرسالة منبها لابد أن يكون له إستجابة، ولكي تتحقق الإستجابة المرجوة، أي التي يرجوها ويسعى إليها المرسل، فلا بد أن يتصف المنبه بمجموعة صفات أو شروط، فلا يكون مملاً، ولا يخالف

(596) فيليب غرين، الديمقراطية، ترجمة:د.محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر، وزارة الثقافة، بغداد، 2007، ص299-300

المعتقدات الثقافية أو القومية، ويجب أن يأخذ بعين الإعتبار المجال النفسي الذي يوجد به المتلقين، ويجب أن يكون على علم بالدوافع والغرائز والحاجات والخبرة والحيل الدفاعية النفسية وقواعد التعليم، إذ أصبح الإعلام يشغل موقعاً مركزياً في الإستراتيجيات والسياسات التي تستهدف إعادة بناء المجتمعات المعاصرة سواء في الشمال أو في الجنوب، وقد يكون ذلك أكثر وضوحاً في المجتمعات الصناعية المتقدمة ويبرز دوره في إعادة توزيع مراكز القوى السياسية والإجتماعية والقوى المضادة داخل هذه المجتمعات، ويبدو ذلك جلياً في مختلف المواقع، بدء بالأسرة والمدرسة والمصنع والمستشفى، ثم مواقع العمل والترفيه على مستوى الدولة ككل، وفوق ذلك أصبح الإعلام مسؤولاً عن الأدوار الحاسمة في تدويل أو عولمة الإقتصاد والثقافة حيث يبرز دوره كمحرك رئيس في خلق وتشكيل منظومة العلاقات الدولية سواء على المستوى الرسمي بين الحكومات والأنظمة أو المستوى الحضاري بين الثقافات المختلفة بإعلاء شأن ثقافات معينة على حساب ثقافات أخرى، ولعل أخطر هذه الأدوار ما يقوم به الإعلام في تشكيل أنماط معينة من السلوك الإنساني وتهميش أنماط أخرى خلال لغة الصورة ورموزها، وحيث يكون التضليل الإعلامي هو الأداة الأساسية للهيمنة الاجتماعية، تكون الأولوية لتنسيق وتنقيح الوسائل التكنيكية للتضليل على الأنشطة الثقافية الأخرى، وهناك أيضاً مشكلة الفوضى، في أن مشاهدي المواقع الالكترونية يتعرضون لهجوم من قبل الكثير من الإعلانات التجارية، والتي كانت حصرا في الصحافة والتلفزيون، ومن ثم هم ينسون ما شاهدوه وتختلط الإعلانات التجارية، في رؤوسهم، كلما أصبح المعلنون أكثر يأساً لجذب إنتباه الجماهير، وحاولوا القيام بذلك بإيجاد المزيد من الصور الجديدة والرائعة، فأنهم يصبحون مشاركين في حرب مدمرة من أجل المشاهدين، فضلاً عن ذلك يتعلم المشاهدون بسرعة أن وعود المعلنين كثيراً ما تكون زائفة، وبهذا أصبحت الجماهير متشككة بشكل متزايد، وتزداد صعوبة الوصول إليها.

فالإعلام قبل أن يكون فنا لأستعباد الجماهير وترويضها وتسطيحها وتعليب وعيها، يظل نسقا من الأفكار الزائفة، التي لا يمكن فهمها إلا باعتبارها ترجمة لمصالح الذات السياسوية التي سرعان ما تتعرى بتعري الخطاب الذي ينقلها، ومن

المتعارف عليه في الإعلام أن البحث عن الموضوعية الكاملة أو الحرية من دون حدود، ضرب من الخيال أو المستحيلات، حيث يبدو أن الحديث عن موضوعية مطلقة مسألة عبثية طالما وجد التمويل والملكية، سواء أكانت للحكومات أو لرجال أعمال، وهناك وسائل إعلامية تمارس الإعلام بنسبة كبيرة من الموضوعية والمهنية، وتحاول أن تصل إلى سقف الحرية المتاح لها بحثاً عن إعلام يخدم قراءه أو مستمعيه أو مشاهديه، أو على الأقل يحافظ على القدر الأكبر من الانتشار والصدقية والقدرة على المنافسة، ولا سيما في المجتمعات الغربية التي تتسم بقدر هائل من المنافسة، سواء أكانت هذه المنافسة على ثقة الجمهور أو على النصيب الأكبر من الإعلانات، علماً بأن الاثنين مترابطان، في مقابل ذلك، أعتاد إعلامنا على التحيز بأشكاله المختلفة، في منطقة يغلب الإعلام الموجه على فضائها، وبالتالي كان ظهور بعض الفضائيات التي تمارس نوعاً من "الحرية الانتقائية" أو المختارة بدقة سبيلاً لشعبيتها وانتشارها، وتاخذ شكلا مشابها لما فعله فرعون واستعباده وفق الحرية الانتقائية للأتباع المستضعفين وهم أصحاب المراتب الدونية، غير المقربين من فرعون، وليس لهم نفوذ في ملكه ولا منزلة في سلطانه، ما عدا تسخيرهم لخدمة العرش ومن يحيطون به من متبوعين، وهؤلاء تم إخضاعهم لفرعون بمنطق الإكراه والقوة، وكذلك إغراءهم بشتى أنواع الوسائل طمعا للقرب من فرعون والمتبوعين من السادة والكبراء، وترجع أسباب تبعية الأتباع لفرعون والمتبوعين، واستضعافهم أمامهم واستذلالهم له إلى:

1 - خوفهم على أموالهم وأرزاقهم وممتلكاتهم.

2 - خوفهم على أعمارهم وحياتهم ودنياهم.

3 - خوفهم من بطش المتبوعين وأذاهم.

4 - فسقهم وانحرافهم وابتعادهم عن المنهج الرباني.

5 - رغبتهم في الدنيا وإقبالهم عليها، وحرصهم على ملذاتها.

6 - نسيانهم الآخرة وإنكارهم لها.

7 - حرصهم على التزلف والتقرب لفرعون والسادة والكبراء المتبوعين.

8 - هوانهم على أنفسهم، و وأدهم لشخصياتهم وإرادتهم وحرياتهم.

وسائل الإعلام واستعباد الجمهور

وما يفعله الاستعباد في وسائل الإعلام يرتب علينا أسئلة غير غافلة لهذه الاستعباد، فهل ترى الأمّة المحصنة عقديًا ونفسيًا ترضى بالهون والدون، تُدير الخدَّ الأيسر لِمَن لطم خدَّها الأيمن، تُبارِك جَلاَّديها وتَستَمتِع بالظُّلم الواقع بها؟ أمّا حين يأتي عليها حينٌ من الدهر وهي مهتزّة الأركان، ضعيفة الأداء، عديمة الفاعلية، كثيرة الأسقام الدينية والاجتماعية فإنها تُصبح مَطيّة سهلة لكلِّ جبّار ظَلُوم، تجد له الأعذار وتلعَن نفسها، وبمُرور الزمن تستَمرِئ الوضع وتتخلّى طَواعِيَة عن دفاعاتها النفسيَّة، وتَرفُض أيَّة مُحاوَلة للانعتاق؛ خوفًا من (الفتنة)، مُتَناسِيَة أنها في أتُون الفتنة في أسوأ أشكالها وأكثرها بُغضًا عند الله - تعالى - وعند البشر الأسوياء، وهنت يشير كل من ميشيل ليمن وغري بوتر الى ان الارهابيين يعتبرون الإعلام وسيلة لنقل رسالتهم للمتلقي، والتغطية الاعلامية للاعمال الارهابية التي تقوم بها هذه الجماعات تكون اكثر قوة عندما يكون العمل الارهابي اكثر عنفا ومرعبا، ومن جهة أخرى أن الاخبار العاجلة وربما المغلوطة التي تغطيها المواقع الالكترونية والقنوات الفضائية قد تعرقل في بعض الاحيان التعاطي الامني والاسعافي مع الاعمال الارهابية من الجهات ذات الشأن، واغتصاب حرية المشاهد في التعاطي مع هذه الموضوعات، وقد اتخذ فرعون والجهاز التابع له، هذه الأسباب حجة لبسط نفوذهم على المستضعفين وقهرهم وغصب حريتهم، وحلو عيشهم، فكانوا سببا آخرا لبروز نظريته الفرعونية المبنية على العطرسة والاستبداد، وأشهر الأساليب التي اتخذها فرعون والمتبوعين من قومه في إغواء الأتباع وإخضاعهم هي:

1 - الاستخفاف بهم وازدرائهم، وإشعارهم بأنهم الأقل والأذل والأدنى، وأنّ متبوعيهم هم الأعزّ والأكمل والأفضل.

2 - التفريق بينهم، وتقسيمهم إلى شيع وأحزاب، وتصنيفهم إلى مؤيدين ومعارضين، وإيقاع الفرقة والخلاف بينهم.

3 - إذاعة الفساد فيهم، ونشر الشهوات بينهم، وتسهيل الحصول على الملذات، وذلك لينشغلوا بها، ويسهل قيادهم.

4 - استعمال أسلوب الإغراء والترغيب، وتقديم المصالح والمنافع والمراكز والمكاسب، ليبقوا ممتنين لهم.

5 - استخدام أسلوب التهديد والوعيد والترهيب، لكلّ من يفكر في المخالفة أو المعارضة، فالإغراء والترغيب من جانب، والوعيد والتهديد من جانب آخر، وهي سياسة "العصا والجزرة" المعروفة.

6 - اللّجوء إلى العنف والبطش بكلّ من يخالف ويخرج عن سياسة فرعون والمتبوعين، إيقاع أشدّ صنوف العذاب به لسحقه من جانب، وليكون عبرة لغيره من جانب آخر.

-كان الأتباع فريسة سهلة في قبضة فرعون والمتبوعين، استغلوا ضعفهم لتحقيق مصالحهم وجعلوهم عبيدا لأهوائهم، ثم إنّه لما جاء موسى يدعوهم إلى الحق أصابتهم الخشية من لجوء هؤلاء المستضعفين لإتباع أمره، فلا يجدون بعدها من يسلّطون عليهم بغيهم، ويخدمون مصالح ملكهم وسلطانهم، لهذا سنقوم بتصنيف الأتباع، كل على قدر مجال تبعيته، وكيف كان كل صنف منهم دافعا لتجسيد النظرية الفرعونية؟.

-تصدّر السّحرة قمة الأتباع المستضعفين، والسبب الذي دفعنا لتصنيفهم ضمن الأتباع المستضعفين، هو أن فرعون قد أكرههم على تعلم السحر، وكذلك لأن أغلبهم كانوا من بني إسرائيل.

- إنّ القاسم المشترك بين الأتباع والمتبوعين، هو أنهم سخّروا أنفسهم بالخوف تارة، والسعي للتقرّب من تاج فرعون خدمة له ولسلطانه تارة أخرى، وجعلوا منه إنسان مسألّه، مشحون بالكبرياء والظلم، والقرآن الكريم إنما بيّن لنا اشتراكهم جميعا في بروز استبداده واستكباره من خلال نظريته الفرعونية، وترسيخ مبادئها، والالتفاف حولها.

-أورثت الفرعنة، بنو إسرائيل شتى مظاهر الخوف والاستكانة، وبلغ إتباعهم حدا لا يمكن تصوره، جراء ما رأوه من شدة وغلظة فرعون وقومه، وإرهاب وصل إلى درجة أن غلمانهم ذبّحوا أمام أعينهم دون رحمة وشفقة، ولم يحركوا ساكنا، وقد جردوا من شتى مظاهر المقاومة المادية والعقلية والنفسية وحتى الروحية، ورضخوا بالاستسلام لمنطق فرعون، حتى أنهم حاولوا أن يذوبوا في شخصيته المستألهة، وكبرياء ملكه وسلطانه، خوفا من تجبره وتسلّطه عليهم.

-أن الاشتراك والإذعان كان ناجما عن غلبت سطوة فرعون التي وفرت له غطاءا لتجسيد نظريته، واقتداء كل من الأتباع والمتبوعين المغلوبين عن أمرهم سواء بمنطق الجاه والسلطان، أو بمنطق القوة والقهر، بنهج سبيله والذوبان في مكره الفاسد، فالمغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيّه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده والسبب في ذلك: أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها، حصل اعتقادا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، ولذلك ترى المغلوب يتشبّه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه.

-هذا هو درب الخاضعين المنساقين وراء الأهواء يجدون لأنفسهم أسلوبا للحفاظ عن وجودهم، فيمارسون مظاهر الاحترام والتبجيل والتوقير مهما كان شكلها للسلطة، بغرض الحفاظ على بقاءهم واستمراريتهم، وفي نفس الوقت نتصور في هذا الموقف درجة الاستحواذ على الجماهير الخاضعة، بمختلف أطيافها بغض النظر عن الإهانة والاحتقار والعدوان والأسلوب المنحط الذي يتلقونه، فيبرز ما يسمى النفاق في مواقف الخاضعين، لتسلب منهم مظاهر المقاومة، وتترسّخ مظاهر السيطرة، لتجد الجماهير نفسها مهزومة مستسلمة للإقتداء والتقليد الأعمى.

- يقول يوسف العظم في هذا الشأن:"وأخطر ما في هذا النوع الرهيب من الهزيمة أن صاحبه لا يشعر به ولا يعترف، لأنّه مخدر الذهن، مسلوب الإرادة، معبأ بما يحسبه الرفعة والمجد والظفر، وهو يحيا في أجواء من الغرور لا يملك معها أن يفسح لغيره حوارا، لأنه يطل على من حوله من بروج الاستعلاء التي تؤمن إلّا بعبودية الفكر وقهر الإنسان".

-الشواهد عديدة على اقتران ذكر اسم هامان بفرعون، وهذا دليل صارخ على تلك الصلة القوية التي كانت تجمع بينهما، وتلك الثقة الكبيرة التي وضعها فرعون في وزيره، وكذلك تشاركهما في الإثم والعدوان ومعصية الرسول موسى -عليه السلام- حيث كان سندا قويا في تطبيق النظرية الفرعونية، والمضي بها قدما، فكان

الناطق الرسمي باسم سلطان فرعون، وحامي ظهره من أية محاولة للخروج عن طاعته أو عصيانه، وحامل لسياط ظلمه في وجه المستضعفين من أجل إخضاعهم لعبوديته، وكان أهلا للمشورة ودافعا لاستزادت عمى بصيرة فرعون وترديها، فكان كلما برز نور في قلب فرعون أطفأه هامان بمشورة رأيه.

وفي كل حالة أزمة أو صراع تكون الولايات المتحدة طرفاً رئيساً فيها، فإنها تكون مسنودة بدعم إعلامي يبرر مواقفها من الصراع أو الأزمة، وما ذكر سلفاً هو من قبيل المثال السياسي لا الحصر، وقد كانت حالة العراق حدثاً استثنائياً في تاريخ الإعلام الأمريكي، إذ وظفت المؤسسات الإعلامية الأمريكية كل ما تملكه من تقانة إتصالية عصرية، وكوادر بشرية عالية التأهيل والخبرة في دعم ازحف الأمريكي تجاه المنطقة، ممثلاً في إسقاط النظام العراقي، ثم إحتلال أراضيه بالكامل، ثم الشروع في إعادة البنية السياسية والإدارية فيه ولم يكن للمشروع الأمريكي في العراق أن يتحقق على أرض الواقع لو لم تكن له أذرعة إعلامية تلاعبت بالعقول ووضعت إستراتيجية بالغة الخطورة اتضح أثرها على الرأي العام داخل الولايات المتحدة، كما نجحت في صياغة رؤية إعلامية عالمية بمنظور أمريكي صرف، إذ واكبت الآلة الإعلامية الأمريكية مراحل غزو العراق واحتلاله منذ أن كانت رغبة جامحة نظر لها المحافظون في الإدارة الأمريكية حتى أصبحت حقيقة فرضت نفسها - بشروطها ورؤيتها - على واقع السياسة الدولية، كان ذلك كله يحدث وفق رؤية إعلامية مبنية على تزييف الواقع، وتقديمه بطرائق تغيب فيها الحقائق، وتزوق فيه الأمور والقضايا حتى أحدثت أثراً تراكمياً قبله الرأي العام الأمريكي والرأي العام العالمي.

وللتدليل على العلاقة المترابطة والمعقدة بين استعباد الإعلام والسلطة والمال، يمكن الإشارة إلى قرار شبكة (سي أن أن) الأمريكية، إقالة الإعلامية اللبنانية الأصل (أوكتافيا نصر)، لتعليقها على موقع (تويتر) للتواصل الإجتماعي على وفاة المرجع الشيعي اللبناني السيد محمد حسين فضل الله بالقول:(إني حزينة لوفاة السيد محمد حسين فضل الله، أحد عمالقة حزب الله الذي احترمه كثيراً) وجاء قرار الشبكة في ظل ردود فعل عارمة وضغوط لطرد نصر من جهات يمينية أمريكية وإسرائيلية -تملك رأس المال والنفوذ طبعاً- رغم تراجعها وقولها إنها أساءت التقدير،

وإنها كانت تشير الى موقف فضل الله من حقوق المرأة، لكن السياسة التحريرية للشبكة وتبنيها الموقف الرسمي الأمريكي على حساب الحريات الإعلامية وخضوعها لسلطة رأس المال، كلها عوامل قضت بعدم التراجع عن قرار الفصل، وكتب ستيف كراكيور محرر موقع (Mediaite.com) المدافعون عن فضل الله قالوا إن ردة فعل (سي أن أن) كان مبالغاً فيها... شددوا على أن الموضوعية الحقيقية في الصحافة هي مغالطة قد يكونون على حق... إبداء نصر احترامها علناً لشخص يراه كثيرون متطرفاً، إن لم يكن خطيرا ومكروهاً، وداعماً لجانب مكروه وخطير من نزاع هش، أمر لا يمكن لـ(سي أن أن) تخطيه، هذا لا يعني أن نصر تعتبر صحافية سيئة أو أنها تتقاسم وجهات النظر مع فضل الله! لكن المؤسسات الإعلامية تجد نفسها بشكل متزايد، في صراع مع مفهوم التحيز في تغطيتها الإخبارية، نصر كانت أحدث مثال على شخص عبر عن نفسه ودفع الثمن، رأينا ذلك مع هيلين توماس، وكانت (سي أن أن) على حق بفصل نفسها ومصداقيتها الثمينة عن وضع غير قابل للتصحيح، هذه المصداقية قد توضع في دائرة الشك، إذا ما اعتبرنا أن شبكة بحجم (سي أن أن) لم تقدر على استنباط المواقف الحقيقية لمسؤولة عملت لديها طيلة أكثر من عشرين عاماً، فهل يعقل أن نصر نجحت في إخفاء مواقفها، وربما تحيزها، طيلة هذه المدة من قضايا ساخنة كالحروب الإسرائيلية على لبنان وغزة والانتفاضة وحربي العراق وأفغانستان وسواها؟ أم أنها نجحت الى حد بعيد في صون موضوعيتها حتى (زل لسانها) عند وفاة فضل الله؟

وبأية حال، فإن المصالح السياسية لأية وسيلة إعلامية، وتحديدا لـ(سي أن أن)، تقتضي ازدواجية في المعايير، أكان في قضية أوكتافيا نصر أو هيلين توماس، التي اضطرت الى تقديم استقالتها بعد 70 عاماً من العمل كمراسلة في البيت الأبيض، بسبب تصريحها التالي: (بحق السماء فليخرج اليهود من أراضي فلسطين، فليعودوا من حيث أتوا هذه أرض محتلة تعود الى الفلسطينيين وليست أرض الألمان أو البولنديين)، إذن هو الإعلام في خدمة المصالح السياسية ورأس المال، حتى في أكثر الدول تقدماً وتحرراً، فدول كالولايات المتحدة، تلجأ الى ازدواجية المعايير كأداة لتكييف سياساتها مع مصالحها، حتى وإن كان ذلك على حساب الحريات العامة ومنها (حرية الإعلام)

التي يكملها الدستور، ويتابع وولت إن (إقالة نصر محزنة أيضاً لأن (سي أن أن) ترضخ لرؤية عالم أسود أو أبيض، نحن مقابل هم، الخير مقابل الشر المطلق). ويضيف (لأن الولايات المتحدة صنفت فضل الله " إرهابياً " فالتعبير عن أي نوع من التعليق الإيجابي كان إهانة تستحق الطرد... إن طرد نصر يعزز الصوره النمطية النسطيحية السائدة أصلاً في الخطاب السياسي العام) هذه هي الصور النمطية التي تصنعها القوى الكبرى وتروج لها عبر كل وسيلة متاحة، بما فيها الإعلام وشركات العلاقات العامة وإنتاج الأفلام والإعلانات، وحتى شركات الدمى والألعاب الإلكترونية، وقد يكون قرار الطرد دليلاً على إفلاس أخلاقي، كما يصوره وولت بالقول:(إن رد فعل "سي أن أن" الضعيف على الحادثة يعطيني أكثر من سبب لتزايد النظر إلى الصحافة السائدة على أنها مفلسة أخلاقياً وتزايد اللجوء إلى المدونات).(40) ويتجسد الاستعباد بما مارسه فرعون وهو وإن كان شخصًا عاش في زمان معيَّن ومكان معين، إلا أنَّ الذي يعتينا فيه ليست ذاته، ولكن خصائصه التي يتشكَّل منها كلُّ طاغية عبر العصور، وأستعباده للناس، ولهذا -والله أعلم- ذُكِر في القرآن الكريم أربعًا وسبعين مرةً هي تسليط للأضواء الكاشفة على صفاته القبيحة:[597]

1 - **الاستعلاء**: هو إنسان خرج من رَحِم امرأة، لكنه لا يقبل نفسيًا بهذه الوضعية، فيحتقر الناس ويتكبَّر عليهم، ويستعبدهم، ويعتبر نفسه من طِينة غير طينتهم، بل يبلغ به الغرور إعلان الألوهيَّة، وهو العبد الضعيف الحقير الفاني، أما فرعون المذكور في القرآن الكريم، فقد قال الله - تعالى-عنه:﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾ [القصص: 4]، ﴿**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ**﴾ [القصص: 39]، ﴿**وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [يونس: 83].

وأما الفراعنة في دنيا الناس، فهم يقتبسون منه هذه الصفات الذميمة، فترى الواحد منهم إذا تربَّع بطريقة غير شرعية في الغالب على كرسي السلطة تكبَّر وتجبَّر، واعتبر التواضع مَذمَّة، ونَسِي أن العلو لله - تعالى - وحده؛ ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ [الأعلى: 1]، فهو صاحب العلو بكل معانيه العظيمة، كما

(597) عبدالعزيز كحيل، الفرعونية. صفاتها وتهديهم، م، س، ذ.

قال ابن القيِّم في نونيته الشهيرة. وَلَهُ الْعُلُوُّ مِنَ الْوُجُوهِ جَمِيعِهَا ذَاتًا وَقَهْرًا مَعْ عُلُوِّ الشَّانِ، وينسى الطاغية هذه الحقيقة، وينسى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - قد دانت له الأرض، وأذعن لدعوته الإنس والجن، ونصره الله - تعالى - بالرعب، فلم يخرجه ذلك عن حدود التواضع، بل كلما ازداد تمكينًا في الأرض، ازداد تواضعًا لله - تعالى - وللعباد.

2 - **الأحادية**: تجد الطاغية المستعلي يطوف حول ذاته يسبِّح بحمدها، ويلهج بذكرها، ولا يقبل من الناس إلا أن يطوفوا به ويسبِّحوا بحمده، ويلهجوا بذكره، ولو نفاقًا وزورًا، فهو لا يرى الآخر، بل يرفضه ويرد أفكاره وآراءه؛ لأنه يدَّعي احتكار الحقيقة، فرأيه صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيره خطأ لا يحتمل الصواب، هكذا هم الفراعنة دومًا؛ لذلك يحيطون أنفسهم بمن يسوِّغون أخطاءهم وخطاياهم، ويزيِّنون لهم سوء أعمالهم، وينفخون في غرورهم فيزيد تحرُّشهم بمن يعارضهم، ولو بكلمة أو نصيحة صادقة بعيدة عن التملُّق؛ ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29] فطريق الرشد واحد لا ثاني له، هو ما أختاره الزعيم الملهم المبرَّأ من الخطأ؛ وبسبب هذه الأحادية المفرطة رفض فرعون مناقشة موسى -عليه السلام- وتحدَّاه، وكال له الاتهامات المتسرِّعة: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52]، أي ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ (أي موسى ومَن آمن معه) - لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[الشعراء: 56- 54]، سبحان الله! كأنك تقرأ بيانًا حكوميًا يصف المعارضين المسالمين في عالم اليوم! عبر كل وسائل الإعلام، ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾[طه: 71].

3 - **الإرهاب الفكري**: من قواعد الحكم عند الطاغية: إلغاء عقول الناس واختيارهم الحر، والتحكُّم في أفكارهم، فإذا قال: الاشتراكية هي وحدها الحل، يجب أن يعتقد الجميع أن أيَّ حلٍّ آخر مؤامرة وخيانة ورجعيَة، وإذا رأى أن النظام الليبرالي هو طوق النجاة، فلا يجوز لأحد أن يمري في هذا، ولو كانت معه ألف حجة علمية، بل لا يحق لأحد أن يختار عقيدة دينية إلا التي يؤمن بها الطاغية، ألم ينكر فرعون على سحرته عندما آمنوا بموسى - عليه السلام -

بقوله: ﴿أَمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[الأعراف: 123]، حتى الإيمان الذي محله القلب يخضع لإذن فرعوني مُسبق! وفي جوّ الإرهاب الفكري تموت المواهب، ويأفل نجم الحرية، ويسود النفاق، ويستنسر البَغاثُ، ويؤتمن الخائن، ويخوَّن الأمين، وكم عشنا هذا في عالمنا العربي الإسلامي، ومازلنا نعيشه! رغم أن الله - تعالى - لم يفرض دينه الحق على أحد، بل قال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: 29]، وقال لرسوله - صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]، لكن شتان بين منهج الله - تعالى - الذي يحمل علامات الصدق في قسماته، وبين مناهج أرضية وضعية بشرية تسيِّرها نزوات الغرور والعجرفة!

4 - **الاغترار بالملك.** هذا بالضبط ما عليه طواغيت الغرب ومَن يقلِّدونهم، اغتروا بالازدهار الاقتصادي، والترسانة العسكرية، وترامي أطراف البلاد، والأموال المكدَّسة في البنوك، أو المستثمرة في أنواع الملاهي والمفاسد، ووسائل إعلام تدعم استعبدهم وطغيانهم، فكان حالهم كما صوَّره القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾[الفجر: 11 - 12]، وقد أعرب سلفهم سيئ الذكر عن كمائن أنفسهم:﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51]. فالطاغية مقطوع الصلة بالله - تعالى - وهذا ما جرَّأه على رفع عقيرته بالقول الآثم المنكر:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، ولئن صرَّح بها فرعون مصر، فإن وسائل الإعلام تمجد غيره من الفراعنة يقولونها بلسان الحال، ويتصرَّفون في شعوبهم، وأموالها، ومصائرها تصرُّف مَن لا يُسأل عمَّا يفعل، وكأنهم يتمتَّعون بخصائص الألوهيَّة، بل أكثرهم لا يقبل أن يناقش أحد آراءه؛ لأنها دائمًا سديدة بالضرورة، ولا أن يعترض معترض على قراراته؛ لأنه ليس في الإمكان أبدع منها، ولا بد من الإشارة إلى أن الطاغية يجد دائمًا حاشية من «العلماء» والمثقفين تُبارك طغيانه، وتضفي عليه الشرعية، وتحاصر دُعاة الحرية والإصلاح بالنصوص الدينية، والذرائع المختلفة، فلها نفس حُكمه؛ قال - تعالى -: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[القصص: 8].

حجب المعلومة على المستوى الإعلامي

يرى الكاتب الأمريكي نورمان فينكلستين Norman Finkelstein أنه على مستوى السياسة الخارجية للولايات المتحدة أو في الأزمات التي تكون الحكومة الأمريكية طرفاً فيها بإن الإعلام الأمريكي يكون موالٍ لأية حكومة تكون في سدة الحكم، هذا الإعلام يتحدث عن الحقيقة كما هو معبّر عنها من جانب الحكومة الأمريكية، والحكومة - من جانبها - تعوّدت على إعلام يقول ما تريد أن تقوله. ففي خلال أزمة الصواريخ مع كوبا في الستينيات الميلادية من القرن المنصرم قام مراسل قناة أيه بي سي ABC التلفزيونية في وزارة الخارجية الأمريكية جون سكالي John Scali بالعمل سراً كمفاوض بين الجانبين الأمريكي والكوبي وفيما بعد عيّنه الرئيس ريتشارد نيكسون مستشاره الخاص للشئون الخارجية والاتصال ومن ثم مندوباً لأمريكا لدى الأمم المتحدة وهو المنصب الذي ظل فيه حتى عاد للعمل في المحطة عام 1975م.

والخلاصة: أن الحكومة الأمريكية قد مارست أنواعاً كثيرة من حجب المعلومة في حربها على العراق في محاولة للتأثير على الرأي العام داخل الولايات المتحدة وخارجها، ومن ذلك هيمنتها على مصادر المعلومة المختلفة، العسكرية منها على وجه الخصوص، وتضييق الخناق على المؤسسات الإعلامية إما بمنعها من الوصول إلى الحقيقة، أو تمكينها من الحصول عليها بالطريقة التي تراها المؤسسات السياسية والعسكرية، أو من خلال قصف المؤسسات الإعلامية غير الأمريكية العاملة في العراق، واستهداف مراسليها بالقتل أو الترحيل حتى لا تتسرب الحقيقة إلا في أضيق نطاق، وهو ما يخدم الإستراتيجية الأمريكية في العراق نفسه وفي العالم العربي بشكل عام.

ومن أهم مجالات حجب المعلومة الذي مارسته الحكومة الأمريكية في حربها على العراق واحتلاله وما تبع ذلك من تداعيات سياسية وعسكرية قصف القوات الأمريكية لمكاتب المؤسسات الإعلامية الأجنبية العاملة في العراق، واستهداف مراسلي الصحف والقنوات التلفزيونية غير الأمريكية، وبخاصة وسائل الإعلام التي تحظى بمقروئية كبيرة أو مشاهدة واسعة في العالم العربي، لقد أدركت الحكومة

الأمريكية في حربها للعراق واحتلاله أن القوة العسكرية وحدها ليست كافية لتحقيق "الاحتلال" الكامل للأرض والشعب، لأنها إن نجحت في تفكيك النظم السياسية وإسقاطها، ونشر الجنود والمجنزرات على التراب والأرض فإن الشعب يبقى عصياً على الخضوع والاستسلام، من أجل ذلك يلجأ المحتل إلى استخدام سلطة الإعلام لترويض العقول وتذويب الانتماء لتحقيق الهيمنة الشاملة على التراب والشعب، وهي سياسة تستلزم ضخاً للمعلومات الكاذبة من جهة، وحجباً للحقائق والمعلومات الصادقة من جهة أخرى، ولقد كان من أهم وسائل الحجب المعلوماتي للحكومة الأمريكية قصف المنشأة الإعلامية أو قتل مراسليها العاملين في الميدان، وقد عبّرت القيادة العسكرية الأمريكية عن هذا العمل بقولها إنها قد حذرت ممثلي وسائل الإعلام من أن بغداد ستكون مكاناً خطراً لهم وذهبت وزارة الدفاع الأمريكية إلى أبعد من هذا التحذير عندما أوضح مسؤولوهم أنهم سيتحملون مسؤولية الصحفيين الملتحقين مع الجيوش فقط، وهو ما يحمل تهديداً صريحاً لكل من لا يلتحق من الصحفيين بالقوات الأمريكية وفقاً لشروط محددة تخدم الأهداف العسكرية الأمريكية في العراق نتائج هذه التحذير أفرزت قتلاً متعمداً لعشرات الصحفيين العرب والأجانب العاملين في بغداد وغيرها من المدن العراقية، وقصفاً متعمداً لمكاتب القنوات العربية، مثل قنوات الجزيرة، والعربية، وأبو ظبي، وغيرها، ولكن لم هذا الحجب يتوسد خفايا غرف القادة العسكريين او وسائل الإعلام المرافقة لها بل اصبحت التقنيات الحديثة تنقل كل حراك أمني أو معارك شرسة في أي مكان بسرعة فائقة مما أشاع نقل كل مشاهد القتل والتنكيل والدمار والحرائق لكل بقاع العالم بل لكل انسان في الكون يمتلك جهاز محمول يرى من خلاله مايحدث في اصقاع الارض.

الاستعباد والاستبعاد

يمثل تاريخ الاخبار في فترة الفصل العنصري الى حد كبير تأريخا من النبذ العرقي، وحتى بعض الصحف الليبرالية النزعة أنذاك كانت تعامل السود على انهم جزء من «مسألة السكان الاصليين» خلال النصف الاول من القرن العشرين، بينما عملت صحافة الافريكان المستوطنين البيض على الترويج لفكرة «التنمية المنفصلة»

(Separate Development) ويشعر الناطقون بأسم الاغلبية السوداء ان جنوب افريقيا الجديدة لا يشهد اخبارا متاحة لصالح مجتمع السود ولا بشأن المجتمع الاسود المذكور، ومن الناحية الاخرى فهناك الكثير من البيض وخاصة الناطقون بلغة الافريكان في جنوب افريقيا ممن يعيشون حالة من الاستبعاد والاستعباد من جانب الهياكل المجتمعية الجديدة، قد فسروا خسارتهم للسلطة على انها نكوص الى حالة الحصادين المشاركين في الارض التي شهدت مولدهم، وبالتالي فان استعبادهم ومن ثم استبعادهم عن موطنهم يتقارب مع استعباد فرعون لقومه، ومحاولتنا إسقاط النظرية الفرعونية على وسائل الإعلام، مع إعطاء نماذج عن التلاعب الإعلامي، التكرار الإعلامي، الصورة الخفية، زويا الكاميرا والخداع البصري، الخطابات الإعلامية الملفقة، التضليل الإعلامي، وإبراز بعض الأمثلة التطبيقية عن الصور الخفية، يحدد ملامح هذا التقارب، فتطبيق النظرية الفرعونية في وسائل الإعلام، هي وسائل لا يطرأ تغيير على جوهرها عبر العصور، وإنما تتجدد الأساليب والأدوات الأكثر فتكًا، ولا تخرج هذه الوسائل عن ثلاثة مسارات تزاحم البشر جيلا فجيلا وهي:

1 - **تشتيت قوة الأمة**. ما من فرعون إلا ويعمل بالقاعدة العتيقة «فرِّق تَسُد»، فيصنع في المجتمع طبقات متناحرة لا يكف عن تأجيج نار العداوة بينها؛ ليضعفها جميعًا، ويبقى هو وحده القوي؛ قال- تعالى:﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا**﴾[القصص: 4].

2 - **الظلم**:﴿**يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ**﴾[القصص: 4] أما فراعنة اليوم، فيظلمون الجميع، لا يفلت من ظلمهم صاحب صوت حرٍّ مهما كان مسالمًا، إلا فئة قليلة ممن أخلصوا له الطاعة العمياء والعبودية الكاملة.

3 - **الإرهاب**:﴿**يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**﴾[القصص: 4]، وكم يعاني الأحرار الأبرياء من سجون الفراعنة، ودهاليز الاستنطاق والتعذيب؛ حتى يقضي الزبانية على معاني الكرامة والعِزَّة والمُروءة والشموخ، وللمرء أن ينظر من حوله، ويتساءل: هل تغيَّر شيءٌ من هذه الوسائل منذ فرعون مصر إلى اليوم؟

وللاستعباد ثوابت في كل زمان ومكان تتصارع للاقتصاص من إنسانية الإنسان، وللحقيقة البعيدة عن التحيز الإعلامي في عالمنا المعاصر ثلاثة أبعاد إنطلاقا من أن

وسائل الإعلام تغيرت قوالبها وتشكلت عناصر جديدة فهي لم تعد ساكنة بل تتمتع بالتفاعل الالكتروني، وهذه الأبعاد هي:

1 - **البعد الموضوعي**: يتمثل في الأحداث كما تجري تفاصيلها على أرض الواقع، وهوما تبتعد عن تناوله اغلب وسائل الإعلام بحكم انتمائها الى هذه الجهة أو تلك وتنتج تغطية زائفة أو يشوبها التضخيم.

2 - **البعد الإعلامي**: يتمثل في الصور التي يعكسها الإعلام لتلك الأحداث وهي في الغالب صور «مفلترة» تعكس أجندة وانحيازات ومصالح وسائل الإعلام والممولين لها والعاملين فيها.

3 - **البعد الإدراكي**: يتمثل في إدراكات جمهور المشاهدين الذين يتأثر فهمهم وتفاعلهم واستجاباتهم للرسائل التي يتعرضون لها بما لديهم من انحيازات وأحكام مسبقة وتجارب وتصورات عن مختلف الظواهر من حولهم.

ومن المؤسف أننا نعيش في عالم تتلاشى فيه الحقائق الموضوعية مفسحة الطريق للحقائق التي يصنعها الإعلام أو يدركها المتلقون، وتمتلك وسائل الإعلام بالتحالف مع القائمين على الإعلام ومنهم السياسيين خصوصا قدرة كبيرة على تزييف وعي الناس من خلال ما يمتلكه النظامين السياسي والإعلامي من قدرات تنظيمية هائلة قياسا إلى عموم الجماهير التي تتصف بإنعدام التنظيم وضعف التماسك، وبسبب أن تزييف الوعي لا يتم بغير تواطؤ وتوافق بين النظامين السياسي والإعلامي، إذ تقوم وسائل الإعلام بدور خطير في تزييف الوعي الجماعي للجماهير من خلال تواطئها مع الجهات السياسية التي تضع نصب أعينها هذا الهدف حفاظا على مصالحها كفئة حاكمة أو مستفيدة من زيف الوعي بقضايا المجتمع السياسية، كما هو دور مختلف وسائل الإعلام في نشر الوعي، وعلى النقيض من ذلك هناك وسائل تساهم في تزييف الوعي، وتتجاهل أيديولوجيا الإتصال أهمية الشأن العام بل تفرغه من إمكانية إنتاجه لأي بديل مستقبلي، يحاول ان ينقذ الجمهور مما يتراكم حوله من فضاء مفتوح يساهم مساهمة كبيرة في فوضوية عارمة لصياغة حياة افتراضية لا ترقى الى الواقع، إذ أن العلاقة بين وسائل الإعلام والجمهور تتطلب الوقوف على ثلاثة أدوار لوسائل الإعلام تؤثر من خلالها على الحياة الاجتماعية والسياسية بشكل

عام، وقام الباحثون بإستخدام تشبيهات وإستعارات مبنية على أساس العلاقة بين الإنسان والكلب لتوضيح هذا الدور والوظيفة الإعلامية:

1 - **وظيفة كلب المراقبة: (watchdog)** تعد هذه الوظيفة إمتداداً لمفهوم السلطة الرابعة أي أن وسائل الإعلام تسعى لأن تكون رقيباً على كل ما يدور في المجتمع من مدخلات ومخرجات، بما في ذلك مراقبة المؤسسات الاجتماعية والسياسية النافذة في المجتمع، وهنا يوصف دور وسائل الاتصال بأنه مثل دور الحارس اليقظ الذي يعمل كحارس ورقيب ضد إساءات استخدام السلطة الرسمية، وكمراقب لمصالح المجتمع وحمايته من الفساد والانحراف، فوسائل الاتصال تعمل كرقيب للسلطة من خلال مراقبة المؤسسات والقضايا والأحداث والآراء، وتسليط الضوء على بعضها، وتقويم أداء الحكومة، وترويج مبدأ الحق في المعرفة، وحماية المجتمع من تسلط النظام السياسي، وهذا الدور الواقي يتم بشكل أفضل بواسطة وسائل إعلام مستقلة تحكمها اهتماماتها ومعاييرها الخاصة.

2 - **وظيفة كلب الحراسة: (Guard dog)** تعني هذه الوظيفة أن وسائل الإعلام تقوم بحراسة فقط للمؤسسات النافذة في المجتمع، وتكون أشد الحرص على متابعة العناصر الطفيلية التي تدخل إلى المجتمع وتعكر صفوه ونقاء العلاقة القائمة.

3 - **وظيفة الكلب المرشد: (Guide dog)** تعني هذه الوظيفة أن وسائل الإعلام تقوم بدور المرشد أو الدليل الذي يمد المواطنين بمجموعة من المعلومات عن السياسات، وصانعي السياسة، والتي يحتاجونها لصنع القرارات، ولتقييم قادتهم.

4 - **وظيفة الكلب الأليف: (lapdog) أو الكلب الناقل** وتعني هذه الوظيفة أن وسائل الإعلام ترتمي في حضن المؤسسات الاجتماعية والسياسية دون أن تكون أداة مستقلة، ودون إبداء أي مساءلة للسلطة، ودون الالتفات إلى الآراء والاتجاهات الأخرى في المجتمع، خاصة التي لا تتفق مع مصالح المؤسسات النافذة في المجتمع، فهي تكون بمثابة أداة ناقلة لما يريد النظام السياسي أن تعرفه الجماهير، وبالطريقة التي يريدونها بدون توجيه أية انتقادات للمؤسسات القائمة.

5 - **وظيفة الكلب القائد (lead dog)**: تعني هذه الوظيفة أن وسائل الاتصال تقوم بدور وضع الأجندة (Agenda setting) للقضايا المطروحة على الساحة السياسية،

حيث تلعب وسائل الإعلام كمصفاة لهذه الحلول وترتيبها حسب الأولويات والأهمية قبل تقديمها للجمهور، كما تحث السياسيين على متابعة هذه القضايا نظراً لأهميتها في سياق الشأن العام، وبذلك تلعب دور الكلب القائد في الطريقة المحددة لإعطاء تغطية أكبر لأحد من القضايا أكثر من الأنواع الأخرى.

أصطياد الفضائح

يقول المؤرخ شين ويلنز(Sean Wilents) المتخصص بالديمقراطية الأمريكية: "فضيحة ووترغيت غيرت ثقافة واشنطن، وأصبحت تغطية البيت الأبيض إعلامياً أشبه بسعي دائم لإصطياد الفضائح، حيث ننطلق من مبدأ أن الرئيس يكذب، وأن عمل الصحافي ينصب على كشف أكاذيبه، أما صحافيو الجيل الجديد فهم في غالبيتهم شباب مندفعون بلا جذور، تجربتهم تسعى بأكملها نحو تكريس الوظيفة، الطموح في النجاح والعائلة، لا يدخنون السجائر، لا يشربون الخمرة، ولا يرتكبون المعاصي، يعودون مساء إلى بيوتهم، بينما كان صحافيو الجيل السابق يتسكعون في البارات، ويملكون رؤيا أكثر تحرراً للعالم، الشباب صدموا بصدق من تصرف الرئيس كلينتون، وهؤلاء هم المراسلون المعتمدون في البيت الابيض، وفي الوقت الذي تدهورت فيه الصحافة في أمريكا لدرجة تلقي تعليماتها من البيت الأبيض وتخليها عن طرح الأسئلة حول الحرب على العراق، يقوم البنتاغون بدفع مبالغ طائلة لشركتي علاقات عامة ليس لنشر الحقائق أو الترويج للديمقراطية وإنما لكتابة وغرس قصص ملفقة في الصحف العراقية، إذ عمل كل من مجموعة لنكولن (Lincoln) ومجموعة رندون (Rendon) هو تحسين صورة الإحتلال عبر الرشوة وأختلاق الأخبار، هذا الجهد لا يختلف عن مساعي مماثلة لأمريكا في دول أخرى وفي فترات سابقة الغرض منها تغيير الرأي العام والنظرة لأمريكا، لكن الفارق بالنسبة للعراق هو رفع نبرة الإدعاء بتصدير الديمقراطية و"القيم العليا" للحرية والشفافية، التي تتسابق عليها المنظمات الدولية وتنتهكها وسائل الإعلام ولا تبالي في المواثيق والمعاهدات وتهمل مساعيها.

في فن الحرب من يطلق الرصاصة الأولى يكسب الحرب، وفي الحرب الإعلامية من يبعث بالبرقية الأولى أو الصور الأولى يكسب السبق الصحافي ومعه يكسب

الرأي العام، واليوم من يغرد أو ينشر بوستا عن اية قضية يكسب السبق، ولكن أي سبق، هنا هي المشكلة، تلك هي معادلة مهنة الصحافة وشروطها، إذ يرى الباحث الفرنسي "ارموند ماتلار" أن الإقتناع بقوة وسائل الإعلام ومقدرتها على "صناعة" الأحداث ومحوها برز في وقت مبكر جداً من تاريخ وسائل الإتصال الجماهيري، وقد رسخته الحرب أكثر، وقد نتج عن هذا الأمر إعطاء شرعية لمراقبة وسائل الإعلام، وهي الشرعية ذاتها التي تستخدمها السلطات المختصة لتبرير الإجراءات التي تتخذها للحد من نشاط وسائل الإعلام في كل نزاع مسلح، وهذا إنطلاقاً من الأحداث التي أثر فيها الرأي العام على مجرى العمليات العسكرية، وعليه فأن الحرب أعطت الجيوش شرعية "التحكم" في وسائل الإعلام، فأستخدمتها سواء لإظهار هذا الحدث البارز في يوميات الحرب أو للتستر على ذاك الحدث، أو لسحب الأنظار عنه، وغاية هذا التحكم في وسائل الإعلام لا تقف عند حد "غربلة الأخبار والمعلومات" بل تمتد للسيطرة على صورة الحرب في مخيال جمهور وسائل الإعلام، سواء بتحوير الأرضية التي يغطيها مفهوم الحرب، أو بأخفاء أهدافها الحقيقية وإظهارها بأنها ضرورية لبلوغ بعض المثل الإنسانية، لنأخذ مثلاً حرب الخليج التي كانت كما نعلم فرصة لظهور تلاعبات إعلامية خيالية وعمليات رقابة عجيبة تكاد لا تصدق بحيث باتت مثالاً حقيقياً للخطاب الدعائي، وهذا لم يتم بإعتماد مبدأ الرقابة الإستبدادية التعسفية، لم تقل وسائل الإعلام: "هنالك حرب سوف تبدأ وسوف لن نعرضها عليكم، على العكس قالوا: سوف تشاهدون الحرب في بث مباشر" وعرضوا صوراً من الكثرة وأعتقد الجميع إنهم رأوا الحرب إلى أن أدركوا أنهم في الحقيقة لم يروها، وأن هذه الصور كانت قناعاً أخفى الصمت، أي أن تلك الصور كانت غالباً صوراً كاذبة، مركبة، كانت طعماً لإصطيادهم، كانت تلك الصور في الواقع تخفي الحرب إلى درجة أن جان بودريارد ألف كتاباً أسماه "حرب الخليج لم تقع".[598]

وقد غيّر الفضاء التواصلي التقاليد الرقابية أساساً، فقد أنطلقت الكلمة-الصورة من أسرها إلى الفضاء الواسع وأصبح من الصعب إعادة تكميمه ووضعها في داخل

(598) - نقلا عن ايناسيو رامونه، م، س، ذ، ص65

مصباح علاء الدين السحري ثانية، ولم تعد أية معلومة حكراً على وسيلة من دون أخرى، حتى تلك الأسرار التي تقفل عليها خزائن المعلومات في وزارات الخارجية في دول العالم تسربت من تحت الباب أو فتحة الشباك لتصل إلى العلن عبر نشرها في وسائل الإعلام، وفجرت قصة وثائق ويكيليكس فضيحة مست أكثر الأنظمة المعلوماتية حصانة وسرية في العالم، لا شئ محصن أمام شهوة الإشهار والتعميم، ولم تعد مواقع ومنتديات التواصل، إلى جانب القنوات الفضائية، قابلة للسكوت والصمت أمام إغراء إمتلاك ماهو مثير ومبهر لممارسة الحق الطبيعي المتاح للمعرفة، ومن العوائق التي تحول دائما بين وسائل الإعلام ونقل الحقيقة عن الأزمات والحروب إلى الجمهور الرقابة (الذاتية والمؤسسية) الإلتزام السياسي، الواجب الوطني، وظروف العمل الروتيني في وسائل الإعلام وعن الرقابة في فترات الحروب والأزمات يقول وليمز: يشير تاريخ الرقابة إلى إنها أستخدمت لـ«بيع» او «ترويج» الحروب للجمهور، وصياغة وتعزيز أسباب وظروف تلك الحروب بوسائل غير نزيهة، إذ أستخدمت الرقابة لإخفاء عجز وعدم فعالية القوات العسكرية بسبب الخسائر في الأفراد العاملين في تلك القوات.

وفي الخطوات الأولى لإنتشار الإعلام مصاحبته تطورات النبضة الكهربائية التي نقلته من محليته إلى عالميته، ثم إنتشاره عبر الفضاء في تزاوج المسموع والمرئي، كان الضمير الرقيب يمارس دوره محصناً بمنظومات متتالية التأثير من الأعراف والقوانين والضوابط أما اليوم فقد أنجز وعلى نحو غير منظم الإختراق المتواصل لكل تلك الأسيجة ليتحول مثل كائن خرافي بالغ الشهوة للتدمير إلى أسطورة يصعب رسم ملامحها، كي يفرض واقعاً جديداً لا يمكن إهماله أو التقليل من إثارته في حياة البشرية حتى عاد يشغل الكون ويثقل الوجود، وقد تحول إلى واحد من هواجس هذا العصر في موضوع إعادة صياغة دوره وتأطير مسؤوليته والسعي نحو نزع أسلحته التدميرية وإعادته إلى حيث يجب أن يكون عنصراً في صناعة الأمن والسلام، لا إشاعة الخوف والحرب، وفي مقابل تراخي منظومة الرقابة على الأداء الإعلامي، وإتساع دائرة التنوع في ذلك الأداء، أصاب العطب مباشرة صميم الغاية الأساسية والرسالة المقدسة التي يفترض أن تكون عنواناً دائماً لكل الأنشطة الإتصالية،

فأنتشر الفساد فيها وتنوعت مصادره وبشكل خاص حيناً خطف الإعلام ليوطن في معسكر الهيمنة، وليتحول أداة لتكريس مفهوم القوة الغاشمة والسالبية لحرية الشعوب، وعبر ذلك دخل عنصر المال الفاسد في صفقات مشبوهة وتحالفات غير نزيهة المقاصد، ليستخدم الإعلام كوسيلة بالغة التأثير في الحياة العامة، وبشكل خاص في الحملات الإنتخابية ودورات المشاركة في الحياة السياسية.(599)

وهنا فأن التصدي لقصية الحرية والعدالة يرتبط بشكل أو بأخر بالإحتكار والإستغلال، إذ يأخذ تناول المفاهيم المجردة مدخلاً ضرورياً لإستقرار تطورها وصولاً إلى إستخدامها الراهن وليس من منطق الأشياء أن نحكم على مستوى تناول موضوعة الحرية في وسائل الإعلام من دون أن نملك الشجاعة في الحديث حول معدل إيمان تلك الوسائل برسالتها الأخلاقية والحضارية، ولا نلقي اللوم على مصادر التحكم والتمويل فقط، بل أن نمطاً من الإستبداد يسود مكونات وآليات المسؤوليات المهنية، إذ أن الشكل التقليدي للتسلط في النشاط الإتصالي لا يقف عند حدود مصدر الرسالة الإتصالية، بل يتجاوز ذلك إلى الأسلوب والوسيلة أيضاً، وهذه الإشكالية تفرض علينا إعادة التساؤل ثانية عن المصدر الأساسي المولد لفكرة الهيمنة والمصادرة والتحريف في صياغة الواقع، وليس أمامنا هنا سوى أن نفتح جهاز التلفزيون، أو أن نتطلع إلى الصفحة الأولى من الصحيفة لنتسلم منها الأوامر في ما يجب أن نعمله ذلك اليوم، ماذا نأكل وماذا نشرب ومن أية أسواق علينا أن نقتني منها حاجاتنا المعيشية.

وهنا فأن السيطرة «المستبدة» من قبل وسائل الإعلام تخلق مناخاً يسوده حالة من التسليم والطاعة والإستكانة إلى ما يقدم لنا من أقتناعات من دون أن نشغل أنفسنا بمحاكمة ما يقدم لنا أو رفضه والتصدي لبضاعته وهكذا لا يتم ترويض المتلقي على التسليم والأستجابة الفورية بل أن الوسيلة ذاتها يوما بعد أخر تنتهي إلى مجرد تقنية غبية مستبعدة «بضم الميم وفتح الباء» ومستبعدة «بضم الميم وبكسر الباء» وهي صياغة جديدة لزبونية محسنة تخلق هامشاً من الفراغ في الوعي يتقبل بالتالي التخلي عن قدرة النقد، ومن ثم التكيف مع منطق أن يبقى المتلقي للرسائل

(599) د.عبد الله الكندي، تغطية الصحافة العربية للحروب، م، س، ذ، ص163-165

الإتصالية صامتاً، فاقداً القدرة على الإحتفاظ بموقفه، أو شاهداً سلبياً غير قادر على الإدلاء بشهادته، أو حتى خائفاً من النطق بالحقيقة، إذ أحتكرت التطورات التقنية وسائل الإعلام وأستغلتها، مثلما غيرت الآلة -منذ دخلت حياة الإنسان، سلوكه وطرائق تفكيره.

فالمطبعة حين ظهرت قضت على مهنة النسخ وغيرت من نمط حياة القراء وعملية التعلم والكتابة وأظهرت أنماطاً جديدة من الحروف والكتابة لم تكن مألوفة من قبل، وتحولت الكلمة المطبوعة إلى رسول جديد مكن العالم كله من نقل المعرفة والآراء من خلال شكل إتصالي قابل للتحمل والتنقل بدلاً من المشافهة والإعتماد على الذاكرة، وكما غيرت من البنية الإجتماعية وأحدثت ثورة في التعليم والإعلام، أحدث ظهور الراديو ثورة كبرى في حياة البشرية، قدم للإنسانية أسرع وسيلة إتصال تحمل الصوت البشري بدفئه وحيويته وما يحمله من أنس وعاطفة، ورأينا العالم كله يستمع للمذيع وهو يصف لنا غرق السفينة (تيتانيك) عام 1912 لحظة بلحظة، الأمر الذي بهر العالم كله، ثم جاء التلفزيون بصوره وسحره وجاذبيته إلى جانب إستفادته من الصوت مستعيراً أياه من الراديو، فكان أعجوبة البشرية وقتذاك، وأثر تأثيراً واضحاً في الحياة الإجتماعية مما أدى إلى إنتشار العزلة وإدمان المشاهدة وتفكك الروابط الإجتماعية والأسرية، لكن الفضاء المفتوح في راهن الوقت زرع مخاوف صعبة لبناء المجتمع، وابتكر وسائل تواصلية غلبت عليها السلبيات ورافقتها القليل من الايجابيات.

الرقابة والوحشية

على الرغم من الإنجازات الكبيرة التي حققها الإعلام على مستوى إشاعة المعرفة وتداولها وتطور الرأي العام، وتعظيم دور جماعات الضغط عبر توحد جهودها في سبيل المبادئ والقيم الأخلاقية في المجتمعات إلا أن السيطرة على كتلة هذه الحركة وتدويرها بإتجاه خدمة المصالح الخاصة وضعت الإعلام أمام مفارقة صعبة ومعقدة وألقت الشكوك حول مدى ما يمكن أن يحققه الإعلام من منفعة للبشرية ومن إنجازات إجتماعية، بعد أن أصبحت سموم الإعلام الموظف لغايات غير أخلاقية، تشل عصب الإبداع وتقف في طريق الحقيقة وقضايا الدفاع عن المصالح العامة، وعندما تحول

الإعلام من وسيلة إنسانية وحضارية للتواصل والمعرفة، إلى لعبة تستخدم لأغراض مصممة مسبقاً، ويختزل مفهوم حق الإتصال من حق الفرد في الإتصال والتواصل، إلى حق ممارسة ضبط حرية الفرد ومصادرة رأيه، فأن مفاهيم "حرية الإعلام" تقفز فوق "حدود القانون" في تكييف خاص يصمم من أجل فرض صياغات وقيم على المجتمع والفرد، تحت شعار حق المجموعة أو صلاحية السلطة ومسؤولياتها الواسعة وبذلك تتم صياغة قوانين أو أعراف لتضييق على مفهوم حرية الفرد الشخصية وتحت متطلب حماية تلك الحرية أيضاً، ولتظهر علانية أشكال متعددة من وسائل تقييد مساحة حرية الرأي وقدرات التواصل والأكثر خطورة من ذلك هو تزييف الوعي الجمعي عبر خلق عناصر الثقافة المزعومة، المشتركة والمقننة (Standardization) التي تسهل تحكم الدولة المركزية أو أجهزتها الضبطية، وتتسع في المقابل ثقافة الرعب والإغتراب، والثقافة السالبة لحرية الفرد، وكل هذه العملية تتسق من أجل أن تؤدي إلى تفتيت اللحمة والنسيج الإجتماعي وتحويل المجتمع إلى ذرات متناثرة، وتوليد الخوف الجماعي، بدل الأمن الجماعي، الأمر الذي يسهل سيطرة وسيادة قوة الإعلام الموجهة القادرة على إغتصاب الشخصية المستقلة، وإحلال شخصية قبلة للإنصياع، مستسلمة، غير معارضة، متراضية مع متطلبات السلطة، وشروط التعايش ضمن الجماعة أو القطيع مع حد متواضع من هامش النقد أو الإعتراض لإخراج الحالة وصياغتها وفق معايير الحداثة ومتطلبات المجتمع المدني.[600]

كان جوزيف غوبلز وزير الدعاية في المانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية يدعو المواطن الألماني إلى فتح نوافذ بيته، ورفع صوت المذياع بقوة لكي تستطيع الأفكار التي يبثها الوصول إلى أذن كل الماني وأختراقها، سواء أكان راغباً في الإستماع أم لا، كان تعامل عامة الناس مع ما كان يقوم به غوبلز لا يتعدى مجرد كونه نوعاً من أنواع الإزعاج المبالغ فيه، أما إختصاصيو الإعلام والإتصال في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها فطنوا إلى ما لم يفطن إليه الكثير من الناس العاديين، من خلال المتابعة والرصد والدراسة لأسلوب تعامل غوبلز مع الجهاز العبقري الحديث النشأة، المذياع، التفت هؤلاء الخبراء إلى أن غوبلز كان بصدد تشكيل شئ غير مسبوق في

(600) صباح ياسين، النسق القيمي، م.س، ذ، ص26-29

تاريخ البشرية، لقد كان يصوغ مبادئ وأفكاراً لأمة كاملة ليقتنع ويضحي من أجلها الملايين من الألمان على نحو الذي حدده الحزب النازي.[601]

وتثير الطريقة التي تغطي بها النزاعات إعلاميا جدلاً أخلاقياً ومهنياً، فالوصول المشروط والإنتقائي إلى مواقع النزاعات المحلية والحروب الأقليمية والصفقات التي تعقدها وكالات الأنباء وشبكات البث التلفزيوني أضحت تشكل عامل تهديد مباشر لمبادئ حرية الوصول إلى مواقع النزاعات والأحداث، وتلقي ظلالها على حيادية الرأي والتعبير، فالنزاعات تخلق بيئتها الخاصة المتسمة بغياب الأمن وظهورسلطة الجماعات المسلحة، الرسمية وغيرها، والحصول على فرصة الوجود والعمل وسط تلك البيئة المضطربة يمثل تحدياً مزدوجاً، يتمثل في أحد وجوهه بالرغبة في إقناع الحكومات ذات العلاقة بالنزاع بالدور المفترض للإعلاميين في نقل وجهة نظرها وموقفها، وتأثير ذلك في سيادتها الوطنية، والوجه الثاني هو التسويات مع الطرف الآخر في النزاع، وغالباً ما تعمد وكالات الأنباء وشبكات البث التلفزيوني إلى صياغة موازنة قلقة ترضي جميع الأطراف عبر الحذر الشديد في إختيار التعبيرات والتسميات وصياغة الأحداث ميدانياً لضمان السلامة الجسدية للمراسلين الأعلاميين ولمعداتهم الفنية، إذ أن الفرق بين الحاضر والماضي على صعيد التغطيات الإعلامية في مناطق النزاعات يتركز في النقل الفوري والمباشر للأحداث يملي شروطه في الوقت الحاصر على مصدر الخبر فلم يعد المراسل الحربي يعمل في موقع الحدث في حدود الكتابة بقلمه أو التقاط الصور بكاميرته ليجد وسيلة إتصال غير فورية مع صحيفته أو محطته الإذاعية أو التلفزيونية، بل أضحى اليوم مشاركاً في الحدث، وبتعبير آخر مشاركاً في صناعته.

وتثير الدراسات الأحدث في مجال الأزمات، وتأثيرها في إحساس الأفراد بالأمان، والإستقرار المجتمعي، إتجاهاً جديداً في هذا السياق، برز نتيجة الأشكال الإعلامية المستحدثة، ويأتي على رأسها هنا برامج تلفزيون الواقع (RT) الذي أثار موجة من الآراء المتناقضة، بعضها أثار نوعاً من التهديد المجتمعي لقيم وأعراف المجتمع، والبعض الآخر أعتبره نوعاً من الأشكال الإعلامية المستحدثة التي تتفق وتغير أدوار الإعلام بشكل عام، وإن كان الرأي الأول الأغلب على هذه الآراء، إذ أصبحت

(601) د.جمال الزرن، تدويل الاعلام العربي الوعاء ووعي الهوية، دار صفحات للدرسات والنشر، دمشق، 2007، ص19

وسائل الإعلام تلعب أدواراً مركبة منها ما هو دعائي، ومنها ما هو دبلوماسي، ومنها يعرف بالدور "القتالي" أو ما أصطلح على تسميته بالحرب الإعلامية، وقد أتفق العديد من الباحثين على أن وسائل الإعلام قد تم إستخدامها حديثا بشكل متطور في صناعة الحروب، من خلال خلق الذرائع، وتركيب الواقع، والتضليل الإعلامي، وحجب المعلومات، أو إمتصاصها إلى جانب الفعل الدعائي في بناء صورة وردية إيجابية للذات، وأخرى سوداوية مصنعة للعدو.

كما وظف الإعلام وتقنياته في تفتيت النسق الإجتماعي وخلق أزمة إنتماء وطني، بصورة فجة في تنفيذ المهام التي تستهدفها الجهات لتي تتبع لها وسائل الإعلام، من خلال التدفق المكثف للرسائل الإعلامية التي تحمل بين طياتها الشعارات والأفكار والمعلومات والصور وأنماط القيم الجديدة القادمة مع الإحتلال والتي لم يكن للمحتمع العراقي دور في إنتاجها وصياغتها وانما سعت إلى تفتيت وحدة النسق الإجتماعي، وإشاعة الفوضى وتغريب الإنسانية من خلال تعدد الوسائل وتعدد الجهات الضامنة لها، فضلا عن دور هذه الوسائل في إثارة الخلافات بين الأحزاب والكتل والطوائف وتحشيد الصراعات بينهما لأغراض بعيدة عن العمل الإعلامي الذي يستند على الإخبار والتعليم والترشيد والتسلية والترفيه وغيرها من قيم الرسالة الإعلامية المفترضة، كما يؤدي إلى إضعاف صفة المواطنة ودرجة الإنتماء والوحدة الوطنية، وإستخدام الإعلام كأداة رئيسة للمصادمات الكلامية بين جميع الأطراف، وتتعدد صور إفساد الإعلام وتوظيفه لغير أهدافه الإنسانية، من خلال، التهوين والتجاهل، التشكيك والتشويه، التعظيم والترويج، النزاع المجتمعي، الأولويات والمشتركات، التعايش والتجانس، المفاهيم والقيم، المبالغة والمغالطة، فالإعلام هو مهمة وسائل الإعلام بينما مهمة السياسيين السياسة، والعملية التواصلية او الإعلامية هي إحدى أدوات السياسة مثلها مثل الدبلوماسية والطائرة والدبابة، وجل ما يجب أن تحاول الوصول إليه وسائل الإعلام هو تجنب الوقوع في فخ الإستعمال السياسي عبر العمل التحليلي وتعقب المراجع وصولاً إلى المعلومة البحتة وإيصاله إلى المتلقي مع أكثر ما يمكن من توضيحات دائرية تبعد خطر التلاعب بالقارئ والرأي العام وبالتالي السياسة الدولية.[602]

(602) د صابر حارص، الإعلام العربي والعولمة الإعلامية، م، س، د، ص94

يعد علماء الإتصال أن الموضوعية (Objectivity) إختراع غربي وعلى وجه التحديد إختراع نشأ في الدول الناطقة باللغة الإنكليزية ويرون أن الصحفيين الأمريكيين بالمقاييس العالمية أكثر موضوعية من غيرهم حتى في بلدان العالم الغربي، فالصحفيون الأمريكيون حاولوا بكل جهد ممكن الفصل بين الحقيقة والرأي في التغطية الإخبارية وفي الأماكن المخصصة لنشر كل منهما على صفحات الصحف، ورغم تغني الأمريكيين بموضوعية التقارير الإخبارية في وسائل الإعلام الامريكية إلا أن الإنتقادات داخل المجتمع الأمريكي تزايدت تجاه هذا الأسلوب في التغطية الإخبارية فقد أعتبر بعض النقاد الموضوعية مجرد غطاء لنشر السياسات الحكومية بإعتبارها حقائق ومن ثم يتم الحفاظ على الأوضاع القائمة ويرون أن جمهور وسائل الإعلام سوف يصبح على دراية أكبر بالمعلومات والحقائق إذا لم يتظاهر مندوبو الأخبار بالموضوعية وكشفوا عن آرائهم ومشاعرهم بوضوح، ويرى هؤلاء النقاد أن الموضوعية الحقيقية هي أن يكشف المندوبون في وضوح وصراحة عن آرائهم ومشاعرهم فيما يقدمونه من تقارير إخبارية بحيث يكون الجمهور على علم بذلك، ولكن شكل المنافسة الأعنف هو بين وسائل الإعلام الالكترونية ذاتها، خاصة مواقع التواصل الأجتماعي وتتخذ المنافسة شكل صراع على المنصات، غالباً ما تدور حول قضايا طائفية أو ولائية لجهة ما، وما أسهل أن تتحول إلى صراع على الإثارة بهوية التلاعن والتلاسن.

ويربط علماء الأجتماع ومنهم ستانلي كوهين (Cohen) بين وسائل الإعلام من ناحية، ومشاعر القلق والخطر والأحساس بالتهديد التي تكتنف الأفراد من ناحية ثانية، على إعتبار أن هذه الوسائل مصدر هام وأساس من المصادر التي يستعين بها الأفراد لإدراك الأحداث المجتمعية المختلفة وتشكيل وعيهم نحوها، والأهم من ذلك هو النظر إلى تأثيرات وسائل الإعلام بإعتبارها تأثيرات سلبية في هذا الصدد تحديدا، حيث تنحو هذه الوسائل نحو إستخدام التعبيرات الإنفعالية، ولغة الدراما والتشويه، وسوء التصوير والتمثيل على مستوى تقديم الفئات الإجتماعية المختلفة، وفي المقابل أغفل هؤلاء المهتمون تأثيرات وسائل الإعلام في إدراك الأفراد للأزمات، وهكذا أنتقلت الحرب على الصعيد الرمزي إلى منافسة إستعراضية وتشهدية تمتص العناصر الدامية وغير الإنسانية لتفسح المجال للبعد الدرامي الذي يشحنه

النزاع والتعليق عليه.[603] إذ أن مؤسسة الإعلام كنظام مخيالي يكون في أدائه موجبا، وهو يؤدي الأمانات الأساسية التالية مع التعريف بأن هذا النظام وما يماثله من أحزمة ثقافية وأدبية وفنية أخرى تكون موجبة عندما تقرن الوضع بالخيال، فالموجب إذاً هو ما يدفع بالوضع إلى الخيال، وتتمثل هذه الأدوار في ما يلي:[604]

1 - إن هذا النظام المخيالي يوفر الملجأ الذي يأوي الفرد والمجتمع: حين يضيق الوضع، ويمكن أن نتصور، وفي غياب مثل هذا الملجأ، إضافة إلى ما يحدث في الوضع من جراء فقدان التوازن وسيادة الظلم والجهل والفقر..الخ وما يترتب على ذلك على مستوى شخصية وكيان الإنسان الفرد أن أحتمال التدمير الذاتي والمجتمعي يكون قائما إلى حد كبير، وهو ما نلحظه في ظاهرة الإنتحار والإدمان على المخدرات مثلا- إن مثل هذا الحزام الثقافي الإعلامي يقوم مقام المرجع حين يشتد التوتر والإضطرابات والضغوطات، وما نجد له آثار، ومن هنا فأن البضائع الإعلامية هذه تستطيع أن تقوم بدور "التملجؤ" أي موطن الهجرة من عالم التموضع إلى فضاء التمخيل.

2 - النظر إلى الوضع عن بعد: إذ أن هذا النظام المخيالي يسمح في الوقت الذي يتم اللجوء إليه بمراجعة أو تفحص أو التمعن في الوضع من موقع يقع على مسافة من هذا الوضع، أي يمكن رؤية الوضع من الزاوية الموضوعية أو المنفصلة عن ذاتيتها ولو نسبيا.

3 - معايشة عوالم مخيالية متعددة: التي لا يكون بالإمكان اكتشافها في الوضع، إذ تمكن الإنسان من النظر إلى وضعه من نوافذ عدة، لأغناء التجربة الإنسانية وإثرائها، ومن ثم الإرتقاء بها.

4 - إن هذه المخيالات تساهم في التنشئة الاجتماعية: فالأنظمة تعمل على توفير إطار غير رسمي يسمح للفرد بتعلم واستيعاب قيم المجتمع وعاداته وتقاليده ونظرته إلى ما يحيط به.

(603) نصر الدين العياضي، بعض الافتراضات لدراسة علاقة الإعلام بالحرب، المجلة الجزائرية للاتصال، جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسة والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال، العدد18، جانفي جوان 2004، ص122

(604) د.عبدالرحمن عزي، دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي (28)، ط2، 2009، ص26-29

5 - نقد الواقع بشكل التضمين: تصبح هذه الصيرورة، أي اللجوء إلى التلميح واستعمال ما هو غير مباشر ضرورية عندما يكون النقد المباشر غير مسموح به، ونجد ذلك بدرجات متفاوتة في مختلف النظم الإجتماعية.

6 - تغيير الوضع من خلال مغايرته: فالأنظمة المخيالية تدخل تصورات ومفاهيم وألفاظاً لم تكن في متناول الوضع من قبل، ويظهر مفعولها في مواقف وسلوكيات الأفراد والجماعات حين تنتقل هذه الأطر إلى ميدان الوضع فتغيره، وتدفعه إلى الحد الذي تذهب به هذه الأنظمة المستحدثة.

7 - تزوير الواقع الإعلامي والتلاعب بالاحداث: أن الرقابة التي تجري وسط ضباب كثيف وتحت عناوين مختلفة، إنما هي تكبيل لحرية الكلمة وتعطيل لفعلها الإيجابي. والأخطر من ذلك «تعيين» المكلفين بمراقبة الحقيقة وتخويلهم صلاحيات سجنها في أقفاص زجاجية لصياغة نمط آخر من أشكال فرض السيطرة المسبقة، والتلاعب عن قصد بالحقائق وإبدال الواقع بغيره وهذا ما وجدناه لاحقاً في أسلوب العمل الإعلامي الأمريكي خلال الحرب العدوانية الأولى على العراق عام 1991، وحرب الإحتلال الثانية في عام 2003، وكيف أن الإعلام الأمريكي وظف أمكانياته وأجبر الوسائل الإعلامية الأخرى التي تسعى للحصول على فرصة التغطية الإعلامية في ميادين المعركة على قبول شروطه الرقابية والألتزام بتعليماته بكل حذافيرها.

8 - خلق واقع أسطوري وخرافي لا واقعي: التغطية الإخبارية الرسمية التي تستبدل الواقع بالرمز منهمكة في خلق واقع أسطوري وخرافي وبالتالي لا واقعي، الأنظمة تعشق الواقع الخرافي، وذلك لأن معطيات الواقع الواقعي لا تروق لها، وهي بذلك تخلق صورة مثالية أسطورية وخرافية للقادة وللواقع والمجتمع،هذه الصورة المتخيلة والمرسومة بدقة والمقدمة عبر وسائل الإعلام تلغي الزمن وتجمده، وذلك من أجل ترسيخ الصورة اللازمنية للنجم وللنظام، الماضي يصبح ركاماً إلا حينما تبرز حاجة ما لتوظيفه، والراهن يصبح تلك الصورة المتخيلة والمرسومة بدقة عبر الضجيج الإعلامي، والمستقبل يصبح معروفاً ومنتجاً بشكل مسبق، تتم عملية محكمة لإلغاء التاريخ، وخلق الأساطير المتعددة والشاملة لمختلف

جوانب الحياة والمجتمع، وذلك لأن الأنظمة السائدة لا تستطيع إعادة إنتاج وجودها دون إنتاج الأساطير وإعادة إنتاجها، اللاوقعي والأسطوري والخرافي يهزم الواقع الواقعي، وتحلق التغطية الإخبارية العربية هائمة على وجهها في سماوات الوهم، وتتحول الوسيلة الإعلامية العربية من أداة للضبط الإجتماعي إلى أداة للإستلاب الإجتماعي.

9 - تبني تفسيرات تتلائم مع رغبات الناس: إن تفسيرات الإعلام للأحداث يمكن أن تعدل بشكل جذري من تفسيرات الناس للواقع وأنماط سلوكهم بالتالي.

10 - صناعة "الحقيقة المتخيلة أو الروحية" عن الحرب (Spiritual Truth): إذ أن وسائل الإعلام تنتقل من الحقيقة إلى الخيال، في حين أن عملها في الأغلب الأعم وفي الأوقات والأحداث العادية يرتبط بـ "حقيقة الواقع الخارجي" (Truth of External Reality) والفرق بين النوعين من الحقائق يعكس مستوى التورط الذي تقع فيه وسائل الإعلام في فترات الحروب والأزمات تتم مراقبتها والسيطرة عليها من أجل صناعة الحقيقة وليس نقلها.

ومن منطلق الدور الهام لوسائل الإعلام في عملية التصوير والتوسط بين الجماهير والواقع، خاصة في ظل المواقف المعقدة والمتشابكة التي تمر بالمجتمعات المختلفة، فأن هذه الوسائل تعمل في كثير من الأحيان على إستثارة مشاعر الخوف والقلق لدى الجمهور، أما بزيادة جرعة ما يقدم من مضامين حول قضايا بعينها، أو تجاهل قضايا أخرى نتاجاً للخلفيات الإيديولوجية والإقتصادية التي تعمل هذه الوسائل في إطارها،تاركة هذا الفصيل من المواطنين يلومون أنفسهم قبل أن يلوموا أي شخص أو جهة أخرى بإعتبارهم المسؤولين الأوائل عن أزمتهم أو خوفهم، وكأن هناك شعوراً ضمنياً، أن هذه الوسائل تعمل على تيئيس الناس بإبتعادها عن قضاياهم، موحية لهم أن العيب فيهم، وليس بمن يمسكون بالسلطة، وهو ما يعده الباحثون من السلبيات التي تغلف الواقع بالخيال، ولذلك فأن السالب فهو تسخير المخيال أو المخيال للوضع، وتتمثل الأدوار السالبة في ما يأتي:[605]

(605) د.عبدالرحمن عزي، دراسات في نظرية الاتصال، م، س، ذ، ص30-31

1 - **تبرير الوضع القائم:** ويتضمن ذلك توظيف التراث والتاريخ والخطاب الإعلامي والقانون، وإقتلاع القيم من سياقاتها في مسار تثبيت الوضع وتكريسه في خدمة مصالح ضيقة من مثل المصالح الإرستقراطية أو الطبقية، وهي أي (المصالح) مادية في أصلها، ومعنوية في ما يلاحقها من أمتيازات، وتمنع الإنسان بالتالي من تحقيق ذاتيته المعنوية والمادية في إداء رسالته لخليفة الله في الارض، وعادة ما تتكتل هذه الأنظمة المخيالية في نظام مخيالي أساس يسمى الأيديولوجية، في حين تظل الأنظمة المخيالية المعارضة إياها مستثناة وغير معتبرة وحتى ملغية إلى حين، وما عمدت إلى إضافته وسائل الإتصال الحديثة هو توسيع دائرة التبرير هذه بين المحلي والدولي.

2 - **المراقبة الذاتية والإجتماعية:** تعمل هذه الأنظمة المخيالية على فرض مجموعة من الحوافز والممنوعات التي تعيق عملية التطور وتحقيق ذاتية الفرد المعنوية والمادية، وفي وسائل الإتصال، فإن ظاهرة المراقبة الإجتماعية كانت محل دراسات أظهرت حضور الآليات الرسمية وغير الرسمية، في المحافظة على الوضع القائم وجعل الجمهور المتلقي ساكناً ذاعناً ممتثلا غير ناقد للوضع الذي يتواجد فيه.

3 - **منع الإنسان والمجتمع من إمكانية تغيير الوضع:** ويعني ذلك أنه في حال الإرتباط بنظام مخيالي ما، وإذا كان هذا المخيال لا ينبثق من الخيال، فإنه يمنع الإنسان من مواجهة الوضع ومن ثم تغييره، ويعكس اللجوء إلى المخيال والبقاء سجيناً في رحابه نوعاً من الهروب عمّا أفرزه الوضع، وتلك هي حالة مرضية تجعل الانسان يتوهم بانه تجاوز الوضع، في الوقت الذي ما يزال يعيش تحت وطأته.

4 - **حجز الإنسان والمجتمع في قالب الأحادية والنمطية والإستهلاكية.** فهذه الإنظمة المخيالية تعمل على ترسيخ قيم الإمتثالية فتنتج نمطاً من الإنسان يؤدي دوراً ساكناً في المجتمع وفقاً للتوقعات السائدة، دون أن يشارك بفعالية في مقارعة أو تغيير ما هو قائم في المجتمع.

5 - **دفع الإنسان والمجتمع إلى حافة التدمير الذاتي.** ويتمثل ذلك في اللجوء إلى نظام مخيالي يقوم على الوهم الذي يبتعد عن الوضع من جهة ولا يقترن بأي مخيال فرعي أو غير أساس، ناهيك عن عدم الإرتكان إلى كل ما له علاقة بالخيال.

الأدوار البديلة والاستعباد في وسائل الإعلام

يقول إيلي أبل(Elie Abel) أن الواقع لا يأتي مطلقاً بشكل دقيق في رسالة طولها دقيقتان أو ثلاثة دقائق، فالتاريخ الخام مملوء بالتناقضات، والتلفزيون أشبه براوي القصة، ومن ثم فهو يكره الغموض والقضايا التي لا حلول لها، ولذلك فهو يفرض على الحدث أو الموقف إطاراً مسبقاً يعدل من الواقع بهدف تقديم خبر متكامل يلائم الطابع الروائي للتلفزيون، إذ أننا ندرك أن تصوراتنا لواقع عايشناه وخبرناه تختلف عن تصوراتنا لواقع أعتمدنا فيها على وسائط، ومهما كانت مصداقية هذه الوسائط وقدرتها على وصف الواقع، فأن ذلك لا يؤدي إلا إلى إختلاف في تصوراتنا عن الواقع فالأهمية الحقيقية للخبر لا تكمن في كونه قادراً على تغيير الآراء والسلوك فحسب ولكن الخبر مثل بقية محتويات وسائل الإعلام يؤثر في تصوراتنا الإجتماعية عن الواقع، إذ أن وسائل الإعلام تقوم بدور الوسيط بين الواقع الإجتماعي الموضوعي وبين التجربة الشخصية، فوسائل الإعلام التقليدية والالكترونية معا تقع بين المستقبلين وبين ذلك الجزء من الخبرة المحتملة التي تقع خارج نطاق إدراكنا المباشر وهي كذلك تقف بين الجمهور وبين مؤسسات أخرى للجمهور علاقة بها وهي كذلك تزودنا بالمواد اللأزمة لتشكيل إدراكنا عن الجماعات الأخرى والمنظمات والأحداث، وهي كذلك قنوات تمكن الآخرين من الإتصال بنا، وتكتسب قضية العلاقة بين الواقع الحقيقي والواقع الرمزي أو الواقع الافتراضي أهمية خاصة في مجال الأخبار، حيث يتوقع الجمهور من الأخبار دون غيرها أن تقدم له صورة أكثر دقة عن الواقع، إذ أن محتوى وسائل الإعلام بوجه عام ساهم في تشكيل التصورات العامة للواقع، إلا أن الأخبار بوصفها تقارير وصفية للواقع-على الأقل من وجهة نظر الجمهور- يفترض أن تكون أكثر إرتباطاً بحدود هذا الواقع وحقيقته.

ويختلف أداء وسائل الإعلام للأدوار البديلة تبعاً للموقع الذي تحتله على خريطة المؤسسات الأجتماعية وتبعاً للوظائف المنوطة بها والفلسفة التي تحكم عمل هذه الوسائل، وفاعلية العلاقة بين الأخبار بإعتبارها تقارير عن الواقع الافتراضي والواقع الحقيقي للأحداث وتأخذ **هذه العلاقة بعدين هامين:**

أولهما: العلاقة بين الواقع الحقيقي وبين الواقع الافتراضي كما تصوره مختلف وسائل الإعلام التقليدية والالكترونية عن قصد أوغير ذلك.

ثانيهما: تأثير ذلك الواقع الافتراضي أو الرمزي الذي تقدمه وسائل الإعلام على إدراك الجمهور وفهمه للواقع الحقيقي وبالتالي على إتجاهات الجمهور نحو الواقع الحقيقي.

فإن الجمهور يشعر أن حجم وشكل مشاركته في الحياة الوطنية وبالتالي مستوى الديمقراطية يرتبطان بشكل أو بآخر بوجود إعلام جيد لكن ذلك لم يمنعه من الإستسلام لتملق الميديا الجديدة التي تسوق له الوعود بإعلام مسل ويقدم له فرجة مليئة بالمفاجآت والإثارة المشوقة او المسلية أو القادرة على إثارة حواسه، بفائدة أو ضرر، مما يولد وعي المتلقين لخطر الإعلام الافتراضي الجذاب، المفتوح والمنساق بلا حدود، خلف منطق التشويق والإستعراض، **وتتمثل الأدوار السلبية للواقع الافتراضي في:**

1 - **تسويغ وتبرير الواقع القائم**: في خدمة مصالح ضيقة بتوظيفها في الخطاب الإعلامي، وهذه المصالح مادية في أصلها، ومعنوية فيما يلاحقها من إمتيازات.

2 - **المراقبة الذاتية والإجتماعية**: وجعل الجمهور المتلقي غير ناقد للواقع الذي يتواجد فيه، ومنع الجمهور من إمكانية تغيير الواقع.

3 - **وضع الجمهور في قالب الأحادية والنمطية والإستهلاكية**: ويرد عبر الإعلان أو عما يرد في محتويات المواقع الالكترونية او مواقع التواصل الاجتماعي، بترويج الأفكار الهدامة المغموسة بالارهاب والقتل والنحر، وربما تحمل قيماً متماثلة تقوم على النمطية مرتبطة بنمط معيشي معين ويصبح الجمهور يفكر بصفة متماثلة، ويسلك سلوكاً شبه موحد، ويقضي تدريجياً على الثراء والتنوع الثقافي والحضاري الذي يميز جماعات تتنوع في اللغة والتجربة.

4 - **تكريس صفات الإثارة والمبالغة**: إن نظرة سريعة إلى السوشيال ميديا التي تنقلها للأفراد والمجتمعات في جميع أنحاء العالم، بمختلف تفصيلاتها ومواطن الإثارة والمبالغة فيها، مثل: الحروب، والمجاعات، والمحاكمات، والمطاردات،

تنقل لنا العالم الافتراضي، فالعالم الحقيقي لم يعد موجوداً بالفعل، بل أستعيض عنه بما نشاهده على شاشات بحجم كف اليد، مشاهد، وصور مرعبة لحروب وجرائم وغيرها.

6 - **اللعب على الأوتار الطائفية والعرقية والاثنية:** في كثير من مواقع التواصل الاجتماعي في العالم، يجري اللعب على أوتار طائفية معينة تناسب قطاع الأكثرية التي تتوجه لها الوسيلة الإعلامية الجديدة، ويأتي ذلك اللعب بطرق ضمنية تارة وسطحية مكشوفة تارة أخرى، ففي بعض المجتمعات التي تتألف من مجموعات عرقية أو طائفية أو دينية تستغل بعض وسائل الإعلام الالكترونية تلك الفسيفساء فتنشر مواد إعلامية تتضمن تهكماً أو تحقيراً أو إدانة لهذا الطرف أو ذاك، فإذا كان ثمة خبر أمام الوسيلة الإعلامية يتعلق بنجاح أحد الرياضيين مثلاً بالفوز بالميدالية الذهبية، فأن تلك الوسيلة الإعلامية ستقدمه بهويته القومية أو الوطنية التي تخص الأكثرية، أما إذا كان الخبر يتناول جريمة نكراء مثلا كالتجسس أو الإرهاب أو القتل، فأن بعض وسائل الإعلام تقدم الفاعل ليس بصفته الوطنية أو القومية، بل بصفته «العرقية» أو «الدينية» أو «الطائفية»، وهو ما دأبت على تقديمه أجهزة السوشيال ميديا.

7 - **إبراز وسائل الإعلام لقضايا محددة وأشخاص معينين:** وهذا الأمر لا يؤدى فقط إلى تضخيم تلك القضايا وأولئك الأفراد على حساب قضايا وأفرادهم بل له آثاره على الوعي المجتمعي العام بقضايا الأمة الحساسة كما أنه يساهم في صنع نماذج وقدوات من الناس الهامشيين كالمطربين ويقدمهم للأجيال الشابة على أنهم الأبطال والنجوم، وأن إدمان الجمهور على إستهلاك المواد الإعلامية التي تقدمها لهم وسائل الإعلام على أساس جدول أعمالها أو أجندتها يؤدي إلى تشكله وتأثره بما تشتمل عليه تلك المواد من قيم وأنماط حياة وسلوك.

البيئة الاتصالية الجديدة وسياسة الشد والجذب

لذلك يجب التسليم أن البيئة الإتصالية الجديدة تعد من أشد وسائل الإتصال الجماهيرية فتكاً وتأثيراً في جمهور المستقبلين، إذ لعبت الظروف الخارجية، وترسيخ عوامل «شدّ» و«جذب» في النظام الإعلامي «السياسي» ذاته في المنطقة العربية،

إذ تعتمد الكثير من وسائل الإعلام مبدأ أو خديعة الإيهام البصري-النفسي، بتكتيكات عديدة، فهي تدعي إنها وسيلة إعلامية مستقلة سياسياً، لكنها تفرد مساحات واسعة لرأي سياسي معين وتبقي القليل للرأي الآخر كي تدعي أنها تحافظ على مبدأ الرأي والرأي الآخر، مع ذلك، فأنه ثمة بعض وسائل الإعلام، خصوصاً في الصحف المطبوعة تحاول فعلياً أحداث توازن حقيقي بين الآراء ووجهات النظر المختلفة، فيما تحاول وسائل إعلام أخرى أن تعتمد على إبراز آراء كل الأطراف المتصارعة والمختلفة للإيحاء بأنها بعيدة عن الولاء لأحد منهم، ولذلك فأن دعوتنا لإضفاء صفات إنسانية تغلف الرسائل الإعلامية بما يتناغم مع آدمية الناس، وتتبع الأساليب المهنية في التناول الإعلامي، كيما نعمل على أن تستجيب البيئة الإتصالية للكثير من هذا التناغم وإبرازه.

يقول جورج برناردشو (يبدو أن الصحف غير قادرة على التمييز بين حادث دراجة وإنهيار حضارة) هذا القول المأثور كتبه سي.بي.سكوت، رئيس تحرير «مانشستر غارديان» في إفتتاحية موقعة بأسمه في الخامس من أيار عام 1921، وقال أن مهمة الصحيفة الرئيسة هي جمع الأخبار، وعليها أن تخاطر بروحها لكي تتأكد من أن الزاد ليس ملوثاً، ولا ينبغي لوجه الحقيقة المشرق أن يشوه، لا نتيجة ما تقدمه، أو تمنعه، ولا في طريقة عرضه، هذا أمر صعب التنفيذ إن لم يكن مستحيلاً، لكنه أضاف عبارة أقتبست مليون مرة: «التعليق حر ومجاني لكن الحقائق مقدسة» والنقطة الأساسية في هذه العبارة هي تناولها القيم المقارنة للحقائق والتعليقات، فأن دخلت غرفة مكتظة بالصحفيين وسألتهم عمن تبنى رأياً حول الحدث الإخباري المهم المتعلق بما يجري على الساحة حالياً، رفع كل منهم أصبعه، وحين تسأل من يمتلك معلومات طازجة غير منشورة حول هذا الحدث، تنزل كل الأيدي، الحقيقة هي أن كل شخص لديه تعليق، مثير أو يفتقد الإثارة، ولكن لا تملك المعلومات الجديدة سوى قلة قليلة من الأشخاص، التعليق أمر شائع ومبتذل، والمعلومات نادرة ولذلك فهي قيمة.[606]

---

(606) ديفيد راندال، ديفيد راندال، الصحفي العالمي، ترجمة معين الامام، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007، ص49-50

ويقول كارل دويتش بإن تنظيم وسائل الإعلام الجماهيرية ومراقبتها من قبل المؤسسات الإجتماعية، ونشر المعلومات وحفظها هو عامل كبير للقوة، إذ أن من الوظائف الرئيسة التي تؤديها وسائل الإتصال الجماهيرية وظيفة تكوين الآراء والإتجاهات لدى الأفراد والجماعات والشعوب، وهذه الوظيفة لا يمكن عزلها عن الوظائف الأخرى كالأخبار والترفيه، إلا أنها تمتاز عنها بخصوصية الهدف من هذه الوظيفة، كما إن أخلاقيات الإعلام تفرض على وسائل الإعلام القيام بواجباتها ووظائفها بصدق وأمانة وعدالة، وموضوعية وتوازن، وشمول ودقة، وعدم إساءة إستخدام سلطة الإعلام، ومع وجود صراع المصالح الهائل على المستوى العالمي فإن هذه الأخلاقيات تغيب أحياناً، وتحدث بشكل متعمد أنواع من التضليل الإعلامي، وتفصح البيئة الاتصالية الجديدة بوصفها أحد أهم المؤثرات في حياة المجتمعات، عن مجموعة من الخطوات التي تمثل عملية خلق أو إبتكار المشكلة في وسائل الإعلام المختلفة كالآتي:[607]

1 - هناك شيء غير مرغوب فيه وكريه يراه الجمهور كمشكلة(عملية تقديم الإدعاءات أو المزاعم).

2 - توجيه الجمهور لمدخل المشكلة الذي ستطرحه وسائل الإعلام للجمهور العام بحيث يتناسب مع الإهتمام بالمشكلة.

3 - لابد أن تتوافق هذه العملية مع غيرها من المشكلات التي يسعى الخصوم فيها إلى إكسابها شرعية الوصول إلى الأخبار وشرعية التغطية الإخبارية لها.

4 - قد تكون المشكلة جديدة أو نسخة مختلفة (زاوية جديدة) لمعالجة حدث أو ازمة سابقة.

5 - الترويج للشخصية الرئيسة في الحدث، وإبرازها كجزء من الحل، ولكن مع إتاحة الفرص لهؤلاء «المسؤولين» عن الحل أن يتحكموا في المشكلة ويتم من جانب أخر التحكم بهم، ومراقبتهم وربطهم بشكل أساس بالشخصية الرئيسة في الحدث.

(607) د.الاميرة سماح فرج عبد الفتاح، الإعلام وتشكيل الاحساس بالخطر الجمعي، م، س، ذ، ص65-66

6 - تقديم مخرجات وسائل الإعلام المختلفة، والمعلومات بشأن الموضوع، والروابط ذات الصلة بالمسؤولين وموضوعات أخرى مشابهة ذات صلة أو قد تكون معلومات عن أزمة أو مشكلة جديدة.

7 - تعود العملية إلى الخطوة الأولى مرة أخرى وهكذا.

وتعد نظرية الحمى الإعلامية في السوشيال ميديا ظاهرة استعبادية وهو مفهوم يتعلق بالإطار أو القالب الذي تتم فيه معالجة القضايا المطروحة للنقاش وبالشكل الذي يخرج عن دائرة العقل والمنطق، كما أن الشيمة المتفردة في ظاهرة الحمى الإعلامية هي أن وسائل الإعلام الجديد وعندما تكون أمام سلسلة لا تنتهي من الأحداث المتلاحقة والساخنة جداً يصعب عليها تفحص الأخبار لذا هي تفقد جانباً كبيراً من المهنية وهذا ما حصل في قضايا التناحر الطائفي في أكثر من بلد وخاصة في العراق الذي تجسد في صراعات المنظومة السياسية التي القت بظلالها على المنظومة الاجتماعية والامنية مما أصاب الجميع بحمى التشاتم والتنابز بالالقاب، والمتابع لمنصات التواصل الاجتماعي سيجد كيف استعبدت هذه التكنولوجيا أفكار الناس ودفعهم للتطاول على مقدساتهم وحياتهم وأمنهم ومستقبل بلدانهم، ويعد الإعلام، سواء أكان مقروءاً أم مسموعاً أم مرئياً، أم عبر شبكات التواصل الاجتماعي، الوسيلة الأهم في إحاطة المجتمع بالأحداث التي تقع في مختلف جوانب الحياة الإنسانية، بالشكل الذي يجعل الانسان على علم ودراية وتفاعل مع تلك الأحداث بشكل مباشر أم غير مباشر.

الفصل السادس

الطغيان في وسائل الإعلام

الطغيان في وسائل الإعلام

يعرف الخليل بن أحمد الفراهيدي الطغيان بقوله : الطغيان الواو لغة فيه وقد طغوت وطغيت والاسم الطغوي . وكل شيء يجاوز القدر فقد طغى[608] يبدأ الطغيان عندما تنتهي سلطة القانون، أي عند أنتهاك القانون، والحاق الأذى بالاخرين[609] فالطغيان يعني «حكومة بلا قانون» أي حكومة الظلم والتعسُّف وأهواء الحكام، وهي التي لا تُطبِّق مبدأ الشرعية، والطغيان والاستبداد متلازمان نتاجهما الظلم وغمط الحق، والنفس البشرية توّاقة للحرية بطبعها، تكره من يكبلها ويضع القيود لها، فالاستبداد يبني أقوى بلاط وأضعف دولة، ومهما يكن الامر، فان «الاستبداد» و«الطغيان» يحملان المعنى نفسه، فـ«المستبد» او «الطاغية» لا يمثل نظاما سياسيا او نظاما للدولة إنما حكومة منحرفة السلوك تستمد مبرر وجودها من انتهاكها الفعلي للحقوق الاساسية التي حددتها الاعراف والقوانين الوضعية أو الدساتير ذات العلاقة، ففي الحكم الاستبدادي هناك واحد فقط يحكم بلا قانون ولا قاعدة مسيرا الجميع وفق رغباته وأهوائه ونزواته الخاملة، كما يرى مونتسكيو في «روح الشرائع» وهو ما اكده فولتير في «القاموس الفلسفي» عندما يعتبر ان ما يسمى بـ«الطاغية» هو «ذلك الحاكم أو العاهل الذي لا يعرف قانونا سوى أهوائه، والذي يغتصب خيرات رعيته ويستعملهم في الذهاب لأخذ خيرات جيرانه»[610] كما يعريف الطاغية في التفاسير وفق ما ذكر أبن الجوزي والشوكاني (أنه الزيادة على القدر والخروج عن حيز الاعتدال في الكثرة)[611]

ولعلنا في الحديث عن الطغيان نميل الى الحديث عن التناول الإعلامي والرسائل الإعلامية الملغومة التي تتفاعل في موجاتها الخطابية كما هي أفعال طغاة السياسة، أو طغيان المؤسسات الإعلامية ومن ثم طغيان الفضاء المفتوح، إذ نقترب مما تميزت به معالجة القرآن الكريم لموضوعات الطغيان والطغاة بشمولية التناول وتنوعها بالرغم من أختلاف الظروف المحيطة بموضوع ما بحيث يكون له أثر على سير الأحداث

(608) كتاب العين – ج4 - 435

(609) جون لوك في الحكم المدني فقرة 202

(610) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، دار المدى، بغداد، 2016، ص13

(611) ابن الجوزي: زاد المسير ج1 – 36 – والشوكاني –فتح القدير ج4 – 482

والنتائج من باب أولى، ومن هذه الموضوعات المهمة موضوع الطغاة والطغيان الذي كان محورا هاما في كتاب الله يوضح مفهوم الطغاة والتعريف بالطاغين وأنواعهم وصفاتهم وبواعث الضغيان لديهم وأساليبهم ومصائرهم، وقد وردت كلمة (طغى) ومشتقاتها في تسعة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، وبصيغ وتصريفات مختلفة:(طغى، يطغى، أطغى، تطغوا، طغوا، أطغيته، طغيان، طغوى، طاغية، طاغوت، طاغين، طاغون)، ويمكن القول بأن هذه المعاني يجمعها شيء واحد وهو: المعنى اللغوي: «مجاوزة الحد» لكلمة الطُغيان، مع عدم إغفال السياق القرآني الذي يضفي معانٍ جديدة على الكلمات أثناء البحث والتحقيق، وأما استعمالات القرآن لها، فقد ذكر ابن سلّام وغيره أنّ الطّغيان في القرآن الكريم على أربعة أوجه:[612]

1 الطّغيان بمعنى الضّلالة، وذلك كما في قوله تعالى:(﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(البقرة، 15).

2 الطّغيان بمعنى العصيان، وذلك كما في قوله تعالى:(﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾(طه، الآية 24).

3 - الطّغيان بمعنى الارتفاع والتكثّر، وذلك كما قوله تعالى:﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾(الحاقة، الآية 11).

4 - الطّغيان بمعنى الظّلم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(النجم، الآية 17)، وقوله سبحانه:﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾(الرحمن، الآية 8)

أمّا الطّاغوت فقد أوردت له كتب الوجوه والنّظائر المعاني الآتية:

1 - الطّاغوت يراد به الشّيطان، وذلك في قوله تعالى. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾(سورة البقرة، الآية 256).

2 - الطّاغوت يراد به الأوثان الّتي تعبد من دون الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(سورة النحل، الآية 36).

---

(612) خالد رمضان أحمد، الطغاة والطغيان في القرآن الكريم، مقال منشور بمجلة البيان العدد 294 صفر 1433هـ

3- الطاغوت يعنى به كعب بن الأشرف اليهوديّ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾(سورة النساء، الآية 51).

وعليه فقد كان معنى الطاغوت في لسان العرب، الطاغية: الجبار العنيد، وقال ابن شميل: الطاغية: الأحمق المستكبر الظالم، فالطاغية إذن هو الذي لا يبالي بما يفعل فيقهر الناس ويغلبهم من غير خوف أو وجل أو حرج ويثنيه عن ذلك شيء، وذلك لتجاوزه الحد في الجبروت والتعالي والتكبر والمعاندة والظلم وغمط الحق، وهو ليس لأفعاله قانون يقيدها، فهو فوق كل قانون، وفوق كل اعتبار، ففرعون هو أعلى مثال في الطغيان والعلو والتأله، وبنو إسرائيل هم أسوء مثال للإنسانية قاطبة في الطغيان والكفر وذلك لممارستهم المتواصلة إلى اليوم للفساد والعلو في الأرض، أما ما دون ذلك فهي درجات أقل على مر تاريخ الملوك والحكام في ممارسة الطغيان كأفسد نظام سياسي بما يلحقه من أضرار للشعوب المقهورة.

الطغيان الفرعوني والطغين الإعلامي

يقول مونتسكيو موقف الطاغية هو موقف ذلك الذي يقطع الشجرة لكي يقطف ثمرة، والطغيان كممارسة سياسية هو الاستبداد، وذلك بسلب الحكم الصالح من أهله ـ أي من صاحب الحق في الحالة السليمة ـ وبتجاوز القانون الذي يرعى الصالح العام، إذ ليس هناك من حد قانوني للطاغية فهو يسخر كل شئ لإرادته ورغباته، فالطاغية يفرض نفسه على الناس باغتصاب الحكم كرها... أو الناس هم الذين يصنعونه لأنهم ألفوا حياة الاستعباد جيلا بعد جيل، فلم يعودوا قادرين على تحمل مسؤولية الحرية فيركنون إلى الذل تحت سطوة المستبد. إذ إن النداءات التي أطلقت لمواجهة طغيان الإعلام المصاحب لعمليات القمع والقهر قد أثمرت، وبشكل خاص بعد الحرب العالمية الثانية، عبر تضمين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عام 1948 مبادئ تضمن حق الفرد في إبداء رأيه من دون تدخل، وحق الفرد في حرية التعبير، بما في ذلك حرية إستقاء المعلومات والأفكار من أي نوع، وتلقيها، ونقلها بغض النظر عن الحدود، وتعزز ذلك بدعوات أممية وأقليمية، لعل أبرزها إعلان «ماكبرايد» (MacBride) الذي صدر كتقرير مستقل عن الأمم المتحدة

كذلك، وبالإتجاه ذاته تعاظم دور التجمعات المهنية للإعلاميين، مثل الإتحاد الدولي للصحفيين في بروكسل، ومنظمة الصحافيين العالمية في براغ، وإتحاد صحافيي دول عدم الإنحياز لاحقاً في بغداد ومنظمات أقليمية أخرى، وجميعها ركزت على مبادئ أساسية في حق الإتصال، وحرية الأداء كما جاءت واضحة ومحددة في الاتفاقية الدولية حول الحقوق المدنية والسياسية (كانون الاول/ديسمبر 1966) إذ نصت موادها (18و19و20) على حق كل فرد في حرية إعتناق الآراء والمعتقدات وعلى حقه في حرية التعبير، ويشمل هذا الحق حرية إستقاء المعلومات والأفكار من كل نوع وتلقيها ونقلها، بغض النظر عن الحدود، سواء أكان ذلك شفاهة أو كتابة أو طباعة في صيغة فنية، أو من خلال وسائل أخرى من إختياره.

أن جميع تلك المبادئ والمواثيق التي أكدت على مبدأ حرية التعبير والرأي، ثم نظمت مسؤولية وسائل التعبير والتزامها الأخلاقي تجاه الموضوعات الإنسانية، وكل ما صدر من إعلانات ومواثيق، تعرضت اليوم لتكسة كبيرة، ليس بالتجاوز والإختراق لنصوصها، والعبث بالقيم التي أعلنتها، ولكن الخطر الحقيقي يتمثل في توظيف الإعلام ووسائله لأغراض لا إنسانية تمنح القوي سلطة المصادرة والإلغاء والإرهاب، وتضع إمتياز فقرة الدفق الإعلامي وسعة إنتشاره تحت سلطة ذات أهداف توسعية إستعمارية، ولم تعد الحروب تبدأ عن خطوط المواجهة بين طرفي النزاع بل أن طبولها تقرع من بعيد ومن خلال مساحة واسعة ومتنوعة من وسائل الإعلام لتثير الرعب والفزع وتعمل على تبشيع الخصم ومن ثم تسويغ تدميره، وأضحى مبرراً ومقبولاً أن تقدم وسائل الإعلام بإستخدام الحيل والألعاب الإلكترونية وتزييف الوقائع عبر الحذف واللصق أو إعادة الصناعة للمواد الإعلامية لإخراج العدو المقصود بأسوأ وأحط أشكاله بما يخرجه من شكله الإنساني ويحوله إلى وحش مدمر من أجل تبرير غزوه وقتاله، ثم تدميره والقضاء عليه نهائياً، وبالنظر إلى تناول القرآن لأحوال الطغاة وممارستهم للطغيان قديما وحديثا، يجد المرء أن لهذا الداء العضال أسبابا متعددة، كأي مرض آخر حسي أو معنوي، وهذا ما تشير إليه الدراسات والبحوث الحديثة التي أجريت عن نفسية الطغاة. والأسباب التي تجعل من الطاغية وحشا ضاريًا، وأشار القرآن الكريم في معرض تناوله لأحوال

الطغاة وإدانة أعمالهم، إلى تلك الأسباب؛ التي دفعت بأصحابها إلى ممارسة هذه الظاهرة القديمة الحديثة، وبالتدقيق في هذه الأسباب يُستخلص منها أنها تنقسم إلى قسمين.(داخلية وخارجية)، ونعني بالداخلية: تلك الاشكالات النفسية التي غزت باطن هذا الطاغية، وأخذت بمجامع قلبه حتى أسود قلبه بدخانها؛ فدبّ إلى قلبه من سمومها وآفاتها ما دفعه إلى الطغيان، وأما الخارجية فنعني بها تلك الظروف والأجواء التي هيأت له المناخ المناسب لممارسة طغيانه وعتوه، وساعدت في طول أمده وبقاء سيطرته، ويرجع إلى هذين النوعين معظم ممارسات الطغاة التي صنعت الطواغيت وأوجدتهم وهي في ذات الوقت القاسم المشترك والجامع لكل طاغية على وجه الأرض، وهو طغيان سارت عليه مختلف وسائل الإعلام دون رادع ديني أو أخلاقي، أو مهني.

أسباب الطغيان الداخلية: وتتحدد أبرز أسباب الطغيان الداخلية بالأتي:[613]

1 - **الكبر والعلو:** يكاد يكون هذا السبب الجامع الرئيس بين الطغاة، ويصنف على رأس أولويات أسباب الطغيان، وأبرز الشخصيات التي تمثل هذا السبب على الإطلاق شخصية الطاغية فرعون؛ الذي اجتمعت فيه كل أسباب الطغيان الداخلية والخارجية، ومارس كل صنوف الطغيان بحق قومه، قال الله سبحانه عن فرعون:(**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**)[القصص: 4] وقال تعالى:(**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**)[القصص: 39]. وحين نقيس التناول الإعلامي وفق الكبر والعلو فأنها تصدر ذلك للمتلقي خاصة أذا انتمت لجهة سلطوية أو لجهات تمويلية ذات تمويل عال، تتخذ من ثورة الخطاب الملغوم طريقها دون رادع أخلاقي أم مصدات مجتمعية أو دينية أو غيرها، فيأتي الخطاب مشحونا بالتحرض والطغيان والمس بكرامة الناس ومستقبلهم.

2 - **العجب والغرور:** وهذه آفة الطغاة في عتوهم وتجبرهم وعدم قبولهم الحق والانصياع له، ولذلك قال الله حاكياً حال قوم عاد لما طغوا وتكبروا على ربهم، ثم على نبيهم بقوله:﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ**

(613) خالد رمضان أحمد، الطغاة والطغيان في القران الكريم، مقال نشر بمجلة البيان العدد 294 صفر 1433هـ

مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[فصلت: 15]، ومن صور مباهاة الطاغية فرعون ومفاخراته أن حعل يستحقر الآخرين ويعيبهم عجبا وغرورا فقال عن موسى: (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)[الزخرف: 52]، وهذا العجب والغرور خص صورة الإعلاميين في قيادة الخطاب الإعلامي، وطرق التباهي والغرور التي أمتازوا بها بحكم انتماءهم للجهة التي تنتمي اليها مؤسساتهم الإعلامية، وذلك ما يحفزهم على التباهي والغرور، بخطاب له طروحات تسهم في ترسيخ الغرور والعجب من الموضوعات المتناولة.

3 - **الحقد والحسد**: وهو الداء الذي يحرق قلب صاحبه إذا ما رأى لله على غيره منّة أو أسبغ عليه نعمة؛ فيدفعه ذلك إلى ممارسة الطغيان، وهذا كان سبب طغيان اليهود ورفضهم قبول رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مع أنه مكتوب عندهم في التوراة، فقد أنكر الله عليهم حسدهم لرسوله على الرسالة وحسدهم لأصحابه على الإيمان قال الله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ ولا شك أن ذلك ناتج عن الحقد والحسد لرسول الله قال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ [المائدة: 64]، والاحقاد التي تتوزع بين وسائل الإعلام تتناسل يوميا وخاصة بعهد التقنيات الحديثة والتكنولوجيا الفاعلة، وولدت هذه الاحقاد صراعات بين المجتمعات والدول وكشفت عن الكثير من مضمون ومحتوى التناول الإعلامي والرسائل الإعلامية عن ذلك الحقد والحسد.

أسباب الطغيان الخارجية: ويتحدد الطغيان الخارجي بالاتي:

1 - **الملك والسلطة**: وهي من أعظم الأسباب الباعثة على الطغيان، وبالأخص منهم طغاة الحكم والسياسة، والإعلام، ولذلك ذكر الله في القرآن الملك النمرود الذي طغى وتجبر حتى وصل به الأمر أن ادعى الربوبية، وكان الباعث له على ذلك الملك والسلطة قال عزوجل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وهذا فرعون يبرر فجوره وعلوه في الأرض كما حكى القرآن عنه يقول:﴿أَلَيْسَ لِي

مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف: 51]

2 - المال والولد: وذلك إذا ضعف من قلب صاحبه الإيمان والتقوى، وشعوره بفقره وحاجته إلى «الله»، يقول تعالى:﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[العلق:6-7]، والولد كذلك قد يؤدي بوالديه إلى الطغيان إن كان كافراً، وذلك بدافع حبهما له يقول تعالى:﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:80]، ولما كان المال مفضيا لما ذكرت من الطغيان فإن من دعاء موسى قوله ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[يونس:88]، وما تمويل وسائل الإعلام وما تكلفة الميديا، بل والذين ينتمون اليها الا دليل على الغنى بسبب الدعم المالي الذي لا يمكن حصر حجمه لأغلب وسائل الإعلام تساهم به حكومات وشركات كبرى، وما روبرت مردوخ امبراطور الصحافة الامريكية، وبرلسكوني امبراطور الصحافة الايطالية، والوليد بن طلال امبراطور الإعلام العربي واخرون الا أدلة على طغيان رأس المال في التناول الإعلامي.

3 - غفلة الناس عن حقوقهم وقبولهم الظلم: حيث إن الشعوب إذا استمرأت الظلم ورضيت بالهوان وغلب عليها الخوف؛ أعطت الطاغية فرصة وشجعته على الاستمرار والزيادة في البغي ولنلاحظ كيف بلغ الخوف بقوم موسى أعطاهم الله الملك ونجاهم من فرعون وكتب الله لهم الأرض المقدسة أنها لهم وطلب منهم مواجهة الجبارين فرفضوا فكيف سيتصرون إذن ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[المائدة 21 22]، ولا شك أن غفلتهم وسكوتهم عن أعمال فرعون وقبولهم طغيانه هو ما جرأه عليهم من قبل ولكنهم لم يتعظوا(**فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين**)[الزخرف:54]، وفي الوقت الذي كان موسى يحثهم الصبر والاستعانة بالله على فرعون وجنوده، كانوا يواجهونه بالاستكانة والاحباط والذل والهوان:﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ* قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعرف127-129]، إذ لا تملك الناس رادع لإسكات الاصوات الإعلامية الهجينة التي تحرض على الكراهية والعنف ونشر الرذيلة للسعي لخراب المجتمع، فضلا من ان البيئة الاتصالية الجديدة بكل جبروتها تسيطر على كل البيئات في العالم، ولا ينفع الدش في التشويش على أي خطاب زائف يراد له أن يصل للجمهور بل ويؤثر فيهم.

الطغيان نماذج وصور

إنّ للطغيان نماذج وصور متعددة، تتعدد وتتنوع: بحسب الزمان والمكان، ونفسية الطاغية وعناده وتكبره وهيمنته الاقتصادية، وقوته العسكرية، وكذلك بحسب تقدم الزمن وتطور أساليب الطغيان، لذا فإن صور الطغيان تختلف من طاغية لآخر، لكن يجمعهم: "إنتكاسة الفكر، وإنحراف الأخلاق، وإنعدام الرحمة، وفقد الإحساس، والإمعان في الظلم والتعذيب، مع ملاحظة اختلافهم في دقة تطبيق هذه الصور، ومدى تنفيذها، وشمول وعموم من تُمارس عليهم، وتتجسد هذه الصور في:

1 - **الظلم والتجبّر والاستبداد:** يعد ظلم الناس، وتهميشهم، وهضم حقوقهم، وسلب مقدراتهم وراداتهم؛ من أبرز صور الطغيان قديما وحديثا، وكم عانت الشعوب المستضعفة المقهورة من ظلم الطغاة وجورهم وتجبرّهم .﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وقال سبحانه﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾(الشعراء الاية 130) وقال سبحانه ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)﴿سورة هود الاية٥٩﴾، كما الحقت وسائل الإعلام الظلم بالناس في كل زمان ومكان، والتجبر عليهم، وممارسة أساليب الطغيان والاستبداد عليهم، وفق تحصنها بسلطة وأموال.

2 - القتل والتعذيب والتنكيل: وهذا من أشنع صور الطغيان وأقبحه وقد حكى الله عن فرعون قوله ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ

قَاهِرُونَ﴾[الأعراف:127] وقال عنه أيضا ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]، وفرعون الذي كان يذبح الأولاد خوفا من رؤيا رآها يكرس نموذجا للظالم الباغي الحريص على ملكه، والمشكلة أن الطغاة في كل عصر يمارسون صور الظلم نفسها وهذا يفسر تشابه قلوب الظالمين الأوائل والمعاصرين ففي سبيل الحكم يمكن أن يقتل شعبه ويجوعهم ويسلط عليهم المرتزقة من شرار الخلق، وقص الله علينا سبحانه ما تعرّض له أصحاب الأخدود من صور القتل والإجرام: [﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(4)النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(8)]، وما تحمله الرسائل الإعلامية من حملات النحر وقطع الرؤوس والحرق والتمثيل بالقتلى من الرجال والنساء والاطفال، هو من أبشع فنون القتل والتعذيب والتنكيل بذائقة المتلقي وانتهاك أنسانيته بإظهار تفاصيل التمثيل به، وهو خطاب موبوء سيئ متوحش.

ويأتي إفراط الطغيان وفي وسائل الإعلام خاصة من خلال:

1- **الاخلاص للطغيان والطغاة:** كان لملأ فرعون دور كبير في تجسيد النظرية الفرعونية، لما ميّز هذا الملأ من ارتباط قوي بفرعون، إلى درجة ذوبانهم في منطقه، والعمل بنظريته، ولقد استعملهم فرعون في شؤون حكمه، وكذلك أداة تربص بها لأعدائه، ومن جملة ما اختصوا به هو تفانيهم في الإخلاص له، والملأ هم أشراف قومه، ويتضح ذلك في إفراط وسائل الإعلام في مديح الحاكم والاخلاص لتصديره، والدفاع عنه، وكأنه إله، مما يحوله الى طاغية متجبر بسلطة ومال يغرق بها تلك الوسائل.

2 **الانسياق وراء الطغاة:** الملأ هم أعمدة نظام حكم فرعون، من قادة الجيش والكبراء، الذين اعتمد عليهم فرعون في حكم قبضته على الأتباع المستضعفين، وجعلهم منساقين وراء فكرة أن لا إله غيره، ونحن نلاحظ ان الطغاة يخطبون ود وسائل الإعلام المختلفة، وهذا يدفعها للانسياق وراء الطغاة والمتنفذين وسماسرة وتجار الفضاء المفتوح.

3 - **الايهام**: ساهم هؤلاء الملأ بشكل مباشر في إيهام فرعون بأنه الإله الذي لا يجدر ترك عبادته، وبالتالي بسط سلطته وطغيانه على الشعب، مثلما بسطت الشركات الكبرى التي تحتضن المؤسسات الإعلامية ومن ثم إيهام الناس بأن ما تصدره من خطاب إعلامي هو الامثل والاصدق في متبنيات الرسائل الإعلامية ومحاولة تزييف الوعي الجمعي للجمهور.

4 - **الاذعان**: جاءت هذه الموافقة التامة والإذعان، ملازمة للمصالح والمكاسب المحققة في كنف حكم فرعون، حيث أغدق عليهم بشتى أنواع النعم والخيرات، بل وأسند لهم تسيير شؤون الحكم والسلطان، فيما بالغت وسائل الإعلام في طرق الإذعن والإذلال للمال والسلطة التي تدعمها في كل زمان ومكان، وهو ما كانت وما زالت تعترف به، وتعمل على الاستجابة لكل ما يتعلق بالإذعان والذل.

5 - **الكبر**: طلبوا الكبر وتكلفوه فلم ينقادوا للحق، استمرت هذه السياسة المشتركة بين الحكومة ووسائل الإعلام وكان والتخطيط لحجب المعلومة واضحاً وجلياً من خلال الاتفاق الذي يتم بين السلطة ووسائل الإعلام فقد تم اتفاق بين وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» والمؤسسات الإعلامية الأمريكية الذي نتج عنه إلحاق الإعلاميين بالوحدات العسكرية الأمريكية أثناء الحرب هذه السياسة ضمنت للقيادات السياسية والعسكرية الأمريكية السيطرة على وسائل الإعلام، وفي نفس الوقت وفرت أرضية مشتركة للجانبين لممارسة تعتيم إعلامي كبير على الأخبار والتقارير وسير الأحداث في مناطق العمليات.

6 - **الوهم والغرور**: تسعى البيئة الاتصالية الجديدة لخلق الاوهام في رسائلها وتناولها الإعلامي، بطريقة أقرب الى الغرور والتكبر، والسير باتجاه المصالح الداعم لتلك المؤسسات، وما تفعله المؤسسات الإعلامية في أغلب الدول العربية يصح على ذلك، من خلال اتباع سياسة الأوهام وزرع الغرور في نفوس وشخصيات العاملين في هذه المؤسسات، لأجل الاستحواذ عليها، وميلها لهم، ماديا ومعنويا.

7 - **الاسراف**: تعد البيئة الاتصالية ومختلف وسائل الإعلام بالغة الاسراف بتناول الخطاب الإعلامي وتشتيت موضوعاته تجاه مختلف القضايا، وخاصة القضايا

المصيرية التي تتعلق بمستقبل الامم والبلدان، أنها تتحدث في كل شيء وعن كل شيء، أنها تسرف في وقتها وجهدها وأفكارها.

8 - **المكر**: لا يوجد مؤسسات ماكرة في كل العالم الا المؤسسات الإعلامية وجموع البيئة الاتصالية الجديدة التي تدفع باتجاه إستخدام المكر والحيلة تجاه المتلقي وتشويه ذهنيته وتلويث ذائقته بسبب طغيانها، وفعل ما تريده وفق قوله سبحانه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29]

9 - **الإفساد**: دائما ما تسعى وسائل الإعلام المختلفة الى تسويق كل ما يتعلق بقضايا فيها من المفاسد الكثير، وطعم الإفساد لا يتلاشي من الخطاب الإعلامي سواء كان رصدا للفساد السياسي، أم الاجتماعي، أم غيرها، فهي تسعى لإفساد المتلقي دون وضع العلاج اللازم له.

10 - **الايحاءات** :تستعمل وسائل الإعلام طرق إيحائية للتعبير عن الرسائل الإعلامية المبثوثة، والتي تتجسد بعدة إيحاءات لعل أغلبها تتحدد بتوصيف الشخصية خاصة للمرأة ومحاولة تسليعها مثلما توحي بتسليع الثقافة او ما يخرج عن تقاليد المجتمعات وعاداتها البيئية.

بين الظلم والطغيان الإعلامي

استخدمت وسائل الإعلام كل وسائل الظلم والطغيان تجاه قضايا مصيرية، كما هو حال نبي الله موسى ومن معه الذي نصبوا له المصائد والمكائد، إذ كان لوسائل الإعلام نصيب من التضليل الإعلامي والحجب المعلوماتي، في غزو الولايات المتحدة الامريكية للعراق، وبخاصة ما يتعلق باستخدام القوات الأمريكية لمادة الفسفور الأبيض ضد المدنيين في مدن العراق ومنها مدينة الفلوجة، وظل هذا الموضوع طي الكتمان، ولم تذكره وسائل الإعلام إلى أن قامت شبكة التلفزيون الإيطالية RAI في نوفمبر 2005م ببث فيلم وثائقي عرض صوراً وشهادات تثبت أن القوات الأمريكية استخدمت أسلحة كيمائية في العراق، بما في ذلك استخدام هذه الأسلحة في مناطق المدنيين، تضمن الفيلم الذي حمل اسم: "الفلوجة: المذبحة المحجوبة ": Fallujah The Hidden Massacre، أدلة وبراهين عديدة تعزز من مصداقية، مضمون الفيلم

الذي بثته شبكة التلفزيون الإيطالية، وهو ما أكده جيف انجليهارت Jeff Englehart وهو جندي أمريكي سابق شارك في الهجوم على الفلوجة، حيث اعترف باستخدام القوات الأمريكية للفسفور الأبيض، وقال جيف: "أعرف أن الفسفور الأبيض قد استخدم وهو بالتأكيد ودون أدنى شك سلاح كيمائي" كما عرض الفيلم صوراً التقطها أطباء عراقيون دخلوا الفلوجة بعد المعارك للمساعدة في دفن الموتى ومضى الفيلم يصف الوضع: "كانت هناك جثث لمدنيين، لنساء ما زلن يمسكن بالمسبحة وبدت على أجسادهن حروقاً غريبة، بعضهن محترقات حتى العظم، وبعضهن تدلت جلودهن من لحمهن، ليس هناك أي دلائل على وجود إصابات بالرصاص، لقد اختفت معالم الوجوه كما هو الحال في أجزاء الجسم الأخرى وهناك أيضاً بعض الحيوانات فارقت الحياة دون وجود أية جروح ظاهرة عليها" هذا العمل العسكري الذي يتنافى مع القوانين والأعراف الدولية وحقوق الإنسان، والتي زعمت أمريكا أنها جاءت للعراق لإرسائها، ظل طي الكتمان.

وظلت الحكومة الأمريكية تنفيه مدة من الزمن، وتصف الأخبار والتقارير التي تشير إليه بأنها تعبّر عن "أفكار وهمية" وبعد أن عرض الفيلم وأذيعت مادته على نطاق واسع لم يكن من بد أمام مسؤولي وزارة الدفاع الأمريكية من الاعتراف باستخدام الجيش الأمريكي قذائف الفسفور الأبيض الكيمائية خلال الهجوم على الفلوجة في نوفمبر 2004م، وقد جاء هذا الاعتراف مذيّلاً بإنكار أن تكون هذه المواد محرّمة دولياً وأنها قد استخدمت ضد المدنيين وبرر متحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية استخدام هذه الأسلحة بقوله. إن هذه الأسلحة "لا يحرمها أي قانون دولي موقّع من جانب الولايات المتحدة الأمريكية" وفي سياق التبرير والتضليل نقلت وكالة أسوشيتدبرس بتاريخ 16نوفمبر 2005م عن الملازم أول باري فينابل (Barry Venable) أحد المتحدثين باسم البنتاجون قوله "إن الجيش كان يستخدم الفسفور الأبيض لتحديد الأهداف وكشف المواقع، وتم استخدام هذا السلاح في بعض الأحيان بالفلوجة كسلاح ضد الأعداء المقاتلين"، ويتضح الطغيان هنا بشكل جلي وليس له صورة واحدة، فمتى استغلت السلطة لإرهاق الشعب وفقراءه تحولت إلى طغيان، أيا كانت صورته![614]

(614) "جون لوك: "في الحكم المدني" فقرة 251

أما القرب من الطغيان، بين فرعون وملئه ووسائل الإعلام، فأن الملأ كانوا على مراتب في سلطان فرعون يوجهون الأوامر تنازليا، وينقلون المعلومات تصاعديا، وبتحدد ذلك وفق الانتماء للطغيان، إذ تقوّى فرعون بملئه، فآزروه وعزّروه واتبعوا الضلالة التي جاء بها، واستخدموا شتى الطرق والوسائل التي من شأنها أن تحمي ملك فرعون وسلطانه، وبالتالي حماية مصالحهم، فعتوا في أنفسهم عتوا كبيرا، ولما أعلنوا الولاء لفرعون بالسمع والطاعة، واستهواهم فرعون بملذات السلطان وزخرفه، وبدورهم استهووا فرعون بالقوة والمنعة جراء توليهم لمناصب حساسة في حكمه، وكذلك ائتمارهم بأوامره، والإذعان لرأيه وباطله، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، والامر يتشابه مع ما فعلته البيئة الاتصالية ووسائل الإعلام المختلفة التي ساهمت في تجبر السلطة وطغيانها ومن ثم طغت وتجبرت في رسائلها الإعلامية من خلال فرض الرأي ومصادرة الحقوق والحريات، حرية التعبير وحق الحصول على المعلومة، فالطغاة على مرّ التاريخ يفرضون آرائهم وأهوائهم على أقوامهم، ويجعلونها عليهم قوانين إلزامية، ويقسرونهم على قبولها والانقياد لها قسرا، ويصادرون حرّياتهم وحقوقهم المشروعة في الاختيار والقبول والرّفض؛ فعليهم ألا يعتقدوا ويعتنقوا إلا ما يعتقد ويعتنق، ومن سوّلت له نفسه أن يخالف أو يرفض يستخدمون معه أبشع أساليب القمع والتنكيل، والعجيب أنهم يصورون أنفسهم كأنهم أصحاب الحق وأن غيرهم مفسد في الأرض، ومنطق الطاغية واحد كما قال فرعون لقومه ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فأن وسائل الإعلام ترينا ما تراه وتغيب ما تريدنا ان لا نراه والا نطلع عليه ونرصده، وهي من تهدي المتلقي الى الطريق الذي يميل به حيث ترغب، وتتحدد خصائص الطغيان بشكل عام وطغيان البيئة الاتصالية بشكل خاص بالأتي:[615]

1- يبدو الطاغية مغتصبا للسلطة على الدوام، ومطيحا بمؤسسات قديمة او ارستقراطية بيد انه يتغاير الى نوعين من حيث وضعه السابق: اما حاكم (من الارستقراطية) يحول السلطة لمصلحته من نظام شرعي الى طغيان مغتصب،

(615) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، دار المدى، بغداد، 2016، ص81-82

او شخص جديد -ليس بالضرورة من الشعب- يستولي بالقوة او بالحيلة او بكليهما على السلطة الشرعية طاردا من السلطة والمدينة من كان ماسكا بها من قبل.

2 - يبدو الطاغية دائما كـ(ديماغوجي) سواء كان شخصا من الارستقراطية او جديدا عليها، أي معتمدا على تثوير الـ«مجموع الشعب» أي كل المجتمع ضد السلطة القائمة، او مجموعة الفقراء.

3 - الطاغية يدمر النظام القديم لكنه يقف عاجزا عن إقامة أي مؤسسات جديدة، فهذه تظهر بعد الاطاحة بالطغاة وتتغاير تبعا لظروف هذه الاطاحة ودور العوامل الخارجية فيها.

4 - الطغيان كان لحظة مهمة بلا شك في بلاد الإغريق القديمة، إلا أنها كانت لحظة عابرة بالضرورة.

هزائم الفرعونية وغنائم الإعلام

لم يمنعه ادِّعاؤه الألوهية من أن تناله هزيمة نكراء على يد أحد أبناء المستضعفين، فقد كان فرعون الطاغية يسخر منه ويتوعَّده، انتصر الداعية المسالم الصابر المستمسك برسالة التغيير، وطويت صفحة الطاغية في خِضَم أمواج غاضبة عاتية، ابتلعت استغاثته الذليلة الكاذبة.﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[يونس: 90 - 92]، وقد بدأت نهايته حين تمرَّد عليه السَّحَرة -أي: السند الفكري والإعلامي- ولم يعبؤوا بتهديده لهم أمام الجماهير، وقالوا له بكلِّ قوة.﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[طه: 72]، هذا التحدي الواضح أعمل مِعْوَل الهدم في صرح الفرعونية؛ لينهار بعدها على يد موسى - عليه السلام - الذي يمثِّل الثائر على الطغيان والظلم، تلك هي الفرعونية دائمًا، وتلك هي نهايتها دائمًا، ولكن من ينهي طغيان وسائل الإعلام، لان المشكلة ستبقى غير محسومة ما دامت وسائل الإعلام تابعة وموالية للسلطة سواء كانت سلطة المال أو النفوذ، هي

استكانة الشعب ورضاه بالذل والهوان:﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[الزخرف: 54].[616]

إذ أن من يمسك بالمشهد الآني لمجمل حركة العالم هو التداخل المتنامي والمتفاقم بين ثورة المعلومات وثورة المرئيات، هذا التلاقي التوأم هيمن بقوة طاغية على معطيات واقع وتطلعات وأحلام قطاعات المشاهدين إينما كانوا وليس ثمة وسيلة لإيقافه أو قطعه وأصبحت هيمنة الصورة هي المصدر الأساس الذي يسهم في تشكيل وعينا وذائقتنا وثقافتنا، وذلك بفعل ما تنتجه من قيم ومضامين وهذه الأخيرة ترتبط طردياً بالتطور التقني، فالفضائيات وشركات الإنتاج ذات الإمكانيات التقنية العالية والضخمة هي سيدة هذا الزمن ورسائلها وإتجاهاتها الفكرية والقيمية هي الأكثر رواجاً وإنتشاراً بين جمهور المشاهدين، إذ تتوفر لديها القدرة على مواكبة وإستيعاب التغييرات التي تحصل وبهذا فهي كمنتج مرئي وثقافي وتسويقي متجدد، قادرة على إختراق مدارها الأقليمي فهي فوق مشكلات الجغرافية الإعلامية، ولذلك تتواصل خارجا مع الآخر بسهولة بالغة ومن هنا تتأتى قدرتها وخطورة غزوها لمنظومات القيم والأفكار لدى الآخر، إذ أن صورة الطاغية تبدو بملامح متناقضة دائما، فهو جريء وثائر وشعوي من جانب إلا أنه ايضا فردي ودموي تتحكم به نزواته التي لا هدف لها سوى تلبية شهواته الاكثر وضاعة، كما انه مصدر للخراب نظرا لأنه لا يهتم بأكثر من إثارة الفقراء ضد الاغنياء والعبيد ضد الاحرار والاستفادة الشخصية من هذه المواجهة، وفي الواقع فإن الطغيان قدم للمفكرين السياسيين في القرن الرابع (ق.م) مادة تفكير ثروة وحيوية، فالاستنتاجات المبتكرة والخاصة التي تضمنها الكتاب الثامن من «الجمهورية» لأفلاطون عن الطغيان والاستبداد تم استلهامها وأخذها لأحقا من قبل معظم كتاب القرن نفسه، مساهمين بذلك ببلورة صورة متكاملة عن خصائص الطاغية لعبت بدورها تأثيرا مؤكدا على الفكر السياسي بوجه عام، كما ان الطاغية الديماغوجي الذي كان ينحدر من الطبقة العسكرية عموما في البدء ولا يتقن غير أعمال الحرب صار يتقن فن الخطابة في المرحلة اللاحقة حيث صار للكلام الدور السياسي في القيادة.[617]

---

(616) رابط الموضوع http://www.alukah.net/culture/0/20946/#ixzz4etVXBuNk

(617) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، دار المدى، بغداد، 2016، ص85

فالدور الواضح لوسائل الإعلام، في طغيان خطابه ورسائله واضحا مفروزا للمتلقي والباحث، فليس هناك أوضح أهمية من الإعلام، وليس هناك أوضح تأثيرًا من الإعلام، وليس هناك أكثر تلاعبًا بالعقول والقلوب من الإعلام، وليس هناك أكثر طغياناً واستبدادًا وظلمًا وهمجية من الإعلام، وليس هناك أشد قهرًا وعدوانًا من الإعلام؛ فالإعلام بكل وسائل اتصالاته، وبكل أدواته، وبكل إمكانياته يُهيمن على عقولنا، ويصبغ أفكارنا، بل وطريقتنا في التفكير -أيضًا-، والقضية أكبر من أن تحتاج إلى شاهد، إذ أن إنحطاط الصحف كمصدر رئيس للمعلومات، وإنهيار البرامج الإخبارية المتلفزة الجادة، وإنتشار هذا النوع من التبادل الفكري بين الواقع والواقع الافتراضي يخلق حالة عقلية جمعية لا تستند إلى التحليل المنطقي، إذ ان المزيد من الناس يلجئون الى مواقع التواصل الاجتماعي لاستقاء اخبارهم، والخطر الظاهر فعلا هو ان يجد هؤلاء الاخبار في المواقع التي يذهبون إليها عادة وليس في اوساط موضوعية مكرسة للصالح العام، ولكنهم يذهبون الى المواقع التي تؤيد افكارهم وتتفق مع ميولهم الايديولوجية.

وينقل الإعلام مآسي الناس ليس لمجرد النقل بل لاجل اقناع الناس بأن حياتهم تترتب على بيئة غير أمنة فبكل الوجع مثلا وكأي مشاهد فيه بقية إنسانية، تابعنا محطات الأخبار وصور جريمة العريش ومسجد الروضة في مصر عبر جميع وسائل الإعلام وهو حادث أرهابي ذهب ضحيته مئات من المصلين الأبرياء على يد خوارج العصر، مئات من قرية واحدة حتى قيل إن من قضوا شكلوا ثلث القرية من ذكورها، فأنت هنا أمام إبادة تتجاوز مجزرتي صبرا وشاتيلا أو مجزرة الدامور، التي سبقتها ولا يتحدث الإعلام كثيرا عنها لأسباب إقصائية كالعادة مع أن الدم، في النهاية دم، وتلك هي عقدتنا الأزلية في عالمنا العربي، خصوصا مع الإعلام العربي، الذي يعيد إنتاج نفسه ببشاعة الأجندات والانحيازات، لكن هذه الأيام بفضائيات واستوديوهات وضيوف عبر الستلايت يتحدثون ويحللون القضية، ثم يتعمقون حتى في «تحليل» الدم، بدلا من تحريمه بعبارات مبطنة تكاد تبرر الجريمة أو تنسى القتلى وتوظف الدم لاتهامات مبعثرة هنا وهناك في تصفيات سياسية بشعة، أنه إعلام آني ولحظي لانه بمعنى ما ليس بإعلام او أنه ليس إلا مظهرا إعلاميا، هو عبارة عن نوع من الاتصال الذي لايتضمن أي معنى اخر غير فعل الاتصال ذاته.[618]

(618) بيير بورديو، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، ترجمة وتقديم درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، 2004، ص66

الأوهام الإعلامية للطغيان

يقول بيير بورديو: اصبحت شاشة التلفزيون اليوم نوعا من مرآة نرجس مكانا لاستعراض الذات إذ يتمتع التلفزيون بإمتلاك نوع من الاحتكار للحدث بدلا من تكوين العقول وذلك فيما يتعلق بجزء كبير من السكان.(619) ومن حق المتلقي أن يراقب هذا الواقع ويحلله، ولكن قطعًا ليس من حقه -ولا يستطيع- تغيير الطبيعة الإنسانية، والعوامل الوراثية التي تجمعه مع الحيوانات آكلة اللحوم في كل احتياجاته وتصرفاته، فينبغي للمتلقي أن يكتفي بمجرد تحليل الواقع ومراقبته، وليترك الفعل سواءً كان فعلًا اجتماعيًا، وهو المقصود أصالة، أو حتى فعلًا شخصيًا قد يؤثر في الواقع الاجتماعي، أو يخالف ما يراد منه، وأن ذكر التغير في الوسائل الإعلامية؛ فهو تغير في الآلات والطرق والسيارات والأطعمة لا في الناس والعلاقات الاجتماعية، وترسل رسالة للمتلقي: بإمكانك أن تغير سيارتك وبيتك وأثاثك، ولكن إياك أن تغير من نمط الحياة الذي تحاول الوسائل الإعلامية فرضه، أو تغير من نفسك وحياتك، أو تغير تغييرًا اجتماعيًا فاعلًا فضلًا عن تغيير سياسيًا، فإن ذُكر في وسائل الإعلام حركات التحرير والمقاومة ذُكر عدد ضحاياهم ومقدار ما خسروا، لماذا ؟! لأنهم يخالفون الطبيعة الإنسانية والبيئة وعوامل الوراثة!! ومع وضوح فساد هذا الوهم؛ لمخالفته للدين والعقل والمنطق وإلا؛ فما فائدة إرسال الرسل؟! وما فائدة التعلم والدراسة والقراءة؟! و... بل ما فائدة وسائل الإعلام نفسها؟! إلا أنه بتكرار ترسيخ هذه الفكرة تجد كثيرًا من الناس يقول «الطبع يغلب التطبع»، «عَدِّل جبل، ولا تعدل طبع»، وما شابه ذلك من الأمثال التي تدل على نجاح وسائل الإعلام في فرض هذا الوهم.

عليه فأن ما يعزز فكرة الطغيان في صناعة الأوهام، بأن الطاغية لا يمتلك أي شرعية للحكم، سوى سطوة القوة التي جاءت به إليه، وهو حال المؤسسات الإعلامية وعلى عكس المُستبد، يُقيمُ الطاغية سلطته على اللامساواة والقسر، وذلك بأساليب مختلفة، منها المكر، الدهاء، العنف والقوة الغاشمة، وقد يستطيع أن يستولي على المُلك إذا ما استطاع طرد أو قتل المَلِك أو الحاكم الشرعي، أو أن يستولي على

(619) المصدر السابق نفسه، ص47-48

الجمهورية كاملة وذلك بقضب وتحريف النظام القانوني للدولة ووضع نظام قانوني جديد يتماشى مع رغباته وأهوائه، وأيضاً من خلالِ توظيف الدين لخدمة سلطانه وطغيانه، وعلى عكس المُستبد أيضاً، فإن الطاغية يفرضُ نظامَ حكمه، بطريقةٍ غادرةٍ ومخادعةٍ تُفاجئُ ضحاياه! بيد أنه حين يستمرُ الطغاة لفترة طويلةٍ في الحكم، فإنهم يتغيرون ويقتربون بطبائعهم من المُستبدين، ذلك لأن الفترة الطويلة التي قضوها في الحكم، تُشكّل لهم نوعاً من الشرعيةِ التي كانوا يفتقدونها سابقاً، وهي الآن قد أصبحت في متناولِ أيديهم التي لا يستطيع مرور الزمن إزالة الدم عنها!! ويفعلون ذلك وفق عدة معطيات، وأستراتيجيات، وتقسم هذه الاستراتيجيات الى خمسة أنواع هي:

1 - **أستراتيجية التفنيد**: وهي عملية اقناع الجمهور بعدم وجود الازمة من خلال انكار وجودها او توضيح عدم وجودها والتأكيد على عدم وجود الازمة اساسا.

2 - **أستراتيجية التهرب من المسؤولية**: وهو نفي القصد والتعمد اي لم نقصد ايذاء احد او من خلال نفي او انتهاك القوانين، ونفي انتهاك القوانين والنظام ومحاولة تقلقل الضرر المرتبط بالازمة، او الادعاء ان الضحية يستحق مالحق به من ضرر لانه اساء التصرف.

3 - **أستراتيجية الارتباط**: تسعى هذه الاستراتيجية الى كسب التصديق العام للجمهور اثناء الازمة من خلال ممارسة التعزيز عبر تعزيز خواص سياستها او طرح تفوق سياستها او من خلال مدح الآخرين.

4 - **أستراتيجية المغفرة**: تعمل على كسب عفو الجماهير واحداث قبول للازمة وتشتمل على ثلاثة أستراتيجيات فرعية:

أ - **المعالجة**: وهي رفع الآذى من خلال التعويض وتقليل المشاعر السلبية.

ب - **التوبة**: الاعتذار وطلب العفو وهذا يقلل الصور السلبية في ذهن المواطن.

ج - **التصحيح**: وهي تلي التوبة وتعمل على منع تكرار الازمة.

5 - استراتيجية الاستعطاف:وهو تصوير الحدث على أنه إستهداف خارجي خبيث وان الحكومة هي الضحية وهذا نراه جليا في تصوير الحكومة السابقة أثناء

أزمة الموصل بأنها ضحية هجمة شرسة ارهابية تنوي النيل من سيادة العراق وافشال المخطط الوطني للحكومة، ومن هنا فأن الرسائل الإعلامية تسير بإتجاه أستعطاف المتلقي وجذبه، من خلال إيجاد أسباب وربما أعذار لأجل إقناع المتلقي بهذه القضية مع سلخ الاسباب الحقيقية لها وأضفاء مصطلحات تغازل الجهات الحكومية أو تسعى لتشويها وفق المصالح التي تميل اليها هذه الوسائل تجاه هذه الجهة أو تلك، وبالتالي تحرص على الترويج بأن ما يجري هو عبارة عن مؤامرات خارجية تريد النيل من البلد، والأمثلة عديدة ومفضوحة عن ذلك.

طغيان الاستهلاك الإعلامي

يعتقد «فيليب هووارد»[620] أن موقع الفيسبوك أضحى بنية قاعدية عمومية ويجب التعامل معها كمرفق عام يشكل موردا اجتماعيا هام باعتباره من الممتلكات العمومية التي يجب على الدولة المحافظة عليها، والسهر على ديمومتها، فعلى الصعيد القانوني توصف الممتلكات بأنها عمومية عندما يكون باستطاعة أي فرد في المجتمع استهلاكها أو التمتع بها وبخدماتها، وبهذا تخضع لشرطين، الشرط الأول ويتمثل في عدم حصرها على مجموعة معينة أو فئة دون غيرها، والشرط الثاني أن استهلاكها من طرف البعض لا يحرم الآخرين من استهلاكها بالطريقة ذاتها، ويؤمن «بركوفيسي» بأن الناس يتداولون الأخبار الشخصية عبر موقع شبكة الانترنت أكثر مما يعتقدون، والأدهى أن القليل منهم من يعرف جيّدا سياسة موقع شبكة الفيسبوك في مجال حماية المعلومات الشخصية، والكثير منهم لا يولي لها أية أهمية أو لا يملك الحساسية ذاتها التي يملكها الداعون إلى تأميم موقع الفيسبوك تجاه الحياة الشخصية، وإذا كان تسعة أمريكيين من بين عشرة لا يضعون حزام الأمان في أثناء قيادتهم السيارة سواء عن جهل بالإحصائيات التي تكشف عن دور هذا الحزام في الحفاظ على سلامتهم أو من باب عدم المبالاة، فهل يعقل جعل هذا الأمر سببا لتأميم شركات صناعة السيارات؟

ويتساءل بركوفيسي، عن طبيعة موقع الفيسبوك مقارنة بمواقع التواصل الأجتماعي الأخرى، فيقول بإن مقارنة الفيسبوك ببقية مواقع التواصل الاجتماعي

(620) أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة واشنطن.

المغايرة، مثل موقع تويتر، من أجل تأكيد سيطرته واحتكاره يشبه إلى حد بعيد مقارنة التفاح بالبرتقال، ويرى الباحث «آدم تيرير» من جهته، أن تحديد سوق مواقع التواصل الاجتماعي الشاسع يعدّ تحديا كبيرا لأن موت بعض المواقع وميلاد آخرى وفق إيقاع سريع جدا يشهد على أن هذا السوق يعيش ديناميكية وتحوّلا متجدّدا، لذا القول بأن الفيسبوك يمارس الاحتكار في هذا السوق يجانب الصواب، فوجود العديد من مواقع التواصل الاجتماعي مثل تويتر، ولينكوندن، واليوتيوب واستمرارها في البقاء ينفي صفة الاحتكار عليه، كما أن مفهوم الاحتكار والخدمة العامة يختلفان في هذا السوق، ويعتقد هذا الباحث أنه من الخطأ أن ننظر إلى موقع الفيسبوك من زاوية تعامله مع خصوصيات الأشخاص فقط، ونتجاهل كل الخدمات التي يقدمها في مجال الاتصال والاقتصاد والثقافة والمعرفة، ويرى وضع شركة الفيسبوك في يد الحكومة الفيدرالية لا يعدّ حلا مقبولا لحماية البيانات الشخصية وذلك لأنه ينطلق من افتراض بأن حصيلة هيئات الحكومية الأمريكية في مجال حماية الحياة الخاصة ساطعة بينما الواقع يؤكد عكس ذلك، هذا إضافة إلى أن اللجوء إلى تأميم موقع الفيسبوك يعني أن كل السبل التشريعية لتأطير نشاطه وإجباره على أتخاذ المزيد من الإجراءات التقنية والقانونية لحماية حياة الأشخاص الخاصة قد استنفذت، فالغاية في نظر هذا الباحث لا تبرر الوسيلة، فلا يوجد ما يمنع اللجنة الفيدرالية لحريات وصيانه المنافسة من تسليط أشد العقوبات على موقع الفيسبوك لاختراقه الحياة الخاصة سواء اليوم أو في المستقبل، وهذا على الرغم من أن النخبة الأمريكية تتسم بحساسيتها المفرطه تجاه تقييد الحريات وترفض أن تحذو الولايات المتحدة الأمريكية حذو الاتحاد الأوروبي الذي تحكم سلطة بيروقراطية مركزية أعضاءه وتصدر لهم ترسانة من القوانين والتعليمات التي تروم حماية خصوصية الأشخاص، والتي على أساسها رفعت دعاوي قضائية ضد موقع الفيسبوك.

اننا نعيش في عصر الاعلام الالكتروني واعلام وسائل التواصل الاجتماعي الذي يسهل فيه تداول الاخبار الخاطئة وغير الصحيحة وهو امر يؤثر على حياة شعوب البلدان المتقدمة، فلو اخذنا امريكا مثلا فان الرئيس الاميركي دونالد ترامب ومساعدوه ومستشاروه الاعلاميين يهاجمون دائما وسائل الإعلام التقليدية

ويصفون الكثير من أخبارها التي تنتقد ترامب أو تسلط الضوء على الاتهامات الموجهة إليه بفيك نيوز أو الاخبار المزيفة، في المقابل يتهم أعداء ترامب الرئيس الاميركي بانه أستفاد في حملته الانتخابية من جيوش الكترونية وأخبار كاذبة، لكن ما ثبت فعلا هو أن موقع فيسبوك نفسه كان يسمح للتفاصيل الخاصة لمستخدميه بأن تستخدم لاغراض دعائية، وقد كانت فضيحة شركة كامبردج اناليتكا للحملات السياسية واستخدامها لتفاصيل مستخدمي فيسبوك الفضيحة الاكبر في هذا الصدد، واذا عدنا للعراق فان بإمكان المراقب ان يكتشف ان صفحات الفيسبوك ذات المتابعة الواسعة تنشر اخبارا متناقضة وفيها الكثير من النواقص و الخلل بهدف جذب المتابعين والمتفاعلين .كما ان بعض تلك الصفحات يتلقى دعما ماديا من دول ومنظمات دولية لكنه ينشر مواضيع لا تتفق مع القيم الاعلامية في تلك الدول ولا حتى في العراق نفسه.

ويقول الكاتب الفرنسي "هربرت غايو": أننا نواجه فعلا عملية تفخيخ واسعة تستند إلى الكبس على الأيقونات الرقمية من أجل تصنيع الشائعات والتزييف والتضليل قصد الحصول على المال جراء الإعلان، فقد أصبح مالكو القنوات التلفزيونية وصحافيوها يعرون أن قسما من جمهورها يعلق عبر شبكة تويتر أو الفيسبوك أو اليوتيوب على برامجها بشكل متزامن مع بثها. واقتنعوا بالفكرة التي مفادها أن جمهور وسائل الإعلام سلبي وساكن قد عفا عنها الزمن، وتوارت في الماضي البعيد مع التخيلات الناجمة عن نظريات التأثير المطلق التي ازدهرت في منتصف المنتصف الأول من القرن العشرين، واحتفت بها الأيديولوجية الشمولية أيما احتفاء. فالكثير من الشواهد تثبت بشكل قاطع أن الجمهور لم يعد يبلع ما يقدم له من «وجبات إعلامية» دون امتعاض أو معارضة أو عزوف، إنه جمهور متفاعل وفعال. وقد طورت وسائل الإعلام استراتيجيتها من أجل استثمار طاقته التفاعلية بمختلف الأساليب، لعل أقدمها هي المنتديات الإلكترونية التي فتحتها الصحف في مواقعها في شبكة الانترنت بدءا من 1995، يليها نشر تدوينات الكترونية لبعض المدونين، وفتح المجال للتعقيب والتعليق على المقالات الصحفية التي تنشرها، وعلى البرامج المسموعة والمرئية في مواقع القنوات التلفزيونية والإذاعية التي أنشأتها في

شبكة الانترنت، بل أن وسائل الإعلام أصبحت ترصد ما يدور في منصات الدردشة الإلكترونية من مواضيع، وما يدرج من «توسيمات» في موقع تويتر لتطبخ منه وجبات إعلامية، وتغذي به مواقعها الإلكترونية.[621]

إن وسائل الإعلام المعاصرة تتجه بقوة إلى المزيد من الانفتاح على جمهورها بتوسيع مصادرها الإخبارية وتنويعها في إطار ما أصبح يعرف بمصادر الحشد أو المصادر الشعبية، وتجتهد في تفعيل حضورها في مواقع الشبكات الاجتماعية، كل هذا لا يمكن أن يخفي الرغبة الجامعة في الوصول إلى أكبر عدد من الجمهور حيثما يوجد وفي مختلف المستويات. الرغبة التي تشحذها المنافسة الشرسة وتحركها دوافع تجارية لا تفرض على مختلف وسائل التقرب من الجمهور فحسب، بل تتطلب منها الالتصاق به، وإرهاف السمع إلى ما يرضيه، وما يريد أن يقرأ أو يستمع أو يشاهد، لكن ليس على حساب مشاريعها التجارية وأهدافها السياسية والإيديولوجية، وهذا ما يؤكده المستقبل القريب الذي بدأ يكشف عن حدود تفاعل الجمهور. فبعد وكالة رويترز للأنباء، ومجلة «بوبيلر ساينس»، وصحيفة «شيكاغو سن تايمز»، جاء دور صحيفة الإلكترونية «ذو ديلي دوت» التي أنشئت قبل خمس سنوات فقط، وصحيفة "تورنتو سن" بتعلق، يوم 24 سبتمبر الماضي، تعليقات القراء على المواد التي تنشرها، وتحرمهم من التعقيب عليها. وقد بررت هذه الصحف ما أقدمت عليه بأن بعض التعاليق التي تصلها مجهولة الهوية وسلبية وماكرة. وأن نظام التعليقات الذي تتبعه الآن لا يخدم كل القراء. لكن ما لم يقال عن هذه التجربة أن الصحف أصبحت توجد صعوبات كبرى في إحداث التناغم والانسجام بين خطابها وخطاب قرائها والمعلقين على ما تنشره في مواقعها في شبكة الانترنت. لذا لم تعد ترى جدوى من هذه التعليقات. هذا ما عبر عنه أحد الصحافيين في صحيفة «السوفل أبسرفتور» الفرنسية، نقلا عن مدونة «جيف جرفيس»، إذ أكد قائلا: عندما ننتهي من عملنا، نأذن للجمهور بالتعليق على ما نكتبه. إننا نرمي به إلى الجهة الأخرى من الجدار، ونترك الناس يعبرون عن ردود أفعالهم تجاهه، وننسحب إلى قصرنا حتى لا نسمعهم.

(621) د.نصر الدين لعياضي، هل يتحول الجمهور إلى شريك وسائل الإعلام؟ مجلة الشروق الإماراتية الصادرة في 28 ديسمبر 2015 - 3 يناير 2016

إنهم يعرفون أنهم لا يتحدثون سوى إلى الطوب، وفجأة يبدأون بالصراخ، فيسوّون الجدار بالخربشات. إننا ببساطة نملك سلطة تنظيف الجدار من هذه الفوضى التي عمته، لقد هاجرنا الساحة فغطت الخربشات، بسرعة، جدران القصر.[622]

أن وسائل الإعلام تضطر اضطرارا، في بعض الحالات المحدودة، إلى التكتم على مصادر أخبارها، فتستعمل الصيغ المعروفة والمألوفة في الصحافة، مثل: مصادر مطلعة، ومصادر موثوقة، ومصادر مؤكدة، ومصادر مأذونة، ومصادر مقربة. ويقصد بها الحالات التي تكون فيها المعلومات سرية للغاية وخطيرة قد تقضي على المستقبل المهني لمن أدلى بها لوسائل الإعلام، أو تهدد حياته وحياة ذويه. والشخص الذي يدلي للصحافي بمعلومات حساسة ويكشف هذا الأخير عن هويته، بشكل صريح، يضطر إلى الكف عن التعامل مع الصحافيين، وهكذا تفقد وسائل الإعلام ثقة مصادر أخبارها. وقد جعل الصحافيون ومنظماتهم المهنية من الحق في عدم الكشف عن هوية مصادر الأخبار مطلبا نضاليا كلف الكثير من الصحافيين المضايقات والمتابعة القضائية وحتى السجن. بيد أن هذه «الشجرة» لا يجب أن تخفي "الغابة"، والغابة هي إفراط بعض المؤسسات في استخدام هذه الصيغ التعبيرية والمبالغ فيها لشيء في نفس يعقوب، بصرف النظر عن طبيعة الأحداث، إلى درجة أنها أصبحت موضع تندر. ويذكر في هذا المقام أن قناة تلفزيونية جزائرية خاصة بثت خبرا عن الزلزال الذي ضرب الجزائر في أول أوت 2014 بعد دقائق فقط من وقوعه، وعيّنت مركزه منسوبا إلى مصادرها الخاصة! علما أن الزلزال وقع فجرا، ولا ندري ماهي المصادر الخاصة التي أفادتها بهذا السر العظيم والخطير، وأين التقت بها في ذاك الوقت؟ كما إن اللجوء المبتذل للتعمية على مصادر الأخبار يدل على مكر وسائل الإعلام وتضليلها، أما حرية التصرف، إن لم يكن تلاعبا، في ما يدلي به مصدر الأخبار من أقوال وشهادات سواء بالاضافة أو الحذف أو بتحوير الكلام، فذاك موضوع أخر ذي صلة بشهادة الزور والتضليل، فالتناول الإعلامي للاحداث وعرضها، وصل حد استحداث وأبكار طرائق لقياس الرأي العام، وتوجيهه بطرق مؤثرة، تجعل الناخب خاصة في الغرب يقبل على انتخاب مرشح دون غيره، ويزيد موقفا سياسيا،

(622) المصدر السابق نفسه.

ليس لبرنامجه الانتخابي، بل عن طريق الإيحاء للجمهور بإتباع الرأي الذي تريده، والاسطفاف مع هذا الحزب دون غيره. حامد ربيع اطور الفكرة، ووظفت آليات التحيز في وسائل الاعلام الغربية لأغراض الدعاية الدولية في حقب تاريخية مختلفة، وكانت الأداة الرئيسه للحرب، وأطلق عليها الانكليز (الحرب السياسيه) والالمان أطلقوا عليها (الحرب الثقافية) والامريكان أسموها (الحرب السيكولوجية) ولخص غوبلز الهدف من استعمالها بقوله:(إننا نستهلك الكثير من القنابل لندمر بها مدفعا واحدا في يد جندي، اليس من الارخص من ذلك ان توجد وسيلة تسبب إضطراب الاصابع التي تضغط على زناد ذلك المدفع في يد الجندي!).[623]

وقد نندهش من أن بعض المتحدثين عن وسائل الإعلام، ومنهم من يوصفون بالمختصين، مازالوا يؤمنون بالأفكار التي دافع عنها الفكر التقليدي القديم الذي لم يصدق الى الان بتأثير الميديا الجديدة، وخاصة أفكار الباحثين الاولين هذا على الرغم من أن الكثير من الباحثين نفوا صحتها بناءً على ما أنجزوه من بحوث ميدانية، بدءًا بالباحث «بول لازرسفيلد» الذي أصدر كتابه الموسوم «اختيار الشعب» بعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية التي جرت في1944بين المرشحين «وندل ولكي» و«تيدور روزسفلت»، والتي أفرزت نتائج تعارض ما دعت إليه المحطات الإذاعية التي كان يعتقد أنها تصنع الرأي العام الأمريكي في ذلك الزمن، وقد دفعته للقول إن الجمهور لا يوافق على ما تروّجه وسائل الإعلام إن لم يتماش وقناعته، مرورا بنظرية «إلياهوكيتز» التي صاغها في 1959، والتي تؤكد أن الجمهور يستخدم وسائل الإعلام وفق حاجاته لتحقيق إشباعاته، وصولا إلى نظريات الاتصال الحديثة التي أصبحت تتندر على أتباع نظرية تأثير وسائل الإعلام المطلق، ولو ابتعدنا عن عالم الكتب وعدنا إلى واقع وسائل الإعلام خارج المنطقة العربية، لأن منسوب عدم الثقة في وسائل الإعلام العربية مرتفع جدا ويسد النظر إلى تأثيرها، نجد أن نتائج استفتاء الفرنسيين على معاهدة دستور الاتحاد الأوروبي، على سبيل المثال، لم توجه صفعة لوسائل الإعلام الفرنسية التي اتفقت جميعها، تقريبا، على تعبئة الرأي العام

(623) أحمد سر الختم أزمة الخطاب الإعلامي السياسي في فتره الانتخابات، ورشة عمل بعنوان: الإعلام ودوره في الانتخابات القادمة، دار الأمة، الامارات، 2008، ص4

لصالحها فحسب، بل وجهتها، أيضا، إلى كل المؤمنين بنظرية تأثير وسائل الإعلام القوي على الناخبين، وتكمن خطورة التحيز الإدراكي في أوقات الحروب والأزمات، إذ أن الحروب لا تنتهي عندما تتوقف أصوات المدافع وطلقات الرصاص، لأن هناك حربا نفسية هي حرب الكلمات (World War) التي تغذيها وسائل الإعلام والتي تستمر في تحقيق الاستراتيجية التي كانت تستهدفها الحرب العسكرية، فكيف يسقط كبار الساسة في أوروبا وأمريكا ويذرفون الدموع أمام الفضائيات؟ في سلاح اسمه الإعلام، وليس في هتافات النواب وصراخهم، لذلك قال ديغول وهو يتأمل ما وصلت إليه الأمور بعد الحملة التي قادها سارتر ضده:«لم أواجه في حياتي مدفعية بكل هذه القوة والتركيز على الهدف».

تشويش الدلالة اللفظية وعلاقته بالطغيان

يرى الباحثان ميريل (Merrill) ولوينشتين (Lowenstein) وهما يصفان تشويش الدلالة اللفظية، بأن هذا النوع في حقيقة الامر ليس تشويشا ولكنه تدخل ضمن الرسالة ذاتها، حيث يحصل من خلال فشل توصيل المعنى، ويظهر تشويش الدلالة اللفظية في الرسالة من خلال استعمالنا للغة، إذ أنه كلما زاد الارتباك بين المشاركين في العملية الاتصالية في فهم معنى المصطلحات والمفاهيم، زاد وجود التشويش الدلالي في الرسالة، هذا التشويش الذي ينشأ عن سوء الفهم.[624] ويعد بعض الباحثين أن تشويش الدلالة اللفظية في استخدام اللغة الاعلامية هو مقصود لأجل تشويهها وبالتالي فرضها على الجيل كي تنتج طغيانا لغويا مستبدا تجاه المتلقي الذي تؤثر عليه فواعل الطغيان وامتداده، وكانت النازية والفاشية والشيوعية نظم عقائدية يتبناها بحماس ملايين الرجال والنساء من ذوي الثقافة الرفيعة، وكانت العقائد الاستبدادية كافة، بلا استثناء، مستقلة بذاتها ويتم توصيلها عبر تدفق الدعاية في اتجاه واحد يسع الناس، الذين وقعوا في شرك الأيديولوجية من المشاركة الفاعلة في الاعتراض على افتقارها للقيم الانسانية.[625]

(624) د.يوسف محمد، النظريات النفسية والاجتماعية في وسائل الاتصال المعاصرة والالكترونية، م، س، ذ، ص322

(625) آل حور، هجوم على العقل، ترجمة نشوى ماهر كرم الله، دار العبيكان، ابوظبي الامارات العربية المتحدة، 2009، ص374

ويتساءل د.أمام عبدالفتاح أمام، من هو الطاغية؟ أهو ذلك الشخص المتجهم الذي يصعب تمييز أنفه من فمه لامتزاجهما معاً في حركة غاضبة ترهب من أمامه؟ أم هو حامل السوط يلوّح به في الهواء فيصدر عنه أصوات قد تلهب أشد من لسعة السوط نفسه؟ أم هو الذي يقود جمعاً من الناس كقود القطيع محاطاً بحرس شديد يشهرون أسلحتهم لاستئصال أية فكرة عن الهرب قد تدور بخلد بعض أولئك المقهورين؟ ويعطي صورة أخرى عن الطغاة، فقد يكون الطاغية هو هذا المتأنق عذب الكلام وتملأ الابتسامة وجهه، وقد يكون هذا الذي يجلس وسط قوم بسطاء يشاطرهم طعامهم وسمرهم، وقد يكون هذا الإنسان الذي يكرم نفراً من قومه لنبوغهم في بعض المجالات، وهو قد يرتدي أحدث الموديلات أو يرتدي حتى عمامة فوق قميص فيبدو مظهرة كمظهر أعبد الناس، إنه شخصية قد تحب النظر إليها مالم تكن لدينا فكرة كافية عن حقيقة أعماله، ولكنه في الحقيقة ذئب مفترس يلتهم لحوم البشر، هذا بعض ماتظهره الدراسة التي بين أيدينا، وفوق ذلك فإن هذه الدراسة تدلك على المعين الذي يخرج منه الطغاة، والدكتور امام لا يبرئ الشعوب من تهمة صناعة الطغاة عبر العصور، بل توجه إليهم اتهاماً صريحاً في أن ميلهم للاستكانة والاستضعاف يساهم في خلق الطغاة كما يرسخ هم في الأرض، وهنا يقول المفكر الإسلامي محمد الغزالي:"إن إذلال الشعوب جريمة هائلة، وهو في تلك المرحلة النكدة من تاريخ المسلمين عمل يفيد العدو ويضرّ الصديق، بل هو عمل يتم لحساب إسرائيل نفسها، فإن الأجيال التي تنشأ في ظل الاستبداد الأعمى تَشبُّ عديمة الكرامة قليلة الغناء، ضعيفة الأخذ والرد" إذ ان ظاهرة الانظمة الاستبدادية وعلاقتها بوسائل الإعلام تنطلق من اقترانها بأجتماع عدة مظاهر معا كشرط لتحقيق حضورها الفعلي كنمط حكم ملموس، وهذه المظاهر يكمل احدها وجود الآخر وهي:[626]

1 - وجود أيديولوجية محددة تتقمص التماهي مع مجتمع أو أمة تعاني من أزمة أو إنعطافة سياسية اجتماعية كبيرة طارئة.

2 - وجود زمرة او حزب يتقمص تلك الايديولوجية إلى حد التماهي معها.

(626) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م، س، ذ، ص230-231

3 - بروز زعيم ديماغوجي اوحد يصادر ذلك الحزب إلى حد التماهي معهم تقمصا دور الزعيم الانموذج والمثال المقتدى.

4 - وجود جهاز بوليسي محكم في فرض أي شكل من اشكال القمع والارهاب على المجتمع إن اقتضى الامر وفق مبدأ الغاية تبرر الواسطة.

5 - وجود سيطرة كاملة على وسائل النشر والاتصالات بين الناس، ومحاربة كل أشكال حرية التعبير والثقافة الفردانية، وتعميم الرعب العياني والذاتي

6 - فرض السيطرة العقائدية ومبدأ التجسس على النفس في القوات المسلحة وتطهيرها من أي مشاعر ذاتية.

7 - بناء اقتصاد مركزي مخطط وكلي وصادر للثروة الاجتماعيه والملكيه الخاصة.

يقول لورد أكتون: "كل سلطة مفسدة، والسلطة المطلقة، مفسدة مطلقة" وعليه فأن ما يحدث في نظام الطغيان وهوالارتباط بين شخصية الحاكم ومسار الطبيعة، فيصبح الحاكم الأوحد ومبعوث العناية الإلهية والقائد الملهم والمعلم المفكر الهادى إلى صراط الحق وطريق مستقيم (ما أريكم إلا ما أري وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) تأليه الحاكم وتعزيز سلطته على مقدرات الرعية، منها هنا فأن سلطة الإعلام تنطلق من سلطة الحاكم وطغيان الإعلام امتداد لطغيانه، وقد أشار توماس هوبز إلى أن حالة الفوضى في وسائل الإعلام هي الحالة الطبيعية في حياة الإنسان، في حين أن المجتمع المنظم والاجتماعي هو «مجتمع صناعي»، خلقه الإنسان بإرادته، معارضاً بذلك فكرة أرسطو التي ظلت سائدة في تاريخ الفكر السياسي طوال العصر القديم، والوسيط، وصولاً إلى عصر النهضة، وكانت فكرة أرسطو تذهب إلى «أن الإنسان مدني بالطبع»، وأنه يتجه للعيش في إطار الجماعة (السياسية، الاقتصادية، الإثنية، ...إلخ) بالفطرة. فعارض هوبز كل هذا الإرث الأرسطي، وأعتقد بأن الإنسان لا هو حيوان سياسي بفطرته، ولا يميل إلى الجماعة المنظمة، لكن التنشئة الاجتماعية هي التي تشكل شخصيته ليصبح صالحاً للحياة في المجتمع السياسي، وبما أن الإعلام يساهم في تشكيل الوعي الجمعي للجمهور فقد عزز مشاريعه في الطغين والاستبداد وفي التناول الإعلامي للرسائل التي تخدم مصالح هذه الجهة او تلك، مما خلق فوضى إعلامية، دعمتها البيئة الاتصالية الجديدة والمفتوحة على كل شيئ.

ويركز الدكتور امام عبدالفتاح في دراسته عن الطغيان بأن اول إجابة طرأت على ذهن الانسان في هذه العصور الموغلة في القدم هي: لابد ان يكون الحكام من طبيعة غير طبيعة البشر هكذا تصور القدماء الحاكم من طبيعة إلهية: فهو إله أو أبن الإله، أو هو يحكم بتفويض مباشر أو غير مباشر من الله، هكذا كان الحاكم في الشرق القديم -بل والوسيط والحديث- إذا ما قلنا مع "الكواكبي" "إنه ما من مستبد سياسي إلا ويتخد لنفسه صفة قدسية يشرك بها الله" لكن هذه الصفة قد تكون ظاهرة بارزة يعلنها الحاكم نفسه (كما فعل فرعون) وقد تكون خافية مستترة، وإن كان مضمونها ظاهرا في سلوكه فهو على أقل تقدير "لا يسأل عما يفعل وهو يسألون!" وهذا ما فعله جميع الطغاة على مدار التاريخ! إذ أن عدد الطغاة والمستبدين يفوق بشكل هائل عدد الحكام الخيرين أو الصالحين، وان هؤلاء الطغاة كانوا دائما موضوعا للكراهية والخوف، ولم يكونوا ولم يكونو ابدا موضوعا للحب والاعجاب، ومما يؤكد ذلك ما يدهب إليه فقهاء القانون من أن أستقرار القوانين الدستورية لم يكن أمرا سهلا، فهي لم تصدر إلا بعد جهاد الشعوب وكفاحها، واستشهاد الكثيرين من ابنائها، لكي تستخلص الشعوب حقوقها من مغتصبيها، وقد سجل التاريخ أن الدساتير لم تصدر إلا بعد ثورات شعبية أو ضغط قوي من جانب الشعب على حكامه، حتى في البلاد التي اتسم تطورها السياسي بالهدوء إلى حد كبير مثل أنكلترا.[627]

وبحسب بيير بورديو، فأن الصحفيين يشبهون "نظارات" خاصة بوساطتها يرون أشياء معينة ولا يرون الاشياء الاخرى، كما انهم يرون هذه الاشياء بطريقة معينة، أنهم يمارسون عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الذي تم اختياره،[628] إذ اقتنعت وسائل الإعلام المعاصرة بضرورة تغيير نظرتها لذاتها، فالكثير منها لم يعد تعتقد أنها مدرسة موازية، وأن صحافييها معلمون يلقنون دروسا للجمهور الذي يعتبرونه تلميذا، لقد أصبحت النظرة إلى الجمهور تتأرجح بين كونه زبونا أو مواطنا، ومهما كان موقع هذا الجمهور فهو عنصر فاعل، والسؤال المطروح يتمثل في حدود

(627) امام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الإستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 183، 1994، ص37

(628) بيير بورديو، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، م، س، ذ، ص49

فاعليته في المستقبل؟ فهل يمكن التسليم بما أصبح يشاع بأنه تحول إلى منتج للإعلام، وأمسى كل شخص يملك أداة تكنولوجية بسيطة "كاميرا رقمية" ووسيلة اتصال بشبكة الانترنت "وسيلة إعلامية"، على حد تعبير الصحافي الأمريكي "دان غلمار"، في زمن ما انفك عدد الذين يطلعون على الأخبار في شاشة هاتفهم الذكي يتزايد باضطراد من سنة إلى أخرى؟ ويقترب الطاغية من التأله، كما تقترب وسائل الإعلام من توصيف السلطة الممولة والداعمة لها بالتأليه فالطاغية يرهب الناس بالتعالي والتعاظم، ويذلهم بالقهر والقوة وسلب المال حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف له وتملقه؛ وعوام الناس يختلط في أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام، ولهذا خلعوا على المستبد أو الطاغية صفات الله: كولي النعم، والعظيم الشأن، والجليل القدر، وما الى ذلك؛ وما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله، أو تربطه برباط مع الله، ولا أقل من أن يتخذ بطانة من اهل الدين يعينونه على ظلم الناس بأسم الله، وبذلك يصبح هو: الحاكم، القاهر، الواهب، المانع، الجبار، المنتقم، المقتدر، الجليل، الملك، المهيمن، الركن، آخر الاسماء الحسنى التي تسمى بها واحد من اعتى طغاة الشرق في تاريخنا المعاصر، دون ان يجد في ذلك حرجا ولا غضاضة.[629]

أنواع الطغيان

يرى أرسطو أن الطغيان صورة من صور الحكم الفردي عندما يتحول الى حكم سيئ ينفرد فيه صاحبه بالسلطة دون حسيب ولا رقيب، فلا يكون هناك قانون يحكم بل إرادة الفرد، يعتقد أرسطو أن هناك اناسا مهيئين بطبيعتهم لأن يكونوا عبيدا، ذلك لأن التفرقة بين الأعلى والأدنى موجودة في الطبيعة وفي جميع الاشياء: بين النفس والبدن، فالنفس أعلى من البدن، وبالتالي كان من الطبيعي أن تسيطر عليه، وان توجهه.[630] وهناك ثلاثة أنواع من الطغاة تتدرج في السوء وهي:

النوع الاول: الدكتاتور الذي يختاره الشعب للقيام بمهام معينة، ولفترة محددة، على نحو ما حدث عند الاغريق في فترة مبكرة من تاريخهم.

---

(629) امام عبد الفتاح إمام، الطاغية، م، س، ذ، ص44

(630)المصدر السابق نفسه، ص110

النوع الثاني: النظام الملكي المطلق الموجود عند (البرابرة) على نحو ما هو موجود مثلا في الامبراطورية الفارسية، حيث نجد سلطة الملك مطلقة لا يقيدها عرف ولا قانون.

النوع الثالث: المشكل الثالث من الطغيان هو ما يفهم عادة من هذا المصطلح، وهو الذي يستحق فعلا هذا الاسم، فالحاكم يحكم حكما مطلقا بلا رقيب ولا حسيب ولا مسؤولية من أي نوع: انه السيد الاوحد الذي يحكم لمصلحته الشخصية، ولاهدافه الخاصة وحدها، ويقول ابن فارس (وكل مجاوز للحد في العصيان طاغ).[631]

فالطغيان الحكم الفردي الذي يتسلط فيه الطغيان بلا مسؤولية على مواطنين أنداد له، بل قد يفضلونه، ويتولى فيه السلطة لمصلحته الشخصية لا لمصلحة المحكومين، بل دون أن يهتم أدنى أهتمام بمصالحهم الشخصية، وهذا ما يجعله حكما بالإكراه، إذ لا يخضع أحد من الاحرار طوعا لهذا الحكم، ولما كان هذا حكما بالاكراه فإن الطاغية في هذا الضرب من الحكم يغتصب السلطة اغتصابا دون ان يكترث برضا المواطنين، أنه يصل الى الحكم بالقوة المسلحة أو بحد السيف.. الخ دون أن يستند إلى أي حق شرعي في توليها، كما يقول جون لوك معرفا الطغيان تعريفا يكاد يكون هو نفسه تعريف أرسطو: «إذا كان الاغتصاب هو ممارسة إنسان ما لسلطة ليست من حقه، فالطغيان ممارسة السلطة لا تستند إلى أي حق، ويستحيل أن تكون حقا لأنسان ما» إذ أن الطاغية يستخدم السلطة التي أنفرد بها لصالحه الخاص.[632] وعليه فالوسائل التي يلجأ إليها الطاغية للاحتفاظ بعرشه هي.

1 - غاية الطاغية، لكي يحتفظ بعرشه، هي تدمير روح المواطنين، وزرع الشك وانعدام الثقة فيما بينهم، وجعلهم عاجزين عن عمل شئ أو فعل أي شئ' كذلك تعويد الناس الخسة والوضاعة، والعيش بلا كرامة، بحيث يسهل عليهم أن يعتادوا الذل والهوان.

2 - القضاء على البارزين من الرجال، واصحاب العقول الناضجة، واستئصال كل من تفرق أو حاول أن يرفع رأسه، التي يصفها أفلاطون بأسم (طريقة التطهير).

---

(631) معجم اللغة ج2-583

(632) امام عبد الفتاح إمام، الطاغية، م، س، ذ، ص117

3 - منع الموائد المشتركة والاجتماعات والنوادي وحظر التعليم أو جعله لونا من الدعاية للحاكم، وحجب كل ما يعمل على تنوير النفوس أو كل ما يبث الشجاعة والثقة بالنفس.

4 - منع المواطنين من التجمع لأغراض ثقافية أو أي تجمع مماثل، واتخاذ كافة السبل التي تغرس في الأمر، الشعور بأنه غريب عن بلده، بقدر المستطاع.

5 - إجبار كل مقيم في المدينة أن يظهر للعيان بصفة مستمرة، وإكراهه بوجه عام الا يجاوز أبدا أبواب المدينة إلا إذا كان الطاغية استعباد المواطنين، وعن طريق الاستعباد المستمر يعتاد الناس الخسة والضعة والهوان، وهذا يعني إعطاء الطاغية ثقبا صغيرا ينظر منه ليرى أفعال مواطنيه حتى يعتادوا الهوان ويألفوا العبودية اليومية.

6 - ان يجتهد الطاغية حتى تكون لديه معلومات منتظمة حول كل ما يفعله رعاياه أو يقولونه، وهذا يعني أن تكون هناك شرطة سرية وجواسيس أو عيون يبثها في ارجاء البلاد على نحو ما كان الطاغية سيراقوصه يفعل عندما كان يستخدم جواسيس من النساء، أو المتنصتون الذين كان يبعث بهم هيرو(Hiero) الطاغية في كل المجتمعات والمحافل والمجالس العامة، لان الناس بهذه الطريقة كانوا يقللون من صراحتهم إذ ما تكلموا عن نظام الحكم، أو يكتمون آراءهم بداخلهم، لأنهم يخشون الجواسيس، ويهابون العيون والآذان المنتشرة حولهم، ذلك لأنهم إن تجاسروا وتحدثوا أنكشف أمرهم.

7 - يعتمد الطاغية على إغراء المواطنين ان يشي بعضهم بالبعض الآخر، فتنعدم الثقة بينهم، وبدب الخلاف بين الصديق وصديقه، وبين العوام وعلية القوم، وبين الاغنياء والفقراء، وهكذا فإن الطاغية يبذر الشقاق والنميمة، ويثير حقد الشعب على الطبقات العليا التي يجتهد ان يفرق بينها.

8 - هناك وسيلة اخرى للطاغية هي إفقار رعاياه حتى لا يكلفه حرسه شيئا من جهة، وحتى ينشغل المواطنون من جهة اخرى، بالبحث عن قوت يومهم، فلا يجدون من الوقت ما يتمكنون فيه من التآمر عليه.

9 - يلجأ الطاغية إلى إشعال الحروب، بهدف ان ينشغل المواطنون بصفة مستمرة، ولا ينفكون يحتاجون إلى قائد على الدوام، وهو ما تفعله وسائل الإعلام في إشعال الحروب الإعلامية بين الدول أو بين المجتمعات المختلفة أو بين تفاصيل مجتمع واحد، كما حدث لدول عربية وأجنبية.

الإعلام وصناعة روح الشعوب

سُئل الكاتب والصحافي الفرنسي جون دانيال، رئيس تحرير المجلة الفرنسية "نوفال ابسرفتور"، عن النصيحة التي يمكن أن يوجهها للشاب أو الفتاة التي تريد ان تكون صحفية، فكانت إجابته كالتالي: يجب عليه أن يتقن ثلاث لغات على الأقل، ويعرف موضوعا ما خير معرفة بحيث يكون الوحيد تقريبا الذي يدركه أفضل من غيره، ويختار، إن امتلك الحق في ذلك، شهر يوليو او أغسطس؛ أي فترة الصيف، للانطلاق في العمل الصحفي، ويواصل حديثه قائلا: منذ فترة قصيرة جاءتني فتاة تريد العمل بمجلتنا، فتاة جميلة، وذكية، ودودة، تشع حيوية ونشاطا، اخبرتني أنها مسكونة برغبة الذهاب إلى الشيلي، ويستطرد قائلا: فسألتها هل تعرفين بابلو نيرودا، فكان ردها بالنفي، ثم يردف: وغبريلا مسترال، ولا هذه أيضا. فيجيب عن سؤاله قائلا إن قبريهما في الشيلي متقاربان وقد نالا جائزة نوبل للأدب، فيقول جون دانيال. لقد ردت الفتاة علي قائلة: وما الفائدة من معرفتهما؟ فرد عليها قائلا. إن الأمر بسيط جدا، فروح الشعوب التي تبحثين عنها في الشيلي لم يصفها سوى الأدباء، فالأدب هو ربورتاج صحفي يذهب إلى أبعد من الربورتاج، فإذا اردت ان تكوني صحفية فيجب عليك قراءة ما يكتبه الأدباء، أعرف أن الكثير من الصحافيين لا يشاطرون هذا الرأي، ويشاركهم في ذلك عدد غير قليل من الذين يسعون، جاهدين، ليصبحوا صحافيين في المستقبل، إنهم يعتقدون أن السياسة هي الوجه الآخر للإعلام وليس الأدب، وعلى الصحافي أن يكون سياسيا قبل أن يكون صحافيا، ويذكر البستاني تحت مادة طاغية."ويقال طغى فلان أي أسرف في المعاصي والظلم، والطاغية: الجبار، والاحمق، والمتكبر، والصاعقة، والمراد به هنا من تولى حكما فأستبد وطغى، وتجاوز حدود الاستقامة والعدل، تنفيذا لمآربه فيمن

تناوله حكمه أو بلغت سلطته إليه..»[633] ووفق نظرية أفلاطون التي تقول «إذا ذاق المرء قطعة من لحم الإنسان تحول إلى ذئب» «ومن يقتل الناس ظلما وعدوانا، ويذق بلسان وفم دنسين دماء أهله ويشردهم ويقتلهم، فمن المحتم أن ينتهي به الامر إلى أن يصبح طاغية ويتحول إلى ذئب»[634]

والطغيان في كل الحالات يبدأ عند انتهاء سلطة القانون وانعدام الحريات، وكانت أفكار لوك الدعامة التي قامت عليها فلسفة التنوير التي ظهرت بفرنسا في القرن الثامن عشر ومن أهم رموزها مونتسكيو وفولتار وروسو، مما مهد الطريق إلى قيام الثورة الفرنسية التي أطاحت بالملوكية، وأقامت على أنقاضه الحكم الجمهوري، وأشعّت على كامل العالم الغربي مبادئ الحرية وحقوق الإنسان، وبذلك وقع اقتلاع جذور الطغيان في العالم الغربي مما مهد إلى ممارسة الديموقراطية على شكلها الحالي، وحتى في روسيا التي أسقطت طغيان القياصرة بقيام الثورة البلشفية وبروز طغيان آخر بها من نوع جديد في النظام الشمولي من النوع الستاليني تمكنت في الأخير من الإطاحة به والإلتحاق بركب التحرر على النمط الغربي، وبذلك يكون العالم العربي قد حقق ثورته الشعبية ضد الطغيان، كما إن أهم ما يشبه الطاغية قديما وحديثا هو رفضه للرأي المخالف، وكان بروز طغاة الإغريق في فترة الأزمات التي كانت دوما المبرر الذي يسوغون به طغيانهم: وهو نفس التبرير الذي يستعمل في عصرنا الحاضر لممارسة الديكتاتورية، من نوع حالة الطوارئ، أو إنقاذ البلاد، أو المحافظة على الأمن والاستقرار، أو للمصلحة العليا للوطن، ولكن حين يتولى الطاغية الحكم يوقع البلاد في أزمة أخطر وأشد من التي جاء لإنقاذنا منها.[635]

3 - فرض الرأي ومصادرة الحقوق والحريات:

الطغاة -على مرّ التاريخ- يفرضون آرائهم وأهوائهم على أقوامهم، ويجعلونها عليهم قوانين إلزامية، ويقسرونهم على قبولها والانقياد لها قسرا، ويصادرون حرّياتهم وحقوقهم المشروعة في الاختيار والقبول والرّفض؛ فعليهم ألا يعتقدوا ويعتنقوا إلا

(633) د.محمد ضياء الدين اريس، النظريات السياسية الإسلامية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ص7
(634) افلاطون: الجمهورية 466
(635) خالد رمضان أحمد، الطغاة والطغيان في القرآن الكريم، م، س، د.

ما يعتقد ويعتنق، ومن سوّلت له نفسه أن يخالف أو يرفض يستخدمون معه أبشع أساليب القمع والتنكيل، والعجيب أنهم يصورون أنفسهم كأنهم أصحاب الحق وأن غيرهم مفسد في الأرض، وقد صنع طغيان البيئة الاتصالية عن طريق التلاعب بمصائر الناس ومستقبلهم والاستحواذ على آرائهم واهوائهم، وفسرهم على خطاب فوضوي غير متوازن وغير بناء، ويصدر ضمن منطق الطغاة كما قال فرعون لقومه ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

4 - العبودية والاضطهاد:

المستبد يمارس قهره واضطهاده للشعب عن طريق القوانين التي يوظفها في خدمته، أو عن طريق الأساطير والحجج الدينية الكاذبة التي تشرعن له ذلك، بينما الطاغية يمارس ذلك دون الحاجة لنصوص تدعمه وغالباً ما يستخدم القوة المتطرفة على مواطنيه، وأحيانا يقوم بخلق نظام قانوني جديد يتماشى مع ظلمه وطغيانه، ولذلك فإن الطغيان يظلُ أشدُ خطراً وأكثر بؤساً على الشعوب من الاستبداد، والبيئة الاتصالية الجديدة المتمحورة أثر التطورات التقنية والميديا الفاعلة، التي تستخدم الاساطير والحجج واساليب الكذب والخداع لإقناع المتلقي بخطابها الإعلامي الذي يحتمل الغائية والقصدية معا يتماشى مع مشاريعها ومصالحها المرتبطة بالسلطة والمال اللذان يحكمها العبودية والاضطهاد لذلك تلقي بضلالهما على التناول الإعلامي وبث الرسائل الإعلامية القصدية.

الفصل السابع

التضليل في وسائل الإعلام

التضليل في وسائل الإعلام

أنتقد الصحفي الشهير بوب ودورد رئيس تحرير صحيفة واشنطن بوست في كتابه (حرب بوش) و(خطة الهجوم) بوش وحكومته، وقال: إنها تعمدت عدم كشف الحقيقة الكاملة للوضع في العراق للشعب الامريكي، وان التورط الامريكي في العراق يعيد إلى الاذهان هزيمة امريكا في فيتنام، فالبشرية لم تعرف حربا بلغ فيها تشويه الإعلام وتزويره مثل الحد الذي بلغه في الحرب على العراق، إذ وقع العبث بالرأي العام في كل مكان وانتهكت حقوق الانسان، رغم ان الولايات المتحدة دائما ما تطالب بنزع اسلحة الدمار الشامل من المنطقة، وادعت ان اسباب حرب العراق هي نتيجة امتلاكها اسلحة الدمار الشامل فإنها لم تتورع في ضربها بأشد واعنف الاسلحة فتكا وتدميرا، إذ كانت تستهدف بصفة خاصة المدنيين وهذه هو قمة الازدواجية والكيل بمكيالين، إذ نتج عن هذه الحروب اساليب إعلامية تتناقض تماما واخلاقيات المهنة الإعلامية حيث حل محلها الكذب والتزوير والتضليل، واطلق على حرب العراق (حرب الكذابين) نتيجة الكذب دول التحالف المعادي للعراق، حيث كان الكذب هو سيد الموقف فيها في جميع المستويات السياسية والعسكرية والاعلامية.[636] لذلك فأن الحروب الحقيقية ليست هذه التي تخاض أمامك على الشاشات، إنما تلك التي لا يسمح لك بأن تراها! وفي هذا الصدد يقول تولستوي لمحمد عبده: «واعتقادي أنه كلما امتلأت الأديان بالمعتقدات والأوامر والنواهي والمعجزات والخرافات تفشى أثرها في إيقاع الفرقة بين الناس، ومشت بينهم تبذر بذور العداوة والبغضاء، وبالعكس كلما نزعت إلى البساطة وخلصت من الشوائب اقتربت من الهدف المثالي الذي تسعى الإنسانية إليه، وهو اتحاد الناس جميعًا».

وقد كتب المخرج الياباني أكيرا كورو ساوا في مستهل سيرته: خلال سنوات الحرب ومع إزدياد حالات الحروق، أعتقد أو سمع الناس أن أفضل مرهم للحروق هو عرق الضفدع وكان يتم الحصول عليه بوضع ضفدع في صندوق كل جدرانه من

---

(636) سامية ابونصر، الاعلام والعمليات النفسية في ظل الحروب المعاصرة واستراتيجية المواجهة، دار النشر للجامعات، سور الازبكية، القاهرة، 2010، ص128

المرايا، فما أن يرى الضفدع صورته من كل جانب حتى يصاب بالرعب فيفرز مادة دهنية، يجري كشطها عن المرايا وإستخدامها في المرهم المنشود، وهو ما تم تطبيقه في الإعلام فيما بعد، وخاصة ما يتعلق بالبرامج الحوارية، أو ما يحدث من نقاش داخل الميديا الجديدة، وتأخذ الحماسة بعض الإعلاميين العاملين في القنوات التلفزيونية، فتتحول البرامج الحوارية التي يشرفون عليها إلى مناسبة لاستعراض آرائهم وانطباعاتهم الشخصية، بدل الاكتفاء بإدارة الحوار وطرح الأسئلة واستيضاح الأفكار والمعلومات من لدن الضيوف، وتكون المناسبات الرسمية فرصة لأولئك الإعلاميين للمنافسة في إظهار التماهي مع الخطاب الرسمي والدفاع عنه، وعدم استحضار المسافة النقدية الضرورية التي يقتضيها مبدأ الحياد والموضوعية، وبما أن الإعلام هو أداة من أدوات نقل المعرفة وتوصيلها، فقد ظلّ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية أشبه "بالمرآة" التي تتحول من كيان جامد بلا قيمة إلى أداة فعل وحركة إذا توفر لها ما تعكسه من فعل وحركة وضوء، ولكنها تبقى في المحصلة النهائية "مرآة" كاشفة وصادقة يظل "القرد" أمامها "قردًا" مهما كانت الرتوش، ويبدو "القمر" "قمراً" وإن أحاطت به هالة من السحب، لكن الثورة الهائلة في علم "الإتصالات" وأدواته منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أضافت أضافات مركبة ومعقدة للغاية لهذا التعريف، فغدت "المرآة" البسيطة تقنية عالية وعالماً من التكنولوجيا المعقدة وإستثمارات مالية هائلة، ومهارات حرفية متميزة، ومراكز قوى طاغية، وضاعت بساطة الأداة "المرآة" لتحل محلها أدوات جديدة تملكها حضارة الغرب الصناعي المتقدم، وتحسن إستخدامها وتتحكم فيها، فأختلطت الألوان وتعقدت زوايا إنكسار الضوء، وصار بالإمكان أن يبدو الذئب "حملاً" والقرد "غزالاً" والحق "باطلاً" والباطل "حقًا"، وبسقوط الحواجز أمام تكنولوجيا نقل الكلمة والصورة والصوت، صارت السيادة الإعلامية للأقوياء، ووجدنا أنفسنا في العالم العربي خاصة، والعالم الثالث عامة لا نملك إلا التأثير المحدود ضمن حدود أقطارنا المجزئة ذاتها ولا نملك من أدوات هذا التأثير خارج أقطارنا، إلا في الحدود الضيقة للغاية ولعلّ من أهم ما كشفت عنه حرب الخليج، أن الإعلام العصري، بكل ما تجمّع لديه من وسائل الإنتشار السريع، صار أخطر من أحدث أسلحة القتال بما فيها أسلحة الدمار الشامل.[637]

(637) للتفصيل أنظر، مصطفى الدباغ، الخداع في حرب الخليج، 1992

تغول المال في صناعة التضليل

بمتابعة بسيطة للشريط الإخباري وقراءة عناوين الأخبار سيجد المتلقي ان بلده يتجه إلى الدمار وهو أمر فيه من المبالغة والترويع للمتلقي، وأيضا بقراءة مثلها للصحف المقروءة سنجد نفس التوجه ونفس القلق، ومثلهما حين تتابع الإذاعات المسموعة لتستمع إلى نشرة إخبارية أو برامج حوارية تفتقر إلى الدقة والموضوعية والحياد، وتنحدر إلى مهاوي تجعل المستمع متوترا وخائفا وقلقا، وما إن يتحول الفرد منا إلى الشبكة العنكبوتية يجد نفسه منقاداً بحكم الفضول إلى قراءة ومتابعة صفحات ملغومة بالكثير من الأخبار والتصريحات التي تصفها المواقع الألكترونية بتوصيفات تتلاءم مع ولاءات القائمين عليها، بإهدار القيم المهنية بما يتمخض عنه حشد المزيد من مشاهد الرعب، ومن تشويه وتلوين وحذف وإضافة، وإثارة الفزع بين الناس أو إلحاق الضرر بالمصلحة العامة، إذ إن تدفق وسائل الإعلام وتنوع مصادرها وغاياتها، هي مناسبة دائمة لبناء عناصر واضحة للتفاعل الإنساني من أجل تقريب الثقافات، وإشاعة التفاهم، وبالتالي تدعيم النزوع الإنساني نحو السلام وتجنب النزاعات، وبشكل خاص تلك الصراعات القائمة على مبدأ إلغاء حرية الآخر، وحق الآخر في الحياة على الطريقة التي يرغبها ويسعى نحوها، أصبحت تتعرض الى تهديد من نوع آخر إذ أنها تنقل لنا عالم الواقع الافتراضي، فالواقع الحقيقي لم يعد موجودا، بل أستعيض عنه بما نشاهده على شاشة التلفزيون من مشاهد وصور وأحاديث وتعليقات، وهي في الواقع معبرة عن إختلاط أنماط السلوك البشري من جهة، والصورة الإعلامية من جهة أخرى.[638]

وقامت وسائل الإعلام -خلافًا لما تنادي به نظرية المسؤولية الاجتماعية للإعلام- بتجسيد وتكريس التحزُّب والتشرذم والاستقطاب السياسي؛ مستخدمة كافَّة الأساليب والممارسات غير الأخلاقية، وانتهاك خصوصيات الأفراد وصعوبة الضبط الأخلاقي لها؛ حيث حشد كلُّ فريق، وكلُّ جماعة أسلحته وكتائبه الإلكترونية في إطار من الانقسام والاستقطاب والتحيُّز والتخوين والرؤية الأحادية؛ بل وصل الأمر إلى حدِّ التكفير، وغاب الحوار العقلاني والهادئ والمنطقي، وأصبح كل فريق

(638) مأمون فندي، حروب كلامية، ترجمة تانيا ناجية، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2008، ص107

يُدافع ويهاجم بضراوة في ظلّ غياب وتغييب العقل والمصلحة العامة لحساب العاطفة والمصلحة الخاصة، إذ غدا التحيز أحدى طرق وسائل الإعلام في تضليل الجمهور، ولكن هذا التحيز يختلف بأختلاف المصدر الناقل للرسالة الإعلامية، والوسيلة الناقلة لهذه الرسالة، وطبيعة الجمهور المستهدف، وأدخلت فنون مختلفة لتمويه هذه العملية، لتجعلها غير مكشوفة الى حد ما خاصة للجمهور العادي، وذلك بإضافة بعض الحقيقة لها، ووضعها في أطر مختلفة لجعلها أكثر مقبولية، واصبح الحكم على وسائل الاعلام ينبع من نظم الملكية والتوجه الذي تعمل عن طريقه الوسيلة الإعلامية وخصائصها، ولم تأخذ هذه الخاصية المهمة والخطرة الإهتمام اللازم في عالمنا العربي، وأصبحت وسائل الإعلام الدوليه اليوم من أهم مصادر الحصول على المعلومات حول القضايا والاحداث الجارية، إذ جذبت بتقنياتها المختلفة جمهورا كبيرا من المتابعين، وزادت من وضوح وفهم النص عن طريق وسائل الإيضاح الالكترونية ورسوم الانفوغرافيك وأستخدام تكنولوجيا الاقمار الصناعية للربط بين أطراف الحدث في الوقت نفسه، ولكن هذه التقنيات قد تشكل خطرا عندما تستعمل لتعزيز وجهة نظر معينة، وتقديم الرأي الذي يتناسب وسياسيتها الإعلامية ورغبة ملاكها فقط، مما يؤثر في معرفة الجمهور بالأحداث بشكل صحيح، في حين تستخدم وسائل إعلام أخرى تقنيات الاتصال لتقديم وجهات نظر متعددة بإستضافة الخبراء والمعنيين، وعرض جوانب عديدة للحدث وليس طرحه من جانب واحد، مما يزيد من فهم الحدث ووضوحه.

ويعد التضليل الإعلامي احد وسائل الدعاية والحرب النفسية ضمن الحرب الإعلامية، ولا تقاس تسمية الحرب بمقاييس الحرب العسكرية لأنها أحيانا تحقق مكاسب كبيرة قياسا بحرب المدافع، أي الشروع باستخدام أدوات الصراع المسلح بل هي تسبقه في ميدان الصراع السياسي وأحيانا تكسب الحرب قبل بدئها، وتمتاز بنشر وبث المعلومات والأفكار المغلوطة عن عمد وعن سابق تصور وتصميم لخلق واقع مزيف ومغلوط توجه اليه الرأي العام لكسب تأييده، التضليل الإعلامي هو أقوى أسلحة الحرب الإعلامية، ويعد أيضا احد المرتكزات الأساسية للإستراتيجية السياسية الشاملة، هناك عدة تعريفات للتضليل الإعلامي ومنها:[639]

(639) وليد شيط: إمبراطورية المحافظين الجدد- التضليل الإعلامي وحرب العراق- دار الساقي- بيروت -لبنان- الطبعة الأولى 2005- م . ص113-124

1 - خلق واقع مزيف ومغلوط ومقنع بما فيه الكفاية وذلك بهدف إيقاع الخصم في الخطأ بينما هو يفكر بشكل صحيح.

2 - شكل من أشكال العدوان ونشاط تخريبي سيكولوجيا وحرب الكلام والأفكار والمفاهيم وسلاح العصر السري.

3 - الاستعانة بنظريات التأثير الإعلامي: من خلال مداخل عديدة من أهمها: مدخل الرصاصة السحرية (الحقنة تحت الجلد)، ومدخل ترتيب الأولويات (ترتيب الأجندة)، ومدخل دوامة الصمت (لولب الصمت)، ومدخل حارس البوابة، ومدخل تدفق المعلومات على مرحلتين، ومدخل انتشار المبتكرات، ومدخل الإنماء الثقافي (الغرس الثقافي)، ومدخل تحليل الإطار، ومدخل التطعيم أو التقليح، ومدخل المعالجة المعلوماتية (تمثيل المعلومات).

4 - التسويق للصدامات: من خلال خيوط الإعلام والمعلومات والدعاية التي تتداخل مع الحرب النفسية في زمن الحرب، وبأي شكل من اشكال الصدام حربا كانت ام أزمة من خلال تسويقها إعلاميا، فلم تعد حرباً او عقدةً او حدثاً من الوزن الثقيل، دون موسيقى الرعب النفسي، التي يروج لها وجرعات الصور والتصريحات والافلام، التي تمجد هذا وتهوي بذاك.

5 - الاستعانة بمشاهد الدم والاشتباك المسلح او ملامح الازمات والكوارث، ليجد المتلقي نفسه أمام سيل من الأخبار والمعلومات والقصص، المحشوة بالتناقضات والخيال والبطولات، من قبيل المعلومات والإحصائيات والمعطيات.

6 - فاعلية الطقس والتصدير الرمزي والتسويق المُسرع (كالماكنات) ماهو الا (معامل للتغيير او كسب الاتجاهات او تحيدها) فالحرب النفسية عبر آلياتها وتسمياتها المختلفة سواءً اكانت تسمى (إعلاماً، ام دعاية، ام غسيل دماغ، ام رفع معنويات، ام حرب العقائد ...الخ من التسميات المختلفة).

7 - تفعيل دور المجهودات المقصودة والمخططة (افتراضاً) تفرض نفسها على منطق الموضوعية والحياد، ويصبح كل طرف له يد في التضليل، يعمل جاهداً لكشف وصناعة ما يخدمه، ويخدم قوته وتفوقه في المواجهة، من أجل الاحاطة بكل ما يسرع من وتيرة قلق المتلقي وعنفوان تزاحمه على الحياة.

أساليب التضليل الإعلامي

تُعَدّ الوسائل التي يتضمنها هذا التقسيم، من أقدم الوسائل وأكثرها استخداماً خلال مراحل الأزمات ومراحل الصراع، مع تغطيتها لمساحات شاسعة كما يمكن الاستفادة من تعدد أنواع المطبوعات (نشرات ـ صحف ـ رسوم ـ صور ـ كتب ـ قصص ـ لافتات... الخ)، إلاّ أن المنشورات لا تزال تمثل حجر الأساس، وأكثر هذه الأنواع من الوسائل استخداماً في حملات التضليل، خاصة قبيل بدء الصراع المسلح، ومن الوسائل المستخدمة، القنوات الفضائية والإذاعات، البرامج، اللقاءات، الندوات، الدوريات، الفيلم السينمائي، المسلسل التلفزيوني، الأغنية، الدعاية السياسية والتجارية، الكتاب، الرسالة، الخبر، الجريدة، المجلة، الكاريكاتير وبقية المطبوعات، فيديوات ومشاهد منقولة او مبتكرة تبث عبر مواقع التواصل الاجتماعي وخاصة في اليوتيوب، وأية وسيلة أخرى يمكن إن يلجأ إليها العقل البشري للتأثير على غيره، من خلال إقناعه وبلبلته وتظليله، إخضاعه والهيمنة على فكره، هدم شخصيته، تحطيم معنوياته، شل قدراته وجعله تابعا له بشكل أو بأخر، وقليلا ما يصرخ الإعلام هنا أو يرفع صوته بل العكس يظهر التكلم بهدوء كلام مثير وأخاذ يتحلى بمظهر جميل شكل لائق فيه تسلية متعة فيه الفائدة يستخدم كل من شانه إن يخدم أغراضه السياسية والإعلامية، الفن، الثقافة، العلم، التربية، الخبر، وسائل الاتصال والإبلاغ، النكتة فالغاية هو التضليل. وتستخدم وسائل الإعلام التضليل بشكل واسع ولن تستثني أية وسيلة لتحقيق الأهداف السياسية الإعلامية، ويدخل التضليل ضمن الإطار الواسع للحرب الإعلامية، وتستخدم وسائل الإعلام المتاحة المعلنة والسرية ووسائل الاتصال للتأثير، وإيصال الخبر والمواد الإعلامية المضللة إلى المتلقي، وتستخدم أساليب التضليل الإعلامي كالأتي:[640]

1 - **الكذب والخداع** تمارسه وسائل الإعلام التقليدية ورسخته وسائل الإعلام الجديدة وخاصة مو قع التواصل الاجتماعي، وعن مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية وغيرها.

(640) وليد شميط. إمبراطورية المُحافظين الجُدد- التضليل الإعلامي وحرب العراق، م. س، ذ. ص124

2 - **الشائعات والتشويش**: إطلاق الشائعات والتشويش على الموضوعات المختلفة تربك المتلقي فيصاب بالفوضى مما يضلل مسار حياته بالعجز واليأس.

3 - **إخفاء الحقائق والمعلومات**: التضليل يخفي المعلومات والحقائق عن المتلقي مما يجعله لا يملك معومة حقيقية يستطيع من خلالها ان يمسك بعصا الامن والامان والتعايش السلمي.

4 - **اختلاق وقائع ممسرحة**: تبتكر وسائل الإعلام الكثير من المشكلات بل واختلاقها وتجسيدها لتضليل المتلقي بما يجعله يتلقى وقائع غير حقيقية او لا تقترب من الحقيقة بمكان وكأنها وقائع ممسرحة.

5 - **إغراق وسائل الإعلام الجديدة بأكثر الأخبار تناقضا بحيث تفقد أي معنى** عند استعمالها، إذا يضيع المشاهد أو القارئ في غابة من الإشارات والعلامات والمؤشرات التي تلغي بعضها البعض، بفعل الإفراط في ضخ المعلومات والأخبار وبفعل فوضى المعلومات والأخبار.

6 - **خرق الخصوصية وانتهاكها**: إذ سعت وسائل الإعلام الجديدة للدخول عنوة في خصوصية الناس وحياتها، وخاصة المشاهير.

وتلجأ المؤسسات المستقلة الى الاقتصاص من بعض وسائل الإعلام بسبب التضليل الذي تمارسه تجاه قضية ما، فقد غرمت المؤسسة المستقلة، التي تنظم العمل التلفزيوني في بريطانيا قناة «العربية» بـ 120 الف دولار لخرقها خصوصية المعارض حسن مشيمع (70 عاما) الذي تعرض لتعذيب، عندما بثت لقطات حصلت عليها أثناء احتجازه التعسفي في البحرين، ونقلت صحيفة "بلفاست تلغراف" عن هيئة معايير البث التلفزيوني البريطانية المعروفة باسم "أوفكوم" قولها إن تقرير "العربية" مضلل، وكانت «العربية» بثت في 27 شباط , فبراير 2016 لقطة عن التظاهرات المؤيدة للديمقراطية في البحرين عام 2011، وتضمنت لقطة تظهر مقابلة مع مشيمع، وقال مقدم البرنامج أثناء المقابلة إن مشيمع جزء من خلية متهمة بمحاولة قلب نظام الحكم الملكي في البحرين، إلا أن مشيمع أكد أن المقابلة تمت معه تحت التعذيب، وهو الأمر الذي أيدته «أوفكوم» وتعد منظمة العفو الدولية (أمنستي إنترناشونال) مشيمع سجين رأي، وهو أحد مؤسسي جماعة «الوفاق» المعارضة، واعتقل في عام 2011

أثناء التظاهرات الداعية للديمقراطية، وحكمت عليه محكمة عسكرية بالسجن المؤبد، لاتهامه بالدعوة إلى إقامة جمهورية في البحرين بدلا من الملكية، ويقول مشيمع أنه أجبر على الاعتراف بأنه دعا إلى تحويل البحرين إلى «جمهورية إسلامية على الطريقة الإيرانية»، وقال إن المقابلة تمت بالإكراه بعدما تعرض للتعذيب، وكان متحدثا باسم «أوفكوم»، قال في تصريحات لموقع «ميدل ايست آي»: «قبلنا الشكاوى ضد قناة العربية الإخبارية، وذلك لنشرها بيانات غير عادلة، ولأنها قامت بخرق لا داعي له للخصوصية، وتعد هذه خروقات خطيرة، تجعلنا نفكر بفرض عقوبة» وقدم الشكوى المنظمة الأمريكية للديمقراطية وحقوق الإنسان في البحرين ويقول الموقع، بحسب تقرير نشرته مفوضية التحقيق البحرينية المستقلة، أن المقابلة التي جرت في السجن، إما عام 2011 أو 2012، جاءت عقب اعتقال مشيمع، عندما تعرض للتعذيب، مشيرا إلى أن التقرير البحريني حظي بدعم من الأمم المتحدة، وقدم تفاصيل عن التعذيب: ضرب مباشر على الجسد، وحرمان من النوم، وغمر السجين بالماء البارد، والتهديد لعائلته، ويورد الموقع أن «أوفكوم» قالت إن التقرير، الذي نشرته «العربية»، أظهر أعتراف السجين وكأنه طوعي، ولهذا أعتبر خرقا للحقوق الشخصية لمشيمع، ووجدت «أوفكوم» أيضا أن «العربية» لم توضح أن المشيمع تمسك دائما ببراءته، وهناك وثائق موثقة ضد السلطات البحرينية واستخدامها التعذيب، لافتا إلى أنه بالإضافة إلى هذا، فإن «العربية» فشلت بمنح مشيمع فرصة للرد بحرية على المزاعم ضده.

ويشير الموقع إلى أن المشيمع، وهو يعالج من سرطان، ومعتقل في السجن البحريني سيئ السمعة «جاو»، الذي يتعرض فيه السجناء للتعذيب والحرمان التعسفي من تناول الدواء، بحسب منظمات حقوق الإنسان، ويورد الموقع نقلا عن ناشطين حقوقيين، قولهم إن المشيمع لم يتلق العناية الصحية المناسبة، ولأكثر من ثمانية أشهر، وقال نجله علي في بيان، إن البرنامج على القناة كان مثيرا لقلق للعائلة كلها، وأضاف «لم يكن هناك شيء أكثر إيلاما لقلبي من اكتشاف تعرض والدي للتعذيب أثناء سجنه، وأظهر برنامج (العربية) الصارخ والدي وهو في وضعه الأضعف، ما سبب القلق للعائلة كلها»، وجاء في البيان «انحرفت قناة العربية عن

الأخلاقية الصحافية، وسمحت لنفسها بأن تكون أداة إعلامية لتبييض وجه الجلادين وتشويه صورة الناشطين»، وقال علي المشيمع، الذي يتواصل مع والده من خلال الهاتف، إن والده وصف الفيديو بالعمل السياسي، ويذكر التقرير أن البحرين نفت بشكل متكرر التعذيب والانتقام السياسي، منوها إلى أن قناة «العربية» قالت في دفاعها عن نفسها إن اللقاء تم في عام 2012، وقام به صحافي غير متفرغ، حصل على إذن من السلطات البحرينية لمقابلة المشيمع، وأضافت أن إشارة المفوضية البحرينية المستقلة إلى تعرض المعارض السياسي للتعذيب مرتبطة بأحداث عام 2011، ولا علاقة لها بعام 2012، ويذكر ميرل أن «أوفكوم» رفضت دفاع القناة، ووجدت أنه «بناء على طبيعة الأحداث المعروفة وأهميتها، فإن موقف (أوفكوم) هو أن قناة «العربية» كانت واعية، بتاريخ البث، وأن التصريحات التي صدرت عن المشيمع في لقطات الفيلم بداية عام 2012 ربما لم تقدم رأيه في الأحداث بطريقة دقيقة»، ويقول حسين عبدالله، مدير المنظمة الأمريكية للديمقراطية وحقوق الإنسان في البحرين، وهي الجهة التي تمثل حسن المشيمع في الشكوى، انه «في الوقت الذي يتعرض فيه سجناء الرأي للتعذيب في البحرين يوميا، فإن قناة العربية قامت بتقديم رواية زائفة تربط النشاط الشرعي المؤيد للديمقراطية بالإرهاب، وحتى الان، نرحب بقرار «أوفكوم» الحكيم في هذه القضية، ونتوقع حكما يتناسب مع الانتهاكات التي اقترفتها قناة «العربية».

اختراع الالفاظ الكبيرة للهو

يقول الرافعي: أصبح الشعب «تخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها» فعلى مستوى الإعلام العربي تتحمل وسائل الإعلام جميعاً مسؤولية المشاركة في تشويه الواقع وانتهاك حقوق الناس، حيث لا يحتوي مضمونها في الغالب على ما يحتاجه الجمهور أو على ما يمكن أن يساعد في تكوين شخصية الإنسان الواعي بمشكلاته وقضاياه أو قضايا وطنه إلا في حالات إستثنائية ترى قيادة النظم الإتصالية أن من مصلحة النظام إطلاع المواطن عليها أو حثه على المشاركة فيها، وثمة تجاهل أو عدم إهتمام بالإحتياجات لفئات كثيرة من المواطنين، فهناك تهميش للقضايا والمشكلات الحيوية وإنغماس في القضايا التافهة لتحويل الإنتباه وتغييب الوعي، وهناك أيضاً الإسراف

المبالغ فيه في الإهتمام بالرياضة وخاصة كرة القدم، فنظم الإتصال العربية لإعتبارات شتى لا تستجيب على نحو سليم لإحتياجات شعوبها، وهي إن إستجابت الإستجابة السليمة فأنها لا تعبر عنها بالأسلوب السليم، وكنتيجة منطقية يتجه الجمهور الواعي أو شبه المثقف إلى وسائل الإتصال الخارجية للحصول على المعلومات التي يحتاجها، ومصادر هذه المعلومات معروفة: صوت امريكا، هيئة الإذاعة البريطانية، إذاعة مونت كارلو، صوت اسرائيل، لكن تأثر الرأي العام بالتضليل الإعلامي لن يدوم تحت ذريعة حماية الأمن القومي، فأستمرار حجب المعلومة يجعل الرأي العام مستقبلاً يفيق ويبدأ بالبحث عن الحقيقة والوسيلة التي تنقلها، وهو ما أشار إليه الصحفي والكاتب البريطاني المعروف روبرت فيسك (Robert Fisk) بقوله إنه: "عندما تكون هناك حكومات كثيرة تمارس الكذب، فأعتقد أن الناس يحتاجون إلى صحفيين يقولون الحقيقة كما يرونها" لكن وفي كل الأحوال فإنه ينبغي أن تكون مهمة الوسيلة الإعلامية البحث عن الحقيقة وقولها وهذا ما أشار إليه وعززه جريج دايك (Greg Dyke) مدير عام قناة بي بي سي أثناء حرب العراق عندما قال: "أن تقول للناس ما يريدون سماعه فلن تكون قدمت لهم خدمة، وربما لا يكون الوضع مريحاً القيام بتحدي الحكومات أو حتى الرأي العام، لكن هذا هو الذي علينا القيام به، وهذه الشظايا الأولى التي تطلقها وسائل الإعلام توضيحاً وإبرازاً للقضية تتضمن بدورها أربع عمليات رئيسة ومتداخلة هي:[641]

1 - مرحلة التضخيم أو التشويه (Exaggeration and Distortion): وهي المرحلة التي تعنى بمعايير تضمن الأخبار وحذفها من أجندة إهتمامات وسائل الإعلام، مثلما هو الحال بالنسبة للأرقام التي سوف تذكر ويتم التركيز عليها وتلك التي سوف تحذف، وحجم الآثار أو الخسائر المترتبة على حدث ما، والعبارات والصيغ التي سوف يتم إستخدامها في النص الخبري وهكذا.

2 مرحلة التنبؤ والتوقع (Prediction). تفترض هذه الوسائل في هذه المرحلة إن الأزمة قد لا تنتهي قريباً، وإنها سوف تحدث جدلاً، وعلى هذا الأساس تنتج

(641) د.الاميرة سماح فرج عبد الفتاح، الإعلام وتشكيل الاحساس بالخطر الجمعي، م.س، ذ، ص122-123

التقارير الإخبارية المختلفة بمنطق "سوف نكون مستعدين للمرة القادمة" أو بمنطق "كان علينا أن نكون أكثر إستعدادا، فلقد تعرضنا لذلك مسبقا"، وتستخدم وسائل الإعلام في هذا الصدد عبارات قد لا تبدو ذات دلالة للوهلة الأولى، ولكنها تغرس في ذهن المشاهد أو القارئ إحساساً بأنه عرضة ومجتمعه للأزمات في أي وقت.

3 **مرحلة الترميز(Symbolization)**: في هذه المرحلة فإن وسائل الإعلام تعتمد على أسلوب التكويد أو الترميز في معظم معالجتها للقصص الإخبارية المختلفة، حيث لا تستخدم الكلمات أو الصور بشكل محايد، وانما تجعلها محملة بمجموعة من الأحاسيس والعواطف والشحنات النفسية التي تدفع الجمهور الى تبني موقف ما تجاه الظاهرة أو الأزمة المعروضة، ثم تدعم-وربما بشكل لا إرادي- إتجاه الجمهور نحو تكوين الصور النمطية الجاهزة عن جماعة أو فئة مجتمعية أو سلوكيات ما.

4 - **مرحلة رد الفعل المجتمعي(Societal Reaction)** هذه المرحلة تعنى تحديداً بالكيفية التي يتم بها تنظيم وتلميع وابراز هذه المشكلات في صورة آراء وتوجهات أكثر تنظيماً ودلالة، كأنظمة المعتقدات العامة لدى الأفراد الذي تنقله وسائل الإعلام وتشكله وفقاً لمواقف الأفراد المسبقة وخبراتهم الماضية.

أن الضوابط المهنية والأخلاقية تضعف كثيرا في الفضائيات والمواقع الإلكترونية التي تستفيد من انتشار الهواتف الذكية بين أيدي المواطنين لتنقل عن وسائل التواصل الاجتماعي ما لا يجوز نقله، بلا تدقيق ولا احترام لحقوق الملكية الفكرية، لكنها في النهاية تعكس ثقافة شائعة في مجتمعاتنا لا تحترم عين المشاهد، وترى أن عرض صور جثث على الشاشات أو في المواقع أمر طبيعي، وهو جزء من وظيفة الصحافة، لأنها احد اهم التقنيات المستخدمة لإخفاء المعلومات بمكر وخداع مثل التضمين بالإخفاء) هي ليست بجديدة، فالتضمين بطريقة الـ"صورة- خلفية" هو كالتالي: عندما تنظر الى إعلام ما، فإن ما تراه يدعى صورة، وتلك الصورة تكون دائما على خلفية، فعندما يكون تفكيرك منشغلا بالصورة، يدخل في مخيلتك وعقلك الباطن –وبشكل لا شعوري- ما هو محيط بتلك الصورة، أي خلفية الصورة، وهذه

التقنية مستخدمة -بشكل كبير- في وسائل الاعلام، إذ ان فن التضمين بالاخفاء يتعلق بالمهارات والتقنية والفهم للإدراك الحسي البشري ولسلوك البشر في ترتيب المعلومات، بحيث ما يتم رؤيته بوضوح هو ما يسمى الصورة، والصورة مهمتها ان تكون كالمصيدة، لتوصيل «الرسالة الحقيقية، والتي من الممكن ان تكون مخبأة ضمن الخلفية الخلفية قد تكون اوراق شجر وازهار ومناظر طبيعية وانعكاسات من قوارير ومكعبات من الثلج ورموز... الخ) بالرغم من انها ليست مدركة بوضوح، الا انها ستكون واضحة-تماما- في عقلنا الباطن، وسيتم تسجيلها هناك بكل تأكيد، فإذا كانت الوسيلة المراد ايصالها هي الخلفية، فسنكون عند ذلك الصورة هي المخ، لذا، وجب على المتلقي ان يكون حريصا! وخصوصا عندما تعلم ان ما تدركه بشكل لا شعوري أقوى وأكثر رسوخا في الدماغ مما تدركه شعوريا.[642]

وتتحدد القوة الكامنة لوسائل الإعلام القادرة على التضليل والتوجيه والتأثير والسيطرة على السلوك، فيم تفاصيل الخطاب الإعلامي المؤدلج، وفي تعليق كان بعضهم يشعر بأنه ينتمي الى ملف عنوانه «نكات تكشف معاني أعمق» قال الرئيس بوش الابن في سعيه لغزو العراق: «اتعرف، في مجال عملي، عليك ان تكرر الاشياء مرة بعد مرة بعد مرة حتى تستقر، وفي هذا دعم لما نطلقه من دعاية» دعاية ضد العراق بانه يمتلك اسلحة الدمار الشامل لأجل غزوه، كان بوش كالعادة يتلاعب بالالفاظ فيما يقول، ومن المؤكد ان براعة الرئيس الدقيقة المتسقة في حد ذاتها دليل على أنه كان يعرف تماما أنه يوقل كذبة بارعة وخطرة، ويدور بوضوح حول الحقيقة مرة تلو الأخرى، كما لو كان قد تدرب على كيفية تفادي مواجهتها.[643] فيما يقول هتلر في كتابه «كفاحي»: الإعلام يستطيع أن يبني دولة أو يهدم دولة، لذلك تعد آلية العمليات النفسية واحدة من اهم الآليات التي تستخدمها الدول حاليا في إدارة الحروب الحديثة، وتعتمد العمليات النفسية على وجود مجموعة من الخبراء والمحللين والمعلومات النفسية، فضلا عن الاقتصاديين والاجتماعيين والعسكريين بهدف وضع استراتيجية وخطة كاملة على المديين القصير والطويل، وذلك من اجل إعداد

(642) ويلسون براين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، م، س/ ذ، ص19-20

(643) آل جور، هجوم على العقل، ترجمة نشوى ماهر كرم الله، دار العبيكان، ابوظبي الامارات العربية المتحدة، 2009، ص164

البيانات والمعلومات التي ينبغي توصيلها إلى هدف بعينه من اجل السيطرة على افكاره واتجاهاته، ومن ثم توجيه سلوكياته وتحركاته في الاتجاه الذي يخدم مصالح الدولة سواء في السلم او في الحرب، وفي هذا الإطار نؤكد على العلاقة الوثيقة بين الإعلام والعمليات النفسية التي يعد في احد مراحل العمليات النفسية مرادفا لها.

ومن هنا فأن تزييف الحقائق، او طرح صور مبتورة للاحداث، ينتهك اتفاقات الثقة بين الصحفيين والجماهير، وهذا هو السبب في ان اختراع الحقائق في القصص الاخبارية، او عدم تقديم رأي شامل للاحداث تعد من الامور التي تدمر الثقة في الصحفيين وفي الصحافة بشكل عام، ومثل هذه النتائج تنطلق من فكرة ان الجماهير يتوقع منها أن تحكم على أداء الصحافة استنادا الى المعايير التقنية وليس إلى التعاطف الأيديولوجي، وقد عدت وسائل الإعلام مؤسسات لصناعة الكذب، فضلاً عن التزامها بأجندة مموليها وداعميها وسانديها مادياً ومعنوياً، من خلال تبني خطابات غائية على الرغم من إختلافها في الدوافع والمقاصد إلا أنها أتبعت أسلوب التشكيك في نوايا الطرف الأخر وإنتقاد المبادئ التي روج لها، وكشف التزييف والأباطيل التي تضمنتها هذه المبادئ من تضليل الرأي العام وصياغته على نحو يتقبل أو يبرر السياسة الإعلامية المتبعة والخطاب الإعلامي المعلن، ويمكن لوسائل الإعلام أن تكون البديل السهل للممارسة الديمقراطية، خصوصا بعد أن أحتل الإعلام المساحة المخصصة لممارسة الفعل الديمقراطي، إذ أصبحت هذه المساحة هي ذاتها المخصصة للإعلام.

ولذلك لم يعد الإعلام يمثل السلطة الرابعة أو الخامسة بل أصبح ينظر إلى الإعلام بإعتباره المعيار الذي يقاس به كفاءة الأداء السياسي والإقتصادي للنظم المعاصرة، لأن الإعلام كرسالة إنسانية سامية تعمل على النهوض بالمجتمع، تقع عليه مسؤوليتان. الأولى في تحصين وحده البلد الواحد، من كل الإساءات سواء للوطن ومنجزاته، أم للمواطن، ولذلك ليس ثمة شك من أن وسائل الإتصال تشكل الجزء الدينامي في الحياة الإتصالية داخل المجتمعات المعاصرة فهي تمده بالتصورات والتفسيرات والمعلومات عن الحقائق التي يسقط عليها ذاته ورؤاه، فالناس يستطيعون تطوير بنى ذاتية ومشتركة عن الحثيثة بواسطة م يقرأون أو يسمعون أو

يشاهدون، وهكذا فأن سلوكهم الشخصي والإجتماعي يمكن أن يصاغ في جزء منه بواسطة ما تطرحه الوسائل الجماهيرية من تفسيرات للأحداث الإجتماعية وللقضايا التي لا يملك الناس عنها إلا مصادر قليلة من المعلومات، وتعود هيمنة الإعلام المرئي لأسباب كثيرة، منها:(644)

1 - تعدَد الحواس الإنسانية التي تشترك في تفعيل الثقافة في الإعلام المرئي، بينما لا نجد في الإعلام المقروء ذلك العدد الكافي من الحواس الإنسانية التي تساهم في هذه العملية.

2 - خلافاً للمقروء فَن الكمّ المخاطب في الإعلام المرئي يكون شاملاً يتجاوز في كثير من الأحيان عقبات فقدان الحواس لدى الإنسان، وهذه العقبة لا يمكن تلافيها في الإعلام المقروء.

3 - لا يبذل المتلقي جهداً كبيراً في الإعلام المرئي في العملية التواصلية، أما في الإعلام المقروء فأن المتلقي يحتاج إلى جهد يتفاوت بين إنسان وأخر في تلقي المعرفة.

4 - يتجاوز الإعلام المرئي في الغالب حدود كبت الحريات والقمع الثقافي بينما لا يستطيع الإعلام المقروء تجاوز ذلك إلا في ما ندر.

5 - إن الإعلام المرئي شامل في آلياته المتاحة للإعلام المقروء، كبرامج الصحافة التي تظهرها الفضائيات- وهذا الأمر لا يستطيع الإعلام المقروء أن يفعله.

6 - كثرة التقنيات الترغيبية الجاذبة للمتلقي في الإعلام المرئي خلافاً للإعلام المقروء.

7 قلة كلفة الإعلام المرئي قياساً بالإعلام المقروء.

8 - قدرة الإعلام المرئي على إستيعاب ونشر الثقافات الإنسانية المتعددة بطريقة أسهل من الإعلام المقروء.

9 - يمتلك الإعلام المرئي مساحة كبيرة في حرية الإنتقاء المعرفي لدى الإنسان بينما لا يستطيع الإعلام المقروء أن يتحرك في مساحة كبيرة في إنتقاء المتلقي.

(644) ابراهيم الزيادي، مقاربات في الإعلام الاسلامي، دار المتقين بيروت، د.ر ومكتبة المواهب، بغداد، 2010، ص86-87

10 في الإعلام المرئي يتجاوز ذلك الإعلام حدود إختيار المتلقي له ويستطيع أن يفرض نفسه عليه في حين لا يمكن للإعلام المقروء أن يفرض نفسه على المتلقي، فالمتلقي يمتلك السلطة الكامنة في الإنتقاء والاختيار، هذه النقطة تدق ناقوس الخطر في مسألة فرض الثقافات بين الناس، الأمر الذي نظر له كثير من الإسلاميين تحت مسمى الغزو الثقافي.

11 - تعدد الأليات التقنية التي يستعين بها الإعلام المرئي في نشر ثقافاته بينما لا تتجاوز آليات الإعلام المرئي الصحف والمجلات والكتب.

12 - الإعلام المرئي قادر على التوثيق والتسجيل بطرق أسهل وآمن من الإعلام المقروء.

13 - تعد وسائل الإعلام تابعة ومستجيبة وخاضعة للقوة الرئيسة في المجتمع، بل ومتمشية ومسايرة للتوزيع القائم للقوة في المجتمع وذلك لأن وسائل الإعلام تخضع عموماً سلطة الدولة في معظم دول العالم وذلك بشكل مؤسسي واضح، ولأنها تعتمد على إستخدام موارد السلطة الشرعية الرسمية أو القوى الحاكمة وتمتثل لرغباتها وتوجهتها، ولأنها تستجيب لتطلعات الجماهير ومطالبها بدلاً من أن تعمل على تشكيلها، ولأن إستخدام المواد الإعلامية وتفسيرها يخضع لتوجهات وميول ونزعات المتلقين ولإنها برغم نفعها الظاهر وإستخدامها الواسع من قبل الجماهير، فأنها ليست محل تعلق عاطفي من كثير منهم، إذ لا تحظى وسائل الإعلام بإحترام كبير وعميق لدى الجماهير.

خبراء التحوير والتضليل

وصلت فروع التضليل الإعلامي، من خلال التحوير إذ ينصرف الى الاخبار السيئة او المعلومات السلبية حيث يقصد بمهمة التحوير محاولة إضفاء لمسات مصاغة بمهارة حرفية على المعلومة السلبية التي يمكن ان تسبب ضررا للحكومة او كبار المسؤولين، فإذا بها وقد قدمت الى الجماهير في إهاب أكثر إيجابية بفضل التلاعب بالالفاظ والتركيبات اللغوية كأن يقال مثلا أن ارض المعركة في افغانستان شهدت وابلا من نيران صديقة وتلك كناية مقصودة تحاول ان تستر حادثة راح

ضحيتها فرد عسكري نتيجة خطأ ارتكبه زميله.[645] فالإعلامي والصحافي الأمريكي «أندرو جابمس بريتبارت»، كان يرى أن تغذية الميديا تشبه تدريب «كلب منزلي»، لا يمكنك أن تعطيه شريحة لحم كاملة لتعلمه على الجلوس، وهو ما طبقه المحرر مايكل أرينجتون حين جنى خمسة وعشرين مليون دولار، معتمدا على حقيقة واحدة: «أن تحصل على الحقيقة أمر باهظ، ولكن أن تكون أول من يحققها فهو أمر غير مكلف البتة»، وهذا يعتمد على مقدرة المتلاعبين أو المضللين الإعلاميين للفت انتباه القراء والمعلنين بحيلة متعمدة أو بحسن نية أو نكتة أو قصة مثيرة أو جدلية أو صورة غاوية، مقنعة عاطفيا إلى الدرجة التي يصعب بها تفكيك نفوذ تأثيرهم الإعلامي، سوى بحيلة موازية!

فعملية التضليل وإخفاء المعلومة في الحروب وخاصة الحرب على العراق ظهرت واضحة في استخدام وسائل الإعلام الغربية على وجه العموم والأمريكية على وجه الخصوص لمصطلحات خاصة لم يتم تداولها مسبقا وخاصة مصطلح قوات التحالف «Coalition Forces» في الإشارة إلى القوات الأمريكية والبريطانية التي خاضت حرب إحتلال العراق وقد تردد هذا المصطلح واستخدم بكثرة حتى جعلت القارئ أو المستمع أو المشاهد يقبله على أنه حقيقة واقعة رغم أنه يحمل الكثير من الخداع ومواراة الحقيقة بل إن الإستخدام المكثف لهذا المصطلح غيب عن الكثيرين عدم شرعية هذه الحرب، وأنها لم تكن بتفويض من الأمم المتحدة وليس لها سند دولي، وقد أدى التضليل الواسع الذي مارسته وسائل الإعلام الأمريكية بخصوص ملف العراق لأسلحة الدمار الشامل -وهو أحد الأسباب القوية التي ساقتها إدارة الرئيس بوش لضرب العراق- إلى وقوع وسائل الإعلام هذه في حرج شديد مع الرأي العام بعد اكتشاف كذب هذا الإدعاء، وهو ما جعل صحيفة نيويورك تايمز تضطر للاعتذار لقرائها على التضليل في صفحاتها بسبب ما نشر من مقالات حول امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وهي مقالات كتبتها الصحفية جوديث ميللر بصورة خاصة، **وهناك عوامل تؤثر في إختيار الأخبار ومعالجتها منها:**[646]

(645) مجموعة مؤلفين بإشراف كاترين فولتمر، وسائل الاعلام الجماهيرية والاتصال السياسي في الديمقراطيات الجديدة، م س، ذ، ص544

(646) نهى عاطف العبد، صناعة الاخبار التلفزيونية في عصر البث الفضائي، دار الفكر

1 - **الحس الاخباري للمحرر: (Instincts Of Editors)** إذ أن المحرر الإخباري نتيجة خبرته الطويلة من المفترض أن يعرف الأخبار حين يراها، ويميز بين ما يصلح للنشر أو الإذاعة وما لا يصلح.

2 - **طبيعة الجمهور(Audiece Nature)**: لابد أن تعرف الوسيلة الإعلامية طبيعة جمهورها ورغباته وإحتياجاته، ونوعية الأخبار التي يسعى لمعرفتها، حتى تلبي إحتياجات كافة فئات الجمهور ويتأتى ذلك من خلال دراسات ميدانية تجري على الجمهور.

3 - **نوع النشرة**: أن مدة النشرة التي تختلف من قناة لأخرى هي التي تسمح بإختيار إخبار معينة وإهمال إحبار إخرى رغم إهميتها، لذلك يتم الإعتماد على قاعدة "الأهم فالأقل أهمية" في أختيار الأخبار، ولكن أظهرت بعض الدراسات العربية عدم التزام بعض القنوات الخليجية على سبيل المثال بهذه القيمة، حيث أن هناك نشرات تستغرق 20 دقيقة وأخرى تتجاوز الساعتين في نفس القناة.

4 - **فلسفة الوسيلة:(The Philosophy Of The Medium)** يخضع إختيار الأخبار الصالحة للنشر أو الإذاعة لفلسفة الوسيلة وتوجهاتها الفكرية والسياسية.

5 - **ضغوط الناشرين أو مالكي القناة:(Pressure From The Publishers)**: يعرف أغلب المحررين الإخباريين إتجاهات مالكي قنواتهم لهذا يفرضون على أنفسهم "رقابة ذاتية" حيث يتم معالجة الأخبار بما يتلائم مع آراء مالكي الوسيلة-التي لا تكون مكتوبة في كثير من الأحيان- وإتجاهاتهم، وإن لم ينتبه المحرر لذلك فأنه سيقوم به بعد إصدار أوامر له بالإلتزام بالسياسة التحريرية للوسيلة.

6 - **تأثير المعلنين(Influence Of Advertisers)**: يضطر المحررون لعدم إختيار الأخبار التي يحتمل أن تضر بمصالح المعلنيين أو قد يعالجونها بما يتناسب مع مصلحة المعلن.

7 - **الخليط أو المزيج الإخباري(News Mix)**: تحاول القنوات التلفزيونية تحقيق

العربي، القاهرة، 2007، ص 88-89

التوازن بين كم الأخبار المحلية والاقليمية والدولية المذاعة من ناحية، وكم الأخبار الجادة والخفيفة من ناحية أخرى حتى تتناسب المادة الإخبارية مع كافة فئات الجمهور.

8 - **المنافسة بين وسائل الإعلام (Competition Among Media)**: تتنافس كل وسائل الإعلام في مجال الأخبار، وكل وسيلة لها عناصر قوة وعناصر ضعف في تغطية الأحداث المختلفة، وتحاول كل وسيلة تحقيق السبق الإخباري على الوسائل الإخرى، ولكن قد يؤثر ذلك على مدى صدق وموضوعية المعالجة الإخبارية نتيجة عنصر السرعة.

9 - **حرية الخبر كذبة**: إذ يقول مدير أحد القنوات الفضائية" الكمال هو حلم إنساني، غير قابل للتحقيق، وهناك بديهية أخرى مطروحة، ليس هناك موضوعية مطلقة في مؤسسة إعلامية، إذ أن حرية الخبر ليست سوى كذبة رميناها وصدقناها، الخبر يأتي دائما من سلطة، السلطة السياسية أو السلطة المالية، أو الاثنين مجتمعتين".

10 - **أصبحت التغطية الإخبارية أقل جدية وأكثر ميلاً للترفيه**: هناك إتفاق عام على إن فلسفة التغطية الإخبارية- بشقيها المطبوع والمبثوث- أصبحت أقل جدية وأكثر ميلا للترفيه على مدى العقد الماضي، وأدى تحرر البث من الرقابة الحكومية، والصراع من أجل ضمان البقاء الاقتصادي، والمنافسة الحامية لإجتذاب الجماهير إلى ترك آثارا سلبية على حجم البرمجة الإخبارية وشكلها، وكان المراسلون الاخباريون فيما مضى يتمتعون بحماية كبيرة للسماح لهم دون غيرهم بتغطية ما يجري في مكان معين، أما الآن، فأن عليهم التنافس مع ثلاثين أو ستين أو تسعين محطة إخبارية، عدد متزايد من محطات البث المستقلة.

11 - **ان مصطلح المؤثرات اللاوعيية في وسائل الإعلام، مثل الكلمات والصور الرمزية، التي لا يتم إدراكها بشكل وعي (حسي)** والتي يتم تصميمها واستخدامها المتعمد في وسائل الإعلام، والتي تمتلك قوى كامنة لاشعورية تؤدي إلى الإغواء، أو التلاعب، او التكييف، او التحكم بالسلوك البشري، فمعظم ما ندركه ليس لدينا ادنى فكرة وعيية عن إدراكنا له، فالمؤثرات اللاوعيية من

الممكن أنها تتسبب في الكينونة المعرفة بشكل غامض، والتي يتم شرحها على أنها "ثقافة" او "علم الجمال".

12 -استخدام تقنيات اللاوعي في البيئة الاتصالية قد انتشرت في الولايات المتحدة الامريكية منذ الحرب العالمية الاولى بنشرها الغلاف الاول في ساتردي إيفننك بوست، عام 1917، أظهر نورمان روكويل، وفي الصورة كان الكثير من الكلمات الضمنية المخفية.

غابات الحقيقة

تتذكر مجلة «فوربس»، ديك تشيني الذي كان يزود جوناثان ميلر في «النيويورك تايمز» بمعلومات عن الحرب، وكان هو المصدر المجهول إياه الذي تعتمده الصحيفة في تقاريرها الإخبارية عن حرب العراق، داعية جمهورها لتغيير الحوافز للحصول على الحقيقة، والصبر لتدريب المتلقي على اكتساب المعلومه الصادقه لا السريعة، لأن كبسة الزر هي الخط الفاصل، الذي لا يمكن تمييزه بين الحق والباطل، فحين تتسارع الأحداث، تتخلى عن الكثير من التفاصيل، لتصل ناقصة، وإن عدت لكتاب «الصورة: دليل الأحداث الزائفة في أمريكا» تعثر على التيه فيما قاله د.نييل جوزيف بورستن: «غابة تقف بيننا وبين الحقيقة»، لأن ما وراء كل مشهد هو عكسه، والحروب الحقيقة ليست هذه التي تخاض أمامك على الشاشات، إنما تلك التي لا يسمح لك بأن تراها! ويقوم التضليل الإعلامي اليوم على خمسة أوهام، يتكأ عليها الإعلام على أنها فرضيات وحقائق وأساسيات غير قابلة للنقاش والأخذ والرد! وذلك من أجل تسويق ما يريده فقط، وهذه الأوهام هي:

1 - **وهم وأسطورة الفردية والاختيار الشخصي**: من أعظم الإنجازات الإعلامية التي حققها التضليل الإعلامي: تكريس تعريف للحرية، يقوم على النزعة الفردية ولو على حساب المجتمع، فالإعلام حارس لرفاهية الفرد ولاختياره الشخصي، ومن حق الفرد أن يختار ما يشاء في الوقت الذي يشاء بالطريقة التي يشاء، ويُكرِّس هذا الوهم، مع أن هناك من الشواهد والدلالات ما يكفي للقول بأن حقوق الفرد المطلقة ليست سوى أسطورة خيالية، ولا يمكن الفصل في أي حال من الأحول بين الفرد والمجتمع.

2 - **وهم وأسطورة الحياد:** لكي يؤدي التضليل الإعلامي دوره بفاعلية ونجاح أكبر، لا بد من إخفاء شواهد وجوده، أي أن التضليل يكون ناجحًا ومتميزًا عندما يشعر المُضلَّلون أن الأشياء كما هي عليه في الواقع لم يتغير منها شيء، وذلك يقتضي نفي التضليل الإعلامي نفيًا قاطعًا، فلا بد أن يؤمن من يجري تضليله: أن المؤسسات الإعلامية تقف على الحياد، ولا توجد أيديولوجية تقف خلفها، فما يقدمونه لا يعدو كونه حقائق ومعلومات محايدة، مع أن القاصي والداني يعرف أن وراء كل ذلك عقائد وأفكار، بل إن الحياد الكامل لا يوجد لدى أحد البتة، فما أعتقده وما أنا مؤمن به وما أراه سيظهر لا محالة، شئت أم رفضت، حتى لو أردت إخفاءه، فما بالك إذا كان المركز الإعلامي لم يوجد إلا من أجل أفكار يُراد أن تُسوَّق، ومعركة يراد أن تحسم؟!

3 - **وهم وأسطورة الطبيعة البشرية الثابتة التي لا تتغير** : لا ينفصل السلوك الإنساني عن النظريات المتعلقة به، والتي يتبناها الناس، فما نؤمن به من أفكار فيما يتعلق بالإنسان يؤثر في سلوكنا، ووهم وأسطورة أن الطبيعة البشرية لا تتغير يجعل ليس لدينا قابلية أو استعداد للتغير، وبالتالي: فيجب أن نتعامل مع الإنسان كما هو بكل نقائصه وعيوبه، بل يجب أن نقدم له حقيقته كما هي، فالعنف طبيعة إنسانية لا تتغير، فليس هناك بأس من عرض مشاهد العنف العدواني، ومشاهد الجنس الفاحش، أفليست هذه طبيعة الناس التي لا تتغير؟! كما أنه يتم تحت هذا الوهم وهذه الأسطوره منع أي فعل اجتماعي!! فما يحصل هو نتاج عوامل الوراثة، والبيئة الواقعية، والطبيعة الإنسانية.

4 - **وهم أسطورة غياب الصراع الاجتماعي:** ينكر المتحكمون في الوعي إنكارًا مطلقًا وجود الصراع الاجتماعي، ويصف المؤلف ذلك بأنه في ظاهر الأمر مهمة مستحيلة التحقيق، فالعنف من وجهة نظره رغم كل شيء «أمريكي مثله مثل فطيرة التفاح» ليس في الواقع فحسب بل في الخيال أيضًا، ففي السينما والتليفزيون وعبر موجات المذياع تخصص يوميًا لسيناريوهات العنف مساحة مذهلة، فكيف يتفق هذا الكرنفال من الصراع والعنف مع الهدف الأساسي لمديري وسائل الإعلام، والمتمثل في تقديم صورة للانسجام والتآلف الاجتماعي؟ الواقع أنه تناقض يتم حله بسهولة.

5 - **أسطورة التعددية الإعلامية:** توجد صورة شائعة على مستوى العالم أن الحياة في أمريكا تتوفر بها حرية الاختيار في بيئة متنوعة ثقافيًا وإعلاميًا، وتتغلل هذه النظرة في أعماق أغلبية كبيرة من الأمريكيين وهو ما يجعلهم سريعي التأثر بالتضليل الإعلامي، ورغم أن حرية الاختيار والتنوع يمثلان مفهومين مستقلين فإنهما لا ينفصلان في الواقع، فحرية الاختيار لا تتوافر بأي معنى من المعاني دون التنوع.

ورغم كل هذه الاساطير فأن تعرض وسائل الإعلام الواقع بالشكل الذي ترغب أن تعرضه به في شتى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تعرضه كأنه الواقع المعبر عن الحقيقة، هذه الصورة الذهنية هي التي تبقى في ذهن المتلقي، وكل ما يراه بعد ذلك يخالف هذه الصورة الذهنية ربما اعتبر أنه استثناء، كما أن التغيير المعرفي هو مجموع كل المعلومات التي لدى الفرد، وتشمل: الاعتقادات، والمواقف، والآراء، والسلوك، ويتفق الباحثون والخبراء على ان وسائل الإعلام لا تخبرنا بما نعتقد، ولكنها تقترح علينا ما يمكن ان نوافق عليه جميعا لمناقشته او تمثيله في السلوك الاجتماعي، وبذلك فإنها تقدم بداية قبول القضايا العامة من خلال طرحها فندير حوارا عليها بين الناس، وبذلك فإن وسائل الإعلام تركز على الاحداث العامة والقضايا، لتحقيق التوحد الجمعي، وتشكيل الخطاب الاجتماعي، وفي ضوء هذه التحولات أعطى الكثير من خبراء الإعلام الجديد تعريفات لمفهوم المضمون فالبعض أعتبره مضمون شعبي صرف لأنه يكون من إنتاج الجمهور إلى الجمهور، والبعض الآخر يرى بأنه مضمون ذاتي من إنتاج مستخدمي وسائل الإعلام الجديدة، ويستهدف مستخدمين آخرين بعيداً عن أية مشاركة لوسائل الإعلام التقليدية ومنها.

1 - التحول في إستخدام بعض المفاهيم بحيث أخذ البعض ينهي وجود مصطلح التقليدي (audience) ويستعاض عنها بمصطلح المستخدمين (users) لكون هذا النمط يتصل إتصالاً مباشراً بالأفراد الذين يقومون بعملية نقل الأحداث والتعليق عليها، وتحليلها بطرق ليست قائمة على التلقي الكلاسيكي كما في السابق تتطلب الإستماع والمشاهدة والقراءة بل هي عملية معايشة الحدث شخصياً وكتابته وبثه على الشبكات الإجتماعية والطلب بالتعليق عليه بطرق

تفاعلية ويختلف هنا مصطلح الإستخدام (Use\usage) بهذا المعنى عن مصطلح التلقي (Reception) فثمة إختلاف بين الإستخدام عن التلقي، فعلاقة المستخدم بوسائل الإعلام العصرية تكون علاقة مركبة.

2 - ضعف نظرية الإحتكار الأحادي الطرف للمعلومات، فلم تعد الوسائل التقليدية تحتكر المعلومات و لأخبار والآراء، إنما شاعت مسألة تعدد مصادر المعلومات وأصبحت الفرص متاحة للجميع في إنتاج المضامين الإعلامية المختلفة.

3 - تحطم سلطة حارس البوابة الذي كان سمة السلطة الحكومية سابقا، وأصبح بإمكان صحفيي البيئات الالكترونية القيام بعملية التدفق الإخباري والمعلوماتي بين الناس وبين الأطراف المشاركة بإنتاجها بيسر، وأصبحت علاقتهم بهذه الأطراف علاقة تفاعلية ومشاركة ديمقراطية في إنتاج المضمون وبهذا كسرت الحاجز السابق الذي يجعل الجمهور متلقيا فقط.

4 إعادة مفهوم صياغة الأخبار واستكشاف فنون توصيل صحافية جديدة وإدراج مصادر جديدة وتوسيع دائرة المشاركين في طريقة جمع المعلومات وتحريرها بصياغات إخبارية وإرسالها، وهي من الحالات الإيجابية الجديدة، لبيئة الإعلام، لكنها أعطت جوانب سلبية بغياب المهنية التحريرية وأخلاقيات العمل الصحافي.

5 - حدوث تحول في الطبيعة الإدارية للعمل الصحفي وتحققت بهذا الإتجاه نظرية "التغذية العكسية للمعلومات" أي رجع الصدى وأصبح المضمون الإعلامي يتعاطى بين المنتجين والمستخدمين بطريقة تشاركية على نمط دائري، وزاد معدل التواصل بين المشرفين الألكترونيين والمستخدمين.

6 - أن بيئة عمل وسائل الإعلام تساهم إلى حد كبير في نشر وتوسيع مدى الإحساس بالخوف من خلال التركيز والمحتوى والعملية المتكاملة التي تنتهي بالتشديد على شرعية الخطر، وشرعية الإحساس به، ومن ثم إحداث تغييرات نفسية للمتلقي تعد كأداة لقهره.

7 - تتباين الضغوط المؤثرة في صياغة المضمون وتشكيله لدى القائمين بالإتصال، بتباين المجتمعات، وبطبيعة الإطار التنظيمي الذي تعمل في إطاره المؤسسة

الإعلامية، وتتعدد مستوياتها ما بين ضغوط تتأثر بالعوامل والإتجاهات والقيم الشخصية للقائمين بالإتصال فضلا عن الضغوط الروتينية والتنظيمية داخل المؤسسة، والضغوط المجتمعية والأيديولوجية والثقافية، لذا تعد دراسة العمليات الإجتماعية التي يتم من خلالها إنتاج المضامين الإعلامية في المؤسسات المختلفة، إحدى المحددات الرئيسة التي تسهم في معرفة العلاقات المتبادلة بين مستوى البناء السياسي والإقتصادي والإجتماعي، وظروف إنتاج المضامين الإعلامية، وأسلوب تقديمها ونوعية الجمهور الذي تستهدفه، ومقدرة المؤسسة الإعلامية ذاتها على تقديم تلك المضامين ونقلها.[647]

وسائل التضليل والتجهيل

تساءل المؤلف والناقد الإعلامي نورمان سولومون حسب ما أورده موقع (Lexis Nexis) قاعدة المعلومات الإعلامية، عن عدد المرات التي ظهرت فيها عبارة "الحرب الجوية" في صحيفة نيويورك تايمز عام 2005م في إشارة إلى العمليات العسكرية في العراق وكانت النتيجة أنه حتى بداية ديسمبر 2005م فإن الإجابة كانت تساوي صفراً ومضى نورمان للقول إن عبارة "الحرب الجوية" لم تذكر أيضاً ولا مرة واحدة في صحيفة واشنطن بوست أو مجلة تايم في عام 2005م، حدث هذا التجاهل من وسائل الإعلام الأمريكية رغم أن القوات الجوية في القيادة المركزية الأمريكية ظلت تصدر تقارير مفصلة حول الغارات الجوية الأمريكية في العراق فقد اعترفت هذه القيادة في يوم 6 ديسمبر 2005م، أنه في اليوم الذي قبله قامت طائراتها بإجراء 46 مهمة جوية في العراق من أجل "توفير الدعم لقوات التحالف وحماية البنية الأساسية وتعزيز الأنشطة والعمليات لردع النشاطات الإرهابية، هذا التجاهل من قبل وسائل الإعلام الأمريكية، والذي يعدّ نوعاً من حجب المعلومة عن المتلقي، كان واضحاً في تغطية العمليات العسكرية الأمريكية واستهداف المدنيين والبنية التحتية منذ بدأت الحرب مروراً بمختلف مراحلها بما فيها العمليات العسكرية التي حدثت في مناطق العراق المختلفة هذه العمليات لم تحظ بتغطية تذكر من قبل

(647) د.الأميرة سماح فرج عبد الفتاح، الإعلام وتشكيل الاحساس بالحظر الجمعي، م. س. ذ، ص205-206

وسائل الإعلام الأمريكية وفي استعراض على شبكة الإنترنت لصحف نيويورك تايمز وواشنطن بوست ومجلتي تايم ونيوزويك ومحطتي سي إن إن وفوكس نيوز، لم يجد الباحث أي اهتمام من وسائل الإعلام الأمريكية بموضوع استخدام الأسلحة الكيميائية وخاصة مادة الفسفور الأبيض من قبل القوات الأمريكية ضد المدنيين في الفلوجة لقد تم حجب هذا الملف عن المتلقي الأمريكي رغم أن هذا الموضوع قد عرض بإسهاب مدعّماً بالصور في العديد من وسائل الإعلام العالمية .

هذا التضليل وإخفاء الحقيقة هما اللذان جعلا لاري كليمان (Larry Klayman) رئيس إحدى المجموعات المحافظة التي تُعنى بالمراقبة القضائية (Judicial Watch) يقول:"إن هذه الإدارة هي الأكثر إتساماً بالسرية التي رأيناها في حياتنا وهي تتعامل بسرية أكثر من إدارة نيكسون، إنهم لا يؤمنون أن الشعب الأمريكي أو الكونجرس لديهم أي حق في الحصول على المعلومة، وتعد وسائل التضليل والتجهيل لفرعون، قريبة الشبه مما تفعله وسائل الإعلام منذ ولدت الى راهن الوقت، إذ لم يكتف فرعون باستخدام وسائل القهر والقمع المادي من أجل استضعاف قومه وإذلالهم، بل استعمل وسائل من شأنها تجهيلهم وتضليلهم، والاستخفاف بعقولهم، لإحكام قبضته عليهم وإبقائهم أتباعا لسلطانه وتسخيرهم لخدمة ملكه، ودفعهم إلى عبادته وتأليهه، فإذا كان استخدامه لكل من القتل والتعذيب والسجن، لغرض قهر الأجساد، فإن استعماله لوسائل التجهيل والتضليل كان من شأنها قهر العقول والتلاعب بها، وتخديرها بأساليب الغفلة والتنويم، وهذا شكل آخر من أشكال السطوة والقهر، واستعملها قصد الاستخفاف بقومه، وتطبيق نظريته الفرعونية، فالاعلام يتهم بأنه يمارس تشويها وتضليلا ممنهجا على الرأي العام، بهدف خدمة طرف ضد آخر، ويتبنى وجهة نظر محددة ويدافع عنها ويسعى لترسيخها، فضلا عن إفتقاره للعدل والحياد والعمل الإعلامي المستند إلى المصداقية والحرفية والمهنية، وممارسته الكذب والخداع والتزييف لتضليل الجمهور وزرع الشك في نفسه تجاه مختلف القضايا، ومن هنا تناولنا التحيز الإدراكي للتناول الإعلامي وفق منظومة القيم المهنية، لأن إنحياز الإعلام يعد من الانحرافات الفكرية الخطيرة لما له من مضار على الواقع الاجتماعي، إذ أن الإعلام لم يعد فقط أحد معايير القوة، بل أصبح القوة الأكبر والأكثر تأثيراً،

وأصبح من يملك الإعلام ويتسلح بالمعرفة هو الطرف المهيمن والأقوى، ولم يعد الإعلام قوة ناعمة فقط بل أضيفت له القدرة على السيطرة وادارة الموقف بل وصنعه والحشد له، ويفترض في أي نشاط إعلامي توفر الصدقية لكي يحقق غاياته بشكل مطلوب، وهناك جملة شروط من الضروري توفرها لاستحصال الصدقية الاعلامية وأهمها التزام الحيادية و لموضوعية في نقل الرسالة الإعلامية.

ويقول الفن توفلر(Alvin Toffler) المؤمن بالنظرية المستقبلية ومبتكر مصطلح "صدمة المستقبل": أن قوة السينما او برامج التلفزيون يمكنها ان تنقلك إلى واقع بديل بدون مخاطر النزوح وعدم الاستقرار والامان الذي يصاحب التغيير عادة، عن الدليل العسكري الامريكي لمكافحة التمرد يصف القائد الأمريكي ديفيد بتريوس افغانستان على أنها "حرب السيطرة على الوعي، تدار بأستمرار بالاستعانة بوسائل الإعلام الإخبارية، ما يهم في الواقع ليس المعارك اليومية ضد طلبان، وإنما كيف بيعت المغامرة في امريكا، حيث تؤثر وسائل الإعلام مباشرة على رأي الجمهور المهم" هذا هو المهم في نظر الادارة الامريكية: التأثير على الداخل الامريكي، حتى يستمر في تأييد الحرب، إذن كل التشويه أو التضليل موجه الى وعي الشعب الامريكي، وليس الرأي العام الخارجي، ويضيف بلجر قائلا: في بداية فيلمي "الحرب التي لا تراها" هناك إشارة الى حديث خاص سابق لعصر وكيليكس، في كانون الاول 1917، بين ديفيد لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى وسي بي سكوت رئيس تحرير جارديان مانشستر، قال رئيس الوزراء: "إذا علم الناس الحقيقة، فسوف يوقفون الحرب غدا، ولكن بالطبع هم لا يعلمون ولا يستطيعون أن يعلموا" مايضمن الا يعلم الشعب بما يجري في الحروب التي تقودها بلاده هو دور المجتمع الإعلامي-العسكري، حيث يرافق الصحفيون الجنود في نقل وجهة نظر واحدة، فالمذابح التي تصيب المدنيين لا تنقل صورها، ويكون خبرها مقتضبا لا يتصدر الصفحات الاولى من الصحف، وبطبيعة الحال: ما لا يذاع ولا ينشر، لم يحدث، كما ان الاعلام خلال الحروب المعاصرة قد استخدم وسائله واساليبه في العمليات النفسية واختلفت اتجاهاته طبقا للظروف المعاصرة لتصاعد تلك الحروب، وفي ضوء سياسة كل دولة وافكارها الايديولوجية وإستراتيجيتها

العسكرية على حدة، ونؤكد في هذا المجال على الاثر الواضح للتطور الحاد والمتلاحق لوسائل الاتصال والتطور التكنولوجي الحديث وتأثيرهما على الإعلام والعمليات النفسية، العمليات النفسية اصبحت اكثر قوة وتأثيرا، عن ذي قبل حيث إن اللغة لعبت دورا مهما ومؤثرا في العمليات النفسية وتم توظيفها في صياغة أساليب التحريض وصياغة الشائعات وصناعة الشعارات بأسلوب محكم على أسس علمية يسهم في نجاح هذه العمليات وتحقيق أهدافها، وظهر هذا جليا في الحربين الاخيرتين، وهما: حرب العراق في ذار 2003 وحرب لبنان يوليو 2006.[648]

وتعد الإجراءات المتخذة من إدارة الرئيس بوش الإبن في مسألة الحجب الإعلامي وإخفاء المعلومة من أكثر الجهود في هذه المجال منذ الحرب العالمية الثانية، والسبب الرئيس الذي جعل هذه الإجراءات لا تثير إلا القليل من الاهتمام والملاحظة هو تداعيات أحداث الحادي عشر من ستمبر والحرب على الإرهاب، وعلى الرغم من أن بطء تدفق المعلومات - والذي يعدُ نوعاً من محاولة حجب المعلومة - كان من سمات السياسة الداخلية والخارجية لإدارة الرئيس بوش قبل الهجمات الإرهابية، إلا أن هذه الهجمات منحت إدارة الرئيس تبريرات واسعة لحجب المعلومة وإخفائها بحجة أن سهولة توفر مثل هذه المعلومات - كما يقول- «من شأنه أن يكون لصالح أعدائنا»، ويؤكد علماء النفس أن خطر شاشات الأجهزة الالكترونية على المستخدم وخاصة الأطفال لا يكمن فيما يشاهده بل في إنفراده بالمشاهدة في غياب شخص راشد يتوسط بينه وبين ما يشاهده، الوسيط الذي يساعده على تأويل ما يعرض على المنصات الالكترونية وفي امتصاص مشاهد العنف التي تبثها.

فن حجب المعلومات

عندما يعرض التلفزيون، وهنا وجه التناقض، أشياء يتم إخفاؤها عن طريق عرضها، بوساطة عرض شئ آخر غير ذلك الذي يجب عرضه، إذا ما تم عمل المفروض عمله، أي إعلام المشاهد، أو كذلك عندما تظهر وسائل الإعلام الجديدة والتقليدية ذلك الذي يجب عرضه لكن بطريقة لا تسمح بعرضه أو بأن يصبح

(648) سامية ابوبصر، الاعلام والعمليات النفسية في ظل الحروب المعاصرة واستراتيجية المواجهة، م، س، ذ، ص5-7

غير ذي مغزى، أو عندما يقوم بإعادة تشكيله بحيث يأخذ معنى لا يقابل الحقيقة على الإطلاق.[649] ومفهوم الحجب المعلوماتي يتحدد بمترادفات كثيرة استخدمها الباحثون المتخصصون في سياق حديثهم عن فلسفة الحجب المعلوماتي عن الرأي العام، منها: التضليل، السرية، وإخفاء الحقيقة، جميع هذه المترادفات تمضي إلى معنى واحد مشترك وهو: تعمد عدم تمكين المتلقي، سواء أكان فرداً أو جماعة أو مجتمعاً، من معرفة الحقيقة أو الوصول إليها، أو بإيصالها بطريقة لا تعبر عن المعنى الكامل لها، وعلى الرغم من أن جدلية «حرية الرأي» و«الوصول إلى ملفات الحكومة» كانت مثار جدل بين الساسة والإعلاميين، إلا أن الواقع يقول بن هذا الجدل ينتهي إلى إتفاق بين الطرفين يفرضه الساسة على الإعلاميين، وخاصة في أوقات الحروب والأزمات.

ويتبع وسائل الإعلام المختلفة العاملة في الولايات المتحدة -مثلاً- قانون «حرية المعلومات» الذي صدر عام 1966م، وشكلت على إثره جمعية محرري الصحف الأمريكية لجنة أسمتها «لجنة حرية المعلومات» (Freedom of Information Committee) هدفها الوقوف ضد السرية التي تنتهجها الحكومة الأمريكية في حجب المعلومة عن الرأي العام، كان تشكيل هذه اللجنة مبنياً على تقرير أعده هارلود كروس (Harlod Cross) أكد فيه أن الحكومة الأمريكية تمارس سياسية حجب المعلومة عن الصحافة وبالتالي عن الرأي العام، ومع ذلك كله لا تزال الإدارات الأمريكية المتعاقبة تمارس فلسفة الحجب المعلوماتي لمنع الصحافة -وبالتالي الرأي العام- من معرفة الحقيقة، فقد أنشأ الرئيس ايزنهاور مكتب المعلومات الإستراتيجية (Office Of Strategic Information) أُنيطت به مسئولية العمل مع الجهات ذات العلاقة للتأكد من عدم تسريب المعلومات الإستراتيجية غير المصرح بها للدول الأجنبية، وفي عام 1955م وجه وزير الدفاع الأمريكي حينها تشارلز إيه ويلسون (Charles E. Wilson) بأن أية معلومات تُنشر يجب أن تتوافق مع المتطلبات الأمنية وأن تتضمن إسهاماً بناءً لجهود وزارة الدفاع، وذكر توماس بلانتون (Thomas Blanton) الصحفي البارع الذي كشف الكثير في مقال له تحت عنوان "حق العالم في أن يعرف (The World's Right To Know)، أنه خلال العقد المنصرم (يتحدث عن الفترة من عام

(649) بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، م، س، ذ، ص48-49

1992 وحتى عام 2002م) كانت هناك 26 دولة في العالم قد سنت تشريعات منحت بموجبها مواطنيها حرية الوصول إلى معلومات حكومية، ثم أستدرك بلانتون وقال إنه في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر وبروز إتجاهات عديدة هنا وهناك للسيطرة على المعلومة كسلاح فعال في الحرب على الإرهاب ظهرت إتجاهات تشير إلى أن الحكومات ستتجه إلى "قفل بوابات الوصول للمعلومة»، وثمة باب مفتوح بين المنطق الإعلامي والديمقراطية في النظرية الديمقراطية الليبرالية، ويتمثل في أن وسائل الإعلام تلعب دررا مهما في تفعيل الديمقراطية، ذلك لأن القوى الاقتصادية التي تعيش حالة من الاستقلال عن الدولة تستطيع أن تقوم بما يأتي.[650]

1 - تهيئة سبل تعددية المعلومات والآراء بما يستلزمه أن يتفهم افراد الجمهور آليات حركة المجتمع ومن ثم يزاولون حقوقهم التشاركية كمواطنين.

2 - سبر وتنوير شفافية نطاق صنع القرارات.

3 - إتاحة منبر للتعبير، سواء عن احتياجات المجتمع او عن مشاكله فضلا عن استجابات صانعي القرار إزاء تلك الاحتياجات والمشكلات وبهذا فهو يهيئ السبل للحوار اللازم لتجانس المجتمع.

4 متابعة ممارسة السلطة واحتمالات سوء استعمالها ومن ثم وضع الممثلين المنتخبين موضع المساءلة في هذا الشأن.

5 - التضليل هو الاصل اليوم في العمل الإعلامي الدولي وخاصة في ظل راهن التطورات التقنية، والاجهزة التفاعلية ومواقع التواصل الأجتماعي.

6 - يرتبط التضليل والكذب بكيفية إختيار الاحداث والتركيز عليها أو تهميشها، يقول (بريجينسكي) مستشار الامن القومي الامريكي قبيل العدوان على العراق عام (1991)·(أنا آخذ فقط 20٪ من الاخبار السياسية المنشورة في وسائل الإعلام، أما الثمانون بالمائة الباقية، فإنها ببساطة كذب وتضليل، وبذلك فإن قضية الحياد والاستقلالية التي دعت إليها الاعلانات الدولية التي نظمت

(650) مجموعة مؤلفين بإشراف كاترين فولتمر، وسائل الاعلام الجماهيرية والاتصال السياسي في الديمقراطيات الجديدة، م، س، ذ، ص217

العمل الإعلامي الدولي وأخلاقياته لا أساس لها في أرض الواقع، فليس من إعلام مستقل، ومن هنا تتكون طبيعة التلاعب من وجود تأثيرين مزدوجين -يرسل المتلاعب الى المتلقي إشارة "مشفرة" إضافة الى النبأ المرسل على نحو مكشوف، على أمل ان توقظ هذه الاشارة في وعي المتلقي تلك الصور التي يحتاج اليها المتلاعب، يرتكز هذا التأثيرالخفي الى "المعرفة غير الواضحة" التي يتمتع بها المتلقي، وعلى مقدرته على ان يشكل في وعيه الصور المؤثرة في مشاعره وآراءه وسلوكه، يكمن فن التلاعب في إطلاق عملية التخيل عبر السكة اللازمة، بحيث لا يلحظ الانسان التأثير الخفي، أي ان للصورة مثلها كمثل الكلمات قيمة إيحائية، وتولد رد فعل متسلسل في المخيلة.[651]

يتساءل بعض الباحثين كيف يحرف الإعلام مواقف الجمهور، مستندين في ذلك إلى المثل الأفريقي الذي يقول، «إلى أن يستطيع ملك الغابة حكاية قصصه فإن حكايات الصيد سوف تمجد الصياد» يشير المثل الافريقي السابق إلى أن أية طريقة لنشر وبث الأخبار، لا تعطي الفرص والمساحات المتكافئة لأطراف كل عملية من العمليات للتعبيرعن رؤيتهم لتلك العملية، وسوق حججهم فيها، مثل: سوف ينجم عنها، من دون شك، حكاية تخدم رأيا واحدا، وتكرس معنى واحدا، ويتفق باحثو الإعلام الغربيون بأن التناول الإعلامي للعمليات السياسية والإجتماعية المختلفة يؤدي مهمة كبيرة في تشكيل توجهات الجمهور نحو تلك العمليات، على نحو يفوق تأثير بعض المؤثرات السياسية والإجتماعية والإقتصادية الحيوية الأخرى، وفي هذا الصدد يؤكد الخبير الامريكي جراهام رامسدين المتخصص ببحوث الإعلام والديمقراطية، إن الدراسات العلمية أثبتت بأن المتناول الخبري للعمليات الإجتماعية المختلفة يؤثر في توجهات الجمهور، وربما تقوده إلى إتخاذ قرارات ودعم سياسات محددة أو رفضها، وهو ذاته الذي يوضحه بول كروجمان بقوله:«كان يمكن الانتخابات الرئاسية الامريكية في عام 2000، أن تنتهي بنصر مؤزر لآل جور، لو لم يتخذ الإعلاميون موقفا سلبيا منه» وحقيقة إن قيام بعض وسائل الإعلام بدعم أحزاب ومرشحين معينين في الانتخابات يحدث في مختلف دول العالم، لكن

(651) سيرجي قره-مورزا، التلاعب بالوعي، م، س، ذ، ص175

الخطر الكبير ينشأ عادة حين يجري إستخدام التناول الخبري في هذا الدعم، فالمهمة الإخبارية لأية وسيلة إعلامية ذات كفاءة وإحترافية يجب أن تتجرد من الرأي، وتراعي معايير الحيود والتوازن والمنطقية، وإن تحقيق هذا الهدف يمكن أن يحدث في دول فقيرة وأقل تنمية وأحدث نشأة، كما يمكن أن يتراجع في دول غنية وعريقة في الديمقراطية، وثمة وسائل أساسية تقوم خلالها بعض وسائل الإعلام بحرف مهمتها الخبرية على نحو يخدم عمليات سياسية معينة، أو أفكارا وآراء محددة أبرزها:

1 - **تسليط الضوء على قضايا محددة:** حيث تقوم وسيلة الإعلام خلال مهمتها الخبرية بتسليط الأضواء على قضايا معينة، وبث الكثير من الأخبار والتقارير عنها، على نحو يستتبع تغييب الأضواء عن قضايا أخرى، قد تكون أكثر وضوحا وتأثيرا في الواقع، ففي بعض الاحيان تقوم صحف معارضة خلال فترة الانتخابات بتكثيف مهمتها الخبرية لقضايا تتعلق بالفساد أو غياب الأمن في بعض أجزاء من البلاد، متجاهلة في الوقت نفسه تسليط الأضواء على بعض الإنجازات التي تقوم بها الحكومة، حتى لو كانت أكثر حيوية وتأثيرا وأهمية بالمعايير المهنية، والعكس يحدث حين تسلط بعض وسائل الإعلام الأضواء على قضايا تتعلق بالخلل في تكتلات معينة، لا تريدها ربح معركة الانتخابات.

2 - **تشكيل الصورة:** يمكن لوسائل الإعلام المختلفة حرف مواقف الجمهور من أشخاص محددين، ودفعهم نحو تأييد هؤلاء الأشخاص وأفكارهم وحججهم من دون الآخرين أو العكس، على نحو لا يخدم المصالح الدائمة للجمهور، وبأستخدام أنماط التحيز المختلفة يمكن المهمة الخبرية الملحة أن تصنع صورة ذهنية إيجابية لشخص أو دولة أو جماعة أو منظمة، كما يمكنها أن تصنع العكس من دون أن يكون لذلك علاقة بالواقع.

3 - **تأطير الأحداث:** تسعى وسائل الإعلام إلى إعادة صبغ الأحداث التي تقدمها في مهمتها الخبرية بصبغة مختلفة تتلاءم مع أهداف تلك الوسائل، على نحو يخدم دولا أو أفكارا أو جماعات معينة.

4 - **الأخبار تصور للعالم:** الأخبار ليست مرآة للواقع، بل هي تصور للعالم، وكل التصورات إنتقائية، هذا يعني أن بعض الكائنات البشرية يجب أن تقوم بالإنتقاء،

ويتخذ بعض الناس قرارات بخصوص ما يجب أن يقدموه كأخبار وكيف يجب أن يقدموه.

5 - **تجنب التحيز في الحوار:** المبدأ الأساس المهم في الإدارة الناجحة للحوار هو أن يكون المذيع المحاور محايدا، نلاحظ أحيانا عند إدارة حوار مع ضيف عن موضوع مثير للجدل أو يحظى بأهمية كبيرة أن يميل المذيع للقبول من دون تساؤل بآراء الضيف فيوافق عليها، وذلك خطأ كبير، فالمذيع له آراءه الخاصة به، وهو حر في أن يوافق على عبارة أو فكرة ما أو لا، أما كونه محاورا مسؤولا فهو ملزم بأن يوجه المزيد من الأسئلة للخروج من الضيف نفسه بالأدلة الواقعية التي جعلته ينتهي إلى ما وصل إليه من نتائج، وببساطة على المذيع المحاور ألا يسمح لمعتقداتهم الشخصية أن تحول دون توجيه المزيد من الأسئلة عن الآراء والأقوال، التي تصدر من الضيف، ولا تكون مدعمة بالأدلة المادية.

الهيمنة والسيطرة بالتضليل

أن الأهداف المسبقة وبالنيات غير الأخلاقية في العالب قد حققت أهدافها في تحويل الدور الأخلاقي المفترض للإعلام في الحياة البشرية إلى غير ذلك من المصالح الشريرة، والتي كثيراً ما قادت إلى كوارث شاملة، هذا إذا ما ضعفت في الوقت ذاته عوامل أخرى ضابطة في الحياة الإجتماعية، مثل الديمقراطية والمشاركة السياسية وحقوق الإنسان فعاد الطريق مفتوحاً لمرور العوامل المؤدية إلى زعزعة الإستقرار وفقدان الحرية والأمن، وهذا ما نراه واضحاً في الإستخدام المنحاز وغير المنصف للقدرات الإعلامية الدولية وبإمكاناتها الكوكبية الكبيرة ضد مصالح الشعوب وبإتجاه حماية وتعزيز التوسع والنهب الإستعماري والهيمنة والسيطرة على شعوب العالم وثرواتها، ويتفق معظم المختصين بالإتصال على ما ذهب اليه، أريك بارنو، إذ أن الإعلام سياسي بطبيعته، ووسائل الإعلام ليست مؤسسات تابعة للمجتمع المدني تحقق التوازن في مقابل سلطة الأحزاب والتيارات، وإنما هي في الواقع إمتداد لها، إذ أستخدمت كأدوات للقمع عن طريق تكريس أجواء الخوف والتخويف، ويفسر الدكتور مأمون فندي في كتابه (حروب كلامية) كيفية إدارة حروب الفضائيات، لأن وسائل الإعلام عرضة للتأثير بالصراعات السياسية داخل الدولة الواحدة، والمؤسسات

الإعلامية تشكل نتاجاً طبيعياً للمجتمعات التي تتشكل فيها، وعندما لا تعكس المؤسسات والقوانين والممارسات الإعلامية واقع المجتمعات التي نشأت فيها تبدو كأطفال لا يشبهون أهاليهم، فتظهر الشكوك حول شرعيتهم، بواقع أن الإعلام هو إعلام سياسي في المقام الأول ولا يمكننا فهمه خارج السياق التاريخي والإجتماعي والسياسي الذي تنشط فيه وسائل الإعلام.[652]) والكيفية التي تقدم بها وسائل الإعلام السلطة ومسؤوليها وتصرفاتهم أو قراراتهم أو تصريحاتهم، لما لذلك من تأثير في مستوى ثقة الأفراد في الفئات والجماعات الفاعلة والمؤثرة في المجتمع وما يستتبعه ذلك من درجات الإحساس بالأمان وفقاً لرؤية الأفراد لحجم الجهد المبذول من تلك الفئات في الوقوف على مشكلات المجتمع وحلها، ووفقاً لما تتبناه وسائل الإعلام للترويج لهذه الفكرة أو تلك، ضمن سياقات رسائلها الإعلامية المختلفة.

وهناك وجود خلل اصلي في وسائل الاعلام التقليدي نفسها في الإعلام العربي عموما والإعلام العراقي خصوصا، من ناحية عدم التزام بعض منها بالقيم المهنية لكنها في العموم أكثر التزاما من صفحات الفيسبوك، اما إذا أردنا الحديث عن التعامل مع الفوضى صفحات الفيسبوك وما تنشره من اخبار وموضوعات غير دقيقة فان الامر ليس سهلا، لكننا لا نرى أي تشخيص لهذه الظاهرة اولا من أجل التعامل معها، باختصار يجب أن ترتقي وسائل الاعلام التقليدية بخطابها وتوسعه ليشمل مواقع التواصل الاجتماعي بصورة اكبر من الحاصل حاليا لان معظم ما يحصل حاليا هو جزء من الترويج لأجندات سياسية للجهات المالكة للقنوات، كما أن الحكومة العراقية التي تمتلك شبكة الإعلام العراقي وتنفق عليها ملايين الدولارات كل عام، تستطيع ان تضع هدف واستراتيجية لتحويل الشبكة الى مصدر موثوق للخبر ومنتشر على وسائل التواصل الاجتماعي، أن تضع هدفا واستراتيجية لان عملية تأسيس ذلك وبناء الثقة مع الجمهور عملية صعبة وتحتاج جهدا والتزاما ومهنية وشروطا اخرى عديدة لم تتحقق منذ عام الفين وثلاثة، وهنا يواجه الجمهور المتعرض لوسائل الإعلام اليوم تحديات كبرى في كافة أبعاد حياته اليومية المتنوعة،

(652) مأمون فندي، حروب كلامية، ترجمة.تانيا ناجية، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2008 ص85-90

الثقافية والإقتصادية والأمنية والسياسية والإجتماعية وغير ذلك، وعلى قمة تلك التحديات تتربع التحديات الفكرية وتحقيق الذات، إذ تحيط به منظومة هموم متولدة، تعصف بالعالم عامة، والعراق خاصة.

ومع أن أحداث تغييرات أجتماعية وسياسية ليس بالامر الهين، ذلك أن أغلب الدراسات المعنية بتأثيرات وسائل الإعلام اشارت الى ان عمل وسائل الإعلام غالبا ما يندرج في اطار تدعيم الاتجاهات القائمة، بينما يأخذ خلق اتجاهات وقيم جديدة وقتا ليس بالقصير بحسب النتائج التي توصلت لها بحوث ميدانية عديدة، الا ان ذلك يجب ان لا يحول من دون الشروع بهذا الاتجاه، فالتغيير لن يحدث اذا لم ينخر الإعلام في جسد الثقافات المتخلفة، واذا كان تشكيل ثقافة التغيير يستدعي خلق اتجاهات ومنظومة قيمية مغايرة لتلك التي تبناها المجتمع في مراحل سابقة، فأن ذلك يفترض بوسائل الإعلام التصدي لهذه المسألة المهمة من خلال بناء رسائل اعلامية مدروسة بدقة لإرساء تلك الثقافة، فضلا عن بلورة رأي عام مستنير ازاء قضايا بعينها، والتعرف على حدود فاعلية هذه الرسائل، والى اي مدى تمكنت من غرس المفاهيم المستحدثة في نفوس الجماهير وعقولهم، وبعكسه فأن كم الرسائل المبثوثة لايعني انها حققت ما يرجى منها، لاسيما وان اتمام عملية الاتصال لايعني انها كانت فاعلة، بخاصة ان تحقيق الاتصال الجماهيري الفاعل يقتضي توافر شروط عديدة على مستوى القائم بالاتصال والرسالة والوسيلة المستخدمة، فهذه العناصر اضافة الى الجمهور تشكل محور العملية الاتصالية، وان اي خلل يطول احدها يؤثر سلبا في سريان العملية، الامر الذي يحد من فاعليتها، ومن أبرز الاثار السلبية في الرسائل الإعلامية التي تتبناها البيئة الاتصالية الجديدة هي:[653]

1 - توظيف الإعلام في زعزعة الدولة القومية لصالح قوى العولمة.

2 - توظيف الإعلام في تفتيت النسق الإجتماعي وخلق أزمة الهوية. إذ أدى ذلك للعودة إلى العصبيات القبلية بشراسة في أغلب دول العالم كما في أفريقيا والطائفية والمذهبية في العراق ومصر واليمن وسوريا وتونس والهند وباكستان وأفغانستان، والقومية الضيقة والتطهير العرقي والعنصري كما في البلقان.

(653) د.صابر حارص، الإعلام العربي والعولمة الإعلامية، م، س، ذ، ص89-96

3 - توظيف الإعلام في تغريب الإنسانية: وذلك من خلال إستخدام أسطورة التعددية الإعلامية في إعادة تشكيل (Reform) الحياة الإجتماعية للشعوب على نمط الحياة الغربية وحثها على المشاركة فيها على نحو نشط يحقق على المدى قولبة الإنسان بحسب النموذج الإجتماعي الغربي عبر زرع مفاهيم الإختيار الشخصي والنزعة الفردية وتغييب الصراع الإجتماعي.

4 - توظيف الإعلام في إثارة الخلافات بين الدول: عبر إلقاء العلاقات الدولية في بحر من الأمواج المتلاطمة، مما أحدث تأثيرات كبيرة وعديدة حيث يؤكد الواقع أن عمليات التوظيف والتعتيم والتضليل والتحريف والتشهير لخدمة أغراض قوى عظمى أصبحت مسائل واضحة للعيان وأثرت بدورها في العلاقات بين الدول.

5 - إضعاف الإعلام الوطني من خلال زيادة تبعيتها للإعلام الغربي لتنقل منه ما يجود به عليها من صور وبرامج ومعلومات.

6 - إستخدام الإعلام كأداة رئيسة في الحرب.

7 - دخول الإعلام كشريك أساس لمكونات السياسة الحديثة.

8 صعوبة معرفة المصدر الأول في الأخبار السياسية.

9 - تزايد صعوبة تحديد الموضوعية في الإعلام العولمي.

10 - تراجع مكانة المراسل على حساب وكالات الأنباء ومن ثم على حساب المواطن.

11 - التوسع في عملية توظيف الإعلام لتحقيق أغراض سياسية شاملة وإختفاء "الحيادية" من القاموس الإعلامي.

تضليل المشهد الإعلامي

يقول باولو فرير[654] إن تضليل عقول البشر هو «أداة لقهر» فهو يمثل إحدى الأدوات التي تسعى النخب من خلالها إلى تطويع الجماهير لأهدافها الخاصة، فباستخدام الأساطير، التي تفسر وتبرر الشروط السائدة للوجود، بل وتضفي عليها أحياناً طابعاً خلاباً، يضمن المضللون التأييد الشعبي لنظام إجتماعي لا يخدم في

(654) هو مفكر بريطاني في وسائل الاعلام والاتصال.

المدى البعيد المصالح الحقيقية للأغلبية، وعندما يؤدي التضليل الإعلامي للجماهير دوره بنجاح، تنتفي الحاجة إلى إتخاذ تدابير إجتماعية بديلة، على أن تضليل الجماهير لا يمثل أول أداة تتبناها النخب الحاكمة من أجل الحفاظ على السيطرة الإجتماعية، فالحكام لا يمجؤون إلى التضليل الإعلامي- كما يوضح فرير-إلا «عندما يبدأ الشعب في الظهور(ولو بصورة فجة) كإرادة إجتماعية في مسار العملية التاريخية» أما قبل ذلك، فلا وجود للتضليل (بالمعنى الدقيق للكلمة)، بل نجد بالأحرى قمعاً شاملاً، إذ لا ضرورة هناك لتضليل المضطهدين، عندما يكونون عارقين لآذانهم في بؤس الواقع.(655) إذ أن الافكار البشرية وسلوكها يتم تسخيرها بشكل سري من قبل بعض الاعلاميين، من اجل السيطرةوالتوجيه والتلاعب بسلوكنا الشرائي، أي الخداع المرئي، واستخدام تقنيات الخداع السمعية والبصرية والشَمِيَة ايضا، ودمج كلا التقنيات المرئية والسمعية، والتي كانت ذات تأثير وتحريض من اجل إنتاج التأثير المرعب للمتلقي، وتتبع وسائل الاعلام القليل من الاضواء الوامضة على الشاشة يوحي بوضوح ووعي شبح الموت اصوات غريبة ومخيفة (والتي يمكن تسميتها فن اللصق الصوتي) تشق طريقها إلى الداخل والخارج لخلق وترقية الشعور بالخوف، واستخدام العديد من التقنيات المشابهة -ايضا- والتي تصادق على القدرة الهائلة لوسائل الاعلام على التلاعب بالانسان، وإنتاج خوف لا يمكن السيطرة عليه، وكذلك تجاوبات عميقة.(656)

ويعد التضليل الإعلامي أحد الأساليب المستخدمة في الحرب النفسية وواحد من مستويات التعامل النفسي، فضلا من أن التضليل الإعلامي جزء من الحرب الإعلامية، أما في المفهوم العام فهو الكذب والخداع والتشويه والتزييف وإخفاء الحقائق، بغية التأثير في إتجاهات الرأي العام والقيادات العسكرية من خلال تضليلها للحقائق والوقائع بأحدث فنون التسويق الدعائي والسياسي وبأستعمال التكنولوجيا المتطورة إعلاميا ولتحقيق أهداف محددة مسبقاً، كما أن وسائل الإعلام هي جزء من البناء الإجتماعي يرتبط تطورها بتطور المجتمع وتعكس ايديولوجيتها وفلسفتها،

(655) هربرت شيللر، المتلاعبون بالعقول، ص7-8

(656) ويلسون براين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، م، س، ذ، ص14

أيديولوجية المجتمع وفلسفته وهي وأن اقتربت من مراكز القوه أو السلطة والنفوذ بالمجتمع فأن أداءها لوظائفها وأدوارها يختلف بحسب طبيعة المجتمعات سلطوية كانت أم تحررية وهو ما يجعل هذه الوسائل ذات أدوار مختلفة بل ومزدوجة، ومن الوظائف الرئيسة التي تؤديها وسائل الإتصال الجماهيرية وظيفة تكوين الآراء والإتجاهات لدى الأفراد والجماعات والشعوب، وهذه الوظيفة لا يمكن عزلها عن الوظائف الأخرى كالأخبار والترفيه، إلا أنها تمتاز عنها بخصوصية الهدف من هذه الوظيفة، كما إن أخلاقيات الإعلام تفرض على وسائل الإعلام القيام بواجباتها ووظائفها بصدق وأمانة وعدالة، وموضوعية وتوازن، وشمول ودقة، وعدم إساءة إستخدام سلطة الإعلام، ومع وجود صراع المصالح الهائل على المستوى العالمي فإن هذه الأخلاقيات تغيب أحياناً، وتحدث بشكل متعمد أنواع من التضليل الإعلامي، وأبرزها يتحدد بالآتي:[657]

1- التضليل بالإنتقائية المتحيزة، التي تنتقي بعض الكلمات والحقائق والإقتباسات والمصادر وتتجاهل الأخرى، وتقوم بالتركيز على حقيقة واغفال الحقيقة الأخرى المرتبطة بها.
2- التضليل بالتلاعب بالمعلومات وترتيب الحقائق، بحيث تعطي معاني وإنطباعات معينة، ويتم تفسيرها بشكل معين، يخالف الواقع .
3- التضليل بإهمال خلفية الأحداث، مما يجعلها ناقصة ومشوهة، ولا يستطيع المتلقي فهمها وتفسيرها.
4- التضليل بالمزج والخلط، وعدم التمييز بين الأخبار من ناحية والرأي والتحليل والتعليق من ناحية أخرى، فلا يعرف المتلقي هل هذا جزء من الخبر؟ أو هو رأي الصحفي ووجهة نظره.
5- التضليل بالمعلومات التي ليس لها علاقة بالحدث، على حساب الحقائق المهمة.
6- التضليل بالعناوين ومقدمات الأخبار المعتمدة على المبالغة والتهويل والغموض والمعلومات الناقصة، مما لا يتفق أحياناً مع مضمون الخبر أو المادة الصحفية.

(657) فهد عبد الرحمن الشميمري، التربية الإعلامية، كيف نتعامل مع الإعلام، م، س، ذ، ص103-105

7 - التضليل بإستخدام مفردات معينة تؤدي إلى إصدار أحكام بالإدانة على المواقف والأشخاص والجماعات والدول، أو تحمل وجهة نظر بالتأييد أو الرفض.

8 - التضليل بالإيهام والتدليس في المصادر والمعلومات، وعرض معلومات مضللة بكلمات غير واضحة المصادر، وهي معلومات وأخبار غير صحيحة.

9 - التضليل بإدعاء التوازن الشكلي بين رأيين فقط، واختيارين لا غير، مع تعمد إهمال وجهات النظر الأخرى، وتغييب الكثير من الإحتمالات والآراء والحلول.

10 - التضليل بإختيار قضايا ومشكلات زائفة، والإبتعاد عن قضايا أخرى تهم الجمهور، وتساهم في تشكيل الوعي الصحيح.

11 - التضليل بإغراق الجمهور بمعلومات لا تهمه، ولا يحتاج إليها، مما يطلق عليه النفايات المعلوماتية.

12 - التضليل بالإغراق بكم كبير جداً من المعلومات، لا يستطيع المتلقي الربط بينها أو تفسيرها، مما يوقعه بالسلبية وشعوره بالعجز أمام طوفان المعلومات.

13 - التضليل بلفت الأنظار عن قضية معينة بتسليط الأضواء على قضية أخرى، وحصر التفكير فيها، وتشتيت الإنتباه عن القضية الأصلية.

14 - التضليل بالتعتيم والتغييب والحذف والتجاهل، سواءاً كان ذلك لقضية أو حدث أو مشكلة، مما يجعلها خارج وعي الجمهور.

15 - التضليل بالتضخيم والتهويل، لقضية أو حدث أو مشكلة، ليترك ذلك انطباعاً زائفاً بحجمها لدى الجمهور.

16 - التضليل بالتهوين وتقليل قيمة الموضوع، رغم أهميته للجمهور وعلاقته بمصالحهم وإهتماماتهم.

17 - التضليل بالتفكيك والتجزيء، وحصر النقاش في جزئيات بعينها، وقطعها عن الإطار العام، وسياقها الطبيعي، وصورتها الكاملة.

18 - التضليل بقلب الصورة، حتى يصل الأمر أحياناً إلى تصوير المجرم بأنه ضحية، والضحية هو المجرم المعتدي.

19 - التضليل بالمصطلحات المصنوعة المنحوتة، التي تبني وترسخ مفهوماً معيناً يتوافق مع مصالح صانع المصطلح، الذي قام بإستحداثه والترويج له، لتغييب الحقائق وتزييف الوعي.

20 - التضليل بإستخدام مصطلحات قد تكون صحيحة ومقبولة ومتفق عليها في أصلها، ولكنها تستخدم تعمداً وتضليلاً في سياق خاطيء لا يرتبط بها.

21 - التضليل بالإحصائيات وإستطلاعات الرأي غير الحقيقية، إما أنها لم تحدث أصلاً، أو أنها كانت حافلة بالأخطاء الإجرائية التي تؤدي إلى خطأ النتائج.

22 - التضليل بالقراءة المخادعة للإحصائيات وإستطلاعات الرأي الصحيحة، لكن يتم التلاعب بطريقة عرضها وتفسيرها، سواءاً بالكلمات أو بالرسوم البيانية.

23 - التضليل بالصورة، إما في طريقة إلتقاطها، أو تغيير مضمونها، والتحكم في الألوان، أو إضافة صور أشخاص أو أشياء أو حذفها، أو يتم الإدعاء بأن هذه الصور تمثل الواقع بينما هي مصنعة لتعطي إنطباعاً معيناً.

24 - التضليل بإختيار صورة حقيقية لشخص أو حدث إلا أنها التقطت من زاوية معينة، أو في لحظة معينة، لإعطاء رسالة مضللة حول الشخص أو الموقف أو الحدث.

25 - التضليل بالكاريكاتير السياسي والإجتماعي، الذي يتعامل معه الناس بإعتباره طرفة وتسلية، بينما هو رأي وموقف ورسالة مؤثرة، تجمع بين خصائص الكلمة وخصائص الصورة.

26 - التضليل باختيار أضعف وأسوأ شخصية ممكنة لتمثيل قضية ما في حوار أو حديث إعلامي، لكي يتم إسقاط القضية وتشويهها عبر هذه الشخصية المهزوزة السيئة، أو الضعيفة.

27 - التضليل بالحوار المشوه الذي يتم فيه التغييب الكلي المتعمد للقضية الجوهرية المحورية، والإغراق بالتفاصيل الهامشية، والثانويات الصغيرة، ذات الأثر المحدود على القضية المحورية التي تم تغييبها قسراً.

28 - التضليل بتكرار الفكرة الخاطئة وترسيخها مهما تكن خاطئة، وتعزيز السلوك المنحرف وترسيخه مهما يكن منحرفاً، وذلك بالتكرار المستمر المتواصل حتى تستقر في وعي الجمهور.

تغذية الميديا بالتضليل

يرى الإعلامي والصحافي الأمريكي «أندرو جايمس بريتبارت»، أن تغذية الميديا تشبه تدريب «كلب منزلي»، لا يمكنك أن تعطيه شريحة لحم كاملة لتعلمه على الجلوس، وهو ما طبقه المحرر مايكل أرينجتون حين جنى خمسة وعشرين مليون دولار، معتمدا على حقيقة واحدة:«أن تحصل على الحقيقة أمر باهظ، ولكن أن تكون أول من يحققها فهو أمر غير مكلف البتة»، وهذا يعتمد على مقدرة المتلاعبين أو المضللين الإعلاميين للفت انتباه القراء والمعلنين بحيلة متعمدة أو بحسن نية أو نكتة أو قصة مثيرة أو جدلية أو صورة غاوية، مقنعة عاطفيا الى الدرجة التي يصعب بها تفكيك نفوذ تأثيرهم الإعلامي، سوى بحيلة موازية! وهو اكثر ما قاله فرويد حول الفن بأنه وثيق الصلة بالإعلام، فرويد رأى في الفن أنه فرصة لاستخدام الخيال، لإنجاز الرغبات، التي هي معارضة ومحبطة في الحياة الاعتيادية، أما من قبل عوائق خارجية، او من التحريمات الاخلاقية الداخلية، فالفن هو واقعية مقبولة تقليديا، حيث (نتيجة الوهم الفني) تكون البدائل والرموز قادرة على إثارة العواطف الحقيقية، لذلك، الفن يستبدل منطقة منتصف الطريق بين الواقعية التي تحبط الرغبات وبين عالم إنجاز الرغبات في الخيال، تلك المنطقة التي يكون فيها نضال الرجل الفطري-من اجل القدرة الكلية- ما يزال بكامل قوته.

ومن أهم التقنيات المستخدمة لإخفاء المعلومات بمكر وخداع (مثل التضمين بالإخفاء) هي ليست بجديدة، فالتضمين بطريقة الـ"صورة- خلفية" هو كالتالي: عندما تنظر الى إعلام ما، فإن ما تراه يدعى صورة، وتلك الصورة تكون-دائما- على خلفية، فعندما يكون تفكيرك منشغلا بالصورة، يدخل في مخيلتك وعقلك الباطن –وبشكل لا شعوري- ما هو محيط بتلك الصورة، أي خلفية الصورة، وهذه التقنية مستخدمة –بشكل كبير- في وسائل الاعلام، إذ ان فن التضمين بالاخفاء

يتعلق بالمهارات والتقنية والفهم للإدراك الحسي البشري ولسلوك البشر في ترتيب المعلومات، بحيث ما يتم رؤيته بوضوح هو ما يسمى الصورة، والصورة مهمتها ان تكون كالمصيدة، لتوصيل الرسالة الحقيقية، والتي من الممكن ان تكون مخبأة ضمن الخلفية(الخلفية قد تكون اوراق شجر وازهار ومناظر طبيعية وانعكاسات من قوارير ومكعبات من الثلج ورموز،...الخ) بالرغم من انها ليست مدركة بوضوح، الا انها ستكون واضحة-تماما- في عقلنا الباطن، وسيتم تسجيلها هناك بكل تأكيد، فإذا كانت الوسيلة المراد ايصالها هي الخلفية، فسنكون عند ذلك الصورة هي المخ، لذا، وجب على المتلقي ان يكون حريصا! وخصوصا عندما تعلم ان ما تدركه بشكل لا شعوري أقوى وأكثر رسوخا في الدماغ مما تدركه شعوريا، وتتحدد تلك التصورات بالآتي:[658]

1 - القوة الكامنة لوسائل الإعلام والاعلان القادرة على التوجيه والتاثير والسيطرة على السلوك.

2 - الاشخاص الذين يرغبون با لحصول على عالم معقول ومستقر وقياسي يأخذون المظهر الاول للحدث او الشخص، ويلتصقون به، وغالبا، يرافق ذلك عناد وقائي نفسي، او يرافقه تقييد طبيعي لمخيلاتهم، إنهم لا ينغمسون -أبدا- في التغالي، أو التعمق.

3 - الاخفاء اللاشعوري: أي إخفاء رموز ما هادفة، وسيتم إدراكها لاشعوريا من قبل القارئ، او على الاقل، هو أحد انواع الإخفاء التي يتم استخدامها لغزو واغتصاب منطقة اللاوعي عند القارئ، هنالك العديد من تلك التقنيات قيد الاستعمال في وسائل الاعلام، تفعل الكثير بالاشخاص، إنها -ببساطة – تفعل أشياء أكبر بكثير من مجرد بيع وترويج المنتجات.

4 - المؤثرات اللاوعيية في وسائل الإعلام، مثل الكلمات والصور الرمزية، التي لا يتم إدراكها بشكل وعيي (حسي) والتي يتم تصميمها واستخدامها المتعمد في وسائل

(658) ويلسون براين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، م، س، ذ، ص19-31

الإعلام، والتي تمتلك قوى كامنة لاشعورية تؤدي إلى الإغواء، أو التلاعب، أو التكييف، أو التحكم بالسلوك البشري، فمعظم ما ندركه ليس لدينا أدنى فكرة وعيية عن إدراكنا له، فالمؤثرات اللاوعيية من الممكن أنها تتسبب في الكينونة المعرفة بشكل غامض، والتي يتم شرحها على أنها «ثقافة» أو «علم الجمال».

5 - استخدام تقنيات اللاوعي في وسائل الاتصال الإعلامية.

6 - تقديم ثقافة موجهة بصريا، وتبرز شعورا أكثر إلى الشكل البصري، وتجربته، ولونه، وحركته، أو قلة حركته، وعمق أوهامه، وتجارب بصرية أخرى.

7 - إستعراض أو تمشهد (Show) الأحداث فالتمشهد يحتاج إلى إخراج تقني، ويعاني هذا الإخراج من جملة من العوائق التقنية، ويخضع للإختبارات الجوهرية التي تحدد ما يمكن أن نطلق عليه. بـ"فلسفة الإعلام" التي تدافع عنها المؤسسة الإعلامية، والمتتبع للمشهد الإعلامي العربي في السنوات الأخيرة، بعد الإنفتاح الذي شهدته بعض الدول العربية في مجال حرية التعبير والتعددية الإعلامية، يلاحظ أن المتلقي أي المستهدف في الرسالة الإعلامية أتخم بمادة إعلامية منزوعة القيم والأخلاق الإنسانية بحثاً عن الشهرة والربح بأي ثمن ولو على حساب المعتقدات والقيم النبيلة التي يتبناها المجتمع، فمن حق وسائل الإعلام المحترفة والمسؤولة أن تمارس الرقابة والنقد البناء على مؤسسات الدولة والمجالس المنتخبة وهيئات المجتمع المدني بدافع الصالح العام، لكن ليس من حقها التهويل والتضخيم والتحريض ونشر سياسة الإحباط والقنوط واليأس والتخويف في أوساط المجتمع، فالفساد والبيروقراطية والبطالة ظواهر أجتماعية لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، لذلك يفترض أن تؤنسن رسالتها الإعلامية وفق المعاني القيمية التي تنبع من حاجات المجتمع، والواجب تقديم المساعدة في إيجاد الحلول وليس إستغلال مثل هذه الظواهر لتأزيم الوضع وجره للإنسداد مما يتسبب في الفوضى، وتخريب الممتلكات الخاصة والعامة، وهنا يعتقد بعض الصحافيين أنهم دائما على حق، وأن حرية التعبير عن الرأي تسمح لهم بأن يكتبوا ما يشاؤون وعما يشاؤون، فيكتبون أحيانا ما لا يستحق الكتابة، أو ما

لا يجوز نشره، بل أكثر من ذلك يعتقدون أنهم معيار الحقيقة، وأن ما يكتبونه هو عين الحقيقة مهما أشتطوا في الكتابة، وتمظهرت بعض البرامج على شاشات الفضائيات العربية بطريقة تلمها المفارقات وتصبح فيها المتناقضات بضغط من الثقافة والبيئة والظروف والإمكانات، والعادات والموروثات.

وتتذكر مجلة «فوربس»، ديك تشيني الذي كان يزود جوناثان ميلر في «النيويورك تايمز» بمعلومات عن الحرب، وكان هو المصدر المجهول إياه الذي تعتمده الصحيفة في تقاريرها الإخبارية عن حرب العراق، داعية جمهورها لتغيير الحوافز للحصول على الحقيقة، والصبر لتدريب المتلقي على اكتساب المعلومة الصادقة لا السريعة، لأن كبسة الزر هي الخط الفاصل، الذي لا يمكن تمييزه بين الحق والباطل، فحين تتسارع الأحداث، تتخلى عن الكثير من التفاصيل، لتصل ناقصة، وإن عدت لكتاب «الصورة: دليل الأحداث الزائفة في أمريكا» تعثر على التبه فيما قاله دانييل جوزيف بورستن: «غابة تقف بيننا وبين الحقيقة»، لأن ما وراء كل مشهد هو عكسه، والحروب الحقيقة ليست هذه التي تخاض أمامك على الشاشات، إنما تلك التي لا يسمح لك بأن تراها!

يقول السياسي البريطاني ونستون تشرشل :(في وقت الحرب تكون الحقيقة ثمينة جداً، الأمر الذي يتطلب حمايتها بحرس شخصي من الأكاذيب..) ويقال كذلك إن الحرب أولها وآخرها كلام. وان الاعلام نصف الحرب، والكثير من المقولات الشائعة التي وردت عن قادة ومفكرين حول الدور الرمزي للأعلام في تحريك المعنويات ،والارادات للجبهات الداخلية، ولتوجيه ساحات الحرب والإفادة من مزالق وانتصارات الارض والفكر والتاريخ وادارة الدولة، وكل ما يمكن ان يديم اتجاهات الراي العام لكسب الصراع ....اي صراع ....وفي أي وقت، وتقر دراسة أجرتها صحيفة «التلغراف» البريطانية العام الفائت، أن المعركة فن قديم، مع الأخذ بعين الاعتبار مبدأ تطور الحقيقة أو ما يسمى بالأخبار الكاذبة، التي أصبحت أكثر سرعة، ولا تستغرق وقتا لبناء الجمهور والثقة والسمعة، فهي أسهل تداولا، وأقل عرضة للعواقب القضائية أو الحواجز الاقتصادية، بما يحول دون القفز الالكتروني

فوق أرضية خصبة لها وبصحون وثابة؛ ألم يكن أولى بهم أن يموتوا ميتة فرعون، الذي هرع جبريل لحشر فمه بالطين والزبل كي لا يعطيه فرصة للتوبة يوم هلاكه؟ فالطغاة على مدى العصور يتفننون ويعملون ليل نهار على تحديد بوصلة الجماهير إلى حيث يُريدون، والأنبياء والمصلحون أيضًا يعملون على مدى التاريخ على توجيه هذه البوصلة إلى وجهتها الصحيحة، إلى خالق الكون، إلى الله، إلى عبادته والخضوع لملكوته سبحانه وإرادته، فقط هم الدهماء الرّعاع، وخفيفو العقول، وقليلو العلم، وعُبّاد الدنيا والشهوات، ومعدومو الفطرة؛ مَن تسحرهم أسلحة فرعون، أما العقلاء النجباء أصحاب الفكر والألباب فتزيدُهم إيمانًا وتعلقًا بالله سبحانه، التاريخ يعيد نفسه على مدى الأجيال المتتالية، فتجد أن فرعون يتكرّر، وأدواته أيضًا تتكرّر ولكن بطرق مختلفة، الهدف واحد ولكنّ الأساليب تختلف من عصر إلى عصر.

والإعلام الآخر فهو ذلك الذي يسعى لجعل الانسان ينغلق في اطار رؤى وافكار تحدده باللغة التي يتحدث بها، معتقداً بأنها الأصح، وتتماشى مع ما يؤمن به المجتمع، مما تجعل الانسان ينطوي في اطار المعتقدات التي تؤمن بها تلك الوسائل الاعلامية التي اتخذت من الرمز دستوراً لها، كشكل دون القدرة على جعل المتلقي يغوص في جوهر الرسالة الحقيقية لمعنى التطور الانساني الذي أكد عليه العلم الحديث كمفهوم حقيقي لمعنى المدنية الحديثة، وبالتالي فإن الإنسان وانسجاماً مع رأي الباحث قاسم عبود (منذ تكوينه اتخذ الرمز باختياره، لكونه لا يستطيع أن يتخلى عنه، وبدون وعي يتقمص بعضاً منها، ويتأثر بها في حياته لتحدد مسيرته معها، وتنعكس على جانبه السلوكي الذي يسير عليه)، وهذا النوع من الاعلام (يخاطب العاطفة اكثر من العقل)، فالتضليل الإعلامي له عدة صورة؛ منها قلب الحقائق، أو التضليل بالمعلومات التي ليس لها علاقة بالحدث، ويؤدي الإعلام دوراً خطيراً في حياة الأمم، ليس في نقل الأخبار والأحداث فقط، وإنما في صياغة وتحديد توجهات الرأي العام. ومن هنا يصبح التضليل الإعلامي الذي يمارسه الإعلام حالياً بمثابة حرب نفسية تشنّ على المتلقي لإحداث أكبر قدر من التأثير السلبي، والتضليل الإعلامي له عدة صورة؛ منها قلب الحقائق، أو التضليل بالمعلومات التي ليس لها علاقة بالحدث، أو

باستخدام مفردات معينة تؤدي إلى إصدار أحكام بالإدانة، أو بالانتقائية المتحيزة التي تنتقي بعض الكلمات والحقائق والمصادر وتهمل الأخرى.

والتضليل في الإعلام الأسود أو صناعة الكذب هو من أخطر الوسائل أو الحروب التي تستهدف عقول البشر؛ حيث تبدأ بالتشويش، ثم تصيبها في قناعتها؛ لصرف الأنظار عن حدث ما، أو تسعى لتغيير وجهات النظر باتجاه واقع غير موجود أصلاً وليس إلا وهماً، ثم تجسيده والدفاع عنه حتى يصبح حقيقة، وبالمقابل التشويش على واقع حقيقي، وتشويه القناعات بشأنه؛ حتى يصبح في وعي الشعوب غير حقيقي، وأطلق الخبير السياسي المصري الراحل د.حامد ربيع على الإعلام الأسود أو صناعة الكذب اسم «التسميم السياسي» أي الصناعة التي تتعلق بالواقع وتزييفه والتدليس عليه وصناعته بمؤثراته المختلفة ضمن تعظيم التافه وتسطيح المهم في إطار ترتبك فيه العقول وتحتار، فالهدف من التضليل هو أن تغزو وسائل الإعلام العقل وهو في هذه الحال «المحيرة» بعد تشتيته والتدليس عليه، فتشكله ما استطاعت، وتحركه ما أرادت، وتوجه عناصر تفكيره إلى ما هدفت بالتزوير على الواقع، لتفصل الناس عن واقعهم الأليم الذي يحرك احتجاجاتهم ومطالباتهم، وهذه المسألة واحدة من درجات ما يمكن تسميته بغسيل المخ الجماعي، أو تزييف الوعي، كما هي النظرية الفرعونية في تضليل الناس وخداعهم.

أن إنحطاط الصحف كمصدر رئيس للمعلومات، وإنهيار البرامج الإخبارية المتلفزة الجادة، وإنتشار هذا النوع من التبادل الفكري بين الواقع والواقع الافتراضي يخلق حالة عقلية جمعية لا تستند إلى التحليل المنطقي، إذ ان المزيد من الناس يلجئون الى مواقع التواصل الاجتماعي لاستقاء اخبارهم، والخطر الظاهر فعلا هو ان يجد هؤلاء الاخبار في المواقع التي يذهبون إليها عادة وليس في اوساط موضوعية مكرسة للصالح العام، ولكنهم يذهبون الى المواقع التي تؤيد افكارهم وتتفق مع ميولهم الايديولوجية، وهناك الكثير من الموضوعات التي أثارها الإعلام الغربي ضد

الاسلام والمسلمين وأبرزها: بأن المسلمين عدوانيين، والمسلمون يحتلون أوروبا، ويضطهدون المرأة، ويمارسون العنف تجاه الاطفال، ويسيئون معاملة الحيوانات، ووجودهم تشويه صورة المهاجرين المسلمين في اوروبا، وتصوير الاسلام بوصفه «دينا عربيا» والعنصرية ضد المسلمين، والتحيز في تغطية الصراع الإسرائيلي، إذ أن الصورة النمطية للعرب والمسلمين في الإعلام الغربي تحمل خمس صفات تبدأ كل واحدة منها بحرف B كالأتي:(659)

1 - بدوي Bedouin الهمجي البربري.

2 - الراقصة الشرقية: Blly dancer ثقافة هز الوسط.

3 - رجل البازار Bazar man اي المسلم الذي يعتمد على عمليات لمساومة والابتزاز.

4 - الثري Billionaore الذي يمارس القمار ويشرب الخمر.

5 - الانتحاري Bomber قاذف القنابل الاستشهادي.

وتجسد ذلك التوصيف للاسلام والمسلمين بالكثير من أنواع الخطاب الإعلامي الغربي، فضلا عن الصاق تهمة الأرهاب بهم، وعليه فأن من يتابع وسائل الإعلام الأجنبية يجد الكثير من العبارات والجمل المنحوتة التي تحاول أن تصرف الناس عن تسمية الأشياء بأسمائها أو تحثهم على استبدالها بمسميات أخرى. فالمتشرد أصبح، على لسان السياسيين والصحفيين وممثلي السلطات العمومية، شخصا لا يملك سكنا قارا! وأحفاد الأحفاد الذين هاجروا من القارة الإفريقية أو الآسيوية أو جنوب أمريكا إلى القارة الأوروبية أصبحوا يحملون مسمى "الأقليات المرئية"، والأمريكي ذو البشرة السوداء في الولايات المتحدة الأمريكية أضحى يسمى الأمريكي من أصل إفريقي(لاحظوا أن الرجل الأبيض في أمريكا لا يسمى أبدا الأمريكي من أصل أوروبي)، والأشخاص ذوو البشرة غير البيضاء غدوا يعرفون بالملوّنين، وخادمة البيت تحولت إلى مساعدة عائلية، والمعاقون أصبحوا يسمون

(659) احمد عبد الرحمن موسى، الحروب الاعلامية على الاسلام والمسلمين، دار زهور المعرفة والبركة، الجيزة، مصر، 2013، ص13-17

ذوي الحاجات الخاصة، والكَنّاسُ أطلق عليه مسمى تقني المساحات، والبطال أو المعطل عن العمل تحول إلى "باحث عن عمل"، والقصف الجوي تحول إلى عمليات جراحية، والإبادة أضحت تسمى تطهيرا عرقيا، و"الأضرار الجانبية" حلّت، في حديث وسائل الإعلام، محل قتلى الحرب.

الفصل الثامن

صورولوجيا الاستبداد والطغيان

صورولوجيا الاستبداد والطغيان

يعد مفهوم «الصورولوجيا» مفهوما مرتبطا أساسا بصورة شعب لدى شعب آخر، ذلك لأنها تحمل العديد من التمثلات، ويتحدث الصحافي ميشال غيرن (Michel Guerrin) عن دور الصورة داخل منظومة التناول الإعلامي بالقول: أن الأمر أصبح محبطاً حقاً، لقد أصبحت أملك إنطباعاً بأن الصور تتشابه من نزاع مسلح إلى آخر، وإننا تحولنا إلى مرآة محرفة، لأننا لا نصور إلا ما يراد لنا تصويره، ولعل واحدة من الصور الشهيرة التي تحدت فكرة "الحرب النظيفة" هي صورة جندي عراقي متفحم ومتدل من مركبة عسكرية في أعقاب مذبحة القوات العراقية المنسحبة على طريق البصرة في شباط 1991، كانت هذه الصورة التي التقطها المصور البريطاني كينيث جاريكي(Jarecie) متوفرة لدى الصحف البريطانية والأمريكية منذ يوم الأحد في 3 إذار 1991، ولكنها نشرت فقط في صحيفة الأوبزرفر تحت عنوان "الوجه الحقيقي للحرب" وبإجراء تحليل خطاب بسيط يتضح -بمفهوم المخالفة- أن صور"الحرب النظيفة" الأخرى تمثل أوجهاً "غير حقيقية" للحرب، وقد عزا ملاءمتها للنشر العام، إذ من الممكن أن تسبب صدمة للأطفال، وهو ما رآه كيلنر فشلا حتى في تبرير التعتيم الإعلامي والتأثير المؤسسي الطاغي من جهة، ومظهراً من مظاهر المقاومة المترسبة في لاوعي المشتغلين في الإعلام في الغرب لأية صورة تتحدى مفهوم الإيقونية(Iconism) سواء كانت أيقونة القوة (صورة صواريخ كروز والقنابل الذكية) أو أيقونة الدكتاتورية والهتلرية، وهي المقاومة المتشبثة بالحنين إلى الماضي التليد في الحرب العالمية الثانية.[660]

وقد شغل موضوع توظيف الصورة في الإعلام المعاصر مساحة واسعة من الاهتمام من طرف التقنيين والإداريين والصحافيين حتى أضحى مفهوم الصورة في الخطاب الإعلامي الحديث يخطو نحو مصاف الموضوعات الأكثر أهمية تنظيرا وممارسة، وأصبح موضوعها يسري في كل شرايين الجسم الإعلامي المعاصر، بل أحد محدداته ومرتكزاته الاساس، ومما لاشك فيه أن الصورة بعنفوانها الرمزي لها من التأثير على المتلقي مالم تستطع عليه وسائط أخرى خاصة وأننا نعيش اليوم في زمن

(660) نقلا عن. د.محمد حسام الدين إسماعيل، الصورة والجسد، م. س، ذ، ص81

يسود فيه الخطاب البصري على الخطاب السمعي، فأصبحت الصورة هي المحرك الأساس للتحصيل المعرفي وتعريف الحقيقه، وهنا يكون المواطن العالمي مستهلكًا لتلك الصور التي تزيف الحقائق والواقع ولا تعكسه بالضرورة، الدور الذي تقوم به الصورة الإعلامية في التأثير على المتلقين، إذ يرى المفكر الفرنسي، ما بعد الحداثي (Post modernity)،(جان بودريارد) (Baudrillard) بأن وسائل الإعلام والإتصال عملت على إدخال تغييرات جوهرية وإحداث تحولات جذرية غير مسبوقة في حياة الناس بسبب التطور المدهل الذي طرأ على صناعة الإتصال الجماهيري، فالتلفزيون، بصفته أحد أهم هذه الوسائل، على سبيل المثال "لا يعرض لنا العالم أو يعكسه أو يمثله، بل إنه أصبح بصورة متزايدة يحدد ويعيد تعريف ماهية العالم الذي نعيش فيه"(661).

الصورلوجيا المشوّهة

في احداث فيلم تايتانيك مات تقريبا اغلب الناس بسبب الغرق في ما ان بطل الفيلم مات بعد ساعات بسبب برودة الماء وليس الغرق..! كل من شاهد هذا الفيلم لم يشعر باي نوع من التعاطف اتجاه المئات الذين ظهروا في الفيلم يغرقون بالرغم من ان اغلبهم نساء واطفال..! وكانت أمنية كل شخص شاهد هذا الفيلم هو ان يعيش البطل والبطلة وان ينجوان من الغرق، لكن هل سألنا أنفسنا لماذا شعرت بالتعاطف مع البطل (اللص ومدمن الخمر ولاعب القمار) ولم تتعاطف مع المئات من النساء والأطفال وكبار السن الذين ظهروا وهم يغرقون في الفيلم؟ والجواب على ذلك يكمن في أن المخرج استطاع أن يسلط الضوء على البطل والبطلة فقط وكأنهما الوحيدان على متن السفينة وجعلك تحبهم وتتعاطف معهما بالرغم من كل عيوبهما وتتناسى بنفس الوقت الأطفال والنساء الذين غرقوا من حوله وكأنهم لا وجود لهم، هكذا يتلاعب بنا الاعلام كل يوم، يسلط الضوء على ما يريد وفق منهجه السياسي أو المذهبي أو المنفعة المادية، لا من زاوية الحق؛ سواء كان له أم عليه، فالإعلام بكل وسائله اليوم يمارس هذا العبث القذر على مدار الأربع وعشرين ساعة، وكل

(661) انطوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصُياغ، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت، 2005م، ص512

الأطراف المتخاصمة والمتنازعة في عالمنا اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ترينا المشهد من زاويتها هي فقط، لكن الحقيقة شيء آخر.

فالصور تتراكم في الذاكرة وفي الروح والوجدان، فلا يمكن نسيان صورة كيلان الطفل السوري في مياه تركيا بعد ان التهمته مياه العبور الى الامان، ومثلها صور النازحين من حريق المعارك، وصور مشوهة عن الحروب، و يقول جان انوي عام 1950 "الم تلاحظ أن الحياة الواقعية الحقيقية، بجرائمها وكوارثها، ومواريثها الخرافية، تحدث حصريا تقريبا في الصحف" نعم فعلا اثبتت الوقائع والتقانة المتطورة ان ذلك يحصل، إمكانية الحديث أيضا عن إعتساف وفساد إعلامي، سببه إما خط تحريري مهزوز ومُـوَجَّه، أو توظيف عديمي الخبرة بقواعد السلوك المهني، ويشكو الصحفيون من القيود التي يفرضها عليهم القادة العسكريون ونقص المعلومات التي يزودون بها، والمصاعب التي تواجههم في تغطياتهم للحروب، فإن هناك جدلاً عاماً من الناحية الأخرى حول الصور التي تبثها وسائل الإعلام للإصابات وأسرى الحرب، وتعدّ هذه الصور من الأمور المثيرة للاتهامات بين القادة السياسيين والعسكريين من جهة والمؤسسات الإعلامية من جهة أخرى، وهو ما تجسد في صور انتهاج الانسان في ثورات الربيع العربي كما تسمى.

فضلا عن إنتهاكات وسائل الإعلام للانسان من خلال عرض جرائم الجماعات المسلحة او ما تسمى بـ(داعش) في احتلالها لمدن في العراق وسوريا وعرض المشاهد الاجرامية ضد الناس، ولأننا لا نعيش فحسب في عصر الصور بل عصر "حروب الصور" اشتعلت معارك طاحنة في العالم العربي متمحورةً حول الصورة ورأينا ذلك بقوة في الثورات العربية، فالنزاعات التي لفتت الانتباه دار كثير منها حول الصورة إما صورة قتل أو تعرية أو تشويه، وقد انتبهت الجماعات الارهابية إلى تأثير "الصورة" فكانت سلاحًا أيضًا في حرب نفسية نجحت في ترسيخ صورة ذهنية لها في العالم كيان إرهابي استثنائي في الوحشية، وعملت على "مسرحة القتال" فكانت (داعش) تحاول مسرحة الوحشية وعرضها، فالرموز الصادرة عن هذه المجاميع ثم طرحها على المسرح (On Stage) تلك الصور والرموز قد تتصل بالواقع ولكنها ليست

الحقيقة بحذافيرها، فالصورة هنا من خصائصها تضخيم الأحداث بالإضافة في بعض الأحيان إلى الخداع والإيهام.

أن مفاهيم صورلوجية (Imagologique) ما زالت تشكو من غير قليل من التعتيم، ومنها: الصورة، الميث، القالب، الكليشيه، المتخيل، الهوية، الغيرية، الرأي، النظرة، الآخر، الإيديولوجيا، اليوطوبيا. كما أنها مناسبة لتخليص الصورلوجيا من تهمة الوضعانية، وشرك الموسوعية العقيمة، وأحبولة القومية، والإثنوسيكولوجيا، منتهية إلى الإشادة بالانفتاح على البنيوية ونظرية التلقي والسوسيو- سيميائيات والنقد الثقافي، وهي، فوق هذا وذاك، رغبة حثيثة في رد الاعتبار للصورلوجيا الذي طاله الاعتراض، فأخرج من حظيرة الأدب المقارن، بل ما زالت المؤلفات المخصصة للدرس المقارن تتحاشى الخوض فيه، اعتبارا لمطبات منهجية ونظرية وتطبيقية جعلته مجرد مبحث في السوسيولوجيا أو التاريخ العام والتاريخ الثقافي وإحياء للدراسات المادية القديمة، ودراسة مقنّعة للموضوعات (Stoffgeschichte)، تنشغل بأدب الدرجة الثانية والثالثة.

وقد أثار نشر صور مقتل القذافي في (20 أكتوبر/تشرين الأول 2011) جدلا واسعا في أوساط الوسائل الإعلامية التي كسر بعضها المحظور في ما يتعلق بنشر الصور الصادمة، بينما تجنبت وسائل إعلامية أخرى نشرها، كما اثار نشر صور وفيديوهات عن مقتل الرئيس اليمني علي عبدالله صالح في عدد من وسائل الإعلام جدلا كبيرا في أوساط الإعلاميين خاصة في الغرب، وهو جدل لامس مباشرةً الجانب المتصل بأخلاقيات الإعلام عامة وأخلاقيات نشر الصور المعروفة بالصور البشعة أو المؤذية أو الصادمة (Graphic Images) على وجه الخصوص، ويبدو أن هذا الجدل سيتواصل في ظل استمرار سيطرة النشطاء على المشهد الإعلامي في العديد من البلدان التي يصعب على الصحافة المحترفة العمل فيها بسبب ما تفرضه عليها السلطات هناك من قيود، أو بسبب خطورة العمل هناك، وهذا الجدل قديم بين تيار من الممارسين للمهنة يرى ضرورة أن يرى الناس الحقيقة كما هي بغض النظر عن بشاعة الصورة، وتيار آخر يحتج بأن الصورة الصادمة لها آثار سلبية ومؤذية حقا، وبالتالي يجب ألا تنشر أصلا مراعاة لمشاعر الناس، وثمة تيار ثالث أو وسط يرى المزاوجة بين

التوجهين، أي نشر الصور توصيلا للحقيقة كما هي، والمحافظة على مشاعر الناس في الوقت نفسه، وذلك من خلال التحذير والتنبيه، كما فعلت رويترز في الصورة التالية التي رافقت خبرها الخاص بمقتل القذافي والذي نشر على موقعها، والامر في غايه السوء حين وضعت رويترز صورة على موقعها وكتبت (الصورة أعلاه لتحذير وضعته وكالة رويترز لزوار موقعها مع صورة خبر مقتل القذافي، حيث أوضحت فيه أن الصور مؤذية، وبالتالي تركت خيار مشاهدتها من عدمه للزائر)، أو كما تفعل الكثير من محطات التلفزيون التي تنبه مشاهديها قبل بث الأخبار التي تحتوي على صور مؤذية أو بشعة.[662]

ويقول الفرنسي رولان بارت: بأن الصورة الفوتغرافية تحمل رسالة ذات معنى، مثلها مثل النص اللغوي، لذلك يمكن للمتلقي أن يقوم بتحليل عميق للصور لغاية استخراج المعنى أو الرسالة المراد إيصالها، إذ إن كانت الصورة تعادل ألف كلمة، فإن تلك العبارة لا تنطبق إلا على الصورة الجيدة فقط، تلك التي تضيف إلى الموضوع الصحفي أو الشرح الذي تقدمه الكلمات، والتي لا تكرر ما بداخل النص والصورولوجيا من الموضوعات التي يهتمّ الأدب المقارن بها ويدرسها صورة كلّ شعب في آداب الشعوب الأخرى، وصورة الشعوب الأخرى في أدب ذلك الشعب، وتطلق على هذا النوع من الدراسات المقارنة تسمية "الصورلوجيا" أو "الصورائية"، وتدلّ تلك الدراسات على أن صورة أي شعب في آداب الشعوب الأخرى غالباً ما تكون مشوّهة، إما إيجابياً، أو سلبياً، وهو تشويه يعبّر عن تناقضات اجتماعية وسياسية وثقافية بين الشعوب، فالصور المشوّهة سلبياً، كصورة العرب والمسلمين في آداب العصور الوسطى الأوروبية، كانت صدى أدبياً للصراع الديني والسياسي والعسكري الذي احتدم بين أوروبا المسيحية والشرق الإسلامي في ذلك الزمان، أما الصور المشوّهة إيجابياً، كصورة الشرق في الأدب الرومانسي الأوروبي، وصورة ألمانيا النازية في بعض الأعمال الأدبية العربية، التي كانت تعبيراً عن رغبة عربية في ظهور حليف أوروبي قويّ، يساعد العرب في التصدي للخطر الصهيوني الزاحف على فلسطين، فهي صور تعبّر عن حاجة ثقافية في الأدب الذي ظهرت فيه تلك

(662) aljazeera.net/photos/photoGalary

الصور، وتقوم الدراسات الأدبية المقارنة، الصورائية، باستقصاء صور الشعوب في آدابها، وتحلل مضامينها الفكرية، وتبيّن مواضع التشويه فيها وأنماطه والخلفيات التاريخية والمصالح الاجتماعية والثقافية الكامنة وراء تلك الصور المشوّهة، ولا تكتفي الدراسات الصورائية بالتحليل المضموني للصور، بل تدرس أيضاً جوانبها الفنية والجمالية، وهكذا يساهم الأدب المقارن في فهم صور الشعوب التي تنطوي عليها الاداب، وفي تصحيحها وتحييد آثارها السلبية، وتلك مساهمة كبيرة في حوار الحضارات، ويقول الكاتب الروسي إيفان تورغنيف، في رواية "آباء وأبناء": إن ما يمكن أن تقوله صورة ما، لا يمكن أن يقوله كتاب في ألف كلمة"

الحق في الصورة

هل نخطأ في الصورة؟ سؤال يحتمل الأخطاء، الخطأ الأول يندرج تحت بند عريض معروف في أبجديات الإعلام وبخاصة المرئي والمسموع، تحت اسم «الحق في الصورة»، والمراد به حق المواطن الشخصي في الموافقة أو رفض التقاط صوره له، واستعمالها في تقرير صحافي معين، ويزداد الأمر خطورة حين تُوظّف صورة المواطن في موضوع إعلامي ذي طبيعة سلبية، وهو ما حصل في برنامج «العربية»، حيث بثت القناة وجوها لمواطنين في الشارع العام (يمكنهم التعرف على أنفسهم بسهولة، كما يمكن لذويهم وجيرانهم ومعارفهم أن يتعرفوا عليهم) وربطت تلك الصور بموضوع الفساد وأنواعه: الرشوة، المحسوبية، الواسطة، المحاباة، نهب المال العام، ومما زاد الطين بلة أن «العربية» أيضا استعملت في الموضوع نفسه صورا التقطتها كاميرا القناة لمتعاملين مع أحد البنوك وهم يعدّون أموالهم أمام الشباك؛ وصادف بث تلك الصور حديثٌ عن الإثراء غير المشروع. ولم تجد القناة حرجا في إعادة بث صور المواطنين والمتعاملين مع البنك طيلة البرنامج، حيث أثثت بها التقارير والتصريحات، وبذلك قامت بتجريم أولئك المواطنين عن جهل واستخفاف، وحولتهم إلى متهمين بالفساد! ولو كانت القناة تُبث في بلد يعي فيه المواطن حقوقه، ومن ضمنها الحق في الصورة، ويمارس تلك الحقوق، لرفع المتضررون دعاوى قضائية ضد قناة «العربية» التي تدّعي المهنية، وهي منها براء.

أن الصور تتحكم بالأحلام، والاحلام تتحكم بالأحداث، وهذا لأن معظم

الناس يتبنون وجهة نظر العالم التي تنم عما يفعلونه على اساس عاطفي أكثر منه عقلانيا، انهم يصدقون الاخبار ليس من خلال تأمل الافكار وموازنتها وإنما من خلال الصورة التي يشعرون أنهم جزء منها ويرتبطون بها، ويميل الناس إلى الانسياق وراء سرد يعتمد على الصور التي يتماهون معها، الصور التي تعكس الكرامة والتقدير والمكانة داخل ثقافتهم، اي الصورة التي تمثل مركبا فكريا وعاطفيا في لحظة ما من الزمن، ويتذكر مشاهدو الفضائيات الفرنسية كيف أن مواطنا كسب دعواه ضد إحدى القنوات التي التقطت له صورا برفقة بعض أصدقائه حين كان يقضي عطلته في مصطاف تايلندي بشكل عادي، وأدرجت تلك الصور ضمن تحقيق عن السياحة الجنسية في ذلك البلد الأسيوي، بينما لم يثبت أن المواطن الفرنسي المومأ إليه زار بانكوك من أجل الجنس، فالصورة، كما يقال، بألف كلمة، فالصور لا تكذب، ولهذا كانت تعد دليلا حاسما في المحاكم وغيرها، ولكن أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، ومع تطور تقنيات الصور، اكتشفنا أنه أصبح من اليسير تزييف الصور، وتركيبها، ومنتجها، بالإضافة إليها أو الحذف منها، او خلق واقع لم يكن في الاصل، وطالما رأينا أبطال أفلام في مواقف يلتقون فيها مع شخصيات تاريخية حقيقية، ولكنها مواقف مختلقة، أنصع مثال على ذلك، ما رأيناه من الممثل توم هانكس في دور فوريست غمب، وهو يسلم على ثلاثة رؤساء أمريكيين، ويتبادل الحديث معهم في ثلاث مراحل من حياته، وهم جون كنيدي، ولندون جونسون، وريتشارد، نيكسون، وهي بطبيعة الحال لقاءات لم تحدث في الواقع، كل ذلك كان ممكنا بمساعدة تقنيات كومبيوتر مختلفة، واشد تأثير للتلاعب بالصور يتمثل في إظهار القلة من الناس، وكأنهم حشد كبير أو العكس، بأختيار زوايا التصوير أو إعادة تصوير لقطات لمجموعة محددة من الناس ثم طباعة اللقطات معا.

وبشيء من التمويه، تبدو الصورة وكأنها لمئات الاشخص، ومن أشهر أمثلة التلاعب بالمجاميع هي الصورة الشهيرة لإسقاط تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس في بغداد في يوم احتلالها في 9/نيسان/ 2003، وقد ارادت القوات الامريكية إنتاج رمز تظل في ذاكرة الشعوب، مثل صورة إسقاط جدار برلين

وغيرها، فالصورة كما ظهرت (في تصوير مباشر أو مسجل) كانت لجماهير غفيرة من العراقيين يتحلقون حول التمثال يحاولون إسقاطه، وحين لم يتمكنوا (وربما كانت هذه من ضمن السيناريو) تقدمت دبابة امريكية واسقطت التمثال، إذ رأى العالم كله هذه الصورة، وسمع التعليق المصاحب، والذي يعبر عن فرحة العراقيين وخروجهم بشكل عفوي الى الشارع لإسقاط التمثال، ومن المعروف ان التمثال كان يقوم وسط ساحة تقع أمام الفندق الذي أتخذه الصحفيون والإعلاميون الاجانب المرافقون للاحتلال مقرا لهم، ولهذا كانت عملية إسقاط التمثال في مكانها المناسب، ولم تمض عدة أسابيع حتى عرف العالم أن الصورة كانت مفبركة وكانت سيناريو هوليوودي، وكان جموع الناس وحشد الجماهير لم يكن سوى الصحفيين، ومجموعة من عراقيين معارضين كانوا قد نقلوا بالمروحيات الامريكية من الناصرية (وصولا من الكويت) مع الغزو، وأن كل الموجودين لم يزد عددهم على مائة شخص، وأن الدبابات الامريكية كانت تحيط بالساحة لحراستهم (مما لا يجرؤ معها أي أنسان عراقي عادي في ذلك اليوم غير العادي، أن يخترقها) ولكن لا شيء من هذا ظهر في الصورة، وانما أستخدمت زوايا الكاميرات بطريقة تظهر جموعا حاشدة، إذن، الصورة لم تعد إنعكاسا حسما للحقيقة، مع تطور التقنيات، تداخل الواقع بالافتراضي، والحقيقة بالخيال، والصادق بالمزيف.[663]

وتشمل الصورة السلبية للعربي في وسائل الإعلام الأميركية الرسوم الكاريكاتورية، حيث قال السناتور جيمس أبو رزق إن المفكر والباحث المعروف نعوم تشومسكي لخص هذا الوضع جيدا حين قال إن "الصحافة الأميركية تمارس الخزي والعار بصورة منتظمة بنشر رسوم كاريكاتورية لشيوخ عرب مصممين على تدمير الحضارة الغربية عن طريق زيادة أسعار النفط، ولو نشرت رسوم كاريكاتورية مماثلة لليهود لتعرضت للإدانة لأنها ستشكل عودة إلى الأبواق الدعائية النازية، وقد سئل مسؤول في إحدى قنوات التلفزيون الأمريكي، لماذا يبث بكثرة أخبار الحروب والحرائق والأعاصير، فأجاب لأن صورتها أجمل في الشاشة، تندرج هذه

(663) نيثان غردلر، ومايك ميداقوي، الإعلام الامريكي بعد العراق، حرب القوة الناعمة، ترجمة وتقديم، بثينة الناصري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015، ص8-9

الإجابة ضمن منطق الفرجة الذي يدفع القنوات التلفزيونية إلى إعادة النظر في تراتبية الأخبار، فلم تعد الأحداث الهامة أو المهمة تحظى بأولوية البث لأنعكاساتها الإجتماعية والإقتصادية والثقافية، بل أصبحت الأولوية تعطى للأحداث التي تملك بعداً مرئياً ومشهدياً، أي تلك التي تجذب النظر، وربما تفتنه لقوتها الدرامية، ووقع صدمتها في ذات المشاهد، لذا نلاحظ أن القنوات التلفزيونية تتسابق لبث الأحداث المتعلقة بالإغتيالات والجرائم والكوارث الطبيعية، وتختلق صوراً للحروب إذا لم يسمح للصحافيين بإلتقاطها من الواقع، ومن خلال أساليب التحليل الثقافي يمكن الاستدلال على الحقائق المحرفة او الصور الزائفة، لكونها تسهم بمرور الزمن وبعد الاتفاق الاجتماعي حولها، تسهم في عمليات التغيير في المجتمع، ويتأثر بها أفراده في البناء الثقافي والاجتماعي.(664)

ودخلت الصورة السلبية للعربي في وسائل الإعلام الأميركية في مرحلة جديدة في أوائل القرن العشرين مع انطلاق السينما التي أحدثت ثورة كوسيلة ترفيهية وإعلامية وفي تقديم الصور المتحركة، بالإضافة إلى الدور المتزايد للصحافة المطبوعة في المجتمع الأميركي. وتصاعد دور الإعلام الأميركي في تشويه صورة العربي في أواسط القرن العشرين بعد الحرب العربية- الإسرائيلية في العام 1948 وظهور إسرائيل إلى حيز الوجود وبدء هيمنة اللوبي الصهيوني على السياسة الأميركية المتعلقة بالشرق الأوسط، وتزامن ذلك مع ظهور وسيلة ترفيهية وإعلامية فعالة من نوع جديد هي التلفزيون الذي انتشر في المنازل والأماكن العامة الأميركية في أواخرأربعينيات القرن الماضي. وتضمنت أخبار التلفزيون وبرامجه ومسلسلاته منذ ذلك الوقت عددا لا يحصى من الأمثلة على التحيز ضد العرب في صالح إسرائيل وتقديم صورة سلبية للعربي والسخرية منه في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، ويتجسد ذلك في صياغة العقل الغربي والأمريكي خاصة وصناعة نظرته للإسلام والعالم الإسلامي، والتي يمكن تمييز الصورة النمطية التالية كما جاءت في تقرير (اللجنة العربية لمكافحة التميز)، والذي قسمها لسبع فئات رئيسة:

(664) د.يوسف محمد، النظريات النفسية والاجتماعية في وسائل الاتصال المعاصرة والالكترونيه، م، س، ذ، ص201

1 - **الصورة النمطية العامة:** وتصف العرب بـ (راكبو الجمال)، و(عبيد الرمال)، (البدو)، (الواحة)، (الصحراء)، (الحريم).

2 - **ساحة تنافس لعيش الأبطال الغربيين، ولمغامراتهم العاطفية في:** (ألف ليلة وليله)، (الجن)، (البساط السحري)، (الأميرات).

3 - **صور نمطية عن الإسلام:** (سفاحون)، (إرهابيون)، (محاربون)، (متطرفون)، (مغتصبون)، (مضطهدون للمرأة)، (الجهاد)، (الحرب المقدسة).

4 - **صورة نمطية عن الفلسطينيين:** (مفجرو طائرات)، (إرهابيون)، (يحاولون تدمير إسرائيل ورميها في البحر).

5 - **صورة العرب الصالحون:** (شخصيات ثانوية دونية)، (سلبيون)، (شخصيات ثانوية بالنسبة للأبطال الغربيون).

6 - **صورة الرجل العربي:** (شيخ بترول)، (ثري جدًا)، (طماع)، (قذر)، (غير متعلم)، (فاسد)، (عنيف)، (عنده خطط سرية لتدمير أمريكا)، (يخطف النساء الشقراوات الغربيات)

7 - **صورة المرأة العربية:** (مضطهدة من الرجال العرب والمسلمين)، (حريم مترفات)، (راقصات عاريات)، (جميلات يقعن في حب البطل الغربي لينقذهن).

تزييف الصورة وتشويهها

يرى ريجيس دوبريه أن هوليود هي التي أسقطت الشيوعية إذ يعود إلى إفتقارها للصور أكثر مما يعود إلى إفتقارها للأفكار، وأن ما قطع ساقيها هو سقوط ما كان عندها من مصانع أحلام لم تقوَ على منافسة هوليوود، وهنا يتوارى دور الصورة في الحرب مع مضمون ما قاله أحد كبار ناشري "الصحافة الصفراء" وليام راندولف هيرست(William Randolph Hearst) لفريق الرسامين، مع بداية الحرب الأسبانية الأمريكية:"اعطوني الصور، وسأعطيكم الحرب" وأصبح قوله بمنزلة بداية لمرحلة رأى فيها الكثيرون "الحرب كوسيلة لبيع الصحف" أي أن هذا القول يقترح أن تنفخ الحروب والنزاعات من خلال التغطية الإعلامية، ويقول الفيلسوف الفرنسي(ريجيس دوبريه) بأن الصورة الرقمية قضت على الهامش الذي يفصل بين

الصورة ونسخها، حيث لا توجد نسخة ولا أصل للصورة الرقمية لأنها هي الصورة والأصل في الوقت ذاته[665] والصورة الاعلامية المستبدة والمتعسفة هي بالاساس صورة في فكر صانع القرار الإعلامي المسيطر على وسيلة الاعلام، والذي يرسم ملامح بخطوط عريضة تتناسب طرديا مع مدى سيطرة صانع القرار على الوسيلة، وبهذا تتحدد هوامش الحرية التي تتركها السلطات سواء كانت سلطة الدولة او النظام الاعلامي اوالممول الاقتصادي، وبالتالي فإن تعليمات صانع القرار الاعلامي تنتقل إلى القائم بالاتصال الذي يحدد طبيعة تلك الصورة من خلال (فلترة) او تصفية المادة الاعلامية فتلوين المواد الاعلامية يكون من خلال تقديم تلك الصورة بطرق واشكال متعددة ومختلفة لكنها في النهاية تصب في الاتجاه الذي يحدده صانع القرار الاعلامي، وقد ناقش "بودريار" في مؤلفه "حرب الخليج لم تقع"" (بمعنى ان صورة حرب الخليج التي قدمتها وسائل الإعلام الغربي، ليست هي حرب الخليج، إنها "فوق-الواقع") الغزو الامريكي للعراق، والتلاعب الاعلامي بالوقائع والمعطيات وبراعة الاخراج بإختلاق الروايات، تجعل المشاهد يرى أن الحرب هي السلم فلقد عمل الاعلام على إلغاء واقعية الواقع، مشاهد الجنود الامريكيين يتصرفون في العراق لعبة إلكترونية، بل وإصدار أغلب الالعاب الالكترونية بالفعل التي تصور الحرب في العراق، حيث يموت الناس امام المشاهد، كما يموتون في مشاهد اللعبة لا اكثر، ادعاء بأن هذه الحرب هي لحفظ السلام، بينما الواقع أحداث اليمة من الاغتصاب والقتل غير المبرر، ولذلك يرى "بودريار" ان الدول التي تواجه الغرب هي واقعية التضاد بين طيف امريكا (تجسيد العولمة) وطيف الاسلام. فيما أن (الفوق واقعي) هو ما تدعيه امريكا أنها المخلصة من الارهاب الذي يتجسد في الاسلام قائلا "استطاعوا ان يجعلوا موتهم سلاحا مطلقا ضد نظام يحيا من استبعاده الموت، وكل وسائل الردع والدمار لن تكون مجدية ضد عدو سبق ان جعل موته سلاحا هجوميا مضادا" وهو يرى ان هذه الخصوصية هي الامل الوحيد الذي يلحظ فيه بقاء الرمزية المحافظة على صلتها وجذورها العميقة في الحياة والاجتماع، هذا الامر الذي تفتقده الحضارة الغربية، فقد جعلوا من خلاله الحرب العدوانية حربا

---

(665) نصر الدين العياضي، إشكالية الصورة في وسائل الإعلام العربية، مجلة الرافد، الشارقة، العدد(74) أكتوبر ٢٠٠٣ م، ص12

نظيفة، لأنه لم يمت فيها ولا جندي امريكي، وجعلوا المقاومة النظيفة إرهابا، فالدم العراقي الذي سفكته آلة الغرب كان أصحابه لا يتعدون كونهم أرقاما تعرض على الشاشات.[666]

فالمصوّرون يسجّلون الحروب، والمظالم، والفقر، والمأساة الإنسانية، والفرح الإنساني، وتكرّس نفوذ الصورة عبر السنين في التأثير على الرأي العام، بتوثيق الكوارث، وإطلاعنا على الحروب في جوانبها المرعبة، وكان لدى مصوّري الحروب رؤى عظيمة، حيث أن الصور التي التقطوها تكشف فظائع الحرب التي قد تساعد في منع وقوع حروب مستقبلية، وكان بعضهم يعتقد أن الصور التي يلتقطونها ستؤدي إلى إنقاذ العالم، فهناك عدة آلاف من صور حرب فيتنام قد شوهدت بعد أيام من إلتقاطها، وتركت أثراً على كثير من الجمهور في أرجاء عديدة من الكرة الأرضية، وأطلقت مشاعر الغضب والإحتجاج ضد إستمرار الحرب بفعل فظاعة الحرب كما عكستها الصورة، هي ذات الوسيلة التي غيّرت وجه العالم في الحادي عشر من سبتمبر 2001، حيث لعبت الصورة الحيّة في تغيير حركة التاريخ، بعد أن أفاق العملاق الأميركي على صدمة هلع وهو ينظر إلى رمزي التفوق يتداعيان في مشهد مشحون بدلالات حضارية وثقافية، ولا ننسى دور الصورة في حروب المنطقة بدءً من أفغانستان ووصولاً إلى لبنان، وهانحن نعيش حرب الصورة في العراق التي تكسو المشهد اليومي بؤساً مضمّخاً بلون الدم، وقد تأكد لدى القيادات العسكرية الامريكية منذ حرب فيتنام، إذ أن الحرب في جانب أساسي منها، هي حرب صورة، وقد تم تفعيل هذا المعطى في حروب المالوين، وغرينادا، وبنما، وعدوان التحالف الامريكي على العراق عامي (1991 و2003) وذلك باللجوء الى تقنيتين، تمثلت الاولى في حجب الاخبار والاحداث، والثانية في إغراق المشاهد بالصور حتى لا يستطيع معها تبين ما هو جوهري وأساسي، أي لفت النظر عن حقائق هامة، فأستطاع الإعلام لامريكي بحكم احتكاره للصورة وهيمنته على نظام الإعلام العالمي أن يعطي عدوانه على العراق عام (1991) صورة مشوهة هي أقرب للوهم

(666) محمد علي فرح، صناعة الواقع وضبط المجتمع، أفكار حول السلطة والجمهور والواقع، م، س، ذ، ص195-196

منها إلى الحقيقة، وهذا ما أكد عليه مستشار الامن القومي الامريكي السابق (برجينسكي) بضرورة الاستعمال الفعال لأخر تقنيات الاتصال لكي تلعب بالعواطف وتسيطر على العقل مؤكدا الاعتماد على التلفزيون ومن ثم الاتجاه نحو استبدال اللغة بالصورة وهي عالمية اكثر من كونها وطنية، إذ نستطيع القول ان عملية غزو العراق واحتلالها في معظمها أديرت باساليب هوليوودية، الصورة الضخمة المؤثرة (المتحركة والجامدة) والمقصود بها التأثير اولا على الشعب الامريكي ثم الرأي العام العالمي، ثم الشعب العراقي في اخر المطاف، وهو مايعكس ان ماحصل مقصودا، ومتفق عليه، ووفق وضوح الصور الاتية:[667]

- اول الصور كانت طابورا من الجنود العراقيين رافعي الايدي مستسلمين للقوات الغازية، كان ذلك في جنوب العراق، وقيل فيما بعد ان الصورة كانت مفبركة، لان قوات الاحتلال قد جوبهت بمقاومة من الجيش العراقي أخرته اسبوعين عن الوصول الى بغداد.
- ثاني الصور كانت صورة المجندة الامريكية جيسيكا التي قيل إن قوات امريكية أنقذتها بطريقة اسطورية من مستشفى عراقي، ثم اتضح ان الاطباء العراقيين هم الذين طلبوا من الامريكيين المجئ لاستلامها، ولم تكن العملية شجاعة رامبو، كما صورها الإعلام.
- ثالث الصور المهمة كانت إسقاط التمثال في ساحة الفردوس في بغداد.

رابع الصور كانت صورة الرئيس جورج بوش على حاملة الطائرات، مرتديا ملابس طيار مقاتل، وخلفه لافتة تقول "انتهت المهمة" ملقيا خطابا حول إنتهاء المهمة في العراق، كان ذلك في 2003/5/1 ونعلم أن (المهمة) لم تنته حتى الان.

- خامس الصور كانت صورة الرئيس صدام حسين مقبوضا عليه في حالة شعثاء خارجا من (حفرة) تحت الارض، وقد عرف العالم فيما بعد ان طريقة الاعتقال لم تكن هكذا قط، ولم تكن في ذلك المكان.
- سادس الصور كانت صورة صدام ايضا وطبيب الاحتلال يفحص فمه، وهي عملية تجري عند استلام أي أسير، ولكن تصويرها كان من أجل تثبيت صورة

(667) نيثان غردلر، ومايك ميدافوي، الإعلام الامريكي بعد العراق، م، س، ذ، ص

جديدة لصدام "الخائف، الخانع، المستسلم" وهي صورة تناقض ما ظهر عليه في المحكمة مثلا، أو لحظة الإعدام.

- سابع الصور كانت صور انتهاك المعتقلين في ابي غريب، ولا ندري إذا كان التسريب برغبة أمريكية من أجل بث الخوف في نفوس العراقيين، أي عملية حرب نفسية، ولكن على أية حال، صارت الصور وبالا على صورة امريكا (حامية الانسان والديمقراطية والحرية) في عيون الاخرين.
- ثامن الصور كانت (الاصابع البنفسجية) والانتخابات الاولى في العراق، باعتبارها المظهر الاول للديمقراطية.
- تاسع الصور كانت صورة أبي مصعب الزرقاوي قتيلا، فلم يره أحد قبل ذلك حيا، ولكنه كان قد (دوخ) الامريكيين والعراقيين بظهوره في وقت واحد في كل مدينة عراقية واختفائه على مسافة لحظات من أعتقاله، وبعض المراقبين الامريكيين والمحللين الاجانب يعتقدون بأن الزرقاوي كان مجرد "اسطورة" من أساطير هوليوود.
- عاشر الصور كانت لحظة إعدام الرئيس صدام حسين، وهي مثل صور ابي غريب، ربما سربت بقصد التأكيد على خروج الرئيس العراقي من مسرح الاحداث، ولكن الصور كانت وبالا ايضا على صورة الامريكيين في عيون الرأي العام العالمي.
- كانت أخر صورة في مسيرة الحرب على العراق واول الصور في عهد اوباما، هي صور (الانسحاب) المفترض، للجنود والمعدات، ولكنها كانت صورا خادعة ايضا، لأن قوات الاحتلال لم تنسحب حقا، وإنما غيرت تسمينها فصار عنوان الجنود المقاتلين (مستشارين ومدربين) للجيش العراقي.

تفرعن صور الفضاء المفتوح

والتفرعن (من فرعون) بالصورة الإعلامية لا تعني فقط الانطباع والتصور العقلي المقصود لدى القائمين على الوسيلة الإعلامية حيال جماعة عرقية او جندر او طبقة او دولة بعينها، ولكنها تعني ايضا كيف ظهرت هذه الصورة في شكل نص إعلامي في ظل جملة من المرتكزات، اهمها السياسة الإعلامية المنبثقة أساسا

من سياسة الممول لهذه الوسيلة، سواء كانت الدولة او رجال اعمال وذلك بهدف تشكيل جملة من الافكار حول تلك الجماعة/الجندر الطبقة تريد الوسيلة تقديمها للجمهور، مثلما يسعى التلفزيون الى دفع الامور نحو إضفاء طابع "الدراما" وذلك بمعنى مزدوج: إنه يضع في المشهد، في الصورة، واقعة أو حدثا ثم يقوم بالمبالغة في أهميتها، في خطورتها، وفي صفاتها الدرامية والتراجيدية.[668] وكانت صناعة الصورة الإعلامية الإخبارية في الحرب على العراق وغزوه، أكثر قوة وبراعة، وأكثر إتقاناً وإحكاماً، بحكم تراكم المعرفة الحرفية لدى محترفي صناعة الصورة والتلاعب بها، ويبقى كذلك الخوف والتخويف الذي تحمله الصور الإخبارية لهذه الحرب غير مسبوق، من حيث الحرفية في التضليل وفي لي الحقائق وتزييفها بهدف كسب التأييد الشعبي لتلك الحرب، ليس على المستوى المحلي الغربي فحسب، بل على المستوى العالمي أيضاً، ولم يكن ذلك، ممكناً لولا إستخدام المؤسسة الإعلامية الصور الإخبارية المخيفة بشكل مكثف وحرفية فائقة، وأما الإثارة من خلال العنف فلقد أمست الصورة ولا سيما تلك التي تبثها القنوات الإخبارية أو قنوات الأفلام مشحونة بمحتوى عنفي حقيقي، نشرات الأخبار توثق أحداث القتل والانفجار والدمار، والصراعات والحروب، وفي كل ذلك يتفنن المراسلون والمذيعون والمخرجون، من أجل إحراز السبق في الإثارة، في التركيز على الصور الأكثر فظاعة وهولاً، إنما تكمن المشكلة في أن هذه الصور تعرض مسلوخة عن سياقها التاريخي والسياسي، وتقدم مكثفة وكأنها حقيقة قائمة بذاتها، ومن النادر أن أهتمت القنوات الفضائية بالوقوف عند تاريخ هذه الأحداث وأسبابها وأبعادها السياسية والإنسانية، وهنا لا يختلف أثنان بأن الصورة سلاح، والصورة سلطة، وسلطتها مخيفة، و"الصورة تقتل" على حد تعبير المخرجة الأرجنتينية آنا كاتز، والصورة ليست حيادية على الأطلاق، وصورة الواقع ليست الواقع، وهي في النهاية نتاج موقف "إيديولوجي" يتلاءم مع جهة السلاح الذي أطلقتها مثلما يتعرض جهازنا الحسي لوابل مستمر من الصور السريعة الحركة، والموسيقى، والمؤثرات الصوتية، والذي يؤدي في نهاية المطاف إلى إن تصبح قدرتنا على إتخاذ قرارات عقلانية إزاء أي شيء أمراً صعباً.[669]

(668) بيير بورديو، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، م، س، ذ، ص50
(669) آرثر اسا بيرغر، م، س، ذ، ص95

وفي الشؤون الدولية لا يلتقط الرأي العام السياسات بشكل مفصل وتحليلي، ولكنه يكون استنتاجاته اعتمادا على الصورة، ففي حين كان تمثال الحرية رمزا لأمريكا، اصبح سجن ابو غريب برأسه المغطى بالقلنسوة في نظر الكثيرين، هو الرمز الامريكي الجديد، خلال حكم بوش (على الرغم من حقيقة ان انتخاب بارك اوباما رئيسا فعل اكثر مما فعلته كل سنوات دبلوماسية بوش العامة في إعادة بعض الالق لصورة أمريكا) في قضية اليابان، كان هناك سابقا (توجو Tojo) هامش:وهو الاسم الذي اطلقه الحلفاء على (ناكاجيما كي) ولدينا تويوتا، في اوائل ما بعد الحرب الباردة، كان منظر غورباتشوف، وهو يأخذ حفيدته إلى ماكدونالد ، يرمز لشيء، في حين ان صورة بوتين عاري الصدر، مبرزا عضلاته، هو يصطاد خنزيرا بريا في الغابات الروسية يرمز لشيء آخر اكثر تهديدا، واقرب إلى رامبو للسلطة الوحشية من صورة غلاسنوست أو بحيرة البجع التي يشعر معها الغرب بإرتياح أكبر، وبسبب قلة الخبرة المباشرة يتعرف في واقع الاخرين يتعرف الناس على هذه الصور من خلال وسائط الاعلام، واكبر منتج للصور في التاريخ الانساني بطبيعة الحال هي هوليوود، وبشكل عام، كل ما يعرفه الامريكيون عن العالم وكل ما يعرفه العالم عن امريكا يأتي من خلال الشاشة، وتتحدد الاستجابات من خلال نظام الرموز والمعاني الذي يبنيه الفرد للاشياء والاشخاص والمواقف، وبالتالي كلما اتسع إطار المعاني المشتركة تشابهت الاستجابات في عمليات التفاعل الاجتماعي المختلفة، وهذا هو ما تهتم به نظرية التفاعلية الرمزية التي تعنى بطبيعة اللغة والرموز في شرح عملية الاتصال في إطارها الاجتماعي، ووفق ذلك نجد أن الافراد يرسمون صورا للواقع من خلال نظام خاص للرموز والمعاني يكتسبه الفرد في العمليات الاتصالية المتعددة.[670] وعليه لم تعد الصورة محاكاة للواقع، بل هي مغايرة مقصودة، وإن ثمة تحولات في المشهد الإعلامي تفرضه الصورة بوصفها حقلا معرفياً وليس "بصمة"ذات دلالات تطابقية مع الواقع، إنها تعيد إنتاج الواقع كما تتطلبه الغايات التي تقف وراءها وهي بذلك تسائل السياسة، بل تعوض عن فعل السياسة في التعبير عن المشهد كما هو، وربما بتعبير آخر هي محرض على تغيير المدركات بقدر ما تقدم من إبهار ومصارحة

(670) د.يوسف محمد، النظريات النفسية والاجتماعية في وسائل الاتصال المعاصرة والالكترونية، م، س، ذ، ص190

ضمنية في مضمونها، لأن السياسة تعنى بممارسة الأعمال الإنسانية التي تسوي أو تدعم وتتابع الصراع بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة، والتي تشتمل دائماً على إستعمال القوة أو السعي إليها، هي المعنى عينه في إحتدام الصراع داخل منظومة الإعلام وخارجه كما نراه اليوم، بيد أن الأمر أحتلف عما هو في سابق عهد الإعلام، فلم تعد السياسة تمارس من وراء الحائط، عبر وسطاء من الكتاب في الصحافة أو المعلقين في الإذاعة، فقد أحترق التلفزيون كل الحواجز، وجاء شاهراً سيفه في الصراع بين الأطراف المختلفة، وعندما تفجّر الحراك الشعبي (الربيع العربي) نهاية عام 2010 في تونس، كان التلفزيون هناك ليبشر بإمتداد الإنتفاضة إلى كل دول أنظمة الإستبداد العربية، ومثل الوجود بحد ذاته موقفاً سياسياً، كما إن ثبات الكاميرا في مواقع الإحتجاجات كان إصراراً على المتابعة لإنجاز المهمة ضمن رسالة سياسية لا يمكن المواطن-المشاهد أن يهمل أبعادها، هذا عدا الوقت المحدد الممنوح لتغطية الحدث، وتصدر الخبر في دورات النشرات الإخبارية على مدار الساعة، وإدامة زخم التغطية عبر تكريس البرامج السياسية والثقافية لتناول الموضوع واستضافة المختصين من ذوي الخبرة أو الشأن للتعليق على تطورات الأحداث، وبهذا المعنى يضمن التلفزيون إستمرار المشهد حياً بين المشاهدين.[671]

توحش الصورة وطغيانها

يقول العميد مارك كيميت (Mark Kimmitt) المتحدث بأسم الجيش الأمريكي في العراق ونائب رئيس القيادة المركزية للتخطيط والعلميات في نيسان 2004م، فقد أجاب عندما سئل عن الصور التي عرضها التلفزيون العراقي للمدنيين الذين قتلتهم القوات الأمريكية في الفلوجة بقوله: "غيّر القناة..غيّر القناة إلى قناة إخبارية نزيهة ومسئولة وذات شرعية"، في إشارة واضحة إلى تكذيب وسائل الإعلام غير الأمريكية في بثها لهذه الصور، فيما يقول المصور الصحفي جون كلود كوتوس: إن السبب يكمن في أن الصورة الفوتوغرافية لا تبوح، دائما بالحقيقة، لأنها لا تملك سوى بعدين. الطول والعرض، وتفتقد الروائح والضجيج، هذا فضلا من أنها تقصي كل من يوجد خارج الإطار الذي تم تصويره، فيكفي في بعض الأحيان

(671) د.صباح ياسين، الإعلام الفضائي في الوطن العربي، م، س، ذ، ص124-125

أن نغير الأطار الذي يتضمن الصورة حتى يتغير المعنى، وتستبدل "الحقيقة"، وعليه فأن عالم الصورة تهيمن عليه الكلمات، الصورة لاتعني شيئا دون التفسير (المفتاح) الذي يقول ذلك الذي يجب ان تتم قراءته-مفتاح التفسير- ذلك يعني ان هناك مفسرون يقومون برؤية أي شيء، فاللغة الطبيعية تختلف من حيث خصائصها وتوظيفاتها عن اللغة البصرية، إذ ان اللغات البصرية تقيم مع باقي اللغات علاقات نسقية متعددة ومعقدة، ولا أهمية لإقامة تعارض ما بين الخطابين اللغوي والبصري كقطبين كبيرين يحظى كل واحد منهما بالتجانس والتماسك في غياب أي رابط بينهما، وهذا نابع من خصوصية كل خطاب، وكل رسالة.[672] وتستند الصورة من أجل إنتاج معانيها إلى معطيات يوفرها التمثيل الإيقوني، كإنتاج بصري لموجودات طبيعية تامة(وجوه، أجسام، حيوانات، أشياء من الطبيعة) وتستند من جهة ثانية إلى معطيات من طبيعة أخرى، يطلق عليه التمثيل التشكيلي للحالات الإنسانية، أي العلامة التشكيلية:الإشكال والخطوط والألوان والتركيب، إذ أن المضمون أو المضامين الدلالية للصورة هي نتاج تركيب يجمع بين ما ينتمي البعد الإيقوني(التمثيل البصري الذي يشير إلى المحاكاة الخاصة بكائنات أو أشياء) وبين ما ينتمي إلى البعد التشكيلي محسد في أشكال من صنع الإنسان وتصرفه في العناصر الطبيعية، وما تراكمها من تجارب أودعها أثاثه وثيابه ومعماره وألوانه وأشكاله وخطوطه، وتعد الصورة ملفوظاً بصرياً مركباً ينتج إستناداً إلى التفاعل القائم بين مستويين مختلفين في الطبيعة، لكنهما متكاملان في الوجود، فكما أن العلامة الإيقونية تشير إلى تركيب لمجموعة من العناصر المؤدية إلى إنتاج دلالة ما، فإن العلامة التشكيلية لا تشغل بإعتبارها كذلك إلا في حدود تأويلها ككيان حامل لدلالات.[673]

ويقول عالم السياسة الفرنسي هنري مدلان: الصورة تمر وإذا لم نتشبث بها مرت بسرعة، وحرمتنا لذة فهم الصورة التي سبقتها، حرمتنا رفقة الزمن الصوري الذي يتقدم بسرعة فائقة غير آخذ بالإعتبار الزمن النفسي الذي يسمح بالتمهل

(672) د.محمد حسام الدين اسماعيل، ساخرون وثوار، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص12

(673) قدور عبدالله ثاني، سيميائية الصورة مغامرة سيميائية في اشهر الارساليات البصرية في العالم، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، 2008، ص126-127

والتفكير والنقد، ويؤكد جان جاك روسو (إن قلة الرؤية تدفع إلى مزيد من التخيل) وهكذا فإن إكتساح الصورة في البيئة الاتصالية والفضاء الالكتروني، لم يحد من التخيل فقط، بل أدى إلى تبسيط الواقع وتسطيحه، وهذا بفضل فائض العاطفة، الذي نجم عن إن الصورة بحكم ملموسيتها تملك بعداً عاطفياً أكثر من اللسان الذي يعد معطى تجريدياً، هذا البعد يتضخم نتيجة تركيز القنوات الفضائية على الأحداث الدرامية والمأساوية، لهذا تعمل الصورة على توحيد التجربة الإجتماعية العملية أو الرمزية على أسس عاطفية أمام إنكماش المتخيل، فالصورة هي عماد ما بات يطلق عليه (المجتمع الإعلامي) وهي تقدم نفسها كمرجعية أولى وأخيرة، لا يقس على سواها، بل إنها توهم الشباب أنها هي الواقع، و لمذهل في تدفق الصور هو قدرتها الفائقة على تعطيل الحواس الأخرى، وتحفيز الغريزة والمتعة، لأن تلقيها لا يتطلب جهداً أو تركيزاً، و يقول الباحث الفرنسي بول فيدو: إننا ضحايا الحرب التي تجري في الشاشة الصغيرة، شأن ضحاياها الحقيقيين في أرض الواقع، كما كتب إغناسيو راموبيه رئيس تحرير لوموند ديبلوباتيك في"أكاذيب الإعلام"."برغم كون الخسائر البشرية في بما هي صعف الخسائر في أحداث بوخارست، إلا أن أحدا لم يتحدث عن "المذبحة البنمية" أو عن "المقابرالجماعية" فيها، لأن الجيش الأمريكي لم يسمح للصحفيين بتصوير أو عرض صور عن مشاهد الحرب، وأية حرب لا مرئية لا تثير أحدا، ولا تغضب الرأي العام".(674)

وبما أن للصورة طغيانها وجبروتها وافتراضات محلليها وفق عدة معطيات فإن طغيان الصورة دفع المفكر الفرنسي ريجيس دوبريه (Regis Debray) رائد الميديولوجيا (La Mediologie) أو علم الإعلام: أن يؤكد على أننا معرضين لفقدان البصر من كثرة الصور التي نشاهدها، وفي تأكيده على دور وسائل الإعلام وقدرتها في صناعة واقع بديل عن الواقع الفعلي المعاش بواسطة الصور، كتب المفكر الفرنسي (بودريار) مقالة صحفية قبيل إندلاع حرب الخليج الثانية بعنوان "حرب الخليج لن تحدث" غير أن الحرب الدموية الطاحنة قد حدثت فعلاً، الأمر الذي جعل

---

(674) ميشيل كولون،احذروا الإعلام، ترجمة نصرة السعدون، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 1994، ص79

الكثير من المتابعين لأخبارها يعتقدون بأن رؤية (بودريار) غير صائبة، بل مبالغ فيها، غير أنه عاد فور إنتهاء الحرب ليكتب مقالة أخرى عن الموضوع نفسه عنوانها: "حرب الخليج لم تحدث" وكان يعني بذلك أن حرب الخليج بين الرئيس بوش الأب والرئيس صدام حسين لم "تكن مثل الحروب الأخرى في التاريخ، لقد كانت حرباً تدور على النحو الذي صورتها به وسائل الإتصال الجماهيري الحديثة، إذ كان مشهداً إستعراضياً تلفازياً، وكان زعيما القوتين المتناحرتين آنذاك،ومعهما عشرات الملايين من المشاهدين، يتعرفون من خلال"عالم الواقع المفرط"(Hyper Reality) الذي يعرض لهم على "ما يحدث في الواقع الحقيقي الفعلي".

في الشؤون الدولية لا يلتقط الرأي العام السياسات بشكل مفصل وتحليلي، ولكنه يكون استنتاجاته اعتمادا على الصورة، ففي حين كان تمثال الحرية رمزا لأمريكا، اصبح سجن ابو غريب برأسه المغطى بالقلنسوة في نظر الكثيرين، هو الرمز الامريكي الجديد، خلال حكم بوش (على الرغم من حقيقة ان انتخاب بارك اوباما رئيسا فعل اكثر مما فعلته كل سنوات دبلوماسية بوش العامة في إعادة بعض الالق لصورة أمريكا) في قضية اليابان، كان هناك سابقا (توجو Tojo) هامش:وهو الاسم الذي اطلقه الحلفاء على (ناكاجيما كي) ولدينا تويوتا، في اوائل ما بعد الحرب الباردة، كان منظر غورباتشوف، وهو يأخذ حفيدته إلى ماكدونالد، يرمز لشيء، في حين ان صورة بوتين عاري الصدر، مبرزا عضلاته، هو يصطاد خنزيرا بريا في الغابات الروسية يرمز لشيء آخر اكثر تهديدا، واقرب إلى رامبو للسلطة الوحشية من صورة غلاسنوست أو بحيرة البجع التي يشعر معها الغرب بإرتياح أكبر، وبسبب قلة الخبرة المباشرة بتعرف في واقع الاخرين يتعرف الناس على هذه الصور من خلال وسائط الاعلام، واكبر منتج للصور في التاريخ الانساني بطبيعة الحال هي هوليوود، وبشكل عام، كل ما يعرفه الامريكيون عن العالم وكل ما يعرفه العالم عن امريكا يأتي من خلال الشاشة.(675)

---

(675)نيثان غردلز، ومايك ميداقوي، الاعلام الامريكي بعد العراق، حرب القوة الناعمة، م، س، ذ، ص35

الصورلوجيا والوعي الجمعي

لعل أفدح الأمثلة على تأثير الصورة في الوعي الجمعي أن يصبح غزو بلد ضعيف من قبل قوة عالمية متجبرة ليس أكثر من فيلم رعب، فقد كان الناس يشاهدون قصف العراق كما لو أنهم يشاهدون صور بطولة ملاكمة أو بطولة العالم للكريكيت، ولكنهم من زاوية أخرى يشاهدون جنديا أمريكيا يتحدث مع طفل عراقي ويلاطفه، أو يحمل طفلة عراقية لحمايتها بينما كانت فرقته منذ لحظات قد قتلت أمها وأصابت أباها وأخاها بجروح بالغة، ويشهد الكس جونز(Alex Jones) مدير مركز شورينشتاين الصحفي في هارفارد بقوله "لم أر أية دبابات مدمرة، لم أر أية جثث، لم أر أية صور مزعجة" ولقد كان ذلك من وجهة نظر البنتاغون واحدا من الإستخدامات الرائعة للفيديو"، إذ أن الصور التلفزيونية للإضرار والقتال الدامي في غزو العراق كانت مضلّلة، وهنا فإن من سمات عصرنا الراهن أنه «عصر الصورة» مما يعني هيمنة الصورة وسيادتها لتكون إحدى أهم أدوات عالمنا المعرفية والثقافية والإقتصادية والإعلامية، والصورة ليست أمراً مستجداً في التاريخ الإنساني، وإنما تحولت من الهامش إلى المركز، ومن الحضور الجزئي إلى موقع الهيمنة والسيادة على غيرها من العناصر والأدوات الثقافية والإعلامية.

يقول جاك شاهين في قناة الجزيرة: "صورة العربي السيء معنا منذ أكثر من مائة عام، الروسي السيئ بقي معنا عشرين سنة، واليهودي الشرير لم يظهر في السينما أبداً، فقط في السينما النازية، ورأينا ما حدث نتيجة لذلك، وهذا ما يحدث عندما تصوّر شعباً ما بأنه شرير لمدة مائة عام أو أكثر، رأينا كلنا إلى أين يقود ذلك، والسؤال هو عندما أعلنت أمريكا الحرب على العراق في آذار 2003، هل لعبت تلك الأفلام دوراً ما حقيقة؟ أي أن الأمريكيين لم يحتجوا ضد الحرب بسبب أن صورة العربي لديهم هي صورة الإرهابيين وصورة شيوخ النفط، أي إننا كنا ذاهبين للحرب ضد العرب، لأن صورتهم عند معظم الأمريكيين كانت صورة سيئة، فهم لم يعرفوا العرب كشعب عادي، بشر كباقي البشر فيهم الممرضة والطبيب، هذه الصورة العادية غائبة، نحن لا نؤنسنهم، وعندما تستمر في نزع الإنسانية عن مجموعة بشرية معينة - كما حدث مع اليهود مثلا- فإنك تنتهي إلى المحرقة (الهولوكوست) فأنت مثلاً تشنق الأميركيين السود، كما كان يحدث في الأيام الأولى في الولايات المتحدة، فآنذاك كان

السود لا ينظر إليهم بإعتبارهم بشراً، وأنت تستطيع أن تضع حتى أمريكيين في معسكرات عزل، وهذا كله نتيجة للتشويه ونزع الأنسنة عن الآخر.(676)

وفي عام 1983 أعلن بودريارد نهاية مجتمع المشهد، أي مجتمع الصور الحقيقية، وظهورعصر «الصورة المحاكية» المقلدة، والنتيجة مع الأسف الشديد، أن تصوراتنا عن الواقع تتشكل هكذا من خلال قوانين التلفزيون وأيديولوجياته، فقوانين وأعراف وأجندات المحطات التلفزيونية تقف أمامنا كبدائل ورموز للواقع، ولكنها لا تمثل الواقع ولا تعكسه، وتتحول في أعيننا وإدراكنا إلى تعبير الواقع! فنحن لا نعرف الواقع إلا من خلال تلك الصور المصبوغة بصبغات أيديولوجية من أصحاب المحطات الفضائية، وعلى سبيل المثال، وإقتراباً من الواقع، تتشكل أفكارنا عن علاقاتنا الأسرية فقط على أساس مضامين السرد الميلودرامية التي يبثها التلفزيون من خلال المسلسلات العائلية والرومانسية أو مسلسلات الصابون نظراً لسطوتها الآن على الفضائيات العربية، وكذلك خبراتنا بالقانون تتشكل فقط على أساس المسلسلات البوليسية ومسلسلات الجرائم، وأحكامنا الشخصية والسياسية على النزاعات السياسية والإنقلابات والتوترات الشعبية الدائرة الآن، قد تتشكل بدرجات متفاوتة حسب «اللون» الخاص بالأيديولوجية السائد في الصورة المعروضة علينا والتي تحمل لافتة «مباشر» أو «عاجل» إذ أن مشاهدة الصورة تمكّن المشاهد من إستعادة زمن الصورة وذاكرة المشهد، وهو أمر يروق للنفس الإنسانية في توقها إلى إستعادة الزمن، أو إلى مشاهدة الصورة بغية إستعادة ذاكرتها، فالصورة مرآة ذات ذاكرة (Mirror with a memory) وإن للبصر حاجاته، سواء حاجات الإنسان الدفينة أو حاجته الشفيفة للإستمتاع بالجمال.(677)

ويقول عالم التربية الأمريكي (جيروم برونو) المشهور بدراسته عن التفكير ووسائل الإتصال: "إن90 ٪ من مدخلاتنا الحسية هي مدخلات بصرية. والمقابل فإن التلفزيون هو أكثر وسائل الإعلام شيوعاً في التعبير البصري" وناقش هذا القول

(676) نقلا عن عبد الجبار ناصر، ثقافة الصورة في وسائل الاعلام، م، س، ذ، ص241
(677) د.علي ناصر كنانة، إنتاج وإعادة إنتاج الوعي، م، س، د، ص27-28

مبيناً دور الصورة التلفزيونية في صناعة الواقع الإجتماعي وترويده بالمعلومات. ومجيباً عن تساؤل:هل ما يقدمه التلفزيون من صور متحركة أو ثابتة هي الواقع حقاً؟ مستشهداً بالأدلة والأمثلة، أي يشير أدب الصورة إلى أن 90٪ من المدخلات الحسية للأفراد هي مدخلات بصرية وإن فهم طبيعة هذه المدخلات يبدأ بالعملية الإدراكية التي تكون دائماً في حالة نشاط وبحث عن المعنى، حيث تتكون الصور في جوهرها من الخبرة البصرية التي تجرى معالجتها في ضوء التنسيق مع الصور الموجودة في رؤوسنا، وفي ذلك يتصور ميتشل في نظريته حول الصورة (في إطار علم الأيقونات) أن هناك شجرة أو عائلة للصور كما يلي:[678]

1 - **اللفظية**: مثل أشكال المجاز، والتعبيرات، والوصفي.

2 - **العقلية**: الأحلام والذكريات، والأفكار والتخييلات.

3 - **الإدراكية**: البيانات الحسية، والمظاهر، الخارجية.

4 - **البصرية**: المرايا والصور، والمسقطة، والمنعكسة.

5 - **التصويرية**: الصور والتماثيل، والتصميمات.

ويلخص الدكتور إدمون غريب في كتابه "رؤية مزدوجة: صورة العرب في وسائل الإعلام الأميركية" العوامل المؤدية لفشل وسائل الإعلام الأميركية في تغطية الشرق الأوسط بنزاهة وموضوعية بخمسة أسباب: التحيز الثقافي، جو التفكير المتشابه ضمن وسائل الإعلام الأميركية المؤثرة، الصراع العربي - الإسرائيلي، جهل وسائل الإعلام الأميركية بأصول وتاريخ هذا الصراع، اللوبي الإسرائيلي المصمم والمتطور "ويضيف الدكتور إدمون غريب" أن كثيرين من الصحفيين الأميركيين ينقلون إلى عملهم اتجاها لاشعوريا بإقتران إسرائيل بالفضيلة والعرب بالحقد وسوء النية، وكأن الصراع هو مجرد سيناريو لفيلم رعاة بقر بالغ البساطة يشتمل على "عناصر خير" و"عناصر شر".

(678) نقلا عن د.محمود حسن الأستاذ، سيميائية الصورة، إستراتيجية مقترحة في تنمية تجليات إبداعيه وفضاءات دلالية، بحث مقدم الى مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثاني عشر، ثقافة الصورة للمدة من 10/30 - 2007/11/1

الصورلوجيا المحاكية المقلدة

ومما لا شك فيه هو أن بث أخبار القتل والتفجيرات والحروب والمذابح، لها آثار نفسية خطيرة على الشباب، إنها تثير مشاعر القلق، وانعدام الأمن والإحساس بالعيش في عالم مليء بالأخطار والتهديدات. وإذا أضفنا للأخبار مقدار نسبة أفلام العنف المتعاظمة التي تعرض على شاشات الفضائيات يتضح حجم جرعة العنف التي تتراكم دماغيا عند الشباب، مما يؤدي إلى تبلد أحاسيسه تجاه العنف والسلوك العدواني، ومن ثم يجعله أكثر ميلاً إلى التسامح مع العنف بكل أنواعه ولا سيما ذلك الذي يحدث في الواقع المعاش، إذ لم يجانب الصواب من وصف وسائل الإعلام بأنها السلطة الرابعة في المجتمع إن لم تكن أعلى مقاما من ذلك. وهو ما نصح به زعيم الصهيونية لليهود لكي يستولوا على دوائر الإعلام العالمية. ويأخذوا بزمام الصورة، وهم فاعلون. لذلك يقفون وراء صناعة القرار وترويجه وجعله واقعا مفروضا، كما أعتمد محترفو صناعة الصورة في المؤسسة الإعلامية الغربية، وبخاصة الأمريكية، إلى إتباع أسلوب بالغ القوة في الإقناع والتأثير من أجل تحقيق أهدافهم وبلوغ مآربهم، يمكن أن نطلق عليه أسلوب "التخويف بالمقابلة بين الصور" ويقوم هذا الأسلوب في جوهره إلى دفع المشاهد للصور الإخبارية للحرب ولأطراف الصراع فيها، لعقد مقابلات ومقارنات ذهنية لما تعرضه عليه شبكات الأخبار العالمية من هذه الصور المنتقاة لتلك الحرب بجهد كبير وحرفية فائقة، ليجد نفسه، بشكل واع أو غير واع، مدفوعاً بإتجاه قبول قرار شن الحرب على العراق كضرورة أمنية ومصلحة وطنية، ومن أهم الصور المتقابلة التي إستخدمتها المؤسسة الإعلامية العربية، ممثلة بشبكة أخبار قناة (CNN) في تغطيتها (Coverage) لأخبار حرب إحتلال العراق من أجل نشر الخوف في قلوب المشاهدين، ودفعهم لقبول قرار شن قرارها وتأييده:[679]

1- صور العنف مقابل صور الوداعة: قام المتلاعبون بصناعة الصورة ليلة حدوث الحرب على العراق في20 آذار 2003 باللجوء إلى إختيار صور مخيفة لطبيعة ما يجري في العراق، ومدى "الدموية" التي يتصف بها صدام حسين، من أجل تخويف الرأي العام الغربي وتهيئته لقبول قرار الحرب على العراق وتأييده؛ إذ تم

(679) حلمي الساري، دور المؤسسة الاعلامية في صناعة الخوف، مجلة المنارة، المجلد 14، العدد الثاني، 2008، ص186-195

التركيز على التقاط صور لحشد كبير من المتظاهرين العراقيين المؤيدين للرئيس صدام وهم يطوحون بالسلاح، ويطلقون النار منه في الهواء بشكل كثيف و"همجي" وأما الكلام الذي كان ينادي به المتظاهرون فقد كان مبهماً، أو هكذا أريد له أن يكون من أجل ترك المجال أمام الصورة لتمارس سطوتها وهيمنتها على المشاهدين، وبعد هذه الصورة تم إختيار صورة أخرى تظهر مقدار "الدموية" التي يتحلى بها صدام حسين، حيث تم تصويره وهو يقف على شرفة من إحدى شرفات قصره مرتدياً معطفاً طويلاً مفتوح الجنبات عند نهايته، واضعا على رأسه قبعة كبيرة، ويدخن سيجاراً طويلاً، ويطلق النار من بندقيته "بدم بارد" وبشكل "متعجرف"، وحشود الجماهير التي تقف تحت القصر تصفق له دون إنقطاع، وأما الصور الإخبارية المقابلة للصورتين السابقتين فهي صور "الوداعة" و"الإنسانية" التي يتحلى بها الطرف المقابل في تلك الحرب وهو الرئيس بوش، إذ ذهب المحترفون بصناعة الصورة الإخبارية إلى إختيار صورتين للرئيس بوش تظهرانه بأنه رجل يختلف تماماً عن ذلك الرجل "الدموي" صدام، حيث تم تصويره بصور توحي للمشاهد بأنه رجل "وديع"، ومهذب، وإنساني، يحترم البشر والحيوان على حد سواء، إذ تم تقديم هذه الصور من خلال التركيز عليه وهو يدلي ببعض التصريحات الصحفية للصحفيين بصوت هادئ ورزين في ليلة إندلاع الحرب، وبعد إنتهاء المقابلة الصحفية، نجده يترك الصحفيين ويذهب وبرفقته زوجته وهو مطوق خصرها، ولكن دون أن ينسى أن يتمنى لهؤلاء الصحفيين ليلة سعيدة، وبعد هذه الصورة التي أريد منه إظهار الوداعة واللطف التي يتحلى بها الرئيس بوش، إختار صناع الصورة صورة أخرى من صور الوداعة تبين جانبا آخر من جوانب "الإنسانية" التي يتصف بها الرئيس بوش، وتعكس بعدا آخر من أبعاد شخصيته الإنسانية، تلك الشخصية التي يتعدى حبها للبشر ليطال الحيوان؛ فقد تم إختيار صورة له وهو يداعب كلبه متمنياً له "ليلة سعيدة" هو الآخر، وبعدها يذهب ليخلد للنوم، ولنسأل ماذا تقول الرسائل الكامنة في هذه الصور الإخبارية المتقابلة للعنف والوداعة، للشر والخير، والموجهة للرأي العام الغربي؟وما الوظائف النفسية والإجتماعية والسياسة التي تريد المؤسسة الإعلامية توصيلها من خلالها؟ ببساطة إنها صور تقول للرأي العام

الغربي:أنظروا إلى الهمجية والعجرفة والعنف الذي عنيه"أعداؤنا"، وأنظروا إلى الطيبة والإنسانية والوداعة التي نحن عليها، أفلا يتوجب علينا، إذاً، عدم تفويت الفرصة لمحاربة هؤلاء الأعداء "الأشرار الدمويين" حتى لا يتمكنوا من تهديدنا نحن "المتحضرون"؟ أليس من الضروري القيام بعمل ما لتوقيفهم عند حدهم قبل فوات الأوان؟إن إختيار محترفي صناعة الصور الإخبارية لهذه الصور المتقابلة المنتقاة بعناية، إنما أريد منه تخويف الرأي العام الغربي لدفعة قبول قرار شن الحرب على العراق، وهنا تتجسد الوظيفة الإجتماعية للمؤسسة الإعلامية، وهي نشر ثقافة الخوف، لذا يصبح قرار شن هذه الحرب مطلباً إجتماعياً من أجل تأمين "الأمن الإجتماعي"، وتوفير "الحماية الإجتماعية" للأفراد الخائفين.

2 - صور الديمقراطية وحقوق الإنسان مقابل صور الدكتاتورية وغياب حرية التعبير:لعلّ هذا النوع من الصور هو الأكثر بروزاً وترويجاً من بين الصور التي قدمتها المؤسسة الإعلامية لصور تلك الحرب، فقد قام مصنعو الصورة الإخبارية بنشر الخوف والترويج له من خلال تكرار المشاهد والمواقف المخيفة التي تظهر السلوك الدكتاتوري والإستبدادي الذي يمارسه صدام حسين، حيث تم تصويره بأنه قائد دكتاتوري مستبد لا يسمح لرفاقه في مجلس قيادة الثورة بالتعبيرعن وجهات نظرهم أمامه في أي إجتماع من الإجتماعات التي كان يعقدها معهم، ولتوصيل هذه الرسالة تم إنتقاء مشهد من المشاهد التي تبينه وهو يترأس إحدى إجتماعات مجلس قيادة الثورة انذاك؛ إذ تم تصوير أعضاء ذلك المجلس وهم صامتون، لا حركة ولا نفس، وكأنهم خشب مسندة في مقاعدهم لا ينبسون ببنت شفة أمام حضرة "الدكتاتور" وكانت الحركتان الوحيدتان اللتان يمكن للعين أن تلتقطهما في تلك الصورة هما حركة إحدى رجلي صدام وهو يقاربها ويباعدها عن رجله الأخرى بشكل يوحي بالعنجهية؛ وأما الحركة الثانية في الصورة فكانت حركة تصاعد دخان سيجار صدام "الكوبي" في الغرفة أثناء تلك الإجتماعات، وللمشهد السابق أكثر من دلالة إجتماعية ونفسية وسياسية، فهو مشهد يهدف إلى تثبيت فكرة غياب الديمقراطية وحرية التعبير لدى نظام صدام في أذهان الرأي العام الغربي، تلك الفكرة التي طالما رددها الإعلام الغربي قبل

الحرب، وأما الدلالة الأخرى التي يريد محترفو صناعة الصورة تثبيتها وترسيخها، أيضاً، فهي تلك المستمدة من إيحاءات تدخين صدام لسيجار الكوبي؛ حيث تريد هذه الصورة خلق إرتباط ذهني لدى المشاهد الغربي بين(فيديل كاسترو) "المعادي" للغرب وصدام حسين، وأما الصور المقابلة التي أختارها محترفو تصنيع الصورة بتأن وروية للطرف الآخر، فقد كانت صورة للرئيس بوش، توحي مضامينها بدلالات مناقضة تماماً لدلالات الصور التي أختاروها لصدام، إنها صور لمشاهد ومواقف تؤكد على ديموقراطية الرئيس بوش ومدى تقبله الرأي الآخر؛ ففي الوقت الذي تم تصوير صدام وهو مجتمع مع قادة الثورة يتحدث "إليهم"، وهم صامتون كأن على رؤوسهم الطير، تم إختيار مواقف للرئيس بوش وهو يدلي بخطاب أمام المتقاعدين، وهو "يناقشهم" مبيناً لهم أسباب شنه الحرب على العراق، وهو نشر مبادئ الديموقراطية وتدمير أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها، وفي الوقت الذي تم تصوير مجلس قيادة الثورة العراقي كأنهم "خشب مسندة"، تم تصوير المتقاعدين العسكريين وهم "يناقشون" الرئيس بوش، ويصفقون له بحرارة دون إنقطاع إعجاباً بصراحته و"سداد رأيه" المتعلق بشن الحرب، وكذلك الحال تم إختيار صور لرئيس الوزراء البريطاني بلير وهو "يناقش" البرلمان البريطاني، ويشرح لهم أسباب دخول بريطانيا الحرب، وهم يصفقون له أيضاً.

3 - صور الإرهاب مقابل صور التحضر: شكلت أخبار "الإرهاب" الذي يتسم به النظام العراقي مادة خصبة لمحترفي صناعة الصورة الإخبارية، إذ إن أخبار الإرهاب والدموية هي من أكثر أنواع الأخبار جذباً لصناع الصورة في المجتمعات الرأسمالية، بسبب الأرباح المالية الهائلة التي تعود عليهم جراء ذلك، فبمقدار العنف والدموية في الموضوعات الإخبارية التي تغطيها وسائل الإعلام يتضاعف إستهلاك الرأي العام لتلك الأخبار، ويتزايد الربح المادي جراء ذلك.

4 - صور الموت والإنتحار مقابل صور حب الحياة: قام صناع الصور الإخبارية للحرب على العراق بتكرار صور الإرهاب بأكثر من طريقة؛ فقد حاولوا تثبيت صورة "الإنتحار" كشكل من أشكال الإرهاب، في أذهان المشاهد العربي، من

خلال تصوير بعض المواقف التي تظهر مجموعة من الرجال العراقيين وهم يرتدون ملابس بيضاء كأنها أكفان الموتى، يقومون بعروض عسكرية إستعدادا للقيام بعمليات "إنتحارية" ضد المصالح الأمريكية في مناطق مختلفة من العالم، والمشهد نفسه يتكرر مع النساء العراقيات، أيضاً؛ حيث تم تصوير بعض هؤلاء النساء وهنّ يقمن بعروض عسكرية إستعراضية وهنّ ملثمات الوجوه بطريقة تعيد إلى ذاكرة الرأي العام الغربي صور إستشهاديي المقاومة الفلسطينية قبيل قيامهم بعمليات ضد إسرائيل، ولقد تم إلتقاط الصورة بشكل مقصود من مكان قريب جداً من وجوه هؤلاء النساء الملثمات ليتمكن المشاهد من رؤية "الإنتقام" و"الوعيد" في عيونهن، وقد رافق التأكيد على هذا "الإنتقام" البادي في العيون شعارات وهتافات كن يرددنها أثناء عروضهن العسكرية وهي: "الموت لبوش، الموت لأمريكا" (تأكيد رمزية الإنتقام والوعيد)، وتوحي دلائل هذه الصور للرأي العام الغربي بأن العرب "إنتحاريون إرهابيون" لا فرق في ذلك بين رجالهم ونسائهم، لذا لا توجد أمامنا نحن الغربيين "محبّي الحياة والسلام" طريقة لردعهم عن إرتكاب هذه الأفعال "الإنتحارية" التي تبين مدى كرههم للحياة إلا بشن الحرب عليهم قبل أن يشنوها هم علينا، وهنا تتجسد مرة أخرى الوظيفة الإجتماعية للمؤسسة الإعلامية، من خلال إثارتها لدافع الخوف والرعب في قلوب المشاهدين ونفوسهم، وبهذا تكون قد عملت على زيادة إحكام قبضة النظام السياسي على السيطرة الإجتماعية على هؤلاء المشاهدين، ودفعهم لقبول شن الحرب على العراق.

5 - صورالتقدم والتفوق التكنولوجي والعسكري مقابل صور التخلف والضعف العسكري:تزخر أخبار الحرب على العراق بهذا النوع من الصور الإخبارية التي تمّ إنتقاؤها وختيارها ببراعة فائقة ودقة متناهية، تكاد تكون غير مسبوقة من حيث مضمونها والأهداف النفسة والإجتماعنة التي تطمح إلى تحقيقها لدى مشاهديها، سواء أكانوا غربيين أم عرباً، إنها في جوهرها صور تطمح لإبراز المفارقة الصارخة بين التقدم التقني في تسليح القوات الغربية في الميادين القتالية، والتخلف التقني في تسليح القوات العراقية في هذه الميادين،

ليصل المشاهد الغربي وغيره، ممن يشاهد أخبار الحرب، إلى قناعة راسخة بحتمية إنتصار الجندي الغربي المدجج بالسلاح المتطور، على الجندي العراقي "المتخلف" عسكريا، لكنه في الوقت نفسه خطير، يهدد الأمن والسلم العالميين إذا لم يقف عند حده.

رمزية الصورلوجيا والواقع

يذكر ريجيس دوبريه في مستهل كتابه عن الصورة وموتها أن أحد أباطرة الصين أمر كبير رسامي القصر بمحو الشلال الذي رسمه في لوحة جدارية لأن خرير الماء يمنعه من النوم، وكان هذا التعبير أقرب ما يكون لوصف الصورة الذهنية.[680] فالصور تتحكم بالاحلام، والاحلام تتحكم بالاحداث، وهذا لأن معظم الناس يتبنون وجهة نظر العالم التي تنم عما يفعلونه على اساس عاطفي أكثر منه عقلانيا، انهم يصدقون الاخبار ليس من خلال تأمل الافكار وموازنتها وإنما من خلال الصورة التي يشعرون انهم جزء منها ويرتبطون بها، يميل الناس إلى الانسياق وراء سرد يعتمد على الصور التي يتماهون معها، الصور التي تعكس الكرامة والتقدير والمكانة داخل ثقافتهم، اي الصورة التي تمثل مركبا فكريا وعاطفيا في لحظة ما من الزمن، فالحرب في عصر هيمنة الصورة أقرب إلى لعبة الكترونية تديرها أزرار، فالشاشة أصبحت ميدانا إضافيا للمعركة يتمتع بالأهمية ذاتها التي تتمتع بها المواقع الإستراتيجية في النزاعات المسلحة: نقاط الماء، طرق وجسور أساسية للعبور، مرتفعات وغيرها، ومن أخفق في السيطرة على الشاشة الصغيرة خسر الحرب.[681] ويجادل بوردريه في كتابه «الحرب والصورة» التوظيف المحموم للصورة من أجل صنع الواقع، حيث تدور رحى الحرب بين متسابقين على من يملك قدرة فرض الواقع الذي يشاء وحرمان الخصم من المشاركة أو تبديل هذا الواقع، الإفتراضي بالضرورة، لا غرابة، حينئذ، أن تكون مصادر إنطلاق الصورة هدفاً مركزياً في أجندة الحروب الأخيرة، ففي حرب كوسوفو العام 1999 قصفت قوات الناتو مبنى التلفزيون

(680) ريجيس دوبريه، حياة الصورة وموتها، ترجمة فريد الزاهي، المغرب، افريقيا الشرق، 2000، ص9

(681) د.نصر الدين لعياضي، شذرات الكلام في نقد وسائل الإعلام، م.س، ذ، ص220

في بلغراد وتدميره، وفي 27 مارس 2003 قصفت القوات الأميركية مبنى الإذاعة والتلفزيون في بغداد، وكادت أن تلقى قناة الجزيرة المصير نفسه في العام 2004، وفي يناير 2006 دمّرت القوات الإسرائيلية مبنى الإذاعة الفلسطينية ومبنى التلفزيون في مدينة البيرة وهدّدت بقصف مبنى التلفزيون في مدينة غزة، وفي 16 يوليو 2006، أي بعد ثلاثة أيام على إندلاع الحرب بين حزب الله وإسرائيل، قامت الأخيرة بتدمير مبنى تلفزيون المنار، فقد كان الإعتقاد بأن السيطرة على الصورة تمثل الخطوة الأولى لحسم المعركة، وتدل هذه الأمثلة على أن ثمة سعياً دؤوباً من أجل الحيلولة دون تمكن الحقيقة من القيام بتحرير الصورة من أسر خاطفيها، وأن حرب الصورة أسقط مبدأ الحيادية، هذا لا يعني، بالضرورة، أن الحيادية سمة جوهرية للصورة، فتجريد الأشياء يعطل إمكانية تفسيرها وفهمها، وندرك، بحكم الواقع، أن الصورة المرتبطة بالمقدس تصنع مخيالاً مندغماً في المقدس، ففي الحضارة الرومانية، حظيت الصور المقدسة بمكانة فريدة في المنظومة الطقسية الرومانية، وباتت تتقاسم نفحة القداسة مع النص الديني الروماني.

إن نظرة الناس للمصور الصحافي تبدو، رغم قسوتها، أرحم من الموقف الذي يجر إليه في بعض الأحيان، والمتمثل في الإستسلام لإرادة حاملي السلاح والمشاركة في بث الدعاية عبر الصور والإسهام في التضليل والتشويه، أو الإقتناع بأوامر النهي والرفض والرقابة وتساهم الصورلوجيا بوصف الأشياء والكائنات التي تقطن في عالمنا التقليدي على الهيئة التي يرتبط بها وجودها الآني، وتستمد الصورة مادتها من المعالجة التي تمارسها على مفردات الكون، ولا تنشأ كنتيجة حتمية للمفردات الكونية ذاتها، وعلى هذا الأساس فأن الصورة بمعناها التقني الخالص هي عبارة عن حالة صورية مؤرخة تختزل الواقع المنظور في قاربته أو في حركته بتجرد يطبع مفرداتها المنظورة، وتعمد الصورة في تكثيف المحتوى المعرفي للمادة التي تعالجها من خلال تمثل ذهني خالص ضمني، أو معبر عن الذات التي تم تصويرها، وتشيح بوجهها عن دلالة المحتوى بعد أن تركز قدراتها على وصف المظهر الخارجي الذي يزخر بأطياف لونية، وتضاريس ظاهراتية تحاول أن تصفها بأدق تفاصيلها، يمكن القول أن الصورة هي توثيق لجزء من الواقع على حساب إمكانيات أخرى لم يتم تصويرها وعرضها، كما أن

التشابه بين الواقع والصورة يخلق لدى قارئ الجريدة الإحساس بأنه يشاهد الواقع بكامله، إذ أن مسألة تبادل الصور الذهنية كعملية أساسية في الايصال، وإذا كان للفكر واللسان والكلام والحصيلة اللغوية والصوت من مواقع تمنح اللغة بعض مظاهر سلطاتها العامة، فإنها سلطات تصب في مجموعها في التأثير في الآخر عبر الإتصال به، وهذا التأثير هو في حد ذاته إختصارات لوقع الصور المتبادلة بين أثنين، واضحة أو مبهمة.(682)

بتنا نرى استخداما متزايدا للصور المزورة، كانت الصورة تعد وثيقة جديرة بالتصديق، وانعكاسا لا جدال فيه للواقع، وذلك على الرغم من امكانية التلاعب بها، لكن ذلك تغير الان، خاصة مع قدوم التقانات الرقمية، معها اصبح كل شئ ممكنا، سهل التنفيذ وزهيد الكلفة، صار بمقدور اي كان اجراء كل المعالجات المطلوبة، على الصور المتوفرة، كل اشكال الاحتيال، كل انواع المحاكاة، باستخدام تقانة الصور المركبة والافتراضية، يقول فيليب كيو: "التقانات الرقمية يمكن أن تحول كل شئ دون أن تترك لنا أية فرصة لمواجهتها واتقاء شرورها" لم تعد الصورة تلعب دور النسخة، لم تعد تمثل ذاكرة الحقائق الزائلة، صار لها الآن حقيقتها الخاصة، أكتسبت حياة خاصة بها، بطريقة تفاعلية، إذ يميل الإعلام المعاصر إلى إشباع حاجات المتلقي، وإرضاء رغباته، وتلبية طلباته. وذلك بتحسين الصورة وترقيتها، وجذب عدد متزايد من الجمهور المشاهد. لا يمكن قياسه البتة بعدد الذين يتلقون الرسالة المكتوبة، إذ أن مجتمع الصورة يضم إليه ما تستبعده ثقافة الكتابة. حيث يلتقي المثقف بالأمي في إستهلاك منتوجها إستهلاكاً متبايناً بطبيعة الحال. بل تصبح على عاتق مجتمع الصورة مسئولية ترقية مستوى الأمي وتعليمه وتثقيفه، فكثير من المشاهدين العرب يتابعون النشرات الإخبارية والحصص الثقافية والترفيهية التى تلقي بلغة عربية فصيحة. لا يستطيع أن يفهمها العديد منهم. لكن الصور التي ترافق التقديم والتعليق تسد مسد اللغة. وتملأ هذا النقص بخلق سياق معين لفهم رسالة الصورة الإخبارية أكثر من إدراك محتواها، وهذه الظاهرة تحتاج إلى معالجة

(682) د.نسيم خوري، الاعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة اطروحات الدكتوراه(50)، بيروت، 2005، ص128-129

لسانية وإجتماعية ونفسية وتربوية، فلغة الصورة تفسح المجال للتأويل. وإستنباط المحتوى الذي تتضمنه. وتفرض نفسها على الإنسان سواء في البيت(التلفزيون. الفيديو. الصور الفوتوغرافية. اللوحات الريتية) أو في الشارع (الإعلانات والصور الدعائية).[683]

وهنا فقد ذهب «جان بودريار» إلى فكرة إجتماعية إتصالية تتعلق بالصورة في التلفريون «والتي تعكسها الفضائيات في واقعها الملتبس» تلك الفكرة التي سيطرت عليه هي فكرة «المحاكاة» والتي أستعارها من فكرة إفلاطون ثم طورها تطويراً حداثياً وطبقها على الصور بشكل عام وفي وسائل الإعلام أو تحديداً على التلفزيون، فقد تناول مصطلح «الصورة المحاكية» أو ما يمكن أن يسمى «النسخة غير ذات الأصل المحدد» حيث تعد تلك الصور المعروضة أمامنا مجرد «نسخة» من دون أصول حقيقية، وهي ليس لها مقابل محدد في الحياة الفعلية أو الواقعية، ومع ذلك يصعب على الإنسان العادي أن يميزها عن الواقع أو يفصلها عنه، وبالتالي تعد تلك الصور نوعاً من الواقع المزيف والذي يتجاوز الواقع الفعلي نفسه، والأمر الأغرب في تلك الفكرة التي تجسد بالفعل ما نراه على شاشات فضائياتنا العربية، من صور تلفزيونية المفروض أنها تصور الواقع تجعلنا نظن أنها الواقع الحقيقي الملموس، بل إنها بالنسبة إلى بعض المشاهدين قد تكون أكثر واقعية من الواقع نفسه، فما يفصل بين الواقع الحقيقي وبين الصور المعروضة أمامنا، هو فاصل غامض غائم صعب التحديد، وتبرزالثقافة الإعلامية للصورة مظاهر سلبيّة أبرزها.[684]

1 - هيمنة ثقافة المظهر والشكل والإبهار واللمعان والإستعراض والمهرجان على حساب ثقافة الجوهر والمضمون والقيمة والعمق، وبمعنى آخر تصبح الصورة بديلاً عن الواقع حيث تزييف الوعي وغيابه، ويتحول الإنسان إلى شي أو سلعة.

2 - إختفاء الإبداع، حيث سيادة ثقافة الكثرة والإستهلاك والنقل والمحاكاة لأعمال وبرامج فنية وغنائية تلفزيونية

(683) احمد يوسف، عالم الصورة وثقافة العين، مجلة العربي العدد 491 في تشرين الاول، الكويت، 1999

(684) د.شاكر عبد الحميد، عصر الصورة: الايجابيات والسلبيات، سلسلة عالم المعرفة، العدد (311)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداري، الكويت، 2005، ص359-390

3 - هيمنة ثقافة صناعة النجوم، وتحويل البشر إلى سلع.

4 - هيمنة ثقافة (التكرار) وهو عدو لدود للإبداع.

فليس من شك في الدور الذي لعبته الصورة في الثورات العربية، مصر، وتونس، واليمن، وليبيا، وسوريا، والبحرين، الفيسبوك، الكاميرات الرقمية سواء التي يحملها مراسلوا الصحف والقنوات الفضائية أو مواطنون عاديون، كاميرات الهاتف المحمول، فيضان من الصور ومقاطع الفيديو لعبت الدور الأكبر في التحريض على هذه الثورات وتشجيع الالاف على الإنضمام إليها مع بث كل صورة أو مقطع متميز، إذ وظفت الصورة في تحريك الشعوب وفي التأثير على رجال السياسة، وفي توظيفها كأداة في مصلحة بعضهم البعض الآخر، كما حدث في حرب 1991، وحرب إحتلال العراق، والإحتجاجات الشعبية في البلدان العربية وسقوط أنظمتها بعد ذلك، إذ كانت الصورة عبر البث المباشر تشكل الحدث السياسي، تحوله وتغير مساراته ضمن عوامل أخرى داخلية ودولية بل كانت الصياغة الإعلامية للحدث هي الأكثر تأثيراً وتحركاً وكانت "بلاغة" الصورة تمثل بشائر زمن من العالم الجديد، فالصورة أما مفردة أو متجاورة مع آخر، فتحكي بخطوطها وانحناءاتها، بظلالها، وعتماتها، وبألوانها، وتدرجاتها اللامتناهية، وبتتالي مفرداتها الصورة تحكي الإنسان لكن بلغة أخرى هي لغة الضوء واللون والظل والخط، فالدلالات التي تفرزها الألوان تحيلنا من خلالها الصورة إلى علاقة الإنسان بالطبيعة وشعوره بإيحاءات الكون، فالإنسان يتمثل الحقيقة في لون السماء الأزرق، ويرى معنى التضحية والحب في اللون الأحمر واللون الأبيض في السلم والأخضر في الصدق والإخلاص، إن رمز الألوان يكشف دلالات تحيلنا على إنطباع الإنسان بالقيم الثقافية التي تكيف وجوده والقيم الحضارية التي تحدد مرجعيته كما تحيلنا على جملة من المعاني التي وقع أستقاؤها من الطبيعة (لون السماء، لون الطبيعة المزركش في فصل الربيع مثلاً، إصفرار أوراق الأشجار وهي تتناثر في فصل الخريف والإيحاء بالبأس في هذه الأثناء مثلا).[685]

يقول الكاتب الروائي (إيفان تورجينيف) في رواياته (آباء وأبناء) "أن الصورة الواحدة قد تعرض ما أستطاع كتاب أن يقوله في مائة صفحة حيث أن حاسة البصر

(685) د.نصر بو علي، كيف نقرأ الصورة في زمن الايديولوجيا والعولمة والقيمة،م، س، ذ، ص39

ذات أهمية كبرى بالنسبة لشعور الإنسان ودرجة فهمه" من هنا تكمن أهمية الصورة في العمل الصحفي بإعتبار قيمتها الجمالية كعمل فني يستوقف النظر ويبعث الإهتمام في نفس القارئ وفي أنها تجذب الإنتباه وتثير الإهتمام وتقدم وسائل مؤثرة في رواية خبر ما، إذ إن الصورة أصبحت لغة داخل اللغة، وفرضت حالها في الساحة الإعلامية كعامل أساس لإيصال المعلومة في إطار إبداعي وجمالي، ومثلما يطال التطور والنهوض مختلف حقول الأدب الشئ ذاته حصل بالنسبة للإعلام حيث تتباين وسائل التعبير من مرحلة لأخرى، وتبعاً لحجم المتغيرات التي تطال كل ميادين الحضارة والثقافة، والصورة في الإعلام هي شكل من أشكال الفن، والفن هو من أبرز النشاطات الإنسانية التي تحاكي النسق الحداثي والتطوري في العصر الحديث، من خلال مجموعة كبيرة من المدارس والتيارات المستجدة في هذا المجال، والتي يجب أن نعترف بأنها باتت تطغى بشكل واضح على المنظومة الفنية التقليدية، ولذلك صار لا بد للغة المستخدمة في تقديم العمل الفني وإيصاله، إلى جمهور المتلقين من أن تتطور بدورها لتصبح قادرة على إستيعاب المفردات الحداثية في العمل الفني، وهو ما حول الصورة إلى لغة مستقلة بذاتها في الخطاب الإعلامي الحديث، إذ أستطاعت الصورة بإنتقالها من مجال الحس-الحدس إلى إطار التعبير- اللغة أن تحقق تجاوزاً في مجال التعبير والتواصل وخصوصاً لمفهوم الكتابة-النص، بسرعة غير مسبوقة في إطار التجربة الحضارية للإنسان وفي إطار الفكر العالمي وأدواته وبالتالي فقد أسهمت في نقل البشرية إلى مسارات جديدة مبتكرة في مجال التواصل البشري يمكن أن تؤسس لنمط من المعرفة قائم على مفاهيم جديدة تتماهى مع آلية التسارع التي يفرضها تطور التكنولوجيا المعاصر.

ويتحدث الصحافي ميشال غيرن (Michel Guerrin) عن دور الصورة داخل هذه المنظومة بالقول. أن الأمر أصبح محبطاً حقاً، لقد أصبحت أملك إنطباعاً بأن الصور تتشابه من نزاع مسلح إلى آخر، وإننا تحولنا إلى مرآة محرفة، لأننا لا نصور إلا ما يراد لنا تصويره، وتؤكد البحوث أن الصورة التلفزيونية يمكن أن تجذب الإنتباه وتشده بما يعادل خمسة أمثال ما يجذبه الصوت وحده، وهو ما يعطي للتلفزيون أهميته مع الإستخدامات الفنية الأخرى للصوت واللون والموسيقى. وتشكل القنوات التلفزيونية الفضائية إنعطافة كبرى في إستخدام الصورة وفي حركة الإتصال عبر

الأقمار الصناعية، إذ بات بالإمكان أن يصل بث الصورة إلى مجال جغرافي أبعد يقع خارج حدود بلد البث، فالأقمار الصناعية سهلت نقل الصورة إلى كل بقاع العالم، بمعنى أنها سهلت نقل الوطني والقومي إلى درجة من العالمية تضيع فيها الحدود بين جغرافية ثقافة وأمة ما وبين الجغرافية الكونية.(686)

بحسب تعبير المنظر الفرنسي عي ديبور أصبحت الصورة جزء لا يتجزء من حياتنا اليومية وفهمنا لما يدور في العالم من حولنا، فالصورة سلاح، الصورة أقوى من ألف كلمة، الصورة سلطة، عصر الصورة، حضارة الصورة، الصورة ليست فقط بألف كلمة، بل بمليون كلمة عبارات متداولة يستدل منها على أهمية الصورة عند معظم الناس على أختلاف فئاتهم وبيئاتهم وإهتماماتهم، وخاصة بعد التطور التكنولوجي الذي شهده عالم إنتاج الصورة وتوزيعها وتوظيفها، حيث أقام الإنسان عن طريقها علاقة جديدة مع الزمان والمكان، وصار يشاهد الأحداث لحظة وقوعها، وبشكل مرئي ومحسوس في نفس الوقت، وقد لعبت وسائل الإعلام دوراً أساسياً في زيادة هذه الأهمية للصورة، وفي زيادة وعي الإنسان المعاصر بأشكال الصورة المختلفة وجوانبها الإيجابية والسلبية معًا، كما ساهمت علوم الصورة وتقنياتها وتجلياتها في عمليات التربية والتعليم، وفي عمليات التسويق، وفي الحوار بين الجماعات والشعوب، وفي الإستمتاع وقضاء وقت الفراغ..الخ.

لقد وقعت المواقع الالكترونية ومنها مواقع التواصل الاجتماعي، والميديا الجديدة مثلما وقعت الفضائيات العربية في السنوات الأخيرة في شراك توظيف جماعات الإرهاب المتطرف عصر وسائط "الصورة" و"الفيديو" ومواقع التواصل الإجتماعي الفيسبوك والتويتر واليوتيوب كصحافة المواطن، وإكتشاف فعاليتها، وما يمكن أن تقدمه لها من خدمة هائلة عن طريق تمرير رسالتها الإعلامية بواسطة الفضائيات، وهذه الفضائيات التي كان يدفعها حس التنافس على إصطياد الخبر، ثم الصورة الحصرية، لم تتوان في إنتهاج سياسة "مفتوحة" في إستقبال "شرائط المجاهدين" وبثها كاملة في بداية الأمر، خصوصا خلال الحرب على أفغانستان وبعدها، كما نجح أسامة بن لادن في إقتناص منابر الفضائيات لتوجيه خطابه الفج

(686) د.عبدالإله بلقزيز، العولمة والهوية الثقافية، عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟ ضمن كتاب العرب والعولمة (ندوة)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧، ص5

والإستعدائي والكارثي إلى العالم الاسلامي كله، وكأنه خليفة المسلمين، وصاغ لغة "الفسطاطين" المكرسة لصدام الأديان والحضارات والتي هي اللغة المناظرة للغة صموئيل هنتنجتون المتعالية والمبشرة بالكراهية والحرب، وبالتوازي مع إزدياد حدة التنافس المصائي بزغت جماعات تنتسب إلى"القاعدة" وشرذمات "جهادية" في العراق قتلت من العراقيين أضعاف ما قتلت من قوات الإحتلال الأمريكي، وأستمرت بالقتل حتى بعد خروج قوات الإحتلال، وفي خضم التنافس المذكور والغموض الحاصل في "المقاومة" في العراق إزدادت سيول "شرائط الفيديو" الجهادية المرسلة إلى الفضائيات التي كانت على جاهزية تامة وإستعداد مدهش لإلتقاط أي شريط وبثه، ووقع بعض الفضائيات في شراك عدة منها بث أشرطة مفبركة، أو أشرطة قديمة بيعت لها على أساس أنها تسجيلات حديثة وغير ذلك كثير، وفي خضم فوضى الدم نشأت سوق سوداء وفساد موسع أرتبط بتلك الشرائط المذكورة، ففي كثير من الأحيان كان "الوسطاء" الذين يفترض أن ينقلوا هذه الشرائط إلى الفضائيات المنتظرة على أحر من الجمر يرفضون تسليمها من دون إستلام أموال كبيرة تذهب إلى جيوبهم الخاصة، ونتج عن إنتشار تلك الشرائط وعرضها أن الجمهور العربي أستطاع صعوبة ملاحقة بروز "المجاهدين" المحتلفين في مشاربهم، والمتفقين على وسائل قتل بشعة لمدنيين، عراقيين وسعوديين، شيعة وسنة، وأفراد من الأمم المتحدة وأعضاء جمعيات خيرية غربية تساعد فقراء العراق.

والرسالة التي ينقلها ويرددها هؤلاء تخلط الحق بالباطل، والوسيلة بالغاية، فتقدم أبشع صور الميكافيلية السياسية المضاف إليها وحشية دموية، والتي لبست من أخلاق عرب الجاهلية فصلا عن أن تسب إلى أخلاقيات الإسلام أو تعاليمه في خوض الحروب والمعارك، والمهم هنا هو أن الأثر الإجتماعي والثقافي الذي تركه بث تلك الصور والأشرطة تدميري ويكرس ثقافة العنف، خصوصا في مناخ متوتر يؤطره صراع عميق ضد اسرائيل، ونظرة ناقمة على الغرب الداعم لها وفي ظل إنسداد الأفق السياسي في أغلبية الدول العربية إزاء مسألة التغيير السلمي، والإنفكاك من آسار الغربية على مصائر الأنظمة والشعوب، يطرح هؤلاء المتطرفون صيغة مختصرة للتعامل مع "الآخر" وهي صيغة تفرغ الكراهية المتراكمة بطريقة لا تعود على الذات إلا بأعظم الخسائر، فضلا عن ذلك فأن العنف والتطرف يتجاوز قوى الإحتلال أو المتعاونة

معها، بحسب لغة أولئك المتطرفين، ليصل إلى كل من يخالفهم الرأي في المجتمع الذي يزعمون الدفاع عنه، ومن هنا نرى أن إستهدافهم للطوائف والشرائح التي لا يتوافقون معها عقائدياً أو سياسياً، وفي كل موقع وحالة يتاح لهم إعلامياً التبرير والدفاع عن طروحاتهم، فأن الإعلام بذلك يقدم لهم خدمة كبيرة سواء أحب ذلك أو لم يحب.

ويتحدث الناقد الدكتور عبدالله الغذامي في مقدمة كتابه: "الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعبي" والتي جاءت تحت عنوان(الصورة والثقافة البصرية) تحدث عن الصورة بوصفها قيمة ثقافية تقع في مرحلة تالية بعد الشفهية والتدوين والكتابة وبإعتبارها تمثل مع هذه المراحل الصيغ التعبيرية في الثقافة البشرية، ومن نتيجة تجلي الصورة بوصفها علامة ثقافية، ومصدر إستقبال وتأويل، دخول فئات بشرية عريضة إلى عالم الإستقبال الثقافي، وهي تلك الفئات التي كانت مهمشة في السابق، ويجزم الغدامي، بأن "الصورة جاءت لتكسر ذلك الحاجز الثقافي والتمييز الطبقي بين الفئات، فوسعت من دوائر الإستقبال وشمل ذلك كل البشر فتوسعت القاعدة الشعبية للثقافة وهذا دور خطير تحقق مع الصورة" فالصورة إذن بتحولها إلى قيمة ثقافية فهي تتميز بصفة إبداعية أيضا، أي أن الصورة بالأساس عمل إبداعي وفني خالص، فالصورة هذا الأثر الفني والثقافي الحي يمنحنا فرصة التعرف على العالم وإكتساب معارف جديدة، والتواصل مع الوقائع والثقافات، الثقافة لم تعد تقدم إذن رموزاً فريدة لا في السياسة ولا في الإجتماع ولا في الفن والفكر وتلاشت الرمزية وحلت محلها "النجومية" التي تعتمد أساساً على الصورة التي أصبحت تنافس الكلمة وربما تعوضها في أحيان كثيرة، والصورة بهذا المعنى أسست مفهوم "التحول من ثقافة النخبة إلى ثقافة الكل أو الثقافة الشعبية إن صح التعبير" إذ أنتقل التعبير من الخطاب الأدبي لدى الشعوب إلى خطاب الصورة مع ظهور السينما ثم التلفزيون ثم ظهور البث الفضائي التلفزيوني، حيث عمت الصورة البشرية كلها وتساوت العيون في رؤية المادة المصورة مبثوثة على البشر كل البشر دون رقيب أو وسيط.[687]

والصورة في امريكا الشمالية هي ثقافة موجهة بصريا، فالامريكان يبدون شعورا أكثر إلى الشكل البصري، وتجربته، ولونه، وحركته، أو قلة حركته، وعمق

(687) للمزيد انظر. عبدالله الغانمي، الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ط2، 2005

أوهامه، وتجارب بصرية أخرى، وبشكل يتفوقون به على الكثير من الثقافات الاخرى، والروس يبدو أنهم متحيزين بقوة نحو التجربة السمعية، حيث انهم يضعون اكثر بكثير في الاشياء التي يسمعونها من التي يرونها، لأن الامريكان يميلون الى الاهمال الشعوري للتجربة السمعية، او يعتبرونها تافهة، فيبدو ان هناك إشارة صغيرة، هي أننا مطلعون على إما قوة الموسيقى، او تغلغلها، وفي امريكا الحديثة (حتى في كل النقد الإعلامي الذي يتم إصداره) هناك القليل جدا من التحذير والتنويه الى التأثيرات السلوكية التي تنتجها الموسيقى، او الاغاني، الموسيقى الشعبية بكل سعادتها ورعبها هي بعد مخفي في بيئة اليوم.[688] وعليه لا تدعهم يضعون الستار امام عينيك واذنيك وفمك وانفك وحواسك كلها ايها المتلقي، كن حريصا؟

وأوضحت بحوث ودراسات وجود مجموعة من العوامل أسهمت في تكوين الصورة النمطية للعرب والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية وهي العوامل النفسية المتمثلة في العداء للاسلام والعرب والشعور الغربي بالتفوق والعوامل السياسية وتتمثل في الرغبة في الهيمنة وبسط النفوذ والأحداث السياسية المعاصرة والمهاجرين المسلمين إلى الغرب حيث تزداد المخاوف الغربية من تصاعد الوجود الإسلامي ومشاعر الصحوة الإسلامية وكذا العوامل الإنفصالية، وتتمثل في المعايير الغربية للعمل الإتصالي والتفوق في وسائل الإتصال الغربية، وكذلك العوامل الذاتية المتمثلة في إنحسار الفاعلية الحضارية للامة العربية وعدم وضوح إستراتيجية إتصالات عربية، وعدم التوازن في عرض قضية الصراع العربي الاسرائيلي في وسائل الإعلام، مما أدى إلى إفتقاد قدر كبير من الموضوعية بإعتبار أن النظم السياسية العالمية لها توجه يؤثر على حرية الإعلام وإنتشاره، إذ أن وسائل الإعلام تسمي الانتفاضة الفلسطينية مثلا خلايا ومنظمات إرهابية أما الأعمال الإرهابية التي يرتكبها الصهاينة واليهود في فلسطين فهي جماعات لابطال الحرية وتتحدث معظم التقارير عن عزلة أو حصار أو المعاناة اليومية للجانب الصهيوني وذلك لكسب التأييد والتعاطف المطلق لاسرائيل على حساب الفلسطينيين، كما أنها وصمت الشخصية العربية بالعديد من السمات السلبية مثل الإرهاب - العنف - العدوان - التخلف

(688) ويلسون براين كي، خداع الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، م، س، ذ، ص172

- معرقلون للسلام، فوضويون - سذج – همجيون، وكانت أعلى نسبة صفة الإرهاب بإعتبار أن الإرهاب صار أحد المسائل المركزية على الأجندة الدولية، ووجود العديد من نماذج الحرب النفسية المستهدفة التي تمارسها إسرائيل على الدعاية الصهيونية الدولية بحيث تعطي لنفسها صفة الشرعية والدفاع عن النفس كما أنه يوجد خلط واضح بين المقاومة الفلسطينية والإرهاب.

كما إن الصور التي عرضتها وسائل الإعلام الأمريكية عن انتهاكات سجن أبوغريب كانت أقل تأثيراً مما كان يحدث على أرض الواقع بسبب سياسة الحجب والتضليل التي اتبعتها وسائل الإعلام الأمريكية، لقد قال مارتي ميهان Marty Meehan وهو عضو في لجنة الخدمات العسكرية بمجلس النواب الأمريكي إنه شعر بالذعر عندما شاهد صور سجن أبوغريب التي وزعتها وزارة الدفاع الأمريكية وأن هذه الصور كانت أكثر بشاعة من الصور التي عرضتها وسائل الإعلام.

طوفان الصورلوجيا

كتب غوستاف لوبون: "الحشد يفكر عبر الصور، والصورة المحفز في المخيلة تحفز بدورها صورا أخرى ليس لها اية صلة منطقية بالاولى، الحشد قادر على التفكير عبر الصور فقط، إنه حساس تجاه الصور وحسب، وحدها الصور تستهويه او تولد فيه الرعب او تصير محركات السلوك فيه"، ثم يعود في مكان آخر الى الصلة بين الكلمة والصورة: "يتصل جبروت الكلمات اتصالا وثيقا بالصور التي تحفزها ولا يرتبط مطلقا بمعناها الحقيقي، تحدث في احيان كثيرة كلمات ليس لها اي معنى محدد تأثيرا كبيرا في الحشد"[689] وفي الوقت الراهن أعتمدت وسائل الإعلام المختلفة في مراحل مبكرة صورة الإنترنت خاصة فيما يتعلق بالمادة الفيلمية، دون اللجوء إلى استخدام هذه الصور من الفضاء الإلكتروني، وغياب ضوابط للتحقق من المواد وغربلتها بما يضمن دقتها وصدقيتها، وصلاحية بث الصور، كما حصل مع العراق ومحاربته للمجاميع الارهابية(داعش) ونقل مصورون محترفون صورا لقتلى ودمار ناجم عن قصف حوثي لمدن يمنية.. كانت الصور معبرة بوضوح عن عمق الأزمة، وكانت وافرة من حيث الكمية، لكنها لم تكن صالحة للبث.

---

(689) سيرجي قره-مورزا، التلاعب بالوعي، مصدر سبق ذكره، ص174

ففي سبيل نقل الحدث والمعاناة، لجأ المصور إلى التقاط صور قريبة للحدث تخدم رؤيته في نقل معناة الضحايا، ولكنها لا تتسق مع أخلاقيات المهنة، ويعود بنا هذا المشهد الى صورة الحرب على العراق في التلفزيون الامريكي والتي تختلف عن الصورة التي كانت تنقلها الوسائل الإعلامية الأخرى وخاصة العربية، مما يؤكد الزيف والتضليل الإعلامي الذي لم نشهده سوى في هذه الحرب، ومما يؤكد على الانحياز وعدم الموضوعية والدعاية التحريضية، وان عدد الصحفيين الذين قتلوا في هذه الحرب فاق أي حرب اخرى وهو عدد غير مسبوق، مما يدلل على امر مهم وهو حجم الكذب الذي كان يراد له ان يمر دون انكشافه، ومحو الصور التي تعبر عن همجية العدوان وإبراز صور أخرى، ان مجمل الدلالات التي تثيرها الرسالة البصرية ليست وليدة مادة تضمينية دالة ومعان قارة ومثبتة في أشكال لا تتغير، وأنما هي أبعاد انثروبولوجية واجتماعية وفطرية إنسانية، ولهذا فالالوان والاشكال والخطوط تتسرب الى الصورة محملة بدلالتها السابقة، فلاشكال الهندسية مثل -المربع أو المثلث او المستطيل او الزوايا- لها دلالات أخرى غير التشكيل الهندسي لفضاءات مقتطعة من كون لا حد له، فالمخاطب الثقافي هو الذي يحول الوجه والايماءة والعضو إلى بؤرة لإنتاج الدلالات وتحديد أنماط استهلاكها.[690] حتى أن إفساد صورة ثقافة الإعلان، وتحويل الإعلان من رسالة إيجابية بأهدافها المعروفة إلى عمل يتسم بالقدرة على تزوير الواقع، عبر تضليل حواس المتلقي، وإلغاء الإستقلالية والحيادية لتلك الحواس، والوقوف في وسط الطريق بين الإدراك بالرؤية بالعين والسمع بالأذن والتعبير باللسان وحتى في إستخدام العقل بحكمة وموضوعية والإستعاضة عن ذلك بسديم ضبابي يخدر الحواس جميعا، ويمنحها متعة سريعة طارئة وزائلة في الوقت ذاته، هذا غير ما نلاحظ عن آثار صور الأفكار الإعلانية في الأطفال، أو تلك الإعلانات التي تنمي الروح العدائية والإحساس بالتفوق العضلي وليس العقلي، وغيرها من صور الإعلانات التي تحط من قدرة المرأة، حتى أضحت المرأة وجسدها المستهدفين في الإعلان وليس السلعة، أن ذلك كله يقود إلى إستبداد الصورة الخارجية المصنوعة المنمقة على الجوهر والرسالة الإنسانية المنتظرة.

---

(690) د.محمد حسام الدين اسماعيل، ساخرون وثوار، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص18

الفصل التاسع

الكراهية والعنف في وسائل الإعلام

الكراهية والعنف في وسائل الإعلام

يقول الإعلامي دان هريس:"أعددنا تقارير هائلة عن الحرب، أعجبت رؤساءنا الذين تفتح شهيتهم الأخبار الساخنة، ولكنهم لم يبثوها، لأنهم لا يبثون ما نراه ونسجله إنما ما يريدونك هم أن تراه"، هناك حقائق كارثية صادمة لو أزيل عنها الحظر الإعلامي، فلإبهار ليس هو الهدف، ولا الدعاية، إنما تكريس الأكذوبة بفن وحرفية مخادعة تلهيك عن الحقيقة وتساهم في التجهيل وتزييف الوعي، فقد بات خطاب التحريض والكراهية والعنف من أدوات الإعلام بوسائله المختلفة وبمختلف ميوله وتوجهاته وإنتماءاته وأهدافه، إذ إن خطاب التحريض والكراهية والعنف في وسائل الإعلام اتّسع وتشعّب وانتشر بشكل واسع، وأصبح أداة خطيرة للتحريض على الآخر، وبدا وكأنه هو المحرك السياسي للشارع العام، فقد أنطفأ الخطاب الإعلامي الإبداعي التفاعلي المحكوم بتكوين النسقين المعرفي والفكري للمتلقي، وساد خطاب التحريض والإنفعال والكراهية، كما برز إعلام الضجيج، وقد يكون ذلك من مستلزمات العمل السياسي في ظرف ما أستخدام خطاب التحريض والكراهية، بديلاً عن الخطاب الإعلامي المتوازن، ولكن إستمرار هذا الخطاب وإدمانه وتحوله إلى إستراتيجية يدل على أن هناك خللاً ما تحاول وسائل الإعلام إخفاءه، والسعي إلى خطاب مشاكس، خطاب تمردي وليس خطاباً تنويرياً، بل خطاباً إنفعالياً وليس خطاباً موضوعياً وهادئاً، ملتبس عليهم بسبب خلفياتهم الضيقة والمحددة، إذ أن وسائل الإعلام لا يمكنها التفريق بين الإعلام الفضائحي والإعلام الإستقصائي، بل يتبع الخطاب السياسي الناري والمتأزم، لذلك تسعى هذه الورقة إلى تقديم إطارا علميا راصدا لطبيعة خطاب التحريض والكراهية والعنف، وللدور الذي يمكن لوسائل الإعلام أن تقوم به في حل الصراعات بأبعادها المختلفة وفي بناء السلم المجتمعي وفي منع بروز الصراعات بين الأطراف المختلفة في البيئة العراقية.

موضوعياً، فإن خطاب الإعلام العراقي مازال خطابا تحريضيا وصراعيا، رغم تنوع رسائله ووسائله الإعلامية وامتلاكه لحرية التعبير، ولكن هذه الحرية ينبغي استثمارها لبناء ثقافة جديدة للإنسان العراقي، وتعميق التوافق الوطني على قضايا

الوطن وأمنه، وإعادة بناء الوطن على أساس المواطنة واحترام القانون، وتعميق الولاء للوطن قبل الولاء للمذهب والعرق، ومحاربة الفساد والهدر في ثروات العراق، وإشاعة ثقافة التسامح والوحدة الوطنية، وتثقيف المواطن على ممارسة الديمقراطية واحترام الرأي الآخر، وتعميق القواسم الإيجابية المشتركة بين فئات الشعب بما يتعلق بوحدة المصير والتضامن الاجتماعي ومحاربة الإرهاب الموجه للمدنيين ونبذ العنف بأشكاله. والأهم من ذلك أن يكون الإعلام العراقي صوت العراق الحقيقي، وصوت الشعب العراقي بأقلياته القومية والمذهبية والدينية، وصوت الخلاص من مفخخاته الطائفية.(691)

ويتمثل المدخل المناسب لمعالجة الأسئلة التي تطرحها الورقة في ماهية وتحديد مصطلحي خطاب الكراهية والتحريض والعنف؛ باعتبارها مفاهيم إجرائية يساعد على تفكيك النظام القيمي الذي يرتكز عليه الرسالة الإعلامية، والتداول الإعلامي للأحداث وانتشارها في الفضاء العام، مرتبطا بالضرورة بعرض طبيعة هذه المفاهيم وماهيتها، ومسارها، وتجذرها، ولغتها، واساليب تحركها في الفضاء العام، بعد أن أفلتت أشكال التداول الإعلامي، في الإعلام التقليدي والإعلام الجديد معا، من الضبط اللساني والتقني، ومن القواعد المنظمة لبناء المعنى بمختلف الوسائط الإعلامية، ليظل الفعل الإعلامي فعلاً تحريضيا عنيفا، يحتقن بالكراهية والتحمل على الآخر وإقصائه، وهو فعل يقدر عليه كل من يكتسب الحد الأدنى من الثقافة الرقمية، ويسير بإتجاه تفعيله والرد عليه سواء فهم التداول للرسالة، أو لم يفهم ماوراء خطاب الكراهية والتحريض الذي ساهم به عن قصد أم بغير قصد، ويُقصد بخطاب الكراهية في هذه الورقة: الكراهية: هي التحريض على العنف أو إتخاذ إجراءات مجحفة ضد شخص أو مجموعة من الأشخاص بأي شكل كان (فعل، قول، صورة، فيديو، كتابة، وغيرها) على أساس العرق أو الجنس أو الطائفة أو المذهب أو الإيديولوجية والفكر، وتشمل خطابات الكراهية صور مختلفة للتحريض، إلى وجود خلط في فهم عدد من المفاهيم، مثل المقارنة بين «خطاب الكراهية» و«التحريض» و«العنف» بصورهما المختلفة، والكره من جذور كلمة الكراهية هو ما يَكْرَهُهُ الانسان ويشق عليه.

(691) د.ياس خضير البياتي، مفخخات الطائفية في الإعلام العراقي، مصدر سبق ذكره، ص8

تجذر خطاب الكراهية والتحريض

أتسع خطاب التحريض والكراهية في الإعلام العراقي وتشعب وانتشر بشكل واسع، وأصبح أداة خطيرة للتحريض على الآخر، وبدا وكأنه هو المحرك السياسي للشارع العراقي من خلال تعميقه للصورة السلبية التي تعبر عن العنف والتطرف والطائفية، وبدت الشخصية العراقية تتأثر سلبا بتكرار الصور ومشاهد العنف والقتل والتحريض الطائفي، وتنسحب على سلوكياته وتصرفاته إجتماعيا ونفسيا، فـ"وسائل الإعلام أستعارت مصطلحات التنظيمات الإرهابية وأصبحت جزءا من الحروب العقائدية والنفسية" وتتسابق وسائل الإعلام في نقل وتغطية الأخبار القريبة من تطلعات الأحزاب وأفكارها، في إنتقائية متعمدة، مما يخلق حالة يأس عند الجمهور، أو تعصب للأفكار، لينتهي أحيانا بالعنف خاصة عند الجمهور الذي يشعر بالتهميش والإقصاء السياسي والمادي والاجتماعي، فضلا عن الانتقائية في اختيار المحاورين والمحللين ذوي الميول الطائفية الذين يساهمون في التحريض وإثارة العنف، لإذكاء الصراعات الحادة، من خلال الوسائل التالية:[692]

1 - بث خطابات الكراهية، عبر كافة الوسائل الإعلامية والوسائط المتعددة.

2 - إطلاق العنان لفتاوى الذبح والتكفير والتفجير.

3 - بث مشاهد العنف، والتأجيج والتحريض الطائفيين.

4 - تفجير مواقع العبادة والإساءة للرموز الدينية واغتيالهم.

5 تصوير الصراعات السياسية والاقتصادية، بوصفها حربا شيعية سنية.

6 - الزج بالجماعات الدينية المتطرفة في الحديث عن الصراعات المسلحة.

ووفقا لما سبق فأن المحرضات التي تدفع الجمهور للتلقي بروح نقدية هي عوامل متجذرة في واقعه ونتيجة لكم من المصاعب التي تواجهها منطقة تعيش منذ قرن: الحروب، الإحتلالات، والدكتاتوريات، في تحالف ليس من شأنهم إلا إعاقة التنمية كما أنه يقع في أساس الإستراتيجية الإعلامية لكل الخطاب الإعلامي يظل أخرس

(692) محمد الشيوخ، السياسية الدولية وغياب الشرعية الدولية وأثر ذلك على الأمن الإقليمي، بحث مقدم الى المؤتمر العلمي الثالث الذي إقامته الأكاديمية العربية في الدنمارك، يومي 13، 14 من شهر شباط / لسنة 2016

من دون أذن وعين المتلقي وهنا يكمن التحدي التاريخي لكليهما فبإمكان المتلقي أن يبحث في هذا الطوفان غير المعهود عما يستجيب لحاجته في أن يكون فرداً منتمياً لمجتمع ولوطن مصالحهما واضحة والحريات العامة فيهما مصانة لكن تعاقب الأحداث والتمزقات بقوة وبسرعة لم يسبق لها مثيل يجعله يغرق في الجدل السياسي البحت والآني وينزلق أكثر فأكثر نحو مرجعيات فئوية في غياب سيادة الدولة والعدالة الإجتماعية مقابل حضور طاغ لقلق الوجود، يميز الباحثون بين سبع وظائف أساسية يمكن لوسائل الإعلام أن تقوم بها لبناء السلم الاهلي ومنع خطاب التحريض والكراهية والعنف والصراع وهي: وسائل الإعلام: كمصدر للمعلومات، ككلب حراسة، كحارس بوابة، كصانع سياسة، كدبلوماسي، كداعم للسلام، ثم كصانع سلام، وتتجسد مخاطرها في خمسة أبعاد، هي التالية:

أولا: البعد النوعي المتمثل في درجة التحريض والكراهية والعنف غير المسبوق، الذي لم يستثن أي نوع من الأسلحة، بما في ذلك أسلحة الدمار الشامل، الذي يستعمله أبناء الوطن الواحد بعضهم ضد بعض.

ثانيا: البعد المكاني المتمثل في الاتساع والانتشار، الذي شمل رقعة واسعة من البلاد العربية والإسلامية، والمرشح لشمول مناطق أخرى.

ثالثا: البعد الزمني، حيث إن هذه النزاعات أصبحت في استمرارها وديمومتها وكأنها أمر معتاد، لا تلوح له نهاية في الأفق.

رابعا: البعد الفكري والنفسي: حيث أفرزت هذه الفتنة أشد الأفكار تطرفا، وأكثر الفتاوى شذوذا وأشد الآراء تعصبا وتحريضا؛ فاشتعلت الساحة بكم هائل من فتاوى التكفير والتضليل والتفسيق والتبديع، فاستبيحت الحرمات، ولم يعد للشرعية مكان في الطاعة وصيانة الدماء، وتجنب شق عصا الأوطان؛ بل استبدلت بها دعوى الجهاد في غير محله، والنهي عن منكر بغير ضوابطه، ما يؤدي إلى ما هو أنكر.

خامسا: البعد الدولي، حيث أدى كل ما سبق إلى تشويه صورة الإسلام عالميا، وصار دين الرحمة والرشد يوصف بأنه "دين إرهاب".

الأدوار السلبية لمضامين رسائل خطاب التحريض والكراهية

يمكن تسجيل بعض الأدوار السلبية لمضامين هذه الرسائل التي ساهمت في إشعال حريق الطائفية والعنف في الواقع العربي.[693]

اولا-انتشرت آفاق النزاع الطائفي والديني في وسائل الإعلام العراقية، وأصبحت تلك الوسائل ساحات لتبادل الاتهامات، من خلال نقل تصريحات شديدة اللهجة تحمل في طياتها الكراهية والبغضاء، واستغلت جماعات العنف والإرهاب وسائل الإعلام فنشرت الأفكار المتطرفة والتكفيرية، مثلما ساهمت في نقل مشاهد حيّة للقتل والذبح، وهذه المشاهد والصور التي جاءت على إثر انتشار عمليات التفجير والانتحار التي تبادل المنفذون في استهداف مناطق شيعية ليقابلها في الجانب الآخر استهداف مناطق سنيّة في بغداد والعديد من المدن العراقية، ما جعل نقل هذه المشاهد من قبل وسائل الاعلام وكأنها شريكة في العملية تتسابق في عرض الصور والتصريحات وفي الكثير من الأحيان دون التأكد منها.

ثانيا-ساهمت وسائل الإعلام الدينية في تثوير الطائفية، والتحريض على العنف من خلال برامجها وحواراتها، وقيامها بحملات إعلامية منظمة وممهجة للتحريض الطائفي، خاصة أثناء الأزمات الطائفية والمعارك العسكرية، ومعتمدة على آليات التمييز الديني في الإعلام المتمثلة في:

1 - **التحريض المباشر**: من خلال السجال الديني الذي تتبناه بعض وسائل الإعلام والذي يركز على بعض الجوانب العقائدية والطقسية والرمزية، بخطابات تمييزية تركز على نقد العقائد الدينية المخالفة وتجريحها.

2 **الكذب الصريح**: الذي لا يمكن إرجاعه فقط إلى ضعف المستوى المهني لكثير من العاملين في وسائل الإعلام، ولكنه اختلاق قصدي لأخبار لا أصل لها؛ لإثارة طرف ضد طرف آخر.

3 - **التمييز الديني بين الأغلبية والأقليات**: وذلك فيما يتعلق بالتغطية الإخبارية، والتقارير، والتعليقات بشكل عام. وهذا التمييز الديني لا يقتصر فقط على انفراد

(693) د.ياس خضير البياتي، خطاب العنف والتطرف والإعلام العربي، مجلة الجديد، نُشر في 2016/12/01، العدد: 23، ص92

الأغلبية الدينية باستخدام أجهزة الإعلام في الدعوة، ولكنه يصل إلي حذ عدم تمتع الأقليات الدينية بحق الرد عندما تناقش معتقداتها في أجهزة الإعلام.

4 - **التغطية المنحازة لأحداث العنف الطائفي**: بعدم وصف الاعتداءات الطائفية باسمها الصحيح، والاستعاضة عن ذلك بالحديث عن "جرائم فردية" أو "أحداث جنائية"، أو بالحديث عن "المتطرفين من الجانبين".

5 - **تشجيع وسائل الإعلام ظهور رجال الدين في البرامج الحوارية، وإثارتهم للموضوعات الطائفية**، وتدحرجت الفضائيات لتفسح لهؤلاء بنشر الأفكار التطرفية والأفكار التي تلغي الآخر، وتشعل فتنة طائفية كانت خامدة لقرون عديدة بين المذاهب.

6 - **تبنت بعض وسائل الإعلام العربية ومنها العراقية بالذات الدفاع عن أفكارها** المذهبية، من خلال نقلها معارك الفضائيات العربية الدينية إلى الجمهور العراقي، حيث تحولت الفضائيات الدينية إلى ساحة حرب بين الشيعة والسنة وبين الصوفية والسلفية.

7 - **استخدام وسائل الإعلام العربية للمصطلحات الطائفية وتكرارها باستمرار**، بحيث أصبحت منهجاً اجتماعيا وثقافيا في حياة الجمهور، وأصبحت حروب المصطلحات جزءا من الحروب العقائدية والنفسية بين المذاهب، وتمت استعارة مصطلحات من التنظيمات الإرهابية أو الميليشيات الطائفية لتكون جزءا من العنف والتحريض الطائفي، حيث ظهرت عشرات المصطلحات التي تكفر بالآخر أو تسيء إلى لمذاهب، أو مصطلحات استخدمت تاريخيا لوصف جماعات اعتبرت خارج الدين، أبرزها «النواصب» و«الخوارج» كما برزت مصطلحات (التكميريين والوهابيين والرافضة والمجوس والصفويون والنواصب).

8 - **تركيز الإعلام على الحدث أكثر من التركيز على الظاهرة**، فهو يعطي اهتماماً لخطاب التحريض والكراهية ولعمليات العنف بأنواعه أكثر من الاهتمام الذي يعطيه للعنف والإرهاب كظاهرة لها أسبابها وعواملها، مع هيمنة الطابع الإخباري على التغطية الإعلامية لعمليات العنف والإرهاب، وتقديم تغطية متعجلة وسريعة، وربما أحياناً سطحية، تهتم أساساً بتقديم جواب عن سؤال: ماذا حدث؟

9 - تغيب في الغالب، التغطية الإعلامية ذات الطابع التفسيري والتحليلي، كما تغيب التغطية ذات الطابع الاستقصائي، الأمر الذي يؤدّي إلى بقاء المعالجة الإعلامية على سطح الحدث والظاهرة، وتقع التغطية الإعلامية في أحيان كثيرة في فخي التهوين أو التهويل بخطاب التحريض والكراهية والعنف بأنواعه.

وعليه فان الامر يستمر فإذا كانت تفجيرات الفتنة الطائفية لقتل الأبرياء في صورة السيارات المفخخة تشكل جريمة بحق الشعب والوطن، فإن تفجيرات الفتنة الإعلامية التي تم تفخيخها داخل وسائل الإعلام العراقية هي الأخرى جريمة بشعة لا تقل عن جريمة قتل العراقي بدم بارد، لأنها تحاول إيقاظ الفتنة والتحريض من خلال خطاب إعلامي مؤجج ومبرمج لمصلحة الانتماء الطائفي والقومي والعرقي. فنحن نشهد اليوم ظهور صحف حزبية ودينية ذات ولاءات طائفية تشيع ثقافة الولاء للطائفة. والأخطر هو تسابق الأحزاب والطوائف والمذاهب على إنشاء إذاعات وفضائيات، معظمها تبشر بثقافة الطائفة وتلغي الآخر تحت مبررات عديدة، ليضاف للمشهد الجديد فتنة حريق الإعلام الطائفي الأجنبي وبعض قنوات الإعلام العربية، لصناعة خطاب التحريض والفتنة، وليصبح المشهد العراقي مشهدا إعلاميًا صراعيًا بين الطوائف والقوميات والأديان، وفيما يتعلق بتأثيرات التأجيج الطائفي في وسائل الإعلام على الوحدة الوطنية وأنتشار هذا التأجيج عبر وسائل الإعلام المختلفة، فيمكن تحديدها في ما يأتي:[694]

1 - تعميق حالة الكراهية والصراع بين الهويات المختلفة.

2 - زيادة حدة الاحتقانات المذهبية والاصطفافات المذهبية.

3 - إنهاء حالة التعايش والوئام بين الطوائف المتباينه.

4 - نمو الأصوات الطائفية وغياب خطاب الاعتدال.

5 - تحفيز الجماعات الإرهابية على ممارسة القتل.

6 - تهديد الاستقرار السياسي والأمني في البلدان العربية.

7 - تغليب المصالح الطائفية والمذهبية الضيقة على المصالح العامة والعليا للوطن.

(694) محمد الشيوخ، السياسة الدولية وغياب الشرعية الدولية، م، س، ذ.

ومن تبريرات خطاب التحريض والكراهية والعنف وانتشاره في وسائل الإعلام:(695)

1 - **المظالم التاريخية للغرب الاستعماري تجاه المسلمين:** في تعليل ظاهرة (الكراهية) هناك طرح فكري سائد يربط الظاهرة بالمظالم التاريخية للغرب الاستعماري تجاه المسلمين، وهي مستمرة حتى وقتنا الحاضر في مناطق متوترة، أفغانستان والعراق وفلسطين، وكذلك المرارات المترسبة في النفسية العربية والمسلمة من أيام الحروب الصليبية، كل ذلك أورث المسلمين إحساساً عاماً بأنهم مستهدفون من قبل الغرب العدواني – المتآمر والمتربص – بالمسلمين وبدينهم وبأوطانهم.

2 - **غياب الحريات والتعسف السياسي:** وهذا جانب من الطرح يعلل (الظاهرة) بغياب الحريات وتعسف السلطات العربية وبطشها وقسوتها في تعذيب السجناء والتنكيل بهم وبخاصة من الجماعات الاسلامية، وعلى هذا فان ثقافة الكراهية تأتي كرد فعل لعنف الدولة وبطشها بالحريات.

3 - **ثلاثية الفقر والبطالة والفساد:** يذهب آخرون إلى (التفسير الاقتصادي) لظاهرة: كالفقر والبطالة المنتشرة والفساد ومظاهر الاثراء غير المشروع.

4 - **الاحباط النفسي للفشل العام:** هناك من يعلي من (التفسير النفسي) للظاهرة، ممثلا في سلسلة الهزائم والإحباطات وفشل مشاريع التنمية والنهوض العربية.

صناعة خطاب التحريض والكراهية والعنف

إدراك أن صناعة خطاب التحريض والكراهية، وإن كانت تتجلّى أكثر مما تتجلّى في الخطاب الإعلامي، إلا أنها مسألة ثقافية بالأساس، ولذلك فإن "المعركة" الحقيقية ليست مع تنميطات الوسائط الإعلامية، بقدر ما هي مع بنية ذهنية تحكمها تراكمات كبيرة، وعليه، فإن العمل على الحد منها يتطلب العمل على أكثر من جهة. الإعلام، المؤسسة التعليمية، مؤسسات المجتمع المدني، مراكز البحوث، وغيرها، أهمية الوقاية من خطاب الكراهية والتحريض عليها، ولعل من أبرز مظاهر السطوة التي يمارسها الإعلام اليوم، خصوصا فيما يتعلق بالقضايا العربية والإسلامية، تجييشه لمشاعر

(695) وليد حسني زهرة، إبي أكرهت، خطاب الكراهية والطائفية في إعلام الربيع العربي، مركز حماية وحرية الصحفيين، الاردن، 2014، ص69-70

الكراهية وإذكاؤه للنعرات الطائفية، التي ساهمت بشكل كبير في خلق كل هذه الفوضى والعبثية في إراقة الدماء، وتنامي نظرات العداء والكراهية التي يرمق بها الغرب كل ما هو إسلامي، كما ان التوظيف الإعلامي للخريطة الإدراكية، ودورها في تجييش النعرات الطائفية ونشر الكراهية، خصوصاً في ظل توظيفهما الملحوظ من قبل بعض وسائل الإعلام المغرضة والطائفية، لسرعة مفعولها ونجاعتها في تحريك الجماهير المستهدفة، وهي الصورة النمطية التي شكلتها آلاف الكتب والصور والمسلسلات والأفلام التي ألصقت كل الصفات الشنيعة بهذا العربي أو المسلم، وأغنت المخزون الإدراكي للشعوب الغربية، وهي نفسها يعاد استدعاؤها اليوم في قضية اللاجئين ضمن سياق الإسلاموفوبيا، فالكثير من وسائل الإعلام الغربية المتطرفة صورت القضية على أنها حالة حرب وتهديد لأوروبا المسيحية، فاتسمت التغطية الإعلامية لهذه الوسائل بتوظيفها للغة معادية وصورة مُشيْطَنة للاجئين ليظهروا كأنهم «الغزاة»، «المُتحرفون»، «الطفيليون»،«المتطرفون»، «الجهلة»، «الإرهابيون»، «الدواعش»، وهذا ما جعل سلوك بعض الأوروبيين في كثير من الدول الأوروبية؛ كالمجر وألمانيا وفرنسا، في الآونة الأخيرة، يأخذون منحى انتقامياً وعدائياً ضد اللاجئين، بفعل خريطتهم الإدراكية التي رسمتها وسائل الإعلام، التي جعلت مجال رؤيتهم محدداً فقط في كون اللاجئين المسلمين تهديداً حقيقياً لوجودهم، دون أن تتوسع هذه الرؤية بالنظر إلى اللاجئين على أنهم فروا من ظروف حرب ضروس لا ترحم، ويعانون أوضاعاً إنسانية صعبة لا تطاق، تستوجب مساعدتهم وحمايتهم بدافع إنساني.[696]

اللغة وفعل خطاب التحريض والكراهية والعنف

أن لغة خطاب الكراهية غالباً ما تعتمد على التشويه والتعابير غير اللائقة، وهي لغة إنفعالية لا تعتمد على العقل، فالعنف اللساني عادة ما يولد عنفاً لسانياً آخر«معادياً له في الإتجاه» بحسب اللغويون، بل تعتمد على بعد إنفعالي، ويشمل العنف اللساني في خطاب التحريض والكراهيه مفاصل المجتمع كافة وابرزها:

1- العنف اللساني الإجتماعي: يتبع أساليب تجاهل الآخر والتعدي عليه وإحتقاره أو إهانته ما يفكك أواصر المجتمع وينهك قواه ويفرغه من القيمة.

(696) عبدالعالي زواغي، لخرائط الإدراكية لنشر الطائفية والكراهية، الجزائر، 2016

2 - العنف اللساني السياسي: وفيه ميزة الإدعاء بإمتلاك الحقيقة من دون غيرها، وإتهام الآخر بأنه لا يراعي إلا مصلحته، وتجاهل الطرف الآخر، ما يسهم في التوتر وعدم إرتقاء المجتمع والدخول في الصراعات التي تبدد طاقة المجتمع وموارده.

3 - العنف اللساني الثقافي: ويقوم بتجاهل التباين الثقافي، وإنكار ثقافة الآخر وإحتقارها أو تهميشها.

4 - العنف اللساني الإقتصادي:وفيه الإحتكار والتحايل والمضاربة خدمة لأهداف ومصالح خاصة.

وبما أن خطاب التحريض والكراهية يتجلى إما في الكلام المباشر أو في الإتصال غير اللفظي، فالحديث المباشر يخص إما الإتيان بالكلمات "المنبوذة" في اللغة إلى الصدارة في فعل الكلام أو إستحداث أخرى في الكلام الدارج أو المحكيات، وقد رصد "بيت الاعلام العراقي"[(697)] خطاب التحريض والكراهية خلال إعداده لتقريره السنوي على إستعمال الاقتباسات من دون تصرف وفي بعض الاحيان نقل الكلام باللهجة الشعبية الدارجة، لكل ما ورد على لسان ضيوف ومقدمي البرامج الحوارية التي شملها الرصد، وحصل على جملة من الخلاصات:

- إستعمال ضيوف عبارات مثل، "أشباه الرجال، خونة، سراق، قتلة، متعاونون مع (...) أصوات نجحة، سياسيون إرهابيون، مافيات" ووردت إتهامات من قبيل، "التحالف مع تركيا لاسقاط الموصل، الصفويين، الحكومه الصفويه، السياسيون الدواعش، عملاء دول تمول الإرهاب، الوهابية، واستعمال مصطلحات للتورية مثل، "الحشد الطائفي"، "دماء العراقيين في رقبة ال سعود وآردوغان"، كما جرى التحريض ضد صحفيين عراقيين من قبل مسؤولين حكوميين او نواب اتهموا صحافيين بالتجسس وتنفيذ اجندات تخريبية.

- يتمثل خطاب الكراهية في تسجيل أي صورة أو عبارة أو مصطلحات يستعملها الصحفي عن قصد أو غير قصد، تتضمن اساءة أو إهانة او اتهاماً بالنقص والدونيّة

---

(697) التقرير السنوي لـ«بيت الاعلام العراقي» عن خطاب التحريض والكراهية في وسائل الإعلام.

او التحقير او تحريض على العنف المادي او المعنوي ضد الاشخاص والجماعات على أساس العرق أوالدين أو الانتماء السياسي أو الجغرافي أو بسبب اللون أو اللغة أو الجنس أو طبيعة المهنة أو المظهر. وقد تم توزيع الإخلالات المتعلقة بخطاب الكراهية حسب الأصناف التالية:دعوة للقتل، دعوة للانتقام المعنوي، دعوة للانتقام المادي، دعوة للإقصاء، دعوة للعنف، التحقير، المس من كرامة الأشخاص، هتك الاعراض، التمييز، السب والشتم، الثلب، الوصم، الاستهزاء، التنكيت.

- بروز مستويات مختلفة من خطاب التحريض والكراهية والعنف تضمنت استعمال عبارات للسب والقذف بشكل واضح، وغالبا ما تعتمد لغة الخطاب التشويه والتعبيرات غير اللائقة.
- تميل لغة الخطاب إلى الشقاق على حساب الاتفاق. والاستهجان على حساب الاستحسان. والترهيب على حساب الترغيب. والقسوة والخشونة على حساب اللين.

سمات اللغة في خطاب الكراهية

يتسم خطاب الكراهية بعدة سمات منها:

1 الاستقطاب. والتقليل أو الترهيب من الطرف الآخر. وغالبا ما تعتمد لغة الخطاب على التشويه والتعبيرات غير اللائقة. وتميل إلى الشقاق على حساب الاتفاق. والاستهجان على حساب الاستحسان. والترهيب علي حساب الترغيب. والقسوة، والخشونة على حساب اللين.

2 - لغة الكراهية في الخطاب الإعلامي، أنه يلغي " الآخر المعارض"، لأنه يتوهم أنه هو وحده الذي يمتلك الحق أو الحقيقة.

3 - لغة استقطاب وإقصاء، هي لغة"نحن" و"هم" وهي تتسم بعدم اللياقة والتهذيب، يغلب عليها السبّ والشتم والتنابز بالألقاب، والشماتة والتسفيه والتشويه، والإشارات النابية والسخرية الموجعة.

4 - لغة صدامية لا تهدف إلى التوفيق أو التوافق بل إلى الانتصار ولو على حساب الاعتبارات الاجتماعية والإنسانيّة.

5 - لغة انفعالية، ليس فيها مكان للعقل ولا فسحة للتثبّت أو التحقق.

6 - لغة تركز في الخطب السياسية، والمقابلات، والبرامج، والدعايات على الموضوعات المفضلة لدى "جماعتنا" أو "حزبنا" وعلى ما أحسنا في أدائه، أما الأطراف المناوئة فتركز معها على الموضوعات السلبية المتعلقة بمؤشرات تلصق بشخصهم او اداؤهم المهني او الانساني.

7 - لغة تركز بمحاور تشيع خطاب الفتنة بين ابناء البلد الواحد.

8 - حروب المصطلحات: إذ أصبحت حروب المصطلحات في وسائل الإعلام جزءا من الحروب العقائدية والنفسية بين المذاهب، وتم استعارة مصطلحات من التنظيمات الإرهابية أو الميليشيات الطائفية لتكون جزءا من العنف والتحريض الطائفي، حيث ظهرت العشرات من المصطلحات التي تكفر بالآخر أو تسيء إلى المذاهب، أو مصطلحات استخدمت تاريخيا لوصف جماعات اعتبرت خارج الدين، أبرزها "النواصب" و"الخوارج" وبرزت مصطلحات "التكفيريين" و"الوهابيين" و"الرافضة" و"المجوس" و"الصفويين"، وكلها هدفها بناء إستراتيجية طويلة الأجل لنزع الإنسانية عن الطرف المقبل، وإشعال فتيل الحروب الطائفية باستمرار.

وفي دراسة للدكتور نصر الدين لعياضي استاذ الإعلام والاتصال بجامعة الجزائر تحت عنوان"الخطاب الطائفي في الفضائيات العربية - كلفة الخلاف وتداعياته، أنتهت هذه الدراسة إلى "أن الخطاب الطائفي في الفضائيات العربية؛ يُضفي معاني على الأحداث التاريخية التي تصنع تمثُّلاته للأنا والآخر، وتسرد الهوية الطائفية، وتكشف عن الثوابت والمرتكزات التي تتحكم في منطقه، وقد ضبطها الباحث في خمسة مرتكزات، وهي: حجة السلطة، والخلط بين التاريخ والذاكرة الجماعية، وإسقاط الديني على السياسي، وانزياح العصبية المذهبية إلى عصبية قومية، والتضليل بدل المحاججة، وقد أستند في تفكيك هذا الخطاب إلى عينة قوامها عشر فضائيات دينية طائفية، خمس منها شيعية والبقية سُنِّية."[698] وينقسم التحريض

(698) نصر الدين لعياضي، الخطاب الطائفي في الفضائيات العربية - كلفة الخلاف وتداعياته، الجزيرة، المركز الإعلامي، 2015

الذي يترتب على خطاب الكراهية وفقا لنص المادة (20) من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية إلى ثلاث صور رصدها البحث العلمي هي:

- **التحريض على العنف(Violence)** :عرفت منظمة الصحة العالمية العنف بأنه "الاستخدام العمدي للقوة البدنية أو السلطة ضد شخص أو مجموعة بطريقة تؤدي للجرح أو الموت أو الأذى النفسي أو البدني.
- **التحريض على العداوة أو الكراهية (Hatred / Hostility)** :عرفت مبادئ كامدن لحرية التعبير والحق في المساواة العداوة بأنها:"كل فعل مبني على حالة ذهنية متطرفة من الكراهية والمقت تجاه أفراد أو مجموعات محددة".
- **التحريض على التمييز(Discrimination)**: كل دعوة موجهة للجمهور بإحدى الطرق العلنية لممارسة أي فعل من شأنه إضعاف أو منع تمتع أفراد أو مجموعات على قدم المساواة مع غيرهم من الناس بحقوق الانسان وحرياته السياسية؛ سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو أي مجال من مجالات الحياة العامة.

خطاب الكراهية والتحريض في شبكة الانترنت

لا شك أن إنتشار خطاب الكراهية والتحريض والعنف في الشبكة العنكبوتية «الانترنت» والتي أطلق عليها المتخصصون أسم «الكراهية الالكترونية» (cyberhate) هي مشكلة شائعة ومتنامية، إذ يزداد سعارها بصفة عامة بعد ثورة الإنترنت التي كانت الرحم التي نشأت فيها مواقع التواصل الاجتماعي، وفي تلك المواقع وجد كثير من الأفراد والجماعات المنظمة وغير المنظمة منابر حرة يتناولون من خلالها أية قضية؛ وأي شخص، وأي تيار دون أي ضابط أو رقيب، إذ إن التحريض الذي ساعد على إنتشاره التقدم التقني في مجال الإعلام هو (الوقود) الذي ضمن إستمرار خطاب الكراهية والتحريض والعنف، وقد ساعد التطور التقني المعاصر في تطوير وتيسير أساليب فعل خطاب التحريض والكراهية والعنف وجعلها أكثر فتكا، إلى جانب الإستخدام الوسع والمنظم لوسائل الإعلام التي تروّج لمختلف مظاهر الإبادة والتعذيب والتخريب والقتل، واضحى الخطاب "خطاب فتنة" وأصبح هو السمة الغالبة على خطاب الجمهور، في عرض قضاياهم، بالكلمة والصورة والفيديو،

والتعليق عليها، عبر وسائط التواصل الاجتماعي، تأثرا بالخطاب السياسي الملغوم، كما أن الخوض في خطاب الكراهية لأي صحفي أو باحث أمر صعب، فهو إما أن ينصر إتجاها على حساب الآخر، فيلومه في الحالتين الطرف الذي لا يناصره، وإما أن يقف على الحياد، فيرميه الطرفان باللامبالاة وعدم تحديد موقفه، وخطاب الكراهية والتحريض الذي يلمسه أي متابع لمواقع التواصل يصنفه بعض الباحثين بالخطاب الأيديولوجي، لأن المنخرطين فيه ينتمون عادة إلى أيديولوجية معينة، يسعون إلى ترويجها، والتهويل في إنجازاتها، والحط والتهوين مما يخالفها من أيديولوجيات أخرى، ويتبع خطاب الكراهية والعنف الخطاب الأيديولوجي الذي يتسم بملمح مهم يسمى "المربع الأيديولوجي" (Ideological Square) وأضلاع هذا المربع هي:

1 - التأكيد على ما لدينا من محاسن.

2 - التأكيد على ما لدى الخصم من مساوئ.

3 - إغفال ما لدينا من مساوئ.

4 - إغفال ما لدى الخصم من محاسن.

وقد تسببت إساءة إستخدام شبكات التواصل الاجتماعي من خلال التعبير الفظ عن وجهة نظر الفرد، وكذلك توظيفها من قبل التيارات المتطرفة، في العديد من الأزمات، لا سيما في ظل غياب منظومة قوانين تحمي وتنظّم إستخدام شبكات التواصل الاجتماعي في العديد من الدول، وهو أمر نتج عنه إما تمييد مبالغ فيه من قبل بعض الدول، أو تساهل أدى إلى إنتقال العنف من الفضاء الإلكتروني إلى الواقع على الأرض، ولعل حادث إغتيال الكاتب الأردني ناهض حتّر، في ايلول 2016، يُعيد إلى الأذهان دلالات ظاهرة التحريض على العنف على شبكات التواصل الاجتماعي، في ظل صعوبة السيطرة -في الوقت ذاته- على الفضاءات الإلكترونية التي أجادت استغلالها ولا تزال الجماعات المتشددة والمتطرفة، حيث قام حتر بنشر كاريكاتير على صفحته الخاصة على "فيس بوك" بعنوان "رب الدواعش" اعتُبر، في رؤية بعض التيارات والجهات، "رسمًا مسيئًا للذات الإلهية" وقُوبل بحملة سخط كبيرة أدت إلى حذف الكاتب للرسم، والاعتذار عن نشره، مؤكدًا أنه لم يقصد هذه الإهانة، وإنما قصد السخرية من الإرهابيين، وقد تعرض حتّر في هذا الإطار للمساءلة

القانونية قبل أن يُفرج عنه بكفالة، ومن ثم تم اغتياله، وعليه فإن ثمة إعتبارات عديدة ساهمت في إنتشار خطاب الكراهية والتحريض على العنف من خلال مواقع التواصل الاجتماعي وتتمثل في:

1 - إتساع نطاق إستخدام الجمهور لمواقع التواصل الاجتماعي، إذ يمثل إستخدامها على أختلافها لنشر أفكار متطرفة ودعوات للعنف إمتدادًا طبيعيًا بسبب إنتشارها بين أوساط الجمهور بمختلف فئاته، وإنتماءاته الطائفية والسياسية.

2 - تصاعد حدة عدم الاستقرار في المجتمع: ساهم تدهور الأوضاع الأمنية والاضطرابات السياسية التي يشهدها العراق منذ الإحتلال الامريكي عام 2003 إلى تصاعد دعوات التحريض من الفضائين الإلكتروني والتقليدي.

3 - تداول الجمهور للعديد من فتاوى التكفير والتخوين وإهدار الدم والتمييز الطائفي.

4 - غياب الأطر القانونية المنظمة لاستخدام الإنترنت: أدى عدم توافر أطر تشريعية في بعض البلدان العربية إلى إنتشار خطاب الكراهية وظاهرة التحريض على العنف عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

5 - إنهيار لغة الخطاب السياسي التي تكون عادة مشحونة بالسجال والتسقيط السياسي مما القى بظلاله على المنظومات كافة ومنها المنظومة المجتمعية.

6 - اتباع أسلوب شيطنة الخصم والآخر وأبلسته من قبل النخبة السياسية عن طريق التلاعن والتلاسن والتراشق بالألفاظ مما أنعكس على لغة العامة من الناس.

يتنفس الخطاب الإعلامي في فضاء مفرط في تطرفه إذ أصبحت الرسائل الإعلامية عبارة عن عمليات ضخمة لترويج التطرف وتفعيل خطاب الكراهية، وصار لزاماً على هذه الرسائل أن تنتج صوراً تبتعد عن الإعتدال والوسطية، وتلبي معايير الخطاب الدعائي(البروباغنده) من أجل الابتعاد عن فتح أفق جديد لخطاب تواصلي تفاعلي يساهم في الجمع بين التقنية والفعل الإنساني إن تعامل كإمكان وفرصة، أو كفضاء وأفق، وهنا يكمن التحدي التاريخي فبإمكان المتلقي أن

يبحث في هذا الطوفان غير المعهود من خطاب العنف والتحريض والكراهية، عما يستجيب لحاجته في أن يكون فرداً منتمياً لمجتمع ولوطن مصالحهما واضحة والحريات العامة فيهما مصانة لكن تعاقب الأحداث والتمزقات بقوة وسرعة لم يسبق لها مثيل يجعله يغرق في الجدل السياسي البحت والآني وينزلق أكثر فأكثر نحو مرجعيات فئوية في غياب سيادة الدولة والعدالة الإجتماعية مقابل حضور طاغ لقلق الوجود، والشعور بالخوف والهلع من المجهول وفق الخطاب الإعلامي المشحون بهما، ووفقا للوعي بالخطاب الإعلامي تترسخ القيم المهمة في عملية إحداث تغيير بالوعي نحو الاعتدال والعمل على كسب الجمهور بإتجاه ما يلبي حاجاتهم الإنسانية، والإستجابة للمعطيات التي يستند عليها النص الخطابي المعتدل والوسطي وتجذره في الوعي الجمعي،

طبيعة وأبعاد خطاب التحريض والكراهية

إن بنية الخطاب الإعلامي تبنى على السياسة الإعلامية لسلطة الوسيلة الإعلامية، والتقويم والتعديل الذي يجري عليها في كل مرحلة، وصولاً إلى التحريض على التقوقع والإقتتال الطائفي بطرق مفضوحة، ومن هنا ظهر مصطلح «الطائفية المتبادلة» في إشارة إلى أن الخطاب الإعلامي الطائفي خطاب تتبنى تنفيذه جميع أدوات المصلحة الحزبية من مختلف متغيرات المعادلة الطائفية والعرقية في العراق خاصة بإختلاف مذاهبهم ودياناتهم وإنتماءاتهم، وبأدوار متناغمة ومتواترة كل بحسب ما يوكل إليه، وفي التوقيت المناسب، وفي هذا السياق، تم توظيف خطاب وسائل الإعلام عامة، والفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعي خاصة، لإقناع الرأي العام أو لتهدئته، لتمييعه وإلهائه، وكان الخطاب الإعلامي العربي يكرس لتحويل إهتمامات الجمهور عبر برامج التسلية المفرغة والإعلانات التي تنخر سلّم القيم، وبرامج الإغتراب الميتافيزيقي والشعوذة، للتغطية على الجوانب السياسية، التنازلات المقدمة للغرب ولتحقيق أهداف أخرى في مقدمتها تمييع موضوع تسفيه الفكر العربي، وترسيخ الشروخ الطائفية والمذهبية، في ما يترجم بثلاث: تدمير ذاتي على أساس المواجهة الفئوية هذه، فضلاً عن المواجهة العرقية أو الأثنية، عولمة إسلامية غائمة، وتحويل العداء عن إسرائيل إلى عدو بديل، ويأتي على رأس هذه المعادلة

تأجيج الحساسية السنية/الشيعية.

بل وتحويلها إلى فتنة وعداء لا يقتصر على العالم العربي وحده بل يطال كل العالم الإسلامي، وإذا ما شذت قناة عن سقف معين ولو لفترة، فأن قراراً سياسياً لا يلبث أن يحجمها، ويعيدها إلى التغريد داخل السرب، بشكل أدق، فأن المطلوب هو إعادة صياغة خطاب معتدل وسطي يعد الجمهور وفق منظومة قيم جديدة تثبت وتنمي ما في السابقة من تخلف وتحطم ما فيها من قيم إيجابية قومية أو إنتاجية أو إجتماعية، من دون أن تحل مكانها، ما يشكل تطويراً وتحديثاً وتقدماً حقيقياً لها، بل يغذي هذا الخطاب وهم الإزدهار والليبرالية والديمقراطية وفضل الثروة النفطية، إذ أنها منظومة تلتقي مع تسويق نمط خطاب الكراهية والتطرف فتؤدي إلى توجه وتوق يريان في السلم الأهلي والاجتماعي صورة مختلفة تماماً عن تلك التي تم ترسيخها في خطاب التحريض، صورة لا تحاول أن تقرأ تلك التجارب بعقلية نقدية منطقية، تستفيد من إنجازاتها وثوابتها الإيجابية، وتكتشف أخطاءها وعثراتها لتطوير مشروع جديد أكثر رقياً وأقدر على تحقيق مصالح الأمة، وما نراه اليوم في المشهد الإعلامي العراقي هو صورة مؤلمة لممارسات تحمل في ثناياها خطاباً إعلامياً مؤججاً ومبرمجاً لصالح الانتماء الطائفي والعرقي، أكثر مما هو لمصلحة الوطن من خلال أكثر من صورة:[699]

1 - وقوع الإعلام العراقي في فخ المنازعات والصراعات السياسية والحزبية والطائفية والفئوية والقومية لأسباب ترتبط بخلفيات بعض الأحزاب وأجنداتها الخارجية، وعدم استيعاب الكثير منها للفكرة الحزبية في العراق وممارسة الديمقراطية.

2 - التنوع في وسائل الإعلام، وهو تنوع إيجابي إذا كان يهدف إلى بناء الإنسان العراقي الجديد، وتوعيته بوحدة العراق ومخاطر التقسيم والاحتلال، وتعميق الوحدة الوطنية، وإشاعة ثقافة الديمقراطية واحترام الرأي الآخر، ولكن هذا التنوع الإعلامي اتجه إلى مسارات تخدم الأحزاب وتلتقي بأجندتها السياسية.

3 - ظاهرة التمويل الإعلامي ومخاطره على مستقبل الإعلام العراقي وإستقلاليته، خاصة إذا كان هذا التمويل خارجياً هدفه تحقيق أهداف سياسية ضد مصلحة

(699) د.ياس خضير البياتي، مفخخات الطائفية في الإعلام العراقي، م، س، ذ.

الوطن، ولاغرابة أن بعض الصحف والفضائيات تم دعمها من قبل الاحتلال أو من دول مجاورة للعراق، بحيث أصبح التمويل امتيازا لبقاء البعض على حساب صحف وطنية وقومية قاومت الاحتلال إعلاميا، ولكنها لم تستطع مقاومة البقاء لأسباب مادية.

وقد أنطفأ الخطاب الصحفي الإبداعي التفاعلي المحكوم بتكوين النسقين المعرفي والفكري للمتلقي، وساد خطاب الشعارات والإنفعال، وبرز إعلام الضجيج، وقد يكون من مستلزمات العمل السياسي في ظرف ما أستخدام الضجيج الإعلامي، بديلاً عن الخطاب الإعلامي المعتدل والمتوازن، ولكن إستمرار هذا الضجيج الإعلامي وإدمانه وتحوله إلى إستراتيجية يدل على أن هناك خللاً ما تحاول وسائل الإعلام إخفاءه، ولا يمكن أن نضخ خطاب إعلامي ورسائل إعلامية في بيئة مجتمعية غير قابلة على فهمها أو هضمها، لأننا نواجه حالة تشبه حالة الإشباع التي تحدث عندما تغرق الأسواق بالبضائع، وعلينا أن ننظر إلى معطى الوسيلة التي تنتج القدرة على توليد الأفكار القابلة للإستهلاك، فوسائل الإعلام تشكل وحدة فاعلة في إنتاج المعرفة والأفكار التي تفضي إلى بناء قاعدة تكوين الرأي العام، لكنها هنا تفتقر الى ذلك، ومن ابرز ملامح هذا الخطاب:

1 - **إدارة الخوف والقطيع التائه**: أصبحت إدارة "الخوف" علامة بارزة في الخطاب الإعلامي كما هو علامة بارزة في السياسة، والتخويف يلعب من دون شك دوراً أساسياً في "الإنفعال الجماعي" ويتحدث نعوم تشومسكي عن مجمع النخبة والقطيع التائه، و"مجتمع النخبة" يرى أنه يجب تخويف "القطيع التائه" لأنه إذا لم يكن مسكوناً بكل أنواع الخوف والشياطين التي تهدد بتدميره سواء في بلاده أو في الخارج، يمكن للقطيع أن يبدأ بالتفكير، الأمر الذي يهدد بخطر شديد، لأن القطيع يفتقر إلى ما يؤهله للتفكر، ولذلك لا بد من إلهائه وتحييده.

2 - **إطلاق شعارات بقوالب جذابة**: يشتهر الخطاب الإعلامي في وسائل الإعلام العربية والأجنبية بإطلاق شعارات ضمن قوالب جذابة وسهلة التناول والتداول، تبدو بسيطة في ظاهرها لكنها تكتسب مع التكرار ضمن أوضاع

وحالات إثارة تصاحبها، قوة الفعل وتأثير الأيديولوجية فمن مبادئ الدعاية الجيدة إطلاق شعارات تضم معاني لا يملك أحد الطعن أو التشكيك فيها لأنها غالباً ما تدخل في نطاق المبادئ المتفق عليها في المجتمع، وقد وجد الشعار قوته وعرف نماءه وازدهاره في أرض الفرص المتاحة للإقتناص، في مواطن كثيرة، مما جعله خطابا للعنف والكراهية يعمل بالضد من الإعتدال.

3 - **سحب البساط من أقدام الأخرين**: لا يمكن إهمال ما صنعته الفضائيات في الشارع العربي، وبوجه خاص منذ الثورة التونسية ولغاية اليوم، إنها في الواقع سحبت البساط من تحت أقدام الأحزاب والمنظمات الجماهيرية والنقابات ذات الأدوار التاريخية في تعبئة وتحريك الشارع السياسي، ولا نستبعد من ذلك الدور البالغ التأثير للإعلام المتعدد الوسائط، الأنترنت والمدونات ومواقع التواصل الإجتماعي، التويتر واليوتيوب والفيسبوك وغيرها، وحتى تلك البناءات التي حافظت على تماسكها فقد وجدت في الجماهير المحتشدة على متابعة التلفريون هدفا لرسائلها، وعبر التلفزيون ذاته.

4 - **إنقسام الناس إلى معسكرين متنازعين**: أن الخطاب الإعلامي الموجه جعل الناس تنقسم إلى معسكرين متنازعين، فما كان من الشباب إلا أن ينحازوا إلى الرمز الطائفي الإقصائي الذي ربما هو الذي يحميه وليس غيره، وأغلب الظن أن الخطاب الإعلامي قدم نزعة جدلية ورثها أهل العراق من أسلافهم، وخطاب يدعو إلى فقه التسامح لا التفرقة ويكرس للرموز العالية التي تقول أن مصطفى جواد، طه باقر، فيصل السامر، فائق حسن، إبراهيم جلال، يوسف العاني، محمد غني حكمت، عبد الكريم قاسم، بدر شاكر السياب، هم عراقيون وليس مكونات، إذ أن الإعلام الذي يؤكد على أن الشباب هم الطاقة الكامنة في بناء مجتمع متصالح وحقيقي هو المجتمع الذي يكون فيه على الإعلام أن يعيد رسم أهداف الشباب من خلال تقديم خطاب معتدل وسطي واضح ونبيل، بسبب ضعف الخطاب الإعلامي الموجه (إعلام يلاحظ عليه أنه جعل الناس ينقسمون إلى قسمين، ظالم ومظلوم، أكثرية وأقلية، وأكثرية عاطلة فقيرة مقابل قلة مترفه.

سبل نشر مفاهيم الوسطية والاعتدال في البيئة الاتصالية الجديدة

إذا أردنا وضع أطر إعتدال لدور الخطاب الإعلامي وخاصة أثناء النزاعات والحروب والأزمات في الخطاب الإعلامي الذي يشوه الحقائق والأحداث بإقصاء حدث دون غيره أو حذف بعض المعلومات منه أو إخفاء بعضها لأسباب سياسية أو غيرها، فعلى وسائل الإعلام تقع مسؤولية العمل بمبدأ الاعتدال والوسطية ووفق ما يأتي:

1 - الإبتعاد عن مراحل التأزم السياسي في نقل رأي الشارع العام الذي كان في نقيض من التصريحات والخطب النارية لبعض الساسة ومن خلال توحيد الخطاب الوحدوي الوطني والتمسك بالهوية الوطنية وتغليبها على الهوية الطائفية والقومية.

2 - إعتدال بأساليب الخطاب الإعلامي في الطرح اليومي للمشكلات المختلفة.

3 - نقد الخطاب السياسي الناري والمتأزم من خلال الطرح الموضوعي للمشكلات والتصريحات السياسية والطائفية.

4 - جمع الفرقاء ولملمة الشمل من خلال طاولة الإعلام وبواسطة حوار مهني مبني على التهدئة وإيجاد عناصر الإلتقاء النفسي والوطني والتي تتجسد في لقاءات صحفية وتلفازية وإذاعية مع الفرقاء السياسيين وعناصر التأزم والإنفراج السياسي والطائفي، وإضفاء سمات الوسطية والإعتدال في الخطاب.

5 توعية المواطنين بالمخاطر الناتجة من الحروب الاهلية والفتن الطائفية والازمات السياسية من خلال النشرات والإعلانات والبرامج الدعائية.

6 - فضح الإعلام الرخيص وكشف المستور عن المحاولات الداعية إلى شراء ذمم بعض الإعلاميين ومقاطعتهم لهم ومنع إعتلائهم مناصب وتجمعات عليا.

7 - كشف العديد من جرائم القوى المتطرفة والمتشددة، دون خوف وتردد.

8 - رفض مشروع الدعم المادي الخارجي والإعتماد على الإمكانيات المحدودة والدعم المحلي.

9 - رفض المشروعات الخارجية لتجزئة البلدان العربية، وزرع بذور الفتن.

10 - التمسك بالهوية الوطنية.

11 - كشف منابع الإرهاب وتجفيفها ومساندة الجهات الأمنية وكشف منابعه ومصادره.

12 - مشاركة الإعلام العربي بالقضايا السياسية ورسم سياسة الدول من خلال الدراسات والندوات واللقاءات المتلفزة والتي ساهمت في إيجاد حالة من الوعي الوطني للساسة.

13 - رصد ومعالجة الظواهر التي تقود الى ممارسة الارهاب كالبطالة والفساد وغيره من الأمور.

14 - العمل على تشجيع ودعم التعايش السلمي بين جميع مكونات وقوميات الشعب العراقي والتي ساهمت في تجفيف منابع الإرهاب ومحركاته.

15 - التركيز على النقاط التي تشكل مقومات جديدة في إعتدال الخطاب الإعلامي المعاصر وإدخال عناصر جديدة في برامج إستراتيجية الحفاظ على السلم الأهلي.

16 - العمل على أنسنة الخطاب الإعلامي وتفعيل هذه الأنسنة لتتلائم مع الحاجات الملحة للجمهور خاصة في ظل مجتمع يواجه تحديات كبيرة تمس جميع مفاصل الحياة.

17 - الابتعاد عن الاستقطاب الطائفي والعرقي في ظل الأزمات التي رافقت العملية السياسية التي انعكست على الخطاب الاعلامي فأصبح خطابا متشنجا تحريضيا منحازا، لأن اغلب المؤسسات الاعلامية تابعة لجهات سياسية وليست مستقلة.

18 - إن وسائل الإعلام الحديثة لها دور مؤثر في تشكيل الرأي العام وتحريك الشعوب، فاستعماله من قبل شريحة كبيرة من أبناء المجتمع لها دور كبير في عملية التثقيف بالفكر الوسطي من خلال بيان أهداف ومحاور يجب تبنيها عبر كل الوسائل مثل الاعتراف بالآخر وقبوله ونبذ التعصب والحوار الهادف والبناء، ولا سبيل لذلك إلا من خلال التفعيل الأمثل للبرامج الإعلامية التي تسعى لنشر ثقافة الوسطية والإعتدال والتسامح بحيث تنعكس هذه المفاهيم

على طاقات الشباب وتسهم إسهاماً إيجابياً في القضايا الوطنية الملحة ونبذ التطرف والإرهاب.

19 - ولا شك أن وسائل الاتصال الحديثة أصبحت أكثر فاعلية وجاذبية، وذلك بخلق فضاء مفتوح لنقل المعرفة والثقافة وتقارب بني البشر في مختلف البلدان، وزيادة وتجديد اهتماماتهم في مجالات أكانت بعيدة عنهم سواء كانت، سياسية او تربوية او اقتصادية أو معرفية او ثقافية زاد من فاعليتها الصورة المغلوطة أو التعتيم الإعلامي الذي تمارسه بعض وسائل الإعلام، مما جعل الكثيرين يلجأون لوسائط الاتصال الرقمية كوسائل بديلة أو إعلام بديل ، ولقد أصبح للاتصال الرقمي أثر بارز في نشر مفاهيم وقيم الحقوق والحريات والاعتدال والوسطية من جهة، والإرهاب والتطرف والغلو والاستبداد والإقصاء من جهة أخرى.

20 - التركيز على الخطاب المعتدل نواجه به الاعلام الارهابي المتوحش والمحرض على القتل والتدمير والمكرس للعنف والطائفية، والمحافظة على حرية التعبير وعدم استغلالها، والتأكيد بان التنظيمات الارهابية والجهات الداعمة لها عدوة لكل العراقيين بمختلف طوائفهم ومذاهبهم وينبغي مواجهتها بلغة وشعار وخطاب إعلامي وطني موحد، بل بجيش من المدونين الذين غزوا وسائل التواصل الاجتماعي واوصلوا الخطاب الوطني اكثر مما اوصلته وسائل الإعلام.

ويمكن تحديد ملامح القضاء على خطاب التحريض والعنف والكراهية وفق المتبنيات الآتية:

1 - ان ما يعوز الاعتدال في الخطاب الإعلامي الأن هو عنصرا التسويق والصناعة.

2 يحتاج الخطاب الديني إلى إعادة صياغة واستراتيجية جديدة تواجه الطريقة التي تعرض بها وسائل الإعلام القضايا الدينية، والتي تفتقد أي تأثير إيجابي على الجمهور حول الإسلام المعاصر، ودون تخطيط مهني علمي، ستبقى الخطابات أحادية النظرة تغزو الشاشات العربية وتبث الفتنة والفتاوى الشاذة وتؤجج التعصب.

3 - ضعف اليات السيطرة على تنامي لغة الكراهيه في الخطاب الإعلامي، مما يتطلب منا ترسيخ مبدأ الاعتدال في مجتمعاتنا ووضع إستراتيجية وطنية تقوم على تفعيل المفاصل الرئيسة الحاكمة التي تصوغ وتوجه ثقافة المجتمع، وتشكل عقول أفراده ووجدانهم.

4 - البحث عن إيحائيات إنسانية تدل على الإعتدال والوسطية في مضمون الخطاب الإعلامي.

5 - إعادة تسجيل الواقع وإعادة إنتاجه، فوضوح العلامات الفارقة في التناول والمعالجة الفكرية في البحث كانت في الواقع تبدأ من فكرة تسجيل الواقع وإعادة انتاجه، وهي ليست عملية تسعى نحو بناء إستيهامات فكرية مستندة الى الرغبة في تحطيم القشرة التي تغلف فعل الإعلام، بل انها عمليا تسعى الى صياغة شكل معياري يمكن من الاحتكام له بشكل محايد وموضوعي، وبمعنى آخر السعي نحو إفتراض وجود حراك إعلامي هادف متسم (بالإعتدال) المدرك من القائمين على تفعيله في المجتمع لغايات خلاقة وبناءة، هذا الافتراض بحد ذاته يلقي على المتلقي مسؤولية إكتشاف حجم الفجوة القائمة اليوم بين النوايا المضمرة والغايات الحقيقية وراء تمكين الإعلام من التوصل والتأثير في الافراد والمجتمعات.

6 - تلوث البيئة الإعلامية، إذ أن المشاهد المتصلة بواقع دور الخطاب الإعلامي في المجتمع التي تعرض تفاصيل معززة بالقرائن عن (البيئة الملوثة للإعلام)، تعبير يختصر القصة بإسرها، والحوسبة الرياضية الموظفة في أداة التفكير والمعالجة كانت تحاول من خلال الخوض في غمار تفاصيل المعالجات الذي عرضها البحث، تسعى بشكل حثيث نحو بناء فضاء مشترك بين المرسل والمستقبل، فضاء مشحون بالمسؤولية المشتركة لجميع من يرى في الإعلام نشاط معرفي خلاق يمكن ان يسهم في ضمان حياة أفضل للبشرية، وحرية حقيقية للانسان، وفق مبدأ الإعتدال.

7 - أن الإعتدال في الخطاب الإعلامي، هو الإستواء والإستقامة والتوسُّط بين حالَيْن؛ بين مجاوزةِ الحد المشروع والقصورِ عنه، والاعتدال الذي نقصده، لا يعني التخلي

عن ثوابت الدين في الرسالة الإعلامية، وإنما يعني قراءة هذه الثوابت بعيدا عن الغلو والتطرف والتحريض والمطلوب على هذا الصعيد، وإظهار قيم الإعتدال والوسطية ونسج العلاقات الايجابية بين مختلف الأمم والشعوب والثقافات والحضارات، والعمل على صياغة خطاب وسطي يفكك نزعات التطرف والغلو، ويبني حقائق الاعتدال والتسامح.

8 - أن تعزيز ثقافة الإعتدال هو تعزيز للحرية الإعلامية وحمايتها، وحفظ التوازن في الممارسة والتعبير، مما يحد من الشطط الذي يؤدي إلى ممارسات سلبية، إذ أن الإعتدال لا يعني أبدا عدم الانحياز إلى الحق أخلاقيا وإنسانيا، تجاوبا مع حريات الناس وتطلعاتهم وامالهم، كما أن الإعتدال لا يعني أيضا تنازلا أو خضوعا أو خنوعا، ومسؤوليته الحفاظ على السلم الاجتماعي ورفع الظلم والدفاع ضد العدوان والتوعية من المخاطر، فضلا عن ضرورة النظر إلى القضايا التي يتم تناولها في وسائل الإعلام برؤية أبعد من حماسة قد تكون إنتحارية أو تهوّرية.

9 إمكانية تصميم مكتبة إلكترونية شاملة تضم محتوى يبيّن حقيقة التمثل بصفات الوسطية، وأصول الاعتدال في كل شيء، وسبل استثمارها كرسائل ومنشورات على شبكات التواصل الاجتماعي، وإنشاء مجموعات وصفحات دردشة يرأسها ويديرها أشخاص ذوي دراية وعلم بالشريعة الإسلامية ومدربين على المناقشة والحوار بهدف تقديم الفكر السليم، ونبذ التعصب والتطرف.

طبيعة الفضاء الافتراضي المفتوح

أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي من أهم الوسائل التي ارتكزت عليها المخططات الاستراتيجية الإرهابية لنشر العنف والفوضى والإرهاب والأعمال الإجرامية، ونشر الشائعات والأخبار المغلوطة، وزعزعة القناعات الفكرية والثوابت العقائدية والمقومات الأخلاقية والاجتماعية التي من شأنها إحداث بلبلة داخل المجتمع، مما جعلها تشكل خطرًا على الأمن القومي الخاص بكل بلد علي حدة، ففي مصر على سبيل المثال وخاصة في الفترة التي تلت عزل مرسي عن الحكم إبان ثورة الثلاثين من يونيو، وظفت الجماعات الجهادية المتطرفة التي تتخذ من الإسلام ستارًا للاختباء وراءه، فضلًا عن بعض الأفراد من ذوى الأفكار الهدامة

مواقع التواصل الاجتماعي في مواجهة الدولة المصرية؛ لزعزعة أمنها القومي انتقامًا من الثورة التي أطاحت بمرسي، من خلال شن الحملات المسيئة للنظام الحاكم ومؤسسات الدولة؛ تحقيقًا لتنفيذ مخططاتهم في عملية زعزعة الأمن وزرع الفتن في البلاد، وتدمير مرتكزات التنمية ونشر الفوضى والدماء ونشر الشائعات المغرضة ؛ لتضليل الأجهزة الأمنية التي من شأنها تهديد أمن المجتمع واستقراره السياسي ونسيجه الاجتماعي وبث الرعب بين المواطنين وترويعهم لإظهار عدم أمن واستقرار البلاد، وتنسيق العمليات الإرهابية والهجمات العنيفة التي تشنها ضد مؤسسات الدولة ومؤسساتها الأمنية والعسكرية والقضائية، وإفشاء المعلومات العسكرية السرية، كما تستخدم في التجسس وفي دعم المسلحين في سيناء، من خلال النشر المكثف للصور وملفات الفيديو والوثائق التي تدعم الأفكار التي تروج لها، وتعطيل أنظمة قطاعات حكومية وحيوية.

كما يُستخدم موقع التواصل الاجتماعي، فيس بوك «في التنسيق للعمليات المسلحة وتوقيتها كما حدث في سيناء، واستهداف بعض مديريات الأمن في محافظات الجمهورية، واغتيال عديد من الشخصيات، وتجنيد إرهابيين جدد، والتنسيق لعملياتهم عن بعد، ونشر أخبار العمليات الإرهابية التي يقومون بتنفيذها، وبناء شبكات التواصل بين أعضاء ومناصري تلك الجماعات، مما يسمح بإرسال رسائل خاصة لهم وكذلك التعرف بعضهم ببعض، مما يخلق مجتمعًا إرهابيًا افتراضيًا يستهدف ترويع المواطنين وتخريب الممتلكات العامة والخاصة، كما تستخدم هذه التنظيمات الإرهابية موقع المشاهدة المجاني» يوتيوب» من أجل نشر هجماتهم الإرهابية ضد أكمنة الجيش قبلما يتم اختراقها، ونشر الدعاية وتجنيد الشباب لصفوفهم، ونشر تهديداتهم قبل إتمام عملياتها كنوع من التنويه وإثارة الذعر بين المواطنين ومحاولة إرباك أجهزة الدولة ومؤسساتها، فأتستخدم التنظيمات الإرهابية موقع التواصل الاجتماعي «تويتر»؛ لضمان الاتصال الداخلي بين أعضائها وتنسيق وتنظيم الأفعال الإجرامية، ولنشر بياناتها تباعًا حول هجمات التنظيم على أكمنة الجيش المصري في سيناء، ولنشر الشائعات والترويج لأفكار تستهدف تقويض سلطة الدولة وسيادتها بهدف الإضرار بمصالحها الوطنية وسياستها العليا واستقرارها

السياسي، ولشن حرب نفسية ضد قوات الجيش والشرطة والقضاة، باعتبارها من أسرع الوسائل التكنولوجية في توصيل الرسائل والمعلومات عن عملياتهم، ويعزز من قدراتهم التكتيكية، حيث يرون في التغطية الإعلامية لجرائمهم معيارًا مهمًا لقياس مدى نجاح عملياتهم على أرض الواقع.

إن طبيعة الفضاء الافتراضي المفتوح وعدم وجود رقابة عليه، وسهولة الاستخدام، والقدرة على التخفي والتمويه والتشبيك، وكذلك إمكانية التواصل مع قاعدة جماهيرية عريضة بسهولة ويسر هو الذي ساعد الجماعات المتطرفة على الاستفادة من مواقع التواصل الاجتماعي وتسخيرها لخدمة أفكارهم الهدامة، حيث ساعدتها في تحقيق عنصر التجنيد بشكل كبير وواسع، فضلًا عن سهولة الحصول على المعلومات والدخول على قواعد البيانات واختراق حسابات ومواقع حكومية، واستغلالها في خلق الإرهاب المعلوماتي، والتعبئة وتجنيد إرهابيين جدد، والحاجة الى مراقبة مواقع التواصل الاجتماعي؛ للحفاظ على الأمن، لتوفير الامان للناس جميعا.

الفصل العاشر

دوافع تطبيق النظرية الفرعونية في وسائل الإعلام

دوافع تطبيق النظرية الفرعونية في وسائل الإعلام

من الأهمية البالغة معرفة الدوافع التي أدت بفرعون إلى تجسيد نظريته، وهذا من خلال ما استخلصناه مما تقدم من مبادئها، وكذلك ما عرضه القرآن الكريم من أسباب حقيقية التي دفعت بفرعون بانتهاج سياسته، ولأن كل من الاستكبار والاستبداد مثلا أعمدة النظرية الفرعونية ومبادئها فإن هاتين العلتين في النموذج الفرعوني لهما من الأسباب ما تجعل الحجة أبلغ والدليل أبين على ما جسده فرعون من معاني القهر والظلم، والاستكبار والاستعلاء بغير حق، فتجسدت تلك الدوافع فيما يلي:

1 - **غلبة الخوف على الملك:** من بين الدوافع التي يجب الإشارة إليها في النظرية الفرعونية هو دافع المحافظة على الملك والسلطان والخوف عليهما، خوف وصل إلى حد التعلق، والتشبث، والتفكير، والبحث عن الطرق والوسائل التي تكون كفيلة بكبح أية محاولة للاقتراب أو المساس بالثروة الدنيوية المحققة والسلطة المتجبرة المكتسبة جراء التعسف والإيثار بالبطش والإرهاب ضد بنو إسرائيل.

2 - **التوتر النفسي:** كان فرعون مصابا بمرض نفسي، يصيب القادة والحكام، عندما يبتعدون عن الله، ولا يدينون بدين الحق، إنه مرض الفرعونية!! وهو عقدة نفسية تصيب فرعون وأمثاله، إذ إن هؤلاء يرون أنفسهم حكاما مسؤولين، آمرين ناهين، ويرون الآخرين أذلاء مستسلمين، فينسون أنهم بشر كباقي البشر، وأن حكمهم للآخرين فرصة لخدمتهم وتقديم الخير لهم، وعندما ينسون ذلك تسوّل لهم أنفسهم أنهم آلهة وأرباب، فيدعون أتباعهم وأقوامهم إلى تأليههم وعبادتهم، ويتعاملون معهم بمنتهى درجات الازدراء والاستخفاف والاحتقار! فيقصمهم الله ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

3 - **حرب الاستنزاف:** تنوعت أشكال حرب الاستنزاف التي شنها فرعون وملئه على بني إسرائيل، وكانت تهدف إلى تسخيرهم لخدمة الملك والسلطان بسن قوانين ردعية قاسية تهدف إلى ملأ خزائنهم، وازدهار اقتصادهم وثروتهم، وتلك قمة الاستغلال ومنافذ للاستعمار، فأخذتهم العزة بالإثم واستعملوا السلب والنهب، والبطش والقتل لا لشيء إلّا لتحقيق المنفعة الشخصية، على حساب شؤون الرعية.

4 - **سكرة الملك:** لسكرة الملك تأثير قوي على فرعون وملئه، فلم يكن همهم إلّا الحفاظ عليه بشتى الطرق والوسائل، بل كان مصدرا من مصادر دعم إدعاء فرعون، حيث نصّب نفسه إلها في الأرض، فرأى أن الأرض ومن عليها ملكه، إذ إنها سكرة السلطان والتمسك بالعرش، والخوف من فقدانهما، فقد ظن فرعون أنه بمجرد الانصياع إلى الحق وإرسال بنو إسرائيل مع موسى أنه إنقاص لسلطانه والتدخل في شؤون حكمه، هذا الحكم الذي جعل الشعب المصري يذوب كلّه في إرادة فرعون، وصار فرعون هو مصر، ومصر هي فرعون، وهذا أول ما يفعله الاستبداد بالسلطان والحكم بالشعوب، إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته كإنسان، وهذا ما فعله فرعون موسى بشعب مصر.

5 - **التحكم بعصب الحياة:** (وهذه الأنهار تجري من تحتي) فرأى أنه بتحكمه بالماء فإنه يتحكم بعصب الحياة كيف لا؟ وهو مورد لكل شيء، ولا تقوم للحياة قائمة إلّا به، فرأى فيما رأى من سفاهته أن الأنهار مسخرة بأمره، ولخدمة ملكه، ومن الضروري أن نكشف للقارئ ما هو الدافع الحقيقي الذي جعل فرعون المستأله يتساءل عن ملكه لمصر والأنهار التي تجري من تحته! فلو كان ملكه المزعوم حقيقة له لقال مثلا لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، ونحن نرى أن قوة الدليل التي جاء بها موسى عليه السلام جعلت فرعون يشكك في ملكه لهما، ويسأل قومه أن يعطوه إجابة مطمئنة على ذلك، ويجوز كذلك أن هناك من شكك في ملكه، وهذه علامة من علامات خوف فرعون على خسارة ملكه وضياعه، ومن جهة أخرى أراد فرعون أن يختبر ولاء قومه ومدى تأثير رسالة موسى فيهم، قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي: ويحه! افتخر بنهر ما أجراه ما أجراه.

6 - **الاخفاء اللاشعوري:** أي إخفاء رموز ما هادفة، وسيتم إدراكها لاشعوريا من قبل القارئ، او على الاقل، هو أحد انواع الإخفاء التي يتم استخدامها لغزو واغتصاب منطقة اللاوعي عند القارئ، هنالك العديد من تلك التقنيات قيد الاستعمال في وسائل الاعلام، تفعل الكثير بالاشخاص، إنها ببساطة تفعل أشياء أكبر بكثير من مجرد بيع وترويج المنتجات.[700]

---

(700) ويلسون براين كي، خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، ترجمة محمد الواكد، دارصفحات للدراسات والنشر، سوريا دمشق، 2008، ص28

7 الاستخفاف بالقوم: استخف قومه وأطاعوه في قوله هذا، وسول لهم أنه بالفعل إله في الأرض يملك كل شيء؛ سياسة حجب المعلومة من قبل وسائل الإعلام الأمريكية لم تكن سياسة جديدة مرتبطة بالحرب على العراق، لكنها كانت واضحة جلية في هذه الحرب، وهو الأمر الذي كان له أثر كبير على الرأي العام الأمريكي، وبخاصة أن قضايا حرية الرأي والتعبير على مستوى العالم تروّج للحياة الأمريكية بوصفها تتمثل في حرية الاختيار في بيئة من التنوع الثقافي والإعلامي، وأنها تغلغلت في أعماق أعدبية كبيرة من الأمريكيين وهو ما يجعلهم سريعي التأثر بالتضليل الإعلامي الشامل، فالظاهرة الفرعونيَّة تتشكَّل من الطاغِيَة الغَشُوم من جِهَة، والأمَّة المتَصِفة بالسلبيَّة من جِهَة ثانية، ولم تأتِ هذه السلبيَّة وهذا الخُنُوع إلاَّ من حالة نفسية وفكرية هي «القابلية للاستِخفاف»، تمامًا مثل الظاهرة الاستعمارية التي حلَّلها الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - تحليلاً علميًّا تاريخيًّا دقيقًا ليَخلُص إلى استِنباط سببها المتمثِّل في «القابليَّة للاستِعمار»؛ أي: وجود الأمَّة في حالة من الضَّعْف الثقافي والانهيار النفسي والعجز عن الأداء تقضي على مناعتها الذاتية، فتكون فريسةً سهلةً للاحتِلال الأجنبي، وهذا يَنطَبِق تمامًا على الفرعونيَّة انطباقه على الاستعمار.[701]

وقد تَناوَل سيد قطب: «القابليَّة للاستخفاف» ببيان رفيع يقول فيه مُعلِّقًا على إعلان فرعون «أنا ربُّكم الأعلى»: «قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطُّغَاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلَّتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلاَّ فرد لا يملك في الحقيقة قوَّةً ولا سلطانًا، إنَّما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب، وتَمُدُّ له أعناقها فيجر، وتَحني له رؤوسها فيستعلي، وتتنازَل له عن حقِّها في العزَّة والكرامة فيَطغَى.

ويزداد تأثير نظرية التهيئة المعرفية مع نشاط نموذج الاتساق والتنافر المعرفي؛ "الذي يقضي بأن الفرد في الغالب يتعرَّض ويُدرك ويفهم ويتذكَّر بشكل انتقائي ما يتفق مع قيمه ومعتقداته السائدة»، والجماهير تفعل هذا مخدوعةً من جِهَة، وخائفةً من جِهَة أخرى، وهذا الخوف لا ينبَعِث إلاَّ من الوهْم، فالطاغية - وهو

(701) عبدالعزيز كحيل، الفرعونية والقابلية للاستخفاف، م.س، ذ.

فرد - لا يُمكِن أن يكون أقوى من الألوف والملايين، لو أنَّها شعرت بإنسانيَّتها وكرامتها وعزَّتها وحريَّتها، وكلُّ فردٍ فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوَّة، ولكن الطاغية يخدعها فيُوهِمها أنَّه يملك لها شيئًا، وما يُمكِن أن يطغَى فردٌ في أمَّة كريمة أبدًا، وما يُمكِن أن يطغى فردٌ في أمَّة رشيدة أبدًا، وما يُمكِن أن يطغى فردٌ في أمَّة تعرف ربها وتُؤمن به، وتأبى أن تتعبَّد لواحدٍ من خلقه لا يملك ضرًّا ولا رشدًا.

8 - **طاعة الجمهور:** طاوعوه على ملكه وهللوا له، وأشرفوا على شؤونه وسهروا على حمايته، رغم أنه ملك دنيوي زائل، أنساهم عبدة الله عزوجل الذي أمدهم بما كانوا به يتبجحون، لما زين لهم ملك فرعون، وكلامه الكاذب المضلل المزخرف في الظاهر، كزخرفة ملكه البائد، ولم يختلف هذا النهج أثناء الحرب على العراق فرغم قيام بعض العاملين في وسائل الإعلام الأمريكية بإنتقاد سياسة الرئيس بوش الابن إزاء حجب المعلومة عن الإعلام والرأي العام أثناء وبعد الحرب، لاسيما فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل وأن العراق يمثل تهديداً وشيكاً للأمن القومي الأمريكي، إلا أن العديد من المؤسسات الإعلامية الأمريكية ظلت تسير على النهج الذي اختطته الإدارة الأمريكية واستمرت المؤسسات الإعلامية الأمريكية تردد تصريحات المسئولين الأمريكيين قبل شن الحرب وبعدها وما نتج عنها من تداعيات بل إن وسائل الإعلام بتضامنها مع الإدارة الأمريكية في حجب وإخفاء المعلومة، ساعدت في تضخيم الكثير من المعلومات والملفات المتعلقة بالحرب وهي بهذا فقمت من الخوف لدى الرأي العام الأمريكي وربما العالمي عندما ركزت -على وجه الخصوص- على ما ردده الرئيس بوش عندما ذكر أن الأمريكيين معرضون للهجوم بأسلحة الدمار الشامل التي وقعت في أيدي الإرهابيين.

9 - المتهديد بالطوفان: الطوفان ماء من جنس ما افتخر به فرعون، ولكنه متلف للزروع والثمار، وقد عمدت الإدارات الأمريكية المتعاقبة على تفعيل مثل هذا الفعل حتى تبقى قضية حجب المعلومة وإخفائها أمراً مشتركاً بينها وبين وسائل الإعلام، ولذلك كان فريق المحررين والمراسلين الصحفيين الذين يعملون مع

الحكومة يخفون معلومات ذات سرية بالغة تشبه في أعماقها ما فعله فرعون من طوفان، وقد فطن الرئيس دويت ايزنهاور (Dwight Eisenhower) إلى ذلك وأيقن أن الثقة المشتركة ستؤدي إلى عدم تسريب المعلومات التي ترغب الإدارة في حجبها، ولذا قام بتزويد المراسلين بالخطط التفصيلية للمعارك خلال الحرب العالمية الثانية حتى "يكون لديهم شعور بنفس المسئولية التي أتحملها أنا ومساعديّ" وقد التزم الصحفيون بالعهد الذي بينهم والإدارة وتكتموا على المعلومات المتعلقة بالقنبلة الذرية الأمريكية وفي هذا الصدد أتيحت للمراسلين والصحفين فرص الكشف عن ذلك ومنهم المراسل العلمي لصحيفة نيويورك تايمز وقتها وليام لورانس (W llıam Laurence) التعرف على كافة التفاصيل السرية لمشروع القنبلة الذرية، وشاهد الاختبار الأول لهذه القنبلة الذي جرى في صحراء المكسيك وبعدها إلقائها على مدينة ناجازاكي في اليابان ورغم أن لورانس كان يعلم أنه لن يتمكن من البوح بهذه المعلومات إلا بعد انتهاء الحرب، فقد قام بإعداد المعلومات للحكومة التي نشرها البيت الأبيض ووزارة الدفاع بعدما ألقيت القنبلة على هيروشيما.

10 - القوة والاستيلاء: أي غلبة الخوف على السلطان غلبة سكرة السلطان انبجست هي الأخرى من منبع عين النظرية الفرعونية، وكانت دافعا آخرا لتجسيد فرعون لمنطقه، وإن كنا قد أعطينا إشارة طفيفة للعلاقة التي تجمع هذا الدافع بدافع الملك، إلّا أنه من الضروري تسليط الضوء على تسلط فرعون على قومه،خاصة وأن الملك والسلطان وجهان لعملة واحدة في سياسته، بل لا ينفصلان عن بعضهما في منطقه الفاسد، ويجدر لنا في هذا الإشارة لمعنى السلطان المقصود في هذا المقام، إذ أن السلطان المقصود فيما نتعرض له، هو سلطان القوة والاستيلاء على كل شيء دون هوادة، فكان دافعا لفرعون لكي يجسد نظريته الفرعونية في مصر، ويحكم قومه بقبضة من حديد و يذيقهم ما أذاقهم من صغار وذلة، وجعل ملئه يتبعونه، يقولون بما يقول، ويفعلون بما يفعل فزاغوا بزيغه، وأطاعوه في أمره، وقد قيل: إن في صحبة السلطان خطر: إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بروحك فالسلامة ألّا يعرفك ولا تعرفه، بل كان

سلطان فرعون طامة كبرى حتى على الذين لم يعرفونه، أو حتى أن تكون لهم ملكة عقل كي يعرفوا ما فعله سلطان فرعون وجبروته ببراءتهم التي سرقت أمام أنظار أهليهم دون رحمة أو شفقة، ونقصد بذلك الولدان الصغار الذين قام بذبحهم وقتلهم شر قتلة، وحتى أقرب الأقربين له مسهم فيما مسهم من ظلم وجور سلطان فرعون وقهره، فصار لا يميز بين الأخضر واليابس، والصواب والخاطئ، بل استعمل أبشع الطرق للحفاظ عليه والاستعلاء به، مستصغرا الجميع.

الشر الفرعوني

استخدم فرعون فضلا عن ظلم واحتقار رعيته لتثبيت سلطانه فيهم، وإطالة بقائه وسائل عديدة، يمكن وصف منبعها أنه كلّه شر، وكانت الجنايات الأربع الناشئة عن هذا الشر الفرعوني وهي: الخداع، والفساد، وتسفيه موسى ومن آمن معه، والاستهزاء بهم، فانظر إلى ما تضمنت هذه الجنايات الأربع من النتائج المتسلسلة المترتبة على فرعون ومثله، في الجمل السبع، وهي: تحميقهم بطلب المحال، ثم تسفيههم بإضرار أنفسهم بنية المنفعة، ثم تجهيلهم بعدم التمييز بين الضر والنفع، ثم ترذيلهم بخبث الطينة ومرض معدن الصحة وموت منبع الحياة، ثم تذليلهم بتزييد المرض في طلب الشفاء، ثم تهديدهم بألم محض يولد ألما صرفا، ثم تشهيرهم بين الناس بأقبح العلامات نعني الكذب.

1 - **التجبر**: أن فرعون في سلطانه وحكمه انتهج سياسة مبنية على التجبر، ومحاولة تكبيل أفواه الناس عن قول الحق، وكذا تكبيل عقولهم لمعرفة معاني الحق الذي جاء به موسى من ربه فسلّط فرعون على قومه التيه والعمى، والاحتكام إلى سلطان الهوى، فصارت لديهم دعاوى الباطل التي ناد بها أمام الملأ حق، ودعوة موسى للطريق القويم باطل، وهذه هي فعلا غلبة السلطان الجائر، الذي يسعى إلى تخويف الرعية وسحقها، والتلاعب بعقول أفرادها،

2 - **التواطؤ**: أظهرت أجهزة الحكم في سلطان فرعون تواطؤها مع سياسته القمعية ومنهجه الظالم، بل وفي كثير من الأحيان كانوا مصدرا لاتخاذ القرار، ودافعا قويا لتطبيقه، ويعزى ذلك إلى طمعهم المتزايد في التقرب إلى فرعون والحفاظ

على مناصبهم والترف والبذخ الذي كانوا يعيشون فيه، تحت سطوة السلطان الظالم، قيل بقوته وسلطانه، واتخذ من هذه القوة والسلطان سلاحا ردعيا ضد من يقف ضده أو يتوان في خدمته، أو لمجرد التفكير في مخالفة قواعده، أو الخروج عن إرادته المتعجرفة، وتلجأ واشنطن ووسائل الإعلام المرتبطة بالإدارة الأمريكية إلى إخفاء الحقائق واستخدام عبارات مضللة، مثل القضاء على الإرهابيين، وحماية الانتخابات، والتحول الديمقراطي، وحقوق الإنسان، وحماية البنية الأساسية للعراق، وغيرها، لإخفاء الوقائع التي تحدث في العراق وتمثل خرقاً للشرعية الدولية وتحقق الأهداف الإستراتيجية للولايات المتحدة وقد ساهمت السياسة المشتركة بين القيادات السياسيه والعسكرية من جهة ووسائل الإعلام من جهة أخرى في إقناع غالبية شرائح الرأي العام الأمريكي بأن الإبادة التي تمارس في العراق بحق المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ هي عمليات تتم من أجل الشعب الأمريكي ومن أجل أمنه ورفاهيته حتى لا تقوم المجموعات الإرهابية بشن هجمات على الولايات المتحدة كما حدث في الحادي عشر من سبتمبر 2001م.

3 - **هوس السلطان:** سياسة الظالمين المصابين بهوس السلطان عبر الأزمان، يقربون منهم من يخدم مصالحهم ومن يساهم في تسيير أمورهم، لا يأخذون بعين الاعتبار ذوي الكفاءات والسير الحسنة، وقد يستهدفون أشخاصا من لهم صيت وذاع في مجتمعاتهم لكي يستعملونهم كأبواق يؤثرون بصورة مباشرة على الناس، فيضللونهم ويضلونهم عن الحق، ويوهمونهم بزخرف القول غرورا، وهذا كله لحماية المصالح، وتثبيتها، وهذه صورة أخرى من صور الإلهاء وبث سموم الغفلة، فالطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية.

4 - **تأليه السلطان:** حرص فرعون كل الحرص للمحافظة على سلطانه، وتأليه حكمه متخطيا شتى أساليب الحوار الراقي، ليستعمل الكذب، والمكر، والخداع، ولغة القوة لبسط نفوذه المتهالك، وإدعائه الباطل، وتغليبه لسلطان الهوى على سلطان السيادة، وما أشبه الأمس باليوم، حيث صارت غيبة السلطان هاجسا قويا لدى

مرضى النفوس، وعبدة الهوى، يستخدمونها لقهر الناس، واستغلالهم، والتأثير فيهم، وصارت جملة البقاء للأقوى سائدة في جميع مناحي الحياة، باستعمال مختلف الوسائل والأدوات، للتمكين في الأرض بغير الحق، واستعراض القوى، وإيهام الجماهير بعقدة الاستصعاف بمنطق لغة الجلاد، والمناداة بتمثيلية فرعون(مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ) وانسياق الجماهير العريضة ورائها، لدليل قاطع بأن النظرية الفرعونية لم تنقطع بزوال سلطان فرعون، بل ستستمر باستمرارية سيناريو خداع الناس وشراء ذممهم، وتلهيتهم عن الأمور التي من شأنها أن تحدد مصيرهم، بل صار السلطان والسعي لبلوغ مرامه دافعا قويا لخطف الأضواء كما خطفها تسلط فرعون بين قومه. .

5 - **البطش والترهيب:** أمارة سلطانه تلك القوة العسكرية الضخمة التي كان يمتلكها انداك، هو ووزيره، والتي استعملاها في البطش والترهيب، واستعراض القوة، وتخويف الرعية، وقد وضع فرعون وهامان في حسبانهما تسخير هذه القوة العسكرية لإهانة وإذلال بنو إسرائيل، وإضعاف شوكتهم فقتل بها فرعون الغلمان، من بعد بعثة موسى عليه السلام، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل لملأ بني إسرائيل، لئلا تكون لهم شوكة يمتنعون بها أو يصلون على القبط بسببها، وبالتالي شملت حماية العسكر لكل من ينضوي تحت لواء فرعون وكفره، فكان منعة لهم وأداة لبسط نفوذه، استمر التوافق في هذه السياسة في المرحلة التي أعقبت الحرب، أي مرحلة احتلال العراق، وفي العديد من الأحداث مثل إحصائيات الضحايا من المدنيين العراقيين والقتلى من الجنود الأمريكيين، ثم في حالات التعذيب في سجن أبو غريب، واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً ضد المدنيين العراقيين، وعلى وجه الخصوص ضد أهالي الفلوجة. وما تزال وسائل الإعلام الأمريكية تنشر و تذيع تقارير تطلق عليها عبارة «غير مؤكدة» وهذه التقارير، التي تتناول أحداثاً في العراق تصل لوسائل الإعلام من الجيش الأمريكي، لقد كانت حرب الخليج الثانية من أكثر الحروب في العصر الحديث التي حظيت بتغطية إعلامية ضخمة وجرت فيها محاولات جادة ومدروسة للسيطرة على وسائل الإعلام، فقد كان هناك ما يقارب 3000 صحفي في المنطقة، أكثر من 500 منهم مرافقين لمختلف الوحدات العسكرية

الأمريكية والبريطانية المشاركة في الحرب، وكانت الفلسفة من مرافقة الصحفيين للقوات العسكرية أمراً مقصوداً ومخططاً له بالتنسيق بين وزارة الدفاع الأمريكية والمؤسسات الإعلامية، وأكثر تنظيماً مقارنة بما حدث في حرب الفوكلاند بين بريطانيا والأرجنتين عام 1982م وتندرج سياسة إلحاق الإعلاميين بالوحدات العسكرية أثناء العمليات الحربية تحت إستراتيجية السيطرة على وسائل الإعلام ومنع أية محاولة من الصحفيين لنشر أو إذاعة أخبار أو تقارير ترى القيادات العسكرية أو السياسية أنها تؤثر سلباً على سير الخطط العسكرية أو تثير مشاكل لدى الرأي العام الداخلي، كما حدث مع محاربة الجماعات الارهابية أو مايسمى بتنظيم الدولة الاسلامية (داعش) فقد حظيت بتغطية إعلامية ضخمة روجت من خلالها وسائل الإعلام المحلية والعربية والعالمية لأساليب القتل والذبح وإشاعة الرعب والخوف في نفوس الناس، وبحسب دراسات وبحوث ومعلومات أمنية، استفادت الجماعات الارهابية من خطاب الإعلام في الترويج لأفعالها الاجرامية تجاه مواطني العالم وخاصة في مناطق البلدان التي سيطرت عليها وابشعها احتلال مدن ومحافظات عراقية وممارسة ابشع اساليب القتل والانتهاكات مع سكانها.

6 - **استضعاف الاتباع**: الأتباع المستضعفين من قوم فرعون، هم المتبوعون هم الكبراء وسادة القوم الذين ذكرهم القرآن الكريم جنبا إلى جنب مع فرعون في آيات عديدة واقتران هذه الضمائر بضمير فرعون للدليل على موافقة منطقهم لمنطقه، وفكرهم لفكره، وكفرهم وجحودهم لكفره وجحوده، وستقوم بذكرهم بالتسلسل على حسب مراتبهم، ومنزلتهم، وقربهم من فرعون، وشكلت هذه المشاركات كلّها مجتمعة قمة الولاء والإتباع والغريب في الأمر أن حتى أقوالهم كانت مطابقة لأقوال فرعون فتارة يقول فرعون وتارة أخرى يقول الملأ فتشابهت أقوالهم وقلوبهم، أما الأسباب التي جعلت المتبوعين يسلكون الطريق المعوج الذي سلكه فرعون المبني على الباطل وإغواء الأتباع المستضعفين بحيث سخرهم فرعون لخدمة ملكه وسلطانه والحفاظ على مكتسباته وجاهه، وترسيخ إدعائه المزعوم أنه إله ورب في الأرض يعبد هو.

1 - انتفاش نفسياتهم وانتفاخها، وشعورهم بأنهم أكبر، بكثير من حجمهم الطبيعي.

2 - استحواذ فرعون عليهم، وإغواؤه لهم، وتحويلهم إلى حزبه، ليكونوا جنودا وأعوانا له.

3 - كفرهم بالله، ونسيانهم له، وتعدّيهم على حق الله في العبادة والاستعانة والحكم والتشريع، وموافقتهم لادعاء فرعون بالألوهية والربوبية، وتعبيدهم إياه من دون الله.

4 - عدم إيمانهم بالآخرة، بحيث لا يحسبون حسابا للنهاية، ولا للوقوف بين يدي الله، ولا لاستقرارهم في نار جهنم، فلو آمنوا لاستعدوا له وحرصوا على النجاة منه.

5 - انحرافهم، وانكبابهم على المعاصي والذنوب، وانغماسهم في الشهوات والملذات، وممارسة حياتهم بصورة إباحية بهيمية!

6 - اغترار الاتباع: اغترارهم بما جعل الله تحت أيديهم وبد فرعون من مظاهر المال والجاه والمنزلة والسلطان، وتخدّرهم بالقيادة والسيادة والمنصب والزعامة، وتحويلهم ما تحت أيديهم إلى أداة ضغط واستكبار، واستعباد لبني إسرائيل، وفرصة للاستحواذ على أكبر قدر ممكن من المنافع والمصالح الشخصية في ظل سلطان فرعون.

7 - رضوخ الأتباع المستضعفين لهم: ورضاهم بما يمارسه هؤلاء المتبوعين من استخفاف وازدراء و استعباد، وتنازل الأتباع عن وجودهم وشخصياتهم وآرائهم، وإرادتهم وحرياتهم وعقولهم، وقبولهم أن يكونوا مجرد أصفار ضائعة أمام فرعون والمتبوعين (الأتباع المستكبرين) -في حين مثلت الطائفة المستضعفة من بني إسرائيل الفئة الأكثر تضررا من سياسة فرعون، وفي الحقيقة استضعافهم وهوانهم أمامه وأمام مقربيه، كان دافعا آخرا لتجسيد فرعون لنظريته، وهذا كلّه راجع لإذعانهم وخوفهم الشديد منه، ومن المستكبرين من قومه، لذلك كانوا مجبرين على إتباعه ولزوم مرضاته، فسخرهم لخدمة مصالحه، بمنطق القوة والقتل والتعذيب، فلما

خفتت أصواتهم وانحنت رقابهم، رأى فرعون من نفسه أنه إلها أغدق عليهم برحمات الذل والاستصغار والمهانة، وبهذا سلب منهم عقولهم، وشخصياتهم وحرياتهم، وحوّلهم إلى نكرات وأصفار وأتباع.

8 **استدرج هامان فرعون بزخرف القول غرورا**. وأعماه عن الحق وأبقاه في دائرة الضلالة والطغيان، وتلك صفة الأتباع المستكبرين يزينون للحكام الظالمين أفعالهم ويصدونهم عن الحق، ويحسبون أنهم مهتدون.

9 - **منطق القوة والقهر**: أن لهؤلاء دور مهم في توطين النظرية الفرعونية ومحاول ترسيخها بمنطق القوة والقهر.

10 - **الحصول على المنزلة الرفيعة**: آل فرعون كانوا من قومه وأتباعه، منحهم فرعون منزلة مشرفة في حكمه، وهذا لموافقتهم لرأيه، ومشاركتهم له تكذيب موسى، والآيات التي جاء بها من ربه.

11 **الحصول على الامتيازات**: منحهم فرعون عدة امتيازات، نظير تعاونهم وتظاهرهم معه على موسى، وتسخيرهم كواجهة لتجسيد الأعمال القذرة كترهيب الناس وإفزاعهم، وقتل الغلمان بحثا عن قتل الغلام المنتظر المنجي من كيد فرعون وظلمه، وفي آخر المطاف خذلوا إلههم المزعوم الجالس على عرش الباطل، بالتقاط موسى عليه السلام ليكون عدوا وحزنا لهم.

12 - **الانصياع التام والانقياد للرعية**: حفاظا على مكاسبهم ومصالحهم الشخصية، فنتج على ذلك عواقب وخيمة، ووبال عظيم، من بث للشقاق والفرقة، والعبث والمجون، ومحاولة نشر مظاهر الرعب والتخويف، والجهل والتحريف، قصد تثبيت إبر الأفكار المسمومة وتوطينها في أوساط الجماهير المحقونة، وهذا شأن واقعنا اليوم الذي تضاربت فيه المصالح، باستعمال منطق القوة والترهيب تارة، واستعمال منطق الإيهام بالتقليد تارة أخرى، فبعدما كان لفرعون زمانه، أصبح لكل زمان فرعونه، فكثر المتبوعين، واستوطنوا أجساد الناس وعقولهم، وسيطروا عليها، باستعمال كافة الطرق والوسائل الممكنة.

وجوه الإكراه

تتحدد وجوه الاكراه بالافعال الشنيعة التي مارسها فرعون وملئه ضد الناس وفق:

1 - أن الملوك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر، فإذا شاخ بعثوا إليه أحداثا ليعلمهم لكون في كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لأجل ذلك أي كنا في التعلم أولا والتعليم ثانيا مكرهين، قاله بن عباس.

2 - إن رؤساء السحرة كانوا إثنين وسبعين، إثنان من القبط، والباقي من بني إسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بساحر، الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه.

3 قال الحسن إنّ السّحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فاحضروا بالحشر وكانوا مكرهين في الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا في إظهار السحر.

4 - قال عمرو بن عبيد دعوة السلطان إكراه وهذا ضعيف لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراها.

تجهيل الجمهور

مثل هذه الضغوط التي تمارسها الحكومة، ممثلة في المؤسستين السياسية والعسكرية هو إدراك من القيادات السياسية والعسكرية بأهمية وسائل الإعلام وتأثيرها في صياغة الرأي العام وتوجيهه، ولذلك شهدت العلاقة بين الحكومة ووسائل الإعلام فصولاً من التوتر، وبخاصة وقت الحروب والأزمات، ونذكر في هذا السياق ما قامت به القوات الأمريكية من قصف لإذاعة صوت الشريعة التابعة لحركة طالبان في 8 أكتوبر 2001م، وما إن عاودت الإذاعة البث في 26 أكتوبر حتى قصفت بعد ساعات فقط لتصمت صمتاً أبدياً، ونذكر أيضاً أنه في عام 1999م وفي أثناء الحرب على يوغسلافيا ضربت قوات التحالف بالقنابل مبنى راديو و تلفزيون صربيا، مثلما ضربت القوات الامريكية عند غزو العراق التلفزيون العراقي ووسائل الإعلام التي تتواجد في المركز الصحفي في وزارة الإعلام العراقية، ووسائل

أخرى اتخذت من فندق الرشيد مقرا لها تعرضت للقصف أيضا وراح ضحيتها صحفيون عراقيون وعرب وأجانب، لإسكات أصواتهم.

والتجهيل يعني بأن أعظم هزيمة ليست تلك التي يستعمل فيها السلاح المادي لتقتل، وإنما تلك التي يستعمل فيها سلاح التجهيل وتدمير العقول، ومحاربة القيم ونشر الفساد في الأرض، وجعل الجماهير قابعة في القاع يتم اصطيادها، ومحاولة انتشالها لغرض تنويمها، وإغفالها، وأصعب ما في الأمر هي تلك الاستجابة التي تأتي بمجرد دعوة كاذبة، سواء أكانت دعوة إفساد، أو دعوة إغراء، أو دعوة عدوان، أو دعوة إلهاء وإغفال، أو دعوة أريد بها باطل...إلخ وفق اختيار ما يُنشر أو لا يُنشر للجمهور أي تقليد النظرية الفرعونية التي تبنى على الآية الكريمة (ما اريكم إلا ما أرى) ويعتمد على أقلية نافذة في المؤسسة الإعلامية التي تملك قرار النشر والبث من عدمه، وأن هناك مصادر أخرى غير العاملين في المؤسسة الإعلامية تمارس تأثيراً على المادة الإعلامية، من أهمها الحكومات ورجال السياسة، وهي ما يشير إليها فيشمان (Fishman) بقوله إن ما يعرف للجمهور من خلال الوسيلة الإعلامية يخضع لمصادر أخرى تتحكم في حصول المؤسسة الإعلامية على المادة الإعلامية أو معالجتها قبل الحصول عليها.

-**التبعية والانقياد**: وهذه هي قمة الانقياد والتبعية، والانسياق البهيمي قصد تأمين البقاء الجسدي وشباع الحاجيات، مقابل التكبيل النفسي والروحي وفقدان الذات، «فيصبح جماهير الرعية المتفرجين، منهم الطائشون المهلّلون المسبحون بحمد المُخْضِع، ومنهم المسحورون المبهوتون كأنهم أموات من حين»، ولا يخفى أن الهدف من التدخلات في مهام الصحفيين هو محاولة ممارسة أكبر قدر من الضغوط على الصحفيين الذين كانوا يقومون بتغطية العمليات العسكرية، أو الهجمات الارهابية، ومن ثم التأثير على أدائهم، ولذلك فإن التوتر في العلاقة بين القيادة السياسية، ووسائل الإعلام الذي تجسد في الخلاف مثلا بين الحكومة البريطانية وتلفزيون هيئة بي بي سي حول ملف العراق لأسلحة الدمار الشامل يوضح بشكل كبير هدف الحكومة البريطانية من التعتيم الإعلامي على حقيقة هذه القضية، وبخاصة بعد أن كشف تقرير لهذه القناة الإعلامية أن الحكومة البريطانية قد ضخمت من هذا

الملف لتبرير حربها على العراق، وتابع الرأي العام الضغوط التي مورست على البي بي سي للكشف عن مصدر معلوماتها وتداعيات ذلك التي أدت إلى انتحار خبير الأسلحة البريطانية جون كيلي.

القمع بالوسائل التي اعتمدها فرعون لتطبيق النظرية الفرعونية

أفصحت مبادئ النظرية الفرعونية، والدوافع التي أدت إلى تطبيقها والتي تطرقنا إليها سابقا- عن مجموعة من الوسائل، انتهجها فرعون وقومه، ضد موسى عليه السلام وأتباعه، كانت نابعة كلّها من طغيان فرعون وجحوده، ولا سبيل آخر له لتجسيد نظريته الفرعونية، إلّا باستخدامها واللّجوء إليها، فكانت ملاذه الأول والأخير، والشيء الرهيب في هذه الوسائل أنها كانت في مجملها قمعية، تم استخدامها بغرض قمع جسدي، أو قمع كلامي، أو قمع نفسي، أو حتى قمع عقلي، ونجم عن استخدام هذه الوسائل تخويف الرعية واسترهابهم، ومحاولة دفنهم في تراب الجهل والظلمات، وفي مجال الإعلام تشير الدراسات المتخصصة في العلاقة بين الحكومة ووسائل الإعلام إلى أن هذه العلاقة تتغير بحسب طبيعة القضايا المرتبطة بها، والتوقيت الزماني لهذه القضايا ففي الشأن الداخلي تحاول وسائل الإعلام أن تمارس أقصى مراحل حرية الرأي والتعبير التي تضمنها الدساتير بحيث يقل تأثير الحكومة عليها، وأما في الشأن الخارجي فإن هذه العلاقة تبدو متأثرة إلى حد كبير بسيطرة الحكومة، وتتأكد الهيمنة الحكومية على وسائل الإعلام ومنافذ المعلومة في أوقات الأزمات التي تكون الحكومة طرفاً رئيساً فيها، ومن هنا ندرك السببية في تزايد الجدل، فمثلا منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م وإعلان أمريكا ما أسمته «الحرب على الإرهاب» حول دور وسائل الإعلام الأمريكية في هذه الحرب، وما إن كانت هذه الوسائل قد عمدت إلى إخفاء المعلومات المتعلقة بالحرب وحجب أهدافها، وحظيت العلاقة الثلاثية الأبعاد بين المؤسسات السياسية ووسائل الإعلام والرأي العام بنقاش واسع في الدوائر الأكاديمية والبحثية المختلفة، وشملت العلاقة بين هذه الأقطاب الثلاثة في ظروف الحرب، ويبدو أن مثل هذا النوع من الجدل سيظل مستمراً بصورة أقوى، لاسيما في الظروف الراهنة التي تمر بها العلاقات الدولية، ومن أبرز الاساليب المتبعة في القمع الفرعوني والإعلامي هي:

1 - **القوة والقهر**: لم يتوان فرعون وقومه من تجريب مختلف الوسائل التي من شأنها أن تقف في وجه الدعوة الصادقة التي جاء بها موسى من ربه، فحاولوا ردعها بوسائل القوة والقهر تارة، وبوسائل الاستهزاء والمكر تارة أخرى، فكانت في مجملها وسائل استبداد وإرهاب، حيث تجسدت هذه الوسائل التي اعتمدها فرعون لتطبيق نظريته الفرعونية وتلك هي سياسة القهر التي انتهجها فرعون ضد بنو إسرائيل التي لم يشهد التاريخ البشري مثلها، ولقد صوّر القرآن الكريم مشاهدا متنوعة لقهر هذا المجرم الخطير المتمرد على قدرة الله وارادته، بين قتل وتعذيب وسجن، والتي جعلته يخضع في الأخير إلى محاكمة العدل الإلهي، وقد وصلت وسائل القهر التي استخدمها، إلى حد الإسراف.

2 - **القتل الهمجي الإجرامي**: وهو أشد هذه الوسائل وأعتاها، وأكثرها استعمالا في سياسة فرعون، ولم يزل يستخدم هذه الوسيلة البشعة حتى كاد أن يفني بنو إسرائيل من على الأرض، وقد وجد فرعون في القتل ملاذا سهلا بوضع حد للتهديد الذي شكله موسى ومن معه على ملكه وسلطانه، وهذا راجع إلى الخوف الشديد الذي تطور ونما في نفسه على مر الأيام، والذي غُرس فيه بمجرد رؤية منامية قد رآها،جنت آنذاك على معظم ولدان بني إسرائيل بالذبح والتشنيع، دون أن يضع فرعون في حسبانه أن الغلام المنتظر سيولد في كنف العناية الإلهية، وسوف يتربى في ظلال ملكه وعزه، وقد تزامن القتل الوحشي الهمجي، مع سعي فرعون إلى تقسيم قومه شيعا وطوائف، وذلك ليضمن استفراده بالطائفة المستضعفة، ويذيقها شتى أنواع القتل والتنكيل، وكذلك لكي يبث الفرقة في المجتمع الواحد، وبالتالي تنعدم ملامح الوحدة وتنعدم معها مظاهر التعاطف والتضامن، ولا يخفى عنّا في هذا المقام أن طبيعة البشر جُبلت على السعي وراء حب البقاء والمحافظة على الحياة والسعي وراء لقمة العيش، وتجنب أية محاولة من شأنها أن تهدد بقائهم، ومن خلال هذا كلّه فقد استطاع فرعون أن يشتت قومه، بين متفرج صامت أمام الجرائم المرتكبة، وبين آخرين منتظرين أدوارهم، إما مقتولين أو فاقدين أشخاصا تم قتلهم، وبين الإثنان أولهما أرحم.

3 - **استخدام وسائل القتل والاجرام**: لا يخفى علينا أن هذا التقسيم والتفريق والتشرذم أتى بثماره، حيث أن الذين اتبعوا سبيل فرعون وفساده، انتهجوا

سياسته في القتل والإجرام، ولأنهم كانوا جميعا من أهل مصر وعمارها، دفعهم إلى تقتيل بعضهم البعض، وأذاق بعضهم بأس بعض، وكل هذا قصد إرضائه، وإرضاء نزواته ومنكره، وهذه نتيجة أخرى من نتائج التمييز الطائفي، ونلمح ذلك في حديث فرعون وأوامره في القتل فكان دائما يتكلم بصفة الجمع، ففي أوامر القتل والشر تكلم بصيغة الجمع ولا يستثني أحد، وهذا مناداة منه بالتحالف على الشر، وهذا كلّه لكي يسول لهم أنّ لهم مكانة عنده، ويبث في أنفسهم مظاهر الشقاق، والسعي لأذية بعضهم البعض، وعلى النقيض من ذلك وأثناء مناداته بالسلطة والكبر تكلم بصيغة الفرد، ورأى فرعون أنّ لوسيلة القتل فائدة كبيرة لترهيب الرعية وإذلالهم، فها هو ذا يدعو لاستخدامها مرة أخرى ضد موسى ومن معه،بعدما أحسّ خطورة مد دعوة الحق التي جاء بها موسى من ربه، وشعوره بخوف شديد جراء ذلك، وبقول من ملئه أعلن عن سفك الدماء من جديد، ولم يكتف فرعون بتطبيق أحكام القتل والإغتيال، بل راح يهدد كل من يعصي أمره، ويهدد سلطانه وملكه،ويبدو من قوله (ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ) أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة – من ناحية الرأي- كأن يقال مثلا: إن قتل موسى لا ينهي الإشكال، فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيدا، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به وحَسْبُ فرعون أنه قتل أقرب الناس إليه، زوجته التي لم يرفض لها أي مطلب قط، كان أبرزه طلب عدم قتل الوليد موسى وإبقائه على قيد الحياة.

4 – **استخدام أساليب القهر**، المستخدم آنذاك ألا وهو التعذيب، وهو لون من ألوان العتو الفرعوني، فلا يخفى علينا درجة الألم الذي يصاحب هذه الوسيلة الشنيعة، وما يلازمها من إجبار الشخص على البوح بمعلومات معينة، أو ترك طريقة أو مذهب أو منهج معين، كما هو الحال بالنسبة لسياسة فرعون القمعية، فهو جعل من التعذيب وسيلة للإذلال والعدول على إتباع ما جاء به موسى، وإجبار القوم على إتباع وخدمة ضلاله عنوة.

5 – **استخدم فرعون وسيلة التعذيب**: كالإهانة والإذلال، وإخضاع الرعية لفكره الضال بمنطق القوة، ومحاولته إيذاء الأجساد قصد تخويف العقول والأنفس،

وتسخير أصحابها لخدمته وخدمة سلطانه، فقد اقسم فرعون بالغلظة وأخضع بنو إسرائيل بالقوة وراح يعذبهم فيجعلهم خدما وخولا، وصنفهم في أعماله، فصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فسامهم كما قال الله: سوء العذاب، فعمر فيهم وهم تحت يديه عمرا طويلا يسومهم سوء العذاب.

6 – **أداة للقمع والقهر**: يقول الألوسي في معنى (**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) هذا وعيد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال: **لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ**، أي من كل جانب عضوا مغايرا للآخر كاليد من جانب والرجل من آخر، والجار في موضع الحال أي مختلفة، **ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**، تفضيحا لكم وتنكيلا لأمثالكم، والتصليب مأخوذ من الصلب وهو الشد في خشبة أو غيرها وشاع في تعليق الشخص بنحو حبل في عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم، والصلب الذي عناه الجبار هو شد الشخص من تحت الإبطين وتعليقه حتى يهلك، وهو كقطع الأيدي، والأرجل أول من سنه فرعون على ما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس.

7 - **التعذيب والقهر**: همجية فرعون وبطشه وإذاقة من يعصيه أشد أنواع العذاب: فقد كان له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها أيضا، وكانت ماشطة ابنة فرعون، فبينما هي تمشطها إذ وقع المشط من يدها، فقالت بسم الله، فقالت أبنة فرعون: أبي؟ قالت: لا بل ربّي وربّك وربّ أبيك، فأخبرت أباها بذلك، فدعا بها وبولدها وقال لها: من ربّك؟ قالت: ربّي وربّك الله، فأمر بتنور نحاس فأحمي ليعذّبها وأولادها، فقالت: لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها، قال: ذلك لك، فأمر بأولادها فألقوا في التنور واحدًا واحدًا، وكان آخر أولادها صبيّا صغيرًا، فقال: اصبري يا أمّاه فإنّك على الحقّ، فألقيت في التنّور مع ولدها كل هذه الشواهد وغيرها، من مشاهد التعذيب والقهر بيّنت عظم إرهاب فرعون وبطشه واستبداده، فهي شواهد مرعبة فضحت خوفه الشديد وغيضه مما جاء به موسى- عليه السلام- من الحق، فبالرغم من أن الله عزّ وجل أبان له تحمّل هؤلاء وصبرهم عن البلاء، وجازاهم على ذلك أحسن الجزاء، إلّا أن ذلك لم يزده إلّا طغيانا وكفرا، ولم يزدهم تعذيبه إيّاهم إلّا إيمانا وتسليما

واحتسابا، وانتصارا على الباطل، ولم يزد دعوة موسى للحق إلّا عزّة ووقارا، وبالمقابل أحسّ فرعون بالإذلال والاحتقار، وغيض كبير ناجم عن بهتانه، وافترائه على الله الكذب، فكُسِرت بذلك شوكة كبريائه، وكُشِفت نقاط ضعف مآمراته ومكائده.

8 - شتى أنواع أساليب الإجرام والقهر: هذه هي الحجة وهذا هو الدليل. التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة ضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! وبالتالي مثّل السجن لون آخر من ألوان القهر في زمن فرعون، والسجن وسيلة جبرية غاية في الشدة والألم، خاصة الألم النفسي والعقلي، فيشعر صاحبه أنه آيس من الحياة، ونقصد بالحياة في هذا المقام العيش في حرية، وتمارس ضده شتى أساليب الضغط والقهر والإذلال كتكليفه بالقيام بأعمال شاقة وغيرها، وقد اعتمد فرعون على هذه الوسيلة كعقوبة للمخالفين لمنهجه، والعاصين لتعاليم كفره وجحوده وهذا ظاهر في قوله:(لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ).

9 - القتل والتعذيب والسجن.أن أساليب القتل والتعذيب التي استخدمها، يمكن لنا أن نتصور فظاعة السجون وقسوتها في زمنه، ولا بأس أن نذكر بعض صفاتها الرهيبة كما أشار لها بعض المفسرين لنبيّن فظاعتها ورعبها، قال ابن عباس: وكان سجنه أشد من القتل ، وقال ابن عاشور وقد كان السجن عندهم قطعا للمسجون عن التصرف بلا نهاية فكان لا يدري متى يخرج منه ، ووصفه القرطبي قائلا: وبهذا كان إذا سجن أحدا لم يخرجه من سجنه حتى يموت ، وقال الكلبي: وكان سجنه أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل إذا سجنه فيطرحه في مكان وحده فرْدًا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئا، يهوي به في الأرض ، وذكر أبي السعود أن سجنه كان أشبه بهوة عميقة يطرحهم فيها حتى يموتوا، إنّ كل هذه الصفات المذكورة تتفق جميعها بأنّ السجن كان أداة قمعية، استخدمها فرعون لسلب كرامة الأشخاص وحريتهم، والغريب في الأمر أن الشخص كان يزج فيه دون وجود ذنب أو جُرْم مرتكب يلزم صاحبه قضاء عقوبة لا يعرف

مدة انقضائها، فتتشابه في زمنه السجن والقتل والتعذيب، فالمسجون والمقتول والمعذَّب على حد سواء، منكل بهم، مغلوب على أمرهم، آيسون من الحياة، ومن أبشع الأمثلة التي عمدت فيها وسائل الإعلام الأمريكية إلى حجب المعلومة قضية تعذيب السجناء العراقيين في سجن أبو غريب في بغداد، فالرغم من أن وسائل الإعلام الأمريكية (محطة سي بي اس وصحيفة نيويوركر على وجه التحديد) كانت من أوائل من أشار إلى الانتهاكات التي حدثت في هذا السجن من قبل قوات الاحتلال الأمريكية، إلا أن التغطيات لهذا الحدث في وسائل الإعلام الأمريكية بصورة عامة قد شابها الكثير من التضليل المتعمد ولو أفترضنا أن مثل هذه الأعمال المنافية للقانون الدولي ارتكب من قبل عسكريين لدولة أخرى في مكان ما من العالم، فماذا يمكن أن تفعل وسائل الإعلام الأمريكية؟ بالتأكيد ستظل تتناول الموضوع بصورة مكثفة مدعومة بوسائل الإبراز الإعلامي للتأكيد على أن ذلك يعدّ انتهاكاً لحقوق الإنسان والقانون الدولي، وستستمر في تأليب المسئولين الأمريكيين والرأي العام الأمريكي والعالمي للدولة المارقة حتى يتم إحالة الملف لمجلس الأمن.

وقد يظن بعض الناس أن للقهر، وأدواته من قتل وتعذيب وسجن، حسنات مفقودة في الإدارة الحرة، فيقولون مثلاً: القهر يلين الطباع ويلطفها، والحق أن ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة، ويقولون: الاستبداد يعلم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبير، والحق أن هذا فيه عن خوف و جبانة لا عن اختيار وإذعان، ويقولون هو يربي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحق أن ليس هناك غير انكماش وتقهقر، ويقولون القهر يقلل الفسق والفجور، والحق أنه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين، ويقولون هو يقلل التعديات والجرائم، والحق أنه يمنع ظهورها ويخفيها فيقل تعديدها لا أعدادها، -لأنه رأى أن القهر المادي الجسماني قد لا يكون له أي تأثير على ذوي العقول الحية الموقنة للحق كما كان الحال مع السحرة وزوجة فرعون والماشطة، في حين فكّر في أن للغفلة واللّهو المؤديان إلى انخداع العقل وسكرته، تأثير كبير على الناس والسعي لحجبهم على الحق، والأمور المهمة التي من شأنها أن تقرر مصائرهم.

صور القهر الفرعوني

لايخفى علينا في هذا المقام أن صور القهر الفرعوني، لم تزل بزوال فرعون وسلطانه، بل اتخذت سنة سيئة، كانت لها عواقب وخيمة على امتداد تاريخ البشرية، وصار التعدي على كرامة الغير شعارا فرعونيا يرفرف فوق الرؤوس، وهذا كله لغرض تحقيق المصالح وحمايتها، بل اشتد الأمر خاصة بعد توسع الأطماع، والسعي إلى استيطان الأراضي واستعمارها، وتقتيل وتعذيب وحبس أصحابها دون ذنب يذكر، وهذا قصد إذلالهم واستضعافهم وإرهابهم، لغرض استغلال أوطانهم واستغلالهم لخدمة أطماعهم، وصور القهر تتجسد في:

1 التعتيم الإعلامي: ويمكن أن يمثل الضغط لعدم إيصال صوت الآخر سياسة للتعتيم الإعلامي وهو ما حدث أثناء حرب تحرير الكويت، وبحسب مصادر عدة فأنه في 16 يناير 1991م تلقى توم جونسون Tom Johnson رئيس شبكة سي إن إن CNN مكالمة هاتفية من المتحدث الصحفي للبيت الأبيض مارلين فيتزوبتر يخبره فيها أن الرئيس بوش الأب يطلب أن تسحب القناة كل طاقمها الإعلامي فوراً من بغداد، وحتى بعد أن بقي بيتر آرنيت Peter Arnet يراسل القناة من بغداد أثارت تقاريره الكثير من ردود الفعل المتباينة والاتهامات الموجهة له شخصياً وللقناة أيضاً، ولم تكن هذه الاتهامات والضغوط من عامة المشاهدين فحسب، بل حتى من شخصيات أمريكية كبيرة مثل السناتور ألان سيمبسون Alan Simpson الذي أبدى امتعاضاً من تقارير آرنت واصفاً إياه "بالمتعاطف" وقد ذكرت شبكة سي إن إن وقتها أنها تلقت الكثير من الشكاوي والاتهامات بسبب تقارير آرنت، حتى إن بعض الجهات سحبت الإعلانات التي كانت تبثها في المحطة. والشيء نفسه حدث لمراسلة CNN كريستيان أمانابور Christiane Amanpour إذ أثارت تغطياتها للحرب على العراق إستياء الكثيرين حتى من زملائها في وسائل الإعلام، فقد وصفت إرينا بريجانتي Irena Briganti المتحدثة باسم قناة فوكس نيوز Fox News أمانبور بـ"المتحدث باسم القاعدة".

2 - أذاقوهم شتى أنواع البأس والإذلال، بالقتل والتعذيب:أي تكرار المشاهد المشعة للقهر من قتل وتعذيب وسجن، خاصة في الأجهزة المسخرة لغرض نقلها

للجماهير، تولد لديهم فتورا عاطفيا، فتصير تلك المشاهد معتاد مشاهدتها، وتصبح روتينا لا قيمة له لا عقائديا ولا خلقيا ولا قوميا ولا مجتمعيا، وبالتالي تنعدم معها معاني الوحدة والتضامن، وتبقى تلك المشاهد في نظر الجماهير سينمائية لا غير.

3 - **الورم الفرعوني الخبيث**: لم تسلم العديد من الأوطان من هذا الورم الفرعوني الخبيث الذي استفحل باستفحال المؤامرات والمكائد، والمناداة في المجالس والمؤتمرات بضرورة التحرر ومواكبة التحضر، وتلك نسخة طبق الأصل لمناداة فرعون بضرورة التحرر من دعوة موسى وإتباع ضلاله المتخلف، فصارت الجماهير مغلوب على أمرها، إمّا أن تنساق وراء المد الفرعوني اللّامتناهي، بالإتباع والانقياد بالسمع والطاعة، أو يتم استئصالها من جذورها بوسائل القهر المذكورة، وبيث أشكال الفرقة والتمييز العنصري، وبالمقابل يتم نقل مشاهد القهر من قتل وتعذيب وسجن -وكلّها لا تقل فظاعتها على فظاعة قهر فرعون لقومه- عبر الوسائل والأجهزة المسخّرة لذلك لترهيب الجماهير وتخويفها، وقتل تعاطفها وتضامنها، وبالتالي يزيد عدد المشتركين المبهوتين بهذا المد الفرعوني اللّامتناهي، بزيادة حجم الاستخفاف بعقول الجماهير المغسولة، وفي الوقت ذاته يصير الظالم مظلوما والمظلوم ظالما.

4 - **الغفلة عن الوقائع والانتهاكات**. وفي نظرنا أن الغفلة هي العلّة الحقيقية لذهاب سلطان العقل، وما ينجم عليها من تضييع المصالح، والوقت، والعمر فيما لا ينفع، وقد يستعملها البعض سلاحا لتنويم الناس وتجهيلهم وتضليلهم، بطمس الحقيقة عنهم، وإكثار الملهيات ووسائلها، ونشرها بينهم، وكذلك بث اللهو واللعب في أوساطهم، وذلك لإغفال الحقيقة عنهم فيصبحون كالقطيع تابعين مذعنين، ومنساقين وراء أهوائهم وأهواء الذين يضلونهم بغير حق، وتحاول كل من القيادات السياسية والعسكرية من جهة المؤسسات الإعلامية من جهة أخرى تبرير مواقفها وتصرفاتها وحتى علاقاتها في أوقات الحروب والصراعات، فالقيادات السياسية والعسكرية ترى أن من حقها في هذه الظروف الاحتفاظ بأكبر قدر من السرية على خططها وعملياتها والحيلولة دون وصول وسائل

الإعلام إلى ملفات الحكومة في مثل هذه الظروف، ووسائل الإعلام من جهتها ترى أن من حقها تغطية الأحداث وإبراز كافة الجوانب المتعلقة بسير العمليات العسكرية، وما يحدث على الأرض، وتأثيرات ذلك على المدنيين والبيئة المحيطة، وبين الموقفين تحدث العديد من حالات الشد والجذب والاتهامات المتبادلة، لقد بات القادة السياسيون والعسكريون على حد سواء يعقدون أهمية كبيرة على وسائل الإعلام، ومع هذا فقد شابت العلاقة بين هؤلاء القادة ووسائل الإعلام الكثير من الشكوك والاتهامات المتبادلة، فبنهاية الحرب الباردة ظهرت العديد من النقاشات داخل المؤسسات العسكرية حول أهمية أن تكون العلاقة إيجابية مع وسائل الإعلام، وبالرغم من أن هذا يعدّ توجهاً إيجابياً -على الأقل من الناحية النظرية- إلا أن العديد من العسكريين استمروا في النظر إلى وسائل الإعلام بوصفها «عدوهم الأسوأ» أو على أحسن الفروض «أفضل الشرور»، وقد ذهب بيري سميث (Perry Smith) للقول أن هناك انعدام عميق للثقة في الصحافة داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية، وأضاف سميث - الذي عمل محللاً عسكرياً في شبكة سي إن إن CNN خلال حرب تحرير الكويت - أن إنعدام الثقة هذا مبني على تجربة تتلخص في أن وسائل الإعلام تحاول أن تجد لها طرقاً لكي تمطر المؤسسة العسكرية بوابل من الاتهامات، ويمضي للقول أن هذا الشعور ربما بدأ يتضاءل إلى حد ما بعد التغطيات التلفزيونية.

5 - **التسلية واللعب واللهو:** ووسائل الغفلة من لهو ولعب وتسلية، قد تورث في القلوب قسوة مفضية للندم، وقد يسعى صاحبها إلى الإستفاقة بعد فوات الأوان، كما فعل فرعون الذي وَجَد في قومه من الغفلة ومن الذلَّة ومن خوَاء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: «أنا ربكم الأعلى»، وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمَّةً واعيةً كريمةً مؤمنةً، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء، وإنْ يسلبه الذباب شيئًا لا يستنقذ من الذباب شيئًا!». وبالوان اللّهو والتسلية فمما لا شك فيه أن فرعون لم يفته استعمال هذه الوسائل ضد قومه، وسعيه لجَعْلِ غفلته من غفلتهم، وها هو ذا موسى-عليه السلام- يكشف عن لون من ألوان اللّهو والتسلية في زمن الطاغية، ويظهر

ذلك جليا في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾، يقول السعدي: هو يوم عيدهم، الذي يتفرغون فيه، ويقطعون شواغلهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه ما يحصل فيه من كثرة الإجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، في حين قال أبو حيان الأندلسي على يوم الزينة أنه كان عيد لهم يتزينون ويجتمعون فيه كل سنة ومن الواضح أن موسى -عليه اسلام- باختيار موعد لقائه بالسحرة (يوم الزينة)، كان يدرك أن الناس يجتمعون فيه للهو والغفلة والاحتفال، لذلك سعى إلى جلب وإثارة انتباههم، ومحاولة إخراجهم من غفلتهم بإظهار الحق وهزم الباطل، وفي موضع آخر جعل فرعون من السحر وسيلة للترفيه والتسلية، وهذا بسحر أعين الناس، وخداعهم وتجهيلهم، فقد رأى أن باستعمال السحر ضد الآيات التي جاء بها موسى، قد يستمر في خداع الناس وتضليلهم عن الحق كما فعل به من قبل، فالتسلية واللعب واللهو، سلاحين إعلاميين قويين، لشن حرب نفسية هوجاء على دعوة موسى للحق، ومحاولة إضلال رعيته باستصغار عظمتها، والتشويش على محتواها حتى تُسْتَدبَ الريبة والشك في أوساط قومه.

6 - **الأحساس بغيض شديد**: لما هُزِم السحرة أمام الحق، حيث استغرب ذلك منهم، لأدبهم معهم وذلهم، وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذلك، فقد خسر فرعون وسيلة من وسائل الفُرجة والبهتان، فبعدما كان السحرة يمتعون الناس ويخدعون أبصارهم من جهة، ويرهبونهم ويرعبونهم من جهة أخرى، صاروا وسيلة لإظهار الحق وتبيانه للناس.

7 - **وسائل اللهو والعبث**: وفّر فرعون للمقربين من قومه وسائل اللهو والعبث، والترف ليذيقهم من نعيم الدنيا وزينتها، التي وصفها الله في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، ويعمي بصيرتهم عن الحق، ويمن عليهم ذلك، كما منّ على موسى لما. ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، وبذلك استطاع أن يخدّر عقولهم، بإتباع سفهه وظلمه وجوره، وظهرت معالم لهوهم ولعبهم، لما

راحوا إلى جانبه يستهزئون بموسى والآيات التي جاء بها من ربه، وتلك سكرة وغفلة كانوا فيها بسبب الجحود والنكران، جنت عليهم بالهلاك والخسران.

8 - **الاستهزاء والسخرية:** يعد كل من الاستهزاء والسخرية وسيلتين من وسائل التضليل والتجهيل، ولقد استعملهما الجاحدون المستكبرون منذ عهد النبي نوح -عليه السلام-، والاستهزاء والسخرية هما سلاح كل مستكبر جاحد لآيات الله ورسله عبر الأزمان، وتعد مظهر من مظاهر النكران والجحود، وقد يكون الاستهزاء ناجما عن الحسد والغيظ الذي يصيب الشخص، إذا رأى غيره صاروا أفضل منه، أو أنعم الله عليهم بنعمة ما، كما يكون بسبب سوء الظن، والنوايا السيئة التي تكتنف المرء، فيشعر بالانتقاص في ذاته وحياته، فيترجم ذلك الانتقاص إلى سخرية واستهزاء بالآخر، ويمكن للسخرية أن تكون نتيجة للاستكبار، وعدم شكر النعم بأن يرى الإنسان نفسه أعلى درجة من الآخرين، وأنّ معيشته أحسن من معيشتهم، فالسخرية والاستهزاء هما دأب من لا يريد أن يسمع، فإنه يلجأ إليهم.

- **ومعنى السخرية:** الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء.[702] وقد استعمل فرعون هاتين الوسيلتين، لكي يطمس حقيقة ما جاء به موسى، ويحجبها على قومه، واتخذهما سلاحين إعلاميين قويين، لشن حرب نفسية هوجاء على دعوة موسى للحق، ومحاولة إضلال رعيته باستصغار عظمتها، والتشويش على محتواها حتى تُسْتَدبَ الريبة والشك في أوساط قومه، إذ أن للسخرية والاستهزاء آثارا سلبية على نفسية الإنسان المُستهزأ به، فهي تولد نوعا من الانكماش والتردد لديه، فيحس بالضعف والهوان والاستصغار، ولكن من حكمة الله أن ثبت موسى عن الحق فلم تؤثر فيه سخرية فرعون وقومه ولا استهزائهم فيه شيئا، لأنه سأل الله من قبل التثبيت، كما لجأ فرعون للاستهزاء والسخرية، بعد إحساسه بالخوف الشديد والضعف أمام الحجج التي ساقها له موسى -عليه السلام- ومحاولة الهروب منها وتفاديها، وخوفه إنما كان

(702) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين(128/3)

نابعا من ضلالته، فقد شعر بأن ما جاء به غريمه حق، وأن سفاهته لم تُجْدِ نفعا أمام ذلك، كما رأى معالم التصديق واللين في وجه قومه، فسعى ساخرا مستهزئا ليلفتهم على ذلك، وفرعون المستكبر إنّما هو استهزاء وسخرية من موسى -عليه السلام- بعد إحساسه بحقارة رأيه، وضحد حجته، وكبح افترائه بالألوهية المزعومة، ويتضح من خلال الشواهد التي ذكرناها في سياق الحديث عن استعمال فرعون وقومه لوسيلتي السخرية والاستهزاء، أنّها كانت نابعة من استكباره وجحوده، وأخذه لرسالة موسى بمحمل الهزل لا بمحمل الجِد، فكانت عاقبة استهزائه هو وقومه خسرا، وبوارا في الدنيا وفي الآخرة، فلم يغن عنهم استهزائهم ولا سخريتهم من الله شيئا، بل سخروا على أنفسهم لما أرادوا أن يمكروا بموسى ومن معه، دون أن يشعروا أو أن يتحسسوا ذلك. شاركوه كذلك الضحك والسخرية على الآيات، وقد انتهت الدراسات الاسلوبية الى ان السخرية تعتمد لغويا على عدد من الاساليب هي:[703]

-التورية أو التلاعب بالالفاظ (**Pun**) وهي تصنف الى اربعة أنواع:

أ - استخدام الكلمة لتدل على أكثر من معنى مباشرة كقول أحدهم لعازف العود (أنت عودك حلو).

ب استخدام الكلمة بمعناها الاشتقاقي بدلا من معناها الاصطلاحي.

ج - الاستخدام الحرفي او الحقيقي للكلمات او العبارات ذات الدلالة المجازية.

د - إقامة موازنات بين المعنى المجازي أو الاصطلاحي والمعاني الأخرى.

-**المفارقة (Irony)**:اسلوب أدبي او بلاغي يشير الى وجود تعارض أو افتقار للانسجام بين ما يقوله المتحدث وما يعنيه أو ما يفهم بشكل عام، او التناقض بين فهم الواقع او توقع بعض أحداثه وبين ما يحدث فعلا، وكذا عندما يكون هناك تعارض بين الحقيقة المنطوقة وبين الحقيقة المدركة.

-**المحاكاة الساخرة (Parody)**. الاسلوب الذي يعتمده الكاتب او الممثل

---

(703) د.محمد حسام الدين اسماعيل، ساخرون وثوار، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص 27-32

للسخرية والاستهزاء من العمل او العبارة الاصلية لكاتب او عمل فني اخر او إثارة الضحك فقط دون نية السخرية او حتى التعليق على هذا الكاتب او هذا العمل السابق، ويعد تقليد ضاحك لنشرات الاخبار والبرامج الحوارية للسخرية من الاحداث او الاتجاهات السياسية والاجتماعية.

-العبث (**Absurd**). اسلوب فكاهي يرتبط بلاغيا بكتابات السرياليين الذي تعتمد على تركيب الجملة الغريب والمواقف العبثية التي لا تحمل أي معنى، وتعد عنصرا هاما من عناصر الفكاهة العبثية او السريالية او المفتقدة للمنطق وفيها تتابع عبارات الكاتب في إثر أخرى دون نتيجة منطقية يمكن استخلاصها من ذلك.

-المضاهاة والمقارنة(**Analogy**):اسلوب بلاغي يستخدم في الشرح والتفسير وعمية المجاججة عن طريق مقارنة مفهومين أو شيئين، ويستخدم هذا الاسلوب بالسخرية عن طريق عقد مقارنات بين اشياء تبدو بعيدة عن بعضها البعض.

-التساؤل الساخر(**Rhetorical Question**):اسلوب يستخدم التساؤل بهدف إقناعي دون توقع، وهو اسلوب يدفع، وهو اسلوب يدفع المستمع او القارئ ليتأمل في الاجابة الضمنية.

-المبالغة (**Hyperbole**):اسلوب بلاغي يقصد به إثارة مشاعر قوية او خلق انطباع قوي حيال شئ معين ويندر ان تعني حرفيا الكلمات المستخدمة ولذلك فإنها تستخدم بشكل كبير في السخرية.

9 **الكذب والافتراء**: إذا سألت أي شخص عن الكذب، فإنّه سوف يجيبك بقوله:«إنّه الكلام الذي لا يتحرّى صاحبه الصدق في القول» أو يقول لك:«أن الكذب هو مباينة القول للواقع» بيدَ أن الحقيقة أن معنى الكذب يتّسع لأكثر من هذا، فالكذب لا ينحصر في عدم مطابقة الكلام للحاضر فحسب، بل يمتد ليشمل الحاضر والماضي والمستقبل ويعدّ الكذب والافتراء فيه، رأس كل شر، لما فيه من مضار على الإنسان الكذّاب المفتري في ذاته، وعلى الناس الذين من حوله، وقد علّل الرازي ذلك قائلا:...وتجد أن الكذب يجلب على

صاحبه ذلا، فإن المدمن على الكذب المكثر منه لا يكاد تخطئه الفضيحة ولا يسلم منها، إما لمناقضة تكون منه بسهو ونسيان يحدثان له، وإما بعلم بعض من يحدثه وإطلاعه من حديثه ذلك على خلاف ما ذكر، وتقر دراسة أجرتها صحيفة «التلغراف» البريطانية، أن الفبركة فن قديم، مع الأخذ بعين الاعتبار مبدأ تطور الحقيقة أو ما يسمى بالأخبار الكاذبة، التي أصبحت أكثر سرعة، ولا تستغرق وقتا لبناء الجمهور والثقة والسمعة، فهي أسهل تداولا، وأقل عرضة للعواقب القضائية أو الحواجز الاقتصادية، بما يحول دون القفز الالكتروني فوق أرضية خصبة لها وبصحون وثابة!

وقد تكون كاتي آدي Katie Adie المراسلة الحربية لهيئة الإذاعة البريطانية BBC تعبّر عن جزء من الحقيقة عندما تحدثت عن المأزق الذي يجد الصحفي فيه نفسه في حالة صراع بين الإخلاص لوطنه ونقل الحقيقة، لا سيما عندما يكون وطنه في حالة حرب تقول هذه المراسلة الحربية إن مبادئ العمل الصحفي - كما قالت- تتعرض لاختبار حقيقي عندما يكون وطن الإعلامي في حالة حرب، فهل يكون الإعلامي مع الحقيقة المجردة أم مع آلة الحرب والفزع والدمار الذي يلحق بالناس نتيجة لهذه الحرب، أم مع قرارات النواب المنتخبين ديمقراطياً أم مع الرجال والنساء من الشباب الذين وافقوا على تعريض أنفسهم للخطر في الصفوف الأمامية للحرب؟ وأضافت كاتي أن طبيعة الحرب نفسها تشوش الدور الذي يجب أن يقوم به الصحفي.

-الالتذاذ بالكذب: ليس يصيب الكذاب من الالتذاذ بكذبه – ولو كذب عمره كلّه- ما يقارب فضلا عن أن يوازي ما يدفع إليه – ولو مرة واحدة في عمره كلّه- من هم الخجل والاستحياء عند افتضاحه، واحتقار الناس له واستصغارهم وتسفيههم وترذيلهم له وقلة ركونهم إليه، ومثل هذا لا يعد في الناس، فضلا عن أن يقصد الكلام بقطع به في صلاحه، ومن أجل أن أسباب الفضيحة في هذا المعنى ربما تأخرت، كثيرا ما يغتر الجاهل بذلك، إلّا أنّ العاقل لا يورط نفسه فيما يخاف أولا يأمن معه فضيحة، بل يستظهر ويأخذ بالحزم في ذلك، والكذب أكثر الوسائل استخداما لتزييف الحقائق، وطمسها

وتحريف محتواها، وكثيرا ما يتسبب الكذب في نفث الشرور والسموم من حقد، وقتل، وكيد، وفرقة...الخ «وغيرها من العوارض الرديئة التي يدعو إليها الهوى» ويمكن لشتى الأوصاف الدنيئة أن تنطبق عليه ولو كان الكذب- خاصة المذموم منه- يمشي فوق الأرض لقلنا عليه إبليسًا، فهو شكل من أشكال التجهيل والتضليل بل هو أشدها مرارة وحرقة، خاصة إذا صدر من أشخاص موثوق بهم، فمن المعلوم أن الثقة تستوجب الصدق لا الكذب، وإن اعتراها الكذب صارت مشبوهة، مخذولة، متردية،والموثوق بهم كثيرون، فهم يُمَنُّونَ الجماهير بضمان الحماية والأمان، والعطف والحنان، وسبل العيش الكريم، ومناهج التعليم، والرقي، والتربية، والأخلاق، وغيرها من معالم صدق واقع الحياة، أمّا إذا اعتراها الكذب تصير مجرد أحلام وأماني، وقد يصيبها الوهن، وطول الأمل، حتى أنه يمكن وصفها بالأمنيات، وتصير مستحيلة التحقيق إلى درجة أن يصيب الموعودين بها اليأس، فتصير ضمن المثاليات في كثير من الأماكن، والأوطان، وعديد الأزمان، ويُلبِس الكذب صاحبه ظلما إذا تمادى فيه بين الناس فهو كالوباء سريع الانتشار، ويصبح بَيِّن الأعراض، وإذا تفشت معانيه، وازداد معه عدد المتلقين من: المستمعين، والمشاهدين، والمنقادين المقلدين له من الجماهير، صار وبالًا عليهم وعلى مصالحهم، خاصة إذا صدر ممن يتولّون أمورهم، وشؤون حكمهم وعيشهم» فإن أرخصوا لأنفسهم فيه صاروا به موسومين، لأنّ الإنسان بقدر ما يسبق يعرف، وبما يظهر من أخلاقه يوصف، وبذلك جرت عادة الخلق أنّهم يُعدلون العادل بالغالب من أفعاله، وربما أساء، ويفسّقون الفاسق بالغالب من أفعاله، وربما أحسن.

ومن خلال هذا الرّأي يتضح لنا أن الكاذبين الموثوق بهم من ذوي السلطان والحكم، وأصحاب المصالح، والخائنون، والمنافقون، والجبناء كثيرون، فهم يستعملونه لإيهام الناس بسداد حكمهم، وصواب رأيهم، وسَبْقِ مصالح رعيتهم عن مصالحهم، فالأجدر لهم البدء بإصلاح أنفسهم حتى لا تكون هذه الوعود الكاذبة وبالًا عليهم وعلى رعيتهم، "فإذ، بدأ الإنسان بسياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر، وإذا أهمل مراعاة نفسه كان بإهمال غيره

أجدر" فهم يجاهرون بالكذب أمام الناس ولا يستحيون، وكل هذا لدرء الأنظار والأطماع عن سلطانهم، وملكهم، ومصالحهم بل يسخرون أتباعهم للإكثار منه، عبر اللقاءات، والمجالس، والتجمعات، والتجمهرات، يشحنون عقول الناس ويحتسونهم بالوعود الكاذبة، والعهود الزائفة، وكل هذا بغرض تضليلهم وتجهيلهم، وطمس الحقيقة عنهم، وبالتالي تزداد التبعية تجذرا، والانقياد تأصلا، فينزاح الناس عن الحق ويتبعون طريق الباطل الموجب لشتى أنواع الآثام والمهلكات، استمرت القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية في إتباع سياسة الكذب والتضليل وإخفاء المعلومة عن مقتل آلاف المدنيين العراقيين الذين قضوا في العمليات العسكرية الأمريكية رغم نشر أخبار وإحصائيات عن أعداد القتلى فقد تحدث وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامفسيلد لموظفيه في مارس 2005م، أي بعد عامين من غزو العراق، عن السرعة غير المسبوقة والدقة والمرونة التي استطاعت القوات الأمريكية بها وبدعم من قوات التحالف، أن تسيطر على بغداد، وأن هذه القوات سارت قدماً وبسرعة أكثر من أي قوات في التاريخ العسكري وقال إن هذه القوات قامت بذلك وهي تحاول أن تتجنب إحداث إصابات كبيرة في صفوف المدنيين.

ومن أبشع أنواع الكذب هو ذاك الذي يدعو لإشاعة العداوة والبغضاء بين الناس، وتشتيت صفهم ووحدتهم ورباطة جأشهم، ومحاولة سلخهم عن ماضيهم وأصالتهم، وتكبيل حاضرهم، وتعتيم مستقبلهم، باسم الوحدة والمساواة والحرية والتحضر، والغريب في ذلك أن الجماهير المخدوعة المنساقة وراء الأهواء الكاذبة، يُصدّقون ما يملى عليهم من خطابات كاذبة، ووعود مقنعة زائفة، ويأخذونها بمحمل الجد، وهذا راجع في نظرنا إلى سياسة التنويم والتخدير التي يخضعون لها، مع تسخير وسائل التضليل والتجهيل الأخرى التي تحدثنا عنها، وما تشتمل عليه من أساليب متفننة، وبهذا يصبح الكذب في هذا المقام شكلا من أشكال الاستحمار الذي بات يرصد كل واحد منا، نخرج أنفسنا من شكله القديم، فيتلقانا بشكله الحديث، نتمرد عليه في مكان، فيلهينا ونقع في حبائله في مكان آخر، نرفضه من ناحية، فيسخرنا من ناحية أخرى!

نتنبه إلى جانب منه، فيشغلنا في جانب آخر، نكتشف حربا إيهامية، فيوقعنا في حرب إيهامية أخرى، وهكذا دائما.[704] ولنا في كذب وافتراء فرعون عبرة، فهو أكبر مفتري كذّاب في تاريخ الأنام، حتى صار كذبه مثالا يضرب به لكثير من الظالمين المستبدين عبر الأزمان، وقد صوّر القرآن الكريم عدّة مشاهد لكذب هذا الطاغية، إذ استعمله كوسيلة إعلامية أخرى في حربه النفسية المضللة، لدرء الشبهة عن ضلاله، ومحاولة صرف أنظار قومه عن دعوة موسى للحق، وبلغ كذبه حد الافتراء على الله وآياته وذلك بالكفر والجحود، وقد وصف عز وجل الافتراء في هذا المقام على أنه أعظم وأشد أنواع الظلم.

-**الاسراف بالكذب**:وإسراف فرعون في كذبه كان نتيجة لانقياد قومه وراء رأيه الفاسد، وانصياعهم لأمره، وإذعانهم لكفره وجحوده، وراح يتدرّج في كذبه وافترائه حتى نصّب نفسه إلها وها هو يعلن أمام قومه قائلا: **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي**، وهذا هو قمة الافتراء والكذب، ولمّا قويت عليه الحجج والبراهين الربانية التي جاء بها موسى -عليه السلام- وزلزلت كذبته المزعومة بأنه إله يُعبد من دون الله، تمادى في كذبه وبهتانه، وراح يجاهر به بين قومه، وهاهو ذا في موضع آخر يتهم موسى بممارسة السحر وجاء به لكي يخرجهم من أرضه به، ونجد أن الملأ وافقوه نفس الكذب والافتراء، فصار كذبهم من كذبه وافترائهم من افترائه، ومن هنا تنكشف لنا درجة الانصياع والانقياد والذوبان في الرأي الفرعوني الكاذب، الذي تجذّر فيهم، وما زاد انصباغ كذب فرعون وافترائه فيهم هو ادعائه بأنه يحتاج إلى رأيهم وأمرهم، وبالتالي منحهم حرية إبداء الرأي فيما يضرّهم من كذب ولا ينفعهم، ولم يتوقف فرعون وقومه على إشاعة الكذب والافتراء بين الناس، خاصة كذبة أن موسى ساحر جاء ليخرجهم من أرضهم فأضاف لها تهمة الجنون، لكي يُسفّه موسى وينقص من رجاحة عقله، لأنه كان يعرف أن المجنون لا يُعتد بكلامه.

وهذا دأب الظالمين المستبدين عبر الأزمان والأماكن فهم يشتركون

(704) علي شريعتي، النباهة والاستحمار، الدار العالمية لطباعة للنشر والتوزيع، ط1، بيروت-لبنان،1984، ص95

ويتشابهون في شتى أشكال الكذب ويتفننون فيه، حتى صاروا الآن يشتركون جميعا في الأجهزة، والوسائل، والأساليب التي يستخدمونها لذلك، لقد مارست القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية الكثير من الترويج لحجب المعلومة بشأن الحرب على العراق ومن ثم احتلاله، وحتى عندما اعترف الرئيس بوش بأن هناك ثلاثين ألفاً من المدنيين العراقيين لقوا حتفهم منذ بداية الحرب على العراق وأثناء العنف المستمر حاول الجنرال تومي فرانكس، رئيس القيادة المركزية الأمريكية الالتفاف حول هذه الحقيقة بقوله: "ليست مهمتنا أن نحصي الأموات".

ومن خلال الشواهد التي أوردناها حول كذب فرعون وافترائه، اتضح لنا أنه قد استخدم هذه الوسيلة في حربه الإعلامية الشرسة التي قادها ضد موسى ودعوته للحق، فراح مجاهرا بكذبه بين الناس ومُشيعا له، وكل هذا لكي يشكك في نبوة موسى والآيات التي جاء بها من ربه، وبالموازاة مع ذلك سخر أتباعه المستكبرين لإذاعة الكذب ومحاولة نشر الإشاعات المغرضة، بين الجماهير الغافلة المُستخف بها، قال تعالى:(فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾) وكان الكذب كما هو ظاهر أحد وسائل فرعون؛ لتمرير مخططاته التعسفية، وقراراته السيادية، وسياسته القمعية، بل وهي الوسيلة التي استخدمها فرعون في مواجهته لموسى -عليه السلام، فالكذب ولا شيء غير الكذب، والعجيب أنه في كل هذا، ومع كل هذا، كان فرعون -كغيره- يعلم يقينًا أنه كاذب، ويبطن هذا في قلبه، ويخفيه في صدره، ويظهر خلافه، بل والله لقد كان مستشعرًا للخوف الشديد من جهة موسى -عليه السلام- وهذا يدل على ما ذكرنا سابقًا- ولما جاء به من توحيد الله -عز وجل- ألا ترى أن الله - عز وجل - أبى إلا أن يظهر ما يخفيه على فلتات لسانه حين قال:﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾؛ ولذلك كانت النتيجة أنه لم يستشر أحدًا، فيما أقدم عليه؛ لأنه قد أعد الهدف مسبقًا، وكان إعداده له؛ بسبب خوفه من موسى -عليه السلام-، أي معرفة فرعون أنه كاذب وأنه يظهر خلافه - الفعل من موسى.

-اختلاق الحقائق(الكذب المباشر): لاشك أن البيئة الاتصالية وخاصة الفضاء المفتوح تتغذى على الكذب والأخبار الزائفة، لذلك فأن لا تستخدم الكذب المباشر فهذا مكلف وخطر، فما المغزى من الكذب مادام بالامكان الوصول الى النتيجة نفسها من خلال ضخ جرعات من الحقيقة بعناية؟ إذ كانت اساليب اختلاق الحقائق قد وضعت منذ ادارة غوبلز، وكانت مبتكرة الى حد كبير فقد استعمل الفاشيون اسلوب «شبكة تأمين الانباء الكاذبة على أنها حقيقة» وحتى لو كانت مزعجة جدا لهم، فالكذب في مثل هذا يمر بلا منغصات، لقد اولو اهتماما كبيرا لعمليات التحريض لتحقيق هدف وحيد هو تصوير فيلم "حقيقي" دعائي.[705] فيما راحت مواقع التواصل الاجتماعي تبث الكذب والخداع لإيهام المتلقي بالكثير من الافكار التي تروج لها أو الاخبار التي تستقيها بغائية وقصدية وفاعلية واضحة.

10 - مجالس المراء والمجادلة: تعدّ كل من مجالس المجادلة والمراء من بين الوسائل والطرق الأكثر استعمالا لتشتيت الرأي وتفريقه، خاصة إذا كان محتواها عقيم غير مُوصل لنتائج واضحة، ويعمّ بلاءها كلما عمّ انتشارها بين الناس، مما تسبّبه من خصومات وتنافر بينهم جراء عدم تقارب الآراء وتفرّقها، وفي كثير من الأحيان تعصّبها، فالجدل في الله محمود مع أعدائه، والجدل مع الله شرك لأنه صرفٌ إلى مخالفة تُوهِمُ أن أحدا يعارض التقدير، وتجويز ذلك انسلاخٌ عن الدين، ومن امارات سعادة للمؤمن فتح باب العمل عليه، وإغلاق باب الجدل دونه، وأرسل الله الرسل -عليهم السلام- تترى، وأيّدهم بالحجج والبراهين، وامرهم بالإنذار والتخويف، والتشريف في عين التكليف، وتضمين ذلك بالتحقيق، ولكن سعِد قومٌ باتباعهم، وشقِيَ آخرون بخلافهم ، وقد اتخذ فرعون من مجالس المناظرة منبرا إعلاميا، لبث سموم حقده وكفره، والتشكيك في بعثة موسى والآيات التي جاء بها، والملاحظ من خلال الشواهد التي جاءت في القرآن الكريم أن فرعون إمتهن أسلوب التهرب من الاتصال المواجهي المبني على البيّنة والحجة، وراح يناقض الحجج والأدلة التي جاء بها

(705) سيرجي قره-مورزا، التلاعب بالوعي، مصدر سبق ذكره، ص143-144

موسى، وألحّ في الخوض فيها بكلام مليء بالسخرية والاستهزاء والتكذيب بما جاء به الرسول من ربه، يقول الرازي: أن فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم إن موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والإيذاء بل خرج معه المناظرة لما أنه لو شرع أولا في الإيذاء لنسب إلى الجهل والسفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره.

وراح يخاصم موسى ويجادله، والمجادلة كما يفسّرها اللّغويون تنحو منحى الخصومة، بمعنى أن استعمال هذه المادة يكاد يلزم الخصومة في أي صورة من صورها، ولو بمعنى التمسك بالرأي والتعصب له، وبهذا أبى فرعون إلاّ ليدوم جحوده، وكان الطغيان هو عنصر الخصومة في المحاورة، قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، فالطغيان أعمى بصيرته عن الحق، واتخذ من المجادلة والمراء أداة سعى من خلالها لتسفيه موسى، ومحاولة تعجيزه من جهة، ولتضليل قومه وتجهيلهم عن الحق من جهة أخرى، فكان كلما دعاه موسى – عليه السلام – للمناظرة لإظهار الحق وتبيانه، دعا قومه للحضور للاستئناس بضلالهم وجهلهم. وتقوّى فرعون كثيرا بهذه المجالس، لِمَا وجد فيها من عقول مخدرة، مُستخف بها، لذلك برزت حججه واهية صاحبة ساقها لكي يتحاشى محاورة موسى في المضمون الرئيسي للرسالة التي جاء بها ألا وهو وحدانية الله وعظم قدرته، وإذا انهار مبدأ الرسالة انهارت معه القضية كلها، وهذا بالتشكيك في صحتها، وبالتالي حاول فرعون أن يقيم على هذا المبدأ موقفا مصللا ليخفي خوفه وعجزه أمام موسى والآيات التي جاء بها من ربه، وظهرت ملامح تأثير المراء جلية في أوساط قومه لَمَا صدّقوا افترائه وكذبه، بل أدخلهم كطرف في الخصومة، بِمَسْرَحَتِهِ لمشاهد الحوار الذي قام بينه وبين موسى من جهة، وبينه وبين الرجل المؤمن من آله من جهة أخرى، فبمجرد ما يأتي موسى بالحجة والبيان أمامه إلّا يجد نفسه ملتفتا لقومه لصرف انتباههم عن بينه، ويتحاشى الرد عليه بمثله، لأنه يفتقد أصلا للبيان والحجة، فأضلهم بغير علم، ولعب دور الممثل الذي يقوم باستغفال الجماهير واستعطافهم أثناء تأديته لأطوار تمثيليته.

من خلال كل هذه الأدلة والبيان الذي جاء به الرجل المؤمن، ها هو فرعون يخرج مجادلا مخاصما بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وكأنه أراد أن يضرب كل هذه الأدلة عرض الحائط، ويوحي لقومه أن رأيه هو السائد، وذلك سعيا منه لصرف أنظارهم على ما جاء به الرجل المؤمن، وتكبيل عقولهم عن الحق المبين، ولما قويت عليه الحجة والبيان، طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا، ونستشف من خلال الشواهد التي قمنا بذكرها حول جدال فرعون، أنه استعمله كأداة أخرى لتضليل وتجهيل قومه، خاصة لما شهدوا حضور المناظرات، وتوريطهم كطرف في جهله وكفره، فصار جداله ومرائه حاجزا منيعا أمام البيان الذي جاء به موسى والرجل المؤمن، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجادل الظالم بظلمه وجهالته، وبالمقابل يجد الحق وأصحابه أنفسهم متضررين، مكابدين معانين لإيصال رسالتهم، وتظهر معه تلك المشاق الجسيمة التي يتحملونها جراء ذلك، في حين يجد الأشخاص المنقادين وراء الجدال وأهله أنفسهم منساقين، مكبلين عن فهم الحق وفهم أهله.

11 - **التحشيد والتعبئة**: اعتنى فرعون بالتحشيد وتعبئة ملئه لأجل قومه ومراقبتهم واضعافهم والتصدي لهم، وزرع الرعب والخوف في نفوسهم، وفي البيئة الاتصالية برزت بيئة إعلامية تشهد تداخلا في خدمات الانترنت مع الموبايل والتليفزيون والفضائيات وكان آخر وابرز أدواتها الجديدة شبكات التواصل الاجتماعي التي تعتمد على التحشيد والتعبئة وزاد دورها في ظل غياب دور المؤسسات الوسيطة الفاعلة كالأحزاب السياسية أو البرلمان في نقل مطالب الجماهير. وأصبحت تقوم بدورها في الرقابة على أداء الحكومة ونقل المطالب وممارسة الضغط وتمثيل قوى جديدة في المجتمع تتخذ من الانترنت منصة إعلامية لها مع إتساع وإنتشار إستخدام الانترنت، وتوفير بيئة إعلامية خصبة للتعبير عن الرأي ونشر الأفكار والاتجاهات للتأثير على الرأي العام من جانب العديد من النشطاء الشباب بعد أن اتسع عدد المشاركين وحجم القضايا والاهتمامات أثر التغييرات في البلدان العربية، وقد كان موضوع

أسلحة الدمار الشامل وامتلاك النظام العراقي لهذه الأسلحة من أكثر الأمور التي مارست فيها القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية استراتيجيات منظمة لإخفاء نواياها الحقيقية من الحرب وما لحقها من احتلال، فقد أدلى العديد من القادة السياسيين الأمريكيين وعلى رأسهم الرئيس بوش بتصريحات تؤكد امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وكانت تصريحات مفزعة للرأي العام الأمريكي والعالمي عن امتلاك النظام العراقي لمثل هذه الأسلحة، وأنه باستطاعة هذا النظام استخدام هذه الأسلحة في هجمات يشنها خلال مدة زمنية وجيزة، لكن اتضح بعد أن احتلت الولايات المتحدة العراق أن ذلك الزعم لم يكن إلا مسوغات كاذبة قصد منها إخفاء الأهداف الحقيقية لإدارة الرئيس بوش والمحافظين الجدد في البيت الأبيض من هذه الحرب، بعد ذلك بدأت القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية في إعلان أن هدفها من الحرب كان تغيير النظام وهو ما لم يكن من الأمور المطروحة عند الإعداد للحرب والتحركات التي سبقتها من حشد للرأي العام المحلي والعالمي ومحاولة الحصول على دعم وتفويض من الأمم المتحدة لشن الحرب، هذا النهج المتعلق بالتحشيد والتعبئة لحرب العراق هو النهج نفسه الذي اتبعته القيادات العسكرية والسياسية الأمريكية في قضية تعذيب السجناء العراقيين في سجن أبو غريب في بغداد والتداعيات التي أعقبت هذه القضية.

12 - **التلاعب والتزوير:** قدرة الوسيلة الإعلامية على التلاعب والتزوير، وقابلية بعض المحطات الإعلامية على شنق الحقيقة، ورفع السوط الإعلامي عالياً بوجه الضحية أكثر من أي جلاد سياسي آخر، ومحاولة تبشيع الخصم وأبلسته، إلى الحد الذي يصبح الإعلامي معه مثل المفتي الذي يشرعن قتل الشعوب وإبادتها، لكن الافتقار إلى الكفاءة والخبرة، بل وغياب المهنية التي تتعلق بمهارات الصحافيين عموماً، هو من جعل التلاعب والتزييف يأخذ دوره الكبير في التناول الإعلامي، وثمة أيضا غياب التخطيط الاستراتيجي، المتخصص بالعملية الإعلامية، مع غياب واضح لمعايير الجودة، التي يمكن من خلالها تأشير التلاعب والتزوير الإعلامي، وتصحيحها من أجل حماية المنتج الإعلامي، من الانزلاق في متاهات

الفوضى، فالوظيفة الإخبارية لوسائل الإعلام تستهدف إحاطة الجمهور علماً بالأحداث بطريقة موضوعية ونزيهة تعاونه على تكوين رأي عام متبصر، إلا أن الممارسات الإخبارية تكشف عن صعوبة الفصل بين الرأي وبين الحقيقة حيث تستخدم وسائل الإعلام كل وسيلة ممكنة لتبدو الآراء وكأنها حقائق، كما ان انخفاض مصداقية وسائل الإعلام أصبح يشكل قلقاً متزايداً للمهتمين بأخلاقيات الإعلام وللمهنيين على وجه السواء، إذ أن تحيز القائمين بالاتصال يؤثر على شكل ومضمون التغطية للقضايا المثارة، علاوة على ذلك تلجأ وسائل الإعلام إلى الإفراط في نشر الأخبار السيئة وقصص الإثارة من أجل زيادة التوزيع، فضلا من أن الصحفيين يدركون بشكل مقصود أم غير مقصود التحيز تجاه هذا الطرف او ذاك ممن ينصب التناول الإعلامي على أحداثهم ووقائعهم، وعدم التقيد بالضوابط، والمعايير، والجدوى، والتخطيط الاستراتيجي، والمهنية، التي تتعلق بنقل الخبر، أو التحقيق، أو المقال، أو غيره مما ينتمي إلى الفنون الإعلامية المختلفة، بصورة موضوعية وبحياد تام، فالتعتيم على مصدر الخبر، مثلا، ودرجة الوثوق منه، لا تزال واضحة في المشهد، وربما تحدث بصورة متواصلة، والسبب كما هو واضح، غياب المهنية، والاحتراف في العمل الصحفي واستسهاله، بعدم التزام الإعلام بنقل الأحداث أو التقارير بحيادية أقرب ما يمكن للواقع بسبب الميول السياسية أو الإيديولوجية، وتكريس التحيز وفق هذه الإيديولوجيا، والقبول بفكرة الرأي والرأي الآخر، واحترام الرأي الآخر، لأن دور الإعلام عموماً، والصحافة خصوصاً، ليس التحيز بإدراك تام ولا تشويش ولا تلوين ولا التشويه، ولكن نقل الصورة بكافة جوانبها، وهو ما تفتقده، لأنها تتحرك وفق غايات القائمين عليها، وآراءهم وتوجهاتهم، وتأكيد دور الإعلام في تنمية فكر المتلقي وتعريفه بما يدور حوله من أحداث، دون أن يكون الإعلام طرفاً في الصراع، فمن المفترض أن الصحافي يقوم بعرض وجهات النظر المطروحة دون أن يعبر عن وجهة نظره الشخصية، لكن ما يحدث في وسائل الإعلام تجاه مختلف الأحداث، هو أن كثيرا من الصحافيين يقدم نفسه لخدمة فصيل سياسي أو آيديولوجي معين، فيعمل كل ما يستطيع فعله ليكون في مصلحة هذا الفصيل، وغالبا تكون مقابل ثمن وهذا سبب

ما نحن فيه من خبل في المنظومة المهنية للإعلام، لذلك فأن التناول الصحفي كثيرا ما يكون تناولا شديد التحيز وبعيد عن الدقة والموضوعية، والنزاهة، ووفق هذه المعطيات فمن الضروري إدراج قضية التحيز والموضوعية والحياد في الدراسات والأداء الإعلامي ضمن أولويات التناول الصحفي، فضلا عن إنشاء مراكز بحوث خاصة بمراقبة الأداء الإعلامي، ومعنية بوضع ضوابط علمية، يمكن قياس أثرها للتعاطي مع المنتج الإعلامي، بشكل يراعي أهمية الضوابط، ويستفيد من الخبرات، ويتوافق مع خصوصية ومتطلبات البيئة ويستجيب لرغبات وحاجات الجمهور ويحقق إشباعاتهم، ولذلك لا تتطلب الصحافة من أبناء المهنة أن يكونوا مجرد حرفيين مهرة أو خبراء متمكنين من أدوات المعرفة فحسب، بل تحتم عليهم التمسك بالضمير المهني والالتزام الذاتي بالصدق والموضوعية والأمانة، وبشفافية عالية، وحيادية تامة والتفريط فيها يعرض جوهر المهنة إلى الفوضى.

13 - **غياب الرأي والرأي الآخر**: إن الخطأ الذي تقع فيه بعض وسائل الإعلام أن موادها موجهة أما للموالين لها ليزدادوا ولاء، أو للرافضين لها ليزدادوا رفضا، فيما ينبغي أن تكرس جهدها لإجتذاب القطاع المحايد والذي لايزال لم يشكل موقفا أو رؤية، إذ أن بعض وسائل الاعلام على إحتلافها تتصور أن متبنياتها بما إنها صحيحة فلا تكرس إلا رؤيتها، ولا تفرد مجالاً واسعاً للرأي والرأي الآخر أو على الأقل التظاهر بالحيادية، لكي لا تخسر المزيد من جمهورها، متجاهلة حقيقة أن لكل فكرة جانبي الصحة والصلاحية، كما أن الإعلام لم يعد يتوجه إلى كتلة بشرية أو شريحة معينة، بل صار محددا وموجها، وقد أظهرت دراسات عديدة تحيزاً في الأخبار.

14 - **تحميق الجمهور**: إن الجدلية القائمة بين المؤسسة السياسية والمؤسسة الإعلامية حول حق الصحفي في «الوصول إلى ملفات الحكومة» لا يتجاوز مجال الدراسة العلمية إلى الواقع الميداني، وقد ينجح الإعلاميون في كسب نتائج الجدل على المستوى المحلي، أما على صعيد السياسية الخرجية فإن هذه القضية العلمية تبقى رهينة قاعات الدرس في الجامعات، أو المنتديات العلمية للمتخصصين في

السياسية والإعلام أو في «الاتصال السياسي» ولذلك فإن المعالجة الإعلامية لقضايا السياسية الخارجية تبقى تحت هيمنة الساسة وصناع القرار بذرائع شتى أهمها «حماية الأمن القومي» أو «المصالح الإستراتيجية» القومية، وهي الذرائع التي ينبغي أن يحترمها الإعلاميون طوعاً أو كرهاً، وقد اتسمت السياسية الاعلامي لبعض الدول بالسرية والغموض وحجب المعلومة وفي كل زمان ومكان خاصة بعد استفحال الارهاب في اغلب دول العالم، وفي هذا يقول توماس لانتون إن فلسفة الحجب الإعلامي كانت قد بدأت قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إذ تمثلت في رفض إدارة الرئيس بوش دعوات الكونجرس تزويده بأسماء مستشاري القطاع الخص لذين يعملون في قطاع سياسات الطاقة، وكذلك جهود هذه الإدارة فيما يتعلق بعدم السماح بنشر سجلات حقبة الرئيس ريجان تحت ذريعة قانون السجلات الرئاسية لكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر جعلت من حجب المعلومات والتكتم عليها وإحاطتها بالسرية نوعاً من العادة المتبعة ، فيما تحاول الانظمة الاستبدادية والقمعية تحميق الجمهور والتغول في السيطرة على المعلومات وإخفاؤها وحجبها بشتى الطرق رغم التطور التقني الذي يشوبه الكثير من المعلومات الملوثة.

15 - **تسفيه الجمهور**:تتزامن سياسة عدم إيصال صوت الآخر هذه مع اهتمام أمريكي بإيصال الصوت الإعلامي الحكومي لهذا الآخر من خلال الإسهام في توفير وسائل البث والاتصال المختلفة، ففي أثناء الحرب على أفغانستان قامت القوات الأمريكية بتوزيع 40.000 راديو على الأفغانيين، ووزعت القوات المتحالفة المزيد من أجهزة الراديو في كل أراض تتم السيطرة عليها داخل أفغانستان، وقد كانت أجهزة الراديو جزءاً من الحرب النفسية التي تشنُّها القوات الأمريكية على الشعب الأفغاني، ولذلك صممت تلك الأجهزة بحيث لا تحتاج إلى البطاريات أو الكهرباء من أجل التشغيل، وبحيث لا تلتقط إلا بث القوات الأمريكية، بالإضافة إلى ذلك فإن الولايات المتحدة مولت بسخاء تأسيس المحطات الإذاعية والتلفزيونية الموجهة وتشغيلها، ومنها إذاعة (سوا) و(قناة الحرة) ومجلة (هاي) وتبث مواد موجهة باللغات العربية والفارسية

والبشتونية، ويلخص روبرت اليجانت (Robert Elegant) وهو مراسل صحفي سابق، كل ما سبق بقوله: "لأول مرة في التاريخ الحديث تتقرر نتائج حرب ليس على ساحة المعركة ولكن على صفحات الصحف وشاشات التلفزيون" كتب اليجانت ذلك وهو يتحدث عن حرب فيتنام قبل أكثر من 30 عاماً، فيكف هو الواقع في حرب الولايات المتحدة على العراق التي تزامنت مع الطفرة الهائلة في تقنيات الإعلام والمعلومة، والفضاء المفتوح؟

16 - **تجهيل الجمهور بعدم التمييز بين الضر والنفع**:دأبت البيئة الاتصالية ووسائل الإعلام المختلفة، على تجاهل المآسي الكثيرة التي سببتها الحروب ولذا خلت وسائل الإعلام الأمريكية الرئيسية مثل صحف نيويورك تايمز وواشنطن بوست ومجلتي تايم ونيوزويك إضافة إلى شبكات التلفزة مثل (سي إن إن) و(فوكس نيوز) و(سي بي اس) من أي تفاصيل للدمار الذي لحق بالعراق وأهله جرّاء الآلة العسكرية الأمريكية، لقد عمدت الجهات الرسمية الأمريكية ممثلة في القيادات السياسية والعسكرية إلى إتباع طريقتين لحجب المعلومة أثناء الحرب على العراق، الأولى من خلال السيطرة على وسائل الإعلام عبر برنامج إلحاق المراسلين الصحفيين بالوحدات العسكرية المختلفة، والثانية هي عرض أخبار الحرب والتصريحات الصحفية المتعلقة بها عن طريق القادة العسكريين في قطر وواشنطن، ولعل تطبيق سياسة المرافقين الصحفيين للوحدات العسكرية هذه قد طمأنت القيادات العسكرية إلى عدم تسريب أي معلومات عن الحرب لمؤسسات الإعلامية ما عدا تلك المعلومات التي تزود بها هذه القيادات المراسلين المرافقين، وقد أدّى برنامج إلحاق الإعلاميين بالوحدات العسكرية إلى تحقيق هدفين رئيسيين للقادة العسكريين من أجل إخفاء المعلومة عن وسائل الإعلام وبالتالي تضليل الرأي العام، أولهما، أن مرافقة الوحدات العسكرية تحد من تحركات المراسل الصحفي في ساحة المعركة وبذا يكون محصوراً فقط في الوحدة المرافق لها والثاني -وقد اتضح بصورة جلية أثناء عملية غزو العراق- أن معظم وسائل الإعلام الأمريكية -وخاصة تلك التي انضمت مؤسساتها إلى برنامج إلحاق الصحفيين بالوحدات

العسكرية- وجدت نفسها رهينة للقيادات العسكرية والسياسية وأصبحت تأتمر بأمرها وتلتزم بالأخبار والتقارير التي تزودها بها هذه الجهات، لكن رغم هذا نجد أن بعض الإعلاميين لم يكونوا راضين عن هذه المعاملة التي يجدونها من القيادات العسكرية، وضاقوا ذرعاً بالحيلولة دون حصولهم على المعلومة، وقد عبّر مراسل مجلة نيويورك مايكل وولف عن هذا الاستياء في وجه الجنرال فينسيت بروكس، كبير المتحدثين الرسميين في القاعدة المركزية الأمريكية بمعسكر السيلية في قطر عندما كان يدلي بالإيجاز الصحفي اليومي في مقر القيادة المركزية قال وولف "لماذا نبقى هنا؟ ما الفائدة التي تعود علينا مما نتعلمه هنا في هذا المركز الإعلامي الذي كلّف ملايين الدولارات؟»

17 - **أنتهج سياسة مبنية على التجبر:** تميل وسائل الإعلام الى انتهاج سياسة التجبر والتفرعن انطلاقا من تجبر فرعون، واتضح ذلك خلال تغطية العديد من الاحداث واهمها أحداث الحادي عشر من سبتمبر فقد حاولت إدارة الرئيس بوش منع الإرهابيين من الوصول إلى الجمهور وذلك بحرمانهم من وسائل الإعلام، فقد طلبت الإدارة من شبكات التلفزة في الولايات المتحدة عدم بث تسجيلات الفيديو التي يطلقها أسامة بن لادن خوفاً من أن تكون تحمل رسائل مشفرة لخلايا إرهابية نائمة في الولايات المتحدة، مما جعل من وسائل الإعلام ان تعمل بما أراده بوش، فيما أطلقت العنان للإرهابيين والجماعات الأرهابية بالتغول في العراق وسوريا وليبيا واليمن، وجعلت تجبرها مبني على عرض وبث وبث كل المنتج العنفي المتوحش الذي تصدره هذه المجاميع الارهابية بين يدي المواطن من اين كان وفي أي زمان ومكان لخلق الرعب والخوف في نفوس الناس، في المقابل سعت الى تكبيل أفواه الصحفيين ومؤسساتهم عن قول الحق، وتكبيل عقولهم لمعرفة معاني الحق.

18 - **تخويف الرعية وسحقها، والتلاعب بعقول أفرادها:** تلبست فلسفة الحجب الإعلامي لبوس التخويف وسحق الارادة والتلاعب بالعقول، فقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من السياسية العامة لوسائل الإعلام متخذة من حربها على الإرهاب ذريعةً لتبرير ما تقوم به من إجراءات على كافة المستويات، وبخاصة

تلك الإجراءات المتعلقة بحجب المعلومة والتضليل السياسي والإعلامي، وقد أثارت الإجراءات التي اتخذها الرئيس بوش، وخاصة الأمر التنفيذي الذي أصدره في نوفمبر 2001م الذي سمح للإدارة والرؤساء السابقين بحجب الوثائق التي كانت بحوزتهم عن الرأي العام، الكثير من ردود الأفعال، وكانت إدارة بوش قد ذكرت حينها أن هذا الحجب يهدف إلى حماية خصوصية الرؤساء السابقين والجهات التي تعاملوا معها عندما كانوا في البيت الأبيض، لكن الشكوك ساورت الكثيرين من أن هذا الإجراء قد وُضع لحماية العديد من مسئولي البيت الأبيض الذين عملوا في إدارات الرؤساء ريجان وبوش الأب، ومنهم على وجه التحديد وزير الخارجية السابق كولن باول ونائب الرئيس ديك تشيني وكبير موظفي البيت الأبيض أندرو كارد ومدير الميزانية الأسبق ميتش دانيلز، ولكن من عمق التطور التقني فتحت التسريبات تلك الملفات الغاطسة في غياهب الادارات العالمية في مختلف الدول، وكانت تسريبات ويكليكس ووثائق بنما أحد أهم ملفات الكشف عن حماقات وسرقات حكومات مختلف الدول.

19 - التيه والعمى:خلال إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق إيزنهاور تحطمت طائرة تجسس أمريكية من نوع يو 2 U-2 داخل الأراضي السوفيتية، كان ذلك تحديداً في عام 1960م . وفي تبرير لما حدث ذكرت وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA نقلاً عن وكالة الطيران والفضاء (ناسا) أن طائرة مراقبة الطقس قد فقدت، ولما كانت ورارة الخارجية تفترض أن الطيار سيقوم بإتباع التعليمات في هذا الشأن وتفجير الطائرة وقتل نفسه إذا لزم الأمر حتى لا يقع في الأسر، فقد أكدت للصحفيين أنه لم تكن هناك محاولة متعمدة لخرق المجال الجوي السوفيتي، كانت هذه هي الرواية الأمريكية لحادثة طائرة التجسس، أما الاتحاد السوفيتي فقد أعلن أنه ألقى القبض على الطيار فرانسيس جاري باورز واعترف أنه كان في مهمة تجسس، فسياسة عدم الموضوعية كانت طريقة انتهجتها الإدارات الأمريكية المختلفة لخلق التيه والعمى في نفوس الناس وحجب الحقيقة عن الرأي العام في حالات كثيرة، إذ إن التراكم المعرفي في

هذا المجال يؤكد أن هناك من كان يروّج لذلك من المسئولين في جميع الحكومات الأمريكية عبر تاريخها، لكنها أصبحت مألوفة ومعلنة في عهد إدارة الرئيس كيندي، يؤكد ذلك آرثر سيلفيستر مساعد وزير الدفاع للشئون العامة في عهد الرئيس كنيدي وهو يتحدث عن "التلاعب بالأخبار" خلال أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962، إذ قال إن الحكومة لديها "الحق في أن تكذب" في أي وقت ترى أنها في موقف خطير، خاصة إذا ما كانت الحرب النووية ممكنة الحدوث، وهناك العشرات من الأمثلة للتيه والعمى والخداع والكذب التي اتبعتها القيادات السياسية والعسكرية الأمريكية خلال حرب فيتنام، وفي حقبة الحرب الباردة، وخلال التدخلات العسكرية للولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية، وصولا لحجب المعلومة وإخفائها في الحرب الأمريكية لغزو العراق واحتلاله.

20 - **الاحتكام إلى سلطان الهوى**: يظهر الاستبداد الشرقي على أنه الصورة الاشد قسوة للسلطة المطلقة، ويقول الدكتور نصر الدين لعياضي، بأن الإعلام اليوم يعاني من أزمة على مستوى العالم، وخاصة في الدول الهامشية، فالسطحية تتفوق على العمق في التغطية، والترفيه يطغى على المعالجات الجادة، والاتجاه نحو السياسة يغلب على المهمة الاولى للإعلام وهي الاخبار، إذ أن تقديم الخبر بلا اية إضافات تخل بحياديته وتؤدي به الى التحيز المقصود، مما يجعل وسائل الإعلام تمر بحالة من التضليل والتجهيل للناس على مستوى العالم، إذ أنه إعلام يضلل ولا يثقف، لذلك فأن وسائل الاعلام تعكس الواقع، واعتنقوا النظرية التي ترى بأنها تعيد بناءه، أي أن كل وسيلة تتحدث عن الواقع كما تراه، فما عادت وسائل الإعلام تعيد بناء الواقع، بل أنها تحرف أقوال الغير وتزوّرها عن وعي، وتركّب الصور من أجل التضليل مع سابق الإصرار والترصد، وتتلاعب بالأرقام والإحصاءات وتعبث بها و«تستحمر» الجمهور أو لا تعبأ به أصلا. ففي هذه الحالة تتحول إلى مصنع لإنتاج خطاب إخباري لإعلام جمهور متخيل عن واقع إفتراضي تعبّر عنه المحكيات التي أبتذلت من كثرة تكرارها، لكن ابتذالها تحول، مع الأسف، إلى قوة تدهس الخطاب العلمي

والتحليلي، والاحتكام الى سلطان الهوى، فالاستبداد يبني اقوى بلاط واضعف دولة، ومهما يكن الامر، فان "الاستبداد" و"الطغيان" يحملان المعنى نفسه، فـ"المستبد" او "الطاغية" لا يمثل نظاما سياسيا او نظاما للدولة إنما حكومة منحرفة السلوك تستمد مبرر وجودها من انتهاكها الفعلي للحقوق الاساسية التي حددتها الاعراف والقوانين الوضعية أو الدساتير ذات العلاقة، ففي الحكم الاستبدادي هناك واحد فقط يحكم بلا قانون ولا قاعدة مسيرا الجميع وفق رغباته وأهوائه ونزواته الخاملة، كما يرى مونتسكيو في "روح الشرائع" وهو ما اكده فولتير في "القاموس الفلسفي" عندما يعتبر ان ما يسمى بـ"الطاغية" هو "ذلك الحاكم أو العاهل الذي لا يعرف قانونا سوى أهوائه، والذي يغتصب خيرات رعيته ويستعملهم في الذهاب لأخذ خيرات جيرانه".[706]

السحر والسحرة

-السحرة: لا يخفى علينا أن فرعون قد سخّر السحر كوسيلة للإتباع والإخضاع لمنطقه الفاسد، بل قام هو وملئه بالترويج إلى ذلك، فقد شكّل لسحرة الذين كانوا أداة إعلامية وتأثيرية في يد فرعون في إرهاب الأتباع النفسي، حيث كانوا يسترهبونهم ويخيفونهم ويرعبونهم، بما يمارسونه فيهم من فنون السحر وصوره و ألوانه، فهل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد، ليرتقب فوز السّحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي! والجماهير دائما تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويلعبون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس، وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السّحرة وموسى عليه السلام؛وبالتالي حاز فرعون إضافة إلى القوة الاقتصادية والعسكرية-على جهاز إعلامي مرعب، مارس من خلاله السحر الإعلامي على الرعية المستضعفة قصد تخويفهم نفسيا، والتأثير عليهم، وإلهائهم؛ وإخضاعهم لسلطانه، إذ استغل فرعون هذه الوسيلة الإعلامية لتجسيد نظريته. حين يُذكَرُ سحَرة فرعون، فكثيرًا ما يكون ذكرُهم كمثال لأهل السوء الذين ينتفعون بالسلطان، ويدلّسون على الناس من أجل الدنيا، مثل السوء لهؤلاء نجدُهم في "ملأ

(706) د.حسين الهنداوي، استبداد شرقي أم استبداد في الشرق، م، س، ذ، ص13

فرعون»، فهم الذين احتالوا ودبّروا له في أول الأمر وفي آخره، وأمَدُّوه بالحِيَل والتدابير والرأي: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109]، فهم من اتهموا موسى بالسّحر أول الأمر، وأنه يريد الكيدَ للناس لإخراجهم من الأرض لا تبصرتهم بالحق، ثم كادوا له بجَلْب السحرة؛ بُغية إبطال الآية:﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ* قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[الأعراف: 110 - 112] ثم بعدما عجز السحرة:﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127] فهم من لم يُرِدْ لموسى الظهور على القوم، وبلوغَ دعوته إليهم أما ذِكر سحرة فرعون في القرآن فعِبرةٌ، ربما ليست محصورة في مشهد إعانتهم لفرعون وطلبهم للدنيا فلو كان هناك من يُدبر لفرعون، فأحسب الملأ أشد في مكرِهم بالمؤمنين، وإصرارهم على الباطل.

أما السحرةُ، فقد بيّن الله لنا كيف تحوّلوا، وكيف سلّموا وأسلَموا مع أنهم أهلُ الصَّنعة والسِّحر، ولو أنكروا وجحدوا الحقَّ، فربما كانت شهادتهم تُعين فرعون كشهادة الخبراء، فكيف سيكون الناس من بعد إقرار الخبراء بالسحر: أن ما أتى به موسى هو سحرٌ مثل سحرهم؟ فلأهل الخبرة تأثير على كثير من الناس وقناعاتهم، لكنهم سلّموا لله وأقَرّوا، برغم طغيان فرعون وتهديده، وإننا نرى مَشاهدَ يُبطِل الله فيها الباطلَ، ويبقى صاحبُه متبعًا لهواه، فلم يكن السحرةُ مثل هؤلاء الذين يُنطقهم الله بالحق وهم له كارهون، بل أقَرّوا به واطمأنت به قلوبهم، فكانوا بُرهانًا علمه لغيرهم إن شاء الله ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: 70]، والعبرة هاهنا عظيمة، إقرارٌ بالحق، وصمود أمام التهديد ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:71]، وزهد في الدنيا من بعد الاغترار بها ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 72، 73].

-**السحر الإعلامي**: يمكن أن نعرّف السحر الإعلامي على أنه: الأسلوب الذي يتم من خلاله إيهام الناس وخداعهم، باستعمال الحيل والخيال، بغرض التأثير على سمعهم وأبصارهم، وعقولهم، ونفسياتهم، إمّا تخويفًا لها، أو ترويحًا عنها، وقد يستعمل في السّحر الإعلامي شتى الوسائل الدنيئة من كذب، ومكر، وخداع، وغيرها، والتي من شأنها أن تقوم بتضليل الناس، وتجهيلهم، ويصبح السحر الإعلامي بذلك وسيلة من وسائل الحرب الإعلامية والنفسية، حيث يتم إنفاق لأجل تثبيتها أموالا طائلة ووقتا وجهدا، وهذا بغرض تسفيه الجماهير وتنويمهم، بل تعد من أهمها من حيث التأثير، وقبل أن نقوم بتفصيل أوجه استخدام هذه الوسيلة المؤثرة من طرف فرعون لا بأس أن نبيّن في هذا المقام معاني السّحر كما أوردها الفيروزآبادي:

الأول. الخداع، وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عمّا يفعله بخفة يد، وما يفعله النمّام بقول مزخرف عائق للاستماع.

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرّب إليه، كقوله تعالى: **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝** .

الثالث: ما يذهب إليه الأغتام وهو اسم لفعل يزعمون أنّه من قوّته يغيّر الصّور والطبائع، فيجعل الإنسان حمارا، وحقيقة لذلك عند المحصّلين، وقد تصوّر من السّحر تارة حسنه، فقيل: إنّ من البيان لسحرا، وتارة دقه وفعله، حتى قالت الأطبّاء: الطبيعة ساحرة. وسمّوا الغذاء سحرا من حيث إنّه يدقّ ويلطف تأثيره، قال تعالى. **لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝**، أي مصروفون عن معرفتنا بالسّحر.

-وكل هذه المعاني المذكورة للسحر إلّا ولها تأثير على الناس سواء نفسي، أو عقلي، أو روحي، وفي بعض الأحيان تمتد تأثيراتها لتمس الأبدان، ويحمل السّحر من الأسرار ما يبهر العقول والألباب، لما فيه من إيهام وخيال، وشيء العجاب، وللسّحر قدرة تجعل القليل من الناس تمتهنه، لأنّه مخصوص ببعض الميزات لا يمكن إيجادها عند عامة الناس وجاء السّحر في القرآن على سبعة أوجه:

الأول: بمعنى العالم والساحر بمعنى العالم الحاذق "**وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ**" ۝ أي أيها العالم.

الثاني: بمعنى الزور والكذب "وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ" أي كذب وزور، "وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ" أي كذب قوي تام.

الثالث: بمعنى ربط العيون "سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ".

الرابع: بمعنى الجنون، والمسحور المجنون، "إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا"، "إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا"، أي مجنونا.

الخامس: بمعنى الصرف عن الحق "قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ"، أي تصرفون.

السادس: بمعنى الإحواج إلى الطعام والشراب "إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ".

السابع: بمعنى آخر الليل ومقدمة الصبح: "نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ"، "وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ"، "وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ".

- إن ما يميّز هذه الوسيلة التضليلية (السحر الإعلامي) عن غيرها من وسائل التضليل والتجهيل التي استخدمها فرعون، أنّه أعطاها الأهمية البالغة، ودعا الناس إلى تعلّمها بالإكراه كما رأينا من قبل، وبرزت في نفس الوقت حاجته الملحة لها، لمواجهة الآيات التي جاء بها موسى من ربّه ، ظانا في نفسه أن لها القدرة على ذلك، والوقوف الند للند أمامها، ويمكن لنا أن نرصد وجهان للسّحر الإعلامي الذي مارسه فرعون وأتباعه لغرض إضلال القوم وإيهامهم وخداعهم، وهي:

-**السّحر الإعلامي الكلامي**: للكلام سِحر مميّز، فقد يستطيع المرء من خلاله أن يوهم الناس بأنه قادر على فعل المستحيل، بالرغم من استحالة ذلك، وهذا إنّما هو اصطناع منه، وكذب وافتراء، وقد يقع الناس ضحية سّحره الكلامي، وذلك بإيهامه وخداعه لهم، وقد يتفنّن مثل هؤلاء الأشخاص في رسم الكلمات وتزيينها، وكذلك يختارون باحترافية بالغة الأوقات، والأماكن، والمواقف، لتجسيد مشاهد سّحرهم الكلامي، فقد أراد فرعون بيان قدرته وجبروته ومَكرِهِ، وتثبيت دعائم ملكه أمام الملأ، فجمع عُتاة سحرته من شتى الأقطار لعله يَنتصر في المعركة الفاصلة على سيدنا موسى عليه السلام، ولا شكّ أن السحَرةَ أتوا بسحرٍ عظيم سرَقَ ألبابَ الجماهير، وكاد يَحسم المعركة لصالح فرعون لولا تدخُّل القدرة الإلهية التي ألغتْ هذا الدجل والمكر لدى فرعون وسحرته.

اما الطغاةُ على مدى العصور يتفنَّنون ويَعملون ليل نهار على تحديد بوصلة الجماهير إلى حيث يُريدون، والأنبياء والمصلحون أيضًا يعملون على مدى التاريخ على توجيه هذه البوصلة إلى وجهتها الصحيحة، إلى خالق الكون، إلى الله، إلى عبادته والخضوع لملكوته سبحانه وإرادته، فقط هم الدهماء الرِّعاع، وخفيفو العقول، وقليلو العلم، وعُبَّاد الدنيا والشهوات، ومعدومو الفطرة؛ مَن تسحرهم أسلحة فرعون، أما العقلاء النجباء أصحاب الفكر والألباب فتَزيدُهم إيمانًا وتعلقًا بالله سبحانه، التاريخ يعيد نفسه على مدى الأجيال المتتالية، فتجد أن فرعون يتكرَّر، وأدواته أيضًا تتكرَّر ولكن بطرق مختلفة، الهدف واحد ولكنَّ الأساليب تختلف من عصر إلى عصر، ألم يكن أولى بهم أن يموتوا ميتة فرعون، الذي هرع جبريل لحشو فمه بالطين كي لا يعطيه فرصة للتوبة يوم هلاكه؟

- السحر تخييل وإيهام: الفرعونية الممتزجة بالسحر، ظهرت قوى السحر وتأثيراتها، وبدأ المصري ينتفع من وجودها بنحو ما، لا سيما الملوك - والنّاس على دين ملوكها - ووجدت طبقة من الكهنة تحققت لها أرباح من خلال العالم السحري هذا، كما انّ الانتقال نحو هذا العالم الباطني الغريب تم تدريجيا وببطئ، واختلطت فيه الأحداث بمرور الزمن، وعلى مراحل، لاحقاً تمّ سرقة العناوين الآدمية - التي سارت ضمن الديانات الإبراهيمية كما هي - من قبل الفكر الفرعوني الجديد، وتمّ افراغ العنوان من محتواه وملأه بشخصيات شيطانية بحتة، يمكن التعرّف عليها من خلال المكتشفات الآثارية المصرية، وكذلك من خلال الجماعات السرية المنتسبة لدين الفرعوني في العصر الحديث، إذ إنّ هذه الشواهد وغيرها تؤكد أنّ فرعون تعامل مع قومه بقدر إتباعهم لسفاهته، فأوهمهم بسحر الكلام على أنّه قادر على القيام بأمور يستحيل لأحد من بني البشر أن يقوم بها إلّا بقدرة الله وسلطانه كحال الآيات التي جاء بها موسى -عليه السلام- ولخفة عقولهم اتبعوا سحر كلامه، ولا عجب أن يقول لهم: مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ، فمن شأن السّاحر أن يستعرض قوة سحره لكي يوهم عقول الناس، و يبهرهم بعرضه، فكانت هذه المقولة أكبر خدعة سحرية كلامية أوهم بها قومه، و أشدّها تأثيرا فيهم، لأنها لخصت سحره الإعلامي الكلامي في جملة واحدة، وكيف له أن يريهم ما يرى و يهديهم إلى سبيل الرشاد، ولم يروهم كذلك معه من الحق شيئا!؟

-**السَحر الإعلامي المشهدي**: تعدّ المشاهد السحرية من بين أقوى الوسائل إيهاما وخداعا للجماهير، فهي تحمل في تضميناتها قوة إعلامية خفية يسعى من خلالها السَاحر إيهام عقول الناس والتحكم بها بطريقة لا إرادية، فمن المعلوم أنّ الإنسان يبحث على الأشياء غير المألوفة، لأنّه يجد فيها ملاذا للترويح عن النفس والتلذذ بها سماعًا وإبصارًا، خاصة فيما يدخل ضمن ما هو خيال، وفي هذا المعنى يمكن اعتبار السَحر تمويه، وتخيل الشيء بخلاف حقيقته مع إرادة تجوزه على من يقصده به، وسواء كان ذلك في سرعة أو بطء ، وقد يتعدى تأثير المشاهد السحرية، كونها عروضًا ترفيهية وترويحية، لتصبح في كثير من الأحيان مشاهدًا ترهيبية وتخويفية، باستعمال حيل و خدع وتخييلات مخيفة ومرعبة، من شأنها جعل العرض أكثر تشويقًا وإثارة، ويمكن للمتلقين في هذا الموضع أن ينبهروا بالمشاهد التي تقدّم أمامهم، وقد يصل هذا الانبهار حد التصديق، وإن وقع ذلك معناه أن عقولهم انجرفت وراء الحيل والخيال المقدّم أمامهم، وإذا وقع هذا الانخداع في هذا الموضع، يقع معه الانقياد والانسياق، ويصبح بذلك السحر الإعلامي المشهدي أكثر خطورة وتأثيرًا على الجماهير، وأداة أخرى من أدوات التخدير والتنويم.

ويمكن القول أنّ هذا الشاهد هو أبلغ الشواهد عن حرص فرعون واستدراجه الإعلامي لإعطاء أهمية بالغة للسحر الإعلامي المشهدي، فهاهو ذا يقوم بإرسال الحاشرين لجمع أمهر السحرة، وبعدها يقوم بدعوة الناس لحضور العرض والمواجهة، وبعدها يُبَيّنُ هؤلاء الناس بغلبة السحرة وإتباعهم، أرهبوهم وأفزعوهم، (وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ)، وأنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا، وفي القصة أن الأرض كانت ميلا في ميل فصارت حيات وأفاعي في أعين الناس، وصرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل، وهذا هو السحر.

– **السحر هو التخاييل**: أي التخدير والتنويم الذي جاء به السحرة، ويكشف لهم أنّ ما أتوا به مجرد خداع بصري وخيال، كانوا واقعين في مصيدة بطلانه وخذلانه، وقد يعتقد البعض -تساهلا- ان السحر لا يعدو الممارسات والصور الخادعة لاعين واذهان الناس. لكن هذا ليس هو الواقع بكل تأكيد، ان الوقائع والحوادث التي

تسبب بها الممارسون للسحر على الارض تدحض كل الدعاوى الفقيرة لمن يعيشون ما تزقه عليهم دعوى التحضر والعصرنة، أما الاديان فقد اثبتت وجوده بشكل تأكيد دون استثناء. في اطار انتقاده واظهار مساوئ اللجوء اليه. وكذلك شرحت الشرائع سبل مقاومة آثاره.

- **السحر هو تمويه وخداع.** ومن خلال هذه الشواهد نلاحظ قوة تأثير هذا النوع من السحر على الناس الذين حضروا المواجهة التي أقيمت بين السحرة وموسى، ودرجة الخوف والرهبة التي خلّفها في أنفسهم، وإذا عدنا إلى السبب الحقيقي لذلك، نجد أنهم قد تلاعبوا بعقولهم وأوهموهم بالتخييلات، والخدع البصرية، قصد تضليلهم وصرفهم عن دعوة موسى للحق، ويمكننا أن نتصوّر في تلك اللّحظة بالذات سعادة فرعون بالموقف، ومراقبته لتلك الدهشة التي اعترت وجوههم، والتي نغصها عليه موسى بإلقائه العصا، التي انقلبت حيّة تسعى تلقف ما كانوا يصنعون، والأمر الغريب أن السحر الإعلامي قد شهد امتدادا رهيبا من الزمن الفرعوني عبر الأزمان، وبالتحديد في زماننا هذا الذي احتدمت فيه الحرب الإعلامية، وأصبحت أكثر ضراوة وشراسة، خاصة مع التطور التكنولوجي والتقني الذي شهده العالم مؤخرا، خاصة في ميادين الإعلام والاتصال، حيث غزا السحر الإعلامي بوجهيه الكلامي والمشهدي هذه الميادين، وهذا بغرض تضليل الناس وسحر أبصارهم، خاصة مع تطور السينما، والإعلان، وغيرها من الصيغ الإعلامية الأخرى التي سعى أصحابها لنشر التخاييل والأكاذيب بين الجماهير الغافلة، فصرنا نشاهد ونسمع بقدرات خيالية لا مثيل لها، ومخلوقات لا وجود لها، وحماة للأرض مزيفين يتمتعون بقدرات خارقة، سعى صناعها من خلالها إلى ترهيب الجماهير وإخافتهم، والتلاعب بعقولهم.

وتُرْجِمَ السحر الإعلامي في كثير من الأحيان إلى تعبير التشويق والإثارة، واللّهو والتسلية، وفي الحقيقة ما هو إلّا وسيلة لغسل الأدمغة وتنويمها وتخديرها، وبث الخوف والرهبة في أوساط الجماهير الضالة بأهوائها، وتلك هي علامة أخرى من علامات الانقياد والانصياع، ولا يَعْدُ ذلك إلّا خيالا وأوهاما، فأصبح الناس بمختلف أعمارهم ومشاربهم ومللهم محاصرون بحملة هوجاء مبنية على قاعدة من

الخيال والأوهام، ولو عدنا للأسباب الحقيقية التي جعلت الكثير يهتمّون بتوطيد السحر الإعلامي، ونفث تعويذاته بين الجماهير، نجد أن منبعها هو الإلهام الفرعوني، المبني على تضليل الناس وتجهيلهم، ولو أننا نرى أن ممارسة السحر الإعلامي أخذت الآن أشكالا مختلفة، وأساليب متنوعة، ولكن تضميناتها كانت من تضمينات النظرية الفرعونية، ويمكن حصر هذه التضمينات المشتركة في النقاط التالية:

1 - إعطاء أهمية بالغة للسحر الإعلامي بتسخير المال، والوقت، والجهد لاصطناعه بمهارة فائقة، وقدرة عالية.

2 - بسط القوة والغلبة والنفوذ باستعمال التخييلات والأوهام، وذلك بتسخير أمهر السحرة والمخادعين، بغرض السيطرة على عقول الناس، وتضليلها، وتخويفها.

3 - تصوّر عدو قادم من السماء، يجب مواجهته، واستعراض القوة ضده، وإيهام الناس بالوقوف أمامه ومواجهته، والوقوف ضده بمنطق الخيال والمكر والخداع.

4 - لعب دور الحامي، والمنقذ من التهديدات الخارجية وخلق عدو من نسج الخيال ومحاولة تخليص الناس منه.

5 - سحر أعين الناس واسترهابهم، وتخويفهم، واصطناع قوة خيالية مرعبة من شأنها استعراض العضلات، وإخافة الجماهير، والتأثير على نفسياتهم وعقولهم.

6 - ترسيخ مبدأ السيادة على السحر الإعلامي، وتعلّمه، وإتقانه، واحترافه، ودعوة الناس إلى حضور مشاهده وعروضه.

-**العنف الكلامي**: المثير للانتباه في منطق فرعون استخدامه إلى جانب العنف والقهر الجسدي، العنف الكلامي الذي سعى من خلاله إلى تخويف وترهيب الرعية، حيث كان كل مرّة يشدد لهجة التهديد والوعيد، فصارت معظم خطاباته مليئة بصبغ العنف والإرهاب الكلامي، حيث يعد هو الآخر وسيلة تضليل وتجهيل وتسفيه للناس، والتلاعب بعقولهم، وقد ينجم العنف الكلامي في أغلب الأحيان عن حالة هستيرية قد تصيب الشخص تكون ناجمة عن الغضب الذي يعتريه، أو عن شعور ينتابه جراء فقدان الثقة في نفسه وخوفه، أو عن سوء ملكة أو مزاج، وفي كثير من الأحيان قد يكون ناجما عن استكبار واستبداد، ويبقى القاسم المشترك

الأكبر بين تضمينات السحر الإعلامي الفرعوني القديم والحديث هو انخداع الناس بهما، وانسياقهم وراء التحييلات والأوهام الكلامية والمشهدية المعروضة أمامهم، وبالرغم من أن التمويه والتزييف هما عنوان هذه التضمينات إلّا أنّ الاستفهام يبقى مطروحا على تلك السطوة السحرية الرهيبة على الجماهير، وانقيادهم وراء المخادعين والموهمين، حتى انعكست صور الخيال والوهم على ملبسهم ومشربهم وأقوالهم، وحتى سلوكاتهم ومواقفهم.

ويمكننا القول أن العنف الكلامي: هو أسلوب استفزازي مليء بصيغ الترهيب والتخويف، ذو لهجة حادة، يتخلّله سوء كلام وتهديد وتعنيف، وسخرية واستهزاء وتهكم، ويتّسم بالقسوة المؤدية إلى فظاظة اللّسان وتسلّطه، ويسبق العنف الكلامي في كثير من الأحيان العنف الجسدي، وقد يقع في أحيان أخرى دون أن يقع العنف الجسدي، وذلك لغرض بث الخوف في النفوس وجعلها خاضعة منسقة، ومن جهة أخرى قد يؤدي العنف الكلامي إلى فقدان ثقة الناس واحترامهم، والغريب في أمر قوم فرعون أنّ بالرغم من فظاظة كلامه وقسوة قلبه، لم ينفضوا من حوله، وهذا دليل آخر على موافقتهم لأقواله وأفعاله، فكان كلامهم من كلامه، قاسيا مثل قسوة أفعالهم وأفعاله، وبالتالي استوطن العنف الكلامي عقول رعيته كما استوطنها عتوه واستبداده، فكأنّ فرعون قد سيطر عليهم تماما، فلم يكفهم إتباع رأيه وأمره، فاتبعوه حتى في كلامه الذي نلمس فيه هو الآخر نوعا من الغلظة، والقسوة، والدعوة إلى القهر والعدوان.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم، شواهد عديدة عن الإرهاب الكلامي الذي مارسه فرعون لإخافة موسى ومن معه من جهة، ومحاولة إيهام رعيته بشدّته وغلظته، وحتى في قسوة كلامه نستشعر نوع من الاحتقار والاستهتار، وشكلا آخر من أشكال الاستكبار، وهذه صفة المستكبرين على مر الأزمان، يمارسون نوعا من الترويع النفسي على الجماهير وذلك بالتلفظ بكلام عنيف قاسي، يكون أثره بليغا عليهم، ويمكن لهذا الترويع أن يصير تقليدا متعارفا بينهم، فيتوارثون عنف الكلام وقسوته، كدأب فرعون وقومه الذي أصبح كلامه العنيف رمزا من رموز النظرية الفرعونية، من الضروري الإقتداء به، كل هذه الأقوال وغيرها، تحمل

في مضامينها حقد دفين، وغيظ مشين، انعكس بشكل جلي على ألفاظه وكلماته، فجاءت كلها عنيفة كعنف بطشه وقهره، ومما لا شك فيه أنّ القرآن الكريم قد سجّل أقوال هذا المستبد لكي تكون شاهدا قويا على حكمه الجائر، ولسانه السليط الفاجر، الذي سخّره هو الآخر لنشر الخوف والترهيب بين الرعية، وكذلك لإشاعة الغوغائية والخطاب غير المهذب والأحقاد العنصرية والتعصب العرقي.

ويمكننا أن نتصور التأثير الكبير الذي تركه العنف الكلامي في نفوس الناس، واتخاذه كوسيلة قوية لاسترهابهم وإسكات أصواتهم، وقد استغل فرعون جهل الجماهير الغافلة من حوله لينشئ حول عقولهم حيزا من الفراغ والجهل يعزلهم عن الحق، وهكذا ليصل بهم إلى أحط مستوى باستخدامه غلظة الكلام حتى يؤمّن لنفسه السلطة والغلبة، وبالمقابل نستشعر من خلال أقواله ملامح الخوف والرهبة التي اعترت نفسه، والتي انقلبت إلى غضب مضمر صبه على موسى ومن معه، ويعد بذلك العنف الكلامي أحد صور التواصل المعرقل للحوار البنّاء ويكون مليء باللوم والإهانات والتحقير وإطلاق الصفات والانتقاد والمقارنات والتشخيصات[707]، وغيرها من صور الكلام العنيف والمتدني، وقد يمثل هذا النوع من الكلام مرآة عاكسة لصاحبه، فيكون إمّا جاهلًا مستكبرًا، أو حاقدًا متجهمًا، وفي كلتا الحالتين يعتبر الكلام العنيف مجسّد للسلوك غير الراقي في الحوار، فيصير وبالًا عليه وعلى غيره، وفي كثير من الأحيان يجد الشخص العاقل الرصين نفسه أمام عوائق جسيمة لإيصال رسالته للطرف الآخر الذي تملأ خطاباته وأقواله لغة العنف، كما هو الشأن مع موسى - عليه السلام الذي وجد صعوبة كبيرة في الحوار مع فرعون وقومه، الذين جنت عليهم أفعالهم وأقوالهم جميعا بالهلاك والخسران المبين.

إنّ هذه الوسائل التضليلية والتجهيلية كلّها مجتمعة، شكّلت عصب النظرية الفرعونية وشرايينها، وكلّها تحمل معاني التنويم والتخدير بغرض إبقاء الرعية منساقة دوما وراء أهواء فرعون وضلالته، حيث عاش القوم في كنف الغفلة والجحود، كما أنّه لم يتوان في استغلال هذه الوسائل لشن حرب إعلامية ونفسية

(707) ينظر: مارشال بي.روزنبرج «التواصل غير العنيف لغة الحياة»، مكتبة جرير، المملكة العربية السعودية، ص15

شرسة ضد موسى ورسالة الحق التي جاء بها من ربه، وعمل المستحيل للوقوف ضدها ومواجهتها بدلاً من تقبّلها واتباعها، وكان منه أنه سلك سبل الضلال، وتكريس حبائل المكر والعدوان، وقد حرص كل الحرص على ترسيخ هذه الوسائل في أذهان الناس، لكي يظلّوا بضلاله، منقادين منساقين وراء سفاهته وجهله، حيث استطاع أن يؤثر فيهم ويغفلهم عن الحق، وسخّر بالمقابل أتباعه المستكبرين للتكثيف منها ونشرها بينهم، والشيء الأكيد هو ذلك الولاء الزائد الذي تعاظم في نفوس قومه إلى درجة أنّ تلك الوسائل التضليلية أدّت غرضها بشكل لافت للانتباه، والملفت للانتباه الامتداد التاريخي للفرعونية، واستعمال لمثل هذه الوسائل للسيطرة على عقول الناس والتلاعب بها، بل شهدت انتشارا رهيبا، وسُخِّر لأجلها الوقت والجهد والمال، وأصبحت الجماهير فريسة سهلة للمصائد والمكائد، حتى انعكست صور التضليل والتجهيل عليهم، وأضحى الجميع في سكرة عمياء، وظلمة دهماء، لا يعرف صوابها من خطأها، ولا ليلها من نهارها.

والعجب كل العجب أن مظاهر الاستبداد والاعتساف، أخذت منحًا آخرًا غير الذي عان منه بنو البشر في عهود سابقة من صور الإرهاب والعنف والقهر الجسدي، وصار الاستبداد تضليليا وتجهيليا بالدرجة الأولى مثلما كان الحال مع قوم فرعون، وفي نظرنا أنّ هذا النوع من الاستبداد هو أشدّ تأثيرًا من النوع الذي يستعمل القوة، لأنّ سكرة التخدير والتنويم باستعمال وسائل التضليل والتجهيل المذكورة، تشبه في نشوتها وتأثيرها، نشوة وتأثير سكرة كأس المُدام المفضية لكل الخبائث، بل هي أشد وطئًا منها، لما ينجم عنها من وبال كبير على عامة الناس، ويكون تأثير هذه الوسائل أشد عندما يتم استغلالها لتمرير بعض الأفكار والتوجهات التي لا يلقى لها بال، فيتعاظم تأثيرها على الجماهير عبر مر الأيام والأزمان، خاصة إذا كانت تبعاتها شاملة لكافة الميادين خاصة الاجتماعية منها، ومن الضروري أن نشير إلى أن وسائل التضليل والتجهيل قد كثرت وذاع صيتها بين الجماهير، حيث أصبحت عابرة للحدود، وتحيط بهم من كل حدب وصوب، خاصة مع التطور التقني والتكنولوجي الذي شهده العالم مؤخرا، وعدوى تلك الوسائل التي لم تترك شخصا إلّا وأصابته، حيث أنّ الزمن الفرعوني قد أعاد نفسه، وأصبح كل من الكذب، والسخرية، والعنف

الكلامي، والسحر الإعلامي، ومجالس الجدل، يروّج لها عبر الأجهزة المسخّرة لهذا الغرض، وبالتالي حقّقت لعنة النظرية الفرعونية الممتدة عبر الزمن مبتغاها، الهادف إلى إغفال الناس عن الحق وتجهيلهم، وتضليلهم بشكل جنوني، تُفقد معه العقول والأنفس والأرواح، وحتى القيم السامية والأخلاق الراقية.

وفي أسطورة (عقارب إيزيس) يبدو التركيز على القدرات الشفائية للآلهة، وهي تلامس الوجدان الشعبي، وتحاول ربط الناس بالآلهة، عبر افهامهم ضرورة الاستجابة لها والاحسان اليها، ومن ثمَّ الاستفادة من قدراتها وتمائمها الخاصة، وقد ارتبطت الرسومات السحرية بديانة الشمس كثيراً كما الاثار المكتشفة، وبالتأكيد لم تكن هذه الديانة ترى في الشمس - بذاتها - إلهاً، لكنّ رمزية الشمس ربما كان لها دلالة اخرى تحتاج الى بحث، لأنّ المعتقدات المصرية كانت معقدة ولم تكن بدائية، حيث انّ ربط الأدوات والوسائل السحرية كان بربّ الشمس لا بالشمس ذاتها كما يبدو، اذ انه في رحلته يتعرّض لمخاطر متجددة يومياً، والامر الذي يثير التساؤل أيضاً هو ربط السحر في مصر القديمة بالربات الإناث، بصورة اكبر من الأرباب الذكور، كما هي الآلهات (إيزيس - نفتيس) والالهات (سخمت - حقات - سرقت - نيت)، ومع ذلك ارى انّ الترجمة التي اعتمدها الباحثون الغربيون - بفهمهم الذي يعاني إشكالاً فلسفيا - هي السبب في هذا التصوير، ففي حين كانت إيزيس ونفتيس آلهة بالمعنى الفلسفي المصري، لم تكن الآلهات (سخمت - حقات - سرقت - نيت) سوى قوى ووسائل او ظواهر فيزيائية حملت اللفظ المؤنث، وربما كانت (نيت) أيضاً لها أصل فلسفي كإيزيس، ووفق قوله تعالى:(**قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**)، وكما نلاحظ فالآية قسمت السحر الى انواع ومراتب ثلاث وهي ذات المراتب التي اشار اليها الشهيد محمد محمد صادق الصدر في كتابه ما وراء الفقه :

1 - سحر الاعين: الخداع البصري.

2 - الاسترهاب: صناعة الخوف والتخويف.

3 - السحر العظيم: تحكم فيزيائي بالكون.

الوسائل التي اعتمدها موسى(ع) لمواجهة النظرية الفرعونية:

بعد تتبعنا لأهم ما حملته النظرية الفرعونية من معاني الإستبداد والإستكبار، والتأثير الكبير الذي خلّفته في أوساط قوم فرعون، من خوف ورعب واستخفاف وتضليل وتجهيل، لا بد لنا الإشارة في هذا المقام إلى الطرق والوسائل التي اعتمدها موسى – عليه السلام- لمواجهة هذا التأثير المخيف لهذه النظرية، وتختلف بعثة موسى عليه السلام عن بعثة من سبقه ومن تلاه من رسل، كون أنّ الرسل كلّهم أجمعين بُعثوا إلى أقوامهم، في حين كانت بعثة موسى خصيصا إلى فرعون الذي استحوذ على قومه واستغلب على أمرهم، واستخدم منطق العنف والاستبداد، وبالمقابل أوصى الله عز وجل موسى وأخاه هارون-عليهما لسلام- بمخاطبة هذا المستبد بقوله تعالى: **ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝**، قال الرازي: أما قوله تعالى (**فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا**) ففيه سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد (الجواب) لوجهين (الأول) أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين (الثاني) أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادو عتوا وتكبرا، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق.

السؤال الثاني: كيف كان ذلك اللين (جواب) ذكروا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال (**هل لك إلا أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى**) وذكر أيضا في هذه السورة بعض ذلك فقال(**فأتياه فقولا إنا رسولا ربك**) إلى قوله(**والسلام على من اتبع الهدى**) (وثانيها) أن تعداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته (وثالثها) كناه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغني أن فرعون عمّر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام إن أطعتني عمرت مثل ما عمرت فإذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة (أما الأول) فقيل لو حصلت له هذه الأمور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى وذلك لا يصح مع التكليف

(وأما الثاني) فلأن خطابه بالسكينة أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله (**فقولا له قولا لينا**).

- **التعمية والتلبيس، والإضلال والتدليس**، وهذا مذهب خبيث خسيس، كثيرًا ما يفلح مع الهمج الرعاع، أتباع كل ناعق، الذين لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، إن مما يزيد من خطورة مفهوم الحجب الإعلامي التي تقوم بها الحكومة، أو وسائل الإعلام، أو كلاهما معاً هو حقيقة أن الرأي العام العالمي أصبح معتمداً على وسائل الإعلام في الحصول على المعلومة، وبخاصة في أوقات الحروب والأزمات، وتشير الإحصاءات إلى الزيادة الكبيرة في الاعتماد على هذه الوسائل. ففي الولايات المتحدة نفسها هناك تسعة من عشرة أمريكيين بالغين يقرأون صحيفة يومية بانتظام، وأجهزة الراديو متوفرة في 98٪ من البيوت الأمريكية، وأجهزة التلفاز في 93٪ منها وهناك ما بين 60٪ إلى 70٪ من الأمريكيين البالغين يقرأون مجلة واحدة على الأقل بطريقة منتظمة، وتشير الدراسات الحديثة إلى أن الوقت الذي يمضيه المواطن الأمريكي مع وسائل الإعلام يقدر بحوالي 3265 ساعة سنوياً، وهو ما يعادل9ساعات يومياً، 70٪ منها مخصص لمشاهدة القنوات التلفزيونية. وعلينا -في ضوء مثل هذه الأرقام- أن ندرك حجم الأثر الذي يمكن أن تحدثه وسائل الإعلام الأمريكية على الرأي العام الأمريكي إذا كان ما تقدمه من معلومات تتعلق بحرب الولايات الأمريكية على العراق يمر عبر القنوات الحكومية التي تقوم بإعادة صياغتها وتمريرها للرأي العام بما يتناقض مع حقيقتها في الواقع، إذ كانت الحرب الأمريكية على العراق ميداناً تطبيقياً مارست فيه الحكومة ووسائل الإعلام فلسفة الحجب المعلوماتي، وما يأتي من حديث هو شواهد لهذه الفلسفة على المستوى الحكومي، والإعلامي، تجاه الرأي العام داخل الولايات المتحدة وخارجها.

وقفات الفرعونية ووقفات الطغاة والمستبدين

قال الله - عز وجل -: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ (غافر: 29) هذه الآية الكريمة التي يحفظها الجميع لأنها كلام الله عز وجل عن قول فرعون في خطابه لقومه، وهو يتلبس فيه لباس المخلص لهم، الساعي لمصلحتهم، الحريص على ما ينفعهم، والذي يبتغي هدايتهم، ويعمل على

نصرتهم، ولذلك ادعى أنه لم يقل هذا القول؛ إلا لأنه يراه صوابًا، ويعتقده نافعًا، وهاديًا إلى الرشاد، وهذا القول أو الشعار في الحقيقة، قد جمع جملة من الأمور المتناقضة، والمتصادمة، ما يجعلك تحار معها، وتتسأل هل تسميها طوامًا وأوابد، أم غرائب وعجائب؟! ولذلك أردنا فأن سرد التفسير المعرفي والعقائدي هذه الآية الكريمة:(708)

-الوقفة الأولى:أن هذا الشعار وهذه المقولة التي تنضح بالفكر القمعي، والمتسلط المستبد، والتي تنبعث منها رائحة الأنا العاشمة، والدكتاتورية البائسة، ويحفها الكبر والغرور، ويلفها العنف والنفور، هي سياسة يتبناها دومًا الطغاة، ويمتطي صهوتها الجبابرة العتاة، وهم معجبون بوسمها ورسمها كيفما كان! ويلقنوها لأبنائهم السذج، وتلامذتهم الهمج، ممن هم على شاكلتهم، ومن أغرب ما رأيت في هذا الباب ووقفت عليه، مما وصل به الحال بهؤلاء -وهو كثير كما لا يخفى- ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين، قال: خطب عدي بن زياد الإيادي فقال: أقول كما قال العبد الصالح: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، فقالوا له: ليس هذا من قول عبد صالح، إنما هو من قول فرعون، فقال:«من قاله فقد أحسن» فانظر إلى أي مدى بلغ الوضع بهم، لتزداد عجبًا وتعجبًا، ثم تأمل كيف يجمع الطغاة إلى باطلهم، وقهرهم وقمعهم، جهلهم بكتاب الله -عز وجل! ولذلك فإن هذه السياسة القمعية والمتسلطة هدفها - في الدرجة الأولى- دغدغة مشاعر الجماهير، بصورة عجيبة، تجمع إلى ذلك سخرية لاذعة، محفوفة بجهل وتجهيل خطيرين، وهي إلى ذلك تخفي في باطنها الهدف الحقيقي وهو: أنها تسعى لمنع كل فكر وإبداع، يخالف ما هي عليه من الباطل، فلا صرير فيها لقلم حر، ولا لصوت يحمل الحق، ولا لهتاف نزيه، بل للأقلام الهابطة، والأصوات الفاجرة، والقيم المتدنية، وكل ما من شأنه أن يلهج بذكرها، ويسبح بحمدها، ليلًا ونهارًا، وسرًا وعلانًا، وهي سياسة لا تملك تجاهها - حقًا- إلا أن تقول: ما قاله موسى -عليه السلام-: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر:27).

---

(708) بكر البعداني، فرعونية وقفت مع سياسة:﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ رابط الموضوع: http www.alukah.net/culture 0/75673/#ixzz4etFPV4H9

- **الوقفة الثانية:** أن هذه المقولة ترفض النظر إلى الأمور، وما تحمله في صياتها من نظرة جادة أو هادفة، بل هي ترسم فكرًا مخيفًا - سطحيًا - تجاه المخالف، ومع هذا فلا تتوانى أن تسمه بميسم من نار، وتشعل له الحرائق، وتنصب له المشانق، على طول هذا الطريق، وقد جعلت - هذه السياسة - الكثيرين طوال التاريخ البشري يعانون من تجاهلهم وقمعهم، واجتياح بلادهم، واستحلال دمائهم ونسائهم، كل هذا من أجل الحجر على العقول والآراء، وتكميم الأفواه؛ حتى لا تنطق بالحق والهدى.

- **الوقفة الثالثة:** أن هذه المقولة أسست وأرست القواعد، ودونت الأصول، ووضعت الضوابط والأطر العامة، والتي شكلت - بمجموعها - الأسس للطرق التي تسير فيها خطابات الغطرسة والجبروت والظلم، ولما بات يعرف اليوم: بوجهة نظر سيكولوجية أحادية الرؤية، وهي تسير وفق خط بياني يبدأ منها وينطلق؛ ليصور ويرسم بعد ذلك صراع الخير والشر، والتي تكاد تكون واحدة، ونجد لها شبيهات وأخوات وإن اختلفت الشخصيات، أو اتخذت منحى مختلفًا بين الحين والآخر في شيء من تفاصيلها، لكنها جميعًا تصب في قصة صراع الحرية مع الطغيان، فهو في الحقيقة - أعني: فرعون الكافر - قد سن سنة سيئة - شعر أو لم يشعر، وقصد أو لم يقصد - فله وزرها، وهو حامل - بإذن الله - وزر كل من عمل بها إلى يوم القيامة.

- **الوقفة الرابعة:** أنها - وفي نظري على الأقل - شكلت أول ظهور لنظرية فلسفية، باتت تعرف في ما بعد بالنظرية الفرعونية، وتمكنت هذه النظرية إلى حد ما من تشكيل ماهية رؤية الظالم الدكتاتوري، المتلبس بلباس النصح! وبيان وإلى حد ما - أيضًا - طرق نظريات القمع في تشكيلها، وفي أدائها لقمعها، وكيف يلبسها أهلها ثياب الرشاد والرشد؛ لتكون موازرة لما يراه؛ ولتشكل عند ذلك وبعده واقعًا افتراضيًا مهمًّا، ينطلقون عنه، ويريدون منه أن يكون متكئًا إلى واقع حقيقي، في نفس الوقت، لكن هيهات.

- **الوقفة الخامسة** أن هذه النظرية الإبليسية والسياسة، الفرعونية تطمع وتطمح وتهدف - معًا وفي آن واحد - إلى زوال الخير من العالم كله، وترى أن الذي يجب أن يبقى ويسيطر عليه هو الشر وحده، ووحده إلى الأبد. وهيهات هيهات.

فالأمر ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾[النساء: 123] وليأتي لنا الظلمة وأعوانهم، وأزلامهم وأتباعهم مجتمعين بصورة واحدة على مر صفحات التاريخ المسطورة، وكتبه المزبورة، بأنه زال الخير، وبقي الظلم مسيطرًا حتى تلاشى الخير نهائيًا، على أنهم حتى ولو وجدوا - تنزلًا - فأي شيء هذا الذي ذكروه، سيكون بجانب تلك آلاف وآلاف من الصور المخالفة والمناقضة لها، والتي باتت لكثرتها، قاعدة، بل هي سنة من سنن الله الكونية والشرعية، فأي شيء سيكون ما ذكروه بجانب هذا، ولقد علمنا التاريخ - فضلًا عن ما ورد في الشرع من أن العاقبة للمتقين، والبقاء لهذا الدين - أن هذه السياسة الفرعونية الشديد القسوة، قبيحة المنظر، شديدة الدمامة، والحريصة على الظلم: يجب أن تُدمر وتُداس وتنتهي ولا بد في يوم ما، وما تلبث أن تقوم على أنقاضها، وفي إثرها: معالم حياة جديدة، نقيَّة تغير العالم، وتعيد بنائه وصوغه من جديد، وهذا الانكسار والخيبة هما نتاج ونتيجة سياسة:﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾.

- **الوقفة السادسة**: أن هذا النظام الفرعوني الكهنوتي كان أول نظام يسطر هذا القانون المأفون، بهذه الصورة - فيما أعلم - قانون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ ويضمه إلى قانون العقوبات الوضعية، والتي لا تمت إلى الشريعة بصلة، ويجعل فكرة.(تداول الرأي، واختلاف وجهات النظر) جريمة منكرة يعاقب عليها القانون، ويعد كل من قال بها خائن مارق؛ يستحق أن يسجن أو يعذب.

- **الوقفة السابعة**: أن الدكتاتوري أو الظالم المستبد قد يملك ما يؤهله ليكون منطيقًا متكلمًا، يمتلك الأذان ببراعة خطابه وتدليسه، ويأسر الأسماع ويشنفها بكلامه وتلبيسه، لكنه - ينسى أو يتناسى - وأحلاهما مر: أنه لن يملك أبدًا السيطرة على القلوب والعقول والأفكار، إذا ما لاحت الحقائق وأقبلت ركائبه، وتبدى الهدى وقدمت جحافله، وتدفق سيل الإيمان وأسفر صبحه، وهذا ما حصل مع فرعون يوم وقف بوجه موسى - عليه السلام. واللبيب من اعتبر!

- **الوقفة الثامنة**: أن هذا القمع السياسي الفرعوني، والذي مُورس ضد موسى - عليه السلام - واتباعه، هو لا يعدوا أن يكون - في أحسن حالاته - نوبات من الجنون، وضرب من ضروب الهستيريا، تنتاب صاحبها، وهي قد تشيد صروحًا جديدة

للقسوة، وتشمخ لها رموز جديدة، بين الفينة والمينة؛ لكنها متى ظهرت فهي دليل على أن صاحبها بات يفقد وعيه، والإحساس بكينونته الحقيقية، وتسيطر عليه رؤيا التشتت، وتخلي أصحابه عنه، وهذه هي دقات نواقيس الخطر - والتي يخافها الطاغية - وهي المؤذنة - بإذن الله عز وجل - بذهاب دولته وملكه، وزوال سطوته وظلمه، إلى مزبلة التاريخ، ومن غير رجعة.

- **الوقفة التاسعة**: أن فرعون - قد جمع في قوله هذا إلى عناده واستبداده بالرأي - والعزوف عن مذهب الشورى، والرغبة عن نصائح أهل الحل والعقد - داهية دهياء، وطامة عمياء: وهي حصر الرشاد في قوله، والحق في طريقته وسبيله، فسيطرت حظوظ النفس كلها عليه، فحصر ذلك كله، في فلكه وأفقه، على حد المثل العامي القائل: عنزة ولو طارت، ولقد أضحى هذا القول -أعني: قول فرعون- مذهبًا فرعونيًا خبيثًا، التصقت شهرته به. وأصبح شعارًا يضرب به المثل لكل دكتاتوري ظالم مستبد، ومتغطرس فاش، فعوقب بنقيض قصده، والجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، وعلى نفسها براقش جنت.

- **الوقفة العاشرة**: أنه ما درى الطاغية أن ما قاله أبعد ما يكون عن طريق الحق والخير، نابع عن شدة الحسد، والتيه والهوى؛ ولذلك: ﴿أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾، وأنه: قول ليس بسديد، ونصح ليس بصالح ولا حميد، والنتيجة الحتمية كانت: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[هود: 96]. فالرشد كل الرشد في عبادة الله - عز وجل - واتباع أنبيائه - عليهم السلام - والعاقبة لأهل التوحيد، ولذلك كانت آراءهم - أعني الطغاة - وأمثالهم وأقوالهم المغرورة، مذعورة مطمورة.

- **الوقفة الحادية عشر**: أنه عمد إلى تسمية الأشياء بغير مسمياتها الحقيقية، قاصدًا من ذلك: التعمية والتلبيس، والإضلال والتدليس، وهذا مذهب خبيث خسيس، كثيرًا ما يفلح مع الهمج الرعاع، أتباع كل ناعق، الذين لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، وتتعاظم عليهم الحسرة من وجوه اتباعه وفق:

1 - أن قول فرعون هذا كان منه: تجهيلاً لمتبعيه، واستخفافًا بهم، ليس إلا؛ ليطيعوه قال الله - عز وجل: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾)الزخرف: 54)

2 - أنه بسبب مواقفهم؛ استحقوا ما وصفهم الله - عز وجل - ووصمهم به، حيث قال - عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف 54)

3 - أنه كما كان قائدهم في الدنيا وأطاعوه على كفره وظلمه واستبداده، كانوا تبعًا له في الأخرة كما قال الله - عز وجل-: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وشتان بين من كان يقدمهم الأنبياء والصالحين، وبين من يقدمهم الأغبياء الوثنيين.

4 - أنهم لما ﴿اتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ لا جرم أنهم استحقوا ما توعدهم به الله - عز وجل. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾(هود: 99) فانظر إلى ما أقحمهم فيه، وأي حسرة ستلحق بهم. نعوذ بالله من الجهل والتبعية، والهوى والعصبية، لا ننسى أن ننوه أنه ومع اغترار قومه بقوله، إلا أن هذا لم ينطلي أبدًا على من رزقه الله - عز وجل - فهمًا وعلمًا، وعقلًا وعملًا؛ كمؤمن آل فرعون مثلًا.

- **الوقفة الثانية عشر**. أن هذه السياسة، سياسة: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، في كثير منها، بل دائمًا ودومًا ما تقوم على الكذب فهو الأساس الذي تنبني عليه، وتقوم به، وهو - أي: الكذب - كما نرى ما بنى فرعون عليه سياسته ونظامه، وقد ظهر هذا جليًا من خلال أقواله وأفعاله، بل وحتى من خلال شخصيته.

- الوقفة الثالثة عشر: أن الدكتاتوري فرعون صاحب سياسة: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ بين حقيقة ما يحرك ضغائن الطغاة والدكتاتوريين، ويظهر حسدهم، وغلهم وحنقهم، ألا وهو ظهور الحق - وقارن بما سبق -، وما ذلك إلا لكراهيتهم له ونفورهم من تمكنه، ومن ثم تطبيقه. وأنهم على إثر هذا تمامًا يتخذون مواقفهم تلك - بسرعة وبصرامه -. بصرف النظر وقطعه، عن طبيعة ذلك الموقف وحقيقته. وهم لن يجدوا في أنفسهم حرجًا من سلوك أي سبيل في سبيل ألا يكون ذلك - كما نبهنا سابقًا - والمهم عندهم ألا ترفع للحق راية، ولا يعلو له لواء؛ ولذلك يكون منهم هذا التصرف السادي الجبان. وقديمًا قيل: هيبة الزلل تورث حصرًا، وهيبة العاقبة جبنًا، ومن كذب فليراجع التاريخ، ولينظر ما نحن فيه اليوم!!

- **الوقفة الرابعة عشر**: أنه بين - أيضًا - منهج أهل سياسة: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ مع اتباعهم: أنهم يعمدون إلى إكراههم على ما يعتقدون، ويفرضونه عليهم فرضًا، ويلزمونهم بالأخذ به عنوة وبقوة - لا عن اقتناع - وإن كان الذي يعتقدون أو يرون، لا تستسيغه الفطر ولا تقبله العقول، بل ربما عمدوا مع ذلك كله، إلى

ابتكار الحيل، لكبت الحريات، وتضييق الخناق عليها، وفرض المعتقدات الفاسدة، ورسوم الوثنية الكافرة.

- **الوقفة الخامسة عشر:** أن حجة فرعون - في قتل موسى - كانت ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾(غافر:26) وهذا مما يعظم به الأمر، ويبلغ معه السيل الزبى، وهذه والله هي ألفاظ الجبابرة المتغطرسين؛ وكلمات القساة المتكبرين، ولغة الطغاة المكذبين؛ لإنفاذ أوامرهم، وهي إحدى عباراتهم التي مُلئت من مثلها قواميسهم، وهم بها ينصبون لمن خالفهم الحبائل، ويبغون لهم الغوائل، ويرمون عن قوس واحدة، هي قوس رمي أهل الحق بالتهم الباطلة جزافًا، ودون حرج، بل يزيد العجب ولا يكاد ينقضي إذا علمت أنهم يرمون أهل الحق، بما هو فيهم من الباطل؛ وهذا هو منطق المعادين لله - عز وجل - ولدينه في كل مكان وزمان، ولا ندري ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾(الذريات: 53) ووالله لكأنّما لَقّن بعضُهم بعضًا ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(البقرة:118).

- **الوقفة السادسة عشر:** أن قوله هذا هو قمة التهريج، والسفه والتيه، فانظر كيف زعم عدو الله - قاتله الله - أنه واعظ ومذكر، فقبحه الله من واعظ ومذكر. إذ كيف يصبح فرعون واعظًا ومذكرًا؟!! و«هل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال [الوثني]، عن موسى - عليه السلام - الرسول الموحى إليه من الله - عز وجل - تلك المقالة؟! أوليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد، عن كل داعية مصلح؟ أليست هي كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث، لإثارة الشبهات في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة تعرض بين الحين والحين» وهذا والله منطق الطغيان الغليظ، كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، وركب موجة الفساد، عنده وعند أمثاله. وهذا يذكرني بما فعله أبو جهل، حين قنت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم التقى الجمعان، وقال «اللَّهُمَّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة» - يدعو - زعم - على فاعل هذا!!

-**الوقفة السابعة عشر**: أنه من هذه المقولة اشتق كل ظالم وطاغية ومستبد شعاراته فمن مقل ومستكثر، فهم منها ينهلون، وإليها راجعون، فعلى أصحاب هذا المنهج، وهذه الدعوات، أن يستفيقوا من سباتهم، ويصحوا من رقدتهم، وينظروا إلى حقيقة الأمر، ويحسنوا التقويم والتقدير. وهنا نهيب بكل من رضي لنفسه أن يكون فرعونيًا، ومبدأه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ وشعاره:﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: 29)، مع أن الظلم ديدنه، والسيطرة منهجه، من يحب أن يفنى الناس في شخصه، ولا يشاور ولا يقبل النصح. من يسعى إلى الحجْر على العقول والآراء، وتطبيق هذه السياسة الفرعونية، والفاشية التي لا تقبل بالآخر، ولا تعيره انتباه، بل تحقره وتضطهده، ومن يستعمل لفرض رأيه، وإمرار فعله كافة الأساليب الوحشية؛ لتكميم الأفواه، ومصادرة الحريات، وقمع الأخيار والمصلحين، ويبرر ذلك ومواقفه أمام الغير: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ما أشبه دعواهم هذه بدعوى فرعون، وما أنتن هذا الصنبور المنبتر، والقول الأبتر، إلى كل هؤلاء أقول: إنه وإن كان هذا المنهج يستهويكم، فعما قريب سيضر ويسحق، فطوبى لمن كانت له في غيره عبرة، ومنها اعتبر.

-**الوقفة الثامنة عشر**: أن الشعارات يجيدها الجميع، لكن العبرة دومًا بالحقائق والبينات، ألسنا نرى أن فرعون قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر: 29)، وأن مؤمن آل فرعون قال:﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فبأي شيء يعرف المحق منهما من المبطل؟! وهل يكون هذا إلا بالحقائق والعمل، والبينات والتطبيق، والنظر في تاريخه السابق، وما يقوم به في اللاحق، ومعرفة موقعه من نصوص الوحيين قبولًا وردًا، وعلمًا وجهلًا، وعملًا وتركًا؟!

-**الوقفة التاسعة عشر**: أن هذه المقولة مقدماتها هفوة، وأواخرها زندقة، فأمَّا كونها هفوة فلأننا لم نعهد - أبدًا - أحدًا من الخلفاء الأوفياء، وقادة الأمة العظماء، والذين شيدوا معالم الدين ورفعوا راياته، قال مثل هذه القولة، أو فعل مثل هذه الفعلة، وأما كونها زندقة؛ فلأنها تجر إلى إطراح كلام أهل العلم والحل والعقد، وواجهة الدين وحملته، والمفكرين والأدباء، والمثقفين والكبراء، بل في أحيان كثيرة إلى معاداتهم وحربهم، وما معهم من الحق وما يحملون من البينات، ولا شك أن في هذا - كما هو ظاهر - إسقاط للشرائع، وتعطيل الأحكام، على المسلمين العوام.

دوافع فرعون لتطبيق نظريته

1 - الوسائل التي استعملها من بينها الإغتيال والقتل والترهيب، السيطرة والحصار الإقتصادي والعسكري والإعلامي، التشهير والكذب، المراوغة الكلامية، التضليل والتلفيق، التخويف الكلامي والمادي التسلية والاستهراء والسخرية لتجهيل وتضليل القوم.

2 - أن هذه النظرية أثرت على نوعين من الجمهور (الجمهور من ملأ فرعون) و(جمهور من بني إسرائيل) ودرجة تأثير هذه النظرية على كل منهما ترغيبا وترهيبا.

3 - أن النظرية الفرعونية قوبلت بنقيضتها فكل وسيلة قوبلت برد إلهي أعظم منها ناهيك على الوسيلة الاتصالية والإعلامية التي اتبعها موسى عليه السلام لمواجهة هذه النظرية والوسائل الإعلامية والاتصالية التي استعملها فرعون لترسيخ هذه النظرية.

4 - مجالس مجادلة ومراء: الحوار مع قومه من جهة والحوار مع موسى عليه السلام، وذلك بالقيام بمجالس مجادلة ومراء.

5 - ان هذه النظرية مهدت لنهايتها أي صعودا نحو الأسفل والنهاية التي آلت إليها.

الخاتِـمَة

يقول الإعلامي دان هريس: «أعددنا تقارير هائلة عن الحرب، أعجبت رؤساءنا الذين تفتح شهيتهم الأخبار الساخنة، ولكنهم لم يبثوها، لأنهم لا يبثون ما نراه ونسجله إنما ما يريدونك هم أن تراه»، هناك حقائق كارثية صادمة لو أزيل عنها الحظر الإعلامي، لصدمتنا، فالإبهار ليس هو الهدف، ولا الدعاية، إنما تكريس الأكذوبة بفن وحرفية مخادعة تلهيك عن الحقيقة وتساهم في التجهيل وتزييف الوعي، فلم يعد أداء الميديا الإعلامية يقاس من ناحية الاكتمال او التكامل أو الوجاهة التي تتسم بها المعلومات بل على اساس صحة المعلومات، وعليه فالمعلومات الكاملة يمكن ان تعوق بدلا من ان تدعم الاصلاحات التي تتم بواسطة حكومة ديمقراطية، وخاصة ما يرتبط بـ (آليات الدفاع الذاتية) لتأمين وحماية الديمقراطية، لتصبح عبارة مسؤولية الإعلام مجرد كلمة رمزية في وجود القيود المفروضة على الإعلام الخبري حتى لا نقول الرقابة؟ لأن في كل لحظة تدور حوارات بالغة الحماس بشأن حدود حرية الإعلام والصحافة الحرة التي تعيش توازنا مرهفا مع القيم المتنافسة التي تنحو نحو فرض قيود على حرية الإعلام من اجل منع تهديد يلحق بالنظام العام او لحماية امن الدولة او اطراف ثالثة، لكن فيما يتم تحديد بعض الاهداف "المتنافسة" بصورة واضحة "مثل حماية الخصوصية" فإن هدف "تعزيز الديمقراطية" يظل واسع النطاق ويبقى محملا بعناصر معنوية بما قد يحول دون وضعه موضع التنفيذ.[709] وعلى الرغم من وجود العديد من النظريات التي تسعى لتفسير علاقة الجمهور بوسائل الاتصال؛ مثل: نظرية التماس المعلومات، ونظرية

(709) مجموعة مؤلفين بإشراف كاترين فولتمر، وسائل الاعلام الجماهيرية والاتصال السياسي في الديمقراطيات الجديدة، مصدر سبق ذكره، ص110

الاعتماد على وسائل الاتصال؛ لكن نظرية الأطر تبقى أكثر النظريات تأثيرًا في فهم الجمهور للمعلومات المقدمة عن موضوع ما، وتكوين أحكامه واتجاهاته بشأنها، إذ أن الملامح الاساسية للحياة الانسانية قد اصابتها تغييرات جوهرية يتم ملاحظتها بشدة فيما يتعلق بالاتصال والاجتماع بين أفراد المجتمع، فالمجتمع المعاصر/الافتراضي تبدلت وسائل الاتصال فيه بأخرى شبيهة لها في المضمون، فعلى سبيل المثال استبدلت الرسائل الخطية بالرسائل الالكترونية، والجلسات العائلية والاجتماعية بالدردشة، التي يبدو من المستحيل أن تتوقف، فلا الزمان ولا المكان أصبح لهما من تأثير يذكر، فلم يعد شرطا لأن تتواصل مع المجتمع أن تتواجد بجسدك في المكان الذي يتواجدون فيه، حتى ولو كان هذا المجتمع في اليابان وانت في مصر، إذ ان المجتمع الجديد قد تجاوز الزمان والمكان، فيما يكون الفرد بداخل هذا المجتمع، فإنه يصبح في اللامكان واللازمان.

يقول الفن توفلر (Alvin Toffler) المؤمن بالنظرية المستقبلية ومبتكر مصطلح "صدمة المستقبل": أن قوة السينما او برامج التلفزيون يمكنها ان تنقلك إلى واقع بديل بدون مخاطر النزوح وعدم الاستقرار والامان الذي يصاحب التغيير، فالإعلام يختلف دوره بين الرغبة في تبصير وتنوير المجتمع بما يتماشى مع المدنية الحديثة سعياً الى جعله يمتلك القدرة على تلمس كل ما يؤدي الى حدوث تطور في بناء الانسان فكرياً، بما يجعله مؤهلاً كي يعكس سلوكه المثالي في الكثير من جوانب حياته الاجتماعية والاكاديمية والعملية وغيرها، ومنحه الفرصة للتعبير عن امكانياته الذاتية وتوظيفها لصالح بلده، والمجتمع الذي يعيش في كنفه، مستثمراً فرصة التفاعل الايجابي مع كل ما تفرزه التطورات التي تحصل هنا وهناك، وهو ما يطلق عليه بالإعلام التنويري الهادف وهذا عادة (يخاطب العقل اكثر من العاطفة)، لأن الاعلام لا يخبرك أيهما عدوك، إنما يشدك إلى طرفه كي تقف معه في مواجهة عدوه؛ تغيب التوعية الإعلامية تماما، وتحل محلها الجبهوية، والمراشقات الثأرية، والنفاق الاجتماعي الخسيس، والاكتفاء بالجهل، والاستغناء عن الحقيقة، والشتات

العاطفي والتاريخي، بين تضارب القيم، حيث يتذرع باعة الضمير بالسلام لخرق الخطوط الوطنية والإنسانية، في سبيل مصالح شخصية وآنية، فلا تبيض وجوه ولا تسود أخرى، إنما يتساوى الجميع في موت حيادي، يصنف البطل حسب الهوية الإعلامية لفريقه، بعيدا عن الاعتبار الوطني والتاريخي لجحيمه.

وعليه لم تكتف وسائل الإعلام ومن وراءها بعملية الاستيلاء هذه بل قامت بجهد كبير في صناعة وعي الجمهور من خلال تجهيله أولا وكي وعيه وتنميط عقله وتحويله لشخصية أحادية التفكير، ثم بعد ذلك بنت على ذلك وعيه الجديد وفق استراتيجياتها الاقتصادية والفكرية والسياسية، من خلال أساليب التضليل والارهاب والطغيان، فتحولت أغلب المجتمعات العربية تحت ضربات الحداثة والعلمنة إلى مجتمعات إستهلاكية شبيهة في نمط معيشتها بالمجتمعات الغربية، بعد أن كرس الاعلام ثقافة الانهزام النفسي في وعي العربي وكرست غلبة الغرب في كل شيء كفهم قهري غير قابل للنقاش، وتحول مفهوم الحضارة والحضاري من منجزات معرفية حقيقية منشؤها السؤال وأدواتها العقل والحوار وأولياتها العدالة والكرامة ورفض الهيمنة والاستعمار، إلى حضارة الصناعة والرأسمالية والاستهلاك والتقليد في اللباس والمسكن والتعليم وكل ما يمكن التشبه به بالواقع الغربي حتى إستيراد الأفكار حول الدين ونظام الحكم لتلبيسها لعالمنا المختلف في الهوية والقواعد الفكرية والثقافة والقابليات، بخطاب إعلامي موبوء، وتعذر الحلم في بناء وحدوي يتنافس على التطور الحضاري العربي الذي جاءت به العرب منذ الآف السنين.

تم بحمد الله